سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٦١٩)

والحكمة في ذلك

من استنباطات المفسرين
في مصنفات التفسير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

https://t.me/dralhoshan تليجرام

١-"١٣ و شراه و اشتراه: باعه قال الله تعالى: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) (البقرة : ٢٠٧) ، وقال تعالى: (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) (يوسف : ٢٠) أي باعوه ، وقوله عز وجل: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) . والعرب تقول لكل من ترك شيئا وتمسك بغيره قد اشتراه .اهـ (لسان العرب ٤٢٧/١٤).

قلت : ومن البلاغة في هذه السورة ذكر البيع بلفظ (وشروه) والشراء بلفظ (وقال الذي اشتراه) فميز بين المعنيين باختلاف مبنى اللفظين .

١٤ و هذا في اللغة يسمى (الأضداد) مثل (قرء يطلق على الحيض و على الطهر) (يطيقونه أي يطيقونه ولا يطيقونه) أي إن الكلمة تأتي بمعني ويمكن أن تأتي بضده في موضع أخر.

١٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعط أجره) (رواه البخاري / البيوع / باب إثم من باع حرا/ ح ٢١١٤) .

١٦ و **الحكمة في ذلك** : أنه على الرغم من تربيته في بيت عز إلا أنه لم يفتن بذلك لا قبل سجنه ولا بعد خروجه منه و تمكنه من خزائن مصر ، و فيه أيضا أنه لا حجه لمن قال أن التدين يكون للفقراء فحسب دون الأغنياء .

١٧ عن عقبة بن عامر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إياكم والدخول على النساء . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال الحمو الموت) (رواه البخاري /ح٤٩٣٤) ، (ومسلم / ٥٦٣٨) ، والترمذي (١١٧١)". [1]

٢-"﴿ خلائف ﴾ ﴿ درجات ﴾ ﴿ آتاكم ﴾

(١٦٥) - والله ربكم ورب كل شيء ، هو الذي استخلفكم في الأرض ، وجعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل ، وخلفا بعد سلف ، وقد فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ ، والمناظر والأشكال والألوان . . . وله **الحكمة في ذلك** ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ، ويمتحنكم به ، فيختبر الغني في غناه ، ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ويسأله عن صبره .

ويرهب الله تعالى العباد ويرغبهم ، فيقول تعالى : إن حسابه وعقابه لمن خالف رسله وكذب بآياته ، سريعان ، وإنه غفور رحيم لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من الخير ، ولمن تاب وأناب وأحسن العمل .

خلائف الأرض - يخلف بعضهم بعضا في الأرض .

---

(١) ١٠٠ فائدة من سورة يوسف ص/٥١

ليبلوكم – ليختبركم .". (١)

٣-"﴿ بالحياة ﴾ ﴿ الحياة ﴾ ﴿ الآخرة ﴾ ﴿ متاع ﴾

(٢٦) – وإذا كان هؤلاء المشركون يستعلون ، بأموالهم ، على المسلمين الفقراء فليعلموا أن الله هو الذي يبسط الرزق ويوسعه على من يشاء ، ويقتر الرزق على من يشاء (ويقدر) ، لما له من **الحكمة في ذلك** ، وهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد والميثاق يفرحون بما بسط الله لهم من الرزق ، وبما آتاهم في الحياة الدنيا استدراجا وإمهالا ، مع أن الله يعطي الدنيا المؤمن وغير المؤمن ، فلا يظنن أهل المال أن كثرة المال في أيديهم دليل على أنهم على حق .

ثم يقول تعالى لهؤلاء مصغرا شأن الدنيا : إن الدنيا ليست شيئا يذكر بالنسبة إلى الآخرة ، وإن هي إلا متاع سريع الزوال .

(ويروي أن رسول الله A مر بجدي صغير الأذنين ميت وملقى في الطريق فقال : " والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه ") . (رواه مسلم) .

يقدر – يضيق على من يشاء لحكمته .

متاع – شيء قليل ذاهب زائل .". (٢)

٤-"(٢٥) – ثم إن الله تعالى يبعث المتقدمين والمتأخرين مرة أخرى ، ويحشرهم إليه ، يوم القيامة ، ليحاسبهم على أعمالهم ، وله **الحكمة في ذلك** ، وهو عالم بهم جميعا .". (٣)

٥-"(٣٠) – إن ربك أيها الرسول يبسط الرزق لمن يشاء ، ويوسع عليه ، ويقتر على من يشاء ويضيق عليه ، لما له من **الحكمة في ذلك** ، وهو خبير بعباده ، فيعرف من يصلحه الغنى فيغنيه ، ومن يصلحه الفقر . . وهو بصير بتدبيرهم وتصرفهم .

(وفي الحديث : " إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ") .

يقدر – يضيق على من يشاء لحكمة .". (٤)

٦-"﴿ واحدة ﴾ ﴿ الظالمون ﴾

(٨) – ولو شاء الله لجعل الناس جميعا أمة واحدة ، لا اختلاف بينهم ، ولجمعهم على الهدى أو على الضلالة ، ولكنه

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص/٩٥٥

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص/١٧٣٤

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص/١٨٢٨

(٤) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص/٢٠٦٠

تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من شاء عنه ، وله **الحكمة في ذلك** . فقد شاء الله أن يكون الإيمان مبنيا على التكليف والاختيار ، يدخل فيه المرء بطوعه واختياره ، ونتيجة تأمله في الأدلة الموصلة إلى الهدى ، وقد أعد الله تعالى للكافرين ، الظالمين أنفسهم بكفرهم ، عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من ينصرهم من الله ، أو يجيرهم من عذابه ، فلا تهلك نفسك يا محمد أسى وحزنا على أن لم يكونوا مؤمنين .". (١)

٧-"معنى الآية:

يأمر تعالى رسوله أن يذكر قوله للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة يخلفه في إجراء أحكامه في الأرض، وإن الملائكة تساءلت١ متخوفة من أن يكون هذا الخليفة ممن يسفك الدماء ويفسد في الأرض بالكفر والمعاصي قياسا على خلق من الجن حصل منهم ما تخوفوه. فأعلمهم ربهم أنه يعلم من الحكم والمصالح ما لا يعلمون.

والمراد من هذا التذكير: المزيد من ذكر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة للإيمان به تعالى ولعبادته دون غيره.

هداية الآية:

من هداية الآية:

١- سؤال من لا يعلم غيره ممن يعلم.

٢- عدم انتهار السائل وإجابته أو صرفه بلطف.

٣- معرفة بدء الخلق.

٤- شرف آدم وفضله.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين(٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم(٣٢) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون(٣٣)﴾

---

١ إذ هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك**، وليس هو من باب الاعتراض على الله أبدا.". (٢)

٨-"معنى الآيات:

كأن المشركين قالوا شامتين إن محمدا سيموت، وقالوا نتربص به ريب المنون فأخبر تعالى أنه لم يجعل لبشر من قبل نبيه ولا من بعده الخلد حتى يخلد هو صلى الله عليه وسلم كل نفس ذائقة الموت، ولكن إن مات رسوله فهل المشركون يخلدون

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص/٤١٥٩

(٢) أيسر التفاسير للجزائري ٤١/١

والجواب لا، إذا فلا وجه للشماتة بالموت لو كانوا يعقلون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٤) ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم١ الخالدون﴾ وقوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت٢﴾ أي كل نفس منفوسة ذائقة مرارة الموت بمفارقة الروح للبدن، **والحكمة في ذلك** أن يتلقى العبد بعد الموت جزاء عمله خيرا كان أو شرا، دل عليه قوله بعد: ﴿ونبلوكم بالشر والخير﴾ من غنى وفقر ومرض وصحة وشدة ورخاء ﴿فتنة﴾ أي لأجل فتنتكم أي اختباركم ليرى الصابر الشاكر والجزع الكافر. وقوله تعالى: ﴿وإلينا ترجعون﴾ أي بعد الموت للحساب والجزاء على كسبكم خيره وشره.

وقوله تعالى: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا﴾ يخبر تعالى رسوله بأن المشركين إذا رأوه ما يتخذونه إلا هزوا وذلك لجهلهم بمقامه وعدم معرفتهم فضله عليهم وهو حامل الهدى لهم، وبين وجه استهزائهم به صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي بعيبها وانتقاصها، قال تعالى: ﴿وهم بذكر الرحمن٣ هم كافرون﴾ أي عجبا لهم يتألمون لذكر ألهتم بسوء وهي محط السوء فعلا، ولا يتألمون لكفرهم بالرحمن ربهم سبحانه وتعالى حتى إنهم أنكروا أن يكون اسم الرحمن اسما لله تعالى وقالوا لا رحمن إلا رحمن اليمامة.

وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان٤ من عجل﴾ قال تعالى هذا لما استعجل المشركون

---

١ الاستفهام مقدر أي: أفهم الخالدون؟ وهو للنفي والإنكار كقول الشاعر:

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع

فقلت وأنكسرت الوجوه هم هم

أي: أهم؟ ومعنى رفوني سكنوني يقال رفاه إذا سكنه.

٢ يروى أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قد استشهد بالبيتين الآتيين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى

تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

٣عجبا لجهلهم وسوء فهمهم يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم يجحدون إلهية الرحمن إن هذا لغاية الجهل والغرور.

٤ إن طبع الإنسان العجلة إنه يستعجل الأشياء وإن كان فيها مضرته، ولفظ الإنسان جائز أن لا يكون المراد به جنس الإنسان أو آدم عليه السلام قال سعيد بن جبير لما دخل الروح في عين آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك قوله تعالى ﴿خلق الإنسان من عجل﴾.". (١)

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٤١٢/٣

٩-"خامسا: ذكر عدد الحراس القائمين على سقر، وأنهم تسعة عشر من الملائكة.
سادسا: بيان أن ذكر عدد الذين يقومون على النار امتحان للفرق الأربع التي كان يتألف منها أهل بيئة النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي المؤمنون، والكتابيون والكافرون، ومرضى القلوب.
سابعا: بيان **الحكمة في ذلك** وهي حصول اليقين لليهود والنصارى بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لموافقة ما في القرآن لكتبهم.
ثامنا: أن المؤمنين الذين آمنوا في الأصل بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وصلته بالله، فيتلقون الخبر بالتصديق والتسليم، وبذلك يزدادون إيمانا.
تاسعا: أن الذين يقفون موقف الشك والاستخفاف والاستهزاء هم الكفار ومرضى القلوب؛ لأن موقفهم غير صادر من علم ونية وعقيدة وإيمان.
عاشرا: التثبيت للنبي - صلى الله عليه وسلم - والتنويه بالمؤمنين.
حادي عشر: الإنذار للكفار ومرضى القلوب.
ثاني عشر: بيان أن الإضلال والهداية بإرادة الله، يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.
الأدلة لما تقدم:
قال تعالى: ﴿ وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ الآيات.
١٩٨٤- ١٩٩٤- من هدي القرآن للتي هي أقوم، ما يلي:
أولا: بيان أنه ما يعلم عدد خلق الله ومقدار جموعه من الملائكة وغيرهم إلا الله وحده، لا يقدر على علم ذلك أحد.
ثانيا: الحث على التذكر والتفكر والاتعاظ وإتباع ما ينفع واجتناب ما يضر.". (١)

١٠-"وقال محمد بن كعب القرظي : بأسماء أمهاتهم ، فيكون جمع " أم " ، كخف وخفاف ، لكن في الحديث : " إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم " ، ولعل ما قاله القرظي مخصوص بأولاد الزنا. وفي البيضاوي : قيل : بأمهاتهم ، **والحكمة في ذلك** : إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين ، وألا يفتضح أولاد الزنى. هـ.
وقال أبو الحسن الصغير : قيل لأبي عمران : هل يدعى الناس بأمهاتهم يوم القيامة أو بآبائهم ؟ قال : قد جاء في ذلك شيء أنهم يدعون بأمهاتهم فلا يفتضحوا. وفي
١١١
البخاري - باب يدعى الناس بآبائهم - ، وساق حديث ابن عمر : " ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. يقال : هذه

---

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ٣/٣٧٦

غدرة فلان ابن فلان " ، فظاهر الحديث أنهم يدعون بآبائهم ، وهو الراجح ، إلا فيمن لا أب له. والله تعالى أعلم.
ثم قال تعالى : ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه﴾ أي : فمن أوتي صحيفة أعماله ، يومئذ ، من أولئك المدعوين بيمينه ؛ إظهارا لخطر الكتاب ، وتشريفا لصاحبه ، وتبشيرا له من أول الأمر ، ﴿فأولئك يقرؤون كتابهم﴾ المؤتى لهم. والإشارة إلى " من " : باعتبار معناها ؛ لأنها واقعة على الجمع ؛ إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل ، وإشعارا بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع ، لا على وجه الانفراد ؛ كما في حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد ؛ إشعارا برفع درجاتهم ، أي : أولئك المختصون بتلك الكرامة ، التي يشعر بها الإيتاء المذكور ، يقرأون كتابهم ﴿ولا يظلمون فتيلا﴾ ؛ ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة في صحيفتهم أدنى شيء ، فإن الفتيل – وهو : قشر النواة – مثل في القلة والحقارة.
جزء : ٤ رقم الصفحة : ١١١
". (١)

١١-"الإشارة : قد تقدم في سورة " طه " بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد ، بعد كمال تربيته ، كمال ، وأما قبل كماله : فإن كان بإذن شيخه ؛ فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره. وقوله تعالى : ﴿وسار بأهله﴾ ؛ قال الورتجبي : افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار. هـ. وقوله
٢٦٤
تعالى : ﴿آنست نارا﴾ ؛ قال الورتجبي : **الحكمة في ذلك** : أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة ، لذلك تجلى النور في النار ؛ لاستئناسه بلباس الاستئناس ، ولا تخلوا النار من الاستئناس ، خاصة في الشتاء ، وكان شتاء ، فتجلى الحق بالنور في لباس النار ؛ لأنه كان في طلب النار ، فأخذ الحق مراده ، وتجلى من حيث إراداته ، وهو سنة الله تعالى. هـ.
وقوله تعالى : ﴿من الشجرة﴾ ؛ أي : نودي منها حقيقة ؛ إذ ليس في الوجود إلا تجليات الحق ومظاهره ، فيكلم عباده من حيث شاء منها. قال في العوارف : الصوفي ؛ لتجرده ، يشهد التالي كشجرة موسى ، حيث أسمعه الله خطابه منها ، بأني أنا الله لا إله إلا أنا. هـ. فأهل التوحيد الخاص لا يسمعون إلا من الله ، بلا واسطة ، قد سقطت الوسائط في حقهم ، حين غرقوا في بحر شهود الذات ، فافهم. وقال في القوت : كانت الشجرة وجهة موسى عليه السلام ، كلمة الله عز وجل منها ، كما قال بعضهم : إن قوله تعالى : ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ [الأعراف : ١٠٧ ، والشعراء : ٣٢] ، أي : بالجبل ، كان الجبل من جهة الحس حجابا لموسى ، كشفه الله عنه ، فتجلى به ، كما قال : ﴿من الشجرة﴾ ؛ فكانت الشجرة وجهة له عليه السلام هـ ، بإيضاح. والله تعالى أعلم.
جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٦٢

---

(١) البحر المديد. ٤/١٥٦

". (١)

١٢-"ثم بين الموسوس بقوله : ﴿من الجنة﴾ أي : الجن ﴿والناس﴾ ووسواس النار أعظم ؛ لأن وسواس الجن يذهب بالتعوذ ، بخلاف وسوسة الناس ، والمراد بوسوسة الناس : ما يدخلون عليك من الشبه في الدين ، وخوض في الباطن ، أو سوء اعتقاد في الناس ، أو غير ذلك.

قال ابن جزي : فإن قلت : لم ختم القرآن بالمعوذتين ، وما **الحكمة في ذلك** ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه ، الأول : قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لما كان القرأن من أعظم نعم الله على عباده ، والنعمة مظنة الحسد ، ختم بما يطفىء الحسد ، من الاستعاذة بالله. الثاني : يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما : " أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط "كما قال في فاتحة الكتاب : " لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها " فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها ، واختتم بسورتين

٣٧٨

لم ير مثلهما ، للجمع بين حسن الافتتاح والاختتام. ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد ، وغير ذلك من أنواع الكلام ، ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها.

والوجه الثالث : أنه لما أمر القارىء أن يفتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن ، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء ، فيكون القارىء محفوظا بحفظ الله ، الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره. هـ.

الإشارة : لا ينجي من الوسوسة بالكلية إلا التحقق بمقام الفناء الكلي ، وتعمير القلب بأنوار التجليات الملكوتية والأسرار الجبروتيه ، حتى يمتلىء القلب بالله فحينئذ تنقلب وسوسته في أسرار التوحيد فكرة ونظرة وشهودا للذات الأقدس ، كما قال الشاعر :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧٧

إن كان للناس وسواس يوسوسهم

فأنت والله وسواسي وخناسي". (٢)

١٣-"السموات وما في الأرض كل بآية: أن ملكا لاخترأعا وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعا عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدمموتقريعهم (٢١؟) بحسب ما شاء، فكان قد قيل إذا كانوا له- وملكا وعبيدا أفلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من تيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شابه بهم على فهم علته أو استطلاع سببه (٢٢؟)/ بل يفعل بهم

---

(١) البحر المديد. ٤٠٥/٥

(٢) البحر المديد. ٥٦٣/٨

ما شاء وإراد من غير حجر ولا منع وهو المجد الخبير و!٤ **الحكمة في ذلك** الي خفيات عنكم، ياشار قوله: "وله الحمد في الآخرة" لآية: أي إلى أنه سيطلع عباده الآمنين من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجز(ء وعظيم الثو(ب في الآخرة على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا وفت به أفكارهم "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ".

ثم اتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته

وعلمه فقال تعالى: "يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وإلى قوله) (٣٢؟) وهو الرحيم (الغفور) (٣٢٠) " لآية: ٢)، فبرحمته وغفر(نه أنال عباده الآمنين/ ما خصهم به و(عطاهم، فله الحمد الذي هو أهله، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب كفر مع عظيم اجتر(ئهم لتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى: "وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة وإلى قولهم: إن في ذلك لآيات لكل عبد منيب كل بالآيات: !٩) أي أن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واس!ائهم في قولهم: (٣ء) "لا تأتينا الساعة" وتوله: "هل ندلكم على رجل ينبوبم إذا مزقت كل ممزق إنكم لفي خلق جديد" لآية: ٧) وإغرائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض ثامنهم أخذهم من أحط الجهات، ففي إمهالهم و(در(ر أرزاقهم مع عظيم مرتكبها آيات لمن أناب (و(عتبر) (٣٢٦)، ثم بسط

(٥!٢) ب: !العريفهم.

(٥٢٢) أ: استطاع سبب.

(٥٢٣) فائدة لأن الآية متصلة وليس فيها حدة. (٣٢٤) أ: ساقطة.

(٣٢٣) !: قوله.

(٥٢٦) ب: ساقطة.

- !!٢-". (١)

١٤-"بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة: من الآية٤٤] فإذا ظن أحد أن من للشرط أشكل عليه كيف يكون الجور في الحكم كفرا، ثم إذا علم أن سبب النزول هم النصارى علم أن من موصولة وعلم أن الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجب منهم أن يكفروا بمحمد. وكذلك حديث عبد الله بن مسعود قال لما نزل قوله تعالى ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ [الأنعام: من الآية٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم ظنوا أن الظلم هو المعصية. فقال رسول الله: "إنه ليس بذلك؟ ألا تسمع لقول لقمان لابنه ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ " [لقمان: من الآية١٣]. ومن هذا القسم ما لا يبين مجملا ولا يؤول متشابها ولكنه يبين وجه تناسب الآي بعضها مع بعض كما في قوله تعالى، في سورة النساء:[٣] ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ الآية، فقد تخفي الملازمة بين الشرط وجزائه فيبينها ما في الصحيح، عن عائشة أن عروة بن الزبير سألها عنها فقالت: هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا

---

(١) البرهان في تفسير سور القرآن ص/٣٦١

لهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

هذا وإن القرآن كتاب جاء لهدي أمة والتشريع لها، وهذا الهدي قد يكون واردا قبل الحاجة، وقد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غيرهما، وقد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية، **والحكمة في ذلك** أن يكون وعى الأمة لدينها سهلا عليها، وليمكن تواتر الدين، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط، وإلا فإن الله قادر أن يجعل القرآن أضعاف هذا المنزل وأن يطيل عمر النبي صلى الله عليه وسلم للتشريع أكثر مما أطال عمر إبراهيم وموسى، ولذلك قال تعالى ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ [المائدة: من الآية٣]، فكما لا يجوز حمل كلماته على خصوصيات جزئية لأن ذلك يبطل مراد الله، كذلك لا يجوز تعميم ما قصد منه الخصوص ولا إطلاق ما قصد منه التقييد؛ لأن ذلك قد يفضي إلى التخليط في المراد أو إلى إبطاله من أصله، وقد اغتر بعض الفرق بذلك. قال ابن سيرين في الخوارج: إنهم عمدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير بالذنب، وقد قال الحرورية لعلي رضي الله عنه يوم التحكيم ﴿إن الحكم إلا لله﴾ [الأنعام: من الآية٥٧] فقال علي كلمة حق أريد بها باطل وفسرها في خطبة له في "نهج البلاغة".

وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث". (١)

١٥-"هذا ملاك هاته المسألة على وجه يلتئم به متناثرها، ويستأنس متنافرها. وبقي أن نبين لكم وجه تعلق التكليف بمن علم الله عدم امتثاله أو بمن أخبر الله تعالى بأنه لا يمتثل كما في هاته الآية، وهي أخص من مسألة العلم بعدم الوقوع إذ قد انضم الإخبار إلى العلم كما هو وجه استدلال المستدل بها، فالجواب أن من علم الله عدم فعله لم يكلفه بخصوصه ولا وجه له دعوة تخصه إذ لم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم خص أفرادا بالدعوة إلا وقد آمنوا كما خص عمر بن الخطاب حين جاءه، بقوله: "أما آن لك يا ابن الخطاب أن تقول لا إله إلا الله" وقوله لأبي سفيان يوم الفتح قريبا من تلكم المقالة، وخص عمه أبا طالب بمثلها، ولم تكن يومئذ قد نزلت هذه الآية، فلما كانت الدعوة عامة وهم شملهم العموم بطل الاستدلال بالآية وبالدليل العقلي، فلم يبق إلا أن يقال لماذا لم يخصص من علم عدم امتثاله من عموم الدعوة، ودفع ذلك أن تخصيص هؤلاء يطيل الشريعة ويجرئ غيرهم ويضعف إقامة الحجة عليهم، ويوهم عدم عموم الرسالة، على أن الله تعالى قد اقتضت حكمته الفصل بين ما في قدره وعلمه، وبين ما يقتضيه التشريع والتكليف، وسر **الحكمة في ذلك** بيناه في مواضع يطول الكلام بجلبها ويخرج من غرض التفسير، وأحسب أن تفطنكم إلى مجمله ليس بعسير.

[٧] ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾ [البقرة:٧]

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾

هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٦] وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨/١

مع وضوح دلائله، فإذا علم أن على قلوبهم ختما وعلى أسماعهم وأن على أبصارهم غشاوة علم سبب ذلك كله وبطل العجب، فالجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام مقابل موقع جملة ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ [البقرة: ٥] فلهذه الجملة مكانة بين ذم أصحابها بمقدار ما لتلك من المكانة في الثناء على أربابها.

والختم حقيقته السد على الإناء والغلق على الكتاب بطين ونحوه مع وضع علامة". (١)

١٦-"فقوله: ﴿أحياء﴾ هو خبر مبتدأ محذوف وهو كلام مستأنف بعد بل الإضرابية.

وإنما قال: ﴿ولكن لا تشعرون﴾ للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية بل حياة روحية، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحشر مع إحساس ما بكونها آيلة إلى نعيم أو جحيم، وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة، ولذلك ورد في الحديث: "إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طيور خضر ترعى من ثمر الجنة وتشرب من مائها" **والحكمة في ذلك** أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحاوس الجسمانية، فلما انفصلت الروح عن الجسد عوضت جسدا مناسبا للجنة ليكون وسيلة لنعيمها.

[١٥٥-١٥٧] ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾

عطف: ﴿لنبلونكم﴾ على قوله: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة:١٥٣] عطف المقصد على المقدمة كما أشرنا إليه قبل، ولك أن تجعل قوله: ﴿ولنبلونكم﴾ عطفا على قوله: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ [البقرة:١٥٠] الآيات ليعلم المسلمين أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا، وينجر لهم من ذلك ثواب، ولذلك جاء بعده: ﴿وبشر الصابرين﴾ وجعل قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ [البقرة:١٥٣] الآية بين هذين المتعاطفين ليكون نصيحة لعلاج الأمرين تمام النعمة والهدى والابتلاء، ثم أعيد عليه ما يصير الجميع خبرا بقوله: ﴿وبشر الصابرين﴾.

وجئ بكلمة شيء تهوينا للخبر المفجع، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ [النحل:١١٢] ولذلك جاء هنا

---

(١) التحرير والتنوير ١/٢٥٠

بكلمة شئ وجاء". (١)

١٧-"عليها الفتاة كما أطلق عليها الجارية، وعلى العبد الغلام، وهو مجاز بعلاقة اللزوم، لأن العبد والأمة يعاملان معاملة الصغير في الخدمة، وقلة المبالاة. ووصف المؤمنات عقب الفتيات مقصود للتقييد عند كافة السلف، وجمهور أئمة الفقه، لأن الأصل أن يكون له مفهوم، ولا دليل يدل على تعطيله، فلا يجوز عندهم نكاح أمة كتابية. **والحكمة في ذلك** أن اجتماع الرق والكفر يباعد المرأة عن الحرمة في اعتبار المسلم، فيقل الوفاق بينهما، بخلاف أحد الوصفين، ويظهر أثر ذلك في الأبناء إذ يكونون أرقاء مع مشاهدة أحوال الدين المخالف فيمتد البون بينهم وبين أبيهم، وقال أبو حنيفة: موقع وصف المؤمنات هنا كموقعه مع قوله ﴿المحصنات المؤمنات﴾ ، فلم يشترط في نكاح الأمة كونها مؤمنة، قال أبو عمر بن عبد البر: ولا أعرف هذا القول لأحد من السلف إلا لعمرو ابن شرحبيل وهو تابعي قديم روى عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب؛ ولأن أبا حنيفة لا يرى إعمال المفهوم.

وتقدم آنفا معنى ﴿ملكت أيمانكم﴾ .

والإضافة في قوله ﴿أيمانكم﴾ وقوله ﴿من فتياتكم﴾ للتقريب وإزالة ما بقي في نفوس العرب من احتقار العبيد والإماء والترفع عن نكاحهم وإنكاحهم، وكذلك وصف المؤمنات، وإن كنا نراه للتقييد فهو لا يخلو مع ذلك من فائدة التقريب، إذ الكفاءة عند مالك تعتمد الدين أولا.

وقوله ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ اعتراض جمع معاني شتى، منها: أنه أمر، وقيد للأمر في قوله تعالى ﴿ومن لم يستطع منكم طولا﴾ الخ؛ وقد تحول الشهوة والعجلة دون تحقيق شروط الله تعالى، فأحالهم على إيمانهم المطلع عليه ربهم. ومن تلك المعاني أنه تعالى أمر بنكاح الإماء عند العجز عن الحرائر، وكانوا في الجاهلية لا يرضون بنكاح الأمة وجعلها حليلة، ولكن يقضون منهن شهواتهم بالبغاء، فأراد الله إكرام الإماء المؤمنات، جزاء على إيمانهن، وإشعار بأن وحدة الإيمان قربت الأحرار من العبيد، فلما شرع ذلك كله ذيله بقوله ﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ ، أي بقوته، فلما كان الإيمان، هو الذي رفع المؤمنين عند الله درجات كان إيمان الإماء مقنعا للأحرار بترك الاستنكاف عن تزوجهن، ولأنه رب أمة يكون إيمانها خيرا من إيمان رجل حر، وهذا كقوله ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات:١٣]. وقد أشار إلى هذا الأخير صاحب الكشاف، وابن عطية.

وقوله ﴿بعضكم من بعض﴾ تذييل ثان أكد به المعنى الثاني المراد من قوله ﴿والله". (٢)

١٨-"وتلقيب عيسى بالروح طفحت به عبارات الأناجيل. ومن ابتدائية على التقادير.

فإن قلت: ما حكمة وقوع هذين الوصفين هنا على ما فيهما من شبهة ضلت بها النصارى، وهلا وصف المسيح في جملة

---

(١) التحرير والتنوير ٥٣/٢

(٢) التحرير والتنوير ٩٢/٤

القصر بمثل ما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ [الكهف:١١٠] فكان أصرح في بيان العبودية، وأنفى للضلال.

قلت: **الحكمة في ذلك** أن هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل، أو في كلام الحواريين وصفا لعيسى عليه السلام، وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ، فلما تغيرت أساليب اللغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل، أي أن قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله، وليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنه ابن الله وأنه إله.

وتصدير جملة القصر بأنه ﴿ رسول الله﴾ ينادي على وصف العبودية إذ لا يرسل الإله إلها مثله، ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح.

﴿فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ .

الفاء للتفريع عن جملة القصر وما بنيت عليه. أي إذا وضح كل ما بينه الله من وحدانيته، وتنزيهه، وصدق رسله، يتفرع أن آمركم بالإيمان بالله ورسله. وأمروا بالإيمان بالله مع كونهم مؤمنين، أي النصارى، لأنهم لما وصفوا الله بما لا يليق فقد أفسدوا الإيمان، وليكون الأمر بالإيمان بالله تمهيدا للأمر بالإيمان برسله، وهو المقصود، وهذا هو الظاهر عندي. وأريد بالرسل جميعهم، أي لا تكفروا بواحد من رسله. وهذا بمنزلة الاحتراس عن أن يتوهم متوهمون أن يعرضوا عن الإيمان برسالة عيسى عليه السلام مبالغة في نفي الإلهية عنه.

وقوله ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ أي لا تنطقوا بهذه الكلمة، ولعلها كانت شعارا للنصارى في دينهم ككلمة الشهادة عند المسلمين، ومن عوائدهم الإشارة إلى التثليث بالأصابع الثلاثة: الإبهام والخنصر والبنصر. والمقصود من الآية النهي عن النطق بالمشتهر". (١)

١٩-"أهل الجاهلية، فتكون الآية الموالية لها نسخا لها.ولم يقل بهذا العقاب أحد من فقهاء الإسلام فدل ذلك على أنه أبطل بما في الآية الموالية، وهذا هو الذي يلتئم به معنى الآية مع معنى التي تليها.ويجوز أن يكون الجزاء من قبيل ضمان المتلفات ويبقى إثم الاعتداء فهو موجب العذاب الأليم.فعلى التفسير المشهور لا يسقطه إلا التوبة، وعلى ما نقل عن ابن عباس يبقى الضرب تأديبا، ولكن هذا لم يقل به أحد من فقهاء الإسلام، والظاهر أن سلبه كان يأخذه فقراء مكة مثل جلال البدن ونعالها.

[٩٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام[٩٥]﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٢/٤

استئناف لبيان آية ﴿ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾ [المائدة:٩٤] أو لنسخ حكمها أن كانت تضمنت حكما لم يبق به عمل.وتقدم القول في معنى ﴿وأنتم حرم﴾ في طالع هذه السورة[المائدة:١].

واعلم أن الله حرم الصيد في حالين:حال كون الصائد محرما، وحال كون الصيد من صيد الحرم، ولو كان الصائد حلالا؛ **والحكمة في ذلك** أن الله تعالى عظم شأن الكعبة من عهد إبراهيم عليه السلام وأمره بأن يتخذ لها حرما كما كان الملوك يتخذون الحمى، فكانت بيت الله وحماه، وهو حرم البيت محترما بأقصى ما يعد حرمة وتعظيما فلذلك شرع الله حرما للبيت واسعا وجعل الله البيت أمنا للناس ووسع ذلك الأمن حتى شمل الحيوان العائش في حرمه بحيث لا يرى الناس للبيت إلا أمنا للعائذ به وبحرمه.قال النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل فالسند

فالتحريم لصيد حيوان البر، ولم يحرم صيد البحر إذ ليس في شيء من مساحة الحرم بحر ولا نهر.ثم حرم الصيد على المحرم بحج أو عمرة، لأن الصيد إثارة لبعض الموجودات الآمنة.وقد كان الإحرام يمنع المحرمين القتال ومنعوا التقاتل في الأشهر الحرم لأنها زمن الحج والعمرة فألحق مثل الحيوان في الحرمة بقتل الإنسان، أو لأن الغالب أن المحرم لا ينوي الإحرام إلا عند الوصول إلى الحرم، فالغالب أنه لا يصيد إلا". (١)

٢٠-"والآية جامعة لأقسام الحجة الحق جمعا لمواقع أنواعها في طرق الدعوة ولكن على وجه التداخل لا على وجه التباين والتقسيم كما هو مصطلح المنطقيين، فإن الحجج الاصطلاحية عندهم بعضها قسيم لبعض فالنسبة بينها التباين. أما طرق الدعوة الإسلامية فالنسبة بينها العموم والخصوص المطلق أو الوجهي. وتفصيله يخرج بنا إلى تطويل، وذهنك في تفكيكها غير كليل.

فإلى الحكمة ترجع صناعة البرهان لأنه يتألف من المقدمات اليقينية وهي حقائق ثابتة تقتضي حصول معرفة الأشياء على ما هي عليه.

وإلى الموعظة ترجع صناعة الخطابة لأن الخطابة تتألف من مقدمات ظنية لأنها مراعى فيها ما يغلب عند أهل العقول المعتادة. وكفى بالمقبولات العادية موعظة. ومثالها من القرآن قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾ [النساء:٢٢] فقوله: ﴿ومقتا﴾ أشار إلى أنهم كانوا إذا فعلوه في الجاهلية يسمونه نكاح المقت، فأجري عليه هذا الوصف لأنه مقنع بأنه فاحشة، فهو استدلال خطابي.

وأما الجدل فما يورد في المناظرات والحجاج من الأدلة المسلمة بين المتحاجين أو من الأدلة المشهورة، فأطلق اسم الجدل على الاستدلال الذي يروج في خصوص المجادلة ولا يلتحق بمرتبة الحكمة. وقد يكون مما يقبل مثله في الموعظة لو ألقي في غير حال المجادلة. وسماه حكماء الإسلام جدلا تقريبا للمعنى الذي يطلق عليه في اللغة اليونانية.

﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢١١

هذه الجملة تعليل للأمر بالاستمرار على الدعوة بعد الإعلام بان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله، وبعد وصف أحوال تكذيبهم وعنادهم.

فلما كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان **الحكمة في ذلك** بينت الحكمة بأن الله هو أعلم بمصير الناس وليس ذلك لغير الله من الناس فما عليك إلا البلاغ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم لأن العلم بمن يهتدي ومن يضل موكول إلى الله وإنما عليك التبليغ في كل حال. وهذا قول فصل بين فريق الحق وفريق الباطل.

وقدم العلم بمن ضل لأنه المقصود من التعليل لأن دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين". (١)

٢١-"﴿وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا﴾ جملة معترضة بين جملة ﴿وبالحق أنزلناه﴾ وجملة ﴿وقرآنا فرقناه﴾ [الإسراء:١٠٦] أي وفي ذلك الحق نفع وضر فأنت به مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين.

والقصر للرد على الذين سألوه أشياء من تصرفات الله تعالى والذين ظنوا أن لا يكون الرسول بشرا.

[١٠٦] ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾

عطف على جملة ﴿أنزلناه﴾ .

وانتصب ﴿وقرآنا﴾ على الحال من الضمير المنصوب في ﴿فرقناه﴾ مقدمة على صاحبها تنويها الكون قرآنا، أي كونه كتابا مقروءا. فإن اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة، إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ [الحجر:١]،

وقد تقدم بيانه. فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو كتاب، وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل، وتجري عليه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ [الإسراء:٧٨] وقوله: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل:٢٠]باعتبار أن المقام للأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقا، وإلى قوله: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان:١]

في مقام كونه فارقا بين الحق والباطل، ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى ﴿فرقناه﴾ جعلناه فرقا، أي أنزلناه منجما مفرقا غير مجتمع صبره واحد. يقال: فرق الأشياء إذا باعد بيتها، وفرق الصبرة إذا جزأها. ويطلق الفرق على البيان لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون ﴿فرقناه﴾ محتملا معنى بيناه وفصلناه،وإذ قد كان قوله: ﴿وقرآنا﴾ حالا من ضمير ﴿فرقناه﴾ آل المعنى إلى: أنا فرقناه وأقرأناه.

وقد علل بقوله: ﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾ .فهما علتان: أن يقرأ على الناس وتلك علة لجعله قرآنا، وأن يقرأ على مكث، أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٧/١٣

والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين.". (١)

٢٢-"[٤٩,٥٠] ﴿لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير﴾
﴿لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء﴾
استئناف بياني لأن ما سبقه من عجيب خلق الإنسان الذي لم يهذبه الهدي الإلهي يثير في نفس السامع سؤالا عن فطر الإنسان على هاذين الخلقين اللذين يتلقى بهما نعمة ربه وبلاءه وكيف لم يفطر على الخلق الأكمل ليتلقى النعمة بالشكر، والضر بالصبر والضراعة، وسؤالا أيضا عن سبب إذاقة الإنسان النعمة مرة والبؤس مرة فيبطر ويكفر وكيف لم يجعل حاله كفافا لا لذات له ولا بلايا كحال العجماوات فكان جوابه: أن الله المتصرف في السماوات والأرض يخلق فيهما ما يشاء من الذوات وأحوالها. وهو جواب إجمالي إقناعي يناسب حضرة الترفع عن الدخول في المجادلة عن الشؤون الإلهية.
وفي قوله ﴿يخلق ما يشاء﴾ من الإجمال ما يبعث المتأمل المنصف على تطلب **الحكمة في ذلك** فإن تطلبها انقادت له كما أومأ إلى ذلك تذييل هذه الجملة بقوله ﴿إنه عليم قدير﴾ فكأنه يقول: عليكم بالنظر في الحكمة في مراتب الكائنات وتصرف مبدعها، فكما خلق الملائكة على أكمل الأخلاق في جميع الأحوال، وفطر الدواب على حد لا يقبل كمال الخلق، كذلك خلق الإنسان على أساس الخير والشر وجعله قابلا للزيادة منهما على اختلاف مراتب عقول أفراده وما يحيط بها من الاقتداء والتقليد، وخلقه كامل التمييز بين النعمة وضدها ليرتفع درجات وينحط دركات مما يختاره لنفسه، ولا يلائم فطر الإنسان على فطرة الملائكة حالة عالمه المادي إذ لا تأهل لهذا العالم لأن يكون سكانه كالملائكة لعدم الملاءمة بين عالم المادة وعالم الروح. ولذلك لما تم خلق الفرد الأول من الإنسان وآن أوان تصرفه مع قرينته بحسب ما بزغ فيهما من القوى، لم يلبث أن نقل من عالم الملائكة إلى عالم المادة كما أشار إليه قوله تعالى ﴿قال اهبطا منها جميعا﴾ [طه: ١٢٣]
ولكن الله لم يسد على النوع منافذ الكمال فخلقه خلقا وسطا بين الملكية والبهيمية إذ ركبه من المادة وأودع فيه الروح ولم يخله عن الإرشاد بواسطة وسطاء وتعاقبهم في العصور وتناقل إرشادهم بين الأجيال، فإن اتبع إرشادهم التحق بأخلاق الملائكة حتى يبلغ". (٢)

٢٣-"﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ في سورة النساء [٤١] وفي مواضع أخرى.
والمراد بآبائهم آباؤهم الذين سنوا عبادة الأصنام مثل عمرو بن لحي والذين عبدوها من بعده. وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتيع هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيء الرسول فإن مجيئه لهؤلاء والتمتيع هنا التمتيع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدل عليه الغاية في قوله ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾

---

(١) التحرير والتنوير ١٨١/١٤

(٢) التحرير والتنوير ١٩٢/٢٥

والمراد ب ﴿الحق﴾ القرآن كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر﴾ وقوله ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف:٣١] وهذه الآية ثناء راجع على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة.

فإنه لما جاء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انتهى التمتيع وأخذوا بالعذاب تدريجا إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين، وهدى الله للإسلام من بقي يوم فتح مكة وأيام الوفود. وهذا في معنى قوله تعالى ﴿وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ في سورة هود [٤٨].

والحق الذي جاءهم هو: القرآن، والرسول المبين: محمد صلى الله عليه وسلم. ووصفه ب ﴿مبين﴾ لأنه أوضح الهدى ونصب الأدلة وجاء بأفصح كلام. فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه.

والحكمة في ذلك أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام واتباع أفضل الرسل وأفضل الشرائع، فيجبر لأمة من عقب إبراهيم ما فرطوا فيه من الاقتداء بأبيهم حتى يكمل لدعوته شرف الاستجابة.

والمقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلهم يتذكرون كما قال تعالى ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ [الأنعام:١٥٥-١٥٧].

ويستروح من قوله تعالى ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ إلى قوله ﴿وآباءهم﴾ أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم في عمود نسبه لم يكونوا مضمرين الشرك وأنهم بعض من عقب إبراهيم الذين بقيت كلمته فيهم ولم يجهروا بمخالفة قومهم اتقاء الفتنة. ولا". (١)

٢٤-"١٨٤ قال الله يا داود وخلافة داود بالنبوة والملك قال ابن عطية لا يقال خليفة الله إلا لنبي وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله وقول الناس فيهم خليفة الله تجوز وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا أي عبثا بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما ذلك ظن الذين كفروا المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلا بغير الحكمة فإن **الحكمة في ذلك** إنما تظهر في الجزاء الأخروي أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار بل يجازي كل واحد بعمله لتظهر حكمة الله في الجزاء ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء وفيه أيضا وعد ووعيد إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد الصافنات جمع صافن وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٢/٢٥

أو يديه ويقف على طرف الأخرى وقيل الصافن هو الذي يسوي يديه والصفن علامة على فراهة الفرس والجياد السريعة الجري واختلف الناس في قصص هذه الآية فقال الجمهور إن سليمان عليه السلام عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه وقيل أخرجتها له الشياطين من البحر وكانت ذوات أجنحة وكانت ألف فرس وقيل أكثر فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشى العصر فأسف لذلك وقال ردوا علي الخيل وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها لما كانت سبب فوات الصلاة ولم يترك منها إلا اليسير فأبدله الله أسرع منها وهي الريح وأنكر بعض العلماء هذه الرواية وقال تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز فكيف يفعله سليمان عليه السلام وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة فقال بعضهم إنما عقرها ليأكلها الناس وكان زمانهم زمان مجاعة فعقرها تقربا إلى الله وقال بعضهم لم تفته الصلاة ولا عقر الخيل بل كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار". (١)

٢٥-"عدم تمكن الوسوسة وأنها غير حالة في القلب بل هي محومة في الصدر حول القلب من الجنة والناس هذا بيان لجنس الوسواس وإنه يكون من الجن ومن الناس ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد من يوسوس بخدعه وأقواله الخبيثة فإنه شيطان كما قال تعالى شياطين الإنس والجن أو يريد به نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء فإنها أمارة بالسوء والأول أظهر وقيل من الناس معطوف على الوسواس كأنه قال أعوذ من شر الوسواس من الجنة ومن شر الناس وليس الناس على هذا ممن يوسوس والأول أظهر وأشهر فإن قيل لم ختم القرآن بالمعوذتين وما **الحكمة في ذلك** فالجواب من ثلاثة أوجه الأول قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير لم كان القرآن أعظم النعم على عباده والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفيء الحسد من الإستعاذة بالله الثاني يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما أنزلت على آيات لم ير مثلهن قط كما قال في فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم ير مثلهما ليجمع حسن الإفتتاح والإختتام ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها الوجه الثالث يظهر لي أيضا أنه لما أمر القارىء أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعن آخر ما يقرأ من القراءة فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء وليكون القارىء محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره ... ٨٢١". (٢)

٢٦-"الفائدة من التنجيم يعني لنزول القرآن منجما فوائد عظيمة، تثبيت الفؤاد، والشيء الذي يؤخذ بالتدريج يسهل أخذه وييسر على آخذه، ويبعد نسيانه بخلاف الذي يؤخذ جملة واحدة فإنه يصعب، وإن كان الرسول -عليه الصلاة والسلام- ضمن له -حفظ له-، ضمن له حفظه -عليه الصلاة والسلام- لكن كونه يأتي بالتدريج لا شك أن فيه من

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى ٤٤٨/٢

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى ٣٨٠/٣

تثبيت الفؤاد ما فيه، وفيه أيضا كون النزول على هذه الكيفية على حسب الحاجة ومقتضيات الأحوال، ومنها أيضا: التعاهد المستمر من بداية التنزيل إلى وفاته –عليه الصلاة والسلام– لا شك أن فيه تثبيت للنبي –عليه الصلاة والسلام– وأيضا فيه الناسخ والمنسوخ، لا يمكن أن ينزل الناسخ والمنسوخ في وقت واحد، بل ينزل المنسوخ فيعمل به مدة أو لا يتمكن من العمل به كما في بعض الوقائع –وإن كان نادرا– ثم تكون المصلحة في رفع هذا الحكم بحكم متراخ عنه بعد العمل بالحكم الأول، وعلى كل حال نزوله على هذه الكيفية لا شك أنه أكمل.

قد يقول قائل: القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وهذا ثابت عن ابن عباس أنه نزل جملة واحدة، نقول: العبرة بنزوله على النبي –عليه الصلاة والسلام– وعلى المكلفين المطالبين بالعمل به.

قلت: فإن قيل: هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته؟ قيل: في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه.

لا يسأل عما يفعل –جل وعلا–.

وقد بينا وجه **الحكمة في ذلك**، وقد قيل: إن قوله ﴿كذلك﴾ من كلام المشركين: أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك.

يعني كما أنزل الكتب السابقة.

أي: كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على ﴿كذلك﴾ ثم يبتدئ ﴿ولنثبت به فؤادك﴾[(٣٢) سورة الفرقان].

يعني هذا جواب الاقتراح الذي اقترحوه –اقترحه الكفار– هذا جوابه: ﴿لنثبت به فؤادك﴾.". (١)

٢٧–"٣) و شاهد و مشهود: في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أن الشاهد هو يوم الجمعة و المشهود هو يوم عرفة. و اليوم الموعود هو يوم القيامة. و مع ذلك فقد روي عن بعض التابعين أن المشهود هو يوم القيامة و الشاهد هو ابن آدم أو أن المشهود يوم عرفة و الشاهد يوم الأضحى. و مما قاله الطبري الصواب أن يقال إن الله أقسم بشاهد شهد و مشهود شوهد، و ما ذكر من بيان هو ما ظنه العلماء أنه المعنى المقصود.

(٤) الأخدود: الشق الطويل الذي يحفر في الأرض.

(٥) و ما نقموا منهم: و ما أنكروا عليهم أو حقدوا عليهم أو سخطوا منهم.

في الآيات قسم رباني بالأقسام الثلاثة بأن لعنة الله قد حقت على الذين حفروا الأخدود و أججوا فيه النيران و ألقوا فيه المؤمنين و هم جالسون يشهدون عذابهم دون أن تأخذهم الشفقة عليهم. و لم يكن لهم ذنب يغضبهم عليهم إلا أنهم آمنوا بالله وحده.

و المتبادر أن الأقسام الثلاثة في بدء السورة مما كان يعرف السامعون خطورته و مداه مهما اختلف المؤولون فيه. و بهذا فقط تبدو **الحكمة في ذلك**، و الله أعلم و لقد رويت روايات مختلفة في صدد الحادث الذي ذكر في الآيات منها حديث

---

(١) التعليق على تفسير القرطبي ص/٤

نبوي «٢» عن ساحر كان يعلم أحد الأولاد السحر فمر الولد براهب فأسلم على يديه و صار يبرئ الأكمه و الأبرص باسم الله ثم أسلم الساحر على يد الولد

---

(١) انظر تفسير هذه السورة و سورة الحجر و الفرقان في الطبري و البغوي و ابن كثير و الخازن و الطبرسي.

(٢) انظر تفسير السورة في تفسير الطبري و ابن كثير و البغوي و الطبرسي و التاج ج ٤ ص ٢٥٤- ٢٥٧.

التفسير الحديث، ج ٢، ص: ١٤٥". [١]

٢٨-"قال: كتاب الله فإن فيه نبأ ما كان قبلكم و خبر ما بعدكم. و حكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله. و من ابتغى الهدى في غيره أضله الله. و هو حبل الله المتين. و هو الذكر الحكيم. و هو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيغ به الأهواء. و لا تلتبس به الألسنة. و لا يشبع منه العلماء. و لا يخلق على كثرة الرد. و لا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد. من قال به صدق. و من عمل به أجر. و من حكم به عدل. و من دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» «١». حيث ينطوي في هذا الحديث أيضا حث قوي على التمسك بكتاب الله مع التنويه بما فيه من هدى و رحمة. و حيث يتساوق كل هذا مع التلقين القرآني.

تعليق على الإسهاب في قصص بني إسرائيل

هذا، و يلحظ بصورة عامة أن قصص موسى و فرعون و بني إسرائيل قد جاءت مسهبة أكثر من القصص الأخرى. و ليس هذا في هذه السورة بل في السور الأخرى أيضا.

و يتبادر لنا أن **الحكمة في ذلك** هي أن بني إسرائيل لم يبيدوا كما باد الأقوام الأولون، و أنه كان لهم دوي عظيم في مجالات الدين و الدنيا و ظل مستمرا لم ينقطع في البلاد التي تتصل بجزيرة العرب، و أنه كان منهم فريق كبير في بلاد الحجاز. و يضاف إلى هذا أن أحداث موسى و فرعون و بني إسرائيل كانت مدونة في أسفار العهد القديم بإسهاب كبير و كانت متداولة بمقياس أوسع من قصص الأنبياء و أقوامهم الآخرين نتيجة لذلك. فحكمة التنزيل القرآني ماشت هذه الوقائع و الحقائق في صدد قصص موسى و فرعون و بني إسرائيل.

---

(١) التاج ج ٤ ص ٧.

التفسير الحديث، ج ٢، ص: ٥٢٨

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]". [٢]

---

(١) التفسير الحديث ص/٨٩٠

(٢) التفسير الحديث ص/١٣٩٠

٢٩-"و مع وجوب الإيمان بحقيقة ما احتوته الآيات من تقريرات متنوعة فإن أسلوبها و فحواها و جملة و آية لهم التي بدأت بها و تكررت في مقاطعها قد يفيد أن السامعين كانوا يعرفون و يحسون و يتصورون ما احتوته من مشاهد كونية و أرضية و سماوية وفق ما ذكر فيها. و بهذا تبدو **الحكمة في ذلك** و تكون الحجة القرآنية مستحكمة في السامعين.

و لقد روى الطبري و البغوي في سياق جملة و الشمس تجري لمستقر لها حديثا عن أبي ذر الغفاري قال: «كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه و سلم في المسجد فلما غربت الشمس قال يا أبا ذر هل تدري أين تذهب الشمس قلت الله و رسوله أعلم قال فإنها تذهب فتسجد بين يدي ربها ثم تستأذن بالرجوع فيؤذن لها و كأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مكانها و ذلك مستقرها».

و ما جاء في الحديث أمر مغيب فيجب الوقوف عنده إذا صح «١» مع وجوب

---

(١) في التاج نص آخر فيه زيادة رواه البخاري و الترمذي عن أبي ذر و هو: «قال أبو ذر كنت مع النبي صلى الله عليه و سلم في المسجد عند غروب الشمس فقال يا أبا ذر أ تدري أين تغرب الشمس؟ قلت:". [1]

٣٠-"٥) إنا أنشأناهن إنشاء: خلقناهن خلقا جديدا. و الضمير عائد إلى النساء بقرينة الأوصاف التالية لهذه الآية. و جعل بعض المفسرين هذه الآية و ما بعدها قرينة على كون المقصود بجملة و فرش مرفوعة (٣٤) النساء. و قيل إن النساء لم يذكرن و إنما اكتفى بذكر أوصافهن لمناسبة ذكر الفرش المرفوعة التي يضطجع عليها الرجال و النساء معا.

(٦) عربا: جمع عريب بمعنى اللعوب المتحببة لزوجها.

(٧) أترابا: جمع ترب، و معنى الكلمة في الأصل الرقيق المماثل في السن

---

(١) انظر تفسيرها في كشاف الزمخشري.

التفسير الحديث، ج ٣، ص: ٢٣١

و قيل إنها هنا بمعنى الطراوة في العمر.

و الآيات استمرار للسياق. و قد احتوت تنويها بأصحاب اليمين و وصفا لمنازلهم و حياتهم و نعيمهم في الجنة بعبارة واضحة.

تعليق على منازل أصحاب اليمين

و الوصف أقل روعة من الوصف الأول. و **الحكمة في ذلك** ظاهرة متسقة مع طبائع الأشياء. فالمؤمنون في مجال العمل متفاوتون، فمنهم السابق المجلي و المستغرق المتفاني. و منهم المقتصد المتقي بل و منهم المقصر بعض التقصير مع حسن النية. فاقتضت حكمة التنزيل أن يعلم الناس أن لكل منهم منازل فيها رضاء الله و عطفه مع التفاوت حسب سيرهم في

---

(١) التفسير الحديث ص/١٤٧٦

مجال العمل. و تعبير ثلة من الأولين (٣٩) و ثلة من الآخرين (٤٠) في صدد أصحاب اليمين ينطوي على ما هو المتبادر على تقرير كون أصحاب هذه المرتبة هم السواد الأعظم من المؤمنين في جميع الأوقات.

و هو المتسق مع طبائع الأمور.

و في الآيات تشجيع و تطمين لأصحاب هذه المرتبة. فالله سبحانه يقبل من عباده المؤمنين عملهم الصالح مهما كان مقداره. و يرضى عنه و يثيب أصحابه.

و ما قلناه في آخر تعليقنا على ما جاء في الآيات السابقة من الإطناب في وصف مجلس الشراب و الطعام و هدفه نقوله هنا بتمامه فلا حاجة إلى التكرار.

".](١)

٣١-"و مع هذه العلل فإذا صح الحديث فيكون فيه استلهام نبوي في العهد المدني من تلقين الآية و حسب. و مع أن الغناء في حد ذاته يمكن أن يوصف بصفة (اللهو) فالمتبادر من روح الآيات و مضمونها أن المقصود من الكلمة هو أوسع شمولا من الغناء بحيث يمكن أن تتناول كل باطل من قول و عمل مؤد إلى احتلال الناس و صرفهم عن الحق و الطريق السوي و التلهي بذلك و الاستهزاء و الاستهانة به عن الحق. و لقد أورد الطبري الأقوال ثم قال إن الكلمة عامة تتناول الغناء و الشرك و تتناول كل ما نهى الله و رسوله عن سماعه و الاشتغال به، و هذا هو المتبادر من روح الآيات كما ذكرنا.

---

(١) انظر التاج ج ٤ ص ١٨٠ و القينات تعني المغنيات.

التفسير الحديث، ج ٤، ص: ٢٤٤

تعليق على وصف الجبال بأنها جعلت لئلا تميد الأرض بالناس و على وصف السماء بأنها رفعت بدون عمد

و وصف الجبال بأنها جعلت لئلا تميد الأرض بالناس و وصف السماء بأنها رفعت بدون عمد يراها الناس قد تكرر في سور أخرى ترتيبها متأخر عن هذه السورة. و الإيمان بما جاء في القرآن في صدد المشاهد الكونية واجب مع واجب الوقوف عند ما اقتضت الحكمة وحيه بالأسلوب الذي جاء به و استشفاف **الحكمة في ذلك**. و المتبادر من ذلك أن هذا الوصف مما كان مستقرا أيضا في أذهان السامعين الذين كانوا يعترفون بالله و كونه خالق السموات و الأرض على ما ذكرناه في مناسبات سابقة فاقتضت حكمة التنزيل التذكير بها من خلال ذلك بقدرة الله و إبداعه و التدليل على شمول قدرته للبعث و الجزاء الأخرويين أيضا. و على كل حال إن القرآن لم يقصد تقريرات فنية لأن ذلك خارج عن هدفه في الهداية و الإرشاد على ما شرحناه في مناسبات سابقة. و على ضوء هذا الشرح تبدو الآيات قوية رائعة في تذكيرها و تنويهها و تحديها، و الله أعلم.

---

(١) التفسير الحديث ص/١٧٢٧

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]". (١)

٣٢-"و لقد أورد البغوي في سياق جملة و يدرؤن بالحسنة السيئة حديثا عن النبي صلى الله عليه و سلم جاء فيه: «إذا عملت سيئة فاعل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر و العلانية بالعلانية». و حديثا آخر عن عقبة بن عامر قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن

---

(١) روى مسلم شيئا من هذا الحديث عن عائشة قالت: «قال النبي صلى الله عليه و سلم: الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله و من قطعني قطعه الله». انظر المصدر السابق نفسه ص ١٠.

(٢) هذا الحديث رواه البخاري و مسلم و الترمذي، انظر المصدر السابق نفسه، ص ٩.

(٣) روى هذا الحديث بصيغة مقاربة الشيخان، انظر المصدر السابق نفسه ص ٨- ٩.

(٤) روى هذا الحديث البخاري و أبو داود أيضا انظر المصدر السابق نفسه ص ٩.

التفسير الحديث، ج ٥، ص: ٥٣٦

مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت عنه حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض». حيث ينطوي في الحديثين تلقين و تأديب نبويان حكيمان. و هذا التلقين و التأديب مندمجان في جملة إن الحسنات يذهبن السيئات الواردة في الآية [١١٤] من سورة هود و التي ورد في سياقها أحاديث نبوية أخرى أوردناها في مناسبتها. و لقد ورد في سورة القصص جملة مماثلة للجملة التي نحن في صددها بسبيل الثناء و التنويه ببعض المؤمنين من أهل الكتاب حيث اقتضت حكمة التنزيل تكرار التلقين و التأديب و اقتضت حكمة النبي تكرار مثل ذلك في هذه المسألة و **الحكمة في ذلك** جليلة المدى و المغزى بدون ريب.

[سورة الرعد (١٣): آية ٢٦]

الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر و فرحوا بالحياة الدنيا و ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع (٢٦)

". (٢)

٣٣-"و لقد أورد ابن كثير في سياق هذه الآيات حديثا رواه أيضا البخاري و مسلم و الترمذي عن عبد الله بن أبي أو فى جاء فيه: «إن رسول الله في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال: أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو و سلوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا و اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم منزل الكتاب و مجري السحاب و هازم الأحزاب اهزمهم و انصرنا عليهم» «١».

---

(١) التفسير الحديث ص/٢٤٢٥

(٢) التفسير الحديث ص/٣٤٥٤

و مع تساوق الحديث مع التلقين القرآني فإن فيه نقطة هامة، و هي نهي المسلمين عن الاستعجال بلقاء العدو أو استعجال التحرش به. و المتبادر أن **الحكمة في ذلك** هي أن لا يكون الاستعجال بدون ضرورة محتمة، أو أن لا يؤدي إلى خطر و ضرر و في هذا تلقين جليل آخر و الله أعلم.

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٠ الى ٥٤]

و لو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم و أدبارهم و ذوقوا عذاب الحريق (٥٠) ذلك بما قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد (٥١) كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب (٥٢) ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم و أن الله سميع عليم (٥٣) كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم و أغرقنا آل فرعون و كل كانوا ظالمين (٥٤)

.

---

(١) التاج ج ٤ ص ٣٣٠ و ٣٣١.

التفسير الحديث، ج ٧، ص: ٧١

و في هذه الآيات:". [(١)]

٣٤-"هذا، و مما يحسن لفت النظر إليه أن هذه الأحكام قد غيرت و عدلت ما كان جاريا قبل نزولها في أمر الميراث مما كان فيه تموج و جنف. فقد كان حق الآباء و الأقربين حائرا أو غير ثابت حتى لقد اقتضت حكمة التنزيل التعجيل بالأمر بوجوب الوصية للوالدين و الأقربين في آيات سورة البقرة [١٨٠- ١٨٢] و كان كذلك حق الإناث في مختلف حالاتهن أمهات كن أو بنات أو زوجات أو أخوات حائرا غير ثابت و عرضة للتهضم و الإنكار. فثبتت الآيات حق الوالدين و حق المرأة في جميع حالاتها و حق الأقربين على أساس الأقرب فالأقرب عصبة بقطع النظر عن كونهم ذكورا و إناثا و صغارا و كبارا و ضعفاء و أقوياء و ليس فيها غبن و لا إجحاف في حق أحد.

و نريد أن نخص مسألة نصيب الأنثى في هذا المقام بكلمة لأن الأغيار غمزوا الشريعة الإسلامية بسبب جعلها نصيب الذكر ضعف نصيبها. مع أن **الحكمة في ذلك** ظاهرة بليغة و فيه كل الحق و الإنصاف بل و ربما كان فيه الإحسان الذي يفوق العدل. فالأنثى في غالب أحوالها مضمونة النفقة من ابنها أو أبيها أو زوجها بل أو أخيها. و حينما لا تكون كذلك فإنها لا تكون في الغالب مكلفة بغير نفسها. و ذلك بعكس الذكر المكلف دائما بالإنفاق عليها و على أسرته مما هو مشاهد و ممارس في مختلف الأدوار و البيئات دون استثناء. فإذا أضيف إلى هذا أن القرآن قد اهتم اهتماما عظيما بتثبيت حقها الذي كان ضائعا أو حائرا و حماها من الظلم و الإجحاف ظهر أن في الغمز أو النقد قلبا للحقيقة و غضا لمزايا الشريعة الإسلامية

---

(١) التفسير الحديث ص/٤٢١٥

(١) في تفسير الخازن خاصة بسط واسع.

التفسير الحديث، ج ٨، ص: ٤٣". (١)

٣٥-"و يلحظ أن القرآن لم يذكر مصارف الجزية. و قد تكون **الحكمة في ذلك** أن الآية لم ترد في معرض التشريع لمورد قد تحقق كما هو الشأن في الغنائم و الفي ء و الزكاة. و الجزية من حق بيت مال المسلمين. و لقد ذكرت مصارف حصة بيت المال من الغنائم و الفي ء في آيات سورة الأنفال [٤١] و سورة الحشر [٧] و هذه

---

(١) كتاب الخراج ص ٧٢.

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧٢ و كتاب الأموال لأبي عبيد ص ٤٥.

(٣) الموطأ ج ١ ص ١٥٢ و ١٥٣.

(٤) كتاب الأموال ٤٣- ٤٦ و الخراج ٦٨ و ما بعدها.

التفسير الحديث، ج ٩، ص: ٤١٤

الحصة توزع على مجموعتين و هما المصالح العامة و المحتاجون. و مصارف الزكاة أيضا مثل ذلك على ما سوف يأتي شرحه في سياق الآية [٦٠] من هذه السورة.

و يسوغ القول قياسا على ذلك أن مورد الجزية يصرف بدوره على المجموعتين.

و الله أعلم. و لقد عد الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام الجزية من الفي ء «١». و في هذا تأييد لما نقول.

و المتبادر أن تقرير مبدأ الصلح مع المحاربين الكفار على الجزية قد انطوى على تبرير غاية الجهاد الإسلامي و هي إخضاع المحارب و خضد شوكته حتى لا يكون قادرا على الإخلال بأمن المسلمين و مصالحهم و حريتهم و تعطيل الدعوة الإسلامية و حريتها. و نص الآية الأولى يلهم بقوة أنه ليس للسلطان الإسلامي أن يمتنع عن المصالحة على الجزية في حالة قهر المحارب و خضوعه و استسلامه و إعلان رغبته في الصلح و استعداده لأداء الجزية. و هذا متسق مع المبادئ القرآنية العامة أيضا.". (٢)

٣٦-"فأما المؤمنون الذين يصدقون بأن الله خالق الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، فيقولون : هذا كلام الله حق ، لا يقول غير الحق ، والكل لديه سواء ، وهذا المثل لمصلحة وحكمة. وأما الكافرون الذين يستهزئون بالأمثال بالمحقرات فيقولون متعجبين : ماذا أراد الله بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ فهم في حيرة من أمرهم ، وخسارة في نهايتهم ، ولو آمنوا لعرفوا الحق ووجه **الحكمة في ذلك** ، قال تعالى :

---

(١) التفسير الحديث ص/٤٧١٩

(٢) التفسير الحديث ص/٥٩٧٨

ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ما ذا أراد الله بهذا مثلا [المدثر ٧٤/ ٣١].

ثم رد الله تعالى على المتسائلين بأن هذا المثل كان سببا في زيادة ضلال كثير من الكافرين لكفرهم بالله ، وزيادة هداية كثير من المؤمنين لإيمانهم بالله ، ولا يضل بضرب المثل أو بغيره من القرآن ، إلا الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله وعن سنته في خلقه وجحد آياته ، وتعطيل عقولهم ومشاعرهم عن إدراك المصالح والغايات.

وفي هذا إشارة إلى أن علة إضلالهم خروجهم عن السنن الكونية التي جعلها الله عبرة لمن تذكر ، فإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل ، فضل به قوم ، واهتدى به قوم ، تسبب لضلالهم وهداهم « ١ » . قال

(١) الكشاف : ١/ ٢٠٦ وما بعدها.

ج ١ ، ص : ١١٢

تعالى : وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون [العنكبوت ٢٩/ ٤٣] ، والعالمون : هم المؤمنون المهتدون بهدي الحق.". (١)

٣٧-"- الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب « ١ » . وفي إخبار الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه في الأرض تعليم لعباده المشاورة في أمورهم. وقول الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ليس على وجه الاعتراض أو الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف **الحكمة في ذلك.**

ثالثا

- استدل الأشعري والجبائي والكعبي بآية وعلم آدم الأسماء كلها على أن اللغات كلها توقيفية ، بمعنى أن الله تعالى خلق علما ضروريا بتلك الألفاظ وتلك المعاني ، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني « ٢ » .

رابعا

- آية تعليم آدم الأجناس التي خلقها الله ، وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، إما في آن واحد أو آنات متعددة ، هذه الآية دالة على فضل العلم ، فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام ، إلا بأن أظهر علمه ، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم ، لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء ، لا بالعلم « ٣ » .

وكانت الحكمة في التعليم والعرض على الملائكة تشريف آدم واصطفاءه ، كيلا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم ، وإظهار الأسرار والعلوم

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ١٠٨/١

(١) تفسير الرازي : ٢/ ١٦٦

(٢) تفسير الرازي : ١/ ١٧٥

(٣) المصدر السابق : ١/ ١٧٨

ج ١ ، ص : ١٣١

المكنونة في غيب علمه تعالى على لسان من يشاء من عباده « ١ » .

خامسا

- أرشدت آية إن كنتم صادقين إلى أن الدعاوي لا يؤبه بها إلا بإثباتها بالدليل ، وأن المدعي لشيء يطالب بالحجة والبرهان تأييدا لما ادعى.

سادسا

- في قوله : « هؤلاء » إشارة إلى أنه سمى الأشياء التي وقع عليها الحس ، كالطيور والبهائم وأنواع الحيوان التي أمامه.

سابعا". (١)

٣٨-"محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم الآية [الفتح ٤٨/ ٢٩] وقوله : وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها [الفتح ٤٨/ ٢٦] وقوله :

لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل .. [الحديد ٥٧/ ١٠] وقوله : لقد

ج ٣ ، ص : ١٠

رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة

[الفتح ٤٨/ ١٨] فعم وخص ، ونفى عنهم الشين والنقص ، ووعد كلا منهم الحسنى.

وأما النزاع والاقتتال بين الناس بعد الرسل فكله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ، ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك** الفعل لما يريد.

الأمر بالإنفاق في سبيل الخير [سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٤]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

الإعراب :

لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة قرئ بالرفع بالابتداء ، أو على أن يجعل : لا بمعنى ليس ، وفيه الخبر ، وقرئ بالبناء على الفتح ، لأنه معه بمنزلة « خمسة عشر » .

البلاغة :

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ١٢٨/١

والكافرون هم الظالمون مبتدأ محصور في خبره أي قصر صفة على موصوف ، وقد أكدت بالجملة الاسمية وبضمير الفصل ، أي : ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ وهو كافر وهم : مبتدأ ثان ، والظالمون خبر الثاني ، أو أن : هم ضمير فصل ، والظالمون : خبر. وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال : والكافرون هم الظالمون ولم يقل : والظالمون هم الكافرون. أي يصبح كل ظالم كافرا ، وما أكثر الظلم بين الناس.

المفردات اللغوية : ". (١)

٣٩-"و ما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين أي وما تشاؤون الاستقامة ولا تقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، فليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ، ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب الإنس والجن والعالم كله. آمنت بالله وبما يشاء ، فلا يقدر أحد على شيء إلا بما يخلق فيه من قوة ، وبما يودع الله فيه من قدرة يتمكن من توجيهها نحو الإيمان والخير أو نحو الكفر والشر ، وهذا يعني أن الله أودع في الناس قدرة الاختيار ، بدليل الآيات الأخرى التي تنفي الإجبار والإكراه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١- لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يعلم وجه **الحكمة في ذلك** ، كما قال القرطبي « ١ » .

٢- أقسم الله تعالى بجميع الكواكب التي تخنس (تختفي) بالنهار وعند غروبها ، وخنوسها : غيبتها عن البصر بالنهار ، والتي تجري في أفلاكها ، وتكنس ، وكنوسها : ظهورها للبصر في الليل ، كما يظهر الظبي أو الوحش من كناسه ، ثم تغيب وتستتر في مغيبها تحت الأفق ، لما في تحركها وظهورها مرة ،

---

(١) تفسير القرطبي : ١٩/ ٢٣٧

فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ٣٠ ، ص : ٩٣

و اختفائها مرة أخرى من الدليل على قدرة خالقها ومصرفها.

وأقسم الله أيضا بالليل إذا أقبل بظلامه لما فيه من السكون والرهبة ، وبالصبح إذا أضاء وامتد حتى يصير نهارا واضحا ، لما فيه من التفتح والبهجة.

والمقسم المحلوف عليه هو أن القرآن الكريم نزل به جبريل : تنزيل من رب العالمين [الواقعة ٥٦/ ٨٠]. وإنما نسب الكلام إلى جبريل عليه السلام باعتبار أنه الواسطة بين الله وبين أنبيائه ورسله.". (٢)

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٧/٣

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٨٩/٣٠

٤٠-"الصلاة والسلام بمفارقة المكان الذي طلب منكم الوقوف فيه لحماية ظهور المقاتلين. ومن المعلوم أن العقوبات نتائج لازمة للأعمال ، وأن الله وعدكم النصر بشرط ترك المعصية واتباع أوامر الله والرسول صلى الله عليه وسلم : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [محمد ٤٧/ ٧].

إن الله على كل شيء قدير ، أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، فهو القادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم ، وهو القادر على حجب النصر عنكم إن خالفتم وعصيتم ، وذلك كله خاضع لقانون ربط الأسباب بالمسببات ، وليس هناك شيء خارج عن القدرة الإلهية.

ثم أشار الله تعالى معزيا ومسليا إلى أن كل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقاء الجمعين : جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد ، فبإذن الله وإرادته وقضائه وقدره ، وله **الحكمة في ذلك** ، فما من شيء في الوجود إلا وهو خاضع لإرادته وحكمته. ومن مظاهر الحكمة : أن يظهر الله علمه بحال المؤمنين من قوة الإيمان وضعفه ، والصبر والثبات وعدمه ، فيعلم الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ، ويعلم المنافقين أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في الطريق ، وكانوا ثلاثمائة رجل.

هؤلاء المنافقون إذا دعوا إلى القتال في سبيل الله ، أو إلى الدفاع عن النفس والأهل والوطن ، أجابوا : لو نعلم أنكم تلقون قتالا في غزوتكم لاتبعناكم وسرنا معكم ، ولكننا نعلم أنكم لا تقاتلون. وهذا يدل على تأصل النفاق في قلوبهم ، وأن غايتهم التلبيس والتدليس والاستهزاء وتعمية الحقائق ، مع أن جمع المشركين في أحد وخروج المسلمين لمقابلتهم قرينة قاطعة على إرادة القتال. روي أن الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه الذين خرجوا من المدينة في جملة ج ٤ ، ص : ١٥٦". (١)

٤١-"ج ١ ، ص : ٣٤٠

ولا تأخذوها وتأكلوها عن طريق الإسراف والتبذير ، فإن طبيعة النفس التبذير في مال الغير ، ولا تأكلوها مسرعين قبل أن يصل اليتيم إلى مرحلة البلوغ والإدراك السليم.

أما الأكل من غير إسراف ولا تبذير وبلا إسراع ومبادرة فحكمه أن من كان غنيا فليطلب العفة ويحمل نفسه عليها حتى يتعود ذلك ، وفي هذا إشارة إلى أن طبيعة النفوس ميالة إلى الاعتداء على حق الغير وإن كان صغيرا ضعيفا.

ومن كان فقيرا محتاجا فليأكل بالمعروف شرعا وعرفا بلا إسراف وتبذير حتى قال بعضهم : إن الولي ليس له أن يأكل إلا قرضا أو بأجر المثل.

والحكمة في ذلك أن اليتيم الصغير من الخير له أن يخالط الولي ويأكل مع أولاده حتى يتسنى للولي أن يشرف عليه إشرافا فعليا ، فإن كان الولي غنيا كانت المخالطة لمصلحة اليتيم ، وإن كان فقيرا فالواجب عليه أن يأكل بالمعروف من كسب المال وثمرته ، وليس له أن يجمع من مال اليتيم شيئا خاصا به.

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٤/١٦٣

فإذا اختبرتم اليتيم أو السفيه وتبينتم صلاحيته لإدارة المال فادفعوه إليه بحضور الشهود قطعا للنزاع ، والله شهيد عليكم ورقيب فراقبوه فإنه لا تخفى عليه خافية في الأرض والسماء.

تشريع حقوق اليتامى والنساء [سورة النساء (٤) : الآيات ٧ الى ١٠]

للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (٧) وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا (٨) وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا (٩) إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا (١٠)". (١)

٤٢-"ج ١ ، ص : ٣٦٢

حكم عامة للأحكام السابقة [سورة النساء (٤) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦) والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا (٢٨)

المفردات :

سنن : جمع سنة ، وهي الطريقة والشريعة. ضعيفا : غير قادر على مخالفة نفسه وهواه.

المعنى :

بعد ما ذكر الله الأحكام السابقة المتعلقة بالبيوت والنكاح - حلاله وحرامه - كأن سائلا سأل : ما هي **الحكمة في ذلك** ؟ وهل الأنبياء والأمم السابقة كانت مكلفة بمثل هذا ؟ وهل هذه الأحكام مقصود بها التخفيف علينا أم التشديد ؟ فأجاب الله بهذه الآيات مبينا الحكم العالية في آياته وأحكامه وأنه ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم « ١ » ..

يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم ، ويرشدكم إلى ما فيه مصلحتكم ، ويهديكم إلى مناهج من قبلكم من الأنبياء والصالحين وطرقهم التي سلكوها في دينهم ودنياهم وأن دينهم الذي ارتضاه لهم سابقا لا يبعد عما اختاره لكم.

يريد الله أن يرشدكم إلى طاعات وأعمال إن قمتم بها وأديتموها على وجهها كانت

---

(١) سورة الحج آية ٧٨.". (٢)

---

(١) التفسير الواضح ـ ٣٤٠/١

(٢) التفسير الواضح ـ ٣٦٢/١

٤٣-"ج ١ ، ص : ٨٥٥

وجوب قتال المشركين [سورة التوبة (٩) : آية ٥]

فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (٥)

المفردات :

انسلخ : انقضى ، وأصل الاستعمال في الجلد ، شبه الزمان به لأنه محيط بما فيه إحاطة الجلد بالشاة ، فإذا مضى الزمن فكأنه انسلخ عما فيه. خذوهم المراد :

ائسروهم ، والأخيذ : الأسير. واحصروهم : امنعوهم من التقلب في البلاد والسير فيها. كل مرصد المراد : كل ممر وطريق يجتازونه في أسفارهم.

المعنى :

فإذا انقضى الأشهر الحرم التي كانت ساترة لهم ، وحرزا تمنعهم من أيدى المسلمين ، وهل المراد بها الأشهر الحرم السابقة ؟ أو المراد بها الأشهر الحرم مع ما فهم من قوله تعالى : فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ؟

فإذا انقضى الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين الناكثين خاصة ، أو المشركين مطلقا حيث تم لهم عهدهم.

وخذوهم أسرى حرب ، واحصروهم حالة كونكم مانعين لهم من الأسفار والتقلب في البلاد ، واقعدوا لهم كل مرصد وممر ، وترصدوا لهم في كل طريق حتى تملأوا قلوبهم خوفا ورهبة منكم ، فيخشى الواحد منهم لقاءكم حتى بينه وبين نفسه ، **والحكمة في ذلك** محو الشرك من جزيرة العرب بالقوة لتكون معقل الإسلام مع مراعاة قوله تعالى :". (١)

٤٤-"ج ٢ ، ص : ١٤

يعتذروا ، ومنهم المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا ، وقدموا أموالهم كفارة عما فرط منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ، ومنهم فريق حاروا في أمرهم وشق عليهم تخلفهم بغير عذر فأرجئوا توبتهم ، ولم يفعلوا ما فعل أبو لبابة وأصحابه من ربط أنفسهم بسواري المسجد فأرجأ الله توبتهم حتى نزلت آيتا التوبة فيهم (١١٧ - ١١٨) من هذه السورة.

وآخرون من المتخلفين مرجون لأمر الله ، ومؤخرون لحكمه ، فحالهم غامضة عند الناس ، لا يدرون ما ينزل في شأنهم ؟ هل يخلصون في التوبة فيتوب الله عليهم ويقبل منهم توبتهم ؟ أم لا ؟ فيعذبهم ويحكم عليهم كما حكم على المنافقين ، والترديد إنما هو بالنسبة للناس لا بالنسبة إلى الله. ولعل **الحكمة في ذلك** أن بقي الرسول والمؤمنون على حالهم فلا يكلمونهم ولا يخالطونهم ، تربية لهم وتهذيبا لنفوسهم ، وبيانا لجرم التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثار الراحة والدعة عن الجهاد ونصر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء المرجون لأمر الله هم الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة ابن الربيع.

---

(١) التفسير الواضح ـ ١/٨٥٥

والله عليم بهم وبعباده كلهم وما به تصلح نفوسهم ، وحكيم في تشريعه ، وقد كان إرجاء قبول توبتهم لحكمة الله يعلمها!!.
مسجد الضرار ولم بنى ؟ وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم منه [سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٧ الى ١١٠]
والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون (١٠٧) لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين (١٠٨) أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين (١٠٩) لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم (١١٠)". (١)

٤٥-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١ ، ص : ٥٦
و قال القرآن : يخادعون الله والذين آمنوا. ولم يذكر مخادعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل **الحكمة في ذلك** أن القرآن يعتبر مخادعة الله مخادعة لرسوله ، لأنه هو الذي بعثه إليهم ، وهو المبلغ عن الله أحكامه وشرائعه. قال - تعالى - : إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم وقال - تعالى - من يطع الرسول فقد أطاع الله.
ثم بين - سبحانه - غفلتهم وغباءهم فقال : وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.
الأنفس : جمع نفس بمعنى ذات الشيء وحقيقته. وتطلق على الجوهر اللطيف الذي يكون به الحس والحركة والإدراك.
ويشعرون : مضارع شعر بالشيء - كنصر وكرم - يقال : شعر بالشيء أى : فطن له ، ومنه الشاعر لفطنته ، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعاني ودقائقها.
والشعور : العلم الحاصل بالحواس ، ومنه مشاعر الإنسان أى : حواسه.
والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لم يخادعوا الله لعلمه بما يسرون ، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم ضرر خداع المنافقين ، وإنما يخدعون أنفسهم لأن ضرر المخادعة عائد عليهم ، ولكنهم لا يشعرون بذلك. لأن ظلام الغي خالط قلوبهم ، فجعلهم عديمي الشعور ، فاقدى الحس.
وأتى بجملة « وما يخدعون إلا أنفسهم » ، بأسلوب القصر مع أن خداعهم للمؤمنين قد ينالهم بسببه ضرر ، لأن أولئك المنافقين سيصيبهم عذاب شديد بسبب ذلك ، أما المؤمنون فحتى لو نالهم ضرر فلهم عند الله ثوابه.
ونفى عنهم الشعور مع سلامة مشاعرهم ، لأنهم لم ينتفعوا من نعمتها ، ولم يستعملوها فيما خلقت له ، فكانوا كالفاقدين لها.
ثم بين - سبحانه - العلة في خداعهم لله وللمؤمنين فقال : في قلوبهم مرض.
والمرض : العلة في البدن ونقيضه الصحة ، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه ، كسوء العقيدة والحسد ، والبغضاء والنفاق ، وهو المراد هنا.

---

(١) التفسير الواضح ـ ١٤/٢

وسمى ما هم فيه من نفاق وكفر مرضا ، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل. كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل.

وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض ، للإشعار بأنه تمكن منها تمكنا شديدا كما يتمكن الظرف من المظروف فيه.". (١)

٤٦-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١ ، ص : ٩٣

لا يليق بعظمتك ، تنزيها متلبسا بحمدك والثناء عليك ، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيما لك وتمجيدا.

وقولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ... إلخ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد في الأرض وسفك الدماء. وقطعهم بحكمة الله في كل ما يفعل لا ينافي تعجبهم من بعض أفعاله ، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل ، فمن تعجب من فعل شيء وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا يعد منكرا. والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلا بد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التي يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين الأخيار من خلقه.

قال الإمام ابن كثير في توضيح هذا المعنى : قوله - تعالى - : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم. ويردعهم عن المحارم والمآثم .. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه البعض .. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك** ، يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شيء من ذلك فهلا وقع الاقتصار علينا؟ « ١ ».

وقد رد الله - تعالى - على الملائكة بقوله : قال إني أعلم ما لا تعلمون.

أى : إنى أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون له - تعالى - المتبعون رسله.

فالجملة الكريمة إرشاد لهم إلى الأمر الذي من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق - عز وجل - وتنبيه إلى أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه ، فله أن يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء ، وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه حين يأمرهم بشيء ، أو يعلمهم بأنه

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٥٦/١

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٩.". (١)

٤٧-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١ ، ص : ٩٥

فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص ، فإذا اشتركا في نحو الجمع أو التثنية أتى بالجمع أو التثنية على ما يطلق حال الكامل منهما.

والأمر في قوله : أنبئوني بأسماء هؤلاء ، ليس من قبيل الأوامر التي يقصد بها التكليف ، أى : طلب الإتيان بالمأمور به ، وإنما هو وارد على جهة إفحام المخاطب بالحجة.

والمعنى : أن الله - تعالى - ألهم آدم معرفة ذوات الأشياء التي خلقها في الجنة ، ومعرفة أسمائها ومنافعها ، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة. فقال لهم على سبيل التعجيز :

أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما اختلج في خواطركم من أنى لا أخلق خلقا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل.

قال ابن جرير : « وفي هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن ذكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن ، وذلك أن الله - تعالى - احتج فيها لنبيه صلى الله عليه وسلم على من كان بين ظهرانيه من يهود بنى إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن - تعالى - أطلع عليها من خلقه إلا خاصا ، ولم يكن مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ليقرر عندهم صدق نبوته ، ويعلموا أن ما أتاهم به إنما هو من عند الله ».

ثم حكى - سبحانه - ما كان من الملائكة فقال :

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح أى التنزيه ، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه.

وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر في ذهن السامع للجملة السابقة ، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله - تعالى - : أنبئوني بأسماء هؤلاء ، ماذا كان من الملائكة؟

هل أنبأوا بأسماء المسميات المعروضة عليهم؟ فقال - تعالى - : قالوا سبحانك لا علم لنا إلخ الآية.

ولو قا ل الملائكة : لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لكان جوابهم على قدر السؤال ، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئا غير ما يعلمهم الله ، ودخل في ضمن هذا النفي العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المسئول عنها.

ومعنى إنك أنت العليم الحكيم أى : أنت يا ربنا العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٩٣/١

ما تشاء ، لك **الحكمة في ذلك** ، والعدل التام.". (١)

٤٨-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ٥ ، ص : ١٧٤

فيهم بذلك ، كقولهم : ثبت عند فلان القاضي كذا أى : في حكمه ، ولذا قدم الصغار على العذاب لأنه يصيبهم في الدنيا.

قال ابن كثير : ولما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا ، وهو التلطف في التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدا. وجاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال :

هذه غدرة فلان بن فلان » **والحكمة في ذلك** أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل » « ١ ».

ثم بين - سبحانه - حال المستعد لهداية الإسلام ، وحال المستعد للضلال فقال :

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.

أى : فمن يرد الله أن يهديه للإسلام ، ويوفقه له ، يوسع صدره لقبوله ، ويسهله له بفضله وإحسانه.

وشرح الصدر : توسعته ، يقال : شرح الله صدره فانشرح ، أى : وسعه فاتسع ، وهو مجاز أو كناية عن جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها. مصفاة عما يمنعه وينافيه.

روى عبد الرازق أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ فقال : « نور يقذف فينشرح له وينفسح ، قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » « ٢ ».

وقوله : ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا أى ومن يرد أن يضله لسوء اختياره ، وإيثاره الضلالة على الهداية يصير صدره ضيقا متزايد الضيق لا منفذ فيه للإسلام.

والحرج : مصدر حرج صدره حرجا فهو حرج ، أى : ضاق ضيقا شديدا. وصف به الضيق للمبالغة ، كأنه نفس الضيق ، وأصل الحرج مجتمع الشيء ويقال : للحديقة الملتفة الأشجار التي يصعب دخولها حرجة.

وقرئ حرجا - بكسر الراء - صفة لقوله ضيقا.

روى أن جماعة من الصحابة قرءوا أمام عمر - رضى الله عنه - « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا » بكسر الراء فقال عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم؟ قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير » « ٣ ».

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ١/٩٥

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٤. [.....]

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٤.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٨ ص ٢.". (١)

٤٩-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١١ ، ص : ٢٦٧

و قوله : لا يعزب عنه مثقال ذرة تمثيل لقلة الشيء ، ودقته ، والمراد انه لا يغيب عن علمه شيء ما ، مهما دق أو صغر ، إذ المثقال : مفعال من الثقل ، ويطلق على الشيء البالغ النهاية في الصغر ، والذرة تطلق على النملة ، وعلى الغبار الذي يتطاير من التراب عند النفخ.

وفي قوله - سبحانه - : ولا أصغر من ذلك إعجاز علمي بليغ للقرآن الكريم ، إذ كان من المعروف إلى عهد قريب ، أن الذرة أصغر الأجسام ، فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم الذرة ، وتقسيمها إلى جزئيات.

قال الجمل : وقوله : ولا أصغر من ذلك العامة على رفع أصغر وأكبر ، وفيه وجهان :

أحدهما : الابتداء ، والخبر إلا في كتاب ، والثاني : العطف على مثقال ، وعلى هذا فيكون قوله : إلا في كتاب تأكيد للنفي في لا يعزب كأنه قال : لكنه في كتاب مبين.

فإن قيل : فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم ما هو أصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الأكبر؟ فالجواب : لما كان الله - تعالى - أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته ، فقال : الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر مكتوب أيضا « ١ ».

واللام في قوله - تعالى - ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. متعلقة بقوله لتأتينكم وهي للتعليل ولبيان الحكمة في إتيانها.

أى : لتأتينكم الساعة أيها الكافرون ، **والحكمة في ذلك** ليجزي - سبحانه - الذي آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذي يستحقونه.

أولئك الموصوفون بصفتى الإيمان والعمل الصالح لهم مغفرة عظيمة من ربهم لذنوبهم ولهم كذلك رزق كريم تنشرح له صدورهم ، وتقر به عيونهم.

و الذين سعوا في آياتنا معاجزين أى : والذين سعوا في إبطال آياتنا ، وفي تكذيب رسلنا معاجزين أى مسابقين لنا ، لتوهمهم أننا لا نقدر عليهم ، وأنهم يستطيعون الإفلات من عقابنا. يقال : عاجز فلان فلانا وأعجزه إذا غالبه وسبقه.

أولئك الذين يفعلون ذلك لهم عذاب من رجز أليم أى : لهم عذاب من أسوأ أنواع العذاب وأشده ألما وإهانة.

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٥/١٧٤

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٦٠.". (١)

٥٠-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٣ ، ص : ٧٥

ذريته من بعده ، بأن جعل من ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - في سورة الصافات : سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ...

ويصح أن يكون ضمير الفاعل يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - ، على معنى أنه أوصى ذريته من بعده بعبادة الله - تعالى - وحده ، وأنه دعا ربه أن يجعل في ذريته من يعبده وحده.

فيكون المعنى : وجعل ابراهيم هذه الكلمة وهي كلمة التوحيد باقية في ذريته حيث أوصاهم بعبادة الله وحده.

ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ووصى بها - أى بكلمة التوحيد - إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ... « ١ ».

ثم بين - سبحانه - **الحكمة في ذلك** الجعل فقال : لعلهم يرجعون أى : جعلها كذلك رجاء أن يرجع إلى كلمة التوحيد من أشرك من ذرية ابراهيم ، ببركة دعائه لهم بالإيمان ودعاء من آمن منهم.

فلقد حكى القرآن عن إبراهيم أن دعا الله - تعالى - بقوله : رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ... وبقوله : واجنبني وبني أن نعبد الأصنام.

وقوله - سبحانه - : بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين إضراب عن كلام محذوف ينساق إليه الكلام ، والمراد « بهؤلاء » أهل مكة المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله : متعت من التمتع بمعنى إعطائهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب والنعم المتعددة ، واشتغالهم بذلك عن طاعة الله - تعالى - وشكره.

والمعنى : اقتضت حكمتنا أن نجعل كلمة التوحيد باقية في بعض ذرية إبراهيم لعل من بقي من هذه الذرية على الشرك أن يرجع إليها ، ولكنهم لم يرجعوا بل أصروا على كفرهم ، فلم أعاجلهم بالعقوبة ، بل متعت هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - بأن أمددتهم بالنعم المتعددة هم وآباءهم ، وبقيت تلك النعم فيهم : حتى جاءهم الحق وهو دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا ، وجاءهم رسول مبين هو أنت - أيها الرسول الكريم - فإن رسالتك واضحة المعالم ، بينة المقاصد ، ليس فيها شيء من الغموض الذي يحملهم على الإعراض عنها.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٢.". (٢)

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٢٦٧/١١

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٧٥/١٣

٥١-"جامعة الشارقة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم أصول الدين

الحوار القرآني

في ضوء سورة الأنعام

"دراسة موضوعية "

بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي حول

الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي

بجامعة الشارقة

إعداد

أحمد محمد الشرقاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

بجامعة الأزهر وجامعة القصيم

١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فالحوار : سبيل الإقناع ، ومفتاح القلوب ، وأسلوب التواصل والتفاهم ، ووسيلة التعارف والتآلف ، ومنهج الدعوة والإصلاح ، ومسلك التربية والتعليم ، ومجمع التقارب والالتقاء ، وسنن الأنبياء عليهم السلام ، مع أقوامهم لإقامة الحجج ودفع الشبه .

هذا وقد وجهت إلي دعوة كريمة للمشاركة في مؤتمر " الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي " ، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، فاستخرت الله تعالى في المشاركة بهذا المؤتمر ، بموضوع حول " الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام " ، تلك السورة العظيمة التي نزلت جملة كما ورد في بعض الأحاديث والآثار التي ترقى لدرجة الحسن (١) ؛ **والحكمة في ذلك** ما اشتملت عليه وما رمت إليه من إقامة الحجج الساطعة والبراهين القاطعة ودحض شبهات المخالفين وتصحيح المفاهيم والدعوة إلى النظر والتفكر ونبذ التقليد الأعمى والتعصب المقيت والتحرر من الأهواء .

فهي أصل في محاجة جميع الكفار ، وكشف ما هم عليه من ضلال وتفنيد شبهاتهم ، وبيان العقيدة الصحيحة وإثباتها بالأدلة والبراهين ، فالسورة الكريمة زاد للدعاة ومنهج للمحاورين .

---

(١) – بينت ذلك في بحث التفسير الموضوعي لسورة الأنعام .". (١)

٥٢-" بكلامه كله لم يطقه شيء فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين. وأخرج الديلمي عن أبي هريرة رفعه لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربه كلمه ألف كلمة ومائتي كلمة فأول ما كلمه بالبربرية أن قال : يا موسى ونفسي معبرا : أي أنا الله الأكبر. قال موسى : يا رب أعطيت الدنيا لأعدائك ومنعتها أولياءك فما **الحكمة في ذلك** ؟ فأوحى الله إليه : أعطيتها أعدائي ليتمرغوا ومنعتها أوليائي ليتضرعوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عجلان قال : كلم موسى بالألسنة كله وكان فيما كلمه لسان البربر فقال كلمته بالبربرية : أنا الله الكبير. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم قال " يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوف وكساء صوف وسراويل صوف وكمه صوف ونعلان من جلد حمار غير ذكي " . وأخرج أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معاوية قال : لما كلم موسى ربه عز و جل مكث أربعين يوما لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين. وأخرج أبو الشيخ عن عروة بن رويم قال : كان موسى لم يأت النساء منذ كلمه ربه وكان قد ألبس على وجهه برقع فكان لا ينظر إليه أحد إلا مات فكشف لها عن وجهه فأخذتها من غشيته مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت لله ساجدة. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال : كلم الله موسى من ألف مقام فكان كلما كلمه رأى النور على وجهه ثلاثة أيام قال : وما قرب موسى امرأة مذ كلمه ربه. وأخرج ابن المنذر عن عروة بن رويم اللخمي قال : قالت امرأة موسى لموسى : إني أيم منك مذ أربعين سنة فأمتعني بنظرة. فرفع البرقع عن وجهه فغشي وجهه نور التمع بصرها فقالت : ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة. قال : على أن لا تزوجي بعدي وأن لا تأكلي إلا من عمل يديك. قال : فكانت تتبع الحصادين فإذا رأوا ذلك تخاطوا لها فإذا أحست بذلك تجاوزته. ". (٢)

٥٣-"وأخرج الديلمي عن أبي هريرة رفعه لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربه كلمه ألف كلمة ومائتي كلمة فأول ما كلمه بالبربرية أن قال : يا موسى ونفسي معبرا : أي أنا الله الأكبر . قال موسى : يا رب أعطيت الدنيا لأعدائك ومنعتها أولياءك فما **الحكمة في ذلك** فأوحى الله إليه : أعطيتها أعدائي ليتمرغوا ومنعتها أوليائي ليتضرعوا.
وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عجلان قال : كلم موسى بالألسنة كله وكان فيما كلمه لسان البربر فقال كلمته بالبربرية : أنا الله الكبير.
وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر والحاكم ، وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوف وكساء صوف وسراويل صوف وكمه صوف ونعلان من جلد

---

(١) الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام ص/١

(٢) الدر المنثور ٣/٥٣٧

حمار غير ذكي.

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معاوية قال : لما كلم موسى ربه عز وجل". [1]

٥٤-"وقد بينا فيما مضى القصة التي ذكروها عن عمرو بن عبيد - مع أنه من عظمائهم الأجلاء عندهم - أنه جاءه ذلك البدوي، وقال له إن حمارته أو دابته سرقت، وأنه [يطلب منه أن] (رحمه الله١) يدعو الله له أن يردها عليه. فقام يدعو ويتقرب بهذا المذهب الباطل: اللهم إن دابته سرقت ولم ترد سرقتها؛ لأنك أكرم وأنزه وأجل من أن تريد هذه الرذيلة القبيحة - يعني السرقة -!! فالبدوي قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد، ولا ثقة لي برب يفعل في ملكه أشياء ليست في مشيئته، فهذا ليس برب، ولا ثقة لي به، فاكفف عني من دعائك الخبيث (رحمه الله٢)!!

[٢/ب] فحقيقة هذا الأمر أن الله (جل وعلا) غني عن الخلائق. / ولكنه خلق الخلق، وجبل بعضهم في الأزل على القبح والسوء، وجبل بعضهم في الأزل على الطيب والطهارة، ويسر كلا لما خلقه له، **والحكمة في ذلك**: أن يكون فيهم مطيعون يظهر فيهم مظاهر بعض أسماء الله وصفاته، يظهر فيهم من مظهر اسمه: الرحيم، الكريم، الغفور الجواد، إلى غير ذلك من صفات الجود، والرحمة، والمغفرة، والكرم، كما أنه شاء أن يخذل قوما آخرين، فتكون أعمالهم غير طيبة؛ ليظهر فيهم أيضا بعض مظاهر أسمائه وصفاته من شدة البطش وقوة الانتقام، وعظمة النكال والعقاب، إلى غير ذلك. والله (جل وعلا) إذا خلقهم وأوجدهم يصرف قدرهم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي،

رحمه الله___________

(رحمه الله١) زيادة يقتضيها السياق.

(رحمه الله٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٤٠)، شرح الطحاوية (٣٢٣).". [2]

٥٥-"ولذا قال في أول سورة هود: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ ثم بين الحكمة والعلة الغائية قال: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [هود: آية ٧] ولم يقل: أيكم أكثر عملا، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ ثم بين **الحكمة في ذلك** قال: ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [الملك: آية ٢] ولم يقل: أكثر عملا، فدلت هذه الآيات القرآنية أنا خلقنا لنختبر ونبتلى في شيء هو إحسان العمل، ولا شك أن العاقل يقول: إذا كان ربي (جل وعلا) خلق الخلائق والسماوات والأرض والموت والحياة؛ لأجل الابتلاء في إحسان العمل، يا ليتني عرفت الطريق إلى إحسان العمل لأنجح بهذا الاختبار.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٥٤٣/٦

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢٢٧/١

وجاء جبريل يبين هذا المغزى الأكبر والمقصد الأعظم لأصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث قال للنبي – صلى الله عليه وسلم –: يا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) أخبرني عن الإحسان – المعنى الذي خلق الخلق لأجل الاختبار فيه – فبين النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه لا طريق إلى الإحسان الذي خلقنا من أجله إلا باعتبار هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم، وهو مراقبة خالق السماوات والأرض، والعلم بأنه رقيب، علمه محيط بكل شيء؛ ولذا قال له: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ولا شك أن من عبد الله كأنه يرى الله، وإذا تنزل فقال: لا أرى الله، فهو عالم أن الله يراه، مطلع عليه، من كان يعمل أمام الملك الجبار، وهو مطلع عليه، ناظر إليه، لا يمكن أن يسيء العمل، فلا بد أن يحسن العمل ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا". (١)

٥٦-"فما موجب هذا حيث يكون الواحد من هؤلاء يقاوم العشرة من هؤلاء؟

[٨/ب] فبين الله (جل وعلا) **الحكمة في ذلك،/** وهذه الحكمة التي بين الله بهذه الآية من سورة الأنفال حكمة سماوية عظيمة تحتها أسرار هائلة يجب على كل مسلم أن يتصفحها ويتعقلها ويتدبر معانيها، وخصوصا كل الخصوص تحتمها على العسكريين من المسلمين، يجب عليهم كل الوجوب أن يتأملوا هذه الآية من سورة الأنفال، وأن يتصفحوا معناها؛ فإن فيها سرا عظيما لو تعقله المسلمون لفهموا الحقائق، ولما ساروا في الظلام؛ لأن الله لما قال: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا﴾ بين علة ذلك وأوضحها فقال: ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ ﴿ذلك﴾ وهو كون الواحد يغلب عشرة منهم ويصابرها بسبب أنهم قوم لا يفقهون. أي: لا فقه عندهم ولا فهم عن الله، والذي لا يفقه عن الله ولا يفهم ما عنده فهو كالبهيمة ليس له مبدأ يقاتل عليه، والذي يتقدم إلى الميدان في خطوط النار الأمامية ليس عنده مبدأ نبيل يقاتل عليه فهو مائع، هزيمته قريبة سريعة، لا يقاوم أبدا.

فإذا التقى من لا فقه عنده بمن عنده فقه عن الله فالمسلم القائم في الميدان للعشرة يفقه عن الله ويفهم، ويقول: إن ربي اشترى مني هذه الحياة القصيرة في هذه الأيام المعدودة، وهي حياة مكدرة بالأمراض والأسقام والمصائب والبلايا والأحزان، اشتراها مني بحياة سرمدية أبدية لا انقطاع فيها ولا كدر ولا ألم ولا حزن، وهذا المال القليل اشتراه مني بالحور العين والولدان وغرف الجنان ومجاورة رب غير غضبان، فهو ينتظر ما عند الله، فاهم عن الله، يفقه عن الله، فهو متقدم في الميدان، لا يهزم أبدا، ولو قتل". (٢)

٥٧-"" صفحة رقم ١٩ "

وروى الحسن عن عبد الله بن معقل قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم وأيما قوم اتخذوا كلبا ليس بكلب حرث أو صيد أو ماشية نقصوا من أجورهم كل يوم

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٣٩٤/١

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ١٧٥/٥

قيراطا) .

عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (من اقتنى كلبا ليس كلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينتقص من أجره قيراطان كل يوم) .

والحكمة في ذلك ما روى أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الرزاق السريعي قال : قيل لعبد الله بن المبارك : ما تقول في قول المصطفى (صلى الله عليه وسلم) (من اقتنى كلبا لا كلب صيد ولا ماشية نقص من عمله كل يوم كذا وكذا من الأجر)

.

فقال حدثني (الأصمعي) قال : قال أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد : ما بلغك في الكلب ؟ قال : بلغني أن من أخذ كلبا لغير زرع ولا حراسة نقص من أجره كل يوم قيراط . فقال له : ولم ذلك ؟ قال : هكذا جاء الحديث ، قال : خذها بحقها إنما ذلك لأنه ينبح على الضيف ويروع السائل .

وكانت أسخياء العرب تبغض الكلاب لهذا المعنى وتذم من ربطه وهم بقتله .

قال الثعلبي : أنشدني أبو الحسن الفارسي قال : أنشدني أبو الحسن الحراني البصري أن بعض شعراء البصرة نزل بعمار فسمع لكلابه نبحا فأنشأ يقول :

نزلنا بعمار فأشلى كلابه

علينا فكدنا بين بيتيه نؤكل

فقلت لأصحابي أسر إليهم

إذا اليوم أم يوم القيامة أطول

قال عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال : نزلت في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل (الطائيين) وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) زيد الخير وذلك إنهما جاءا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قالا : يا رسول الله إنا قوم نصيد الكلاب والبزاة فإن كلاب آل درع وآل حورية تأخذ البقر والحمر والظباء والضب فمنه ما يدرك ذكاته ومنه ما يقتل فلا يدرك ذكاته وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها فنزلت) يسألونك (يا محمد) ماذا أحل لهم (قل :) أحل لكم الطيبات (يعني الذبائح التي أحلها الله) وما علمتم (يعني وصيد ما علمتم) من الجوارح (". (١)

٥٨-"" " صفحة رقم ١٧ " "

والدين ، كما نقله الرسول – عليه السلام – وكذلك القولان في " على " الأخيرة ، بمعنى أن الشهادة لمعنى التزكية منه – عليه السلام – لهم .

وإنما قدم متعلق الشهادة آخرا ، وقدم أولا لوجهين :

---

(١) الكشف والبيان . ١٩/٤

أحدهما : وهو ما ذكره الزمخشري أن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم .

والثاني : أن " شهيدا " أشبه بالفواصل والمقاطع من " عليكم " ، فكان قوله " شهيدا " تمام الجملة ، ومقطعها دون " عليكم " ، وهذا الوجه قاله الشيخ مختارا له رادا على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المعفول يشعر بالاختصاص ، وقد تقدم ذلك .

فصل في الكلام على الشهادة .

اختلفوا في هذه الشهادة هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟ فالقائل بأنها في الآخرة وهم الأكثرون لهم وجهان :

الأول : أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم .

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فيطالب الله – تعالى – الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد – (صلى الله عليه وسلم) – فيشهدون فتقول الأمم : من أين عرفتم فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد – عليه الصلاة والسلام – فيسأل عن حال أمته ، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم ، وذلك قوله : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على ه اؤلا اء شهيدا) [النساء : ٤١] وقد طعن القاضي رحمه الله تعالى في هذ الرواية من وجوه :

أحدها : أن مدار هذه الرواية على أن الأمم يكذبون أنبياءهم ، وهذا بناء على أن أهل القيامة يكذبون .

وهذا باطل عند القاضي ، وسيأتي الكلام على هذه المسألة في سورة " الأنعام " عند قوله تعالى : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم ([الأنعام : ٢٣ – ٢٤] .

وثانيها : أن شهادة الأمة ، وشهادة الرسول – عليه الصلاة والسلام – مستندة في الآخرة إلى شهادة الله – تعالى – على صدق الأنبياء ، وإذا كان كذلك ، فلم لم يشهد الله – تعالى – لهم بذلك ابتداء ؟

والجوا : **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله – تعالى – وتصديق جميع الأنبياء ، والإيمان بهم جميعا ، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق . وثالثها : أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة ، وهذا ضعيف لقوله عليه الصلاة". [1]

٥٩–"" " صفحة رقم ٥٠ " "

قررت معناها هنا ؛ لأنها كثيرة الدور في القرآن ، فتحمل في كل موضع على ما يناسب من هذا الذي قررناه انتهى كلامه .

واعلم أ ، ها إذا تقدمها عاطف جاز إعمالها وإهمالها ، وهو الأكثر ، وهي مركبة من " همزة وذال ونون " ، وقد شبهت العرب نونها بتنوين المنصوب قلبوها في الوقف ألفا ، وكتبوها في الكتاب على ذلك ، وهذا نهاية القول فيها . وجاء في هذا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٧/٣

المكان " من بعد ما جاءك " وقال قبل هذا : (بعد الذي جآءك ([البقرة : ١٢٠] وفي " الرعد " : (بعد ما جآءك ([الرعد : ٣٧] فلم يأت ب " من " الجارة إلا هنا ، واختص موضعا ب " الذين " ، وموضعين ب " ما " ، فما الحكمة في ذلك ؟

والجواب : ما ذكره بعضهم وهو أن " الذي " أخص و " ما " أشد إبهاما ، فحيث أتي ب " الذي " أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى ، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه ؛ لأنه علم بكل أصول الدين ، وحيث أتي بلفظ " ما " أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين ، أحدهما : القبلة ، والأخر : بعض الكتاب ؛ لأنه أشار إلى قوله : (ومن الأحزاب من ينكر بعضه ([الرعد : ٣٦] .

قال : وأما دخول " : من " ففائدته ظاهرة ، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه - عليه السلام - أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم ، والذي يقال في هذا : إنه من باب التنوع من البلاغة .

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين (

في " الذين آتيناهم " : ستة أوجه :

ظهرها : أنه مرفوع بالابتداء ، والخبر قوله : " يعرفونه " .

الثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين آتيناهم .

الثالث : النصب بإضمار " أعني " .

الرابع : الجر على البدل من " الظالمين " .

الخامس : على الصفة للظالمين .

السادس : النصب على البدل من " الذين أوتوا الكتاب " في الآية قبلها .

قوله تعالى : " يعرفونه " فيه وجهان :

أحدهما : أنه خبر " الذين آتيناهم " كما تقدم في أحد الأوجه المذكورة في " الذين آتيناهم " .

الثاني : أنه نصب على الحال على بقية الأقوال المذكورة .". (١)

٦٠-"" صفحة رقم ١٧٨ " "

وليس هذا الخلاف مقصور على هذه الكلمة ، بل إذا التقى ساكنان من كلمتين ؛ وضم الثالث ضما لازما نحو : (ولقد استهزئ ([الأنعام : ١٠]) قل ادعوا ([الإسراء : ١١٠] ،) وقالت اخرج ([يوسف : ٣١] ، جرى الخلاف المذكور ، إلا أن أبا عمرو خرج عن أصله في) أو ([المزمل : ٣] و) قل ادعوا ([الإسراء : ١١٠] فضمهما ، وابن ذكوان خرج عن أصله ، فكسر التنوين خاصة ؛ نحو) محظورا انظر ([الإسراء : ٢٠ - ٢١] واختلف عنه في) برحمة

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٣/٥٠

ادخلوا ([الأعراف : ٤٩]) خبيثة اجتثت ([إبراهيم : ٢٦] فمن كسر ، فعلى أصل التقاء الساكنين ، ومن ضم ، فلإتباع ، وسيأتي بيان **الحكمة في ذلك** . عند ٠ ذكره ، إن شاء الله – تعالى – والله أعلم .

قوله : " غير باغ " : " غير " : نصب على الحال ، واختلف في صاحبها :

فالظاهر : أنه الضمير المستتر [في " اضطر "] ، وجعله القاضي ، وأبو بكر الرازي من فاعل فعل محذوف بعد قوله " اضطر " ؛ قالا : تقديره : " فمن اضطر فأكل غير باغ " ؛ كأنهما قصدا بذلك أن يجعلاه قيدا في الأكل لا في الاضطرار .

قال أبو حيان : ولا يتعين ما قالاه ؛ إذ يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله) غير باغ ولا عاد (بل هو الظاهر والأولى ؛ لأن في تقديره قبل " غير باغ " فضلا بين ما ظاهره الاتصال فيما بعده ، وليس ذلك في تقديره بعد قوله : " غير باغ " .

و " عاد " : اسم فاعل من : عدا يعدو ، إذا تجاوز حده ، والأصل : " عادو " فقلب الواو ياء ؛ لانكسار ما قبلها ؛ كغاز من الغزو ، وهذا هو الصحيح ؛ وقيل : إنه مقلوب من ، عاد يعود ، فهو عائد ، فقدمت اللام على العين ، فصار اللفظ " عادو " فأعل بما تقدم ، ووزنه " فالع " ؛ كقولهم : " شاك " في " شائك " من الشوكة ، و " هار " ، والأصل " هائر " ، لأنه من : هار يهور .

قال أبو البقاء – رحمه الله تعالى – : " ولو جاء في غير القرآن الكريم منصوبا ، عطفا على موضع " غير " جاز " ، يعني : فكان يقال : " ولا عاديا " .

قوله : " اضطر " أحوج وألجيء ، فهو : " افتعل " من الضرورة ، وأصله : من الضرر ، وهو الضيق ، وهذه الضرورة لها سببان :

أحدهما : الجوع الشديد ، وألا يجد مأكولا حلالا يسد به الرمق ، فيكون عند ذلك مضطرا .

والثاني : إذا أكره على تناوله .". (١)

٦١-"" صفحة رقم ٣٣٨ " "

وعظم : " إني أحمس " فقال الرجل : " إن كنت أحمسيا ، فإني أحمسي ، رضيت بهديك ، وسمتك ، ودينك " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة .

قال الزهري : كان ناس من الأنصار ، فإذا أهلوا بالعمرة ، لم يحل بينهم وبين السماء شيء ، وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة ، فتبدوا له الحاجة بعد أم يخرج من بيته ؛ فيرجع ، ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء ، فيفتح الجدار من ورائه ، ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته ؛ حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله علنه وسلم ، وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم ، أهل زمن الحديبية بالعمرة ، فدخل حجرة ، فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٧٨/٣

سلمة ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجلأ ، وعظم : " لم فعلت ذلك ؟ " قال : " لأني رأيتك دخلت ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم : " إني أحمسي " فقال الأنصاري : وأنا أحمسي ، وأنا على دينك ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة .

فصل في اخلافهم في تفسير الآية

ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه :

أحدها : – وهو قول أكثر المفسرين – وهو حمل الآية الكريمة على ما قدمناه في سبب النزول ، ويصعب نظم الآية الكريمة عليه ؛ فإن القوم سألوا عن الحكمة في تغيير لون القمر ، فذكر الله تعالى **الحكمة في ذلك** ، وهي قوله : (مواقيت للناس والحج (فأي تعلق بي بيان الحكمة في اختلاف نور القمر ، وبين هذه القصة ، فذكروا وجوها :

أحدها : أن الله – تبارك وتعالى – لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج ، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبرها في الحج ، لا جرم ذكرها الله تعالى . وثانيها : أنه تعالى إنما وصل قوله : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها (بقوله : (يسألونك عن الأهلة (؛ لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد ، فنزلت الآية الكريمة فيهما معا في وقت واحد ، ووصل أحد الأمرين بالآخر .

وثالثها : كأنهم لما سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة ، فقيل لهم : اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم ، وارجعوا إلى البحث ، عما هو أهم لكم ، فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر ؛ وليس الأمر كذلك .

الوجه الثاني من تفسير الآية : أن قوله تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من". (١)

٦٢-"" " صفحة رقم ١٤ " "

بالغيبة – إما على الرجوع على الكفار المتقدمين ، وإما على الالتفات من خطاب المؤمنين .

فإن قيل : ههنا ثلاثة مواضع ، تقدم الموت على القتل في الأول والأخير ، وقدم القتل على الموت في المتوسط فما **الحكمة في ذلك** ؟

فالجواب : ان الأول لمناسبة ما قبله ، من قوله : (إذا ضربوا فى لأرض أو كانوا غزى (فرجع الموت لمن ضرب في الأرض ، والقتل لمن غزا ، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد ، فقدم الأهم الأشرف ، وأما الأخير فلأن الموت أغلب .

فإن قيل : كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعونه أصلا .

فالجواب : أن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا ، وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات .

فقيل : المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات .

قوله : (ولئن متم أو قتلتم لإلى لله تحشرون (هذا الترتيب في غاية الحسن ؛ فإنه قال في الآية الأولى : (لمغفرة من الله (

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٣٣٨/٣

وهذه إشارة إلى من عبده خوفا من عقابه ، ثم قال : (ورحمة (وهو إشارة إلى من عبده لطلب ثوابه ، ثم ختمها بقوله : (لإلى لله تحشرون (وهو إشارة إلى من عبده لمجرد العبودية والربوبية ، وهذا أعلى المقامات ، يروى أن عيسى – عليه السلام – مر باقوام نحفت أبدانهم ، واصفرت وجوههم ، ورأى عليهم آثار العبادة ، فقال : ماذا تطلبون ؟ فقالوا : نخشى عذاب الله ، فقال : هو أكرم من أن يمنعكم رحمته . ثم مر بقوم ، فرأى آثار العبودية عليهم أكثر ، فسألهم : فقالوا : نعبده لأنه إلهنا ، ونحن عبيده ، لا لرغبة ولا لرهبة ، فقال : أنتم العبيد المخلصون ، والمتعبدون المحقون .

قوله : (لإلى لله (اللام جواب القسم ، فهي داخلة على) تحشرون (و) وإلى لله (متعلق به ، وإنما قدم للاختصاص ، أي : إلى الله – لا إلى غيره – يكون حشركم ، أو للاهتمام به ، وحسنه كونه فاصلة ، ولولا الفصل لوجب توكيد الفعل بالنون ؛ لأن المضارع المثبت إذا كان مستقبلا وجب توكيده [بالنون] ، مع اللام ، خلافا للكوفيين ؛ حيث يجيزون التعاقب بينهما .

كقول الشاعر : [الكامل]". (١)

٦٣–"" " صفحة رقم ٣٢٤ " "

٦٦ – هما نفثا في في من فمويهما

على النابح العاوي أشد رجام

بخلاف الإفراد فإنه ورد في فصيح الكلام ، ومنه : " مسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما " .

وقال بعضهم : الأحسن الجمع ، ثم التثنية ، ثم الإفراد كقوله : [الطويل]

١٩٦٧ – حمامة بطن الواديين ترنمي

سقاك من الغر الغوادي مطيرها

وقال الزمخشري : أيديهما : يديهما ، ونحوه : (فقد صغت قلوبكما ([التحريم : ٤] اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف ، وأريد باليدين اليمنيان بدليل قراءة عبد الله : " والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم " ورد عليه أبو حيان بأنهما ليسا بشيئين ، فإن النوع الأول مطرد فيه وضع الجمع موضع التثنية ، بخلاف الثاني فإنه لا ينقاس ، لأن المتبادر إلى الذهن من قولك : " قطعت آذان الزيدين " : " أربعة الآذان " وهذا الرد ليس بشيء ؛ لأن الدليل دل على أن المراد اليمنيان .

فصل من أول من قطع في حد السرقة ؟

قال القرطبي : أول من حكم بقطع [اليد] في الجاهلية ابن المغيرة ، فأمر الله بقطعه في الإسلام ، فكان أول سارق قطعه رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – في الإسلام ، من الرجال الخيار بنش عدي بن نوفل بن عبد مناف ومن النساء مرة بنت سفيان من بني مخزوم ، وقطع أبو بكر – رضي الله عنه – يد الفتى الذي سرق العقد ، وقطع عمر – رضي الله عنه – يد ابن سمرة أخي عبد الرحمن بن سمرة .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٤/٦

فصل لماذا بدأ الله بالسارق في الآية ؟

قال القرطبي : بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة ، وفي الزنا بدأ بالزانية ، **والحكمة في ذلك** أن يقال : لما كان حب المال على الرجال أغلب ، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين .

قوله تعالى : " جزاء " فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر ، أي : جازوهما جزاء .

الثاني : أنه مصدر [أيضا] لكنه منصوب على معنى نوع المصدر ؛ لأن قوله : " فاقطعوا " في قوة : جازوهما بقطع الأيدي جزاء .". (١)

٦٤-"" " صفحة رقم ٥٥٥ " "

خلق ، وأن يكون منصوبا بفعل مضمر ، وأن يكون صفة للحي الذي لا يموت ، أو بدلا ، أو بيانا هذا على قراءة " الرحمن " بالرفع ومن قرأه بالجر فيتعين أن يكون " الذي خلق " صفة للحي فقط .

قوله : (في ستة أيام (فيه سؤال ، وهو أن الأيام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقيل السموات لا أيام ، فكيف قال : خلقها في ستة أيام ؟

والجواب : في مدة مقدارها (هذه المدة) ، لا يقال : الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان ، لأنا نقول : هذا معارض بنفس الزمان ، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل بخمسة أيام والمدة المتوهمة المحتملة لخمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى ، فلما لم يلزم من هذا قدم الزمان لم يلزم ما قلتموه ، وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام . وقيل : في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة . وهو بعيد ، لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول . فإن قيل : لم قدر الخلق والإيجاد بهذا المقدار ؟

فالجواب على قول أهل السنة المشيئة والقدرة كافية للتخصيص ، وقالت المعتزلة : لا بد وأن يكون من حكمة وهو أن التخصيص بهذا المقدار أصلح ، وهذا بعيد لوجهين :

الأول : أن حصول تلك الحكمة إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا ، فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة فلا يصلح أن يكون سببا لزمان معين ، وإن كان جائزا افتقر حصول تلك **الحكمة في ذلك** الوقت إلى مخصص آخر ، ولزم التسلسل .

والثاني : أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٧/٣٢٤

كيف يقدح في حصول المصالح .". (١)

٦٥-"" " صفحة رقم ٣٢١ " "

السدي ، ابن زيد هذا (في) المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر .

واعلم أنه قال : " فتنة الناس " ولم يقل : " عذاب الناس " ؛ لأن فعل العبد ابتلاه من الله ، والفتنة تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فبين منزلته ، كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا ، وهذا إشارة (إلى) أن الصبر على البلية الصادرة (من الإنسان) كالصبر (على العبادات) فإن قيل : هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه - احترازا عن العذيب العاجل - يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله .

فالجواب : ليس كذلك لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في بطنه الإيمان . قوله : (ولئن جآء نصر من ربك (أي فتح ودولة للمؤمنين " ليقولن " يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين) إنا كنا معكم (على عدوكم ، وقال : (ولئن جآء نصر من ربك (ولم يقل : " ولئن جاءكم " " ولئن جاءك " والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون إنا معكم ، وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين : " إنا معكم " إذا جاء النصر لا يجيء إلا للمؤمنين كما قال تعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين ([الروم : ٤٧] ، ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة ، بدليل أن أحد الجيشين إذا انهزم في الحال ثم ذكر المهزوم كرة أخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم النصر إلا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين ، اولنصر لهم في الحقيقة . فإن قيل : (ولئن جاء نصر من ربك (ولم يقل : " من الله " من أن ما تقدم كله يذكر الله كقوله : (أوذي فى لله (، وقوله : "كعذاب الله " فما **الحكمة في ذلك** ؟

فالجواب : لأن - " الرب " - اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، و " الله " اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر الاسم الدال على الرحمة والشفقة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة . قوله : " ليقولن " العامة على ضم اللام ، أسند الفعل". (٢)

٦٦-"" " صفحة رقم ١٦٦ " "

وجردحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد ، والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله من أعلمه الله به وإذا علم هذا العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جاريحة ، وكل واحد منها قسمان :

قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم . أما القلبية مع أنها عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وإنما وجب

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٥٥٥/١٤

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٣٢١/١٥

الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي هو أرق من الشعر وأحد من السيف ، ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطبف ، والميزان الذي تزن به الأعمال الذي لا ثقل بها في نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم (و) مقطوع به بالمسع ومنها ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات **والحكمة في ذلك** أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعمل ما فيه من الفائدة لا يكون الإتيان إلا لمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي بها لفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده : انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في لانقل فنقها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزا هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر وإذا علم ها فكذلك في العبادات السانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي . فإذا قال : حم ، يس ، طس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به .

فصل

قال ابن عباس : يس قسم ، ووري عنه أن معناه يا إنسان بلغة طيئ . قيل : لأن تصغير إنسان أنيسين كما تقدم عن الزمخشري فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال : ياسين أي أنيسين .

قال أكثر المفسرين عين محمدا – (صلى الله عليه وسلم) – قال الحسن وسعيد بن جبير وجماعة . وقال أبو (العالية : يا رجل . وقال أبو بكر الوراق : يا سيد البشر وقوله : (والقرآن". (١)

٦٧-"" " صفحة رقم ٢٥ " "

وقال تعالى : (ومآ آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ومآ آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ([الروم : ٣٩] ، ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى ، إذا عرفت ذلك فنقول : القوم لما قالوا : " إنما نطعمكم لوجه الله " بقي فيه احتمال ، أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك ، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله تعالى : (لا نريد منكم جزآء ولا شكورا) .

فصل في الشكر والكفور

الشكور والكفور : مصدران ك " الشكر والكفر " وهو على وزمن " الدخول والخروج " هذا قول جمهور أهل اللغة .

وقال الأخفش : إن شئت جعلت الشكور ، جماعة الشكر ، وجعلت الكفور في قوله تعالى : (فأبى الظالمون إلا كفورا (مثل " برد وبرود " وإن شئت جعلته مصدرا واحدا في معنى جمع مثل : قعد قعودا ، وخرج خروجا .

قوله : (إنا نخاف من ربنا (يحتمل وجهين :

أحدهما : إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لإرادة مكافأتهم .

والثاني : لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى علل المكافأة بخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة .

فإن قيل : إنه – تعالى – لما حكى عنهم الإيفاء بالنذر ، علل ذلك بخوف القيامة فقط ، ولما حكى عنهم الإطعام علل

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٦٦/١٦

ذلك بأمرين : بطلب رضا الله تعالى ، وبالخوف ، فما **الحكمة في ذلك** ؟ .

فالجواب : أن النذر هو الذي أوجبه على نفسه لأجل الله ، فلما كان كذلك ، لا جرم علله بخوف القيامة فقط ، وإما الإطعام فالله – تعالى – هو الذي شرعه ، فلا جرم ضم إليه خوف القيامة .

قوله : " يوما عبوسا قمطريرا " . القمطرير : الشديد ، وأصله كما قال الزجاج : " مشتق من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها ، وجمعت قطريها وزمت بأنفها " .

قال الزمخشري : اشتقاقه من القطر ، وجعلت الميم زائدة ؛ قال أسد بن ناعصة : [الخفيف]

٥٠٣٥ – واصطليت الحروب في كل يوم

باسل الشر قمطرير الصباح". (١)

٦٨–"أعباء النبوءة فإذا كان هذا التوقف فيه لمحمد وإبراهيم ونوح فغيره أحرى فربط الباب أن التفضيل فيهم على غير تعيين المفضول وقد قال أبو هريرة خير ولد آدم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم أولوا العزم والمكلم موسى صلى الله عليه وسلم

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبي مرسل هو فقال نعم نبي مكلم وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة فعلى هذا تبقى خاصة موسى وقوله تعالى " ورفع بعضهم درجات " قال مجاهد وغيره هي إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بعث إلى الناس كافة وأعطي الخمس التي لم يعطها أحد قبله وهو أعظم الناس أمة وختم الله به النبوات إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله ومن معجزاته وباهر آياته ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد وغيره ممن عظمت آياته ويكون الكلام تأكيدا للأول ويحتمل أن يريد رفع إدريس المكان العلي ومراتب الأنبياء في السماء فتكون

٣٣٩

الدرجات في المسافة ويبقى التفضيل مذكورا في صدر الآية فقط وبينات عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم ما قال العلماء فيه

سورة البقرة ٢٥٣

ظاهر اللفظ في قولهم من بعدهم يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل وليس كذلك المعنى بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي فلف الكلام لفا يفهمه السامع وهذا كما تقول اشتريت خيلا ثم بعتها فجائزة لك هذه العبارة وأنت اشتريت فرسا ثم بعته ثم آخر وبعته ثم آخر وبعته وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ولو شاء خلاف ذلك لكان

ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك**

الفعال لما يريد فاقتتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٢٠/٢٥

وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض

سورة البقرة ٢٥٤

". (١)

٦٩-"وغيرهما وقال ابن عباس " تأويله " مآله يوم القيامة وقال السدي ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضا والمراد هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه وهم يعتقدون مآله جميلا لهم فأخبر الله عز وجل أن مآله يوم يأتي يقع معه ندمهم ويقولون تأسفا على ما فاتهم من الإيمان لقد صدقت الرسل وجاءوا بالحق فالتأويل على هذا مأخوذ من آل يؤول وقال الخطابي أولت الشيء رددته إلى أوله فاللفظة مأخوذة من الأول حكاه النقاش

قال القاضي أبو محمد وقد قيل أولت معناه طلبت أول الوجوه والمعاني و " نسوه " في الآية يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك ويقرون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعتب لهم فيه وقرأت فرقة أو نرد برفع الفعل على تقدير أو هل نرد وبنصب فنعمل في جواب هذا الاستفهام الأخير وقرأ الحسن بن أبي الحسن أو نرد فنعمل بالرفع فيهما على عطف فنعمل وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة أو نرد فنعمل ونصب نرد في هذه القراءة إما على العطف على قوله " فيشفعوا " وإما بما حكاه الفراء من أن أو تكون بمعنى حتى كنحو قول امرىء القيس

(أو نموت فنعذرا

)

ويجيء المعنى أن الشفاعة تكون في أن يردوا ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة

وقوله تعالى " إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام " الآية خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله والرب أصله في اللغة المصلح من رب يرب وهو يجمع في جهة ذكر الله تعالى المالك والسيد وغير ذلك من استعمالات العرب ولا يقال الرب معرفا إلا لله وإنما يقال في البشر بإضافة وروى بكار بن الشقير إن ربكم الله بنصب الهاء وقوله " في ستة أيام " حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كألف سنة وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قدرة الله تعالى وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عز

وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع وما ذهب إليه من أراد أن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تخرص وجاء في التفسير وفي الأحاديث أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وكملت المخلوقات يوم الجمعة ثم بقي دون خلق يوم السبت ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره ولليهود لعنهم الله في هذا كلام سوء تعالى الله عما يصفون

---

(١) المحرر الوجيز . ٣٣٢/١

" . (١)

٧٠-"ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط أي ما قدم لها من خلقه هذا على أن الجبار اسم الله تعالى ومن جعله اسم جنس كأنه أراد الجبارين من بني آدم فالقدم على هذا التأويل الجارحة والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح كما تقول رجل صدق ورجل سوء وقوله " قال الكافرون " يحتمل أن يكون تفسير لقوه أكان وحينا إلى بشر عجبا قال الكافرون عنه كذا وكذا وذهب الطبري إلى إن في الكلام حذفا يدل الظاهر عليه تقديره فلما أنذر وبشر قال الكافرون كذا وكذا وقرأ جمهور الناس وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر إن هذا لسحر مبين وقرأ مسروق بن الأجدع وابن جبير والباقون من السبعة وابن مسعود وأبو رزين ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر بخلاف وابن محيصن وابن كثير بخلاف عنه إن هذا لساحر والمعنى
متقارب وفي مصحف أبي قال الكافرون ما هذا إلا سحر مبين وقولهم في الإنذار والبشارة سحر إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأشبه ذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب .

قوله عز وجل

يونس ٣ - ٤

١٠٤

هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته والخطاب بها لجميع الناس و " خلق السماوات والأرض " هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض " ثم استوى " إلى السماء وهي دخان فخلقها ثم دحا الأرض بعد ذلك وقوله " في ستة أيام " قيل هي من أيام الآخرة وقال الجمهور وهو الصواب بل من أيام الدنيا .

قال القاضي أبو محمد وذلك في التقدير لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ وقول النبي صلى الله عليه وسلم في خلق الله المخلوقات إن الله ابتدأ يوم الأحد كذا ويوم كذا كذا إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة والمشهور أن الله ابتدأ بالخلق يوم الأحد ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم وفي الدلائل أن البداءة وقعت يوم السبت وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور .

قال القاضي أبو محمد وهذا مما لا يوصل تعليله وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدرا وهو أعلم بوجه **الحكمة في ذلك** وقوله " ثم استوى على العرش " قد تقدم القول فيه في " المص " وقوله " يدبر الأمر " يصح أن يريد ب " الأمر " اسم الجنس من الأمور ويحتمل أن يريد " الأمر " الذي هو مصدر أمر يأمر وتدبيره لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علما .

---

(١) المحرر الوجيز . ٢/٤٧٤

" . (١)

٧١-"والتاء على هذه اللغات كلها مبنية فهي في حال الرفع كقبل وبعد وفي الكسر على الباب لالتقاء الساكنين وفي حال النصب ككيف ونحوها قال أبو عبيدة و " هيت " لا تثنى ولا تجمع تقول العرب " هيت لك " وهيت لكما وهيت لكم .

وقرأ هشام ابن عامر هئت بكسر الهاء والهمز ضم التاء وهي قراءة علي بن أبي طالب وأبي وائل وأبي رجاء ويحيى ورويت عن أبي عمرو وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يهيء إذا أحسن هيئته على مثال جاء يجيء ويحتمل أن يكون بمعنى تهيأت كما يقال فئت وتفيأت بمعنى واحد قال الله عز وجل " يتفيؤا ظلاله " وقال " حتى تفيء إلى أمر الله " .

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضا هيت بتسهيل الهمزة من هذه القراءة المتقدمة .

وقرأ ابن عباس أيضا هيت لك .

وقرأ الحلواني عن هشام هئت بكسر الهاء والهمز وفتح التاء قال أبو علي ظاهر أن هذه القراءة وهم لأنه كان ينبغي أن تقول هئت لي وسياق الآيات يخالف هذا .

وحكى النحاس أنه يقرأ هيت بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء .

و " معاذ " نصب على المصدر ومعنى الكلام أعوذ بالله .

ثم قال " إنه ربي " فيحتمل أن يعود الضمير في " إنه " على الله عز وجل ويحتمل أن يريد العزيز سيده أي فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمنني قال مجاهد والسدي " ربي " معناه سيدي وقاله ابن إسحاق .

قال القاضي أبو محمد وإذا حفظ الآدمي لإحسانه فهو عمل زاك وأحرى أن يحفظ ربه .

ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن ثم يبتدئ " ربي أحسن مثواي " .

والضمير في قوله " إنه لا يفلح " مراد به الأمر والشأن فقط وحكى بعض المفسرين أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما قال معاذ الله ثم دافع الأمر باحتجاج وملاينة امتحنه

الله تعالى بالهم بما هم به ولو قال لا حول ولا قوة إلا بالله ودافع بعنف وتغيير لم يهم بشيء من المكروه .

وقرأ الجحدري مثواي وقرأها كذلك أبو طفيل وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم فمن تبع هداي .

وقوله " ولقد همت به " الآية لا شك أن هم زليخا كان في أن يواقعها يوسف واختلف في هم يوسف عليه السلام فقال الطبري قالت فرقة كان مثل همها واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي فقيل ذلك ليريه الله تعالى موقع العفو والكفاية وقيل **الحكمة في ذلك** أن يكون مثالا للمذنبين

٢٣٤

ليروا أن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب وهذا كله على أن هم

---

(١) المحرر الوجيز . ١١٧/٣

يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخا وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو هذا وهي قد استقلت له قاله ابن عباس وجماعة من السلف .

". (١)

٧٢-"والإمام في كلام العرب الشيء الذي يهتدي به ويؤتم يقولونه لخيط البناء وقد يكون الطريق وقد يكون الكتاب المفيد وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع وقد يكون الرجل المقتدى به ونحو هذا ومن رأى عود الضمير في " إنهما " على المدينتين قال الإمام الطريق وقيل على ذلك الإمام الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما و " أصحاب الحجر " هو ثمود وقد تقدم قصصهم و " الحجر " مدينتهم وهي ما بين المدينة وتبوك وقال " المرسلين " من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع إذ القول في المعتقدات واحد للرسل أجمع فهذه العبارة أشنع على المكذبين والآية التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسبما تقدم تفسيره وبسطه وقرأ أبو حيوة وآتيناهم مفردة وقوله تعالى " وكانوا ينحتون " الآية يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب منها فذكر من ذلك مثالا أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر الجبال والنحت النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه وقرأ جمهور الناس ينحتون بكسر الحاء وقرأ الحسن ينحتون بفتحها وذلك لأجل حرف الحلق وهي قراءة أبي حيوة وقوله " آمنين " قيل معناه من انهدامها وقيل من حوادث الدنيا وقيل من الموت لاغترارهم بطول الأعمال .

قال القاضي أبو محمد وهذا كله ضعيف وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة ٣فكانوا لا يعملون بحسبها بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها ومعنى " مصبحين " أي عند دخولهم في الصباح وذكر أن ذلك كان يوم سبت وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغير ألوانهم ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئا ولا دفع عذاب الله و " ما

" الأولى تحتمل النفي وتحتمل التقرير والثانية مصدرية وقوله تعالى " وما خلقنا السماوات والأرض " الآية المراد أن هؤلاء المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيء فإن السماوات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثا ولا سدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاء ونظراؤهم وإنما خلقت بالحق ولواجب مراد وأغراض لها نهايات من عذاب أو تنعيم " وإن الساعة لآتية " على جميع أمور الدنيا أي فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك فإن الجزاء لهم بالمرصاد " فاصفح " عن أعمالهم أي ولها صفحة عنقك بالإعراض عنها وأكد الصفح بنعت الجمال إذ المراد منه أن يكون لا عتب فيه ولا تعرض . وهذه الآية تقتضي مداهنة ونسخها في آية السيف قاله قتادة ثم تلاه في آخر الآية بأن الله تعالى يخلق من شاء لما شاء ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك لا هذه الأوثان التي يعبدونها وقرا جمهور الناس الخلاق وقرأ الأعمش والجحدري الخالق .

قوله عز وجل

---

(١) المحرر الوجيز . ٢٤٤/٣

" . (١)

٧٣-"٦- لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد ، وإن لم يعلم وجه **الحكمة في ذلك** ، كما قال القرطبي (رحمه الله ١) .

٧- أقسم الله تعالى بجميع الكواكب التي تخنس (تختفي) بالنهار وعند غروبها ، وخنوسها : غيبتها عن البصر بالنهار ، والتي تجري في أفلاكها ، وتكنس ، وكنوسها : ظهورها للبصر في الليل ، كما يظهر الظبي أو الوحش من كناسه ، ثم تغيب وتستتر في مغيبها تحت الأفق ، لما في تحركها وظهورها مرة ،واختفائها مرة أخرى من الدليل على قدرة خالقها ومصرفها.

وأقسم الله أيضا بالليل إذا أقبل بظلامه لما فيه من السكون والرهبة ، وبالصبح إذا أضاء وامتد حتى يصير نهارا واضحا ، لما فيه من التفتح والبهجة.

والمقسم المحلوف عليه هو أن القرآن الكريم نزل به جبريل : تنزيل من رب العالمين [الواقعة ٥٦/ ٨٠]. وإنما نسب الكلام إلى جبريل عليه السلام باعتبار أنه الواسطة بين الله وبين أنبيائه ورسله.

٨- رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية ، له ست مائة جناح بالأفق المبين ، فعن الشيباني ، قال : سألت زر بن حبيش عن هذه الآية : ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم]. قال : قال عبد الله : رأى جبريل في صورته له ست مائة جناح."صحيح ابن حبان (رحمه الله ٢)

وعن عبد الله ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : رأيت جبريل عند سدرة المنتهى ، وعليه ست مائة جناح ينثر من ريشه تهاويل الدر والياقوت "صحيح ابن حبان (رحمه الله ٣)

وقال أبو إسحاق الشيبانى قال سألت زر بن حبيش عن قول الله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) . قال حدثنا ابن مسعود أنه رأى جبريل له ستمائة جناح ."صحيح البخارى (رحمه الله ٤)

أي بمطلع الشمس من قبل المشرق ، فهو مبين لأنه ترى الأشياء من جهته ، وذلك ليتأكد ويطمئن بأنه ملك مقرب ، لا شيطان رجيم.

٩- أخبر الله تعالى عن نبيه بأنه لا يضن بشيء من الغيب أي الوحي وخبر السماء على أحد ، وإنما يقوم بتعليمه وتبليغه دون انتقاص شيء منه ، عن مجاهد : وما هو على الغيب بضنين يعني ببخيل ، يقول : " لا يضن عليكم بما يعلم " (رحمه الله ٥) .

رحمه الله ________________

(رحمه الله ١) - تفسير القرطبي : ١٩/ ٢٣٧

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٣٦٩ .

(رَحِمَهُ اللَّهُ٢) - صحيح ابن حبان - (١٤ / ٣٣٦) (٦٤٢٧) صحيح

(رَحِمَهُ اللَّهُ٣) - صحيح ابن حبان - (١٤ / ٣٣٧) (٦٤٢٨) صحيح

(رَحِمَهُ اللَّهُ٤) - صحيح البخارى -(٣٢٣٢)

(رَحِمَهُ اللَّهُ٥) - تفسير مجاهد (١٩٤٠) صحيح". (١)

٧٤-"والمتبادر أن الأقسام الثلاثة في بدء السورة مما كان يعرف السامعون خطورته ومداه مهما اختلف المؤولون فيه. وبهذا فقط تبدو **الحكمة في ذلك** ، والله أعلم ولقد رويت روايات مختلفة في صدد الحادث الذي ذكر في الآيات منها حديث نبوي «٢» عن ساحر كان يعلم أحد الأولاد السحر فمر الولد براهب فأسلم على يديه وصار يبرئ الأكمه والأبرص باسم الله ثم أسلم الساحر على يد الولد و علم الملك بالأمر فعذب الراهب والساحر والولد ثم قتلهم. وظهرت للولد كرامات فآمن الناس بالإله الذي يؤمن به فأمر الملك بحفر أخدود وتأجيج النار فيه وإلقاء من لم يرتد عن دين الولد فيه. ومنها أن ذا نواس ملك حمير الذي اعتنق اليهودية طلب من نصارى نجران أن يتركوا دينهم ويتهودوا فأبوا فخذ الأخدود وأجج فيه النار وألقى فيها كل من ثبت على نصرانيته حتى بلغ من حرقهم ١٢ ألفا في رواية وعشرين ألفا في رواية وأن هذا العمل حفز الأحباش النصارى على غزو اليمن وتفويض حكم ذي نواس والديانة اليهودية. وتهود ذي نواس وبعض أهل اليمن واضطهاده النصارى وغزو الأحباش لليمن بسبب ذلك وقائع تاريخية ثابتة يمكن أن يستأنس بها في ترجيح هذه الرواية وقد ذكرنا ذلك في سياق تفسير سورة الفيل.

ومهما يكن من أمر فإن روح الآيات واكتفاءها بالإشارة الخاطفة إلى أصحاب الأخدود يدلان على أن سامعي القرآن كانوا يعرفون حادث التحريق في الأخدود وأسبابه فاقتضت حكمة التنزيل التذكير به في صدد الحملة على مقترفي إثم يماثل إثم أصحاب الأخدود.

وأسلوب الآيات أسلوب تقريعي لهذا العمل الوحشي الظالم غضبا على أناس آمنوا بالله وتمسكوا بإيمانهم. وفيه تلقين قرآني عام مستمر المدى كما هو المتبادر.

هذا ، وما تعنيه كلمة «البروج» هو مما كان متداولا بين العرب قبل الإسلام على ما هو مستفاد من أقوال المفسرين. حيث يصح القول إن حكمة التنزيل قد شاءت بأن تقسم بأمر يعرف العرب خطورته ويعرفون أنه مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وبكلمة أخرى شاءت أن تذكر هذا المظهر من مظاهر الكون بما كان متداولا بينهم. وهذا الأسلوب مما تكرر كثيرا في هذا الأمر لأنه أكثر تأثيرا فيهم كشأن القصص على ما شرحناه في سياق سورة القلم. ولقد كانوا يعرفون ويعترفون بأن الله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وهو مدبر الأكوان على ما جاء في آيات كثيرة منها آية سورة يونس هذه : قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون (٣١) وآية سورة الزخرف هذه : ولئن سألتهم من خلق السماوات

---

(١) المهذب في تفسير جزء عم ص/٢٦٩

والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩). (رَحِمَهُ اللَّهُ١)

رَحِمَهُ اللَّهُ________________

(رَحِمَهُ اللَّهُ١) – التفسير الحديث ، ج ٢ ، ص : ١٤٥". [١]

٧٥–"جيب ذراعها بعد أمن منعته منه إذ لم تعرفه.

وقيل : أمر الله تعالى جبريل A ، فنفخ الروح الذي هو روح عيسى في فرجها فحيي بذلك.

ثم قال تعالى : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي : عبرة لعالم زمانهما . والتقدير على مذهب سيبويه : وجعلناها آية وابنها آية ، ثم حذف الأولى . أي : علما وحجة على العالمين والمعنى : جعلها آية إذا ولدت من غير فحل ، وجعله آية إذ ولد من غير نطفة ، وإذ نطق في يوم ولد ، وتكلم **بالحكمة في ذلك** اليوم.

ثم قال تعالى ذكره : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾.

أي : وإن هذه ملتكم ملة واحدة ، وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون ، دون الأصنام والأوثان.

قال مجاهد وابن عباس : " أمتكم أمة واحدة " أي : دينكم دين واحد . وأمة نصبت على الحال/ .". [٢]

٧٦–"وقد كذبهم الله – تعالى – في دعواهم الإيمان ، فقال :

﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ .

فهذه الجملة الكريمة رد لما ادعوه من الإيمان ، ونفى له على أبلغ وجه ، إذ جاء النفي مؤكدا بالباء في قوله ﴿ بمؤمنين ﴾ . ثم إن الجملة نفت عنهم الإيمان على سبيل الإطلاق ، فهم ليسوا بمؤمنين لا بالله ولا باليوم الآخر ، ولا بكتب الله ولا برسله ولا بملائكته .

ثم بين – سبحانه – الدوافع التي دفعتهم إلى أن يقولوا ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ فقال :

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ .

والخدع في أصل اللغة : الإخفاء والإبهام ، يقال خدعه – كمنعه – خدعا ، ختله وأراد به مكروها من حيث لا يعلم؛ وأصله من خدع الضب حارسه إذ أظهر الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر .

وخداعهم لله – تعالى – معناه إظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر ليحقنوا دماءهم وأموالهم ، ويفوزوا بسهم من الغنائم ، وسمى فعلهم هذا خداعا لله – تعالى – لأن صورته صورة الخداع ، فالجملة الكريمة مسوقة على أسلوب المشاكلة ، ولا يجوز حملها على الحقيقة ، لأنه – سبحانه – لا يخفى عليه صنع المنافقين؛ بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال – تعالى – ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾

---

(١) المهذب في تفسير جزء عم ص/٤٠١

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية ٤٨١١/٧

أما خداعهم للمؤمنين فمن مظاهره إظهارهم لهم أنهم إخوانهم في العقيدة وأنهم لا يريدون لهم إلا الخير . بينما هم في الحقيقة يضمرون لهم إلا الخير . بينما هم في الحقيقة يضمرون لهم العداوة ويتربصون بهم الدوائر .

وجاءت الآية الكريمة هكذا بدون عطف ، لأنها جواب سؤال نشأ من الآية السابقة ، إذ أن قول المنافقين " آمنا " وما هم بمؤمنين ، يثير في نفس السامعين استفهاما عما يدعو هؤلاء لمثل تلك الحالة المضطربة والحياة القلقة المقامة على الكذب ، فكان الجواب : إنهم يفعلون ذلك محاولين مخادعة المؤمنين ، جهلا منهم بصفات خالقهم .

وقال القرآن : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ . ولم يذكر مخادعتهم للرسول A ، ولعل **الحكمة في ذلك** أن القرآن يعتبر مخادعة لرسوله ، لأنه هو الذي بعثه إليهم ، وهو المبلغ عن الله أحكامه وشرائعه . قال – تعالى – :

﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ﴾ وقال – تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ثم بين – سبحانه – غفلتهم وغباءهم فقال : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

الأنفس : جمع نفس بمعنى ذات الشيء وحقيقته . وتطلق على الجوهر اللطيف الذي يكون به الحس والحركة والإدراك .

ويشعرون : مضارع شعر بالشيء – كنصر وكرم – يقال : شعر بالشيء أي : فطن له ، ومنه الشاعر لفطنته ، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعاني ودقائقها .". (١)

٧٧-"ثم حكى – سبحانه – إجابة الملائكة فقال :

﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ .

الفساد : الخروج عن الاعتدال والاستقامة ويضاده الصلاح . يقال فسد الشيء فسادا وفسودا وأفسده غيره .

والسفك : الصب والإهراق ، يقال : سفكت الدم والدمع سفكا – من باب ضرب – صببته . والفاعل سافك وسفاك ، والمراد به حصول التقاتل بين أفراد بني الإنسان ظلما وعدوانا .

والتسبيح : مشتق من السبح وهو المر السريع في الماء أو في الهواء ، فالمسبح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من السوء .

والتقديس : التطهير والتعظيم ووصفه بما يليق به من صفات الكمال .

فيكون التسبيح نفى ما لا يليق ، والتقديس إثبات ما يليق ، وقدم التسبيح على التقديس من باب تقديم التخلية على التحلية .

والمعنى : أتجعل في الأرض يا إلهنا من يفسد فيها ويريق الدماء والحال أننا نحن ننزهك عما لا يليق بعظمتك ، تنزيها متلبسا بحمدك والثناء عليك ، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيما لك وتمجيدا .

وقولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها . . . إلخ ﴾ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد في الأرض وسفك الدماء . وقطعهم بحكمة الله في كل ما يفعل لا ينافي تعجبهم من بعض أفعاله ، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل ، فمن تعجب من فعل شيء وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ص/٢٥

يعد منكرا .
والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلابد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التي يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين الأخبار من خلقه .
قال الإمام ابن كثير في توضيح هذا المعنى : قوله – تعالى – ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء ﴾ أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم . ويردعهم عن المحارم والمآثم . . وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه البعض . . وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك** ، يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شيء من ذلك فهلا وقع الاقتصار علينا؟
وقد رد الله – تعالى – على الملائكة بقوله : ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .
أي : إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون له – تعالى – المتعبون رسله .". (١)

٧٨–"والأمر في قوله : ﴿ أنبئوني بأسمآء هؤلاء ﴾ ، ليس من قبيل الأوامر التي يقصد بها التكليف ، أي : طلب الإتيان بالمأمور به ، وإنما هو وارد على جهة إفحام المخاطب بالحجة .
والمعنى : أن الله – تعالى – ألهم آدم ومعرفة ذوات الأشياء التي خلقها في الجنة ، ومعرفة أسمائها ومنافعها ، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة . فقال لهم على سبيل التعجيز : ﴿ أنبئوني بأسمآء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ فيما اختلج في خواطركم من أنى لا أخلق خلقا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل .
قال ابن جرير : " وفي هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن ذكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن ، وذلك أن الله – تعالى – احتج فيها لنبيه A على من كان بين ظهرانيه من يهود بني إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن – تعالى – أطلع عليها من خلقه إلا خاصا ، ولم يكن مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ليقرر عندهم صدق نبوته ، ويعلموا أن ما أتاهم به إنما هو من عند الله " .
ثم حكى – سبحانه – ما كان من الملائكة فقال :
﴿ قالوا سبحانك لا علم لنآ إلا ما علمتنآ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ص/٥٥

سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح؛ أي التنزيه ، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه .
وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر في ذهن السامع للجملة السابقة ، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله – تعالى – : ﴿ أنبئوني بأسمآء هؤلاء ﴾ ماذا كان من الملائكة؟ هل أنبأوا بأسماء المسميات المعروضة عليهم؟ فقال – تعالى – : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنآ ﴾ إلخ الآية .
ولو قال الملائكة : لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لكان جوابهم على قدر السؤال ، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلف وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئا غير ما يعلمهم الله ، ودخل في ضمن هذا النفي العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المسئول عنها .
ومعنى ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أي : أنت يا ربنا العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك **الحكمة في ذلك** ، والعدل التام .
وقدم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ، ليكون وصفه بالعلم متصلا بنفيهم عن أنفسهم في قولهم : ﴿ لا علم لنآ إلا ما علمتنآ ﴾ .
وبعد أن بين القرآن أن الملائكة قد اعترفوا بالعجز عن معرفة ما سئلوا عنه ، وجه – سبحانه – الخطاب إلى آدم ، يأمره فيه بأن يخبر الملائكة بالأسماء التي سئلوا عنها ، ولم يكونوا على علم بها ، فقال – تعالى – :
﴿ قال يآءادم أنبئهم بأسمآئهم فلمآ أنبأهم بأسمآئهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .". (١)

"–٧٩

٨٤
ثم قال تعالى " قد علم كل أناس مشربهم " أي قد عرف كل سبط مشربهم أي موضع شربهم من العيون لا يخالطهم فيها غيرهم **والحكمة في ذلك** أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر وأراد كل سبط تكثير نفسه فجعل لكل سبط منهم نهرا على حدة يستقون منه ويسقون دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة ويقال كان الحجر من الجنة ويقال رفعه موسى من أسفل البحر حيث مر فيه مع قومه ويقال كان حجرا من أحجار الأرض
قوله تعالى "كلوا واشربوا من رزق الله " يعني قيل لهم كلوا من المن والسلوى واشربوا من ماء العيون
وقوله تعالى " ولا تعثوا في الأرض مفسدين " يعني لا تعملوا في الأرض بالمعاصي يقال عثا يعثو عثوا إذا أظهر الفساد وعثي يعثى عثيا وعاث يعيث عيوثا ومعاثا ثم أجمعوا من المن والسلوى
سورة البقرة آية ٦١
قوله تعالى " وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد " يعني من جنس واحد " فادع لنا ربك " يعني سل لنا ربك "

---
(١) الوسيط لسيد طنطاوي ص/٥٧

يخرج لنا مما تنبت الأرض " يعني مما تخرج الأرض " من بقلها وقثائها " وقوله " بقلها " أراد به البقول كلها وقوله " وقثائها " أراد به جميع ما يخرج من الفاكهة نحو القثاء والبطيخ ونحو ذلك وقوله " وفومها " يعني طعامها وهي الحبوب كلها ويقال هي الحنطة خاصة وقال مجاهد الفوم الخبز وقال الفراء فومي لنا يا جارية يعني اخبزي لنا ويقال الفوم هو الثوم والعرب تبدل الفاء بالثاء لقرب مخرجيهما وفي قراءة عبد الله بن مسعود " وثومها وعدسها وبصلها "

فغضب عليهم موسى و " قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير " يعني أتستبدلون الردئ من الطعام بالذي هو خير يعني بالشريف الأعلى ويقال معناه تسألون الدنيء من الطعام وقد أعطاكم الله الشريف منه وهو المن والسلوى ويقال أتختارون الدنيء الخسيس وهو الثوم والبصل على الذي هو أعلى وأشرف وهو المن والسلوى فقال لهم " اهبطوا مصرا " قرأ أبي بن كعب وابن مسعود رضي الله عنهما بلا تنوين يعني مصر الذي خرجتم منه وهو مصر فرعون ومن قرأ " مصرا " بالتنوين يعني ادخلوا مصرا من الأمصار " فإن لكم " فيه " ما سألتم " تزرعون وتحصدون

". (١)

٨٠-"٢١٩

في ذلك الوقت والثالث حيث يقبض روحي ملك الموت فيقول يا رب أمع الكفر أم مع الإيمان فلا أدري كيف يخرج الجواب والرابع حيث يقول " وامتازوا اليوم أيها المجرمون " يس٥٩ فلا أدري من أي الفريقين أكون وإلى هذا ذهب أهل الخبر

ثم قال تعالى " لا إله إلا هو " يعني لا خالق ولا مصور إلا هو " العزيز الحكيم " يعني المنيع بالنقمة لمن جحده " الحكيم " يحكم تصوير الخلق على ما يشاء

سورة آل عمران الآيات ٧ - ٩

قوله تعالى " هو الذي أنزل عليك الكتاب " يعني جبريل أنزل بالقرآن " منه آيات محكمات " يعني من القرآن آيات واضحات ويقال مبينات بالحلال والحرام ويقال ناسخات لم تنسخ قط " هن أم الكتاب " يعني أصل كل كتاب وهي ثلاث آيات من سورة الأنعام وهو قوله تعالى " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " الأنعام ١٥١ إلى آخر الآيات وروي عن ابن عباس أنه سمع رجلا يقول فاتحة الكتاب أم الكتاب فقال له ابن عباس بل أم الكتاب قوله تعالى " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم " الأنعام ١٥١ إلى آخر ثلاث آيات

ثم قال تعالى " وأخر متشابهات " قال الضحاك يعني منسوخات وقال الكلبي يعني ما اشتبه على اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه " الألم " و " المر " ويقال المحكم ما كان واضحا لا يحتمل التأويل والمتشابه الذي يكون اللفظ يشبه اللفظ والمعنى مختلف

ويقال المحكم الذي هو حقيقة اللغة والمتشابه ما كان مجازا ويقال المحكمات التي فيها دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والمتشابه الذي اشتبهت الدلالة فيه فإن قيل إذا أنزل القرآن للبيان فكيف لم يجعل كله واضحا قيل له **الحكمة في ذلك** والله

---

(١) بحر العلوم. ٨٤/١

أعلم أن يظهر فضل العلماء لأنه لو كان الكل واضحا لم يظهر فضل العلماء بعضهم على بعض وهكذا يفعل كل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا وبعضه مشكلا ويترك للحيرة موضعا لأن ما هان وجوده قل بهاؤه

ثم قال تعالى " فأما الذين في قلوبهم زيغ " يعني ميل عن الحق وهم اليهود " فيتبعون ما تشابه منه " قال الضحاك يعني ما نسخ منه " ابتغاء الفتنة " يعني طلب الشرك واستبقاؤه ما". (١)

٨١-"٢٣٥

وقال مقاتل كانت أختها امرأة زكريا وكانت إذا طهرت من حيضها واغتسلت ردها إلى المحراب وقال بعضهم كانت لا تحيض وكانت مطهرة من الحيض وكان زكريا إذا دخل عليها في أيام الشتاء رأى عندها فاكهة الصيف وإذا دخل عليها في أيام الصيف رأى عندها فاكهة الشتاء وكانت **الحكمة في ذلك** أن لا يدخل في قلب زكريا شيء من الريبة إذا رأى الفاكهة في غير أوانها وعلم أنه لم يدخل عليها أحد من الآدميين فذلك قوله تعالى "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا " ويقال " المحراب " في اللغة أشرف المجالس وهو المكان العالي وقد قيل إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب ف " قال " لها زكريا " يا مريم أنى لك هذا " يعني من أين لك هذا فإنه لا يدخل عليك أحد غيري " فقالت " مريم " هو " أي هذا الرزق " من عند الله " يعني من فضل الله " إن الله يرزق من يشاء بغير حساب " في غير حينه ويقال من حيث لا يحتسب

سورة آل عمران ٣٨

قوله تعالى " هنالك دعا زكريا ربه " يقول عند ذلك طمع في الولد وكان آيسا من ذلك وكان مفاتيح بيت القربان عند آبائه وقد صار ذلك بيده وكان يخشى أن يخرج من أهل بيته إذا مات فقال عند ذلك إن الله قادر على أن يأتيها برزق الشتاء في الصيف وبرزق الصيف في الشتاء فهو قادر أن يرزق لي الولد بعد الكبر فذلك قوله تعالى " هنالك دعا زكريا ربه " " قال رب هب لي من لدنك " يعني من عندك " ذرية طيبة " يعني نقيه مهذبه ويقال مستوي الخلق ويقال مسلمة مطيعة ويقال تقيه " أنك سميع الدعاء " أي مجيبا له

سورة آل عمران ٣٩ - ٤٠

قوله تعالى " فنادته الملائكة " قرأ حمزة والكسائي بالياء يعني ناداه جبريل عليه السلام وإنما صار مذكرا على معنى الجنس كما يقال فلان ركب السفن وإنما ركب سفينة واحدة وقرأ الباقون " فنادته " على معنى التأنيث لأن اللفظ لفظ الجماعة والمراد به أيضا جبريل " إن الله يبشرك بيحيي " قرأ حمزة وابن عامر " إن الله يبشرك " بكسر الألف ومعناه فنادته الملائكة وقالوا له إن الله يبشرك وقرأ الباقون بالنصب ومعناه فنادته الملائكة بأن الله يبشرك " بيحيي " قال مقاتل اشتق اسمه من اسم الله تعالى حي والله تعالى حي فسماه الله تعالى يحي ويقال لأنه حيي به رحم أمه ويقال لأنه حي به المجالس

---

(١) بحر العلوم. ٢١٩/١

ثم قال تعالى " مصدقا بكلمة من الله " يعني بعيسى عليه السلام وكان يحي أول من". (١)

٨٢-"٣١٣

وأما الآخر فكان لا يستنزه عن البول ثم أخذ جريدتين من شجر وغرس إحداهما في قبر والأخرى في قبر الآخر فقال لعلهما لا يعذبان ما دامتا رطبتين قال الحكماء **الحكمة في ذلك** أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى ويقال معناه ما من شيء إلا يسبح بحمده ويقال معناه " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " يدل على وحدانية الله تعالى ويسبحه فإن الله خالقه " ولكن لا تفقهون تسبيحهم " يعني أثر صنعه فيهم هذا بعيد وهو خلاف أقاويل المفسرين " إنه كان حليما " حيث لم يجعل العقوبة لمن إتخذ معه آلهة " غفورا " لمن تاب منهم

سورة الإسراء ٤٥ - ٤٧

قوله عز وجل " وإذا قرأت القرآن " يعني إذا أخذت في قراءة القرآن " جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا " قال بعضهم الحجاب المستور هو أن يمنعهم عن الوصول إليه كما روي أن إمرأة أبي لهب جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده أبو بكر فدخلت فقالت لأبي بكر هجاني صاحبك قال أبو بكر والله هو ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت فقال أبو بكر أما رأتك يا رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل بيني وبينها ملك يسترني عنها حتى رجعت وقال قتادة الحجاب المستور هو الأكنة وقال مقاتل الحجاب المستور هو قوله " وجعلنا على قلوبهم أكنة " أي جعلنا أعمالهم على قلوبهم أغطية حتى لا يرغبوا في الحق ويقال " جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة " يعني الجن والشياطين " حجابا مستورا " فلا يصلون إليك وقال الكلبي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا القرآن ستره الله وحجبه عن المشركين بثلاث آيات إذا قرأهن حجب عنهم إحداهن في سورة الكهف " وجعلنا على قلوبهم أكنة " [الكهف : ٥٧] والآية الثانية في النحل " أولئك الذين طبع الله على قلوبهم " [النحل : ١٠٨] والثالثة في حم الجاثية " أفرءيت من إتخذ إلهه هواه " [ال جاثية : ٢٣] الآية

قوله تعالى " وفي آذانهم وقرأ " أي صمما وثقلا لا يسمعون الحق قرأ إبن كثير " قل لو". (٢)

٨٣-"٢٢٣

سورة الشورى

مكية وهي خمسون وثلاث آيات

سورة الشورى ١ - ٤

قوله تبارك وتعالى " حم عسق " روي عن ابن عباس أنه قال الحاء حكم الله والميم ملك الله والعين علو الله والسين سناء

---

(١) بحر العلوم. ٢٣٥/١

(٢) بحر العلوم. ٣١٣/٢

الله والقاف قدرة الله

فكأنه يقول فبحكمي وملكي وعلوي وسنائي وقدرتي لا أعذب عبدا قال لا إله إلا الله مخلصا فلقيني بها

ومعنى قول ابن عباس لا يعذب عبدا يعني لا يعذبه عذابا دائما خالدا

وروى المسيب عن رجل عن أبي عبيدة قال العين عذاب الله والسين سنون والقاف فيها القحط العجب

وقال وروي النبي صلى الله عليه وسلم قال (افتحوا صبيانكم قول لا إله إلا الله ولقنوا موتاكم لا إله إلا الله)

والحكمة في ذلك لأن حال الصبيان حال حسن لا غل ولا غش في قلوبهم وحال الموتى حال الاضطرار فإذا قلتم ذلك في أول ما يجري عليكم القلم وآخر ما يجف القلم فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك وقال المسيب وحدثنا محدث قال قاف قدف

وقال الضحاك في قوله " حم عسق " قال عذاب سيكون واقعا وأرجو أن يكون قد مضى يوم بدر والسنون

وقال شهر بن حوشب " حم عسق " حرب يذل فيه العزيز ويعز فيه الذليل من قريش ثم يفضي إلى العرب ثم إلى العجم ثم هي متصلة إلى خروج الدجال

وقال عطاء الحاء حرب وهو موت ذريع في الناس وفي الحيوان حتى يبيدهم ويفنيهم

والميم تحويل ملك من قوم إلى قوم والعين عدو لقريش يركبهم ثم ترجع الدولة إليهم لحرمة البيت والسين هو استئصال بالسنين كسني يوسف والقاف قدر من الله نافذ في ملكوت الأرض لا يخرجون من قدره وهو نافذ فيهم

وقال السدي الحاء حلمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته

وقال قتادة هو اسم من أسماء الله تعالى ويقال اسم من أسماء القرآن". (١)

٨٤-"بيان المعاني ، ج ١ ، ص : ٥٠

شيء منها اكتفاء بما ذكره العلماء في المؤلفات المارة الذكر وما بعد شهادة الله المترادفة في كتبه وشهادة رسله في كتبهم على صدق محمد ورسالته شهادة ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

المطلب الثاني عشر في الوحي وكيفية نزوله ومعناه وأوله والرؤيا الصادقة ومعناها

مطلب الوحي وتفرعاته اعلم فقهك الله ان جمهور المفسرين أجمعوا على أن أول ما نزل من الوحي خمس آيات من أول سورة العلق ، ولا عبرة بمن شذ عن هذا الإجماع ، فقد أخرج البيهقي في الشعب عن عمر رضي الله عنه أنه قال وتعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن جبريل كان ينزل به خمسا خمسا ، واخرج ابن عساكر من طريق آخر نظيره وما بمعناه ، وهذا على الغالب وإلا فقد نزل أقل وأكثر كما سنذكره علاوة عما سبق في المطلب الثامن في موضعه ، وروى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت : أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة

---

(١) بحر العلوم . ٢٢٣/٣

في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

(والرؤيا صور حسية في الخيال تذهب الآراء والأفكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الأنبياء كرؤيا ملك مصر التي عبرها سيدنا يوسف عليه السلام ، ورؤيته هو في صغره وقد ظهرت بعد كما قصها الله علينا ، وسيأتي بيانها مع بحث مسهب في الرؤيا في تفسير الآية ٥ من سورة يوسف وفي الآية ٣ منها فما بعدها أيضا).

ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث (يتعبد) فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها (أي تلك الليالي) حتى جاءه الوحي ، وفي رواية حتى فاجاءه وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني (ضمني وعصرني ، **والحكمة في ذلك** أن لا يشتغل بالالتفات إلى غيره ومبالغة في تصفية قلبه ولهذا كررها ثلاثا) حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني". [1]

٨٥-"والرؤيا صور حسية في الخيال تذهب الآراء والأفكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الأنبياء كرؤيا ملك مصر التي عبرها سيدنا يوسف عليه السلام ، ورؤيته هو في صغره وقد ظهرت بعد كما قصها الله علينا ، وسيأتي بيانها مع بحث مسهب في الرؤيا في تفسير الآية ٥ من سورة يوسف وفي الآية ٣ منها فما بعدها أيضا).

ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث (يتعبد) فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها (أي تلك الليالي) حتى جاءه الوحي ، وفي رواية حتى فاجاءه وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني (ضمني وعصرني ، **والحكمة في ذلك** أن لا يشتغل بالالتفات إلى غيره ومبالغة في تصفية قلبه ولهذا كررها ثلاثا) حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني

(١/٥٠)

بيان المعاني ، ج ١ ، ص : ٥١". [2]

٨٦-"لها نهاية ، راجع الآية ٢٧ من سورة لقمان أيضا ، وإذا كان الله تعالى لم يطلع رسوله على معنى الروح وهو حبيبه وصفيه من خلقه ، فما بال الناس يبحثون عنها والتعرف إليها ؟ وغاية عقول العوالم فيها عضال ، ونهاية سعي الفلاسفة فيها ضلال ، روي عن أبي هريرة أنه قال : لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح ، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيتها بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه ، **والحكمة في ذلك** تعجيز العقل عن إدراك مخلوق

(١) بيان المعاني ١/٥٠

(٢) بيان المعاني ١/٦٧

مجاور له ، فعليه أن يستدل به على أنه عن معرفة خالقه أعجز.

ولما أيسوا من معرفة الروح اختلفوا في معناها ، فقيل إنه جسم دقيق هوائي متشرب في كل جزء من الحيوان ، وقيل هو عبارة عن هذه البنية المحسوسة والهيكل المجسم ، وقيل هو الدم لأن الإنسان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم ، وقيل هي النفس لأن الإنسان يموت بانحباس نفسه ، وقيل هي اعرض ، وقيل هي جسم لطيف بمثابة الإنسان ، وقيل هي معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ، ألا ترى أنه إذا كان موجودا يكون الإنسان موصوفا بهذه الصفات جميعها ، وإذا خرج منه ذهب عنه الكل فلا يوصف بشيء منها ، وسبب هذا الاختلاف ناشيء عن عدم المعرفة بحقيقتها ، لأن المحدود إذا كان لا يعرف كيف يحد وغير المحدود بما يميزه ، لا يمكن أن يعرف ، وإذا كان كذلك فالأولى أن يوكل علم حد الروح إلى الله تعالى كما وكل هو جل شأنه علمها إليه ، وهذا هو ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة «وما أوتيتم» أيها الناس «من العلم» بشيء من مكونات الله تعالى «إلا» علما «قليلا» ٨٥ جدا لا يذكر في جنب معلوماته.

واعلموا أن ما أوتيتم من العلم لا يمكن تعلقه باحتمال هذا الذي هو من خصائصه ، وفي هذه الجملة معنى النهي عن السؤال عن الروح لعدم تعليمه إلى الرسول.". (١)

٨٧-"بيان المعاني ، ج ٢ ، ص : ٥٦٢

لها نهاية ، راجع الآية ٢٧ من سورة لقمان أيضا ، وإذا كان الله تعالى لم يطلع رسوله على معنى الروح وهو حبيبه وصفيه من خلقه ، فما بال الناس يبحثون عنها والتعرف إليها ؟ وغاية عقول العوالم فيها عضال ، ونهاية سعي الفلاسفة فيها ضلال ، روي عن أبي هريرة أنه قال : لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح ، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيتها بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه ، **والحكمة في ذلك** تعجيز العقل عن إدراك مخلوق مجاور له ، فعليه أن يستدل به على أنه عن معرفة خالقه أعجز.

ولما أيسوا من معرفة الروح اختلفوا في معناها ، فقيل إنه جسم دقيق هوائي متشرب في كل جزء من الحيوان ، وقيل هو عبارة عن هذه البنية المحسوسة والهيكل المجسم ، وقيل هو الدم لأن الإنسان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم ، وقيل هي النفس لأن الإنسان يموت بانحباس نفسه ، وقيل هي اعرض ، وقيل هي جسم لطيف بمثابة الإنسان ، وقيل هي معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ، ألا ترى أنه إذا كان موجودا يكون الإنسان موصوفا بهذه الصفات جميعها ، وإذا خرج منه ذهب عنه الكل فلا يوصف بشيء منها ، وسبب هذا الاختلاف ناشيء عن عدم المعرفة بحقيقتها ، لأن المحدود إذا كان لا يعرف كيف يحد وغير المحدود بما يميزه ، لا يمكن أن يعرف ، وإذا كان كذلك فالأولى أن يوكل علم حد الروح إلى الله تعالى كما وكل هو جل شأنه علمها إليه ، وهذا هو ما أجمع عليه أهل السنة والجماعة «وما أوتيتم» أيها الناس «من العلم» بشيء من مكونات الله تعالى «إلا» علما «قليلا» ٨٥ جدا لا يذكر في جنب معلوماته.

واعلموا أن ما أوتيتم من العلم لا يمكن تعلقه باحتمال هذا الذي هو من خصائصه ، وفي هذه الجملة معنى النهي عن

---

(١) بيان المعاني ١/٣٢٤

السؤال عن الروح لعدم تعليمه إلى الرسول.

ومما يدل على أن هذه الآية مكية لا مدنية ، ما أخرجه ابن اسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت هذه الآية بمكة ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة أتاه أحبار اليهود فقالوا يا محمد إنا نعجب من قولك ، ألم يبلغنا عنك أنك تقول : (وما أوتيتم من العلم) الآية أفتعنينا أم قومك ؟ قال كلا عنيت.

قالوا إنك تتلو أنا أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شي ء ، وتتلو (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي". [(١)]

٨٨-"و قوله: «و تحسبهم أيقاظا و هم رقود» الأيقاظ : جمع يقظ و يقظان و الرقود جمع راقد و هو النائم ، و في الكلام إشارة إلى أنهم كانوا مفتوحي الأعين حال نومهم كاليقظان ، **والحكمة في ذلك** حفظ أبصارهم أن تتجمد في المآقي وتلتصق الأجفان بطول المدة .

و قوله: (و نقلبهم ذات اليمين و ذات الشمال) لئلا تأكلهم الأرض، و لا تبلى ثيابهم، و لا تبطل قواهم البدنية بالركود و الخمود طول المكث.

حتى لا تترسب الأملاح في جهة واحدة فتتآكل أجسادهم وتتعرض للتلف والتعفن .

فائدة : وقد ذكر الأطباء : أن من الإصابات الشائعة و الصعبة العلاج مشكلة حدوث ما يسمى بقرحة السرير ، عند المرضى الذين تضطرهم حالتهم للبقاء الطويل في السرير كما في كسور الحوض و العمود الفقري أو الشلل أو حالات السبات الطويل و هذه عبارة عن قرح وموت في خلايا الجلد و الأنسجة بسبب نقص التروية الدموية عن بعض مناطق الجلد ، نتيجة انضغاطها بين الأجزاء الصلبة من البدن و مكان الاضطجاع و أكثر ما تحصل في المنطقة العجزية و الأليتين و عند لوحي الكتفين و كعبي القدمين ، و لا وقاية من حدوث هذه القرح سوى تقليب المريض ، و قد تكون هذه هي الحكمة من تقليب الله عز و جل لأهل الكهف لوقايتهم من تلك الإصابة و إن كانت قصة أهل الكهف كلها تدخل في نطاق المعجزة !!. (١) .

وهذا من لطف الله بأهل الكهف .

---

(١) - مع الطب في القرآن الكريم تأليف الدكتور عبد الحميد دياب الدكتور أحمد قرقوز مؤسسة علوم القرآن دمشق". [(٢)]

٨٩-" ١٤ - آل عمران

الخطاب فظاهرها وإن اقتضى توجيه الخطاب الثاني الى المشركين لكنه ليس بنص في ذلك لأنه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأول باق بحاله فلعل رؤية المشركين نزلت منزلة رؤية اليهود لما بينهم من الإتحاد في الكفر والأتفاق في الكلمة

---

(١) بيان المعاني ٥٦٢/٢

(٢) تأملات في قصة أصحاب الكهف ص/٢٩

لاسيما بعد ما وقع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف من العهد والميثاق فأسندت الرؤية إليهم مبالغة في البيان وتحقيقا لعروض مثل تلك الحالة لهم فتدبر وقيل المراد جميع الكفرة ولا ريب في صحته وسداده وقرئ يرونهم وترونهم على البناء للمفعول من الأرادة أي يريهم أو يريكم الله تعالى كذلك

رأي العين مصدر مؤكد ليرونهم إن كانت الرؤية بصرية أو مصدر تشبيهى إن كانت قلبية أي رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مجرى رؤية العين

والله يؤيد أي يقوى

بنصره من يشاء أن يؤيده من غير توسيط الأسباب العادية كما أيد الفئة المقاتلة في سبيله بما ذكر من النصر وهو من تمام القول المأمور به

إن في ذلك إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيرا المستتبعة لغلبة القليل العديم العدة على الكثير الشاكي السلاح وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلة المشار إليه في الفضل

لعبرة العبرة فعلة من العبور كالركبة من الركوب والجلسة من الجلوس والمراد بها الاتعاظ فإنه نوع من العبور أي لعبرة عظيمة كائنة

لأولى الأبصار لذوي العقول والبصائر وقيل لمن أبصرهم وهو إما من تمام الكلام الداخل تحت القول مقرر لما قبله بطريق التذييل وإما وارد من جهته تعالى تصديقا لمقالته عليه الصلاة و السلام

زين للناس كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس

حب الشهوات الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات أو أيذانا بانهما كهم في حبها بحيث أحبوا شهواتها كما في قوله تعالى إني أحببت حب الخير أو استرذالا لها فإن الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو الباري سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعي **والحكمة في ذلك** ابتلاؤهم قال تعالى إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم الآية فإنها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة وسيلة إلى بقاء النوع وإيثار صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء وقرئ على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الاية الكريمة على ذمها وفرق الجبائى بين المباحات فأسند تزيينها إليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان

من النساء والبنين في محل النصب على أنه حال من الشهوات وهي مفسرة لها في المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن في معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن

والقناطير المقنطرة جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة الف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل ". (١)

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/١٤

٩٠-" الرعد ٣٧ ٣٨ لكم إلى إنكاره لإطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا فما لكم تشركون به عزير أو المسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به إليه إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد أدعو الناس لا إلى غيره أولا إلى شيء آخر مما لم يطبق عليه الكتب الإلهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه إنكاركم وإليه إلى الله تعالى وحده مآب مرجعي للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة و السلام بأن يخاطبهم بذلك إلزاما وتبكيتا لهم ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان **الحكمة في ذلك** فقيل وكذلك أنزلناه أي ما أنزل إليك وذلك إشارة إلى مصدر أنزلناه أو أنزل إليك ومحله النصب على المصدرية أي مثل ذلك الإنزال البديع المنتظم لأصول مجمع عليها وفروع متشعبة إلى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه حكما حاكما يحكم في القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه عربيا مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للإشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة إذ بذلك يسهل فهمه وإدراك إعجازه والاقتصار على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل إنما أمرت أن أعبد الله الخ يأباه التعرض لإتباع أهوائهم وحديث المحور والإثبات وأن لكل أجل كتاب فإن المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والإتباع ولئن تبعت أهواءهم التي يدعونك إليها من تقرير الأمور المخالفة لما أنزل إليك من الحق كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل بعد ما جاءك من العلم العظيم الشأن الفائض من ذلك الحكم العربي أو العلم بمضمونه مالك من الله من جنابه العزيز والالتفات من التكلم إلى الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة قال الأزهري لا يكون إلها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا من ولي يلي أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل ولا واق يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدو نفي الواقي من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفي للتأكيد كقولك مالي دينار ولا درهم أو مالك من باس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع إنما هي لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين واللام في لئن موطئة ومالك ساد مسد جوابي الشرط والقسم ولقد أرسلنا رسلا كثيرة كائنة من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذريته ". (١)

٩١-"المحرمات من الرضاع :

والمحرمات من الرضاع سبع أيضا كما هو الحال في النسب لقوله E : « يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » والآية الكريمة لم تذكر من المحرمات بالرضاع سوى (الأمهات ، والأخوات) والأم أصل والأخت فرع ، فنبه بذلك على جميع الأصول والفروع ، ووضحت السنة النبوية ذلك بالتفصيل وبصريح العبارة كما في الحديث السابق ، وقد ثبت في الصحاح عنه A أنه قال عن ابنة حمزة « إنها ابنة أخي من الرضاعة » .

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٢٦

المحرمات بسبب المصاهرة :

وأما المحرمات بسبب المصاهرة فقد ذكرت الآية الكريمة منهن أربعا وهن كالتالي :

أ – زوجة الأب لقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النسآء ﴾ .

ب – زوجة الابن لقوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ .

ج – أم الزوجة لقوله تعالى : ﴿ وأمهات نسآئكم ﴾ .

د – بنت الزوجة إذا دخل بأمها لقوله تعالى : ﴿ وربائبكم الاتي في حجوركم من نسآئكم الاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ .

والأصل في هذا أن أم الزوجة تحرم بمجرد العقد على البنت ، ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم الآية الكريمة ﴿ الاتي دخلتم بهن ﴾ وقد استنبط العلماء من ذلك هذه القاعدة الأصولية وهي : (العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات) .

تنبيه : الربيبة (بنت الزوجة) التي دخل بأمها تحرم على الزوج سواء كانت في حجره أو لم تكن في حجره ، والتقييد في قوله ﴿ الاتي في حجوركم ﴾ ليس للشرط أو للقيد وإنما هو لبيان الغالب ، لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بإجماع الفقهاء فتدبره .

المحرمات حرمة مؤقتة

وقد أشارت الآية الكريمة إلى من يحرم الزواج بهن حرمة مؤقتة وذكرت نوعين :

أ – الجمع بين الأختين لقوله تعالى : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ وألحقت السنة المطهرة (الجمع بين المرأة وعمتها) و (الجمع بين المرأة وخالتها) زيادة على الجمع بين الأختين .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي A نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها .

والحكمة في ذلك خشية القطيعة لحديث ابن عباس : نهى رسول الله A أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال : « إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

ب – زوجة الغير أو معتدته رعاية لحق الزوج لقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النسآء ﴾ أي المتزوجات من النساء ، والمعتدة حكمها حكم المتزوجة ما دامت في العدة ، وقد مر حكمها سابقا في سورة البقرة [٢٣٥] في قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ وبينا **الحكمة في ذلك** فارجع إليها هناك والله يتولاك .". [١]

٩٢–". . وأعجب منه أن (اللعان) يمين عنده وهولا يصلح لإيجاب المال ولا لإسقاطه بعد الوجوب ، وأسقط به كل من الرجل والمرأة الحد عن نفسه وأوجب به (الرجم) الذي هو أغلظ الحدود على المرأة!! وكون النكول إقرارا به شبهة ، (والحدود تدرأ بالشبهات) .

---

(١) تفسير آيات الأحكام ص/٢٠٧

ووافق الإمام (أحمد) C الأحناف في حكم الزوجة الممتنعة في إحدى الروايتين عنه بأنها تحبس ولا ترجم وفي رواية أخرى عنه : لا تحبس ويخلى سبيلها كما لو لم تكمل البينة .

وجاء في كتاب « فقه السنة » للسيد سابق ما نصه :

قال ابن رشد : (وبالجملة فقاعدة الدماء مبناها في الشرع على أنها لا تراق إلا بالبينة العادلة أو الاعتراف ، ومن الواجب ألا تخصص هذه القاعدة بالاسم المشترك) . . فأبو حنيفة في هذه المسألة أولى بالصواب إن شاء الله وقد اعترف أبو المعالي في كتابه « البرهان » بقوة الإمام أبي حنيفة في هذه المسألة وهو شافعي) انتهى .

أقول : رأي أبي حنيفة وإن كان وجيها إلا أنه ليس بقوة رأي الجمهور لظهور أدلتهم النقلية ، وهو ما نختاره كما اختاره شيخ المفسرين الطبري وغيره من الجهابذة الأعلام .

الحكم السابع : هل آية اللعان ناسخة لآية القذف؟

إن الروايات التي ذكرت في سبب النزول متفقة كلها على ثلاثة أمور : أولها : أن آيات اللعان نزلت بعد آية القذف أن حكم من رمى زوجة كحكم من رمى الأجنبية .

ثالثها : أن آية (اللعان) نزلت تخفيفا على الزوج وبيانا للمخرج مما وقع فيه من القذف .

وبناء على ذلك فإن قواعد أصول الحنيفية تقضي بأن آيات اللعان ناسخة لعموم آية القذف ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾ [النور : ٤] لتراخي نزولها عنها .

وعلى مذهب الأحناف : يكون ثبوت (حد القذف) على من قذف زوجته منسوخا بآيات اللعان وليس على الزوج سوى الملاعنة لا غير . . . وعلمذهب الأئمة الثلاثة : تتكون آيات اللعان مخصصة للعموم في آية القذف لا ناسخة لها .

ويصبح معنى الآيتين : كل من قذف محصنة ولم يأتي بأربعة شهداء فعليه (حد القذف) إلا من قذف زوجته فعليه (الحد أو اللعان) ، والخلاف في الحقيقة شكلي لا جوهري .

الحكم الثامن : هل يفرق بين المتلاعنين؟

قضت السنة النبوية أن المتلاعنين لا يجتمعان أبدا ، فإذا تلاعن الزوجان وقعت الفرقة بينهما على سبيل (التأبيد) لما روي عن ابن عباس أن النبي A قال : « المتلاعنان إذا تفرقا لا يجتمعان أبدا » . وعن علي وابن مسعود قالا : (مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان) . . **والحكمة في ذلك** (التحريم المؤبد) أنه قد وقع بينهما من التباغض والتقاطع ما أوجب القطيعة بينهما بصفة دائمة . فإن الرجل إن كان صادقا فقد أشاع فاحشتها وفضحها على رؤوس الأشهاد ، وأقامها مقام الخزي والغضب ، وإن كان كاذبا فقد أضاف إلى ذلك أنه بهتها وزاد في إيلامها وحسرتها وغيظها .". (١)

---

(١) تفسير آيات الأحكام ص/٣٣٥

٩٣-"فذكر الأجور ليس للقيد أو الشرط وغنما هو لبيان الأفضل .

اللطيفة الثالثة : تخصيص ما ملكت يمينه في قوله تعالى : ﴿ ممآ أفآء الله عليك ﴾ للإشارة إلى أنها أحل وأطيب مما تشتري من الجلب . فما سبي من دار الحرب قيل فيه (سبي طيبة) ، وما كان عن طريق العهد قيل (سبي خبيثة) والله تعالى لا يرغب لنبيه إلا في الطيب ، دون الخبيث . أفاده أبو حيان في « البحر المحيط » .

اللطيفة الرابعة : ذكر العم والخال مفردا ، وجمع العمات والخالات في قوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ قال ابن العربي : **والحكمة في ذلك** أن العم ، والخال في الإطلاق (اسم جنس) كالشاعر ، والراجز ، وليس كذلك في العمة والخالة ، وقد جاء الكلام عليه بغاية البيان ، على العرف الذي جرى عليه العرب كما قيل : (قالت بنات العم يا سلمى) .

وكقولهم : (إن بني عمك فيهم رماح) وهذا دقيق فتأملوه .

اللطيفة الخامسة : العدول عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى : (إن أراد النبي) ثم الرجوع إلى الخطاب في قوله (خالصة لك) وذكره A في الموضعين بعنوان (النبوة) للدلالة على أن الاختصاص كان من الله تعالى تكرمة له لأجل النبوة ، والتكرير للتفخيم من شأنه A ، وبيان استحقاقه الكرامة لنبوته .

قال الزجاج : وإنما قال : (إن وهبت نفسها للنبي) ولم يقل : لك ، لأنه لو قال : « لك » جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله A كما جاز في بنات العم وبنات العمات .

وجوه القراءات

أولا : قوله تعالى : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ قرأ الجمهور ﴿ وامرأة ﴾ بالنصب عطفا على مفعول (أحللا) و (إن وهبت) بكسر الهمزة شرطية ، وقرأ أبو حيوة (وامرأة مؤمنة) بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف أي أحللناها لك .

وقرأ الحسن ﴿ أن وهبت ﴾ بفتح الهمزة وتقديره : لأن وهبت نفسها للنبي .

ثانيا : قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ ترجي ﴾ بغير همز ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ﴿ ترجئ ﴾ مهموزا والمعنى واحد .

ثالثا : قرأ ابن محيصن ، والجوني ﴿ أن تقر ﴾ بضم التاء وكسر القاف ﴿ أعينهن ﴾ بنصب النون ، وقرأ الجمهور ﴿ أن تقر أعينهن ﴾ فالأولى من (أقر) الرباعي ، والثانية من (قر) الثلاثي فتنبه .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النسآء ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يحل ﴾ بالياء ، وقرأ أبو عمرو (تحل) بالتاء .

قال ابن الجوزي : والتأنيث ليس بحقيقي ، إنما هو تأنيث الجمع ، فالقراءتان حسنتان .

وجوه الإعراب

أولا : قوله تعالى : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ اللاتي : اسم موصول للمؤنث في محل نصب صفة لقوله (أزواجك) و (

أجورهن) مفعول ثان لآتيت لأنها بمعنى أعطيت ، والمفعول الأول محذوف تقديره : آيتتهن ."[1]

٩٤-"قوله تعالى: ﴿لعلكم تشكرون﴾.

قال ابن عطية: الترجي مصروف للمخاطب أي (عفونا) (عنكم) لتكونوا بحيث (يترجى) المخاطب (بها) شكركم عليه.

وفسره الزمخشري على مذهبه بالإرادة.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم ... ﴾

الظلم هنا المراد به الكفر لتقيده (باتخاذ) العجل. قال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وقال جل ذكره: ﴿الذينءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ هو مطلق فلذلك أشكل على الصحابة رضي الله عنهم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟

قال ابن عرفة: وقدم المجرور هنا على المفعول، والأصل تأخيره عنه، ولا (يقدم) إلا لنكتة (تتوخى) **والحكمة في ذلك** أن النداء إقبال على المنادى، وتخصيص له فلو قيل: (وإذ) قال موسى: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم لقومه. لما كان لقومه فائدة بخلاف قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح﴾ فإن تقديم المجرور هناك (بمعنى) آخر وهو الاعتناء بالمقول له وتشريفه، والاهتمام به وتخصيصه بتلك المقالة دون غيره، وبين (بقوله): ﴿ظلمتم أنفسكم﴾ أن الله تعالى منزه عن أن يناله شيء من ظلمهم، وإنما ضرر ذلك راجع (إليهم).

قال ابن عرفة: وهذا (يشبه المحدود)، فإنه لا تنفع فيه الشفاعة، ولا (تسقطه) التوبة كما قال الإمام مالك رضي الله عنه في المحارب: إذا قتل (أحدا) فعفا عنه وليه، أن الحد لا يرتفع لأن الحق لله تعالى، فلذلك قال: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ وهذا بيان للتوبة، (و) الفاء (للتسبيب أو للتعقيب).

قوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم ... ﴾

الإشارة

إلى التوبة بشرطها، وهو القتل، و (خير) هذا إما (فعل)، لأن (ضده) وهو عدم التوبة لا خير فيه، أو أفعل من، لأن ضده المشارك له في مطلق الخيرية هو التوبة مع علم قتل الأنفس.

قوله تعالى: ﴿فتاب عليكم ... ﴾

إما علم أنكم تتوبون، وإما على المعنى ألهمكم (للتوبة) أو يسرها لكم.

قوله تعالى: ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾

قال ابن عرفة: الوصف بالرحيم دليل لنا على المعتزلة في إبطال قاعدة التحسين والتقبيح، وأن الله تعالى لا". [2]

---

(١) تفسير آيات الأحكام ص/٤٤٧

(٢) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة ١/١١٤

٩٥-"قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ... (٣٥)﴾

المراد الهداية بالفعل واعتزل [المهدوي*] هنا، فقال: لاضطرهم إلى الهداية فاهتدوا.

قيل لابن عرفة: قال بعضهم: لو شاء الله لنصب لهم الدلائل المتوسطة ليظهر **الحكمة في ذلك** فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم فيقع الثواب والعقاب بسبب.

قوله تعالى: (فلا تكونن من الجاهلين).

وقال لنوح: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) فأورد المفسرون سؤالا من ناحية أن [الخطاب للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم*]، والمراد أمته، وإما أن نوحا خوطب بهذا السند وسببه، وإما لأن القريب المحبوب ليشدد عليه النهي أكثر ممن ليس كذلك كراهة أن يقع المحظور، قلت: ونحوه نقل القاضي عياض في مداركه عن بعضهم لمن عرف بالسهروردي المالكي فقيه بغداد، وأنشدوا:

[لا تصيب*] الصديق قارعة التأنيب ... إلا من الصديق الرغيب

وأخبر ابن عطية بأن الأمر الذي نهى عنه نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم أكبر وأعظم من الذي نهى عنه نوح عليه السلام، فكان النهي في [الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما*] بحسب تعلقه (رحمه الله١)، ابن عرفة: وعادتهم يجيبون بوجهين:

أحدهما أن نوحا خوطب بهذا حيث لم يكن هنالك كفار بوجه؛ لأنه خوطب به بعد أن غرق الكفار، ولم يبق سوى هو وقومه، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم خوطب بذلك في محل الكفار. [ليعتبروا*] بهم، فشدد عليه في النهي لينزجر الكفار ويتعظوا.

الثاني: أن هذا ينتج العكس سواء، فيعجل نهيه مقرونا بالتخويف، لقوله (إني أعظك) هو أكثر من نهي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، قلت: وكذا قال القاضي عياض في مداركه لما ذكر ما نقلنا عنه، ثم قال: والصحيح أن الآيتين بمعنى وانظر كتاب الشفاء لعياض.

قوله تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى ... (٣٦)﴾

قال ابن عرفة: هذا يحتمل وجهين:

رحمه الله________________

(رحمه الله١) قال القاضي أبو محمد: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجئ بحسب النبيين، وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، وبين أن الأمر الذي نهى عنه محمد صلى الله عليه وسلم أكبر قدرا وأخطر مواقعة من الأمر الذي واقعه نوح صلى الله عليه وسلم. اهـ (المحرر الوجيز. ٢/ ٢٨٨)." [١]

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة ١٥٢/٢

٩٦-"الحالات إلا أن بدل الغلط والبداء والنسيان، قال: وينضاف إليها رابع، وهو أن يقصد الإخبار عن رؤية زيد وعمرو على أن يبتدئ بذكر رؤية زيد ثم تضرب [عنه*]، وتذكر رؤية عمرو من غير بدء يلحقك في ذلك، وهو كالعطف في المعنى، وقد حكي عن العرب: أكلت خبزا لحما تمرا، فحمله بعض النحويين على حذف حرف العطف، والأولى [عطفه على هذا النوع*]، وحذف حرف العطف ضعيف ولو جاز حذفه لجاز، اختصم زيد وعمرو ولا [يقوله أحد*]، وقد حمل عليه ابن خروف، قوله تعالى: (قتل أصحاب الأخدود (٤) النار ذات الوقود)، فقال: (النار) بدل إضراب من الأخدود، وجعله الفارسي بدل اشتمال، انتهى، وهذا نص في صحة تعدد الأبدال.

الزمخشري: ويجوز أن يكون بدلا من موصوف: (أواب حفيظ) ولا يجوز أن يكون في حكم (أواب) و (حفيظ) لأن من لا يوصف به ولا يوصف من بين سائر الموصلات إلا بالذي [وحده*]، انتهى. يريد بقوله في حكم (أواب) أي صفة لأواب، ونقل ابن حيان في شرح تسهيل الفوائد لابن مالك، عن الزجاج: أنه أجاز وقوع (من) صفة.

قوله تعالى: ﴿ولدينا مزيد (٣٥)﴾

ابن عطية: وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: "اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [بل ما أطلعتهم عليه*]، وروي عن جابر، أن المزيد النظر إلى وجه الله عز وجل، انتهى، (بل) من ألفاظ الاستثناء بمعنى دع.

قال الترمذي: معنى الحديث سوى ما أطلعتم عليه، وقيل: دع ما أطلعتم.

قوله تعالى: ﴿أشد منهم بطشا ... (٣٦)﴾

لم يقل: أبطش منهم مع أنه ثلاثي يصح [بناء*] أفعل منه، فما **الحكمة في ذلك؟** وجوابه: أنه قصد التنبيه على اتصاف المفعول بشدة البطش؛ لأن أفعل من تقتضي الشركة في مادة الفعل، وتقدم نحو هذا للزمخشري في سورة البقرة في: (أو أشد قسوة).

قوله تعالى: ﴿وما بينهما في ستة أيام ... (٣٨)﴾". (١)

٩٧-"ثم يود أن يفتدي من ذلك بالأخ والفصيلة، وهو الأكثر من الأولين فهو أقوى في الحظوة.

الوجه الثاني: أنه ترق باعتبار المحبة وتعلق النفس لقولهم: من أحب شيئا استكثر منه، فالإنسان ما يستحضر في ذهنه إلا من يحب [عند*] نزول البلاء، إنما يود الفداء بمن دونهم في المحبة، ثم بمن دونهم، فإن قلت: إنما جرت عادة العرب، أن يفتدوا آبائهم وأمهاتهم يقولون، كما في الحديث: بأبي أنت وأمي، قلت: [هذا*] بالعرف، وهذا باعتبار الحقيقة.

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة ٦٣/٤

قوله تعالى: ﴿كلا ... (١٥)﴾

قال الغزالي: لم تقع في القرآن إلا في النصف الثاني، **والحكمة في ذلك** أن الأول [أكثره*] مدني، والزجر في المدينة إنما كان بالسيف، قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ)، (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر)، (وقاتلوا المشركين كافة)، والنصف الثاني: أكثره مكي، والزجر في الحكمة إنما كان بالقول.

قوله تعالى: (إنها لظى).

قال بعضهم: هذا يدل على جواز عود الضمير على ما بعده لموافقة الاسم في الخبر للتأنيث.

قوله تعالى: ﴿من أدبر وتولى (١٧)﴾

يحتمل أن يكون العطف تأسيسا، ويكون المراد بمن (أدبر) من لم يزل كافرا وبـ (تولى) المرتد، أو المراد بمن (أدبر) الكافر، وبمن (تولى) المنافق، لأن أقبل على الإيمان بظاهره، وتولى عنه بباطنه، وكان القاضي أبو علي عمر بن الربيع يقول: إن (كلا) هنا ليست للزجر، لأن الزجر إنما يصلح، حيث يمكن الانزجار إلا أن لا يكون الزجر على حقيقته، بل على سبيل التبكيت عليهم، قال شيخنا: بل هي للزجر، وتظهر فائدته في الدنيا، لأنهم إذا سمعوا هذه الآية قد ينزجر بعضهم عن كفره ومخالفته، فينجوا من العذاب.

قوله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا (١٩)﴾ .. الزمخشري: المعنى [إن الإنسان لإيثاره*] الجزع والمنع وتمكنهما منه، [ورسوخهما فيه،*] صار كأنه مجبول عليهما [مطبوع*]، وكأنه أمر خلقي [وضروري*] غير اختياري، [كقوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) والدليل عليه أنه حين كان في البطن والمهد لم يكن به هلع، ولأنه ذم والله لا يذم فعله،*] انتهى، هذا من الكلام الموجه، فالمعتزلي يعني به أن الله لا يخلق القبيح الموصوف بالذم،". (١)

٩٨-" صفحة رقم ٢٨٩

(عنكم) لتكونوا بحيث (يترجى) المخاطب (بها) شكركم عليه.

وفسره الزمخشري على مذهبه بالإرادة.

قوله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم.

..

(الظلم هنا المراد به الكفر لتقيده (باتخاذ) العجل.

قال الله تعالى :) إن الشرك لظلم عظيم (وقال جل ذكره :) الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم (هو مطلق فلذلك أشكل على الصحابة هم ، وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ قال ابن عرفة : وقدم المجرور هنا على المفعول ، والأصل

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة ٢٨٨/٤

تأخيره عنه ، ولا (يقدم) إلا لنكتة (تتوخى) **والحكمة في ذلك** أن النداء إقبال على المنادى ، وتخصيص له فلو قيل : (وإذ) قال موسى : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم لقومه.

لما كان". (١)

٩٩-"جيل كما قال تعالى " هو الذي جعلكم خلائف الأرض " وقال " ويجعلكم خلفاء الأرض" وقال " ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون " وقال " فخلف من بعدهم خلف " وقرئ في الشاذ " إني جاعل في الأرض خليفة " حكاها الزمخشري وغيره ونقل القرطبي عن زيد بن علي وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء " فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم قاله القرطبي أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا قال قتادة وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا " أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء" الآية وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك** يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك كما سيأتي .

أي ولا يصدر منا شيء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال " إني أعلم ما لا تعلمون " أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم

٣٣٨@@@". (٢)

١٠٠-"أجعل في الأرض خليفة وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة إن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء .

وقال ابن جرير وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله ومعنى ذلك فقال أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم

---

(١) تفسير ابن عرفة ترقيم الشاملة ١/٢٨٩

(٢) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١/٣٣٧

أيها الملائكة القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ من غيرنا أم منا .
فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك - إن كنتم صادقين في قيلكم أني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم والتقديس فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين
.

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢)
قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا " سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم " أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء لك **الحكمة في ذلك** والعدل التام .
قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس : سبحان الله .
قال تنزيه الله نفسه عن السوء ثم قال : قال عمر لعلي وأصحابه عنده لا إله إلا الله قد عرفناها فما سبحان الله فقال له علي كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال .
٣٥١@@@". [1]

١٠١-"وهكذا رواه النسائي والترمذي من حديث أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين به ثم قال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة .
وروى أبو أسامة عن هشام نحوه .
وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا .
وقال محمد بن إسحق وابن جرير والربيع بن أنس والسدي " قل هو من عند أنفسكم " أي بسبب عصيانكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرماة " إن الله على كل شيء قدير " أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه .
وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين (١٦٦)
وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١/٣٥٠

قال تعالى " وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله " أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره وله **الحكمة في ذلك** " وليعلم المؤمنين " أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا .

وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١٦٧)

وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون

" وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم " يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة ولهذا قال " أو ادفعوا " قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي : يعني كثروا سواد المسلمين وقال الحسن بن صالح ادفعوا بالدعاء وقال غيره رابطوا فتعللوا " قائلين لو نعلم قتالا لاتبعناكم " قال مجاهد يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ولكن لا تلقون قتالا .

قال محمد بن إسحق : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن

٢٠٤@@@". (١)

١٠٢-"رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والنسائي وابن ماجه والترمذي وزاد : فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " اليوم بعشرة أيام.

ثم قال هذا حديث حسن .

وقال ابن مسعود " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " من جاء بلا إله إلا الله ومن جاء بالسيئة يقول بالشرك .

وهكذا جاء عن جماعة من السلف رضي الله عنهم أجمعين وقد ورد فيه حديث مرفوع الله أعلم بصحته لكني لم أروه من وجه يثبت والأحاديث والآثار في هذا كثير جدا وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة.

قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١٦١)

قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين

ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " يقول تعالى آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف " دينا قيما " أي قائما ثابتا " ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين "كقوله " ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه " وقوله " وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٢٥٣/٣

وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم " وقوله " إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين " وليس يلزم من كونه صلى الله عليه وسلم أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما وأكملت له إكمالا تاما لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام وقد قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص حدثنا أحمد بن عصام حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة أنبأنا سلمة بن كهيل سمعت ذر بن عبد الله الهمداني يحدث عن ابن أبزى عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصبح قال أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال الحنيفية السمحة وقال أحمد أيضا حدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : وضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ذقني على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه .
قال عبد الرحمن عن أبيه قال : قال لي عروة إن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ لتعلم يهود أن في ديننا فسحة إني أرسلت بحنيفية سمحة أصل الحديث مخرج في الصحيحين والزيادة لها شواهد من طرق عدة وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري ولله الحمد والمنة .

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢)

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين

وقوله تعالى " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين " يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له وهذا كقوله تعالى " فصل لربك وانحر " أي أخلص له صلاتك وذبحك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى قال مجاهد في قوله " إن صلاتي ونسكي " النسك الذبح في الحج والعمرة .
وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير " ونسكي" قال ذبحي .
وكذا قال السدي والضحاك وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا أحمد بن خالد الذهبي حدثنا محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال : ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين.

لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١٦٣)

لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين

إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين وقوله عز وجل " وأنا أول المسلمين " قال قتادة أي من هذه الأمة وهو كما قال فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه " فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين" وقال تعالى " ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الأخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون " وقال يوسف عليه السلام " رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين " وقال موسى " يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين " وقال تعالى " إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار " الآية .

وقال تعالى " وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون " فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضا إلى أن نسخت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي لا تنسخ أبد الآبدين ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ولهذا قال عليه السلام نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة والله أعلم وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي عن عبد الرحمن الأعرج عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر استفتح ثم قال وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين إلى آخر الآية" اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق ولا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت .

تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد وقد رواه مسلم في صحيحه .

قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (١٦٤)

قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون

يقول تعالى " قل " يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه " أغير الله أبغي ربا " أي أطلب ربا

سواه" وهو رب كل شيء " يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري أي لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكيل تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرا في القرآن كقوله تعالى مرشدا لعباده أن يقولوا له " إياك نعبد وإياك نستعين " وقوله " فاعبده وتوكل عليه" وقوله " قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا" وقوله " رب المشرق والمغرب لا إله هو فاتخذه وكيلا " وأشباه ذلك من الآيات وقوله تعالى " ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى" إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير وإن شرا فشر وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كما قال" وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى " وقوله تعالى " فلا يخاف ظلما ولا هضما " قال علماء التفسير : أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا تهضم بأن ينقص من حسناته وقال تعالى "كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين " معناه كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقراباتهم كما قال في سورة الطور " والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء " أي ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال بل في أصل الإيمان وما ألتناهم أي أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنته ثم قال "كل امرئ بما كسب رهين " أي من شر وقوله " ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون " أي اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف في الدار الدنيا كقوله " قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم " .

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥)

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم

يقول تعالى " وهو الذي جعلكم خلائف الأرض " أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف . قاله ابن زيد وغيره كقوله تعالى " ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون " وكقوله تعالى " ويجعلكم خلفاء الأرض " وقوله " إني جاعل في الأرض خليفة" وقوله " عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون " وقوله " ورفع بعضكم فوق بعض درجات " أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي والمناظر والأشكال والألوان وله **الحكمة في ذلك** كقوله تعالى " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا " وقوله" انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا " وقوله تعالى " ليبلوكم فيما آتاكم " أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء وقوله تعالى " إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم" ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله " وإنه لغفور رحيم " لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب .

وقال محمد بن إسحاق ليرحم العباد على ما فيهم .

رواه ابن أبي حاتم وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب " وقوله" نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم " إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها وتارة بهما لينجع في كل بحسبه جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر وترك ما عنه نهى وزجر وصدقه فيما أخبر إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا زهير عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون ورواه الترمذي عن قتيبة عن عبد العزيز الدراوردي عن العلاء به .

وقال حسن ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى وقتيبة وعلي بن حجر ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء وعنه أيضا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي وعنه أيضا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية من أن تصيبه .

رواه مسلم .

آخر تفسير سورة الأنعام ولله الحمد والمنة .

المص (١)

المص

سورة الأعراف .

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه قال ابن جرير : حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبي عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس " المص " أنا الله أفصل .

كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين (٢)

كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين". (١)

١٠٣-"ببركة أعمالهم بفضله ومنته ثم قال "كل امرئ بما كسب رهين " أي من شر وقوله " ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون " أي اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف في الدار الدنيا كقوله " قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم " .

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥)

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم

يقول تعالى " وهو الذي جعلكم خلائف الأرض " أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف . قاله ابن زيد وغيره كقوله تعالى " ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون " وكقوله تعالى " ويجعلكم خلفاء الأرض " وقوله " إني جاعل في الأرض خليفة" وقوله " عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون " وقوله " ورفع بعضكم فوق بعض درجات " أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي والمناظر والأشكال والألوان وله **الحكمة في ذلك** كقوله تعالى " نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا " وقوله" انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا " وقوله تعالى " ليبلوكم فيما آتاكم " أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره والفقير في فقره ويسأله عن صبره وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ٢٥٤@@@". (٢)

١٠٤-"المياه فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنسائي في التفيسر أيضا من رواية ابن جريح، قال أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سملة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: "خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٤٥٩/٥

(٢) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٢٥٣/٦

فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل" وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة، فجعلوه مرفوعا، وقد حرر ذلك البيهقي.

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك، وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن إذ ههنا زائدة وأن تقدير الكلام وقال ربك، ورده ابن جرير، قال القرطبي وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجتراء من أبي عبيدة ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ قال: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقال: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ وقال: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ وقرى في الشاذ: ﴿إني جاعل في الأرض خليقة﴾ حكاها الزمخشري وغيره، ونقل القرطبي عن زيد بن علي وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره وغيره والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم، قاله القرطبي: أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك، وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا، قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك** يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك". (١)

١٠٥-"من الصحابة ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة، وقال ابن جريج عن مجاهد ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة، وقال ابن جرير: حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالا: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه وعرضت عليه

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ١/٩٠

أمة أمة، وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾ إني لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين، وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن كنتم تعلمون أني لم أجعل في الأرض خليفة، وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن كنتم صادقين أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، وقال ابن جرير وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك. أن كنتم صادقين في قيلكم إني أن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء لك **الحكمة في ذلك** والعدل التام. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس: سبحان الله، قال تنزيه الله نفسه عن السوء، ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده لا إله إلا الله قد عرفناه، فما سبحان الله ؟ فقال لي علي: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال، قال: وحدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا النضر بن عربي قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله، قال: اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء.

قوله تعالى: ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب، وقال مجاهد في قول الله ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء، وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ أي ألم أتقدم إليكم إني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ وكما قال إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ وقيل في قوله تعالى: ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ غير ما ذكرناه، فروى الضحاك عن ابن عباس ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ قال يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار، وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن".

(١)

١٠٦-"عصيانكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ثم قال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله **الحكمة في ذلك** ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال ﴿أو ادفعوا﴾ قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي: يعني كثروا سواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا. قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة، انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم فخرج وعصاني، ووالله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الله عز وجل: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ استدلوا به علة أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان، لقوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ . ثم قال تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر. وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾ ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: ﴿قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي أن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول.

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ١/٩٦

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بمآ آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله". (١)

١٠٧-"يقول تعالى: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كقوله تعالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ وكقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وقوله: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقوله: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان، وله **الحكمة في ذلك**، كقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ وقوله: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء". وقوله تعالى: ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع، فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خبر وطلب. وقال محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم، رواه ابن أبي حاتم، وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ وقوله: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعوا فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زهير عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون" ورواه الترمذي عن قتيبة عن عبد العزيز الدراوردي عن العلاء به، وقال: حسن، ورواه مسلم، عن يحيى بن يحيى وقتيبة وعلي بن حجر، ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما خلق الله الخلق كتب في كتاب

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ١/٥٢٣

فهو عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي" وعنه أيضا قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه" رواه مسلم - آخر تفسير سورة الأنعام، ولله الحمد والمنة.". (١)

١٠٨-"﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون (٣٠) ﴾

يخبر (١) تعالى بامتنانه على بني آدم، بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية [وهو أبو عبيدة] (٢) أنه زعم أن "إذ" هاهنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير.

قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء (٣) من أبي عبيدة.

﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أي: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال ﴿ فخلف من بعدهم خلف ﴾ [مريم: ٥٩]. [وقرئ في الشاذ: "إني جاعل في الأرض خليقة" حكاه الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي] (٤) . وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فإنهم (٥) إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون [أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي] (٦) أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين [وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿ أتجعل فيها ﴾ الآية] (٧) وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك**، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة (٨) الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها (٩) ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ٢/٢٤٤

الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم

---

(١) في جـ: "أخبر".

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) في أ: "إجرام".

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) في جـ، ب: "فإن الله".

(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٨) في جـ: "بالمصلحة".

(٩) في جـ: "الذي ذكروها"." (١)

١٠٩-"الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين.

[وقوله] (١) ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى، ولهذا قالوا: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك **الحكمة في ذلك**، والعدل التام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. [قال] (٢) ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها (٣) فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال (٤) .

قال: وحدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عربي قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن "سبحان الله"، فقال: اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ قال زيد بن أسلم. قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها،

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٢١٦/١

حتى بلغ الغراب.

وقال مجاهد في قول الله: ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء.

وروي عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، نحو ذلك.

فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ أي: ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي، كما قال [الله] (٥) تعالى: ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ وكما قال تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال

---

(١) زيادة من أ.

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) في جـ، ط: "عرفناه".

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/١١٧).

(٥) زيادة من أ.". (١)

١١٠-"سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه (١)

ثم قال تعالى: ﴿ فإن حاجوك ﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ند [له] (٢) ولا ولد ولا صاحبة له ﴿ ومن اتبعن ﴾ على ديني، يقول كمقالتي، كما قال تعالى: ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني [وسبحان الله وما أنا من المشركين] (٣) ﴾ [يوسف : ١٠٨].

ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكتابيين (٤) من الملتين والأميين من المشركين فقال: ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله **الحكمة في ذلك**، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي: هو (٥) عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٣٣] وما ذاك (٦) إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه (٧) عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير (٨) ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ١/٢٢٥

إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وقال تعالى: ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ [الفرقان : ١] وفي الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف (٩) بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميهم، امتثالا لأمر الله له بذلك. وقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي (١٠) صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أهل النار" رواه مسلم (١١) . وقال صلى الله عليه وسلم: "بعثت إلى الأحمر والأسود" (١٢) وقال: "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة". وقال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس، رضي الله عنه: أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي صلى الله عليه وسلم وضوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فلان، قل: لا إله إلا الله" فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: : أشهد أن

---

(١) في أ، و: "بكتابه".

(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفي هـ: "الآية".

(٤) في جـ: "أهل الكتابين".

(٥) في أ، و: "وهو".

(٦) في أ، و: "وذلك".

(٧) في جـ: "الله".

(٨) في أ: "وغير".

(٩) في و: "من طوئف".

(١٠) في جـ، ر، أ، و: "رسول الله".

(١١) صحيح مسلم برقم (١٥٣).

(١٢) في جـ، ر، أ، و: "الأسود والأحمر".". (١)

١١١-"قال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا قراد أبو (١) نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، وكسرت رباعيته

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٢٦/٢

وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ بأخذكم الفداء.

وهكذا رواه الإمام أحمد (٢) عن عبد الرحمن بن غزوان، وهو قراد أبو نوح، بإسناده ولكن بأطول منه، وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن علية عن ابن عون، عن محمد عن عبيدة(ح) قال سنيد -وهو حسين-: وحدثني حجاج عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل، عليه السلام، إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين، إما أن يقدموا فتضرب (٣) أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء، على أن يقتل منهم عدتهم. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، ألا نأخذ فداءهم فنتقوى (٤) به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر.

وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي داود الحفري، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين عن عبيدة، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا (٥) .

وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدي: ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي: بسبب عصيانكم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه (٦) .

ثم قال تعالى:

﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله **الحكمة في ذلك**. [وقوله] (٧) ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

---

(١) في أ، و: "بن".

(٢) المسند (١/٣٠، ٣١).

(٣) في جـ، أ، و: "فيضرب".

(٤) في ر: "فنقوى".

(٥) تفسير الطبري (٧/٣٧٦) وسنن الترمذي برقم (١٥٦٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٧/٣٧٤).

(٧) زيادة من جـ، ر.". (١)

١١٢-"جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها (١) إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ [فاطر : ١٨] ، وقوله ﴿ فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ [طه : ١١٢] ، قال علماء التفسير (٢) : فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين ﴾ [المدثر : ٣٨ ، ٣٩] ، معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود (٣) بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما قال في سورة الطور: ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ [الآية : ٢١] ، أي: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، ﴿ وما ألتناهم ﴾ أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم، بفضله ومنته (٤) ثم قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين ﴾ [الطور : ٢١] ، أي: من شر.

وقوله: ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ [سبأ : ٢٥ ، ٢٦] .

﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وخلفا بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ [الزخرف : ٦٠] ، وكقوله تعالى: ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ [النمل : ٦٢] ، وقوله ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقوله ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف : ١٢٩] .

وقوله: ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله **الحكمة في ذلك**، كقوله: ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وقوله [تعالى] (٥) : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ [الإسراء : ٢١] .

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ١٥٩/٢

(١) في م: "بالأعمال".

(٢) في د، م، أ: "العلماء بالتفسير".

(٣) في أ: "يعود".

(٤) في أ: "ومنه".

(٥) زيادة من أ.". (١)

١١٣-"" صفحة رقم ٦٢١ "

شكرت لك صنيعك وذكرته ، فحذف المضاف ، إذ معنى الشكر : ذكر اليد وذكر مسديها معا ، فما حذف من ذلك فهو اختصار لدلالة ما بقي على ما حذف ، انتهى كلامه ، ويحتاج ، كونه يتعدى لواحد بنفسه ، وللآخر بحرف جر ، فتقول : شكرت لزيد صنيعه ، لسماع من العرب ، وحينئذ يصار إليه .

(ولا تكفرون (: وهو من كفر النعمة ، وهو على حذف مضاف ، أي ولا تكفروا نعمتي . ولو كان من الكفر ضد الإيمان ، لكان : ولا تكفروا ، أو ولا تكفروا بي . وهذه النون نون الوقاية ، حذفت ياء المتكلم بعدها تخفيفا لتناسب الفواصل . قيل : المعنى واشكروا لي بالطاعة ، ولا تكفرون بالمعصية . وقيل : معنى الشكر هنا : الاعتراف بحق المنعم ، والثناء عليه ، ولذلك قابله بقوله :) ولا تكفرون). وهنا ثلاث جمل : جملة الأمر بالذكر ، وجملة الأمر بالشكر ، وجملة النهي عن الكفران . فبدىء أولا بجملة الذكر ، لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى ، وذكر له جواب مترتب عليه . وثنى بجملة الشكر ، لأنه ثناء على شيء خاص ، وقد اندرج تحت الأول ، فهو بمنزلة التوكيد ، فلم يحتج إلى جواب . وختم بجملة النهي ، لأنه لما أمر بالشكر ، لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان ، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات . ونهى عن الكفران ، لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان ، وذلك ممكن لأنه من باب التروك . وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر ونهي ، بدىء بالأمر . وذكرنا **الحكمة في ذلك** في قوله :) وءامنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به (، فأغنى عن إعادته هنا . .

البقرة : (١٥٣) يا أيها الذين . . . . .

(تكفرون يأيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلواة (، قيل : سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا : سيرجع محمد إلى ديننا ، كما رجع إلى قبلتنا . هزهم بهذا النداء المتضمن هذا الوصف الشريف ، وهو الإيمان مجعولا فعلا ماضيا في صلة الذين ، دالا على الثبوت والالتباس به في تقدم زمانهم ، ليكونوا أدعى لقبول ما يرد عليهم من الأمر والتكليف الشاق ، لأن الصبر والصلاة هما ركنا الإسلام . فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة ، وهو أمر قلبي ؛ والصلاة ثمرته ، وهي من أشق التكاليف لتكررها . ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٣٨٤/٣

الكعبة والصلاة إليها أذى كثيرا ، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة . وقد قيد بعضهم الصبر هنا : بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة ، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض . وروي عن ابن عباس وبعضهم قال : هو كناية عن الصوم ، ومنه قيل لرمضان : شهر الصبر ، وبعضهم قال : هو كناية عن الجهاد لقوله : بعد :) ولا تقولوا لمن يقتل (، وهو قول أبي مسلم . والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ ، فتندرج هذه الأفراد تحته . وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس له . وقد تقدم الكلام على شرح هذه الجملة من قوله :) استعينوا بالصبر والصلواة).

) إن الله مع الصابرين (: أي بالمعونة والتأييد ، كما قال : اهجهم ، وروح القدس معك . وقال تعالى :) لا تحزن إن الله معنا (، ومن كان الله معه فهو الغالب ، ولما كانت الصلاة ناشئة عن الصبر ، وصار الصبر أصلا لجميع التكاليف الشاقة قال :) إن الله مع الصابرين (، فاندرج المصلون تحت الصابرين اندراج الفرع تحت الأصل . وأما قوله هناك :) وإنها لكبيرة على الخاشعين (، فأعاد الضمير عليها على ظاهر الكلام ، لأنها أشرف وأشق نتائج الصبر . .

البقرة : (١٥٤) ولا تقولوا لمن . . . . .

(ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون (، قيل : سبب نزول هذه الآية أنه قيل لمن قتل في سبيل الله : مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها ، فأنزلت . نهوا عن قولهم عن الشهداء أموات ، وأخبر تعالى أنهم أحياء ، وارتفاع أموات وأحياء على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هم أموات ، بل هم أحياء . ويحتمل أن يكون بل أحياء ، مندرجا تحت قول مضمر ، أي بل قولوا هم أحياء . لكن يرجح الوجه الأول ، وهو أنه إخبار من الله تعالى قوله :) ولكن لا تشعرون (، لأن معناه : أن حياتهم لا شعور لكم بها ، والظاهر أن المراد حقيقة الموت والحياة . وقيل : ذلك مجاز . واختلفوا فقيل : أموات بانقطاع الذكر ، بل أحياء ببقائه وثبوت الأجر . وكانت العرب". (١)

١١٤-"" صفحة رقم ٣١٠ "

ويحتمل أن يكون أمر بأخذ أربعة ، أي أربعة كانت من غير تعيين ، إذ لا كبير علم في ذكر التعيين .

وقد احتلفوا فيما أخذ ، فقال ابن عباس : أخذ طاووسا ونسرا وديكا وغرابا . وقال مجاهده ، وعكرمة ، وعطاء ، وابن جريج ، وابن زيد : كذلك ، إلا أنهم جعلوا حمامة بدل النسر . وقال ابن عباس أيضا ، فيما روى عبد الرحمن بن هبيرة عنه : أخذ حمامة وكركيا وديكا وطاووسا . وقال في رواية الضحاك : أخذ طاووسا وديكا ودجاجة سندية وأوزة . وقال في رواية أخرى عن الضحاك : أنه مكان الدجاجة السندية : الرأل ، وهو فرخ النعام . وقال مجاهد فيما روى ليث : ديك وحمامة وبطة وطاووس . وقال : ديك وحمامة وبطة وغراب .

وزاد عطاء الخراساني وصفا في هذه الأربعة فقال : ديك أحمر ، وحمامة بيضاء ، وبطة خضراء ، وغراب أسود .

وقال أبو عبد الله : طاووس وحمامة وديك وهدهد ، ولما سأل ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى ، وكان لفظ الموتى جمعا ،

---

(١) تفسير البحر المحيط . (الكتب العلمية) ٦٢١/١

أجيب بأن يأخذ ما مدلوله جمع ، لا أن يأخذ واحدا . قيل : وخص هذا العدد بعينه إشارة إلى الأركان الأربعة التي في تركيب أبدان الحيوانات والنباتات ، وكانت من الطير ، قيل لأن الطير همته الطيران في السماء والارتفاع ، والخليل عليه السلام كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت ، فجعلت معجزته مشاكلة لهمته ، وعلى القول الأول في تعيين الأربعة بما عين قيل : خص الطاووس إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وطول الأمل ، والديك إشارة إلى شدة الشغف بقضاء شهوة النكاح ، والغراب إشارة إلى شدة الحرص والطلب . وما أبدوه في تخصيص الأربعة وفي تعيينها لا تكاد تظهر حكمته فيما ذكروه ، وما أجراه الله تعالى لأنبيائه من الخوارق مختلف ، وحكمة اختصاص كل نبي بما أجرى الله له منها مغيبة عنا . ألا ترى خرق العادة لموسى في أشياء ، ولعيسى في أشياء غيرها ، ولرسولنا محمد (صلى الله عليه وسلم)) وعليهم في أشياء لا يظهر لنا سر **الحكمة في ذلك** ؟ فكذلك كون هذه الأربعة من الطير ، لا يظهر لنا سر حكمته في ذلك .

وأمره بالأخذ للطيور وهو : إمساكها بيده ليكون أثبت في المعرفة بكيفية الإحياء ، لأنه يجتمع عليه حاسة الرؤية ، وحاسة اللمس .

والطير اسم جمع لما لا يعقل ، يجوز تذكيره وتأنيثه ، وهنا أتى مذكرا لقوله تعالى) وخذ أربعة من الطير (وجاء على الأفصح في اسم الجمع في العدد حيث فصل : بمن ، فقيل : أربعة من الطير يجوز الإضافة ، كما قال تعالى :) تسعة رهط (ونص بعض أصحابنا على أن الإضافة لاسم الجمع في العدد نادرة لا يقاس عليها ، ونص بعضهم على أن اسم الجمع لما لا يعقل مؤنث ، وكلا القولين غير صواب .

(فصرهن إليك (أي قطعهن ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن إسحاق . وقال ابن عباس : هي بالنبطية . وقال أبو الأسود : هي بالسريانية ، وقال أبو عبيدة : قطعهن . وأنشد للخنساء : فلو يلاقي الذي لاقيته حضن

لظلت الشم منه وهي تنصار

أي تتقطع . وقال قتادة : فصلهن ، وعنه : مزقهن وفرقهن . وقال عطاء بن أبي رباح : اضممهن إليك . وقال ابن زيد : إجمعهن . وقال ابن عباس أيضا ، أوثقهن . وقال الضحاك : شققهن ، بالنبطية . وقال الكسائي : أملهن .

وإذا كان : فصرهن ، بمعنى الإمالة فتتلعق إليك به ، وإذا كان بمعنى التقطيع تعلق بخذ .

وقرأ حمزة ، ويزيد ، وخلف ، ورويس ، بكسر الصاد ، وباقي السبعة بالضم . وهما لغتان ، كما تقدم : صار يصور ويصير ، بمعنى أمال . وقرأ ابن عباس وقوم". (١)

١١٥-"وقد طال بنا الكلام في هذه الجملة ، وتركنا أشياء مما ذكره الناس ، وهذه التقييدات والتفسيرات التي فسر بها الذكران ، لا يدل اللفظ على شيء منها ، وينبغي أن يحمل ذلك من المفسرين له على سبيل التمثيل وجواز أن يكون المراد. وأما دلالة اللفظ فهي طلب مطلق الذكر ، والذي يتبادر إليه الذهن هو الذكر اللساني. والذكر اللساني لا يكون ذكر لفظ الجلالة مفردا من غير إسناد ، بل لا بد من إسناد ، وأولاها الأذكار المروية في الآثار ، والمشار إليها في القرآن.

---

(١) تفسير البحر المحيط . (الكتب العلمية) ٣١٠/٢

وقد جاء الترغيب في ذكر جملة منها ، والوعد على ذكرها بالثواب الجزيل. وتلك الأذكار تتضمن : الثناء على الله ، والحمد له ، والمدح لجلاله ، والتماس الخير من عنده. فعبر عن ذلك بالذكر ، وأمر العبد به ، فكأنه قيل : عظموا الله ، وأثنوا عليه بالألفاظ الدالة على ذلك. وسمى الثواب المترتب على ذلك ذكرا ، فقال : فاذكروني أذكركم على سبيل المقابلة ، لما كان نتيجة الذكر وناشئا عنه سماه ذكرا. ﴿واشكروا لي﴾ تقدم تفسير الشكر ، وعداه هنا باللام ، وكذلك ﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾ ، وهو من الأفعال التي ذكر أنها تارة تتعدى بحرف جر ، وتارة تتعدى بنفسها ، كما قال عمرو بن لجاء التميمي :

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤١٧

هم جمعوا بؤسي ونعمي عليكمفهلا شكرت القوم إذ لم تقابل

وفي إثبات هذا النوع من الفعل ، وهو أن يكون يتعدى تارة بنفسه ، وتارة بحرف جر ، بحق الوضع فيهما خلاف. وقالوا : إذا قلت : شكرت لزيد ، فالتقدير : شكرت لزيد صنيعه ، فجعلوه مما يتعدى لواحد بحرف جر ولآخر بنفسه. ولذلك فسر الزمخشري هذا الموضع بقوله : واشكروا لي ما أنعمت به عليكم. وقال ابن عطية : واشكروا لي ، واشكروني بمعنى واحد ، ولي أفصح وأشهر مع الشكر ومعناه : نعمتي وأيادي ، وكذلك إذا قلت : شكرتك ، فالمعنى : شكرت لك صنيعك وذكرته ، فحذف المضاف ، إذ معنى الشكر : ذكر اليد وذكر مسديها معا ، فما حذف من ذلك فهو اختصار لدلالة ما بقي على ما حذف ، انتهى كلامه ، ويحتاج ، كونه يتعدى لواحد بنفسه ، وللآخر بحرف جر ، فتقول : شكرت لزيد صنيعه ، لسماع من العرب ، وحينئذ يصار إليه.

﴿ولا تكفرون﴾ : وهو من كفر النعمة ، وهو على حذف مضاف ، أي ولا تكفروا نعمتي. ولو كان من الكفر ضد الإيمان ، لكان : ولا تكفروا ، أو ولا تكفروا بي. وهذه النون نون الوقاية ، حذفت ياء المتكلم بعدها تخفيفا لتناسب الفواصل. قيل : المعنى واشكروا لي بالطاعة ، ولا تكفرون بالمعصية. وقيل : معنى الشكر هنا : الاعتراف بحق المنعم ، والثناء عليه ، ولذلك قابله بقوله : ﴿ولا تكفرون﴾ . وهنا ثلاث جمل : جملة الأمر بالذكر ، وجملة الأمر بالشكر ، وجملة النهي عن الكفران. فبدىء أولا بجملة الذكر ، لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى ، وذكر له جواب مترتب عليه. وثنى بجملة الشكر ، لأنه ثناء على شيء خاص ، وقد اندرج تحت الأول ، فهو بمنزلة التوكيد ، فلم يحتج إلى جواب. وختم بجملة النهي ، لأنه لما أمر بالشكر ، لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان ، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات. ونهى عن الكفران ، لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان ، وذلك ممكن لأنه من باب التروك. وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر ونهي ، بدىء بالأمر. وذكرنا **الحكمة في ذلك** في قوله : ﴿وءامنوا بمآ أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرا بها﴾ ، فأغنى عن إعادته هنا..

٤٤٧

﴿يا أيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلواة﴾ ،

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤١٧

". (١)

١١٦-"قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين ، و: بلى ، إيجاب لما بعد النفي ، معناه : بلى آمنت ، ولكن ليطمئن قلبي ، ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدال. وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك ، بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك. انتهى كلامه. وليس علم الاستدلال يجوز معه التشكيك كما قال ، بل منه ما يجوز معه التشكيك. أما إذا كان عن مقدمات صحيحة فلا يجوز معه التشكيك ، كعلمنا بحدوث العالم ، وبوحدانية الموجد ، فمثل هذا لا يجوز معه التشكيك.

وقال ابن عطية : ليطمئن ، معناه : ليسكن عن فكره في الشيء المعتقد ، والفكر في صورة الإحياء غير محظور ، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها ، بل هي فكر فيها عبر ، إذ حركه إلى ذلك ، أما أمر الدابة المأكولة ، وأما قول النمروذ ﴿ألم تر﴾

.

٢٩٨

انتهى كلامه. وهو حسن.

واللام في قوله : ليطمئن ، متعلقة بمحذوف بعد لكن ، التقدير : ولكن سألت مشاهدة الكيفية لإحياء الموتى ليطمئن قلبي ، فيقتضي تقدير هذا المحذوف تقدير محذوف آخر قبل لكن حتى يصح الاستدراك ، التقدير : قال : بلى أي آمنت ، وما سألت عن غير إيمان ، ولكن سألت ليطمئن قلبي.

وروي عن : ابن جبير ، وإبراهيم ، وقتادة : ليزداد يقينا ، وعن بعضهم : لأزداد إيمانا مع إيماني. قال ابن عطية : ولا زيادة في هذا المعنى تمكن إلا السكون عن الفكر ، وإلا فاليقين لا يتبعض انتهى.

وقال النصراباذي : حن الخليل إلى صنع خليله ولم يتهمه في أمره ، فكأنه قوله الشوق : أرني ، كما قال موسى عليه السلام ، ثم تعلل برؤية الصنع له تأدبا. وحكى القشيري أنه قيل : استجلب خطابا بهذه القالة ، حتى قال له الحق : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى آمنت ، ولكن اشتقت إلى قولك : أو لم تؤمن ؟ فإني بقولك : أو لم تؤمن ؟ يطمئن قلبي. والمحب أبدا يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه.

﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾ لما سأل رؤية كيفية إحياء الموتى أجابة تعالى لذلك ، وعلمه كيف يصنع أولا ، فأمره أن يأخذ أربعة من الطير ، ولم يذكر الله تعالى تعيين الأربعة من أي جنس هي من الطير ، فيحتمل أن يكون المأمور به معينا ، وما ذكر تعيينه ، ويحتمل أن يكون أمر بأخذ أربعة ، أي أربعة كانت من غير تعيين ، إذ لا كبير علم في ذكر التعيين.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٢٨٥

وقد احتلفوا فيما أخذ ، فقال ابن عباس : أخذ طاووسا ونسرا وديكا وغرابا. وقال مجاهده ، وعكرمة ، وعطاء ، وابن

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر) ٣٨٩/١

جريج ، وابن زيد : كذلك ، إلا أنهم جعلوا حمامة بدل النسر. وقال ابن عباس أيضا ، فيما روى عبد الرحمن بن هبيرة عنه : أخذ حمامة وكركيا وديكا وطاووسا. وقال في رواية الضحاك : أخذ طاووسا وديكا ودجاجة سندية وأوزة. وقال في رواية أخرى عن الضحاك : أنه مكان الدجاجة السندية : الرأل ، وهو فرخ النعام. وقال مجاهد فيما روى ليث : ديك وحمامة وبطة وطاووس. وقال : ديك وحمامة وبطة وغراب.

وزاد عطاء الخراساني وصفا في هذه الأربعة فقال : ديك أحمر ، وحمامة بيضاء ، وبطة خضراء ، وغراب أسود.

وقال أبو عبد الله : طاووس وحمامة وديك وهدهد ، ولما سأل ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى ، وكان لفظ الموتى جمعا ، أجيب بأن يأخذ ما مدلوله جمع ، لا أن يأخذ واحدا. قيل : وخص هذا العدد بعينه إشارة إلى الأركان الأربعة التي في تركيب أبدان الحيوانات والنباتات ، وكانت من الطير ، قيل لأن الطير همته الطيران في السماء والارتفاع ، والخليل عليه السلام كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت ، فجعلت معجزته مشاكلة لهمته ، وعلى القول الأول في تعيين الأربعة بما عين قيل : خص الطاووس إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وطول الأمل ، والديك إشارة إلى شدة الشغف بقضاء شهوة النكاح ، والغراب إشارة إلى شدة الحرص والطلب. وما أبدوه في تخصيص الأربعة وفي تعيينها لا تكاد تظهر حكمته فيما ذكروه ، وما أجراه الله تعالى لأنبيائه من الخوارق مختلف ، وحكمة اختصاص كل نبي بما أجرى الله له منها مغيبة عنا. ألا ترى خرق العادة لموسى في أشياء ، ولعيسى في أشياء غيرها ، ولرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم في أشياء لا يظهر لنا سر **الحكمة في ذلك** ؟ فكذلك كون هذه الأربعة من الطير ، لا يظهر لنا سر حكمته في ذلك.

وأمره بالأخذ للطيور وهو : إمساكها بيده ليكون أثبت في المعرفة بكيفية الإحياء ، لأنه يجتمع عليه حاسة الرؤية ، وحاسة اللمس.

والطير اسم جمع لما لا يعقل ، يجوز تذكيره وتأنيثه ، وهنا أتى مذكرا لقوله تعالى ﴿قال فخذ أربعة من الطير﴾ وجاء على الأفصح في اسم الجمع في العدد حيث فصل : بمن ، فقيل : أربعة من الطير يجوز الإضافة ، كما قال تعالى : ﴿تسعة رهط﴾ ونص بعض أصحابنا على أن الإضافة لاسم الجمع في العدد نادرة لا يقاس عليها ، ونص بعضهم على أن اسم الجمع لما لا يعقل

٢٩٩

مؤنث ، وكلا القولين غير صواب.

". (١)

١١٧-"" صفحة رقم ٣٩٩ "

مما يعجل لهم في الدنيا وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل) لو كانوا يعلمون (الضمير للكفار أي لو علموا أن الله

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر) ٢/٢٢٤

يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقهم أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم

النحل : (٤٢) الذين صبروا وعلى . . . . .

) الذين صبروا (على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن ومحله النصب أو الرفع على المدح) وعلى ربهم يتوكلون (منقطعين إلى الله مفوضين إليه الأمر كله

النحل : (٤٣) وما أرسلنا من . . . . .

) وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم (رد لقول قريش الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا أي جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشرا يوحي إليه على ألسنة الملائكة **والحكمة في ذلك** قد ذكرت في سورة) الأنعام (فإن شككتم فيه) فاسألوا أهل الذكر (أهل الكتاب أو علماء الأخبار ليعلموكم) إن كنتم لا تعلمون (وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكا للدعوة العامة وقوله) جاعل الملائكة رسلا (معناه رسلا إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال ورد بما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل صلوات الله عليه وعلى صورته التي هو عليها مرتين وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم

النحل : (٤٤) بالبينات والزبر وأنزلنا . . . . .

) بالبينات والزبر (أي أرسلناهم بالبينات والزبر أي المعجزات والكتب كأنه جواب قائل قال بم أرسلوا ويجوز أن يتعلق بما أرسلنا داخلا في الاستثناء مع رجالا أي وما أرسلنا إلا رجالا بالبينات كقولك ما ضربت إلا زيدا بالسوط أو صفة لهم أي رجالا ملتبسين بالبينات أو بيوحي على المفعولية أو الحال من القائم مقام فاعله على أن". (١)

١١٨-"" صفحة رقم ٤٥٩ "

جمع أم كخف وخفاف **والحكمة في ذلك** اجلال عيسى عليه السلام واظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما وان لا يفتضح أولاد الزنا) فمن أوتي (من المدعوين) كتابه بيمينه (أي كتاب عمله) فأولئك يقرؤون كتابهم (ابتهادا وتبجحا بما يرون فيه) ولا يظلمون فتيلا (ولا ينقصون من اجورهم ادنى شيء وجمع اسم الاشارة والضمير لان من اوتي في معنى الجمع وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على أن من اوتي كتابه بشماله إذا اطلع ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة ولذلك لم يذكرهم من أن قوله) ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى (أيضا مشعر بذلك فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب والمعنى ومن كان في هذه الدنيا اعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة اعمى لا يرى طريق النجاة) وأضل سبيلا (منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة وقيل لان الاهتداء بعد لا ينفعه والاعمى مستعار من فاقد الحاسة وقيل الثاني للتفضيل من عمي بقلبه كالاجهل والابله ولذلك لم يمله أبو عمرو ويعقوب

---

(١) تفسير البيضاوى. ٣/٣٩٩

فإن أفعل". (١)

١١٩-" غيره ونحو هذا في مختصر الطبري قال وقولهم أتجعل فيها ليس بإنكار لفعله عز و جل وحكمه بل استخبار هل يكون الأمر هكذا وقد وجهه بعضهم بأنهم استعظموا الإفساد وسفك الدماء فكأنهم سألوا عن وجه **الحكمة في ذلك** إذ علموا أنه عز و جل لا يفعل إلا حكمة انتهى ت والعقيدة أن الملائكة معصومون فلا يقع منهم مايوجب نقصانا من رتبتهم وشريف منزلتهم صلوات الله وسلامه على جميعهم والسفك صب الدم هذا عرفه وقولهم ونحن نسبح بحمدك قال بعض المتأولين هو على جهة الاستفهام كانهم ارادوا ونحن نسبح بحمدك الآية أم نتغير عن هذه الحال قال ع وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم أتجعل وقال آخرون معناه التمدح ووصف حالهم وذلك جائز لهم كما قال يوسف إني حفيظ عليم وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم أتجعل وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى إني أعلم ما لا تعلمون ومعنى نسبح بحمدك ننزهك عما لا يليق بصفاتك وقال ابن عباس وابن مسعود تسبيح الملائكة صلاتهم لله سبحانه وقال قتادة تسبيحهم قولهم سبحان الله على عرفه في اللغة و بحمدك معناه نصل التسبيح بالحمد ويحتمل أن يكون قولهم بحمدك اعتراضا بين الكلامين كأنهم قالوا ونحن نسبح ونقدس وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك وخرج مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله تعالى إن أحب الكلام إلى الله تعالى سبحان الله وبحمده وفي رواية سئل صلى الله عليه و سلم أي الكلام أفضل قال ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده وفي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه و سلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان ". (٢)

١٢٠-" في أمة محمد إلى قيام الساعة له الحمد كثيرا ص ولكن استدراك بإثبات الفضل لله سبحانه على جميع العالمين لما يتوهمه من يريد الفساد أن الله غير متفضل عليه إذ لم يبلغه مقاصده واحتيج إلى هذا التقدير لأن لكن تكون بين متنافيين بوجه ما انتهى والإشارة بتلك إلى ما سلف من القصص والأنباء وفي هذه القصة بجملتها مثال عظيم للمؤمنين ومعتبر وقد كان أصحاب نبينا محمد صلى الله عليه و سلم معدين لحرب الكفار فلهم في هذه النازلة معتبر يقتضي تقوية النفوس والثقة بالله سبحانه وغير ذلك من وجوه العبر قوله سبحانه تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض الآية تلك رفع بالابتداء والرسل خبره ويجوز أن يكون الرسل عطف بيان وفضلنا الخبر وتلك إشارة إلى جماعة ونص الله سبحانه في هذه الآية على تفضيل بعض النبيين على بعض من غير تعيين وقوله تعالى ورفع بعضهم درجات قال مجاهد وغيره هي إشارة إلى نبينا محمد صلى الله عليه و سلم لأنه بعث إلى الناس كافة وأعطي الخمس التي لم يعطها أحد قبله وهو أعظم الناس أمة وختم الله به النبوءات إلى غير ذلك مما أعطاه من الخلق العظيم ومن معجزاته وباهر آياته ويحتمل اللفظ أن يراد به نبينا

---

(١) تفسير البيضاوى. ٤٥٩/٣

(٢) تفسير الثعالبي ٤٤/١

محمد صلى الله عليه و سلم وغيره ممن عظمت ءاياته وبينات عيسى عليه السلام أحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وخلق الطير من الطين وروح القدس جبريل عليه السلام وقد تقدم ما قال العلماء فيه وقوله تعالى ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم الآية معنى الآية ولو شاء الله ما اقتتل الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله سبحانه ولو شاء الله خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك** وهو الفعال لما يريد سبحانه ص ولو شاء الله ". (١)

١٢١-" لسحر مبين إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فاشبه ذلك ما يفعله الساحر في ظنهم القاصر فسموه سحرا

وقوله سبحانه إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام الآية هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز و جل وتوحيده وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول لها كن فتكون إنما هي ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور قال ع وهذا مما لا يوصل إلى تعليله وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك والله عز و جل قد جعل لكل شيء قدرا وهو أعلم بوجه **الحكمة في ذلك**

وقوله سبحانه يدبر الأمر يصح أن يريد بالأمر اسم الجنس من الأمور ويصح أن يريد الأمر الذي هو مصدر أمر يأمر وتدبيره لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علما قال مجاهد يدبر الأمر معناه يقضيه وحده وقوله سبحانه ما من شفيع إلا من بعد إذنه رد على العرب في اعتقادهم أن الأصنام تشفع لها عند الله

ذلكم الله أي الذي هذه صفاته فاعبدوه ثم قررهم على هذه الآيات والعبر فقال أفلا تذكرون

وقوله إليه مرجعكم جميعا الآية إنباء بالبعث

من القبور

ليجزي هي لام كي والمعنى أن الإعادة إنما هي ليقع الجزاء على الأعمال

وقوله بالقسط أي بالعدل

وقوله الذين كفروا ابتداء والحميم الحار المسخن وحميم النار فيما ذكر عن النبي صلى الله عليه و سلم إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه وهو كما وصفه سبحانه يشوي الوجوه

وقوله سبحانه هوا لذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا الآية هذا استمرار على وصف آياته سبحانه والتنبيه على صنعته الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته

وقوله وقدره منازل يحتمل أن يعود الضمير ". (٢)

---

(١) تفسير الثعالبي ١٩٨/١

(٢) تفسير الثعالبي ١٦٩/٢

١٢٢-" صفحة رقم ٢٩٨

الله تعالى خلق الخلق فهم عبيده وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء ويستعبدهم بما يريد ليس لأحد أن يعترض عليه في شيء مما حل أو حرم ، وإنما على كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه.

وذكر بعض العلماء الفرق بين البيع الربا فقال إذا باع ثوبا يساوي عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلا للعشرين فلما حصل التراضي على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلا للآخر في المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض ، أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض ولا يمكن أن يقال : إن العوض هو الإمهال في مدة الأجل لأن الأمهال ليس مالا أو شيئا يشار إليه حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة فقد ظهر الفرق بين الصورتين.

فصل : في حكم الربا وفيه مسائل

المسألة الأولى : ذكروا في سبب تحريم الربا وجوها : أحدها : أن الربا يقتضي أخذ مال الغير بغير عوض ، لأن من يبيع درهما بدرهمين نقدا كان أو نسيئة فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام.

الوجه الثاني : إنما حرم عقد الربا لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا خف عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة ، فيقضي ذلك إلى انقطاع منافع الناس بالتجارات وطلب الأرباح.

الوجه الثالث : أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض ، فلما حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى.

الوجه الرابع : أن تحريم الربا قد ثبت بالنص ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لا نعلم وجه **الحكمة في ذلك**.

المسألة الثانية : اعلم أن الربا في اللغة هو الزيادة ، وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فثبت أن الزيادة المحرمة هو الربا وهو على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء) وفي رواية : (الورق بالورق ربا إلا هاء وهاء والذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء) (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (الذهب بالذهب وزنا". (١)

١٢٣-" صفحة رقم ٥٨١

على أولي الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة) وكلا (يعني كلا من المجاهدين والقاعدين) وعد الله الحسنى (يعني الجنة بإيمانهم) وفضل الله المجاهدين

---

(١) تفسير الخازن. ٢٩٨/١

(يعني في سبيل الله) على القاعدين (يعني الذين لا عذر لهم ولا ضرر) أجرا عظيما (يعني ثوابا جزيلا.
ثم فسر ذلك الأجر العظيم.
)
النساء : (٩٦) درجات منه ومغفرة...
" درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما " (فقال تعالى : (درجات منه (قال قتادة : كان يقال للإسلام درجة والهجرة في الإسلام درجة الجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة ، وقال ابن زيد الدرجات هي سبع وهي التي ذكرها الله في سورة براءة حين قال : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله (" إلى قوله : (ولا يقطعون واديا إلا كتب الله لهم (" وقال ابن محيريز الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة فتعجب لها أبو سعيد فقال أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هي يا رسول الله ؟ قال الجهاد في سبيل الله)
(خ) عن أبي هريرة قال : قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا أولا نبشر الناس بقولك ؟ فقال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجير أنهار الجنة) فإن قلت قد ذكر الله عز وجل في الآية الأولى درجة واحدة وذكر في هذه الآية درجات فما وجه **الحكمة في ذلك** ؟ قلت أما الدرجة الأولى فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر.
وأما الثانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر فضلوا عليهم بدرجات كثيرة وقيل يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم والدرجات درجات الجنة ومنازلها كما في الحديث والله أعلم.
قوله تعالى : (ومغفرة (يعني لذنوبهم يسترها ويصفح عنها) ورحمة (يعني رأفة بهم) وكان الله غفورا (يعني لذنوب عباده المؤمنين رحيما يعني بهم يتفضل عليهم برحمته ومغفرته عن ابن عمر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما يحكي عن ربه عز وجل قال : قال : (أيما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وأن قبضته غفرت له ورحمته) أخرجه النسائي.
". (١)

---

(١) تفسير الخازن. ١/٥٨١

١٢٤-" صفحة رقم ٢٣٧

لأن الله تعالى ابتدأ الخلق يوم السبت وقطع فيه بعض خلق السموات والأرض وقيل : إن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول عبد الله بن سلام وكعب الأحبار والضحاك ومجاهد واختاره ابن جرير الطبري ، قال الطبري : خلق الله السموات والأرض في ستة أيام وذلك يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وروي بسنده عن مجاهد قال : بدأ خلق العرش والماء والهواء وخلقت الأرض من الماء وبدأ الخلق يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وجمع الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم الستة الأيام كالألف سنة مما تعدون تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال : وسمي سابع الأسبوع سبتا لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق.

قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ : إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والأربعاء ثم دحا الأرض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقبل خلق الله عز وجل التربة يوم الأحد ثم استوى إلى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الأرض ودحاها يوم الأربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة.

وقيل : أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولا ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا.

فإن قلت إن الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر (" فما الفائدة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وما **الحكمة في ذلك** ؟

قلت : إن الله سبحانه وتعالى ، وإن كان قادرا على خلق جميع الأشياء في لحظة واحدة ، إلا أنه تعالى جعل لكل شيء حدا محدودا ووقتا معلوما يدخل في الوجود إلا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الأمور.

وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث (التأني من الله والعجلة من الشيطان) وقيل إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الأتفاق فإذا أحدث شيئا بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة.

وقيل : إن الله تعالى أراد أن يوقع في كل يوم أمرا من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده.

وقيل إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن فيكون.
وقوله تعالى : (ثم استوى على العرش (العرش في اللغة : السرير ، وقيل : هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا". (١)

١٢٥-" صفحة رقم ٢٨
أرى في المنام أني أذبحك) فانظر ماذا ترى (أي في الرأي على وجه المشاورة.
فإن قلت : لم شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله تعالى وما **الحكمة في ذلك**.
قلت لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى وليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره إن جزع ويراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله.
فإن قلت لم كان ذلك في المنام دون اليقظة وما **الحكمة في ذلك** ؟ قلت إن هذا الأمر كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح.
فورد في المنام كالتوطئة له ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة فإذا تظاهرت الحالتان كان أقوى في الدلالة ورؤيا الأنبياء وحي وحق) قال يا أبت افعل ما تؤمر (يعني قال الغلام لأبيه افعل ما أمرت به قال ابن إسحاق وغيره لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب أخبره بما أمر الله به فقال افعل ما تؤمر) ستجدني إن شاء الله من الصابرين (إنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك وأنه لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله تعالى ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله) فلما أسلما (يعني انقادا وخضعا لأمر الله وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلم ابنه وأسلم الابن نفسه) وتله للجبين (يعني صرعه على الأرض قال ابن عباس أضجعه على جبينه على الأرض فلما فعل ذلك قال له ابنه يا أبت أشدد رباطي كيلا أضطرب واكفف عن ثيابك حتى لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد ، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني ، فقال إبراهيم عليه السلام : نعم العون أنت يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما أمره به ابنه ثم أقبل عليه يقبله وهو يبكي وقد ربطه". (٢)

---

(١) تفسير الخازن. ٢/٢٣٧

(٢) تفسير الخازن. ٦/٢٨

١٢٦-" صفحة رقم ٨٦

وحذف الواو في الآية الأولى لبيان أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل مجيئهم إليها ووجه **الحكمة في ذلك** أن أهل الجنة إذا جاؤوها ووجدوا أبوابها مفتحة حصل لهم السرور والفرح بذلك وأهل النار إذا رأوها مغلقة كان ذلك نوع ذل وهوان لهم.

الثالث زيدت الواو هنا لبيان أن أبواب الجنة ثمانية ونقصت هناك لأن أبواب جهنم سبعة والعرب تعطف بالواو فيما فوق السبعة تقول سبعة وثمانية.

فإن قلت حتى إذا جاؤوها شرط فأين جوابه ؟

قلت فيه وجوه أحدها أنه محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره الثاني أن الجواب هو قوله) وقال لهم خزنتها سلام عليكم (بغير واو الثالث تقديره فادخلوها خالدين دخلوها فحذف دخولها لدلالة الكلام عليه) وقال لهم خزنتها سلام عليكم (أي أبشروا بالسلامة من كل الآفات) طبتم (قال ابن عباس معناه طاب لكم المقام وقيل إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة فيقول لهم رضوان وأصحابه) سلام عليكم طبتم ( ) فادخلوها خالدين (وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحتها عينان فيغتسل المؤمن من أحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة يقولون) سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (.

)

الزمر : (٧٤ - ٧٥) وقالوا الحمد لله...

" وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين " ( ) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده (أي بالجنة) وأورثنا الأرض (أي أرض الجنة نتصرف فيها كما نشاء تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه وهو قوله تعالى : (نتبوأ (أي نزل) من الجنة (أي في الجنة) حيث نشاء (فإن قلت فما معنى قوله) حيث نشاء (وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره.

قلت يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وحسنا وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى غيره وقيل إن أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) يدخلون الجنة قبل الأمم فينزلون فيها حيث شاؤوا ثم تنزل الأمم بعدهم فيما فضل منها قال الله عز وجل : (فنعم أجر العاملين (أي ثواب المطيعين في الدنيا الجنة في العقبى) وترى الملائكة حافين من حول العرش (أي محدقين محيطين بحافته وجوانبه) يسبحون بحمد ربهم (وقيل هذا تسبيح تلذذ لا تسبيح تعبد لأن التكليف يزول في ذلك اليوم) وقضي بينهم بالحق (بين أهل الجنة وأهل النار بالعدل) وقيل الحمد لله رب العالمين (أي يقول أهل الجنة شكرا حين تم وعد الله لهم ، وقيل ابتدأ الله ذكر الخلق بالحمد في قوله) الحمد لله الذي خلق السموات

والأرض (" ". (١)

١٢٧-"المسألة السادسة : إن قيل قوله : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ كيف يصلح أن يكون جوابا عن السؤال الذي ذكروه قلنا قد ذكرنا أن السؤال يحتمل وجوها : أحدها : فيكون قوله : ﴿أعلم ما لا تعلمون﴾ جوابا له من حيث إنه قال تعالى لا تتعجبوا من أن يكون فيهم من يفسد ويقتل فإني أعلم مع هذا بأن فيهم جمعا من الصالحين والمتقين وأنتم لا تعلمون. وثانيها : أنه للغم فيكون الجواب لا تغتموا بسبب وجود المفسدين فإني أعلم أيضا أن فيهم جمعا من المتقين ، ومن لم أقسم علي لأبره. وثالثها : أنه طلب الحكمة فجوابه أن مصلحتكم فيه أن تعرفوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل. بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم ورابعها : أنه التماس لأن يتركهم في الأرض وجوابه إني أعلم أن مصلحتكم أن تكونوا في السماء لا في الأرض ، وفيه وجه خامس : وهو أنهم لما قالوا : ﴿نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ قال تعالى : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وهو أن معكم إبليس وأن في قلبه حسدا وكبرا ونفاقا. ووجه سادس : وهو أني أعلم ما لاتعلمون فإنكم لما وصفتم أنفسكم بهذه المدائح فقد استعظمتم أنفسكم فكأنكم أنتم بهذا الكلام في تسبيح أنفسكم لا في تسبيحي ولكن اصبروا حتى يظهر البشر فيتضرعون إلى الله بقولهم : ﴿ربنا ظلمنآ أنفسنا﴾ وبقوله : ﴿والذى أطمع أن يغفر لى خطى ئتى﴾ وبقوله : ﴿وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾ .
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٨٣
٣٩٦
اعلم أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته وإسكانه تعالى إياهم في الأرض وأخبر الله تعالى عن وجه **الحكمة في ذلك** على سبيل الأجمال بقوله تعالى : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أراد تعالى أن يزيدهم بيانا وأن يفصل لهم ذلك المجمل ، فبين تعالى لهم من فضل آدم عليه السلام ما لم يكن من ذلك معلوما لهم ، وذلك بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كمال فضله وقصورهم عنه في العلم فيتأكد ذلك الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي وههنا مسائل :
المسألة الأولى : قال الأشعري والجبائي والكعبي : اللغات كلها توقيفية. بمعنى أن الله تعالى خلق علما ضروريا بتلك الألفاظ وتلك المعاني ، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني. واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿وعلم ءادم الاسمآء كلها﴾ يقتضي إضافة التعليم إلى الأسماء. وذلك يقتضي في تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم ، وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم. ورابعها : أن آدم عليه السلام لما تحدى الملائكة بعلم الأسماء فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقا في تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات ، وإلا لم يحصل العلم بصدقه ، وذلك يقتضي أن يكون وضع تلك الأسماء لتلك المسميات متقدما على ذلك التعليم. والجواب عن الأول : لم لا يجوز أن يقال بخلق العلم الضروري بأن واضعا وضع هذه الأسماء لهذه المسميات من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله تعالى أو الناس ؟

(١) تفسير الخازن. ٨٦/٦

وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل. سلمنا أنه تعالى / ما خلق هذا العلم في العاقل ، فلم لا يجوز أن يقال : إنه تعالى خلقه في غير العاقل والتعويل على الاستعباد في هذا المقام مستبعد. وعن الثاني : لم لا يجوز أن يقال خاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة وغيرها. وعن الثالث : لا شك إن إرادة الله تعالى وضع تلك الألفاظ لتلك المعاني سابقة على التعليم فكفى ذلك في إضافة التعليم إلى الأسماء ، وعن الرابع : ماسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٩٦

". (١)

١٢٨-"أما قوله تعالى : ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ فاعلم أن هذا هو الجواب الأول عن تلك الشبهة ، وتقريره أن الجهات كلها لله ملكا وملكا ، فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة ، بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة أخرى ، فإن قيل : ما الحكمة أولا في تعيين القبلة ؟

ثم ما الحكمة في تحويل القبلة من جهة إلى جهة ؟

قلنا : أما المسألة الأولى ففيها الخلاف الشديد بين أهل السنة والمعتزلة ، أما أهل السنة فإنهم يقولون : لا يجب تعليل أحكام الله تعالى ألبتة ، واحتجوا عليه بوجوه. أحدها : أن كل من فعل فعلا لغرض ، فإما أن يكون وجود ذلك الغرض أولى له من لا وجوده ، وإما أن لا يكون كذلك ، بل الوجود والعدم بالنسبة إليه سيان ، فإن كان الأول ، كان ناقصا لذاته مستكملا بغيره ، وذلك على الله محال ، وإن كان الثاني استحال أن يكون غرضا ومقصودا ومرجحا فإن قيل : إنه وإن كان وجوده وعدمه بالنسبة إليه على السوية إلا أن وجوده لما كان أنفع للغير من عدمه ، فالحكيم يفعله ليعود النفع إلى الغير قلنا : عود النفع إلى الغير ولا عوده إليه ، هل هما بالنسبة إلى الله تعالى على السواء ، أو ليس الأمر كذلك ، وحينئذ يعود التقسيم. وثانيها : أن كل من فعل فعلا لغرض فإما أن يكون قادرا على تحصيل ذلك الغرض من دون تلك الواسطة ، أو لا يكون قادرا عليه. فإن كان الأول كان توسط تلك الواسطة عبثا ، وإن كان الثاني كان عجزا وهو على الله محال. وثالثها : أنه تعالى إن فعل فعلا لغرض فذلك الغرض وإن كان قديما لزم من قدمه قدم الفعل وهو محال ، وإن كان محدثا توقف إحداثه على غرض آخر ، ولزم الدور أو التسلسل وهو محال. ورابعها : أن تخصيص إحداث العالم بوقت معين دون ما قبله وما بعده إن كان لحكمة اختص بها ذلك الوقت دون ما قبله وما بعده كان طلب العلة في أنه لم حصلت تلك **الحكمة في ذلك** الوقت دون سائر الأوقات كطلب العلة في أنه لم حصل العالم في ذلك الوقت دون سائر الأوقات ، فإن استغنى أحدهما عن المرجح فكذا الآخر ، وإن افتقر فكذا الآخر وإن لم يتوقف ذلك على الحكمة فقد بطل توقيف فاعلية الله على الحكمة والغرض. وخامسها : ما سبق من الدلائل على أن جميع الكائنات من الخير والشر ، والكفر والإيمان ،

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/٣٢١

والطعة والعصيان واقع بقدرة الله تعالى وإرادته ، وذلك يبطل القول بالغرض ، لأنه يستحيل أن يكون لله غرض يرجع إلى العبد في خلق الكفر فيه وتعذيبه عليه أبد الآباد. وسادسها : أن تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بإيجاد الفعل المعين في / الأزل ، إما أن يكون جائزا أو وجبا ، فإن كان جائزا افتقر إلى مؤثر آخر ويلزم التسلسل ، ولأنه يلزم صحة العدم على القديم ، وإن كان واجبا فالواجب لا يعلل فثبت عندنا بهذه الوجوه أن تعليل أفعالي الله وأحكامه بالدواعي والأغراض محال ، وإذا كان كذلك كانت فاعليته بمحض الإلهية والقدرة والنفاذ والاستيلاء ، وهذا هو الذي دل عليه صريح قوله تعالى :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٧٨

﴿قل لله المشرق والمغرب ﴾ فإنه علل جواز النسخ بكونه مالكا للمشرق والمغرب ، والملك يرجع حاصله إلى القدرة/ ولم يعلل ذلك بالحكمة على ما تقوله المعتزلة ، فثبت أن هذه الآية دالة بصريحها على قولنا ومذهبنا ، أما المعتزلة فقد قالوا : لما دلت الدلائل على أنه تعالى حكيم ، والحكيم لا يجوز أن تكون أفعاله خالية عن الأغراض ، علمنا أن له سبحانه في كل أفعاله وأحكامه حكما وأغراضا ، ثم إنها تارة تكون ظاهرة جلية لنا ، وتارة مستورة خفية عنا ، وتحويل القبلة من جهة إلى جهة أخرى يمكن أن يكون لمصالح خفية وأسرار مطوية عنا ، وإذا كان الأمر كذلك : استحال الطعن بهذا التحويل في دين الإسلام.

". (١)

١٢٩-"أولها : أن مدار هذه الرواية عن أن الأمم يكذبون أنبياءهم وهذا بناء على أن أهل القيامة قد يكذبون ، وهذا باطل عند القاضي ، إلا أنا سنتكلم على هذه المسألة في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى : ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على ا أنفسهم ﴾ (الأنعام : ٢٣/٢٤).

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٨٣

وثانيها : أن شهادة الأمة وشهادة الرسول مستندة في الآخرة إلى شهادة الله تعالى على صدق الأنبياء ، وإذا كان كذلك فلم لم يشهد الله تعالى لهم بذلك ابتداء ؟

وجوابه : **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء ، والإيمان بهم جميعا ، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق ، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهارا لعدالتهم وكشفا عن فضيلتهم ومنقبتهم.

وثالثها : أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة وهذا ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام : "إذا علمت مثل الشمس فاشهد" والشيء الذي أخبر الله تعالى عنه فهو معلوم مثل الشمس فوجب جواز الشهادة عليه.

الوجه الثاني : قالوا معنى الآية : لتشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها قال ابن زيد : الأشهاد أربعة. أولها : الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد. قال تعالى : ﴿وجاءت كل نفس معها سآاق وشهيد﴾ (ق : ٢١) وقال : ﴿ما

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/٦٢٨

يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق : ١٨) وقال : ﴿وإن عليكم لحافظين *كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ (الإنفطار : ١٠ . ١٢). وثانيها : شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله حاكيا عن عيسى عليه السلام : ﴿وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ (المائدة : ١١٧) وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية : ﴿لتكونوا شهدآء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ وقال : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةا بشهيد وجئنا بك على ها ؤلاء شهيدا﴾ (النساء : ٤١). وثالثها : شهادة أمة محمد خاصة. قال تعالى : ﴿وجا ى ء بالنبيان والشهدآء﴾ (الز"مر : ٦٩) وقال تعالى : ﴿ويوم يقوم الاشهاد﴾ (غافر : ٥١). ورابعها : شهادة الجوارح وهي بمنزلة الإقرار بل أعجب منه قال تعالى : ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم﴾ (
جزء : ٤ رقم الصفحة : ٨٣
". (١)

١٣٠-"الوجه الثالث : أن أهل الجاهلية إذا أحرم أحدهم نقب خلف بيته أو خيمته نقبا منه يدخل ويخرج إلا الحمس ، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخيثم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر بن معاوية ، وهؤلاء سموا حمسا لتشددهم في دينهم ، الحماسة الشدة ، وهؤلاء متى أحرموا لم يدخلوا بيوتهم ألبتة ولا يستظلون الوبر ولا يأكلون السمن والأقط/ ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كام محرما ورجل آخر كان محرما ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم حال كونه محرما من باب بستان قد خرب فأبصره ذلك الرجل الذي كان محرما فاتبعه ، فقال عليه السلام : تنح عني ، قال : ولم يا رسول الله ؟

قال : دخلت الباب وأنت محرم فوقف ذلك الرجل فقال : إني رضيت بسنتك وهديك وقد رأيتك دخلت فدخلت فأنزل الله تعالى هذه الآية وأعلمهم أن تشديدهم في أمر الإحرام ليس ببر ولكن البر من اتقى مخالفة الله وأمرهم بترك سنة الجاهلية فقال : ﴿وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ فهذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية.

المسألة الثانية : ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه الأول : وهو قول أكثر المفسرين حمل الآية على هذه الأحوال التي رويناها في سبب النزول ، إلا أن على هذا التقدير صعب الكلام في نظم الآية ، فإن القوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحكمة في تغيير نور القمر ، فذكر الله تعالى **الحكمة في ذلك** ، وهي قوله : ﴿قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ فأي تعلق بين بيان الحكمة في اختلاف نور القمر ، وبين هذه القصة ، ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن هذا السؤال من وجوه أحدها : أن الله تعالى لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس / والحج ، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج لا جرم تكلم الله تعالى فيه وثانيها : أنه تعالى إنما وصل قوله : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ بقوله : ﴿يسالونك عن الاهلة ﴾ لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معا في وقت واحد ووصل أحد الأمرين بالآخر وثالثها : كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة فقيل لهم : اتركوا السؤال

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/٦٣٤

عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم لكم فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر وليس الأمر كذلك.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٨٠

القول الثاني : في تفسير الآية أن قوله تعالى : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ مثل ضربه الله تعالى لهم ، وليس المراد ظاهره ، وتفسيره أن الطريق المستقيم المعلوم هو أن يستدل بالمعلوم على المظنون ، فأما أن يستدل بالمظنون على المعلوم فذاك عكس الواجب وضد الحق وإذا عرفت هذا فنقول : إنه قد ثبت بالدلائل أن للعالم صانعا مختارا حكيما ، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلا الصواب البريء عن العبث والسفه ، ومتى عرفنا ذلك ، وعرفنا أن اختلاف أحوال القمر في النور من فعله علمنا أن فيه حكمة ومصلحة ، وذلك لأن علمنا بهذا الحكيم الذي لا يفعل إلا الحكمة يفيدنا القطع بأن فيه حكمة ، لأنه استدلال بالمعلوم على المجهول ، فأما أن يستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله ليس بالحكيم ، فهذا الاستدلال باطل ، لأنه استدلال بالمجهول على القدح في المعلوم إذا عرفت هذا فالمراد من قوله تعالى : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ يعني أنكم لما لم تعلموا حكمته في اختلاف نور القمر صرتم شاكين في حكمة الخالق ، فقد أتيتم الشيء لا من البر ولا من كمال العقل إنما البر بأن تأتوا البيوت من أبوابها فتستدلوا بالمعلوم المتيقن وهو حكمة خالقها على هذا المجهول فتقطعوا بأن فيه حكمة بالغة ، وإن كنتم لا تعلمونها ، فجعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح ، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم ، وهذا طريق مشهور في الكناية فإن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له : ينبغي أن تأتي الأمر من بابه وفي ضده يقال : إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه قال تعالى : ﴿فنبذوه ورآء ظهورهم﴾ (آل عمران : ١٨٧) وقال : ﴿واتخذتموه ورآءكم﴾ (هود : ٩٢) فلما كان هذا طريقا مشهورا معتادا في الكنايات ، ذكره الله تعالى ههنا ، وهذا تأويل المتكلمين ولا يصح تفسير هذه الآية فإن تفسيرها بالوجه الأول يطرق إلى الآية سوء الترتيب وكلام الله منزه عنه.

القول الثالث : في تفسير الآية ما ذكره أبو مسلم ، أن المراد من هذه الآية ما كانوا يعلمونه من النسيء ، فإنهم كانوا يخرجون الحج عن وقته الذي عينه الله له فيحرمون الحلال ويحلون الحرام فذكر إتيان البيوت من ظهورها مثل لمخالفة الواجب في الحج وشهوره.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢٨٠

". (١)

١٣١-"والوجه الثالث : في بيان كون هذه الواقعة آية ما ذكره تعالى بعد هذه الآية ، وهو قوله تعالى : ﴿يرونهم مثليهم رأى العين﴾ والأصح في تفسير هذه الآية أن الرائين هم المشركون والمرئيين هم المؤمنون ، والمعنى أن المشركين كانوا يرون المؤمنون مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين ، أو مثلي عدد المسلمين وهو ستمائة ، وذلك معجز.

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/٧٩٦

فإن قيل : تجويز رؤية ما ليس بموجود يفضي إلى السفسطة.

قلنا : نحمل الرؤية على الظن والحسبان ، وذلك لأن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنهم في غاية الكثرة ، وإما أن نقول إن الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيرين والجواب الأول أقرب ، لأن الكلام مقتصر على الفئتين ولم يدخل فيهما قصة الملائكة.

والوجه الرابع : في بيان كون هذه القصة آية ، قال الحسن : إن الله تعالى أمد رسوله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة بخمسة آلاف من الملائكة لأنه قال : ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم بألف﴾ (الأنفال : ٩) وقال : ﴿بلى ا إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هاذا يمددكم ربكم بخمسة ءالاف من الملائكة ﴾ (آل عمران : ١٢٥) والألف مع الأربعة آلاف : خمسة آلاف من الملائكة وكان سيماهم هو أنه كان على أذناب خيولهم ونواصيها صوف أبيض ، وهو المراد بقوله ﴿والله يؤيد بنصره من يشآء ﴾ والله أعلم.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٥٥

ثم قال الله تعالى : ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : القراءة المشهورة ﴿فئة﴾ بالرفع ، وكذا قوله ﴿وأخرى كافرة﴾ وقرىء ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة﴾ بالجر على البدل من فئتين ، وقرىء بالنصب إما على الاختصاص ، أو على الحال من الضمير في التقتا ، قال الواحدي رحمه الله : والرفع هو الوجه لأن المعنى إحداهما تقاتل في سبيل الله فهو رفع على استئناف الكلام.

المسألة الثانية : المراد بالفئة التي تقاتل في سبيل الله هم المسلمون ، لأنهم قاتلوا لنصرة دين الله.

وقوله ﴿وأخرى كافرة﴾ المراد بها كفار قريش.

ثم قال تعالى : ﴿يرونهم مثليهم رأى العين﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : قرأ نافع وأبان عن عاصم ﴿ترونهم ﴾ بالتاء المنقطة من فوق ، والباقون بالياء فمن قرأ بالتاء فلأن ما قبله خطاب لليهود ، والمعنى ترون أيها اليهود المسلمين مثل ما كانوا ، أو مثلي /الفئة الكافرة ، أو تكون الآية خطابا مع مشركي قريش والمعنى : ترون يا مشركي قريش المسلمون مثلي فئتكم الكافرة ، ومن قرأ بالياء فللمغالبة التي جاءت بعد الخطاب ، وهو قوله ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم﴾ فقوله ﴿يرونهم﴾ يعود إلى الإخبار عن إحدى الفئتين.

المسألة الثانية : اعلم أنه قد تقدم في هذه الآية ذكر الفئة الكافرة وذكر الفئة المسلمة فقوله ﴿يرونهم مثليهم﴾ يحتمل أن يكون الراؤن هم الفئة الكافرة ، والمرئيون هم الفئة المسلمة ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذان احتمالان ، وأيضا فقوله ﴿مثليهم﴾ يحتمل أن يكون المراد مثلي الرائين وأن يكون المراد مثلي المرئين فإذن هذه الآية تحتمل وجوها أربعة الأول : أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين.

والاحتمال الثاني : أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين ، **والحكمة في ذلك** أنه تعالى كثر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٥٥

فإن قيل : هذا متناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ويقللكم فى أعينهم﴾ (الأنفال : ٤٤).
فالجواب : أنه كان التقليل والتكثير في حالين مختلفين ، فقللوا أولا في أعينهم حتى اجترؤا عليهم ، فلما تلاقوا كثرهم الله في أعينهم حتى صاروا معلوبين ، ثم إن تقليلهم في أول الأمر ، وتكثيرهم في آخر الأمر ، أبلغ في القدرة وإظهار الآية.
والاحتمال الثالث : أن الرائين هم المسلمون ، والمرئيين هم المشركون ، فالمسلمون رأوا المشركين مثلى المسلمين ستمائة وأزيد ، والسبب فيه أن الله تعالى أمر المسلم الواحد بمقاومة الكافرين قال الله تعالى : ﴿فإن يكن منكم ما ئة صابرة يغلبوا ما ئتين ﴾ (الأنفال : ٦٦).
فإن قيل : كيف يرونهم مثليهم رأي العين ، وكانوا ثلاثة أمثالهم ؟

.

الجواب : أن الله تعالى إنما أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذي علم المسلمون أنهم يغلبونهم ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿فإن يكن منكم ما ئة صابرة يغلبوا ما ئتين ﴾ فأظهر ذلك العدد من المشركين للمؤمنين تقوية لقلوبهم ، وإزالة للخوف عن صدورهم.
". (١)

١٣٢-"بسواد فيه بياض لوجهي
وسواد لوجهك الملعون
وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل وعند التهنئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذي بيض وجهك ، ويقال لمن وصل إليه مكروه : إربد وجهه واغبر لونه وتبدلت صورته ، فعلى هذا معنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله ، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني.
والقول الثاني : إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب المصير إليه ، قلت : ولأبي مسلم أن يقول : الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿وجوه يومئاذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئاذ عليها غبرة * ترهقها قترة﴾ فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار/ فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلا ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ، ثم قال القائلون بهذا القول : **الحكمة في ذلك** أن أهل /الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين أحدهما : أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة ، قال تعالى مخبرا عنهم ﴿قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾ (يس : ٢٦ ، ٢٧) الثاني : أنهم إذا عرفوا ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/١١٠١

سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكفار سببا لمزيد غمهم في الآخرة ، فهذا وجه الحكمة في الآخرة ، وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغبا له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه ، فهذا تقرير هذين القولين.

المسألة الثالثة : احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر ، وأنه ليس ههنا منزلة بين المنزلتين كما يذهب إليه المعتزلة ، فقالوا : إنه تعالى قسم أهل القيامة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون ، ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر الثالث ، فلو كان ههنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قالوا وهذا أيضا متأكد بقوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ (عبسى : ٣٨ . ٤٢).

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٨

أجاب القاضي عنه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه ، يبين ذلك أنه تعالى إنما قال : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ فذكرهما على سبيل التنكير ، وذلك لا يفيد العموم ، وأيضا المذكور في الآية المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين ، فكذا القول في الفساق.

واعلم أن وجه الاستدلال بالآية هو أنا نقول : الآيات المتقدمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتوحيد والنبوة وفي الزجر عن الكفر بهما ثم إنه تعالى اتبع ذلك بهذه الآية فظاهرها يقتضي أن يكون ابيضاض الوجه نصيبا لمن آمن بالتوحيد والنبوة ، واسوداد الوجه يكون نصيبا لمن أنكر ذلك ، ثم دل ما بعد هذه الآية على أن صاحب البياض من أهل الجنة ، وصاحب السواد من أهل النار ، فحينئذ يلزم نفي المنزلة بين المنزلتين ، وأما قوله يشكل هذا بالكافر الأصلي فجوابنا عنه من وجهين الأول : أن نقول لم لا يجوز أن يكون المراد منه أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم ؟

وإذا كان كذلك كان الكل داخلا فيه والثاني : وهو أنه تعالى قال في آخر الآية ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فجعل موجب العذاب هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث أنه بعد الإيمان ، وإذا وقع التعليل بمطلق الكفر دخل كل الكفار فيه سواء كفر بعد الإيمان ، أو كان كافرا أصليا والله أعلم.

ثم قال : ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ وفي الآية سؤالات :

/السؤال الأول : أنه تعالى ذكر القسمين أولا فقال : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ فقدم البياض على السواد في اللفظ ، ثم لما شرع في حكم هذين القسمين قدم حكم السواد ، وكان حق الترتيب أن يقدم حكم البياض.

". (١)

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/١٢٢٠

١٣٣-"السؤال الثاني : لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير ؟

الجواب : أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص ، قالت المعتزلة بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين : أحدهما : أن حصول تلك الحكمة ، إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة ، فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزا افتقر حصول تلك **الحكمة في ذلك** الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثاني : أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله ، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.

جزء : ٢٤ رقم الصفحة : ٤٨٠

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة ، فإنه بحر لا ساحل له. من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات السبع وكذا الأرض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالإقرار بأن كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين ، وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله : ﴿وما جعلنآ أصحاب النار إلا ملائكة ا وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين﴾ ثم قال : ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (المدثر : ٣١) وهذا هو الجواب أيضا في أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير أنه إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت ، قيل تم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيدا للمسلمين.

السؤال الثالث : ما معنى قوله : ﴿ثم استوى على العرش ﴾ ؟

ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة ، لأن الاستيلاء والقدرة في أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول (ثم) فيه والجواب : الاستقرار غير جائز ، لأنه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث ، ويقتضي التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى : ﴿ولنبلونكم حتى نعلم﴾ (محمد : ٣١) فإن المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون ، فإن قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى : ﴿وكان عرشه على المآء﴾ (هود : ٧) قلنا : كلمة (ثم) / ما دخلت على خلق العرش ، بل على رفعه على السموات.

السؤال الرابع : كيف إعراب قوله : ﴿الذى خلق السماوات والارض﴾ ؟

الجواب : ﴿الذى خلق﴾ مبتدأ و﴿الرحمان﴾ خبره ، أو هو صفة للحي ، والرحمن خبر مبتدأ محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله ﴿على العرش ﴾ ثم يبتدىء بالرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له ، ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله : ﴿الذى خلق السماوات﴾ .

جزء : ٢٤ رقم الصفحة : ٤٨٠

السؤال الخامس : ما معنى قوله : ﴿الذى خلق السماوات﴾ ؟

الجواب : ذكروا فيه وجوها أحدها : قال الكلبي معناه فاسأل خبيرا به وقوله : ﴿به ﴾ يعود إلى ما ذكرنا من خلق السماء والأرض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل لأنه لا دليل في العقل على كيفية خلق الله السموات والأرض فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وإنما قدم لرؤوس الآي وحسن النظم وثانيها : قال الزجاج قوله : ﴿به ﴾ معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرا ، وهو قول الأخفش ، ونظيره قوله : ﴿سأل سآالا بعذاب واقع﴾ (المعارج : ١) وقال علقمة بن عبدة :

فإن تسألوني بالنساء فإنني

بصير بأدواء النساء طبيب

وثالثها : قال ابن جرير الباء في قوله : ﴿به ﴾ صلة والمعنى فسله خبيرا ، وخبيرا نصب على الحال ورابعها : أن قوله ﴿به ﴾ يجري مجرى القسم كقوله : ﴿واتقوا الله الذى تسآءلون به ﴾ (النساء : ١).

". (١)

١٣٤-"أما قوله تعالى : ﴿وتب﴾ ففيه وجوه أحدها : أنه أخرج الأول مخرج الدعاء عليه كقوله : ﴿قتل الانسان مآ أكفره ﴾ والثاني مخرج الخبر أي كان ذلك وحصل ، ويؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب وثانيها : كل واحد منهما إخبار ولكن أراد بالأول هلاك عمله ، وبالثاني هلاك نفسه ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله ، فأخبر الله تعالى أنه محروم من الأمرين وثالثها : ﴿تبت يدآ أبى لهب﴾ يعني ماله ومنه يقال : ذات اليد ﴿وتب﴾ هو بنفسه كما يقال : ﴿خسروا أنفسهم وأهليهم﴾ وهو قول أبي مسلم ورابعها : ﴿تبت يدآ أبى لهب﴾ يعني نفسه : ﴿وتب﴾ يعني ولده عتبة على ما روى أن عتبة بن أبي لهب خرج إلى الشأم مع أناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا قال لهم : عتبة بلغوا محمدا عني أني قد كفرت بالنجم إذا هوى ، وروى أنه قال ذلك في وجه رسول الله وتفل في وجهه ، وكان مبالغا في عداوته ، فقال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك فوقع الرعب في قلب عتبة وكان يحترز فسار ليلة من الليالي فلما كان قريبا من الصبح ، فقال له أصحابه : هلكت الركاب فما زالوا به حتى نزل وهو مرعوب وأناخ الإبل حوله كالسرادق فلسط الله عليه الأسد وألقى السكينة على الإبل فجعل الأسد يتخلل حتى افترسه ومزقه ، فإن قيل : نزول هذه السورة كان قبل هذه الوقعة ، وقوله : ﴿وتب﴾ إخبار عن الماضي ، فكيف يحمل عليه ؟

قلنا : لأنه كان في معلومه تعالى أنه يحصل ذلك / وخامسها : ﴿تبت يدآ أبى لهب﴾ حيث لم يعرف حق ربه ﴿وتب﴾ حيث لم يعرف حق رسوله وفي الآية سؤالات :

جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٣٥٥

السؤال الأول : لماذا كناه مع أنه كالكذب إذا لم يكن له ولد اسمه لهب ، وأيضا فالتكنية من باب التعظيم ؟

والجواب : عن الأول أن التكنية قد تكون اسما ، ويؤيده قراءة من قرأ تبت يدا أبو لهب كما يقال : علي بن أبو طالب

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/٣٤٠٩

ومعاوية بن أبو سفيان ، فإن هؤلاء أسماؤهم كناهم ، وأما معنى التعظيم فأجيب عنه من وجوه أحدها : أنه لما كان اسما خرج عن إفادة التعظيم والثاني : أنه كان اسمه عبد العزي فعدل عنه إلى كنيته والثالث : أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، فكان جديرا بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب : كما يقال : أبو الشر للشرير وأبو الخير للخير الرابع : كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به واحتقارا له.

السؤال الثاني : أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان نبي الرحمة والخلق العظيم ، فكيف يليق به أن يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد ، وكان نوح مع أنه في نهاية التغليظ على الكفار قال في ابنه الكافر إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق ، وكان إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة في قوله : يا أبت يا أبت وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ، ولما قال له : ﴿لارجمنكا واهجرنى مليا﴾ قال : ﴿سلام عليكا سأستغفر لك ربى ﴾ وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولهرون : ﴿فقولا له قولا لينا﴾ مع أن جرم فرعون كان أغلظ من جرم أبي لهب ، كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يقتل بابنه قصاصا ولا يقيم الرجم عليه وإن خاصمه أبوه وهو كافر في الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله غيره والجواب : من وجوه أحدها : أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله : إنه مجنون والناس ما كانوا يتهمونه ، لأنه كان كالأب له ، فصار ذلك كالمانع من أداء الرسالة إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة ، فصار بسبب تلك العداوة متهما في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك وثانيها : أن **الحكمة في ذلك** ، أن محمدا لو كان يداهن أحدا في الدين ويسامحه فيه ، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه/ فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحدا في شيء يتعلق بالدين أصلا وثالثها : أن الوجه الذي ذكرتم كالمتعارض ، فإن كونه عما يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه ، فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة ، لا جرم استحق التغليظ العظيم.

جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٣٥٥

". (١)

١٣٥-"وعلم ءادم الأسمآء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هاؤلا ء إن كنتم صادقين

اعلم أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته وإسكانه تعالى إياهم في الأرض وأخبر الله تعالى عن وجه **الحكمة في ذلك** على سبيل الأجمال بقوله تعالى إني أعلم ما لا تعلمون أراد تعالى أن يزيدهم بيانا وأن يفصل لهم ذلك المجمل فبين تعالى لهم من فضل آدم عليه السلام ما لم يكن من ذلك معلوما لهم وذلك بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كمال فضله وقصورهم عنه في العلم فيتأكد ذلك الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي وههنا مسائل المسألة الأولى قال الأشعري والجبائي والكعبي اللغات كلها توقيفية بمعنى أن الله تعالى خلق علما ضروريا بتلك الألفاظ وتلك المعاني وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني واحتجوا عليه بقوله تعالى وعلم ءادم به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- ص/٤٨٨٧

وهم فيها خالدون إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين ءامنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهاذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض أولائك هم الخاسرون كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شى ء عليم وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم ءادم الاسماء كلها يقتضي إضافة التعليم إلى الأسماء وذلك يقتضي في تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم ورابعها أن آدم عليه السلام لما تحدى الملائكة بعلم الأسماء فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقا في تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات وإلا لم يحصل العلم بصدقه وذلك يقتضي أن يكون وضع تلك الأسماء لتلك المسميات متقدما على ذلك التعليم والجواب عن الأول لم لا يجوز أن يقال بخلق العلم الضروري بأن واضعا وضع هذه الأسماء لهذه المسميات من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله تعالى أو الناس وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل سلمنا أنه تعالى ما خلق هذا العلم في العاقل فلم لا يجوز أن". (١)

١٣٦-"جعلت مأواك لي قرارا

وقبلة حيثما لجأت

أما قوله تعالى قل لله المشرق والمغرب فاعلم أن هذا هو الجواب الأول عن تلك الشبهة وتقريره أن الجهات كلها لله ملكا وملكا فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة بل إنما تصير قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة وإذا كان الأمر كذلك فلا اعتراض عليه بالتحويل من جهة إلى جهة أخرى فإن قيل ما الحكمة أولا في تعيين القبلة ثم ما الحكمة في تحويل القبلة من جهة إلى جهة قلنا أما المسألة الأولى ففيها الخلاف الشديد بين أهل السنة والمعتزلة أما أهل السنة فإنهم يقولون لا يجب تعليل أحكام الله تعالى ألبتة واحتجوا عليه بوجوه أحدها أن كل من فعل فعلا لغرض فإما أن يكون وجود ذلك الغرض أولى له من لا وجوده وإما أن لا يكون كذلك بل الوجود والعدم بالنسبة إليه سيان فإن كان الأول كان ناقصا لذاته مستكملا بغيره وذلك على الله محال وإن كان الثاني استحال أن يكون غرضا ومقصودا ومرجحا فإن قيل إنه وإن كان وجوده وعدمه بالنسبة إليه على السوية إلا أن وجوده لما كان أنفع للغير من عدمه فالحكيم يفعله ليعود النفع إلى الغير قلنا عود النفع إلى الغير ولا عوده إليه هل هما بالنسبة إلى الله تعالى على السواء أو ليس الأمر كذلك وحينئذ يعود التقسيم وثانيها أن كل من فعل فعلا لغرض فإما أن يكون قادرا على تحصيل ذلك الغرض من دون تلك الواسطة أو لا يكون قادرا عليه فإن كان الأول كان توسط تلك الواسطة عبثا وإن كان الثاني كان عجزا وهو على الله محال وثالثها أنه تعالى إن فعل فعلا لغرض فذلك الغرض وإن كان قديما لزم من قدمه قدم الفعل وهو محال وإن كان محدثا توقف إحداثه على غرض آخر

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . ١٦١/٢

ولزم الدور أو التسلسل وهو محال ورابعها أن تخصيص إحداث العالم بوقت معين دون ما قبله وما بعده إن كان لحكمة اختص بها ذلك الوقت دون ما قبله وما بعده كان طلب العلة في أنه لم حصلت تلك **الحكمة في ذلك** الوقت دون سائر الأوقات كطلب العلة في أنه لم حصل العالم في ذلك الوقت دون سائر الأوقات فإن استغنى أحدهما عن المرجح فكذا الآخر وإن افتقر فكذا الآخر وإن لم يتوقف ذلك على الحكمة فقد بطل توفيق فاعلية الله على الحكمة والغرض وخامسها ما سبق من الدلائل على أن جميع الكائنات من الخير والشر والكفر والإيمان والطعة والعصيان واقع بقدرة الله تعالى وإرادته وذلك يبطل القول بالغرض لأنه يستحيل أن يكون لله غرض يرجع إلى العبد في خلق الكفر فيه وتعذيبه عليه أبد الآباد وسادسها أن تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بإيجاد الفعل المعين في الأزل إما أن يكون جائزا أو وجبا فإن كان جائزا افتقر إلى مؤثر آخر ويلزم التسلسل ولأنه يلزم صحة العدم على القديم وإن كان واجبا فالواجب لا يعلل فثبت عندنا بهذه الوجوه أن تعليل أفعالي الله وأحكامه بالدواعي والأغراض محال وإذا كان كذلك كانت فاعليته بمحض الإلهية والقدرة والنفاذ والاستيلاء وهذا هو الذي دل عليه صريح قوله". (١)

١٣٧-"تحصل في الآخرة أو في الدنيا فالقول الأول إنها تقع في الآخرة والذاهبون إلى هذا القول لهم وجهان الأول وهو الذي عليه الأكثرون أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أنهم الذين يكذبونهم روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء فيطالب الله تعالى الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم فيؤتى بأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) الله عليه وسلم فيشهدون فتقول الأمم من أين عرفتم فيقولون علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق فيؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (النساء ٤١) وقد طعن القاضي في هذه الرواية من وجوه

أولها أن مدار هذه الرواية عن أن الأمم يكذبون أنبياءهم وهذا بناء على أن أهل القيامة قد يكذبون وهذا باطل عند القاضي إلا أنا سنتكلم على هذه المسألة في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم (الأنعام ٢٣ ٢٤)

وثانيها أن شهادة الأمة وشهادة الرسول مستندة في الآخرة إلى شهادة الله تعالى على صدق الأنبياء وإذا كان كذلك فلم لم يشهد الله تعالى لهم بذلك ابتداء وجوابه **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء والإيمان بهم جميعا فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهارا لعدالتهم وكشفا عن فضيلتهم ومنقبتهم

وثالثها أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة وهذا ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام (إذا علمت مثل الشمس فاشهد) والشيء الذي أخبر الله تعالى عنه فهو معلوم مثل الشمس فوجب جواز الشهادة عليه

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . ٨٥/٤

الوجه الثاني قالوا معنى الآية لتشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها قال ابن زيد الأشهاد أربعة أولها الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد قال تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (ق ٢١) وقال ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد (ق ١٨) وقال وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون (الإنفطار ١٠ ١٢) وثانيها شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله حاكيا عن عيسى عليه السلام وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شى ء شهيد (المائدة ١١٧) وقال في حق محمد (صلى الله عليه وسلم) وأمته في هذه الآية لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وقال فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا (النساء ٤١) وثالثها شهادة أمة محمد خاصة قال تعالى وجيء بالنبيين والشهداء (الز (مر ٦٩) وقال تعالى ويوم يقوم الاشهاد (غافر ٥١) ورابعها شهادة الجوارح وهي بمنزلة الإقرار بل أعجب منه قال تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم (النور ٢٤) الآية وقال اليوم نختم على أفواههم (يس ٦٥) الآية القول الثاني أن أداء هذه الشهادة إنما يكون في الدنيا وتقريره أن الشهادة والمشاهدة والشهود هو". (١)

١٣٨-"أمره يسرا (الطلاق ٤) وتمام التحقيق في الآية أن من رجع خائبا يقال ما أفلح وما أنجح فيجوز أن يكون الفلاح المذكور في الآية هو أن الواجب عليكم أن تتقوا الله حتى تصيروا مفلحين منجحين وقد وردت الأخبار عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بالنهي عن التطير وقال (لا عدوى ولا طيرة) وقال من (رده عن سفره تطير فقد أشرك) أو كما قال وأنه كان يكره الطيرة ويحب الفأل الحسن وقد عاب الله تعالى قوما تطيروا بموسى ومن معه قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله (النمل ٤٧)

الوجه الثاني في سبب نزول هذه الآية روي أنه في أول الإسلام كان إذا أحرم الرجل منهم فإن كان من أهل المدن نقب في ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلما يصعد منه سطح داره ثم ينحدر وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فقيل لهم ليس البر بتحرجكم عن دخول الباب ولكن البر من اتقى

الوجه الثالث أن أهل الجاهلية إذا أحرم أحدهم نقب خلف بيته أو خيمته نقبا منه يدخل ويخرج إلا الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخيثم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر بن معاوية وهؤلاء سموا حمسا لتشددهم في دينهم الحماسة الشدة وهؤلاء متى أحرموا لم يدخلوا بيوتهم ألبتة ولا يستظلون الوبر ولا يأكلون السمن والأقط ثم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كام محرما ورجل آخر كان محرما فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حال كونه محرما من باب بستان قد خرب فأبصره ذلك الرجل الذي كان محرما فاتبعه فقال عليه السلام تنح عني قال ولم يا رسول الله قال دخلت الباب وأنت محرم فوقف ذلك الرجل فقال إني رضيت بسنتك وهديك وقد رأيتك دخلت فدخلت فأنزل الله تعالى هذه الآية وأعلمهم أن تشديدهم في أمر الإحرام ليس ببر ولكن البر من اتقى مخالفة الله وأمرهم بترك سنة الجاهلية فقال وأتوا البيوت من أبوابها فهذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب. ٩٢/٤

المسألة الثانية ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه الأول وهو قول أكثر المفسرين حمل الآية على هذه الأحوال التي رويناها في سبب النزول إلا أن على هذا التقدير صعب الكلام في نظم الآية فإن القوم سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الحكمة في تغيير نور القمر فذكر الله تعالى **الحكمة في ذلك** وهي قوله قل هى مواقيت للناس والحج فأي تعلق بين بيان الحكمة في اختلاف نور القمر وبين هذه القصة ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن هذا السؤال من وجوه أحدها أن الله تعالى لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج لا جرم تكلم الله تعالى فيه وثانيها أنه تعالى إنما وصل قوله وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها بقوله يسئلونك عن الاهلة لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معا في وقت واحد ووصل أحد الأمرين بالآخر وثالثها كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة فقيل لهم اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم لكم فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر وليس الأمر كذلك

القول الثاني في تفسير الآية أن قوله تعالى وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها مثل ضربه الله تعالى لهم وليس المراد ظاهره وتفسيره أن الطريق المستقيم المعلوم هو أن يستدل بالمعلوم على". (١)

١٣٩-"ثم قال تعالى يرونهم مثليهم رأى العين وفيه مسألتان

المسألة الأولى قرأ نافع وأبان عن عاصم ترونهم بالتاء المنقطة من فوق والباقون بالياء فمن قرأ بالتاء فلأن ما قبله خطاب لليهود والمعنى ترون أيها اليهود المسلمين مثل ما كانوا أو مثلي الفئة الكافرة أو تكون الآية خطابا مع مشركي قريش والمعنى ترون يا مشركي قريش المسلمون مثلي فئتكم الكافرة ومن قرأ بالياء فللمغالبة التي جاءت بعد الخطاب وهو قوله فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم فقوله يرونهم يعود إلى الإخبار عن إحدى الفئتين

المسألة الثانية إعلم أنه قد تقدم في هذه الآية ذكر الفئة الكافرة وذكر الفئة المسلمة فقوله يرونهم مثلهم يحتمل أن يكون الراؤن هم الفئة الكافرة والمرئيون هم الفئة المسلمة ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذان احتمالان وأيضا فقوله مثليهم يحتمل أن يكون المراد مثلي الرائين وأن يكون المراد مثلي المرئين فإذن هذه الآية تحتمل وجوها أربعة الأول أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين

والاحتمال الثاني أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين **والحكمة في ذلك** أنه تعالى كثر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم

فإن قيل هذا متناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال ويقللكم فى أعينهم (الأنفال ٤٤)

فالجواب أنه كان التقليل والتكثير في حالين مختلفين فقللوا أولا في أعينهم حتى اجترؤا عليهم فلما تلاقوا كثرهم الله في أعينهم حتى صاروا معلوبين ثم إن تقليلهم في أول الأمر وتكثيرهم في آخر الأمر أبلغ في القدرة وإظهار الآية

والاحتمال الثالث أن الرائين هم المسلمون والمرئيين هم المشركون فالمسلمون رأوا المشركين مثلى المسلمين ستمائة وأزيد

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب. ١٠٧/٥

والسبب فيه أن الله تعالى أمر المسلم الواحد بمقاومة الكافرين قال الله تعالى إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين (الأنفال ٦٦)

فإن قيل كيف يرونهم مثليهم رأي العين وكانوا ثلاثة أمثالهم

الجواب أن الله تعالى إنما أظهر للمسلمين من عدد المشركين القدر الذي علم المسلمون أنهم يغلبونهم وذلك لأنه تعالى قال إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين فأظهر ذلك العدد من المشركين للمؤمنين تقوية لقلوبهم وإزالة للخوف عن صدورهم والاحتمال الرابع أن الرائين هم المسلمون وأنهم رأوا المشركين على الضعف من عدد المشركين فهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصرة المشركين بإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين والآية تنافي ذلك وفي الآية احتمال خامس وهو أنا أول الآية قد بينا أن الخطاب مع اليهود فيكون المراد ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة والشوكة

فإن قيل كيف رأوهم مثليهم فقد كانوا ثلاثة أمثالهم فقد سبق الجواب عنه". (١)

١٤٠-"يا بياض القرون سودت وجهي

عند بيض الوجوه سود القرون

فلعمري لأخفينك جهدي

عن عياني وعن عيان العيون

بسواد فيه بياض لوجهي

وسواد لوجهك الملعون

وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل وعند التهنئة بالسرور يقولون الحمد لله الذي بيض وجهك ويقال لمن وصل إليه مكروه إربد وجهه واغبر لونه وتبدلت صورته فعلى هذا معنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني

والقول الثاني إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ولا دليل يوجب ترك الحقيقة فوجب المصير إليه قلت ولأبي مسلم أن يقول الدليل دل على ما قلناه وذلك لأنه تعالى قال وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلا فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ثم قال القائلون بهذا القول **الحكمة في ذلك** أن أهل الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين أحدهما أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة قال تعالى مخبرا عنهم قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين (يس ٢٦ ٢٧) الثاني أنهم إذا عرفوا

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . ١٦٦/٧

ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكفار سببا لمزيد غمهم في الآخرة فهذا وجه الحكمة في الآخرة وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغبا له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه فهذا تقرير هذين القولين

المسألة الثالثة احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر وأنه ليس ههنا منزلة بين المنزلتين كما يذهب إليه المعتزلة فقالوا إنه تعالى قسم أهل القيامة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر الثالث فلو كان ههنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قالوا وهذا أيضا متأكد بقوله تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة (عبسى ٣٨ ٤٢)

أجاب القاضي عنه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه يبين ذلك أنه تعالى إنما قال يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فذكرهما على سبيل التنكير وذلك لا يفيد العموم وأيضا المذكور في الآية المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين فكذا القول في الفساق". (١)

١٤١-"وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم جمالا وكفى بالأدب مالا وهو بمعنى حسبك أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد كأنه قال إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة

الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمان قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا

اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور أولها بأنه حي لا يموت وهو قوله وتوكل على الحى الذى لا يموت (الفرقان ٥٨) وثانيها أنه عالم بجميع المعلومات وهو قوله وكفى به بذنوب عباده خبيرا (الفرقان ٥٨) وثالثها أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله الذى خلق السماوات والارض فقوله الذى خلق متصل بقوله الحى الذى لا يموت لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه وفي الآية سؤالات

السؤال الأول الأيام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال الله خلقها في ستة أيام الجواب يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان لأنا نقول هذا معارض بنفس الزمان لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب. ١٤٩/٨

المدة أولا ثم السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام ومن الناس من قال في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول

السؤال الثاني لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير الجواب أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص قالت المعتزلة بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين أحدهما أن حصول تلك الحكمة إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزا افتقر حصول تلك **الحكمة في ذلك** الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثاني أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح". (١)

١٤٢-"يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد وكان نوح مع أنه في نهاية التغليظ على الكفار قال في ابنه الكافر إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وكان إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة في قوله يا أبت يا أبت وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ولما قال له لارجمنك واهجرني مليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربي وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولهرون فقولا له قولا لينا مع أن جرم فرعون كان أغلظ من جرم أبي لهب كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يقتل بابنه قصاصا ولا يقيم الرجم عليه وإن خاصمه أبوه وهو كافر في الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله غيره والجواب من وجوه أحدها أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله إنه مجنون والناس ما كانوا يتهمونه لأنه كان كالأب له فصار ذلك كالمانع من أداء الرسالة إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة فصار بسبب تلك العداوة متهما في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك وثانيها أن **الحكمة في ذلك** أن محمدا لو كان يداهن أحدا في الدين ويسامحه فيه لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحدا في شيء يتعلق بالدين أصلا وثالثها أن الوجه الذي ذكرتم كالمتعارض فإن كونه عما يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة لا جرم استحق التغليظ العظيم

السؤال الثالث ما السبب في أنه لم يقل قل تبت يدا أبي لهب وتب وقال في سورة الكافرون قل يأهل أيها الكافرون الجواب من وجوه الأول لأن قرابة العمومة تقتضي رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له قل ذلك لئلا يكون مشافها لعمه بالشتم بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماما له الثاني أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى يا محمد أجب عنهم قل يأهل أيها الكافرون وفي هذه السورة طعنوا في محمد فقال الله تعالى أسكت أنت فإني أشتمهم تبت يدا أبي لهب الثالث لما شتموك فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وإذا سكت أنت أكون أنا المجيب عنك يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكتا فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره فلما

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب. ٩٠/٢٤

شرع أبو بكر في الجواب سكت الرسول فقال أبو بكر ما السبب في ذلك قال لأنك حين كنت ساكتا كان الملك يجيب عنك فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذابا عنه وناصرا له ومعينا

السؤال الرابع ما الوجه في قراءة عبد الله بن كثير المكي حيث كان يقرأ أبى لهب ساكنة الهاء الجواب قال أبو علي يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر وأجمعوا في قوله سيصلى نارا ذات لهب على فتح الهاء وكذا قوله ولا يغنى من اللهب وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان وقال غيره إنما اتفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لو فاق الفواصل

مآ أغنى عنه ماله وما كسب". (١)

١٤٣-"فأن قيل : لم خص الحمد بالله ولم يقل الحمد للخالق أو نحو من بقية الصفات ؟

أجيب : بأن لا يتوهم اختصاص استحقاق الحمد بوصف دون وصف ، قال البيضاوي : وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه ، ﴿رب العالمين﴾ أي : مالك جميع الخلق من الإنس والجن والملائكة والدواب وغيرهم ، إذ كل منها يطلق عليه عالم ، يقال : عالم الإنس وعالم الجن إلى غير ذلك ، وسمي المالك بالرب لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيدا كقوله تعالى : ﴿ارجع إلى ربك﴾ (يوسف ، ٥٠) والعالمين اسم جمع عالم بفتح اللام وليس جمعا له لأن العالم عام في العقلاء وغيرهم والعالمين مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه ، قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام في "توضيحه" ، وذهب كثير إلى أنه جمع عالم على حقيقة الجمع ثم اختلفوا في تفسير العالم الذي جمع هذا الجمع فذهب أبو الحسن إلى أنه أصناف الخلق العقلاء وغيرهم وهو ظاهر كلام الجوهري ، وذهب أبو عبيدة إلى أنه أصناف العقلاء فقط وهو الإنس والجن والملائكة وقيل : عنى به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث أنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير ووجه اشتمال الصغير وهو الإنسان على نظائر ما في الكبير وهو ما سوى الله تعالى أن تفاصيله شبيهة بتفاصيل العالم الكبير ، إذ الكبير ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعالم الملك وهو ما ظهر للحواس وتكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وتضمنه التغيير وإلى باطن معقول كعالم الملكوت وهو ما أوجده سبحانه وتعالى بالأمر الأزلي بلا تدريج وبقي على حالة واحدة من غير

١٦

زيادة فيه ولا نقصان منه ، وإلى عالم الجبروت وهو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك فجبر بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كاللحم والعظم والدم ، وإلى باطن كالروح والعقل والإرادة والقدرة ، وإلى ما هو مشابه لعالم الجبروت كالإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزاء البدن.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١١

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب. ١٥٥/٣٢

فإن قيل : لم جمع جمع قلة مع أن المقام يستدعي الإتيان بجميع الكثرة أجيب : بأن فيه تنبيها على أنهم وإن كثروا قليلون في جنب عظمته وكبريائه تعالى.

﴿الرحمن الرحيم مالك يوم الدين﴾ ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من أسمائه خمسة : الله ، والرب ، والرحمن ، والرحيم ، والمالك ، والسبب فيه كأنه يقول : خلقتك أولا فأنا الله ثم ربيتك بوجود النعمة ، فأنا رب ثم عصيت فسترت عليك ، فأنا رحمن ثم تبت عليك ، فأنا رحيم ، ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك ، فأنا مالك يوم الدين.

فإن قيل : إنه تعالى ذكر الرحمن الرحيم في التسمية ثم ذكرهما مرة ثانية دون الأسماء الثلاثة الباقية ، فما **الحكمة في ذلك** ؟ أجيب : بأن **الحكمة في ذلك** كأنه قال تعالى : اذكر أني إله ورب مرة واحدة واذكر أني رحمن رحيم مرتين ليعلم أن العناية بالرحمة أكثر منه بسائر الأمور ، ثم لما بين الرحمة المضاعفة فكأنه قال : لا تغتروا بذلك فإني مالك يوم الدين ونظيره ، قوله تعالى : ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ (غافر ، ٣) وقرأ عاصم والكسائي : مالك بألف بعد الميم ، ويعضده قوله تعالى : ﴿لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ ﴾ (الانفطار ، ١٩) وقرأ الباقون بغير ألف ، ويعضده قوله تعالى : ﴿ملك الناس﴾ (الناس ، ٢) وبينهما عموم مطلق فكل ملك مالك ولا عكس لعموم ولاية الملك التزاما لا مطابقة ولا يقدح فيها أن تقول مالك الدواب والأنعام والوحوش والطير دون ملكها لأن ذلك ليس من جهة عدم شمول حياطته لذلك ، بل من جهة أنه إنما يضاف عرفا إلى ما فيه انقياد وامتثال وينفذ فيه التصرف بالأمر والنهي ، قاله السعد التفتازاني ، وقيل : هما بمعنى وهو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ولا يقدر على ذلك إلا الله ويوم الدين يوم الجزاء ومنه قولهم كما تدين تدان وهو يوم القيامة وخص بالذكر لأنه لا ملك ظاهر فيه لأحد إلا لله تعالى ﴿لمن الملك اليوم﴾ (غافر ، ١٦) .

فإن قيل : إضافة اسم الفاعل غير حقيقية فلا تكون معطية معنى التعريف فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة ؟

أجيب : بأنها إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال فكان في تقدير الانفصال كقولك : مالك الساعة أو غدا فأما إذا قصد به معنى الاستمرار : أي هو موصوف بذلك دائما فتكون الإضافة حقيقية كغافر الذنب فصح وقوعه صفة للمعرفة.

فإن قيل : التقييد بيوم الدين ينافي الاستمرار لكونه صريحا في الاستقبال ، أجيب : بأن معناه الثبوت والاستمرار من غير اعتبار حدوث في أحد الأزمنة ومثل هذا المعنى لا يمتنع أن يعتبر بالنسبة إلى يوم الدين كأنه قيل : هو ثابت المالكية في يوم الدين أو المراد أنه جعل يوم الدين لتحقق وقوعه بمنزلة الواقع فتستمر مالكيته في جميع الأزمنة.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١١". (١)

١٤٤-"فإن قيل : المغفرة هي الرحمة فلم كررها ونكرها ؟

أجيب : بأنه إنما نكرها إيذانا بأن أدنى خير وأقل شيء خير من الدنيا وما فيها وهو المراد بقوله : ﴿خير مما تجمعون﴾

---

(١) تفسير السراج المنير . ١٥/١

من الدنيا وأما التكرير فغير مسلم ؛ لأن المغفرة مترتبة على الرحمة فيرحم ثم يغفر.

فإن قيل : كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلا ؟

أجيب : بأن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات فقيل : المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٩٤

﴿ولئن متم أو قتلتم﴾ على أي وجه اتفق هلاككم ﴿لا إلى الله﴾ لا غيره ﴿تحشرون﴾ في الآخرة فيجازيكم وقرأ نافع وحمزة ﴿متم﴾ بكسر الميم والباقون بالضم ، وقرأ حفص ﴿يحشرون﴾ بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ورسمت لا إلى الله بألف بعد اللام.

فإن قيل : هنا ثلاثة مواضع فقدم الموت على القتل في الأول والأخير وقدم القتل على الموت في المتوسط فما **الحكمة في ذلك** ؟

أجيب : بأن الأول لمناسبة ما قبله من قوله : ﴿إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزا﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض والقتل لمن غزا ، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد فقدم الأهم الأشرف ، وأما الأخير فلأن الموت أغلب.

﴿فبما رحمة﴾ أي : فبرحمة ﴿من الله لنت لهم﴾ فما مزيدة للتأكيد والجار والمجرور مقدم للدلالة على أن لينه صلى الله عليه وسلم ما كان إلا برحمة من الله ، ومعنى الرحمة توفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه ﴿ولو كنت فظا﴾ أي : سيء الخلق ﴿غليظ القلب﴾ أي : جافيا ﴿لانفضوا﴾ أي : تفرقوا ﴿من حولك﴾ أي : عنك وذلك ؛ لأن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله تعالى إلى الخلق وذلك لا يتم إلا بميل قلوبهم إليه وسكون نفوسهم لديه وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيما بهم كريما يتجاوز عن ذنوبهم ويعفو عن سيئاتهم ويخصهم بالبر والشفقة فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق وغلظ القلب ويكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء كثير القيام بإعانة الفقراء. وحمل القفال هذه الآية على واقعة أحد قال : فبما رحمة من الله لنت لهم يوم أحد حين عادوا إليك بعد الإنهزام ، ولو كنت فظا غليظ القلب فشافهتهم بالملامة على ذلك الإنهزام لانفضوا من حولك هيبة منك وحياء بسبب ما كان منهم من الإنهزام ، فكان ذلك مما يطمع العدو فيك وفيهم ﴿فاعف﴾ أي : تجاوز ﴿عنهم﴾ أي : ما أتوه ﴿واستغفر لهم﴾ ذنوبهم حتى أشفعك فيهم فأغفر لهم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٩٨

واختلفوا في معنى قوله تعالى : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ على وجوه أحدها : إن ذلك يقتضي شدة محبته لهم فلو لم يفعل ذلك لكان ذلك إهانة لهم فيحل سوء الخلق والفظاظة وثانيها : إنه عليه الصلاة والسلام وإن كان أكمل الناس عقلا إلا أن عقول الخلق غير متناهية ، فقد يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال آخر لا سيما فيما يتعلق بأمور الدنيا ، قال عليه الصلاة والسلام : "أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم" ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم "ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم" وثالثها : قال الحسن وسفيان بن عيينة : إنما أمر بذلك ليقتدي

به غيره في المشاورة وتصير سنة ورابعها : أنه عليه الصلاة والسلام شاورهم في وقعة أحد أشاروا عليه بالخروج وكان ميله أن لا يخرج ، فلما خرج وقع ما وقع فلو ترك مشاورتهم بعد ذلك لكان ذلك يدل على أنه بقي في قلبه منهم بسبب مشاورتهم شيء ، فأمر الله تعالى بمشاورتهم بعد تلك الواقعة ليدل على أنه لم يبق في قلبه أثر من تلك الواقعة وخامسها : أمره بالمشاورة لا ليستفيد منهم رأيا ولكن ليعلم مقادير عقولهم ومحبتهم له. وذكروا أيضا وجوها أخر ، وفي هذا القدر كفاية واتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحي من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور الأمة فيه ؛ لأن النص إذا جاء بطل الرأي ﴿فإذا عزمت﴾ أي : قطعت الأمر على إمضاء ما تريد بعد المشاورة ﴿فتوكل على الله﴾ أي : ثق به لا بالمشاورة فليس التوكل إهمال التدبير بالكلية بل بمراعاة الأسباب مع تفويض الأمر إلى الله تعالى ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ عليه فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح. ﴿إن ينصركم الله﴾ أي : يعنكم على عدوكم كيوم بدر ﴿فلا غالب لكم﴾ أي : فلا يغلبكم أحد ﴿وإن يخذلكم﴾ بترك نصركم كيوم أحد ﴿فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ أي : من بعد خذلانه أي : لا أحد ينصركم. وفي هذا تنبيه على المقتضي للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجاب خذلانه ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي : فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر سواه ؛ لأن إيمانهم يوجب ذلك ويقتضيه.". (١)

١٤٥-"فإن قيل : لم قال تعالى في وصف المنافقين : ﴿بعضهم من بعض﴾ وقال في وصف المؤمنين : ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ ما الحكمة في ذلك ؟

أجيب : بأنه لما كان نفاق الإتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة قال فيهم : ﴿بعضهم من بعض﴾ ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الحكمة ، وقوله تعالى : ﴿يأمرون بالمعروف﴾ أي : بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة ﴿وينهون عن المنكر﴾ أي : الشرك والمعاصي ، والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع في مقابلة قوله تعالى في المنافقين : ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي : المفروضة ويتمون أركانها وشروطها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي : الواجبة عليهم في مقابلة قوله تعالى في المنافقين : ﴿ويقبضون أيديهم﴾ المعبر به عن البخل وقوله تعالى : ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي : فيما يأمرهم به في مقابلة قوله تعالى في المنافقين : ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ ، ولما ذكر تعالى ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهي ثواب الآخرة بقوله تعالى : ﴿أولئك﴾ أي : المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات ﴿سيرحمهم الله﴾ بوعد لا خلف فيه ﴿إن الله عزيز﴾ أي : غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده ﴿حكيم﴾ أي : لا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه ، ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الإجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى :

---

(١) تفسير السراج المنير. ١/٢١٠

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فذكر في هذه الآية أن الرحمة هي هذه الأنواع المذكورة في هذه الآية أولها قوله تعالى : ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فهي لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة ، ولما كان النعيم لا يكمل إلا بالدوام قال تعالى : ﴿خالدين فيها﴾ والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار البساتين التي يحير في حسنها الناظر لأنه تعالى قال : ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي : إقامة وخلود وهذا هو النوع الثاني فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الأخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.
جزء : ١ رقم الصفحة : ٧١٧

قد كثر كلام أصحاب الآثار في صفة جنات عدن فقال الحسن : سألت عمران بن الحصين عن قوله تعالى : ﴿ومساكن طيبة﴾ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "قصر في الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريرا
٧١٩

على كل سرير سبعون فراشا على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام وفي كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك أجمع" ، وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر" أي : دار الله تعالى التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قلت : يا رسول الله حدثني عن الجنة ما بناؤها قال : "لبنة من ذهب ولبنة من فضة وبلاطها المسك الإذفر وتربتها الزعفران وحصباؤها الدر والياقوت فهي النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه". وقال ابن مسعود : جنات عدن بطنان الجنة ، قال الأزهري : بطنانها وسطها ، وقال عطاء عن ابن عباس : هي قصر في الجنة وسقفها عرش الرحمن وهي المدينة التي فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى وسائر الجنان حولها وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الإذفر ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله تعالى عنهما : إن في الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل.

وقال عطاء بن السائب : عدن نهر في الجنة قبابه على حافتيه ، وقال الرازي : حاصل الكلام أن في جنات عدن قولين : أحدهما : أنه اسم علم لموضع معين في الجنة وهذه الأخبار والآثار تقوي هذا القول ، وقال في "الكشاف" : وعدن علم بدليل قوله تعالى : ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده﴾ (مريم ، ٦١)

والقول الثاني : أنه صفة الجنة.

قال الأزهري : مأخوذ من قولك : عدن بالمكان ، إذا أقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن جعلنا الله تعالى ومن نحبه من أهلها وأحل علينا رضوانه فإنه المقصود الأعظم كما قال تعالى : ﴿ورضوان من الله أكبر﴾

لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء.". (١)

١٤٦-"ولقد تركنا﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿منها﴾ أي : من تلك القرى ﴿آية﴾ أي : علامة على قدرتنا على كل ما نريد ﴿بينة﴾ أي : ظاهرة ، قال ابن عباس : منازلهم الخربة ، وقال قتادة هي الحجارة التي أهلكوا بها أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، وقال مجاهد هو ظهور الماء الأسود على وجه الأرض ، فائدة : اتفق القراء على إدغام الدال في التاء.

١٩١

تنبيه : في هذه الآية إشارة إلى غفلة المخاطبين بهذه القصة من العرب وغيرهم وأنه ليس بينهم وبين الهدى إلا تفكرهم في أمرهم مع الانخلاع من الهوى وإنما يكون ذلك ﴿لقوم يعقلون﴾ أي : يتدبرون فعد من لم يستبصر بذلك غير عاقل ، تنبيه : ههنا أسئلة : (الأول) كيف جعل الآية في نوح وإبراهيم عليهما السلام بالنجاة فقال : ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية﴾ (العنكبوت ، ١٥) وقال : ﴿فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات﴾ (العنكبوت ، ٢٤) وجعل ههنا الهلاك آية ، (الثاني) : ما الحكمة في قوله تعالى في السفينة ﴿جعلناها آية﴾ ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة ، (الثالث) : ما الحكمة في قوله تعالى هناك ﴿للعالمين﴾ وقال ههنا : ﴿لقوم يعقلون﴾ ؟

أجيب عن الأول : بأن الآية في إبراهيم كانت في النجاة لأن في ذلك الوقت لم يكن إهلاك ، وأما في نوح فلأن الإنجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب إلهي وما به النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق له بعده أثر محسوس في البلاد فجعل الباقي آية ، وأما ههنا فنجاة لوط لم تكن بأمر يبقى في أثره للحس ، والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الأمر الباقي ههنا البلاد وهناك السفينة.

وههنا لطيفة : وهي أن الله تعالى آية قدرته موجودة في الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة وآخر آيات الهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة ، وعن الثاني بأن الإنجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر ، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وبزمان دون زمان فهي بينة لا يمكن الجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة أمرها يكون كذلك فيقال له فلو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كانت تحصل لهم النجاة ولو سلط الله تعالى عليهم الريح العاصفة كيف تكون أحوالهم ، وعن الثالث بأن السفينة موجودة معلومة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حالة نوح وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاة منه ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا إلى الله تعالى طالبا للنجاة ، وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من مر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله تعالى وإراداته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان دون زمان ، ولما كان شعيب عليه السلام أيضا قد ابتلي بتكذيب قومه اتبع قصته بقصة لوط بقوله تعالى :

---

(١) تفسير السراج المنير. ١/٤٩٨

﴾

جزء : ٣ رقم الصفحة : ١٨٩

وإلى مدين﴾ أي : ولقد أرسلنا أو بعثنا إلى مدين ﴿أخاهم﴾ أي : من النسب والبلد ﴿شعيبا﴾ ومدين قيل : اسم رجل في الأصل وجهل وله ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما ، وقيل : اسم ماء نسب القوم إليه فاشتهر في القوم ، قال الرازي : والأول كأنه أصح لأن الله تعالى أضاف الماء إلى مدين بقوله تعالى : ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ (القصص : ٢٣) ولو كان اسما للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية والأصل في الإضافة التغاير والحقيقة ، فإن قيل : قال تعالى في نوح : ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ (القصص : ٢٣)

فقدم نوحا في الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه ، وكذلك في إبراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف إليهم أخاهم شعيبا ، فما **الحكمة في ذلك** ؟

.

أجيب : بأن الأصل في الجميع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن الرسل لا تبعث إلى غير

١٩٢

معينين وإنما تبعث الرسل إلى قوم محتاجين إلى الرسل فيرسل الله تعالى إليهم من يختاره ، غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاصة ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بنبيهم عليه السلام فقيل قوم نوح وقوم لوط فأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله قال تعالى : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ ﴿فقال﴾ أي : فتسبب عن إرساله وبعثه أن قال : ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي : الملك الأعلى وحده ولا تشركوا به شيئا فإن العبادة التي فيها شرك ظاهر أو خفي عدم لأن الله تعالى أغنى الشركاء فهو لا يقبل إلا ما كان له خالصا.". (١)

١٤٧-"ومن آياته﴾ أي : الدالة على ذلك ﴿خلق السموات﴾ على علوها وإحكامها ﴿والأرض﴾ على اتساعها وإتقانها ، وقدم السماء على الأرض لأن السماء كالذكر لها ، ولما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بقوله تعالى : ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ أي : لغاتكم من العربية والعجمية وغيرهما ، ونغماتكم وهيآتها ، فلا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس ولا جهارة ولا شدة ولا رخاوة ولا لكنة ولا فصاحة ولا غير ذلك من صفات النطق وأشكاله وأنتم من نفس واحدة ﴿و﴾ اختلاف ﴿ألوانكم﴾ من أبيض وأسود وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان وأنتم بنو رجل واحد وهو آدم عليه السلام ، **والحكمة في ذلك** : أن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه ، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه ، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور ، وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الأصوات ، وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد

---

(١) تفسير السراج المنير. ١٢٩/٣

فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع التمييز بين كل واحد بشكله وحليته وصورته ، ولو اتفقت الصور والأصوات وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية فيروك الخطأ في التمييز بينهما ، فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد ، وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد وتفرعوا من أصل فذ وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله تعالى مختلفون متفاوتون ، ولما كان هذا مع كونه في غاية الوضوح لا يختص بجنس من الخلق دون غيره قال ﴿إن في ذلك﴾ أي : الأمر العظيم العالي الرتبة في بيانه وظهور برهانه ﴿لآيات﴾ أي : دلالات واضحات جدا على وحدانيته تعالى ﴿للعالمين﴾ أي : ذوي العقول والعلم لا يختص به صنف منهم دون صنف من جن ولا أنس ولا غيرهم ، فهذا هو حكمة قوله تعالى هنا للعالمين وفيما تقدم بقوله تعالى : ﴿لقوم يتفكرون﴾ ، (يونس : ٢٤)

وقرأ حفص وحده بكسر اللام ، ولما ذكر تعالى بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة في النهار طلبا للرزق كما قال تعالى :

﴿ومن آياته﴾ الدالة على القدرة والعلم ﴿منامكم﴾ أي : نومكم ومكانه وزمانه الذي يغلبكم بحيث لا تستطيعون له دفعا ﴿بالليل والنهار﴾ قيلولة ﴿وابتغاؤكم من فضله﴾ أي : منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وقوة القوى الطبيعية ، وطلب معاشكم فيهما فإن كثيرا ما يكسب الإنسان بالليل ، أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار خلف ، وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين وهما الواوان إشعارا بأن كلا من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة ، ويؤيده آيات أخر كقوله تعالى ﴿وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا﴾ (النبأ : ١٠ . ١١)

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٢١٥

وقوله تعالى : ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ (الإسراء : ١٢)

ويكون التقدير هكذا : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله. وأخر الابتغاء وقرنه في اللفظ بالفضل إشارة إلى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل من فضل ربه. ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع منها قوله تعالى ﴿فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ (الجمعة : ١٠)

وقوله تعالى ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ تنبيه : قدم الله تعالى المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر لأن الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون إلا لحاجة ، فلا يبتغي إلا محتاج في الحال أو خائف من المآل ﴿إن في ذلك﴾ أي : الأمر العظيم العلي الرتبة من إيجاد النوم بعد النشاط والنشاط بعد النوم الذي هو الموت الأصغر وإيجاد كل من الملوين بعد إعدامهما ، والجد في الابتغاء بعد المفارقة في التحصيل ﴿لآيات﴾ عديدة على القدرة والعلم لا سيما البعث ﴿لقوم يسمعون﴾ أي : من الدعاة والنصاح سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة.". (١)

---

(١) تفسير السراج المنير . ٣/١٤٧

١٤٨-"سورة يس

مكية وهي ثلاث وثمانون آية ، وسبعمائة وتسعةوعشرون كلمة ، وثلاثة آلاف حرف

وتسمى أيضا : القلب والدافعة والقاضية والمعممة تعم صاحبها بخير الدارين ، وتدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة ، والبيضاوي ذكر هذه التسمية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال شيخنا القاضي زكريا : لم أره ولكن المثبت مقدم على النافي.

﴿بسم الله﴾ أي : الذي جل ملكه على أن يحاط بمقداره ﴿الرحمن﴾ الذي جعل إنذار يوم الجمع رحمة عامة ﴿الرحيم﴾ الذي أنار قلوب أوليائه بالاجتهاد ليوم لقائه وقوله تعالى :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤١٠

﴿يس﴾ كألم في المعنى والإعراب وقال ابن عباس : يس قسم ، وروي عن شعبة أن معناه يا إنسان بلغة طيء على أن أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل : م الله في أيمن الله ، وقال أكثر المفسرين : يعني محمدا صلى الله عليه وسلم قاله الحسن وسعيد بن جبير وجماعة وقال أبو

٤١١

العالية : يا رجل وقال أبو بكر الوراق : يا سيد البشر.

قال ابن عادل في ذكر هذه الحروف أوائل السور : أمور تدل على أنها غير خالية من الحكمة ، لكن علم الإنسان لا يصل إليها والذي يدل على أنها فيها حكمة هو أن الله عز وجل ذكر من الحروف نصفها وهي أربعة عشر حرفا نصف ثمانية وعشرين حرفا هي جميع الحروف التي في لسان العرب على قولنا : الهمزة ألف متحركة ، ثم إن الله تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الألف إلى الذال ، والتسعة الأخيرة من الفاء إلى الياء وعشرة في الوسط من الراء إلى الغين ، وذكر من القسم الأول حرفين الألف والحاء ، وترك سبعة وترك من القسم الأخير حرفين هما الألف واللام ، وذكر سبعة ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحدا لم يذكره وهو الخاء ، ولم يذكر من القسم الأخير من حروف الشفة إلا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الأوسط ذكر منه حرفا وترك حرفا فترك الزاي وذكر الراء ، وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين ، وليس لها أمر يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة لكنها غير معلومة.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤١١

وهب أن واحدا يدعى فيه شيئا فماذا يقول في كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن و ق و ص ، وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه ، وبعضها بثلاثة أحرف كألم وطسم والر ، وبعضها بأربعة أحرف كسورة المر والمص ، وبعضها بخمسة أحرف كسورة حم عسق وكهعيص.

وهب أن قائلا يقول : إن هذه إشارة بأن الكلام إما حرف وإما فعل وإما اسم ، والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الإلصاق وغيرها ، وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وإن للشرط وغيرها ، والفعل والاسم والحرف جاءت ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى

في الاسم وألا يألوا بالواو ، وعلا يعلو في الفعل والاسم ، والفعل جاء على أربعة أحرف ، والاسم خاصة جاء على ثلاثة أحرف وأربعة وخمسة كعجل ومسجد وجردحل.

فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله تعالى ، ومن أعلمه الله تعالى به.

وإذا علم هذا فالعبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية ، وكل واحد منها قسمان : قسم عقل معناه وحقيقته ، وقسم لم يعلم ، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل فمنها ما لم يعلم دليله عقلا ، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي هو أدق من الشعر وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف ، والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر ، وكيفية الجنة والنار ، فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي ، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ، ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله تعالى وصدق الرسل ، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات.

والحكمة في ذلك أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة فلا يكون الإتيان إلا لمحض الفائدة بخلاف ما لم تعلم الفائدة ، فربما تأتي الفائدة وإن لم يؤمر كما لو قال

٤١٢

السيد لعبده : انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها ، ولو قال : انقلها فإن تحتها كنزا هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر.

وإذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي فإذا قال : حم طس يس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به ، انتهى كلام ابن عادل بحروفه وهو كلام دقيق ، وقرأ يس بإمالة الياء شعبة وحمزة والكسائي ، والباقون بالفتح ، وأظهر النون من يس عند واو.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤١١". (١)

١٤٩-"﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا﴾ أي : بأن تضم إليها الأيدي ؛ لأن الغل يجمع اليد إلى العنق ، وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمدا صلى الله عليه وسلم يصلي ليرضخن رأسه ، فأتاه وهو يصلى ومعه حجر ليدمغه به فلما رفعه أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده إلى عنقه ، فلما رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر فقال رجل من بني مخزوم : أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه ، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له : ما صنعت ؟

---

(١) تفسير السراج المنير . ٢٧٨/٣

فقال : ما رأيته ولقد سمعت كلاما وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه ولو دنوت منه لأكلني ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤١١

ووجه المناسبة لما تقدم أنه لما قال تعالى ﴿لقد حق القول على أكثرهم﴾ وتقدم أن المراد به البرهان وقال بعد ذلك : بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ، ومنع من إرسال الحجر وهو مضطر إلى الإيمان ولم يؤمن علم أنه لا يؤمن أصلا ، وقال أهل المعاني : هذا

٤١٤

على طريق المثل ولم يكن هناك غل ، أراد منعناهم عن الإيمان بموانع ، فجعل الأغلال مثلا لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنذر بتمثيلهم بالذين غلت أيديهم.

وقال الفراء : معناه حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله كقوله تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ (الإسراء : ٢٩) معناه : ولا تمسكها عن النفقة ، ومناسبة هذا لما تقدم أن قوله تعالى ﴿فهم لا يؤمنون﴾ يدخل فيه أنهم لا يصلون لقوله تعالى ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (البقرة : ١٤٣)

أي : صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة فكأنه قال : لا يصلون ولا يزكون ، واختلف في عود الضمير في قوله تعالى ﴿فهي إلى الأذقان﴾ على وجهين : أشهرهما : أنه عائد على الأغلال ؛ لأنها هي المحدث عنها ، ومعنى هذا الترتيب بالفاء أن الغل لغلظه وعرضه يصل إلى الذقن ؛ لأنه يلبس العنق جميعه ، قال الزمخشري : والمعنى أنا جعلنا في أعناقهم أغلالا ثقالا بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه.

ثانيهما : أن الضمير يعود إلى الأيدي ، وإليه ذهب الطبري وعليه جرى الجلال المحلي ؛ لأن الغل لا يكون إلا في العنق واليدين ، ودل على الأيدي وإن لم تذكر الملازمة المفهومة من هذه الآلة أعني الغل. وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بكسرها والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين ﴿فهم مقمحون﴾ أي : رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم في أنهم لا يلتفتون لفتة إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطؤن رؤوسهم له ، والإقماح رفع الرأس إلى فوق كالإقناع وهو من قمح البعير رأسه إذا رفعها بعد الشرب إما لبرودة الماء ، وإما لكراهة طعمه.

ولما كان الرافع رأسه غير ممنوع من النظر أمامه قال تعالى :

﴿وجعلنا﴾ أي : بعظمتنا ﴿من بين أيديهم﴾ أي : الوجه الذي يمكنهم عمله ﴿سدا﴾ فلا يسلكون طريق الاهتداء.

ولما كان الإنسان إذا انسدت عليه جهة مال إلى أخرى قال تعالى ﴿ومن خلفهم﴾ أي : الوجه الذي هو خفي عنهم ﴿سدا﴾ فلا يرجعون إلى الهداية فصارت كل جهة يلتفتون إليها منسدة فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق ، ولا الخلوص إليه ، فلذلك قال تعالى ﴿فأغشيناهم﴾ أي : جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة ﴿فهم﴾ أي : بسبب ذلك ﴿لا يبصرون﴾ أي : لا يتجدد لهم هذا الوصف من إبصار الحق وما ينفعهم بصر ظاهر ولا بصيرة باطنة ، وأيضا الإنسان مبدؤه من الله تعالى ومصيره إليه فعمى الكافرين بأن لا يبصروا ما بين أيديهم من المصير إلى الله تعالى ، وما خلفهم من الدخول في الوجود بخلق الله تعالى كمن أحاط بهم سد فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم

محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل ، وأيضا فإن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فإن انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع ، فإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه والموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامته هلك.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤١١

فإن قيل : ذكر السد من بين الأيدي ومن الخلف ولم يذكره من اليمين والشمال فما **الحكمة في ذلك** ؟

أجيب : بأنهم إذا قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء وموليين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم ، فيجعل الله تعالى السد هناك فيمنعه من السلوك فكيفما توجه الكافر يجعل الله تعالى بين يديه سدا ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص سدا

٤١٥

بفتح السين في الموضعين وهو لغة فيه ، والباقون بالضم.

ولما منعوا بذلك حس البصر أخبر عن حس السمع بقوله تعالى : ". (١)

١٥٠-"سورة الصف

مدنية في قول الأكثرين ، وذكر النحاس عن ابن عباس أنها مكية ، وهي أربع عشرة آية ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف

﴿بسم الله﴾ الملك الأعظم الذي لا كفء له ﴿الرحمن﴾ الذي عم بفضله كل أحد من خلقه ﴿الرحيم﴾ الذي خص من شاء من عباده فهيأه لعبادته وأهله.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٨٩

﴿سبح لله﴾ أي : أوقع التنزيه الأعظم للملك الأعظم ﴿ما في السموات﴾ من جميع الملائكة وغيرها كالأفلاك والنجوم ﴿وما في الأرض﴾ كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار. وقيل : اللام مزيدة ، أي : نزه الله وأتى بما دون من ، قال الجلال المحلي : تغليبا للأكثر.

فإن قيل : ما الحكمة في انه تعالى قال في بعض السور سبح لله بلفظ الماضي ، وفي بعضها يسبح بلفظ المضارع ، وفي بعضها فسبح بلفظ الأمر ؟

.

أجيب : بأن **الحكمة في ذلك** تعليم العبد أن يسبح الله تعالى على الدوام كما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان ، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان ، والأمر يدل عليه في الحال فإن قيل : هلا قيل سبح لله السموات والأرض وما فيهما ، وهو أكثر مبالغة أجيب : بأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها ، وبالأرض جهة السفل

---

(١) تفسير السراج المنير. ٣/٢٨٠

فيشمل الأرض وما فيها ﴿وهو﴾ أي : وحده ﴿العزيز﴾ أي : الغالب على غيره أي شيء كان ذلك الغير ، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره ﴿الحكيم﴾ أي : الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها. روى الدرامي في مسنده قال : أنبأنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه ، فأنزل الله تعالى : ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾

٢٩٠

﴿يأيها الذين آمنوا﴾ أي : ادعوا الإيمان ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ حتى ختمها. قال عبد الله : "فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها ، قال أبو سلمة : قرأها علينا عبد الله بن سلام حتى ختمها ، قال يحيى فقرأها علينا أبو سلمة فقرأها علينا أبو يحيى ، فقرأها علينا الأوزاعي ، فقرأها علينا محمد فقرأها علينا الدرامي. انتهى. ولي بقراءتها سند متصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقال عبد الله بن عباس : قال عبد الله بن رواحة : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لعملناه فلما نزل الجهاد كرهوه. وقال الكلبي : قال المؤمنون : يا رسول الله لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا إليه فنزل ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ فمكثوا زمانا يقولون : لو نعلمها لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين ، فدلهم الله تعالى عليها بقوله تعالى : ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله﴾ (الصف : ١١)

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٩٠

الآية ، فابتلوا يوم أحد ففروا فنزلت الآية تعييرا لهم بترك الوفاء. وقال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بدر.". (١)

١٥١-"تنبيه : الإطفاء هو الإخماد يستعملان في النار وفيما يجري مجراها من الضياء والظهور ، ويفرق بين الإطفاء والإخماد من حيث إن الإطفاء يستعمل في القليل ، فيقال : أطفأت السراج ، ولا يقال : أخمدت السراج ، وفي هذه اللام أوجه : أحدها : أنها تعليلية كما مر ، ثانيها : أنها مزيدة في

٢٩٥

مفعول الإرادة ، وقال الزمخشري : أصله يريدون أن يطفئوا كما في سورة التوبة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة توكيدا له ، لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لإكرامك ، كما زيدت اللام في : لا أب لك تأكيدا لمعنى الإضافة في لا أباك.

قال الماوردي : وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس : "أن النبي صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي أربعين يوما ، فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أبشروا فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه وما كان ليتم أمره ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية" ، واتصل الوحي بعدها واختلف في المراد بالنور ،

---

(١) تفسير السراج المنير . ١٩٤/٤

فقال ابن عباس : هو القرآن ، أي : يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول. وقال السدي : الإسلام ، أي : يريدون رفعه بالكلام. وقال الضحاك : إنه محمد صلى الله عليه وسلم أي : يريدون هلاكه بالأراجيف وقال ابن جريج : حجج الله تعالى ودلائله ، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم. وقيل : إنه مثل مضروب ، أي : من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا ، كذلك من أراد إطفاء الحق ﴿والله﴾ أي : الذي لا مدافع له لتمام عظمته ﴿متم نوره﴾ فلا يضره ستر أحد له بتكذيبه ولا إرادة إطفائه ، وزاد ذلك بقوله تعالى : ﴿ولو كره﴾ أي : إتمامه له ﴿الكافرون﴾ أي : الراسخون في جهة الكفر المجتهدون في المحاماة عنه.

﴿

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٩٥

هو﴾ أي : الذي ثبت أنه جامع لصفات الكمال والجلال وحده من غير أن يكون له شريك أو وزير ﴿الذي أرسل رسوله﴾ أي : الحقيق بأن يعظمه كل من بلغه أمره لأن عظمته من عظمته ، ولم يذكر حرف الغاية إشارة إلى عموم الإرسال إلى كل من شمله الملك كما مضى ﴿بالهدى﴾ أي : البيان الشافي بالقرآن والمعجزة ﴿ودين الحق﴾ أي : والملة الحنيفية ﴿ليظهره﴾ أي : يعليه مع الشهرة وإذلال المنازع ﴿على الدين﴾ أي : جنس الشريعة التي ستجعل ليجازى من يسلكها ومن يزغ عنها بما يشرع فيها من الأحكام ﴿كله﴾ فلا يبقى دين إلا كان دونه ، وانمحق به وذل أهله ذلا لا يقاس به ذل ﴿ولو كره﴾ أي : إظهاره ﴿المشركون﴾ أي : المعاندون في كفرهم الراسخون في سلك المعاندة.

فإن قيل : قال أولا : ﴿ولو كره الكافرون﴾ ، وقال ثانيا : ﴿ولو كره المشركون﴾ ، فما **الحكمة في ذلك** ؟

.

أجيب : بأنه تعالى أرسل رسوله ، وهو من نعم الله تعالى ، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء فلهذا قال ﴿ولو كره الكافرون﴾ لأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون ، فلفظ الكافر أليق به. وأما قوله تعالى : ﴿ولو كره المشركون﴾ فذلك عند إنكارهم التوحيد وإصرارهم عليه ، لأنه صلى الله عليه وسلم في ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا إله إلا الله فلم يقولوها ، فلهذا قال : ﴿ولو كره المشركون﴾.

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٩٥

واختلف في سب نزول قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ أي : أقروا بالإيمان ﴿هل أدلكم﴾ أي : وأنا المحيط علما وقدرة فهي إيجاب في المعنى ، ذكر بلفظ الاستفهام تشريفا ليكون أوقع في النفس ﴿على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ أي : مؤلم فقال مقاتل : نزلت في عثمان بن مظعون قال : "يا رسول الله لو أذنت لي طلقت خولة ، وترهبت واختصيت ، وحرمت

٢٩٦

اللحم ، ولا أنام بليل أبدا ، ولا أفطر بنهار ، فقال صلى الله عليه وسلم إن من سنتي النكاح ، ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله ، وخصاء أمتي الصوم ، ولا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ، ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر

وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني ، فقال عثمان : والله لوددت يا رسول الله أي التجارة أحب إلى الله تعالى فأتجر فيها ، فنزلت" وقيل : أدلكم ، أي : سأدلكم ، والتجارة : الجهاد ، قال الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ (التوبة : ١١١)

الآية ، وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل : نزل هذا حين قالوا : لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملنا به. قال البغوي : وجعل هذا بمنزلة التجارة لأنهم يربحون بها رضا الله تعالى ، ونيل جنته والنجاة من النار وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشدد الجيم ، والباقون بسكون النون وتخفيف الجيم". (١)

١٥٢-"﴿ ٢٣٤ ﴾ ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ .

أي: إذا توفي الزوج، مكثت زوجته، متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبا، **والحكمة في ذلك**، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة، عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله: ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن ﴾ أي: من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿ بالمعروف ﴾ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه.

وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء.

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي: عالم بأعمالكم، ظاهرها وباطنها، جليلها وخفيها، فمجازيكم عليها.

وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن ﴾ [ص ١٠٥] دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.". (٢)

١٥٣-"وفي قوله: ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] (١) والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقا. [ص ١٩٢]

﴿ ٨٨ - ٩١ ﴾ ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا * ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو

---

(١) تفسير السراج المنير . ١٩٨/٤

(٢) تفسير السعدي ص/١٠٤

جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا * ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ .

(٢) المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تحرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم. فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققتم ذلك منهم ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴾ أي: في أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما (٣) : من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم ﴿ حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ﴾ أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر **الحكمة في ذلك** في قوله: ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

﴿ ف ﴾ هؤلاء ﴿ إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ .

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ ستجدون آخرين ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين. ﴿ يريدون أن يأمنوكم ﴾ أي: خوفا منكم ﴿ ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم،

وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احتراما لهم لا خوفا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون (٤) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحا عظيما اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ أي: المسالمة والموادعة ﴿ ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.

---

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: "فما لكم في المنافقين فئتين" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد". وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٤) في ب: سيقدمون.". (١)

١٥٤-"﴿ ٣٣ ، ٣٤ ﴾ ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ .

المحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض [ص ٢٣٠] بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم -عند إقامة الحد عليهم- أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى

---

(١) تفسير السعدي ص/١٩١

والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ ذلك ﴾ النكال ﴿ لهم خزي في الدنيا ﴾ أي: فضيحة وعار ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله.

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾ أي: من هؤلاء المحاربين، ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ أي: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الآدمي أيضا، إن كان المحارب كافرا ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلما فإن حق الآدمي، لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب –بعد القدرة عليه– أنها لا تسقط عنه شيئا، **والحكمة في ذلك** ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود –إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه– من باب أولى.". (١)

١٥٥–"ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿ إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيمانا صحيحا، موجبا لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحا، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

[ص ٢٤٤]

﴿ ٩٤ – ٩٦ ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾ .

هذا من منن الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرا، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لا بد أن يختبر الله إيمانكم.

﴿ ليبلونكم الله بشيء من الصيد ﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة، تخفيفا منه تعالى ولطفا، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿ تناله أيديكم ورماحكم ﴾ أي: تتمكنون من صيده، ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا

---

(١) تفسير السعدي ص/٢٢٩

رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر **الحكمة في ذلك** الابتلاء، فقال: ﴿ ليعلم الله ﴾ علما ظاهرا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿ من يخافه بالغيب ﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿ فمن اعتدى ﴾ منكم ﴿ بعد ذلك ﴾ البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل. ﴿ فله عذاب أليم ﴾ أي: مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده. وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾ أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالا له قبل الإحرام.

وقوله: ﴿ ومن قتله منكم متعمدا ﴾ أي: قتل صيدا عمدا ﴿ ف ﴾ عليه ﴿ جزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئا من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به. والاعتبار بالمماثلة أن ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش -على اختلاف أنواعه- بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئا من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئا ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدي لا بد أن يكون ﴿ هديا بالغ الكعبة ﴾ أي: يذبح في الحرم.

﴿ أو كفارة طعام مساكين ﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين. قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره. ﴿ أو عدل ذلك ﴾ الطعام ﴿ صياما ﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوما. ﴿ ليذوق ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿ وبال أمره ﴾ ﴿ ومن عاد ﴾ بعد ذلك ﴿ فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾ وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطئ، كما هو القاعدة الشرعية -أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطئ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم] (١) .

---

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلا منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح

ما صرحت به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد كما لا إثم عليه).". (١)

١٥٦-"﴿ ٥٣ - ٥٤ ﴾ ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ .

﴿ ذلك ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين (١) وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم،فإن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرا.

﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

ولله **الحكمة في ذلك** والعدل والإحسان إلى (٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به،ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿ والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ﴾ حين جاءتهم ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ كل بحسب جرمه.

﴿ وأغرقنا آل فرعون وكل ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿ كانوا ظالمين ﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه،فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

---

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.". (٢)

١٥٧-"﴿ ٤٦ -٤٨ ﴾ ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

---

(١) تفسير السعدي ص/٢٤٣

(٢) تفسير السعدي ص/٣٢٤

﴿ و ﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿ لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿ فثبطهم ﴾ قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ من النساء والمعذورين.

ثم ذكر **الحكمة في ذلك** فقال ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾ أي: نقصا.

﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿ وفيكم ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿ سماعون لهم ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.". [(١)]

١٥٨-"﴿ ٩٨ ﴾ ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ فلولا كانت قرية ﴾ من قرى المكذبين ﴿ آمنت ﴾ حين رأت العذاب ﴿ فنفعها إيمانها ﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه، حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبا، لما قال: ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فقيل له ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾

وكما قال تعالى: ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾

وقال تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي * أعمل صالحا فيما تركت كلا ﴾

والحكمة في هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران

وقوله ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا ﴾ بعدما رأوا العذاب ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٣٩

قال الله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ إلى قوله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ ولعل **الحكمة في ذلك** أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه والله أعلم". (١)

١٥٩-"﴿ ٥١ ﴾ ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴾ .

وهذا أيضا من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته، على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك، فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك" .

فقال هنا: ﴿ ترجي من تشاء منهن ﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها] (١) ﴿ وتؤوي إليك من تشاء ﴾ أي: تضمها وتبيت عندها.

﴿ و ﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿ من ابتغيت ﴾ أي: أن تؤويها ﴿ فلا جناح عليك ﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات، له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم] (٢) .

ثم بين **الحكمة في ذلك** فقال: ﴿ ذلك ﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعا منك ﴿ أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجبا، ولم تفرط في حق لازم.

[ص ٦٧٠]

﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك.

﴿ وكان الله عليما حليما ﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

---

(١) زيادة من ب.

(٢) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.". (٢)

---

(١) تفسير السعدي ص/٣٧٤

(٢) تفسير السعدي ص/٦٦٩

١٦٠-"﴿ ٢٧ - ٣١ ﴾ ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون * ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ .

يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، **والحكمة في ذلك** ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿ قرآنا عربيا غير ذي عوج ﴾ أي: جعلناه قرآنا عربيا، واضح الألفاظ، [ص ٧٢٤] سهل المعاني، خصوصا على العرب.

﴿ غير ذي عوج ﴾ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما ﴾

﴿ لعلهم يتقون ﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال: ﴿ ضرب الله مثلا رجلا ﴾ أي: عبدا ﴿ فيه شركاء متشاكسون ﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ ورجلا سلما لرجل ﴾ أي: خالصا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. ﴿ هل يستويان ﴾ أي: هذان الرجلان ﴿ مثلا ﴾ ؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ ﴿ هل يستويان مثلا الحمد لله ﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال. ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾
﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلا ما عمله ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾". (١)

١٦١-"﴿ ١-٥ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ﴾ .

هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر **الحكمة**

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٢٣

في ذلك فقال: ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿ وإنه ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿ لدينا ﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿ لعلي حكيم ﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملا لا يرسل إليهم رسولا ولا ينزل عليهم كتابا، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:". (١)

"-١٦٢

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ فالعقل البشري الذي يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت - مكانا عليه أن يعي جيدا أنه لا يستطيع ذلك، فوجود الشخص عند ظرف ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت، فالعندية سواء في معسكر الكفر أو في معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت.

والعندية - كما نعلم - تعطي ظرف المكان. فلطافة تغلغل الموت تخترق أي مكان وزمان ما دام الحق قد قضي به. وأعداء الإنسان في عافيته وفي حياته كثيرون، لكن إن نظرنا إليها في العنف نجدها تتناسب مع اللطف. فكلما لطف عدو الإنسان ودق؛ كان عنيفا، وكلما كان ضخما كان أقل عنفا. فالذي له ضخامة قد يهول الإنسان ويفزعه، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه. لكن متى يكون العدو صعبا؟ يكون العدو صعبا كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك. فيتسلل إلى الإنسان.

ومثال ذلك: هب أن واحدا يبني بيتا في خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع أساس البيت فيقول لصاحب البيت: إنك لم تحتط لمثل هذا المكان، فهو يمتلئ بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديدا على النوافذ التي في الدور الأول، وذلك حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة.

ويضع صاحب البيت حديدا على نوافذ الدور الأول. ويجيء واحد ثان ويقول له: لقد فاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد، ويفعل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين. ويجيء ثالث لزيارة صاحب البيت فيقول: إنني أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب هذه المنطقة؟. إنه ذباب سام. وهنا يضع صاحب البيت سلكا على النوافذ. ويجيء واحد رابع ليقول لصاحب البيت؛ في هذه المنطقة حشرات أقل حجما من الذباب وأكثر عنفا من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك الذي تضعه على نوافذك، فيخلع صاحب البيت السلك المعلق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب سلك آخر فتحاته أكثر ضيقا بحيث لا تمر منه هذه الحشرات. إذن فعدوك كلما لطف ودق عن الإدراك كان عنيفا.

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٦٢

ولذلك فأخطر المكيروبات التي تتسلل إلى الإنسان، ولا يدري الإنسان كيف دخلت إلى جسده ولا كيف طرقت جلده، ولا يعرف إصابته بها إلا بعد أن تمر مدة التفريخ الخاصة بها وتظهر بجسده آلامها ومتاعبها. إنها تدخل جسم الإنسان دون أن يدري، ولا يعرف لذلك زمانا أو مكانا.

ويلفتنا سبحانه إلى أن الشيء عندنا كلما لطف ازداد عنفا، ولا تمنعه المداخل. فما بالكم بالموت وهو ألطف من كل هذا، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبدا.

وما مقابل الموت؟. إنه الحياة حيث توجد الروح في الجسد. وما كنه الروح؟ لا يعرف أحد كنه الروح على الرغم من أنه يحملها في نفسه، ولا أحد يعرف أين تكون الروح أو ما شكلها، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها.

وعندما يقبضها الله فإن الحياة تنتهي. والحق هو الذي جعل للحي روحا، وعندما ينفخها فيه تأتي الحياة.

إن الحق – سبحانه – يلفتنا وينبهنا إلى ذلك فيترك في بعض ماديتنا أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المجاهر أن يعرفوا كنهها وحقيقتها، فنحن لا نعرف – مثلا – الفيروس المسبب لبعض الأمراض.

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحا يهبه بها الحياة، فلماذا لا نتصور أن للموت حقيقة، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروح منه، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الملك:﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو علىا كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[الملك: ١-٢].

إذن فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس، بل عملية إيجابية، وهو مخلوق بسر دقيق للغاية يناسب دقة الصانع. ووصف الحق أمر الموت والحياة في سورة الملك وقدم لنا الموت على الحياة؛ مع أننا في ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتي أولا ثم يأتي الموت. لا، إن الموت يكون أولا، ومن بعده تكون الحياة. فالحياة تعطي للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة، فيحرث الأرض أو يتاجر في الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر، فيظن أن الحياة هي المخلوقة أولا.

ينبهنا ويوضح لنا الحق: لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلت قبلها ما يناقض الحياة، فيقول لنا عن نفسه: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسي الشريف الذي يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ويأتي الحق سبحانه بالموت في صورة كبش ويذبحه.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يؤتى بالموت يوم القيامة، فيوقف على الصراط، فيقال: يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه. فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم ربنا، هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون فرحين مستبشرين، أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه. فيقال: هل تعرفون هذا؟ قالوا: نعم هذا الموت، فيأمر به فيذبح على الصراط، ثم يقال للفريقين "كلاهما " " خلود فيما تجدون لا موت فيه أبدا " ".

وتجسيد الموت في صورة كبش معناه أن للموت كينونة. ويعلمنا الله أنه يقضي على الموت، فنحيا في خلود بلا موت. وينبه الناس الذين كفروا وظنوا أن الذين قتلوا في سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا.

نقول لهم: العندية عندكم لا تمنع الموت. ولو كان من دنا أجله وحان حينه يسكن في بروج مشيدة لأدركه الموت.

أن الأداء القرآني يتنوع؛ فهناك من الأداء ما نفهمه من الألفاظ، وهناك ما نفهمه من الهدى الأسلوبي للقرآن؛ لأنه خطاب الرب. فالبشر فيما بينهم يتخاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية، لكن عندما يخاطب الحق الخلق فسبحانه يخاطب كل ملكات النفس. ولذلك نجد طفلا صغيرا يحفظ القرآن ويمتلئ بالسرور، فيسأله واحد من الكبار: ما الذي يسرك في حفظ القرآن؟. فيجيب الصغير: إنني أحس بالانسجام وكفى. هو لا يعرف لماذا يحس بالانسجام من سماع القرآن أو حفظه، فالمتحدث هو الله، وسبحانه بقدرته وجمال كماله يخاطب كل الملكات النفسية.

وسبحانه وتعالى يقول: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾ أي أينما توجدوا يدرككم الموت. وكلمة " يدرككم " دليل على أن الإنسان عندما تدب فيه الروح ينطلق الموت مع الروح، إلى أن يدركها في الزمن الذي قدره الله. وكلمة " يدرك " توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة: " حتى إذا أدركها جرت، فلا أحد منكم إلا هو مدرك " ، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق: " الموت سهم أرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك ".

وهكذا نعرف أن قوله الحق: " يدرككم " تدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجري وراء روحه حتى يدركها.

ويقول الحق: ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾. وعندما نبحث في الحروف الأصلية لمادة كلمة " البروج " نستطيع أن نرى المعنى العام لها. والحروف الأصلية في هذه الكلمة هي " الباء " و " الراء " و " الجيم " وكلها تدل على الارتفاع والظهور.

فيقال: " هذه امرأة فيها برج " أي أن عيونها واسعة وتحتل قدرا كبيرا من وجهها وتكون واضحة، فالبرج هو الاتساع والظهور.

والإبراج عادة كان بناؤها مرتفا كحصون وقلاع نبنيها نحن الآن من الأسمنت والحديد. والقصد من " مشيدة " أي أنها بروج تم بناؤها بإحكام، فالشي قد يكون عاليا ولكنه قد يكون هشا. أما الشيء المشيد فهو من " الشيد " وهو " الجص " ، ومن " الشيد " وهو " الارتفاع " ، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أبعاضها وأجزاؤها بالجص فهي مرتفعة متماسكة.

إنك إذا رأيت جمعا وقوبل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطينا آحادا. فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه: أخرجوا كتبكم. فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه. وعلى ذلك يكون القياس. فلو بني كل إنسان لنفسه برجا مشيدا لجاءه الموت.

والجمع مقصود أيضا: أي لو كنتم جميعا معتصمين ببرج محاط ببرج آخر وثالث ورابع، كأنه حصن محصن فالحصون في بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة. وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع. وبذلك تجد الحصن نقطة

محاطة بعدد من الحصون. والموت يدرك البشر ولو كانوا في برج محاط ببروج. وكلا المعنيين يوضح قدرة الحق في إنفاذ أمره بالموت.

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة في الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ لأن الدين هو نور طارئ على ظلمة، والذين يعيشون في الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعربد في الآخرين. وعندما جاء الدين فر بعضهم من مجيء النور؛ لأن النور يحرمهم من لذات الضلال؛ ولأن النور يوضح الرؤية.

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أتى بالموت ليؤدي حاجتين: الحاجة الأولى: أن من يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله؛ لأنه ذاهب إلى الجزاء.

والحاجة الثانية: أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقي ربه. إذن فكلمة " الموت " تعطي الرغب والرهب. فصاحب الإيمان ساعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه: إن متاعب الدنيا لن تدوم، أريد أن ألقى ربي.

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية. وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب في عزيز؛ فالإنسان ما دام مؤمنا فهو يعرف أن العزيز الذي راح منه إما مؤمن وإما غير مؤمن، فإن كان مؤمنا فليفرح له المؤمن الذي افتقده؛ لأن الله عجل به ليرى خيره، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك. وإن كان الذي ذهب إلى ربه غير مؤمن، فالمؤمن يرتاح من شره. إذن الموت راحة، والذي عمل صالحا يستشرف إليه، وهذا رغب، أما الكافر فهو خائف؛ وهذا رهب.

ولذلك فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميت، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾.

ويتابع الحق: ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هاذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هاذه من عندك قل كل من عند الله فمال هاؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾. ومثل هذا الكلام أليق بمن؟

الذي يقول عن الحسنة إنها من عند الله فهو يؤمن بالله وهذه الكلمة لها في ذهنه تصور. والآية لا تريد هذا الصنف من الناس ولكن بعضهم يريد أن يفرق بين محمد وربه. فينسب الخير والحسنة لله، وينسب الشر والسيئة لمحمد، وعلى هذا فالذين قالوا مثل هذا الكلام إما أن يكونوا من المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم وولاءهم لرسول الله وفي قلوبهم الكفر، وإما أن يكونوا من بعض أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعترفون برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء وأولئك ينظرون إلى الأمر الذي فيه خير على أساس أنه من عند الله، ويلقون اتهاما باطلا لرسول الله أنه مسئول عن الشرور التي تحدث لهم.

كأنهم يريدون أن يقيموا انعزالا بين محمد وربه.

لا. فسبحانه لا يتيح لهم ذلك؛ فقد أنزل قرآنا يتلى إلى أبد الآبدين:﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولىا فمآ أرسلناك عليهم حفيظا ﴾[النساء: ٨٠].

والحق يقول:﴿ إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾[آل عمران: ٣١].

فلا أحد يملك أن يصنع مضارة بين محمد وربه؛ لأن محمدا رسول من عند الله مبلغ لقول الله ومنهجه، وسبحانه يقول:﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله ﴾[التوبة: ٧٤].

والحق سبحانه وتعالى لا يرضى عن عبد يستغفر الله فقط، ولكن لا بد أن يذهب العبد ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله، فلا أحد يمكنه أن يقيم صلحا مع الله من وراء محمد رسول الله، فلا تفرقوا بين أمر الله وأمر رسول الله، ومن يريد أن يصنع مضارة بين الله ورسوله بأن يقول عن الحسنة إنها من عند الله، وأن السيئة من عند محمد، فهذا قول خاسر.

ما حكاية هذا القول؟ إنهم إن ذهبوا إلى حرب فغنموا قالوا: " إن الله أسعدنا بالغنائم ". وإن هزموا قالوا: إن محمدا هو الذي أوقع بنا الهزيمة، وكأن لمحمد تصرفا دون تصرف الله. فإياك أن تخدع بمن يحاول أن يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه.

إن محمدا قد بعثه الله وأنزل عليه القرآن.

وكان رسول الله حين نزلت الدعوة يأمل أن يستجيب له القوم الذين يؤمنون بالله وهم أهل الكتاب. وكانوا أقرب إلى قلبه من القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم المشركون، وكان هناك معسكران: معسكر الفرس، ومعسكر الروم، وكان معكسر الفرس يعبد النار – معاذ الله – أما معسكر الروم فهو يؤمن بالله وبالكتب السابقة على رسول الله ولكنه كافر بمحمد.

والذي يؤمن بالله كان قريبا إلى قلب محمد ممن كفر بالله، وهذا دليل على أن عصبية محمد قد أتت له من الله. وقد ينصرف المعنى إلى اليهود. فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من المصادفة أن تقل ثمارهم ومزارعهم؛ فقالوا: مزارعنا وثمارنا في نقص منذ قدم هذا الرجل. وهل كان ذلك الأمر مصادفة أو أننا نجد له تعليلا ماديا؟

فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنكروه بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، وسلب مجيئة منهم السلطة الزمنية التي كانت لهم؛ لأنهم كانوا أهل مال، ويتعاملون بالربا ويثيرون العصبية، ويتاجرون من أجل أن تظل لهم السيادة، وهم أهل علم بالكتاب وحاولوا التجارة بكلمات الله.

فكانت لهم السيادة من ثلاث جهات: علميا وماليا ومنهجيا.

وعندما جاء الإسلام ألف بين الأوس والخزرج فبارت أسلحتهم وضاعت منهم السلطة التي صنعوها بالتفرقة، وضاعت منهم سيادة المال؛ لأن الإسلام حرم الربا، وضاعت منهم سيادة المنهج لأن الإسلام كشف تحريفهم للكتاب وأنزل الله كتابا – وهو القرآن – غير قابل للتحريف.

وهكذا انتهت وسائل السيطرة، لذلك وقعوا في الحزن وانشغلوا بهذا الهم. وكان الواحد من اليهود لا يسارر الآخر من اليهود ولا يناجيه إلا في أمر محمد. وما دامت هذه المسألة قد شغلتهم إلى هذه الدرجة فلا بد أنها قد شغلتهم عن الزراعة والاهتمام بها.

هم انشغلوا عن الأسباب فكانت النتيجة هي ما حدث. ولكنهم حاولوا إلصاق ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا الأمر الحادث لهم، وإما أن يكون تفسير ذلك هو أن السماء أرادت لهم عقابا لأنهم حاولوا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك شغل وقتهم عن الأخذ بالأسباب. وإما أن يكون ذلك من آفة سماوية فلماذالم يلتفتوا إلى أن دين محمد هو المنقذ لهم مما هم فيه؟

لقد كانوا يستعزون به. لكنهم لم يؤمنوا به (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فنزل بهم أكثر من عقاب. فالذين كانوا يتعاملون مع اليهود بالربا امتنعوا عن ذلك، وكذلك نقصت الزروع والثمار.

إذن فالمسألة جاءتهم بنقص من الأموال؛ فقالوا ما قاله الله مما أورده الحق على ألسنتهم: ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هاذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هاذه من عندك قل كل من عند الله ﴾. أي كل من الحسنة والسيئة من عند الله وما الحسنة وما السيئة؟

الحسنة هي الظفر والغنيمة والسراء والرخاء والخصب. والسيئة هي الهزيمة والقتل والضراء والبؤس والجدب. هذا ما فهموه، ونحن – المؤمنين – نفهم الحسنة فهما دقيقا؛ فالحسنة في الشرع هي ما يأمر به الله، والسيئة هي ما ينهى عنه الله؛ بدليل أن المؤمن قد يصاب في عزيز لديه ثم يقف موقفا إيمانيا في استقبال هذه المصيبة ويقول: " إن حزني لن يرده فالأفضل أن أكسب به الجنة ". ويزيد على ذلك: " يكفيني عزاء الأجر عليه، فأنا لم أكن سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذي سآخذه في صبري على مصيبتي فيه ".

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا بقوله: إياك أن تظن أن الحسنة هي ما تستطيبه نفسك، أو أن السيئة هي ما تشمئز منها نفسك، لا، فالمصاب في عرف الشرع هو من حرم الثواب.

ولذلك جاء القول: ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي أن الحسنة والسيئة من عند الله.

وهل يصنع الله سيئة؟ ونقول: نستغفر الله، فالسيئة في نظر الإنسان والحسنة في نظر الإنسان، وكلها من عند الله، ولكن إذا نسبنا الفعل إلى الله فكل ما يصدر عنه حسن، وافتقاد المقاييس الصحيحة هو الذي يتعب. وعندما نحاول أن نحسب مثل تلك الأمور بحساب الكمبيوتر تستقيم لنا النتائج.

ومثال ذلك: تلميذ أهمل في المذاكرة، وفي حضور الدرس لذلك فهو يرسب آخر العام، ولكنه ينظر إلى الرسوب على أنه سيئة، ولكنها في عرف الحق عموما حسنة. وحينما وضع الله قانون أن من لا يستذكر يرسب، فهذا إحياء للحسنة في آلاف غيره، ويكون الراسب نموذجا واضحا ووافيا وتطبيقيا، وخاضعا لسنة الكون. وكذلك الذي لم يزرع أرضه أو تكاسل عن الحرث أو أهمل الري، فهو يأتي يوم الحصاد ولا يؤتي ثمارا وهذا أمر سيئ بالنسبة له، أما بالنسبة لقضية الحق الكونية في ذاتها فهي حسنة؛ لأن ذلك يدفع كل واحد إلى عدم إهمال أي سبب من الأسباب؛ فالمصاب بنتيجة عمله يفسر المصيبة على أنها سيئة؛ لأن فيها مساءة وإضرارا به، فالمصاب بنتيجة عمله يفسر المصيبة على أنها سيئة؛ لأن فيها مساءة وإضرارا به، ولكن لو قاس مسها له بما فعله لوجد أن ذلك هو سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وحين يضع الحق سبحانه وتعالى سننا في كونه فالذي يأخذ بالأسباب يعطيه، ويحرم سبحانه من لا يأخذ بالأسباب.

وعندما نقيس الأمور بهذا المقياس نرى الناجح هو المجد، والمتكاسل هو الراسب، والنتيجة كلها من عند الله تقنينا كونيا.

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض أقوال طرف فإن كان مقرا بما فيه يتركه من غير تعليق عليه، وإن كانت قضية باطلة يكر عليها بالحجة ليبطلها ويدحضها.

وهذا يلفتنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن نلف قضايا الخصوم لفا بحيث لا نعرفها، ولكنه يعرض قضية الخصوم عرضا ثم يكر عليها بالنقد ليربى -كما قلنا - المناعة الإيمانية، حتى لا تفاجئ قضية كفرية عقيدة إيمانية؛ فسبحانه يعرض قضايا الكفار ويوضح لنا: سيقولون كذا فقولوا لهم كذا.

مثال ذلك: عندما قالوا: إن الله اتخذ ولدا قال الحق:﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[الكهف: ٥].

فهو سبحانه يعرض قضايا الخصوم؛ لأن الذي يحاول أن يلف قضية الخصوم يكون مشفقا منها، لكن من يعرضها ينبه عقل السامع إليها ليبطلها ويقول: " هاي هي ذي نقاط الضعف في هذه القضية ".

وحينما قالوا: ﴾ وإن تصبهم حسنة يقولوا هاذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هاذه من عندك ﴿ أرادوا بهذا القول أن يصنعوا مضارة بين الله ورسوله، فأوضح الحق سبحانه؛ قل لهم يا محمد:

" كل من عند الله " ، وتتجلى دقة الحق سبحانه في أنه جعل محمدا صلى الله عليه وسلم وكيلا في البلاغ عنه، وكان من الممكن أن يسوق الحق القضية بدون " قل ".

لكنه سبحانه أراد في هذه أن يوسط رسوله صلى الله عليه وسلم في أنه يقول: " قل كل من عند الله ". و " كل " تعني: كلا من الحسنة ومن السيئة. ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قضايا الوجود تتسق مع فطرة الإيمان.

ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء في أفعال العباد، وتساءلوا: هل يفعل العبد أي فعل بنفسه، أو أن الله هو الذي يجري على عباده الأفعال؟. فإذا كان العبد هو الذي يفعل الفعل فمن العدالة أن يتلقى الثواب أو العذاب جزاء ما قدم. وإذا كان الله هو الذي يجري كل الأفعال فلماذا يعذبه الله؟. ودخل العلماء في متاهة كبيرة.

وهنا نقول: يجب أن تفهم أن الحق حينما خلق الكون جعل فيه سننا، ومن عجيب الأمر أن السنن تنتظم وتشمل وتضم المؤمن والكافر مما يدل على أنه لا أحد في كون الله أولى بربوبية الله من الآخر، فحتى الذين لا يؤمنون بالله أدخلهم الحق في ربوبيته فأمر الأسباب التي خلقها استجيبي لمن يخدمك وأعطيه المسببات ولا تلتفتي إلى أنه مؤمن أو كافر لأنني أنا الذي خلقته وأوجدته في الكون، وما دمت أنا الذي أوجدته في الكون فلا بد أن أتكفل بكل ما يقيم حياته، وأنا سأعرض منهجي، وأقول لعبادي: أنا أحب هذا الفعل وأنا أكره هذا الفعل فمن يؤمن بي فسيكون له وضع آخر، سيكون عبدا لله.

إذن فالله بالألوهية مناط التكليف لمن يؤمن به، والرب بالربوبية مناط الخلق والرزق وقيومية الاقتيات للخلق جميعا، لكل العباد؛ فالسنن والنواميس الكونية تخدم الكل، بدليل أن بعض السنن كانت تحب أن تتمرد لأنها عصبية إيمانية لله. عندما ترى الله يعطي بعضا من عباده وهم غير مؤمنين به.

فالسنن والنواميس كجنود لله نجدها متأبية على ابن آدم من عدم شكره لله، لكن الحق يوضح للخلق المسخر: هم خلقي وأنا الذي استدعيتهم للوجود. فصنع الحق نواميس للكون تؤدي مهمتها للمؤمن وللكافر جميعا، ثم أنزل سبحانه تكليفا بوساطة الرسل. ويوضح: أنا أحب كذا وأكره فالذي يحبني يعمل بتكليفي. إذن فمناط الربوبية غير مناط الألوهية.

مناط الربوبية خلق من عدم وإمداد من عدم. ومناط الألوهية طاعة، والطاعة تقتضي أمرا ونهيا. فكل ما كان من مدلول الأمر والنهي – الذي هو التكليف – فهذه مطلوبات الألوهية.

وكل ما كان من مطلوبات السنن الكونية فهو من مناط الربوبية. والسنن الكونية لا تتخلف أبدا. فمثلا الذي يريد أن ينجح في مادة من المواد في مدرسة ما.

. لا بد أن يحصل على خمسين بالمائة من مجموع الدرجات. ومن يريد أن ينجح في مادة أخرى لا بد أن يحصل على أربعين بالمائة. وحين تنطبق هذه الشروط على طالب ما. فهل هذا الطالب هو الذي أنجح نفسه أو أن القانون هو الذي أعطاه النجاح؟

إن القانون هو الذي أعطاه النجاح. وصحيح أن القانون لم يقل للطالب وهو يكتب الإجابة: إن مستوى إجابته سيحقق له درجات النجاح، إنه قد بذل جهدا في التحصيل الدراسي، وحقق له هذا الجهد النجاح في نطاق ما تم تقديره. فالقانون لا ينجح أحدا، ولا يتسبب في رسوب أحد، ولكن الطالب الذي يبذل جهدا ينجح، والطالب الذي لا يبذل جهدا يرسب. وعلى ذلك فكل شيء في الوجود له قانونه.

إن اليد المخلوقة لله، لو نظرنا إلى حركتها، لا نعرف كيف تزاول مهمتها. وعندما يرفع أحدنا شيئا من الأرض لا أحد فينا – غالبا – يعرف العضلات التي تتحرك لتحمل هذا الشيء. فالذي فعل حقيقة هو الله. واليد سواء أفعل الإنسان بها خيرا؛ أم شرا، فالفاعل الحقيقي لكل فعل هو الله. وقام الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد، أو لصفع واحد آخر، فاليد صالحة للمهتمين. وعندما يوجه الإنسان يده للصفع فهو يأخذ عقابا، وعندما يوجهها للسلام يأخذ ثوابا.

صحيح أن الإنسان ليس له دخل في العمل ذاته ولكن له دخل في توجيه الطاقة الصانعة للعمل؛ فالثواب أو العقوبة ليست للفعل ولكن لتوجيه الطاقة. والسكين – كمثال آخر – يذبح بها الإنسان الدجاجة، أو يطعن بها إنسانا، وهي لا تعصي توجيه الإنسان إن ذبح الدجاجة؛ ولا تعصاه إن طعن إنسانا.

والحق قد خلق قانونا للسكين أن تذبح، والإنسان يقوم بتوجيه الآله التي خلقها الله صالحة لأن تذبح إلى الذبح، سواء أكان الذبح فيما حرم الله، أم فيما أحل، إذن فالله هو الفاعل لكل شيء. وما دام الفعل في نطاق أوامر المكلف صاحب السنن فهو الذي يقوم بكل فعل.

وعندما تدقق النظر تجد أن كل فعل من عند الله، وليس للإنسان سوى توجيه الطاقة؛ فالشاب الذي يذاكر دروسه، لم يخلق عقله ولا خلق عينيه اللتين يقرأ بهما، ولكن عقله صالح أن يفكر في الأمر الرديء، وعيناه صالحتان لأن ينظر بهما في مجلة هزلية أو ينظر بهما في كتاب.

إذن فهو ساعة يفعل هذا أو يفعل ذلك هل يفعل ذلك من وراء ربه؟. لا، إنه لم يفعل شيئا على الإطلاق سوى توجيه الطاقة التي خلقها الله صالحة لأن تفعل هذا وتفعل ذاك.

إذن فثوابك وعقابك يكونان على توجيه الطاقة الفاعلة إلى الأمر الصالح أو الأمر السيء. فعندما يقول ربنا: "كل من عند الله " نقول: هذا حق وصدق؛ فالذي أهمل في زراعة أرضه ولم يسمدها أو لم يروها وأصابه جدب فهذا نتيجة عدم توجيه الطاقة المخلوقة لله في مجالها الصحيح.

لكن عندما يمتنع المطر فلا عمل في ذلك للإنسان. فالنواميس الكونية صنعها الله. ومن يأخذ بأسبابها تعطه وإن أصابت الإنسان سيئة في إطار هذه فهي من عند الإنسان؛ لأنه لم يأخذ بالأسباب.

وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضا على الجماعة؛ فالذي يلعب الميسر ويأتي له الخراب والدمار، هذا من نفسه؛ لأنه تلقى الأوامر من الحق بألا يمارس تلك الألعاب. وأي أمة اشتكت من ضيق الأرض الزراعية وضيق الرزق فهذا بسبب الأمة نفسها؛ لأن القائمين بالأمر كان عليهم العمل لتنمية الموارد بالنسبة لنمو السكان.

والذي يتعبنا ويرهقنا أننا نتحمل غفلة أجيال، فتجمعت المشكلات فوق رءوس جيل واحد. ولو أن كل جيل سبق قام بمسئوليته لكانت مهمة الأجيال الحالية أقل تعبا. فما دامت لدنيا أرض صالحة لأن تنبت كان علينا أن نعدها ونستغل المياه الجوفية في زراعتها. فالمسألة إذن كسل من أجيال سابقة. وما دام هناك مخزون في المياه الجوفية كان يجب أن نعمل العقل لنستنبط أسرار الله في الكون. فليس من الضروري أن ينزل المطر، لأن الحق يقول:﴿ ألم تر أن الله أنزل من السمآء مآء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾[الزمر: ٢١].

وجعل الله للمياه مسارب في الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة في مسطحات كبيرة للتبخر. لقد أخفى الله جزءا من المياه في الأرض لصالح الإنسان. وفي البلاد الحارة نجد الملح واضحا على سطح التربة دليل على أن الحق وضع قانون تقطير المياه العذبة لتكون صالحة للشرب والزراعة.

وكلنا يعرف قانون التبخر، فعندما نأتي بكوب من المياه وننشره على مسطح حجرة مساحتها خمسة وعشرون مترا مربعا فالمياه تتبخر بسرعة. لكن لو تركنا كمية المياه نفسها في كوب الزجاج فلن تنقص إلا قدرا ضئيلا للغاية. إذا فكلما زاد المسطح كان البخر أسرع. وأراد الحق أن تكون ثلاثة أرباع اليابسة من المياه؛ لأن الماء أصل كل شيء حي. وجعل بعضها من الماء المالح حتى لا تأسن ولا تتغير، وتوجد هذه المياه في مساحة متسعة حتى تتبخر وتنزل مطرا، فما يجري في الوديان يجري، والمتبقي من المياه يصنع له الحق مسارب في الأرض لأنه ماء عذب، حتى يستخدم الإنسان ذكاءه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض، فالحق خلق لنا كل ما يمكن أن يحقق لنا استخراج قوت الحياة.

وسبحانه القائل:﴿ قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيهآ أقواتها في أربعة أيام سوآء للسآئلين ﴾

[فصلت: ٩-١٠].

فإياكم أن تقولوا: إن السكان سيزيدون عن القوت الذي في الأرض، ولكن اعترفوا بخمول القدرات الإبداعية للاستنباط. فبعد أن يقول الله: ﴿ وقدر فيهآ أقواتها ﴾ فلا قول يصدق من بعد قول الله. وهب أن موظفا – ولله المثل الأعلى – جاء في أول الشهر بتموين الشهر كله ووضعه في مخزن البيت، وجاء ظهر اليوم ولم يجد زوجته قد أعدت الغداء، فماذا يحدث؟ إنه يغضب. ولقد وضع ربنا أقواتنا مخزونة في الأرض، ونحن لا نعمل بالقدر الكافي على استنباط الخير منها. وسبحانه يوضح لنا: إن الإنسان إن لم يستفد بالنواميس التي خلقها الله له، ولم ينفذ التكاليف أمرا ونهيا فلسوف يتعب الإنسان نفسه؛ فتكون معيشته ضنكا. فسبحانه يقول:﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[النحل: ١١٢].

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله. والكفر في المعنى العام هو: ألا تشكر النعمة لله. وعندما نمعن النظر بدقة لنرى قانون ربط السبب بالمسببات، وربط السنن الكونية بالكون والمكون والمكون له نجد أشياء عجيبة، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغدا من كل مكان. إذن فالقرية هي مكان السكن، وليس مكان السكن فقط هو الذي فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكأن كل مكين في بقعة؛ له بقع خالية في مكين آخر تخدمه. وتلك القرية كفرت بأنعم الله.

والكفر في معناه الواضح هو الستر، والقرية التي كفرت بأنعم الله هي التي سترت نعمة الله، فنعمة الله موجودة ولكن البشر الذين في تلك القرية هم الذين ستروا هذ النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض.

أو أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستنبطوها وستروها عن الخلق، وفساد الكون إنما يأتي من هذين الأمرين:

أي أن هناك أمما متخلفة، كسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض. أو أن هناك أمما أخرى تملك الثراء والخير وترميه في البحر حتى لا يذهب إلى الأمم المتخلفة. والخراب الذي نلمسه في علاقات العالم ببعضه البعض يقول لنا: إن العالم هو القرية التي ضرب الله بها المثل:﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[النحل: ١١٢].

ولنر دقة الأداء القرآني، في قوله: ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع ﴾ ، ونعلم أن الذي يذاق هو الطعم. والطعم يكون باللسان وحده: أما اللباس فيعم كل الجسم، والحق هنا يعطي الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يذوق الجوع أيضا.

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية في مجالاتها التي حددها الله، وعندما تنتظم هذه السنن في حركتها فهي تعطي النتائج للإنسان ولو بعد حين، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون: إن الأمراض الوراثية التي تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجتراءهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك، وكذلك الأمة والجماعة.

لكن المسائل التي يقف فيها العقل فقط هي المصائب التي تصيب الناس بغير عملهم. وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل؛ فالشيء الذي له مقدمات من أسباب تكاسل الإنسان عنها، ثم أصابته كارثة فهذا من فعل الإنسان في نفسه. أما الأشياء التي تأتي قدرية فهذا أمر مختلف. فإذا كان ديننا قد وضع للإنسان أسبابا كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له: افعل ذلك حتى يحدث كذا، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكون في الكون، ليلفت سبحانه الإنسان دائما على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة، فيحدث شيء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان: ما سبب ذلك؟ ولماذا؟ ومثال ذلك الزلزال أو البركان أو السيل الجارف والريح العاصف، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها، وهي أحداث تقول للإنسان:

لو أن المسائل في الكون فيها رتابة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية نضرع إليها دائما لنسلم.

وجاءت بعض مدارس الفلسفة في ألمانيا – مثلا – وقالت: إن وجود الشر في الكون دليل على أنه لا يوجد إله، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل، ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أعرج ولا مشوه. وقالت مدرسة أخرى في العصر نفسه: لا. إن رتابة النظام في الكون دليل على أنه لا يوجد إله، فلو كان هناك إله لخرق القانون والناموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الناموس.

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام في الكون كدليل للكفر، ومدرسة أخرى أخذت الشواذ في الكون كدليل على الكفر. وكل من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر.

ونقول لهم: كلاكما غبي؛ الذي يريد منكم النظام سببا لوجود إله حكيم، والذي يريد الشذوذ سببا لوجود إله قادر، هذان الأمران موجودان في الكون، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم منصفين.

انظر إلى النظام في الكون الأعلى؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهدم الكون كله.

انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم، إنها خاضعة لنظام محكم. فيا من تريد النظام دليلا على حكمة مكون، فالنظام موجود، ويا من تريد الشذوذ دليلا على أن هناك إلها يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة. والشذوذ إنما يتأتى من الأفراد، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة، فالذي يولد بعين واحدة مبصرة سنجد مئات الملايين امتلكوا البصر كاملا.

لكن عندما يأتي الشذوذ في نظام الكون وحركة الأفلاك فالذي يحدث هو دمار للعالم.

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة نقول له: انظر إلى الفلك الأعلى. ومن يريد الشذوذ دليلا على أن هناك قوة تتحكم في ميكانيكية العالم نقول له: هذا موجود، ولكن الشذوذ موجود في الأفراد. فإن شذ فرد فلا يعطب بقية الأفراد.

ونعرف – أيضا – أن رتابة النعمة قد تلهي الإنسان عن المنعم. فالإنسان منا يظل لمدة طويلة وأسنانه سليمة فلا يتذكر مسألة أسنانه، لكن إن آلمه ضرس واحد فهو يتذكر أن له ضرسا، وكذلك إن آلمته إحدى عينيه، أو إذا آلمته كليته

فهو يجري إلى الطبيب. وهذه أمور لافتة حتى تخرج الإنسان من رتابة النعمة عليه ليتذكر المنعم بالنعمة. وعندما نرى إنسانا أكرمه الله بفقدان البصر، فالواحد منا يقول: الحمد لله ويمسك الإنسان منا عينيه مخافة أن تذهبا، وكذلك عندما نرى أبرص أو أعرج، وهذه هي وسائل إيضاح في الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة.

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التي تصيب الإنسان فردا، أو تصيب الأمة كمجموع فنحن نجدها بما قدمت يدها؛ لأنها صنعت شيئا يخالف التوجيه. فإن كان هناك شيء خارج عن قدرة الإنسان فنحن نقول: هذه هي حكمة المكون حتى يلفتنا إلى أنه المنعم. ولهذا نرى الشواذ في الخلقة قلة ولا كثرة، ويعوض الله من أصيب بشذوذ في شيء بدوام ملكة في شيء آخر. ولذلك يقول الشاعر:عميت جنينا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلاوغاب ضياء العين للعقل رافدا لعلم إذا ما ضيع الناس حصلاوضربت المثل مرة ببيتهوفن الموسيقار العالمي الذي أطرب العالم بسمفونياته.. إنه كان أصم.

ولذلك نحن نسمع في لغة العامة: كل ذي عاهة جبار. فإذا كان الله قد جعله وسيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعوضه بموهبة أخرى ويلتفت الناس فيها إلى صاحب العاهة فيرون فضل الله عليه أيضا. إذن فالمصائب التي تحدث وليس للإنسان دخل فيها هي الملحظ الذي يجب أن نبحثه. وهذه هي مكونات الحكمة كي يلتفت الإنسان دائما إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة.

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود. ولا تزال يده في الكون. فإذا حدثت حادثة فلا بد أن نلتمس لها حكمة.

والحكمة خرق وخروج عن النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها: " تعطلي ".

ولذلك فمعجزات بعض الرسل من هذا اللون، فطبيعة النار أنها تحرق، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام. أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجى إبراهيم من النار؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مكن خصومه من أن يمسكوه. وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به، وأشعلوا النار وأججوها. كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأتي بغمامة لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتمطر مطرا تطفئ النار. لا. فقد أراد الله النار نارا متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفئ النار، وأن يلقوه في النار، وبعد ذلك يوضح الحق:

أنا أزاول سلطاني في الناموس؛ لأني خالق الناموس وأعطله متى شئت، " يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ". أما لو حدثت المسألة الأولى وانطفأت النار، لقالوا: آه لو لم تنطفئ النار، وآه لو لم ينزل الماء على النار.

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوي الخصم. فعندما تحدث أحداث لا دخل للإنسان فيها نقول: دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا في الكون. فميكانيكية الكون تحير العقول؛ لأنها مضبوطة بدقة، ولكنها لم تفلت من يد ربنا. ولذلك نرى في بعض الأحيان رياحا عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئا على الإطلاق. ومعنى ذلك أن الذرات تراكمت وتراكبت حتى صارت جدارا، ويحدث ذلك مهما حاولت الأجهزة العلمية التحكم في ذلك أو منعه.

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لذعة تقول: لقد كرمتك بالعقل ولكني لم أدع لك كل الفهم، فقد يوجد صاحب غريزة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان.

وعندما يحدث زلزال في منطقة ما، فأول ما يخرج من المكان هي الحمير. وهذا لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور:﴿ كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾[العلق: ٦-٧].

فإذا ما رأيت حدثا في الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه؛ فلتعلم أن لله فيه حكمة حتى يلفتنا إلى المكون الأعلى؛ وحتى لا يظن أحد أن لميكانيكية الكون رتابة، إنما هي نظام يجريه الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته.

ولذلك يقولون: إن العقل الإلكتروني لا يخطئ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة ألا يخطئ، لأنه كما تملؤه وتمده بالمعلومات سيخرج لك هذه المعلومات. ليس له خيار في شيء. أما العقل البشري فهو قادر على الاستنباط والاستكشاف وعدم ذكر بعض المعلومات التي قد تضر. هذه هي العظمة.

ويقول بعضهم -كمثال آخر - إن الورد الصناعي لا يذبل، نقول: إن عيبه أنه لا يذبل لأن الذبول حيوية، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه، وأنه جمود فقط.

وساعة يجري الحق سبحانه وتعالى شيئا في كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية في الكون؛ حتى لا تغتر بميكانيكية الكون. ولذلك يعرض القرآن بصيصا من هذه الأشياء، إذا أخذتها بحكم العقل فهو لا يقبلها، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها في منتهى العقل. مثال ذلك: سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح، ما الذي حدث؟.

قال العبد الصالح:﴿ إنك لن تستطيع معي صبرا ﴾[الكهف: ٦٧].

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له:﴿ وكيف تصبر علىا ما لم تحط به خبرا ﴾[الكهف: ٦٨].

فيقول سيدنا موسى وهو من أولي العزم من الرسل:﴿ قال ستجدني إن شآء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ﴾[الكهف: ٦٩].

فيخرق العبد الصالح السفينه. وخرق السفينة في السطحية الفهمية شر، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابرا، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة، فقال للعبد الصالح:﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ﴾[الكهف: ٧١].

لقد شك سيدنا موسى في ظاهر الأمر، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير. فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذي يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصبا:﴿ أوكان ورآءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ﴾[الكهف: ٧٩].

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم، وبالخرق للسفينة ستظل لأصحابها؛ لأن بها عطبا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك. إذن، كل شيء يجري على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشري فلنعلم أنها ما دامت ليست من أحد، وهي من المكون الأعلى فوراءها حكمة.

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل؟ لقد قتل العبد الصالح غلاما. ما **الحكمة في ذلك؟**. إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسندا، وقد يكون هذا الابن سببا في فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغي.

ويقول قائل: وما ذنب الولد؟ نقول: أنت لا تفهم الأمور، لقد ذهبت إلى الحق بدون تجربة في أن يطيع أو يعصي الله، ذهب إلى رحمة الله مباشرة، وهذا أفضل له. وكان في ذلك القتل للولد رحمة لوالديه؛ فالشيء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس فيكون الإنسان هو الذي فعل الضر بنفسه.. وكذلك الأمة حين تخالف ناموسا شرعيا أو كونيا. لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلا بد أن لله فيها حكمة. وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم. فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أي طلبا من أهلها طعاما:

﴿ حتىٰ إذآ أتيآ أهل قرية استطعمآ أهلها فأبوا أن يضيفوهما ﴾[الكهف: ٧٧].

ولم يطلب أي منهما نقودا، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه. وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان.

فقالوا لهما: لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لئاما. ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح: لماذا لا تأخذ منهم أجرا؟

وأخيرا يوضح العبد الصالح لسيدنا موسى:﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغآ أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾[الكهف: ٨٢].

فأهل القرية اللئام الذين طلب منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين. فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية. إذن، فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذي فعل الضر بنفسه، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة من يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شيء يصيبه بالراحة.

إن صاحب الإيمان يلقى الأحداث بقلب قوي. فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه، وإن كانت من ربه فهو يثق بحكمة ربه ﴿ قل كل من عند الله ﴾ وهذا إيضاح لك حتى تفهم أن أي فعل هو من عند الله. فليس للإنسان في الطاقة أي فاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية.

وما دام كل من عند الله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه فيقول سبحانه: ﴿ فمال هاؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾كأن منطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم. وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم. ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمرا يستوعبه العقل. والحق يقول: ﴿ لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ وساعة تقول فلان لا يفقه، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم. أما عندما نقول: لا يكاد يفقه. فهو يعني: لا يقرب حتى من الفهم.

والقول الثاني هو الأكثر بلاغة.

ومن بعد ذلك يقول الحق: ﴿ مآ أصابك من حسنة... ﴾.

". (١)

"-١٦٣

و ﴿ يهد ﴾ أي يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير، ومعنى ﴿ يرثون الأرض من بعد أهلهآ ﴾ أن الأرض كانت مملوكة لسواهم، وهم جاءوا عقبهم. وحين يستقرئ الإنسان الوجود الحضاري في الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة، وما في يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك، والذي يأتي على أنقاض الغير يسمى إرثا، ومادمتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل في بالكم أن غيركم سيرثكم.

إذن فالمسألة دول، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب، ونحن نرى في حياتنا من يحتل منصبا كبيرا، ثم يقال ويعزل عن منصبه، أو يحال إلى التقاعد ويأتي آخر من بعده. ولذلك يقال: لو دامت لغيرك ما وصلت إليك. فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسنت الدخول إلى وضعك وإلى جاهك، وإلى منصبك؛ فيجب أن تفطن وتتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يعز عليك فراقه يوما.

واحذر أن تحسن الدخول في أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج منه.

واستمع إلى قول الشاعر في هذا المعنى:إن الأمير هو الذي يمسي أميرا يوم عزله إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطان فضلهوحين يقول الحق: ﴿ أولم يهد للذين يرثون الأرض ﴾.

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول، فلم يقل: أو لم يهد الذين، بل قال: ﴿ يهد للذين ﴾ ، فما **الحكمة في ذلك؟**. نعرف أن " الهداية " هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية، وقد تعود فائدته عليك، أي أنك قد هديت غيرك لصالحك. وقد تكون الهداية وهي الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذي هدى وعلى المهدي معا، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت، ولا تعود على من هداك، أتشك في هدايته لك؟ لا، إن من حقك أن تشك في الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هدى، أو يعود أمرها على الاثنين؛ ففي ذلك شبهة لمصلحة، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يهدي ويعود كله لمن يهدي فليس في ذلك أدنى شك.

ولذلك يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي:

"... يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ".

---

(١) تفسير الشعراوي ص/٣٥٩

إذن فحين يهديهم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذي يعود عليه سبحانه من صفات بهذا العمل؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه، فلن ينشئ خلقه لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المهدي. وبذلك يتأكد قوله: ﴿ يهد للذين يرثون الأرض ﴾ ما هو مصلحتهم. ﴿ أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلهآ أن لو نشآء أصبناهم بذنوبهم ونطبع علىا قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ [الأعراف: ١٠٠]

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول: ﴿ لو نشآء ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله: ﴿ أصبناهم بذنوبهم ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا، بل هي أيضا مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار، وسبحانه يقول:﴿ أن لو يشآء الله لهدى الناس جميعا... ﴾[الرعد: ٣١]

وما الذي يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعا؟. لا أحد يمنع الخالق، ولكنه سبحانه خلق خلقا مهديين بطبيعتهم، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة، وذلك يثبت صفة القدرة، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله، ولكن هذا لا يعطي صفة المحبوبية للمشرع الأعلى، ثم إنه – سبحانه – خلق خلقا لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا.

فالمخلوق الذي اختصه سبحانه بقدرة الاختيار في أن يؤمن وأن يكفر، وأن يطيع وأن يعصي، ثم آمن يكون إيمانه دليلا على إثبات صفات المحبوبية للإله.

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة، والمختارون الفعل أثبتوا المحبوبية للمشروع الأعلى، ويتابع سبحانه في الآية نفسها: ﴿ أن لو نشآء أصبناهم بذنوبهم ونطبع علىا قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾. [الأعراف: ١٠٠]

ونلحظ أن الحق لم يقل أنه لو نشاء أصبناهم لذنوبهم وذلك رحمة منه، بل جعل العقاب بالذنوب التي يختارونها هم، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار. وسبق أن تكلمنا في أول سورة البقرة. عن كلمة " الطبع "؛ وهو الختم:﴿ ختم الله علىا قلوبهم... ﴾[البقرة: ٧]

لأن القلوب وعاء اليقين الإيماني؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين الكفر، فهذا يعني أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده؛ لذلك يساعده الله على مراده، وكأنه يقول له: أنا سأكون على مرادك، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطري الذي خلق الله الناس عليه. لأنك أنت قد سبقت ووضعت في قلبك قضية يقينية على غير إيمان؛ لأن أصول الإيمان أن تخرج ما في قلبك من أي اعتقاد، ثم تستقبل الإيمان بالله، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان.

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه: قلب يؤمن، وقلب لا يؤمن، بل جعل قلبا واحدا، والقلب الواحد حيز، والحيز –كما قلنا – لا تداخل للمحيز فيه؛ فحين نأتي بزجاجة فارغة ونقول: إنها " فارغة " فالذي يدل على كذب هذه الكلمة أننا حين نضع فيها المياه تخرج منها فقاقيع الهواء، وخروج فقاقيع الهواء هو الذي يسمح بدخول المياه فيها؛ لأن الزجاجة ليست فارغة، بل يخيل لنا ذلك؛ لأن الهواء غير مرئي لنا.

ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق قي صناعتها لتلك المهمة لكان من الحتمي أن تنكسر. والقلب كذلك له حيز إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر، وإن دخل فيه الكفر – والعياذ بالله لا يسع الإيمان، والعاقل هو من يطرح القضيتين خارج القلب، ثم يدرس هذه ويدرس تلك، وما يراه مفيدا لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول. أما أن تناقش قضية الإيمان بيقين قلبي بالكفر فهذه عملية لا تؤدي إلى نتيجة. ﴿ أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلهآ أن لو نشآء أصبناهم بذنوبهم ونطبع علىا قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ [الأعراف: ١٠٠]

أي أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصي والكفر فسار هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله: ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أي السماع المؤدي إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا.

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿ تلك القريا نقص... ﴾

". (١)

"-١٦٤

إذن: فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر؛ فقد قالوا ـ من قبل ـ ما أورده الحق سبحانه في كتابه العزيز:

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتىا تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السمآء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقىا في السمآء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[الإسراء: ٩٠.٩٣].

وكأن الحق سبحانه يأمر رسوله أن يقول موضحا: لست أنا الذي ينزل الآيات، بل الآيات من عند الله تعالى، ثم يأتي القرآن بالسبب الذي لم تنزل به تلك الآيات التي طلبوها، فيقول سبحانه:

﴿ وما منعنآ أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾[الإسراء: ٥٩].

إذن: فقد نزلت آيات كثيرة لمن سبق في المعاندة و المعارضة، ويقابل قضية عرض الإيمان عليه بكفر يملأ قلبه.

فإن كان هناك من يبحث عن الإيمان فليدخل على بحث الإيمان بدون معتقد سابق، ولينظر إلى المسألة، وما يسمح به قلبه فليدخله فيه؛ وبهذا الاختيار القلبي غير المشروط بمعتقد سابق هو قمة القبول.

وقد قال الحق سبحانه في الآيات السابقة كلاما في الوحدانية، وكلاما في الآيات المعجزات، وكلاما في صدق النبوة، وكلاما عن القيامة، وقص لنا سبحانه بعضا من قصص مواكب الرسل، من نوح عليه السلام، ثم فصل قليلا في قصة موسى وهارون عليهما السلام، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام.

---

(١) تفسير الشعراوي ص/١٠٤٢

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب، ثم جاء بخبر عن رسل لم يقل لنا عنهم شيئا، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام، فالسورة تضم ثلاثا من الرسالات: رسالة نوح، ورسالة موسى وهارون، ورسالة يونس: وهو الرسول الذي سميت السورة باسمه.

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة؟

وأقول: لقد تعبنا كثيرا، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمس **الحكمة في ذلك**، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود، وثمود،وشعيب، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك.

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول، والنتيجة التي انتهى إليها أمر الأعداء، وكذلك النتيجة التي انتهى إليها أمر الرسول ومن آمن به.

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكا متحدا بنوع واحد في الجميع، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر.

إذن فمن ذكر هنا من الرسل كان له علاقة بالماء، أما بقية الموكب الرسالي فلم تكن لهم علاقة بالماء.

ونحن نعرف أن الماء به الحياة، وبه الإهلاك؛ لأن واهب الحياة يهب الحياة بالشيء، ويهلك بالشيء نفسه. وكأن الحق سبحانه يبين لنا الحكمة: أنا أهلكت بالغرق هناك، ونجيت من الغرق هنا.

إذن: فطلاقة القدرة الإلهية هي المستولية على هذه السورة، كما تظهر طلاقة القدرة في مجالات أخرى، وبألوان أخرى.

وسميت هذه السورة باسم يونس؛ لأن الحق سبحانه أرسله إلى أكثر من مائة ألف، وهم الأمة الوحيدة في هذا المجال التي استثناها الحق سبحانه من الإهلاك، فقد أغرق قوم نوح، وأغرق قوم فرعون؛ فكلاهما قد كذب الرسل، ولكن قوم يونس أول ما رأوا البأس آمنوا فأنجاهم الله سبحانه.

وسميت السورة باسم من نجا؛ لأنه عاد إلى الحق سبحانه قبل أن يعاين العذاب، ولكنهم رأوا فقط بشائر العذاب، فنجوا أنفسهم بالإيمان.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعهآ إيمانها ﴾

". (١)

"-١٦٥

(١) تفسير الشعراوي ص/١٤٤٨

سبق أن تناولنا تفسير هذه الآية في إطار سياق الآيات السابقة، ونلخصها هنا في أن الحق سبحانه بدأ رسوله أولا بأن أحل له في قوله:﴿ يأيها النبي إنآ أحللنا لك أزواجك... ﴾[الأحزاب: ٥٠] ثم قيد هذا التحليل هنا، فقال: ﴿ لا يحل لك النسآء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن... ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

فالحق سبحانه يأتي بالمخفف في أشياء، ثم يأتي بالمثقل؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان، ويبين فضله عليه، كما قال له سبحانه﴿ عفا الله عنك... ﴾[التوبة: ٤٣] قبل أن يعاتبه بقوله:﴿ لم أذنت لهم... ﴾[التوبة: ٤٣].

وهذه الآية ﴿ لا يحل لك النسآء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن... ﴾ [الأحزاب: ٥٢] توضح أن ما شرع لرسول الله في مسألة تعدد الزوجات غير ما شرع لأمته، فرسول الله استثناه الله تعالى في المعدود لا في العدد، والفرق بين الاستثناء في العدد والاستثناء في المعدود أن العدد يدار في أشياء متعددة، فلو أنه أباح له عدد تسع ثم توفين لكان له أن يتزوج بتسع أخر، وإن ماتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلا منها.

لكن الاستثناء لم يكن لرسول الله في العدد كأمته، إنما في المعدود، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهن، **والحكمة في ذلك** أن التي يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أن تتزوج بغيره، على خلاف زوجات رسول الله، فإنهن أمهات للمؤمنين، فلا يحل لهن الزواج بعد رسول الله.

ثم أوضحنا أن مسألة ملك اليمين ليست سبة في جبين الإسلام، إنما هي ميزة من ميزاته، فالله ملك الرقبة ليحميها من القتل، والمقارنة هنا ليست بين رق وحرية، إنما بين رق وقتل كما أوضحنا، والذي يتأمل حال المملوك أو المملوكة في ظل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع في هذه المسألة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ يأيها الذين آمنوا... ﴾.

". (١)

١٦٦-"وفي دعائه عليه الصلاة والسلام (لبيك وسعديك والخير كله بيديك والشر ليس إليك)؛ ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله والشر لا يتقرب به إليك أو لا يصعد إليك؛ فإن المعنى أجل من ذلك وأكبر وأعظم قدرا، فإن من أسماؤه كلها حسنى وأوصافه كلها كمال وأفعاله كلها حكم وأقواله كلها صدق وعدل يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه أو أفعاله أو أقواله؛ فطابق بين هذا المعنى وبين قوله (إن ربي على صراط مستقيم)؛ وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله (إني توكلت على الله ربي وربكم) [١١/٥٦]؛ أي هو ربي فلا يسلمني ولا يضيعني وهو ربكم فلا يسلطكم علي ولا يمكنكم مني؛ فإن نواصيكم بيده لا تفعلون شيئا بدون مشيئته فإن ناصية كل دابة بيده لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه فهو المتصرف فيها ومع هذا فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم لا يفعل ما يفعل من

(١) تفسير الشعراوي ص/٣٥٠٨

ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة ولو سلطكم علي فله من **الحكمة في ذلك** ماله الحمد عليه لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم لا يظلم ولا يفعل شيئا عبثا بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله لا معرفة القدرية المجوسية والقدرية الجبرية نفاة الحكم والمصالح والتعليل والله الموفق سبحانه.

الثاني: أن الإنعام من الله وحده بخلاف الغضب؛ فذكر فاعل النعمة وحذف فاعل الغضب لأن المنعم هو الله وحده فأضيف إليه ما هو متفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقا ومجرى للنعمة؛ وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى؛ فإن ملائكته ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه؛ وحتى بعض مخلوقاته غير المكلفة قد تغضب عليهم أحيانا إذ قد يجعل الله لها فهما كما في حديث قول الحجر للمسلم يا مسلم ورائي يهودي فاقتله؛ وكذلك النار في الآخرة.". (١)

١٦٧-"عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه. قال العلماء: فهذا الحلف الذي كان في الجاهلية هو الذي شده الإسلام وخصه النبي عليه الصلاة والسلام من عموم قوله:" لا حلف في الإسلام". **والحكمة في ذلك** أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلفين، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى:" إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم «١» ". وفي الصحيح (من قوله «٢»:" انصر أخاك ظالما أو مظلوما" قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ قال:" تأخذ على يديه- في رواية: تمنعه من الظلم- فإن ذلك نصره". وقد تقدم قوله عليه السلام:" إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده". الثانية- قوله تعالى: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يقول بعد تشديدها وتغليظها، يقال: توكيد وتأكيد، ووكد وأكد، وهما لغتان. الثالثة- قوله تعالى: (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعني شهيدا. ويقال: حافظا، ويقال: ضامنا. وإنما قال" بعد توكيدها" فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين. وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك التوكيد هو حلف الإنسان في الشيء الواحد مرارا، يردد فيه الأيمان ثلاثا أو أكثر من ذلك، كقوله: والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا. قال: فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين. وقال يحي بن سعيد: هي العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفر. قال النبي صلى الله عليه وسلم:" ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان". وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما انعقدت عليه اليمين. وقال ابن عمر: التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه. وقد تقدم في المائدة «٣».

---

(١). راجع ج ١٦ ص ٤٤.

(٢). من و.

---

(١) تفسير الفاتحة مثالا على تدبر القرآن ص/٦٦

(٣). راجع ج ٦ ص ٣٦٤.". (١)

١٦٨-"يوم القيامة متعلقا به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجورا فاقض بيني وبينه". ذكره الثعلبي. (وكفى بربك هاديا ونصيرا) نصب على الحال أو التمييز، أي يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك. وقال ابن عباس: عدو النبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله.

[سورة الفرقان (٢٥): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا (٣٣)

قوله تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما- أنهم كفار قريش، قاله ابن عباس. والثاني- أنهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور" على داود" «١». فقال الله تعالى:"كذلك" أي فعلنا" لنثبت به فؤادك" نقوي به قلبك فتعيه وتحمله، لأن الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون، والقرآن أنزل على نبي أمي، ولأن من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به، فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب. قلت: فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته؟. قيل: في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بينا وجه **الحكمة في ذلك**. وقد قيل: إن قوله"كذلك" من كلام المشركين، أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أي كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على"كذلك" ثم يبتدئ" لنثبت به فؤادك". ويجوز أن يكون الوقف على قوله:" جملة واحدة" ثم يبتدئ"كذلك لنثبت به فؤادك" على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك. قال

(١). زيادة يقتضيها المقام.". (٢)

١٦٩-"" والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا" «١» ومن لم يهاجر لم يكمل، ومن لم يكمل لم يصلح للنبي صلى الله عليه وسلم الذي كمل وشرف وعظم، صلى الله عليه وسلم. السادسة- قوله تعالى:" معك" المعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها، فمن هاجر حل له، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن. يقال: دخل فلان معي وخرج معي، أي كان عمله كعملي وإن لم يقترن فيه عملكما. ولو قلت: خرجنا معا لاقتضى ذلك المعنيين

(١) تفسير القرطبي ١٧٠/١٠

(٢) تفسير القرطبي ٢٨/١٣

جميعا: الاشتراك في الفعل، والاقتران [فيه]. السابعة- ذكر الله تبارك وتعالى العم فردا والعمات جمعا. وكذلك قال: (خالك)، و (خالاتك) **والحكمة في ذلك**: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز وليس كذلك العمة والخالة. وهذا عرف لغوي فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال وهذا دقيق فتأملوه قاله ابن العربي. الثامنة- قوله تعالى: (وامرأة مؤمنة) عطف على" أحللنا". المعنى وأحللنا لك امرأة تهب نفسها من غير صداق. وقد اختلف في هذا المعنى، فروي عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين. فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد. وقال قوم: كانت عنده موهوبة. قلت: والذي في الصحيحين يقوي هذا القول ويعضده، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول: أما تستحي امرأة تهب نفسها لرجل! حتى أنزل الله تعالى" ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء" [الأحزاب: ٥١] فقلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فدل هذا على أنهن كن غير واحدة. والله تعالى أعلم. الزمخشري: وقيل الموهبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم.

---

(١). راجع ج ٨ ص ٥٥.". (١)

١٧٠-"الثانية- قوله تعالى: (وتماثيل) جمع تمثال. وهو كل ما صور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان. وقيل: كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان. وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا، قال صلى الله عليه وسلم: (إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور). أي ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة. وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة" نوح" «١» عليه السلام. وقيل: التماثيل طلسمات كان يعملها، ويحرم على كل مصور أن يتجاوزها فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا ما دام ذلك التماثل قائما. وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء. قال:

ويا رب يوم قد لهوت وليلة ... بآنسة كأنها خط تمثال «٢»

وقيل: إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يحيك «٣» فيهم السلاح. ويقال: إن إسفنديار كان منهم، والله أعلم. وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما. الثالثة- حكى مكي في الهداية له: أن فرقة تجوز التصوير، وتحتج بهذه الآية. قال ابن عطية: وذلك خطأ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه. قلت: ما حكاه

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/٢٠٨

مكي ذكره النحاس قبله، قال النحاس: قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية، ولما أخبر الله عز وجل عن المسيح. وقال قوم: قد صح النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم عنها والتوعد لمن عملها أو اتخذها، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله، وكانت **الحكمة في ذلك** لأنه بعث عليه السلام والصور تعبد، فكان الأصلح إزالتها.

---

(١). راجع ج ١٨ ص ٣٠٧ فما بعد.

(٢). البيت لامرئ القيس.

(٣). حاك السيف حيكا: أثر وعمل.". [١]

١٧١-"بالنهار وإذا غربت، وقاله علي رضي الله عنه، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها أي تتأخر عن البصر لخفائها، فلا ترى. وفي الصحاح: وبالخنس: الكواكب كلها. لأنها تخنس في المغيب، أو لأنها تخنس نهارا. ويقال: الكواكب السيارة منها دون الثابتة. وقال الفراء في قوله تعالى: فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس: إنها النجوم الخمسة، زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، لأنها تخنس في مجراها، وتكنس، أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار، وهو الكناس. ويقال: سميت خنسا لتأخرها، لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: خنس عنه يخنس بالضم خنوسا: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه. والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلها خنس. وقد روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: فلا أقسم بالخنس هي بقر الوحش. روى هشيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: قال لي عبد الله ابن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس؟ قلت: هي بقر الوحش، قال: وأنا أرى ذلك. وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله. وروي عن ابن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش. وروى عنه عكرمة قال: بالخنس: البقر والكنس: هي الظباء، فهي خنس إذا رأين الإنسان خنسن وانقبضن وتأخرن ودخلن كناسهن. القشيري: وقيل على هذا بالخنس من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، وأنوف البقر والظباء خنس. والأصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك. قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه **الحكمة في ذلك**. وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنخعي أنها بقر الوحش. وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء. وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجواري الكنس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد". [٢]

١٧٢-"الشفاعة". ومن ذلك القرآن وانشقاق القمر وتكليمه الشجر وإطعامه الطعام خلقا عظيما من تميرات ودرور شاة أم معبد بعد جفاف. وقال ابن عطية معناه، وزاد: وهو أعظم الناس أمة وختم به النبيون إلى غير ذلك من الخلق العظيم

---

(١) تفسير القرطبي ٢٧٢/١٤

(٢) تفسير القرطبي ٢٣٧/١٩

الذي أعطاه الله. ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته، ويكون الكلام تأكيدا. ويحتمل أن يريد به رفع إدريس المكان العلي، ومراتب الأنبياء في السماء كما في حديث الإسراء، وسيأتي. وبينات عيسى هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين كما نص عليه في التنزيل. (وأيدناه) قويناه. (بروح القدس) جبريل عليه السلام، وقد تقدم «١». قوله تعالى: (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم) أي من بعد الرسل. وقيل: الضمير لموسى وعيسى، والاثنان جمع. وقيل: من بعد جميع الرسل، وهو ظاهر اللفظ. وقيل: إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي، وهذا كما تقول: اشتريت خيلا ثم بعتها، فجائز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرسا وبعته ثم آخر وبعته ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك** الفعل لما يريد. وكسرت النون من" ولكن اختلفوا" لالتقاء الساكنين، ويجوز حذفها في غير القرآن، وأنشد سيبويه:

فلست بآتيه ولا أستطيعه ... ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل

«٢» (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) " من" في موضع رفع بالابتداء والصفة.

[سورة البقرة (٢): آية ٢٥٤]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

---

(١). ج ٢ ص ٢٤.

(٢). البيت للنجاشي، وصف أنه اصطحب ذئبا في فلاة مضلة لا ماء فيها، وزعم أن الذئب رد عليه فقال: لست بآت ما دعوتني إليه من الصحبة ولا أستطيعه لأنني وحشي وأنت إنسي ولكن اسقني إن كأن ماؤك فاضلا عن ربك (عن شرح الشواهد للشنتمري).". (١)

١٧٣-"والرسوخ: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ. وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر في الأرض، قال الشاعر:

لقد رسخت في الصدر مني مودة ... لليلى أبت آياتها أن تغيرا

ورسخ الإيمان في قلب فلان يرسخ رسوخا. وحكى بعضهم: رسخ الغدير: نضب ماؤه، حكاه ابن فارس فهو من الأضداد. ورسخ ورضخ ورصن ورسب كله ثبت فيه. وسيل النبي صلى الله عليه وسلم عن الراسخين في العلم فقال:" هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه". فإن قيل: كيف كان في القرآن متشابه والله يقول:" وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما

---

(١) تفسير القرطبي ٣/٢٦٥

نزل إليهم" «١» فكيف لم يجعله كله واضحا؟ قيل له: **الحكمة في ذلك**- والله أعلم- أن يظهر فضل العلماء، لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضل بعضهم على بعض. وهكذا يفعل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا وبعضه مشكلا، ويترك للجثوة «٢» موضعا، لأن ما هان وجوده قل بهاؤه. والله أعلم. التاسعة- قوله تعالى: (كل من عند ربنا) فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى محكمه ومتشابهه، والتقدير: كله من عند ربنا. وحذف الضمير لدلالة"كل" عليه، إذ هي لفظة تقتضي الإضافة. ثم قال: (وما يذكر إلا أولوا الألباب) أي ما يقول هذا ويؤمن ويقف حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذو لب، وهو العقل. ولب كل شي خالصه، فلذلك قيل للعقل لب. و" أولوا" جمع ذو.

[سورة آل عمران (٣): آية ٨]

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨)

فيه مسألتان: الأولى- قوله تعالى: (ربنا لا تزغ قلوبنا) في الكلام حذف تقديره يقولون. وهذا حكاية عن الراسخين. ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد، ويقال: إزاغة القلب فساد

---

(١). راجع ج ١٠ ص ١٠٨.

(٢). كذا وردت هذه الكلمة في أكثر الأصول، وفي بعضها وردت بهذا الرسم من غير إعجام، ومعناها: الجماعة. [.....]". (١)

١٧٤-"الشافعية سبحان الله! أين الدقائق الفقهية «١»، والحكم الشرعية، التي تستنبطونها من غوامض المسائل؟! ألم تروا إلى المحارب المستبد بنفسه، المعتدى بسلاحه، الذي يفتقر الإمام معه إلى الإيجاف بالخيل والركاب كيف أسقط جزاءه بالتوبة استنزالا عن تلك الحالة، كما فعل بالكافر في مغفرة جميع ما سلف استئلافا على الإسلام، فأما السارق والزاني وهما في قبضة المسلمين وتحت حكم الإمام، فما الذي يسقط عنهم حكم ما وجب عليهم؟! أو كيف يجوز أن يقال: يقاس على المحارب وقد فرقت بينهما الحكمة والحالة! هذا ما لا يليق بمثلكم يا معشر المحققين. وإذا ثبت أن الحد لا يسقط بالتوبة، فالتوبة مقبولة والقطع كفارة له." وأصلح" أي كما تاب عن السرقة تاب عن كل ذنب. وقيل:" وأصلح" أي ترك المعصية بالكلية، فأما من ترك السرقة بالزنى أو التهود بالتنصر فهذا ليس بتوبة، وتوبة الله على العبد أن يوفقه للتوبة. وقيل: أن تقبل منه التوبة. السابعة والعشرون- يقال: بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة، وفي الزنى بالزانية قبل الزاني ما **الحكمة في ذلك؟** فالجواب أن يقال: لما كان حب المال على الرجال أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين، هذا أحد الوجوه في المرأة على ما يأتي بيانه في سورة" النور" «٢» من البداية بها على الزاني إن شاء الله. ثم جعل الله حد السرقة قطع اليد لتناول المال، ولم يجعل حد الزنى قطع الذكر مع مواقعة الفاحشة به لثلاثة معان: أحدها: أن

---

(١) تفسير القرطبي ٤/١٩

للسارق مثل يده التي قطعت فإن انزجر بها اعتاض بالثانية «٣»، وليس للزاني مثل ذكره إذا قطع فلم يعتض بغيره لو انزجر بقطعه. الثاني: أن الحد زجر للمحدود وغيره، وقطع اليد في السرقة ظاهر: وقطع الذكر في الزنى باطن. الثالث- أن قطع الذكر فيه إبطال للنسل وليس في قطع اليد إبطاله. والله أعلم.

[سورة المائدة (٥): آية ٤٠]

ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير (٤٠)

---

(١). في ك: الفهمية.

(٢). راجع ج ١٢ ص ١٥٩.

(٣). في ك وج: الباقية.". [1]

١٧٥-"الله مستغن عنه وشركاؤنا فقراء. وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم. والزعم الكذب. قال شريح القاضي: إن لكل شي كنية وكنية الكذب زعموا. وكانوا يكذبون في هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم". قال ابن العربي: وهذا الذي قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل، والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظم جهلا وأكبر جرما، فإن الاعتداء على الله تعالى أعظم من الاعتداء على المخلوقات. والدليل في أن الله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في مخلوقاته أبين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام. وقد روي أن رجلا قال لعمرو بن العاص: إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر! فقال عمرو: تلك عقول كادها باريها. فهذا الذي أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليه السلام. فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يظهر، وننساه حتى لا يذكر، إلا أن ربنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به. وكانت **الحكمة في ذلك-** والله أعلم- أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة. وقرأ يحيى بن وثاب والسلمي والأعمش والكسائي" بزعمهم" بضمه الزاي. والباقون بفتحها، وهما لغتان. (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أي إلى المساكين. (ساء ما يحكمون) أي ساء الحكم حكمهم. قال ابن زيد: كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى" فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله". فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا في ترك أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

---

(١) تفسير القرطبي ١٧٥/٦

[سورة الأنعام (٦): آية ١٣٧]

وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١٣٧)". (١)

١٧٦-"الثالثة عشرة- لما بين الله عز وجل حكم الخمس وسكت عن الأربعة الأخماس، دل ذلك على أنها ملك للغانمين. وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (وأيما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها لله ورسوله ثم هي لكم). وهذا ما لا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، على ما حكاه ابن العربي في (أحكامه) وغيره. بيد أن الإمام إن رأى أن يمن على الأسارى بالإطلاق فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بثمامة بن أثال وغيره، وقال: (لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى «١» - يعني أسارى بدر- لتركته له) أخرجه البخاري. مكافأة له لقيامه في شأن [نقض] الصحيفة «٢». وله أن يقتل جميعهم، وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة ابن أبي معيط من بين الأسرى صبرا «٣»، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء «٤» صبرا، وهذا ما لا خلاف فيه. وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين، حضر أو غاب. وسهم الصفي، يصطفي سيفا أو سهما أو خادما أو دابة. وكانت صفية بنت حيي من الصفي من غنائم خيبر. وكذلك ذو الفقار «٥» كان من الصفي. وقد انقطع بموته، إلا عند أبي ثور فإنه رآه باقيا للإمام يجعله مجعل سهم النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت **الحكمة في ذلك** أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربع الغنيمة. قال شاعرهم:

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول «٦»

وقال آخر:

منا الذي ربع الجيوش، لصلبه ... عشرون وهو يعد في الأحياء

---

(١). النتنى: جمع نتن، كزمنى وزمن.

(٢). أي الصحيفة التي كتبتها قريش في ألا يبايعوا الهاشمية ولا المطلبية ولا يناكحوهم. وهو مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، مات كافرا في صفر قبل وقعة بدر بنحو سبعة أشهر. (عن شرح القسطلاني).

(٣). صبر الإنسان وغيره على القتل: حبسه ورماه حتى يموت.

(٤). موضع قرب بدر.

(٥). ذو الفقار: اسم سيف النبي عليه السلام وسمي به لأنه كانت فيه حفر صغار حسان ويقال للحفرة فقرة.

(٦). البيت لعبد الله بن عنمة الضبي يخاطب بسطام بن قيس. والنشيطة: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى مجتمع الحي. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما (عن اللسان).".

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٩٠

(١)

١٧٧-"قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكفل حسب، ما يأتي بيانه في" ص" «١» إن شاء الله تعالى. وجواب" ذلولا" على هذا محذوف، اي لولا أن برهان ربه لأمضى ما هم به، ومثله"كلا لو تعلمون علم اليقين" «٢» [التكاثر: ٥] وجوابه لم تتنافسوا، قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: الحكمة في ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له، حكاه الطبري. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشد تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم. وقال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها، ولكنه ذكرها لكيلا تيأسوا من التوبة. قال الغزنوي: مع أن لزلة الأنبياء حكما: زيادة الوجل، وشدة الحياء بالخجل، والتخلي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل. قال القشيري أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف هم، وكان ذلك [الهم «٣»] حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل، وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس، والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزما مصمما. قلت: هذا قول حسن، وممن قال به الحسن. قال ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبيا في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكما وعلما، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شي مما ذكر من حل تكته

---

(١). راجع ج ١٥ ص ٢١٨ وج ١١ ص ٣٢٧.

(٢). راجع ج ٢٠ ص ١٧٣.

(٣). من ع وك وو.". (٢)

١٧٨-"الشفاعة ".

ومن ذلك القرآن وانشقاق القمر وتكليمه الشجر وإطعامه الطعام خلقا عظيما من تميرات ودرور شاة أم معبد بعد جفاف. وقال ابن عطية معناه، وزاد: وهو أعظم الناس أمة وختم به النبيون إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذى أعطاه الله.

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٨

(٢) تفسير القرطبي ١٦٧/٩

ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته، ويكون الكلام تأكيدا.

ويحتمل أن يريد به رفع أدريس المكان العلى، ومراتب الانبياء في السماء كما في حديث الاسراء، وسيأتى.

وبينات عيسى هي إحياء الموتى وإبراء الاكمه والابرص وخلق الطير من الطين كما نص عليه في التنزيل.

(وأيدناه) قويناه.

(بروح القدس) جبريل عليه السلام، وقد تقدم (١).

قوله تعالى: (ولو شاء الله ما أقتتل الذين من بعدهم) أي من بعد الرسل.

وقيل: الضمير لموسى وعيسى، والاثنان جمع.

وقيل: من بعد جميع الرسل، وهو ظاهر اللفظ.

وقيل:

إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبى، وهذا كما تقول: اشتريت خيلا ثم بعتها، فجائز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرسا وبعته ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبى فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك** الفعل لما يريد.

وكسرت النون من " ولكن اختلفوا " لالتقاء الساكنين، ويجوز حذفها في غير القرآن، وأنشد سيبويه: فلست بآتيه ولا أستطيعه * ولاك اسقنى إن كان ماؤك ذا فضل (٢) (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) " من " في موضع رفع بالابتداء والصفة.

قوله تعالى: يأيها الذين ءامنوا أنفقوا مما رزقنكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفعة والكفرون هم الظلمون (٢٥٤)

---

(١) ج ٢ ص ٢٤ (٢) البيت للنجاشي، وصف أنه اصطحب ذئبا في فلاة مضلة لا ماء فيها، وزعم أن الذئب رد عليه فقال: لست بآت ما دعوتني إليه من الصحبة ولا أستطيعه لانني وحشى وأنت إنسى ولكن أسقني إن كأن ماؤك فاضلا عن ربك (عن شرح الشواهد للشنتمرى).". [١]

١٧٩-"والرسوخ: الثبوت في الشيء، وكل ثابت راسخ.

وأصله في الاجرام أن يرسخ الجبل والشجر في الارض، قال الشاعر: لقد رسخت في الصدر مني مودة * * لليلى أبت آياتها أن تغيرا ورسخ الايمان في قلب فلان يرسخ رسوخا.

وحكى بعضهم: رسخ الغدير: نضب ماؤه، حكاه ابن فارس فهو من الاضداد.

---

(١) تفسير القرطبي ٣/٢٦٥

ورسخ ورضخ ورصن ورسب كله ثبت فيه.

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الراسخين في العلم فقال: " هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ".

فإن قيل: كيف كان في القرآن متشابه والله يقول: " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم " (١) فكيف لم يجعله كله واضحا ؟ قيل له: **الحكمة في ذلك** - والله أعلم - أن يظهر فضل العلماء، لانه لو كان كله واضحا لم يظهر فضل بعضهم على بعض.

وهكذا يفعل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا وبعضه مشكلا، ويترك للجثوة (٢) موضعا، لان ما هان وجوده قل بهاؤه.

والله أعلم.

التاسعة - قوله تعالى: (كل من عند ربنا) فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى محكمه

ومتشابهه، والتقدير: كله من عند ربنا.

وحذف الضمير لدلالة "كل " عليه، إذ هي لفظة تقتضي الاضافة.

ثم قال: (وما يذكر إلا أولو الالباب) أي ما يقول هذا ويؤمن ويقف حيث وقف ويدع اتباع المتشابه إلا ذو لب، وهو العقل.

ولب كل شئ خالصه، فلذلك قيل للعقل لب.

و " أولو " جمع ذو.

قوله تعالى: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨) فيه مسألتان: الاولى - قوله تعالى: (ربنا لا تزغ قلوبنا) في الكلام حذف تقديره يقولون.

وهذا حكاية عن الراسخين.

ويجوز أن يكون المعنى قل يا محمد، ويقال: إزاغة القلب فساد

---

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠٨.

(٢) كذا وردت هذه الكلمة في أكثر الاصول، وفى بعضها وردت بهذا الوميم ؟ من غير إعجام، ومعناها: الجماعة.

(*)".(١)

١٨٠-"الشافعية سبحان الله ! أين الدقائق الفقهية (١)، والحكم الشرعية، التي تستنبطونها من غوامض المسائل ؟ ! ألم تروا إلى المحارب المستبد بنفسه، المعتدى بسلاحه، الذي يفتقر الامام معه إلى الايجاف بالخيل والركاب كيف أسقط جزاءه بالتوبة استنزالا عن تلك الحالة، كما فعل بالكافر في مغفرة جميع ما سلف استئلافا على الاسلام، فأما السارق والزاني

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/٤

وهما في قبضة المسلمين وتحت حكم الامام، فما الذي يسقط عنهم حكم ما وجب عليهم ؟ ! أو كيف يجوز أن يقال: يقاس على المحارب وقد فرقت بينهما الحكمة والحالة ! هذا مالا يليق بمثلكم يا معشر المحققين.

وإذا ثبت أن الحد لا يسقط بالتوبة، فالتوبة مقبولة والقطع كفارة له.

" وأصلح " أي كما تاب عن السرقة تاب عن كل ذنب.

وقيل: " وأصلح " أي ترك المعصية بالكلية، فأما من ترك السرقة بالزنى أو التهود بالتنصر فهذا ليس بتوبة، وتوبة الله على العبد أن يوفقه للتوبة.

وقيل: أن تقبل منه التوبة.

السابعة والعشرون - يقال: بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة، وفي الزنى بالزانية قبل الزاني ما **الحكمة في ذلك** ؟

فالجواب أن يقال: لما كان حب المال على الرجال

أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين، هذا أحد الوجوه في المرأة على ما يأتي بيانه في سورة " النور " (٢) من البداية بها على الزاني إن شاء الله.

ثم جعل الله حد السرقة قطع اليد لتناول المال، ولم يجعل حد الزنى قطع الذكر مع مواقعة الفاحشة به لثلاثة معان: أحدها: أن للسارق مثل يده التي قطعت فإن انزجر بها اعتاض بالثانية (٣)، وليس للزاني مثل ذكره إذا قطع فلم يعتض بغيره لو انزجر بقطعه.

الثاني: أن الحد زجر للمحدود وغيره، وقطع اليد في السرقة ظاهر: وقطع الذكر في الزنى باطن.

الثالث - أن قطع الذكر فيه إبطال للنسل وليس في قطع اليد إبطاله.

والله أعلم.

قوله تعالى: ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض يعذب من يشآء ويغفر لمن يشآء والله على كل شئ قدير (٤٠)

---

(١) في ك: الفهمية.

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٥٩.

(٣) في ك وج: الباقية.

(*)".(١)

١٨١-"الله مستغن عنه وشركاؤنا فقراء.

وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم.

والزعم الكذب.

---

(١) تفسير القرطبي ٦/١٧٥

قال شريح القاضي: إن لكل شئ كنية وكنية الكذب زعموا.

وكانوا يكذبون في هذه الأشياء

لأنه لم ينزل بذلك شرع.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله: " قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ".

قال ابن العربي: وهذا الذي قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل، والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظم جهلا وأكبر جرما، فإن الاعتداء على الله تعالى أعظم من الاعتداء على المخلوقات.

والدليل في أن الله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في مخلوقاته أبين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام.

وقد روي أن رجلا قال لعمرو بن العاص: إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ! فقال عمرو: تلك عقول كادها باريها.

فهذا الذي أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليه السلام.

فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يظهر، وننساه حتى لا يذكر، إلا أن ربنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه، كما ذكر كفر الكافرين به.

وكانت **الحكمة في ذلك** – والله أعلم – أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة.

وقرأ يحيى بن وثاب والسلمي والأعمش والكسائي " بزعمهم " بضمه الزاي.

والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أي إلى المساكين.

(ساء ما يحكمون) أي ساء الحكم حكمهم.

قال ابن زيد: كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى " فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ".

فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا في ترك أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

قوله تعالى: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولدهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١٣٧)". (١)

---

(١) تفسير القرطبي ٧/٩٠

١٨٢-"الثالثة عشرة - لما بين الله عزوجل حكم الخمس وسكت عن الاربعة الاخماس، دل ذلك على أنها ملك للغانمين.

وبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (وأيما قرية عصت الله ورسوله فإن خمسها لله ورسوله ثم هي لكم).

وهذا ما لا خلاف فيه بين الامة ولا بين الائمة، على ما حكاه ابن العربي في (أحكامه) وغيره.

بيد أن الامام إن رأى أن يمن على الاسارى بالاطلاق فعل، وبطلت حقوق الغانمين فيهم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بثمامة بن أثال وغيره، وقال: (لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى (١) - يعني أسارى بدر - لتركته له) أخرجه البخاري.

مكافأة له لقيامه في شأن [نقض] الصحيفة (٢).

وله أن يقتل جميعهم، وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة ابن أبي معيط من بين الاسرى صبرا (٣)، وكذلك النضر بن الحارث قتله بالصفراء (٤) صبرا، وهذا ما لا خلاف فيه.

وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين، حضر أو غاب.

وسهم الصفي، يصطفي سيفا أو سهما أو خادما أو دابة.

وكانت صفية بنت حيي من الصفي من غنائم خيبر.

وكذلك ذو الفقار (٥) كان من الصفي.

وقد انقطع بموته، إلا عند أبي ثور فإنه رآه باقيا للامام يجعله مجعل سهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وكانت **الحكمة في ذلك** أن أهل الجاهلية كانوا يرون للرئيس ربع الغنيمة.

قال شاعر هم: لك المرباع منها والصفايا * وحكمك والنشيطة والفضول (٦) وقال آخر: منا الذي ربع الجيوش، لصلبه * عشرون وهو يعد في الاحياء

---

(١) النتنى: جمع نتن، كزمني وزمن.

(٢) أي الصحيفة التي كتبتها قريش في ألا يبايعوا الهاشمية ولا المطلبية ولا يناكحوهم.

وهو مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، مات كافرا في صفر قبل وقعة بدر بنحو سبعة أشهر.

(عن شرح القسطلاني).

(٣) صبر الانسان وغيره على القتل: حبسه ورماه حتى يموت.

(٤) موضع قرب بدر.

(٥) ذو الفقار: اسم سيف النبي عليه السلام وسمى به لانه كانت فيه حفر صغار حسان ويقال للحفرة فقرة.

(٦) البيت لعبد الله بن عنمة الضبي يخاطب بسطام بن قيس.

والنشيطة: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصير إلى مجتمع الحي.

والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوهما (عن اللسان).

(*)".[1]

١٨٣-"قلت: وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذي الكفل حسب، ما يأتي بيانه في " ص " (١) إن شاء الله تعالى.

وجواب " لولا " على هذا محذوف، اي لولا أن برهان ربه لأمضى ما هم به، ومثله "كلا لو تعلمون علم اليأقين " (٢) [التكاثر: ٥] وجوابه لم تتنافسوا، قال ابن عطية: روي هذا القول عن ابن عباس وجماعة من السلف، وقالوا: **الحكمة في ذلك** أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم، ولم يوبقه القرب من الذنب، وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلي زليخاء وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهي قد استلقت له، حكاه الطبري.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وابن عباس ومن دونه لا يختلفون في أنه هم بها، وهم أعلم بالله وبتأويل كتابه، وأشد تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم.

وقال الحسن: إن الله عز وجل لم يذكر معاصي الأنبياء ليعيرهم بها، ولكنه ذكرها لكيلا تيأسوا من التوبة.

قال الغزنوي: مع أن لزلة الأنبياء حكما: زيادة الوجل، وشدة الحياء بالخجل، والتخلي عن عجب العمل، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل.

قال القشيري أبو نصر: وقال قوم جرى من يوسف هم، وكان ذلك [الهم] (٣) حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل، وما كان من هذا القبيل لا يؤخذ به العبد، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد، وتناول الطعام اللذيذ، فإذا لم يأكل ولم يشرب، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس في النفس، والبرهان صرفه عن هذا الهم حتى لم يصر عزما مصمما.

قلت: هذا قول حسن، وممن قال به الحسن.

قال ابن عطية: الذي أقول به في هذه الآية إن كون يوسف نبيا في وقت هذه النازلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكما وعلما، ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشئ دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الردئ على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شئ مما ذكر من حل تكته

---

(١) راجع ج ١٥ ص ٢١٨ وج ١١ ص ٣٢٧ (٢) راجع ج ٢٠ ص ١٧٣ (٣) من ع وك و و.

---

[1] تفسير القرطبي ١٣/٨

(*)".(١)

١٨٤-"عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك.

فلما بلغ ذلك الوليد أنصفه.

قال العلماء: فهذا الحلف الذى كان في الجاهلية هو الذى شده الاسلام وخصه النبي عليه الصلاة والسلام من عموم قوله: " لا حلف في الاسلام ".

والحكمة في ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلفين، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى: " إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (١) ".

وفى الصحيح (من قوله (٢): " انصر أخاك ظالما أو مظلوما " قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال: " تأخذ على يديه - في رواية: تمنعه من الظلم - فإن ذلك نصره ".

وقد تقدم قوله عليه السلام: " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ".

الثانية - قوله تعالى: (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) يقول بعد تشديدها وتغليظها، يقال: توكيد وتأكيد، ووكد وأكد، وهما لغتان.

الثالثة - قوله تعالى: (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) يعنى شهيدا.

ويقال: حافظا، ويقال: ضامنا.

وإنما قال " بعد توكيدها " فرقا بين اليمين المؤكدة بالعزم وبين لغو اليمين.

وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك التوكيد هو حلف الانسان في الشئ الواحد مرارا، يردد فيه الايمان ثلاثا أو أكثر من ذلك، كقوله: والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا، والله لا أنقصه من كذا.

قال: فكفارة ذلك واحدة مثل كفارة اليمين.

وقال يحيى بن سعيد: هي العهود، والعهد يمين، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفر.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان ".

وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة، وحل ما انعقدت عليه اليمين.

وقال ابن عمر: التوكيد هو أن يحلف مرتين، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه.

وقد تقدم في المائدة (٣).

---

(١) تفسير القرطبي ١٦٧/٩

(١) راجع ج ١٦ ص ٤٤.

(٢) من و.

(٣) راجع ج ٦ ص ٣٦٤.

(*)".(١)

١٨٥-"يوم القيامة متعلقا به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا آتخذني مهجورا فاقض بيني وبينه ".

ذكره الثعلبي.

(وكفى بربك هاديا ونصيرا) نصب على الحال أو التمييز، أي يهديك وينصرك فلا تبال بمن عاداك.

وقال ابن عباس: عدو النبي صلى الله عليه وسلم أبو جهل لعنه الله.

قوله تعالى: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرءان جملة وحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلنه ترتيلا (٣٢) ولا يأتونك بمثل إلا جئنك بالحق وأحسن تفسيرا (٣٣) قوله تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) اختلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما - أنهم كفار قريش، قاله ابن عباس.

والثاني - انهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرقا قالوا: هلا أنزل عليه جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور " على داود " (١).

فقال الله تعالى: " كذلك " أي فعلنا " لنثبت به فؤادك " نقوى به قلبك فتعيه وتحمله، لان الكتب المتقدمة أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرءون، والقرآن أنزل على نبي أمي، ولان من القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أمور، ففرقناه ليكون أوعى للنبي صلى الله عليه وسلم، وأيسر على العامل به، فكان كلما نزل وحي جديد زاده قوة قلب.

قلت: فإن قيل هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته ؟.

قيل:

في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بينا وجه **الحكمة في ذلك**.

وقد قيل: إن قوله " كذلك " من كلام المشركين، أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك، أي كالتوراة والانجيل، فيتم الوقف على " كذلك " ثم يبتدئ " لنثبت به فؤادك ".

ويجوز أن يكون الوقف على قوله: " جملة واحدة " ثم يبتدئ " كذلك لنثبت به فؤادك " على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرقا لنثبت به فؤادك.

قال

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/١٧٠

(١) زيادة يقتضيها المقام.

(*)".(١)

١٨٦-"من شئ حتى يهاجروا " (١) ومن لم يهاجر لم يكمل، ومن لم يكمل لم يصلح للنبي صلى الله عليه وسلم الذي كمل وشرف وعظم، صلى الله عليه وسلم.

السادسة - قوله تعالى: " معك " المعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها، فمن هاجر حل له، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن.

يقال: دخل فلان معي وخرج معي، أي كان عمله كعملي وإن لم يقترن فيه عملكما.

ولو قلت: خرجنا معا لاقتضى ذلك المعنيين جميعا: الاشتراك في الفعل، والاقتران [فيه].

السابعة - ذكر الله تبارك وتعالى العم فردا والعمات جمعا.

وكذلك قال: (خالك)، (وخالاتك) **والحكمة في ذلك**: أن العم والخال في الاطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز وليس كذلك العمة والخالة.

وهذا عرف لغوي فجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الاشكال وهذا دقيق فتأملوه قاله ابن العربي.

الثامنة - قوله تعالى: (وامرأة مؤمنة) عطف على " أحللنا ".

المعنى وأحللنا لك امرأة تهب نفسها من غير صداق.

وقد اختلف في هذا المعنى، فروى عن ابن عباس أنه قال: لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين.

فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد.

وقال قوم: كانت عنده موهوبة.

قلت: والذي في الصحيحين يقوي هذا القول ويعضده، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول: أما تستحي أمرأة تهب نفسها لرجل ! حتى أنزل الله تعالى " ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء " [الاحزاب: ٥١] فقلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

وروى البخاري عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فدل هذا على أنهن كن غير واحدة.

والله تعالى أعلم.

الزمخشري: وقيل الموهبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الانصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم.

---

(١) تفسير القرطبي ٢٨/١٣

(١) راجع ج ٨ ص ٥٥.

(*)".(١)

١٨٧-"الثانية - قوله تعالى: (وتماثيل) جمع تمثال.

وهو كل ما صور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان.

وقيل: كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان.

وذكر أنها صور الانبياء والعلماء، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا، قال صلى الله عليه وسلم: (إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور).

أي ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة.

وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم.

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة " نوح " (١) عليه السلام.

وقيل: التماثيل طلسمات كان يعملها، ويحرم على كل مصور أن يتجاوزها فلا يتجاوزها، فيعمل تمثالا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزه واحد أبدا

ما دام ذلك التماثل قائما.

وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء.

قال: ويارب يوم قد لهوت وليلة * بآنسة كأنها خط تمثال (٢) وقيل: إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يحيك (٣) فيهم السلاح.

ويقال: إن اسفنديار كان منهم، والله أعلم.

وروي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الاسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما.

الثالثة - حكى مكي في الهداية له: أن فرقة تجوز التصوير، وتحتج بهذه الآية.

قال ابن عطية: وذلك خطأ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه.

قلت: ما حكاه مكي ذكره النحاس قبله، قال النحاس: قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية، ولما أخبر الله عزوجل عن المسيح.

وقال قوم: قد صح النهي عن النبي صلى الله عليه وسلم عنها والتوعد لمن عملها أو أتخذها، فنسخ الله عزوجل بهذا ما كان مباحا قبله، وكانت **الحكمة في ذلك** لانه بعث عليه السلام والصور تعبد، فكان الاصلح إزالتها.

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠٨/١٤

(١) راجع ج ١٨ ص ٣٠٧ فما بعد.

(٢) البيت لامرئ القيس.

(٣) حاك السيف حيكا: أثر وعمل.

(*)".(١)

١٨٨-"بالنهار وإذا غربت، وقاله علي رضى الله عنه، قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل، وتكنس في وقت غروبها أي تتأخر عن البصر لخفائها، فلا ترى.

وفي الصحاح: و " الخنس ": الكواكب كلها.

لانها تخنس في المغيب، أو لانها تخنس نهارا.

ويقال: الكواكب السيارة منها دون الثابتة.

وقال الفراء في قوله تعالى: " فلا أقسم بالخنس.

الجواري الكنس ": إنها النجوم الخمسة، زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد، لانها تخنس في مجراها، وتكنس، أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار، وهو الكناس.

ويقال: سميت خنسا لتأخرها، لانها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم، يقال: خنس عنه يخنس بالضم خنوسا: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه.

والخنس تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الارنبة، والرجل أخنس، والمرأة خنساء، والبقر كلها خنس.

وقد روى عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: " فلا أقسم بالخنس " هي بقر الوحش.

روى هشيم عن زكريا عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل قال: قال لي عبد الله ابن مسعود: إنكم قوم عرب فما الخنس ؟ قلت: هي بقر الوحش، قال: وأنا أرى ذلك.

وقاله إبراهيم وجابر بن عبد الله.

وروي عن ابن عباس: إنما أقسم الله ببقر الوحش.

وروى عنه عكرمة قال: " الخنس ": البقر و " الكنس ": هي الظباء، فهي خنس إذا رأين الانسان خنسن وأنقبضن وتأخرن ودخلن كناسهن.

القشيري: وقيل على هذا " الخنس " من الخنس في الانف، وهو تأخر الارنبة وقصر القصبة، وأنوف البقر والظباء خنس.

والاصح الحمل على النجوم، لذكر الليل والصبح بعد هذا، فذكر النجوم أليق بذلك.

قلت: لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه **الحكمة في ذلك**.

(١) تفسير القرطبي ١٤/٢٧٢

وقد جاء عن ابن مسعود وجابر بن عبد الله وهما صحابيان والنخعي أنها بقر الوحش.

وعن ابن عباس وسعيد بن جبير أنها الظباء.

وعن الحجاج بن منذر قال: سألت جابر بن زيد عن الجواري الكنس، فقال: الظباء والبقر، فلا يبعد أن يكون المراد". (١)

١٨٩-"البيت : الحرم المكي . مثابة : مرجعا يثوب اليه الناس . مقام ابراهيم : هو الحجر الذي كان يقوم عليه حين بناء الكعبة . وقيل ان الحرم كله مقام ابراهيم .

عهد : وصى .

في هذه الآيات يأتي الحديث عن ابراهيم واسماعيل ، وعن البيت الحرام وشعائره ، لتقدير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول النسب الذي يمت به ويحترمه أهل الكتاب ومشركوا العرب ، وهو ملة ابراهيم ونسبه الى عقيدة المسلمين .

اذكروا قصة بناء ابراهيم مع ابنه اسماعيل لبيت الله الحرام بمكة ، اذ جعلنا هذا البيب للخلف ملاذا ومأمنا ، واذ امرنا الناس ان يتخذوا منه مكانا يصلون فيه . وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، اي وصيناهم ، بتطهير البيت ، وان يصونان من كل رجس معنوي كالاشرك بالله وعبادة الأصنام ، أو رجس حسي كاللغو والرفث والتنازع فيه ، وقت اداء العبادات . كما أوصيناهما ان يجعلاه مهيأ للناس للطواف والصلاة والسعي .

ومقام ابراهيم الذي جاءت الاشارة اليه كان ملاصقا للكعبة ، وكان الحجاج أثناء الطواف يتزاحمون عنده ، وربما حدث كثير من الانزعاج لبعضهم ، مما حدا بالمسئولين ان يستفتوا العلماء لإبعاده قليلا . وقد افتى بذلك جمهور من العلماء فتمت زحزحته عن مكانه . وهناك من المفسرين من يقول : مقام ابراهيم هو الحرم جميعه ، سماه الله بيته لأنه أمر المصلين ان يتوجهوا في عبادتهم اليه . **والحكمة في ذلك** ان الناس في حاجة الى التوجه الى خالقهم لشكره والثناء عليه ، لكنهم يعجزون عن التوجه الى « ذات مجردة » لا تنحصر في جهة ، فعين الله لهم هذا البيت المقدس نسبة اليه .

واذكروا اذا طلب ابراهيم الى ربه ان يجعل مكة ، البلد الحرام ، بلدا آمنا ، وان يرزق من يحل فيه من ثمرات الأرض وخيراتها . هذا ما طلبه ابراهيم ، فأجابه الله تعالى اليه . اما من كفر فإني انا العلي القدير ، أمتعه في هذه الحياة الدنيا القصيرة الأمد ثم أسوقه الى عذاب النار يوم القيامة .

القراءات :

قرأ نافع وابن عام : « اتخذوا » بلفظ الماضي . وقرأ ابن عامر : « فأمتعه » من أمتع الرباعي .". (٢)

---

(١) تفسير القرطبي ٢٣٧/١٩

(٢) تفسير القطان ٦٧/١

١٩٠-"التربص : الانتظار . القرء : الحيض أو الطهر من الحيض . بعولة : جمع بعل وهو الزوج .

وعلى المطلقات اللاتي دخل بهن أزواجهن ان ينتظرن ثلاثة حيضات لا يجوز للمرأة منهن ان تتزوج قبل انقضائها ، وهي العدة . **والحكمة في ذلك** هي التأكيد من أنها ليست ذات حمل . ولا يجوز لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن من الاولاد ، أو دم الحيض . . ذلك ان بعض المطلقات يدعين ان مدة الحيض طالت فيطالبن بالنفقة عن تلك المدة .

وكانت المرأة في الجاهلية قد تتزوج بعد طلاقها دون ان تنتظ العدة ، ثم يظهر انها حبلى من الاول ، فتلحق الولد بالثاني . . وفي هذا اختلاط الأنساب وضياع لحقوق الناس . فلما جاء الإسلام حرم هذا وشدد في ذلك بقوله : ﴿ إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ اي اذا كن صادقات في الايمان بالله واليوم الآخر .

والأزواج أحق من غيرهم في ارجاع مطلقاتهم اليهم قبل انقضاء العدة إذا قصدوا الاصلاح وحسن المعاشرة . أما اذا قصدوا الإضرار بالمرأة ومنعها من التزوج حتى تبقى كالمعلقة ، فلا ، ويكون الزوج آثما عند الله .

﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . . . ﴾ ان للرجال والنساء حقوقا الواحد منهم تجاه الآخر وعليهم وعليهن واجبات . « وبالمعروف » تعني ان هذه الحقوق والواجبات موكولة الى اصطلاح ما يجري عليه العرف بينهم وما تعارفوا عليه من آداب وعادات . وقد أجمل النبي A هذه الحقوق عندما قضى بين ابنته فاطمة وزوجها علي ، حيث قضى عليها بخدمة البيت ، وعليه بماكان في خارجه من الأعمال .

وهذا ما تحكم به الفطرة في توزيع الأعمال بين الزوجين ، فعلى المرأة تدبير شؤون المنزل وعلى الرجل السعي والكسب في خارجه . ولا يمنع هذا من استعانة اي منهما بالخدم ولا من مساعدة كل منهما للآخر .

أما قوله تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فقد فسرتها الآية الواردة في سورة النساء : ﴿ الرجال قوامون على النسآء بما فضل الله بعضهم على بعض وبمآ أنفقوا من أموالهم ﴾ . فهذه الدرجة هي الرياسة ومسؤولية القيام على المصالح ، والانفاق على الأسرة .

ان الحياة الزوجية تقتضي وجود مسؤول يرجع اليه عند اختلاف الآراء والرغبات حتى لا يعمل كل ضد الآخر ، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة . والرجل هو الأحق بذلك .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فمن عزته ان أعطى المرأة مثل ما اعطى الرجل من الحقوق بعد ان كانت كالمتاع لدى جميع الأمم . إنه هو الذي رفعها عما كانت عليه في كل شريعة من الشرائع الماضية . فلقد كانت المرأة عند الرومان مثلا أمة في بيت زوجها عليها واجبات ، وليس لها حقوق .

ويرى الاستاذ سيد قطب ان هذه الدرجة مقيدة في هذا السياق بحق الرجل في هذا الموضع ، وليست مطلقة الدلالة ، كما يفهمها الكثيرون ، ويستشهدون بها في غير موضعها .". (١)

---

(١) تفسير القطان ١٢٩/١

١٩١-"الفجر : ضوء الصبح بعد ذهاب الليل . وليال عشر : العشر الأول من ذي الحجة . والشفع والوتر : العدد الزوجي والفردي . والليل اذا يسر : الليل اذا يمضي ويذهب . لذي حجر : لذي عقل . عاد : من قبائل العرب البائدة . إرم ذات العماد : ارم ذات البناء الرفيع ، كانت في الأحقاف بين عمان وحضرموت . ثمود : قبيلة من العرب البائدة . جابوا الصخر : قطعوه ونحتوه . وفرعون ذي الأوتاد : فرعون مصر صاحب الاهرام التي تشبه الاوتاد . طغوا في البلاد : تجاوزوا القدر في الظلم . سوط عذاب : فأنزل الله عليهم ألوانا من العذاب . المرصاد : مكان المراقبة ، رصد الأمر يرصده : راقبه . ابتلاه . اختبره بكثرة الرزق . فقدر عليه رزقه : ضيقه عليه .

﴿ والفجر وليال عشر . . . . ﴾

يقسم الله تعالى بالفجر والليالي العشر المباركة ، وبالزوج والفرد من كل شيء ، وبالليل اذا يمضي بحركة الكون العجيبة ليهلك كل معاند جبار . ﴿ هل في ذلك قسم لذى حجر؟ ﴾ ان في ذكر هذه الأشياء جميعا قسما عظيما مقنعا لذوي العقول ، وحجة كافية على وجوده وقدرته .

وبعد ان أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين – شرع يذكر بعض قصص الجبابرة من الأمم الغابرة : كيف أفسدوا وطغوا ، فأوقع بهم أشد العذاب فقال :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . . . . ﴾

ألم تعلم يا محمد كيف أنزل ربك عقابه بعاد قوم هود ، أهل إرم ذات البناء الرفيع ، والتي لم يخلق مثلها في البلاد ضخامة وارتفاعا!؟ يوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ [الشعراء : ١٢٨-١٢٩] . وقد تقدم الكلام على عاد ونبيهم هود في أكثر من سورة .

﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . . . . ﴾

وثمود ، قوم صالح ، الذين قطعوا الصخر ونحتوه ، وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة . وكانت مساكنهم في الحجر شمالي الحجاز ، ولا تزال بقايا من آثارهم موجودة . كما قال تعالى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ [الشعراء : ١٤٩] .

كذلك ورد ذكر ثمود وبيهم صالح في عدد من السور .

﴿ وفرعون ذى الأوتاد . . . . ﴾

اذكر كيف أنزل ربك عقابه بفرعون صاحب الأهرام والمباني العظيمة ، ووصف الأهرام بالأوتاد في غاية الدقة .

﴿ الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ﴾

إن جميع هؤلاء : قوم عاد وثمود وفرعون ، قد طغوا وبغوا ، وأفسدوا أشد الفساد .

﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾

فأنزل الله تعالى عليهم الوانا من البلاء والعذاب الشديد ، وأهلكهم وأبادهم .

﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾

إنه ليرقب عمل الناس ، ويحصيه عليهم ويجازيهم به .

وبعد أن بين سبحانه أنه لا يفوته شيء من شأن عباده ، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم – ذكر هنا طبيعة الإنسان الذي يبطر عند الرخاء ويقنط من رحمة ربه عند الضراء فقال :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأمآ إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ .

فأما الانسان اذا ما اختبره ربه فأنعم عليه ووسع له في الرزق والجاه ، فيقول مغترا بذلك : ربي فضلني لأني أستحق هذا كله .

وأما إذا ما اختبره بضيق الرزق فيقول غافلا عن **الحكمة في ذلك** : لقد أهانني ربي .

قراءات :

قرأ عاصم : والوتر بفتح الواو ، والباقون بكسرها . وقرأ ابن عامر فقدر بفتح الدال بالتشديد . والباقون بدون تشديد .". (١)

١٩٢-"بمجموعها في كونها حجة على غيرها لزالت الفائدة ، إذ لم يبق بعد انقضائها من تكون الأمة حجة عليه. فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر ، ويجوز تسمية أهل العصر الواحد بالأمة ، فإن الأمة الجماعة التي تؤم جهة واحدة ، ولا شك أن أهل كل عصر كذلك ، ولأنه – تعالى – قال : " أمة وسطا " فعبر عنهم بلفظ النكرة ، ولا شك أن هذا يتناول أهل كل عصر.

[قال النووي – رحمه الله تعالى – في " التهذيب " : الأمة تطلق على معان : منها من صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن بما جاءه ، واتبعه فيه ، وهذا هو الذي جاء مدحه في الكتاب والسنة كقوله تعالى : ﴿كذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ و ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران : ١١٠].

وقوله صلوات الله وسلام عليه : " شفاعتي لأمتي " و " تأتي أمتي يوم القيامة غرا محجلين " وغير ذلك.

ومنها من بعث إليهم النبي – صلوات الله وسلامه عليه – من مسلم وكافر.

ومنه قوله عليه أفضل الصلاة والسلام : " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " رواه مسلم.

ويأتي باقي الكلام عن الأمة في آخر " النحل " إن شاء الله – تعالى – عند قوله تعالى : ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ [النحل : ١٢٠] إلى قوله : ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ [البقرة : ٢١٣].

فصل في الكلام على قوله : لتكونوا قوله تعالى : " لتكونوا " يجوز في هذه اللام وجهان : أحدهما : أن تكون لام " كي " فتفيد العلة.

والثاني : أن تكون لام الصيرورة ، وعلى كلا التقديرين فهي حرف جر ، وبعدها " أن " مضمرة ، وهي وما بعدها في محل جر ، وأتى بـ " شهداء " جمع " شهيد " الذي يدل على المبالغة دون شاهدين وشهود جميع " شاهد " .

---

(١) تفسير القطان ٤٣٢/٣

وفي " على " قولان : أحدها : أنها على بابها ، وهو الظاهر.

والثاني : أنها بمعنى " اللام " ، بمعنى : أنكم تنقلون إليهم ما علمتموه من الوحي

١٦

والدين ، كما نقله الرسول – عليه السلام – وكذلك القولان في " على " الأخيرة ، بمعنى أن الشهادة لمعنى التزكية منه – عليه السلام – لهم.

وإنما قدم متعلق الشهادة آخرا ، وقدم أولا لوجهين : أحدهما : وهو ما ذكره الزمخشري أن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم.

والثاني : أن " شهيدا " أشبه بالفواصل والمقاطع من " عليكم " ، فكان قوله " شهيدا " تمام الجملة ، ومقطعها دون " عليكم " ، وهذا الوجه قاله الشيخ مختارا له رادا على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المعفول يشعر بالاختصاص ، وقد تقدم ذلك.

فصل في الكلام على الشهادة.

اختلفوا في هذه الشهادة هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟ فالقائل بأنها في الآخرة وهم الأكثرون لهم وجهان : الأول : أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم.

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فيطالب الله – تعالى – الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – فيشهدون فتقول الأمم : من أين عرفتم فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد – عليه الصلاة والسلام – فيسأل عن حال أمته ، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم ، وذلك قوله : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء : ٤١] وقد طعن القاضي رحمه الله تعالى في هذ الرواية من وجوه : أحدها : أن مدار هذه الرواية على أن الأمم يكذبون أنبياءهم ، وهذا بناء على أن أهل القيامة يكذبون.

وهذا باطل عند القاضي ، وسيأتي الكلام على هذه المسألة في سورة " الأنعام " عند قوله تعالى : ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ [الأنعام : ٢٣ – ٢٤].

وثانيها : أن شهادة الأمة ، وشهادة الرسول – عليه الصلاة والسلام – مستندة في الآخرة إلى شهادة الله – تعالى – على صدق الأنبياء ، وإذا كان كذلك ، فلم لم يشهد الله – تعالى – لهم بذلك ابتداء ؟ والجوا : **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد – عليه الصلاة والسلام – في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله – تعالى – وتصديق جميع الأنبياء ، والإيمان بهم جميعا ، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق.

وثالثها : أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة ، وهذا ضعيف لقوله عليه الصلاة

١٧". (١)

١٩٣-"قوله تعالى : ﴿من بعد ما جآءك من العلم﴾.

إنه – تعالى – لم يرد بذلك أنه نفس العلم ، بل المراد الدلائل والآيات والمعجزات ؛ لأن ذلك من طرق العلم ، فيكون ذلك من باب إطلاق اسم الأثر على المؤثر ، والغرض من هذا الاستعارة هو المبالغة [والتعظيم في] أمر النبوات والمعجزات بأنه سماه باسم العلم ، وذلك ينبهك على أن العلم أعظم المخلوقات شرفا ومرتبة ، ودلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم.

[قوله تعالى : ﴿إنك إذا لمن الظالمين﴾ أي إنك لو فعلت ذلك لكنت بمنزلة القوم في كفرهم ، وظلمهم أنفسهم].

و " إذا " حرف جواب وجزاء بنص سيبويه ، وتنصب المضارع بثلاثة شروط : أن تكون صدرا ، وألا يفصل بينها وبين الفعل بغير الظرف والقسم ، وألا يكون الفعل حالا ، ودخلت هنا بين اسم " إن " وخبرها لتقرير النسبة بينهما وكان حدها أن تتقدم أو تتأخر ، فلم تتقدم ، لأنه سبق قسم وشرط والجواب هو للقسم ، فلو تقدمت لتوهم أنها لتقرير النسبة التي بين الشرط والجواب المحذوف ، ولم تتأخر لئلا تفوت مناسبة الفواصل رؤوس الآي.

قال أبو حيان : وتحرير معنى " إذا " صعب اضطرب الناس في معناها ، وفي فهم كلام سيبويه فيها ، وهو أن معناها الجواب والجزاء.

قال : والذي تحصل فيها أنها لا تقع ابتداء كلام ، بل لا بد أن يسبقها كلام لفظا أو تقديرا ، وما بعدها في اللفظ أو التقدير ، وإن كان متسببا عما قبلاه فهي في ذلك على وجهين : أحدهما : أن تدل على إنشاء الارتباط والشرط ، بحيث لا يفهم الارتباط من غيرها ، مثال ذلك : أزورك فتقول : إذا أزورك ، فإنما تريد الآن أن تجعل فعله شرطا لفعلك ، وإنشاء السببية في ثاني حال من ضرورته أن يكون في الجواب ، وبالفعلية في زمان مستقبل ، وفي هذا الوجه تكون عاملة ، ولعملها شروط مذكورة في النحو.

الوجه الثاني : أن تكون مؤكدة لجواب ارتبط بمقدم ، أو مبهة على مسبب حصل في الحال ، وهي في الحالين غير عاملة ؛ لأن المؤكدات لا يعتمد عليها والعامل يعتمد عيله ، وذلك ، نحو : " إن تأتني إذا آتك " ، و " والله إذا لأفعلن " فلو أسقطت " إذا " لفهم الارتباط ، ولما كانت في هذا الوجه غير معتمد عليها جاز دخولها على الجملة الاسمية الصريحة نحو : " أزورك " فتقول : " إذا أنا أكرمك " ، وجاز توسطها نحو : " أنا إذا أكرمك " وتأخرها ، وإذا تقرر هذا فجاءت " إذا " في الآية مؤكدة للجواب المرتبط بما تقدم ، وإنما

٤٩

قررت معناها هنا ؛ لأنها كثيرة الدور في القرآن ، فتحمل في كل موضع على ما يناسب من هذا الذي قررناه انتهى كلامه.

واعلم أ ، ها إذا تقدمها عاطف جاز إعمالها وإهمالها ، وهو الأكثر ، وهي مركبة من " همزة وذال ونون " ، وقد شبهت

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٢١

العرب نونها بتنوين المنصوب قلبوها في الوقف ألفا ، وكتبوها في الكتاب على ذلك ، وهذا نهاية القول فيها.

وجاء في هذا المكان " من بعد ما جاءك " وقال قبل هذا : ﴿بعد الذي جآءك﴾ [البقرة : ١٢٠] وفي " الرعد " : ﴿بعد ما جآءك﴾ [الرعد : ٣٧] فلم يأت بـ " من " الجارة إلا هنا ، واختص موضعا بـ " الذين " ، وموضعين بـ " ما " ، فما **الحكمة في ذلك** ؟ والجواب : ما ذكره بعضهم وهو أن " الذي " أخص و " ما " أشد إبهاما ، فحيث أتي بـ " الذي " أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى ، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه ؛ لأنه علم بكل أصول الدين ، وحيث أتي بلفظ " ما " أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين ، أحدهما : القبلة ، والأخر : بعض الكتاب ؛ لأنه أشار إلى قوله : ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ [الرعد : ٣٦].

قال : وأما دخول " : من " ففائدته ظاهرة ، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه - عليه السلام - أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم ، والذي يقال في هذا : إنه من باب التنوع من البلاغة.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٣

في " الذين آتيناهم " : ستة أوجه : ظهرها : أنه مرفوع بالابتداء ، والخبر قوله : " يعرفونه ".

الثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هم الذين آتيناهم.

الثالث : النصب بإضمار " أعني ".

الرابع : الجر على البدل من " الظالمين ".

الخامس : على الصفة للظالمين.

السادس : النصب على البدل من " الذين أوتوا الكتاب " في الآية قبلها.

قوله تعالى : " يعرفونه " فيه وجهان : أحدهما : أنه خبر " الذين آتيناهم " كما تقدم في أحد الأوجه المذكورة في " الذين آتيناهم ".

الثاني : أنه نصب على الحال على بقية الأقوال المذكورة.

٥٠

". (١)

١٩٤-"وليس هذا الخلاف مقصور على هذه الكلمة ، بل إذا التقى ساكنان من كلمتين ؛ وضم الثالث ضما لازما نحو : ﴿ولقد استهزئ﴾ [الأنعام : ١٠] ﴿قل ادعوا﴾ [الإسراء : ١١٠] ، ﴿وقالت اخرج﴾ [يوسف : ٣١] ، جرى الخلاف المذكور ، إلا أن أبا عمرو خرج عن أصله في ﴿أو﴾ [المزمل : ٣] و ﴿قل ادعوا﴾ [الإسراء : ١١٠] فضمهما ، وابن ذكوان خرج عن أصله ، فكسر التنوين خاصة ؛ نحو ﴿محظورا انظر﴾ [الإسراء : ٢٠ - ٢١] واختلف عنه في ﴿برحمة ادخلوا﴾ [الأعراف : ٤٩] ﴿خبيثة اجتثت﴾ [إبراهيم : ٢٦] فمن كسر ، فعلى أصل التقاء الساكنين ، ومن ضم ،

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٣٩

فلإتباع ، وسيأتي بيان **الحكمة في ذلك.**

عند، ذكره ، إن شاء الله – تعالى – والله أعلم.

قوله : " غير باغ " : " غير " : نصب على الحال ، واختلف في صاحبها : فالظاهر : أنه الضمير المستتر [في " اضطر "] ، وجعله القاضي ، وأبو بكر الرازي من فاعل فعل محذوف بعد قوله " اضطر " ؛ قالا : تقديره : " فمن اضطر فأكل غير باغ " ؛ كأنهما قصدا بذلك أن يجعلاه قيدا في الأكل لا في الاضطرار.

قال أبو حيان : ولا يتعين ما قالاه ؛ إذ يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله ﴿غير باغ ولا عاد﴾ بل هو الظاهر والأولى ؛ لأن في تقديره قبل " غير باغ " فضلا بين ما ظاهره الاتصال فيما بعده ، وليس ذلك في تقديره بعد قوله : " غير باغ ".

و " عاد " : اسم فاعل من : عدا يعدو ، إذا تجاوز حده ، والأصل : " عادو " فقلب الواو ياء ؛ لانكسار ما قبلها ؛ كغاز من الغزو ، وهذا هو الصحيح ؛ وقيل : إنه مقلوب من ، عاد يعود ، فهو عائد ، فقدمت اللام على العين ، فصار اللفظ " عادو " فأعل بما تقدم ، ووزنه " فالع " ؛ كقولهم : " شاك " في " شائك " من الشوكة ، و " هار " ، والأصل " هائر " ، لأنه من : هار يهور.

قال أبو البقاء – رحمه الله تعالى – : " ولو جاء في غير القرآن الكريم منصوبا ، عطفا على موضع " غير " جاز " ، يعني : فكان يقال : " ولا عاديا ".

قوله : " اضطر " أحوج وألجىء ، فهو : " افتعل " من الضرورة ، وأصله : من الضرر ، وهو الضيق ، وهذه الضرورة لها سببان : أحدهما : الجوع الشديد ، وألا يجد مأكولا حلالا يسد به الرمق ، فيكون عند ذلك مضطرا.

والثاني : إذا أكره على تناوله.

١٧٨

واعلم أن الاضطرار ليس من فعل المكلف ؛ حتى يقال : إنه لا إثم عليه ، فلا بد من إضمار ، والتقدير : " فمن اضطر ، فأكل ، فلا إثم عليه " ونظيره : ﴿فعدة من أيام أخر﴾ [البقرة : ١٨٤] ، فحذف " فأفطر " ، وقوله تعالى ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام﴾ [البقرة : ١٩٦] وإنما جاز الحذف ؛ لعلم المخاطب به ، ودلالة الخطاب عليه.

والبغي : أصله في اللغة الفساد.

قال الأصمعي : يقال : بغى الجرح بغيا : إذا بدأ في الفساد ، وبغت السماء ، إذا كثر مطرها ، والبغي : الظلم ، والخروج عن الإنصاف ؛ ومنه قوله تبارك وتعالى ﴿والذين إذآ أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ [الشورى : ٣٩] وأصل العدوان : الظلم ، ومجاوزة الحد.

فصل اختلفوا في معنى قوله " غير باغ ولا عاد﴾ فقال بعضهم : " غير باغ " أي غير خارج على السلطان ، و " لا عاد " متعد بسفره ، أعني : عاص بأن خرج لقطع الطريق ، والفساد في الأرض ، وهو قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن

جبير.

وقالوا : لا يجوز للعاصي بسفره أن يأكل الميتة ، إذا اضطر إليها ، ولا أن يترخص في السفر بشيء من الرخص ؛ حتى يتوب ، وذهب جماعة إلى أن البغي والعدوان راجعان إلى الأكل ، واختلفوا في معناه.

فقال الحسن ، وقتادة ، والربيع ، ومجاهد ، وابن زيد : أي : يأكل من غير ضرورة أي : بغي في أكله " ولا عاد " ن أي : ولا يعدو لشبعه.

وقيل : " غير باغ " أي : غير طالبها ، وهو يجد غيرها ، " ولا عاد " ، أي : غير متعد ما حد له ، فيأكل حتى يشبع ، ولكن يأكل ما يسد رمقه.

وقال مقاتل : " غير باغ " أي : مستحل لها ، " ولا عاد " أي : يتزود منها ، وقيل : " غير باغ " ، أي : مجاوز للحد الذي أحل له ، " ولا عاد " أي : لا يقصر فيما أبيح له فيدعه.

قال مسروق : من اضطر إلى الميتة ، والدم ، ولحم الخنزيرن فلم يأكل ، ولم يقرب ، حتى مات ، دخل النار.

وقال سهل بن عبد الله : " غير باغ " : مفارق للجماعة ، " ولا عاد " ، أي : ولا مبتدع مخالف السنة ، ولم يرخص للمبتدع تناول المحرم عند الضرورة.

فإن قيل : الأكل في تلك الحالة واجب ، وقوله : ﴿فلا اا إثم عليه﴾ أيضا يفيد الإباحة.

١٧٩

". (١)

١٩٥-"وعظم ، دخل ، وهو محرم ، بيتا لبعض الأنصار ، فاتبعه رجل محرم من الأنصار ، يقال له رفاعة ابن تابوت ، فدخل على أثره من الباب ، فقال - عليه الصلاة والسلام دائما وابدا - : " تنح عني " فقال : ولم ، يا رسول الله ؟ قال : " دخلت الباب ، وأنت محرم " ، فقال : رأيتك دخلت ، فدخلت على أثرك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم : " إني أحمس " فقال الرجل : " إن كنت أحمسيا ، فإني أحمسي ، رضيت بهديك ، وسمتك ، ودينك " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة.

قال الزهري : كان ناس من الأنصار ، فإذا أهلوا بالعمرة ، لم يحل بينهم وبين السماء شيء ، وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة ، فتبدوا له الحاجة بعد ام يخرج من بيته ؛ فيرجع ، ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء ، فيفتح الجدار من ورائه ، ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته ؛ حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله علنه وسلم ، وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم ، أهل زمن الحديبية بالعمرة ، فدخل حجرة ، فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجلأ ، وعظم : " لم فعلت ذلك ؟ " قال : " لأني رأيتك دخلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرف ، وكرم ، ومجد ، وبجل ، وعظم : " إني أحمسي " فقال

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٥٠٦

الأنصاري : وأنا أحمسي ، وأنا على دينك ، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة.

فصل في اخلافهم في تفسير الآية ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه : أحدها : – وهو قول أكثر المفسرين – وهو حمل الآية الكريمة على ما قدمناه في سبب النزول ، ويصعب نظم الآية الكريمة عليه ؛ فإن القوم سألوا عن الحكمة في تغيير لون القمر ، فذكر الله تعالى **الحكمة في ذلك** ، وهي قوله : ﴿مواقيت للناس والحج﴾ فأي تعلق بي بيان الحكمة في اختلاف نور القمر ، وبين هذه القصة ، فذكروا وجوها : أحدها : أن الله – تبارك وتعالى – لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج ، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبرها في الحج ، لا جرم ذكرها الله تعالى.

وثانيها : أنه تعالى إنما وصل قوله : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ بقوله : ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ ؛ لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد ، فنزلت الآية الكريمة فيهما معا في وقت واحد ، ووصل أحد الأمرين بالآخر.

وثالثها : كأنهم لما سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة ، فقيل لهم : اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم ، وارجعوا إلى البحث ، عما هو أهم لكم ، فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر ؛ وليس الأمر كذلك.

الوجه الثاني من تفسير الآية : أن قوله تعالى : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ مثل ضربه الله تعالى ، وليس المراد ظاهره وتفسير أن الطريق المستقيم هو الطريق المعلوم ، وهو أن يستدل بالمعلوم على المظنون ، ولا ينعكس.

وإذا عرف هذا ، فنقول : ثبت بالدلائل أن للعالم صانعا ، مختارا ، حكيما ، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلا الصواب البريء عن البعث والسفه.

وإذا عرفنا ذلك ، وعرفنا أن اختلاف أحوال القمر في النور من فعله علمنا أن فيه حكمة ومصلحة ، لأنا علمنا أن الحكيم لا يفعل إلا الحكمة ، واستدللنا بالمعلوم على المجهول ، فأما أن يستدل بعدم علمنا بالحكمة فيه على أن فاعله ليس بحكيم ، فهو استدلال باطل ؛ لأنه استدلال بالمجهول على القدح في المعلوم ، وإذا عرف هذا ، فالمراد من قوله تعالى : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ يعني : أنكم لما لم تعلموا الحكمة في اختلاف نور القمر ، صرتم شاكين في حكمة الخالق ، وقدأتيتم الشيء من غير طريقه " إنما البر بأن تأتوا البيوت من

٣٣٨

". (١)

١٩٦-"بالغيبة – إما على الرجوع على الكفار المتقدمين ، وإما على الالتفات من خطاب المؤمنين.

فإن قيل : ههنا ثلاثة مواضع ، تقدم الموت على القتل في الأول والأخير ، وقدم القتل على الموت في المتوسط فما **الحكمة في ذلك** ؟ فالجواب : ان الأول لمناسبة ما قبله ، من قوله : ﴿إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض ، والقتل لمن غزا ، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد ، فقدم الأهم الأشرف ، وأما الأخير فلأن الموت أغلب.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٥٨٦

فإن قيل : كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعونه أصلا.

فالجواب : أن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا ، وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات.

فقيل : المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

قوله : ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ هذا الترتيب في غاية الحسن ؛ فإنه قال في الآية الأولى : ﴿لمغفرة من الله﴾ وهذه إشارة إلى من عبده خوفا من عقابه ، ثم قال : ﴿ورحمة﴾ وهو إشارة إلى من عبده لطلب ثوابه ، ثم ختمها بقوله : ﴿لإلى الله تحشرون﴾ وهو إشارة إلى من عبده لمجرد العبودية والربوبية ، وهذا أعلى المقامات ، يروى أن عيسى – عليه السلام – مر باقوام نحفت أبدانهم ، واصفرت وجوههم ، ورأى عليهم آثار العبادة ، فقال : ماذا تطلبون ؟ فقالوا : نخشى عذاب الله ، فقال : هو أكرم من أن يمنعكم رحمته.

ثم مر بقوم ، فرأى آثار العبودية عليهم أكثر ، فسألهم : فقالوا : نعبده لأنه إلهنا ، ونحن عبيده ، لا لرغبة ولا لرهبة ، فقال : أنتم العبيد المخلصون ، والمتعبدون المحقون.

قوله : ﴿لإلى الله﴾ اللام جواب القسم ، فهي داخلة على ﴿تحشرون﴾ و ﴿وإلى الله﴾ متعلق به ، وإنما قدم للاختصاص ، أي : إلى الله – لا إلى غيره – يكون حشركم ، أو للاهتمام به ، وحسنه كونه فاصلة ، ولولا الفصل لوجب توكيد الفعل بالنون ؛ لأن المضارع المثبت إذا كان مستقبلا وجب توكيده [بالنون] ، مع اللام ، خلافا للكوفيين ؛ حيث يجيزون التعاقب بينهما.

كقول الشاعر : [الكامل]

١٤

١٦٧٦ – وقتيل مرة أثأرن...

....

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥

فجاء بالنون دون اللام.

وقول الآخر : [الطويل] ١٦٧٧ – لئن قد ضاقت عليكم بيوتكم

ليعلم ربي أن بيتي واسع

فجاء باللام دون النون ، والبصريون يجعلونه ضرورة.

فإن فصل بين اللام بالمعمول – كهذه الآية – أو بقد ، نحو : والله لقد أقوم.

وقوله : [الطويل] ١٦٧٨ – كذبت لقد أصبي على المرء عرسه

....

أو بحرف التنفيس ، كقوله تعالى : ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : ٥] فلا يجوز توكيده – حينئذ – بالنون ، قال الفارسي : " الأصل دخول النون ، فرقا بين لام اليمين ، ولام الابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل على الفضلات ،

فبدخول لام اليمين على الفضلة حصل الفرق ، فلم يحتج إلى النون وبدخولها على " سوف " حصل الفرق – أيضا – فلا حاجة إلى النون ولام الابتداء لا تدخل على الفعل إلا إذا كان حالا ، أما مستقبلا فلا ".

وأتى بالفعل مبنيا لما لم يسم فاعله – مع أن فاعل الحشر هو الله – وإنما لم يصرح به ، تعظيما.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٥

في " ما " وجهان : أحدهما : أنها زائدة للتوكيد ، والدلالة على أن لينه لهم ما كان إلا

١٥

". (١)

١٩٧-"وقال الزمخشري : أيديهما : يديهما ، ونحوه : ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ [التحريم : ٤] اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف ، وأريد باليدين اليمنيان بدليل قراءة عبد الله : " والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم " ورد عليه أبو حيان بأنهما ليسا بشيئين ، فإن النوع الأول مطرد فيه وضع الجمع موضع التثنية ، بخلاف الثاني فإنه لا ينقاس ، لأن المتبادر إلى الذهن من قولك : " قطعت آذان الزيدين " : " أربعة الآذان " وهذا الرد ليس بشيء ؛ لأن الدليل دل على أن المراد اليمنيان.

فصل من أول من قطع في حد السرقة ؟ قال القرطبي : أول من حكم بقطع [اليد] في الجاهلية ابن المغيرة ، فأمر الله بقطعه في الإسلام ، فكان أول سارق قطعه رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – في الإسلام ، من الرجال الخيار بنش عدي بن نوفل بن عبد مناف ومن النساء مرة بنت سفيان من بني مخزوم ، وقطع أبو بكر – رضي الله عنه – يد الفتى الذي سرق العقد ، وقطع عمر – رضي الله عنه – يد ابن سمرة أخي عبد الرحمن بن سمرة.

فصل لماذا بدأ الله بالسارق في الآية ؟ قال القرطبي : بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة ، وفي الزنا بدأ بالزانية ، **والحكمة في ذلك** أن يقال : لما كان حب المال على الرجال أغلب ، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين.

قوله تعالى : " جزاء " فيه أربعة أوجه : أحدها : أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر ، أي : جازوهما جزاء.

الثاني : أنه مصدر [أيضا] لكنه منصوب على معنى نوع المصدر ؛ لأن قوله : " فاقطعوا " في قوة : جازوهما بقطع الأيدي جزاء.

٣٢٤

الثالث : أنه منصوب على الحال ، وهذه الحال يحتمل أن تكون من الفاعل ، أي : مجازين لهما بالقطع بسبب كسبهما ، وأن تكون من المضاف إليه في " أيديهما " ، أي : في حال كونهما مجازين ، وجاز مجيء الحال من المضاف إليه ، لأن المضاف جزؤه ، كقوله : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ [الحجر : ٤٧].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٢٨٩

الرابع : أنه [مفعول] من أجله ، أي : لأجل الجزاء ، وشروط النصب موجودة.
و " نكالا " منصوب كما نصب " جزاء " ولم يذكر الزمخشري فيهما غير المفعول من أجله.
قال أبو حيان : " تبع في ذلك الزجاج " ، ثم قال : " وليس بجيد إلا إذا كان الجزاء هو النكال ، فيكون ذلك على طريق البدل ، وأما إذا كانا متباينين ، فلا يجوز ذلك إلا بوساطة حرف العطف ".
قال شهاب الدين : النكال : نوع من الجزاء فهو بدل منه ، على أن الذي ينبغي أن يقال هنا إن " جزاء " مفعول من أجله ، العامل فيه " فاقطعوا " ، فالجزاء علة للأمر بالقطع ، و " نكالا " مفعول من أجله أيضا العامل فيه " جزاء " ، والنكال علة للجزاء ، فتكون العلة معللة بشيء آخر ، فتكون كالحال المتداخلة ، كما تقول : " ضربته تأديبا له إحسانا إليه " ، فالتأديب علة للضرب ، والإحسان علة للتأديب ، وكلام الزمخشري والزجاج لا ينافي ما ذكرنا فإنه لا منافاة بين هذا وبين قولهما : " جزاء " مفعول من أجله ، وكذلك " نكالا " فتأمله ، فإنه وجه حسن ، فطاح الاعتراض على الزمخشري والزجاج ، والتفصيل المذكور في قوله : " إلا إذا كان الجزاء هو النكال " ، ثم ظفرت بعد ذلك بأنه يجوز في المفعول له ﴿أن يكفروا بمآ أنزل الله بغيا﴾ [البقرة : ٩٠] أن يكون " بغيا " مفعولا له ، ثم ذكروا في قوله : ﴿أن ينزل الله﴾ [البقرة : ٩٠] أنه مفعول له ناصبه " بغيا " ، فهو علة له ، صرحوا بذلك فظهر ما قلت ولله الحمد.
و " بما " متعلق بـ " جزاء " ، و " ما " يجوز أن تكون مصدرية ، أي : بكسبهما ، وأن تكون بمعنى " الذي " ، والعائد محذوف لاستكمال الشروط أي : بالذي كسباه ، والباء سببية.
فصل قال بعض الأصوليين : هذه الآية مجملة من وجوه : أحدها : أن الحكم معلق على السرقة ، ومطلق السرقة غير موجب القطع ، بل لا بد
٣٢٥
". (١)

١٩٨-"قوله تعالى : ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ الآية.
لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور منها : أنه حي لا يموت ، وأنه عالم بجميع المعلومات بقوله ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ [الفرقان : ٥٨] ومنها أنه قادر على كل الممكنات ، وهو قوله : ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ وهذا متصل بقوله : ﴿الحي الذي لا يموت﴾ [الفرقان : ٥٨] لأنه سبحانه لما كان خالقا للسموات والأرض ولكل ما بينهما ثبت أنه القادر على جميع المنافع ودفع المضار ، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه.
و " الذي خلق " يجوز أن يكون مبتدأ ، و " الرحمن " خبره ، وأن يكون خبر مبتدأ مقدر ، أي : هو الذي
٥٥٤
خلق ، وأن يكون منصوبا بفعل مضمر ، وأن يكون صفة للحي الذي لا يموت ، أو بدلا ، أو بيانا هذا على قراءة "

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/١٧٦٣

الرحمن " بالرفع ومن قرأه بالجر فيتعين أن يكون " الذي خلق " صفة للحي فقط.

قوله : ﴿في ستة أيام﴾ فيه سؤال ، وهو أن الأيام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقيل السموات لا أيام ، فكيف قال : خلقها في ستة أيام ؟ والجواب : في مدة مقدارها (هذه المدة) ، لا يقال : الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان ، لأنا نقول : هذا معارض بنفس الزمان ، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل بخمسة أيام والمدة المتوهمة المحتملة لخمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى ، فلما لم يلزم من هذا قدم الزمان لم يلزم ما قلتموه ، وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام.

وقيل : في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة.

وهو بعيد ، لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.

فإن قيل : لم قدر الخلق والإيجاد بهذا المقدار ؟ فالجواب على قول أهل السنة المشيئة والقدرة كافية للتخصيص ، وقالت المعتزلة : لا بد وأن يكون من حكمة وهو أن التخصيص بهذا المقدار أصلح ، وهذا بعيد لوجهين : الأول : أن حصول تلك الحكمة إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا ، فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة فلا يصلح أن يكون سببا لزمان معين ، وإن كان جائزا افتقر حصول تلك **الحكمة في ذلك** الوقت إلى مخصص آخر ، ولزم التسلسل.

والثاني : أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.

ooo

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة ، فإنه بحر لا ساحل له ، كتقدير ملائكة النار بتسعة عشر ، وحملة العرش بثمانية ، والسموات بالسبع ، وعدد الصلوات ، ومقادير النصب في الزكوات ، وكذا في الحدود ، والكفارات ، فالإقرار بكل ما قال الله حق هو الدين ، والواجب ترك البحث عن هذه الأشياء ، وقد نص الله على ذلك في قوله تعالى : ﴿وما جعلنآ أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا اا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذآ أراد الله بهاذا مثلا﴾ [المدثر : ٣١] ثم قال : ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر : ٣١] ، وهو الجواب أيضا في أنه لم لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك.

وعن سعيد بن جبير : إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت.

وقيل : ثم خلقها في يوم الجمعة فجعله الله عيدا للمسلمين.

قوله : ﴿ثم استوى على العرش﴾ لا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة ؛ لأن أوصاف الله لم تزل ، فلا يصح دخول " ثم " فيه.

ولا على الاستقرار ، لأنه يقتضي التغيير الذي هو دليل الحدوث ، ويقتضي التركيب ، وكل ذلك على الله محال ، بل المراد أنه خلق العرش ورفعه.

فإن قيل : يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى : ﴿وكان عرشه على المآء﴾ [هود : ٧].

فالجواب : كلمة " ثم " ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات.

قوله : " الرحمن " قرأ العامة بالرفع ، وفيه أوجه : أحدها : أنه خبر " الذي " ، أو خبر مبتدأ مضمر ، أي : الرحمن ، ولهذا أجاز الزجاج وغيره الوقف على العرش ثم يبدأ الرحمن ، أي : هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له ، أو يكون بدلا من الضمير في " استوى " أو يكون مبتدأ وخبره

٥٥٦

الجملة من قوله " فاسأل " على رأي الأخفش كقوله :

". (١)

١٩٩-"السدي ، ابن زيد هذا (في) المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر.

واعلم أنه قال : " فتنة الناس " ولم يقل : " عذاب الناس " ؛ لأن فعل العبد ابتلاه من الله ، والفتنة تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فبين منزلته ، كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا ، وهذا إشارة (إلى) أن الصبر على البلية الصادرة (من الإنسان) كالصبر (على العبادات) فإن قيل : هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه - احترازا عن العذيب العاجل - يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله.

فالجواب : ليس كذلك لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في بطنه الإيمان.

قوله : ﴿ولئن جآء نصر من ربك﴾ أي فتح ودولة للمؤمنين " ليقولن " يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين ﴿إنا كنا معكم﴾ على عدوكم ، وقال : ﴿ولئن جآء نصر من ربك﴾ ولم يقل : " ولئن جاءكم " " ولئن جاءك " والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون إنا معكم ، وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين : " إنا معكم " إذا جاء النصر لا يجيء إلا للمؤمنين كما قال تعالى : ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم : ٤٧] ، ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر ، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة ، بدليل أن أحد الجيشين إذا انهزم في الحال ثم ذكر المهزوم كرة أخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم النصر إلا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين ، اولنصر لهم في الحقيقة.

فإن قيل : ﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ ولم يقل : " من الله " من أن ما تقدم كله يذكر الله كقوله : ﴿أوذي في الله﴾ ، وقوله : "كعذاب الله " فما **الحكمة في ذلك** ؟ فالجواب : لأن - " الرب " - اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، و

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل. ص/٣٩٠٠

" الله " اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر الاسم الدال على الرحمة والشفقة ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

قوله : " ليقولن " العامة على ضم اللام ، أسند الفعل

٣٢١

لضمير جماعة ، حملا على معنى " من " بعد أن حمل على لفظها ، ونقل أبو معاذ النحوي أنه قراىء : ليقولن بالفتح ، جريا على مراعاة لفظها أيضا ، وقراءة العامة أحسن لقوله : " إنا كنا ".

فصل المعنى : إن المنافقين لما قالوا إنا كنا معكم ، أي على عدوكم وكنا مسلمين ، وإنما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا فكبهم (الله) وقال : ﴿أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ من الإيمان والنفاق ولما بين أنه علم بما في قلوب العالمين بين أنه يعلم المؤمن المحق وإن لم يتكلم ، والمنافق وإن لم يتكلم فقال : ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا﴾ صدقوا فثبتوا على الإسلام عند البلاء ، " وليعلمن المنافقين " بترك الإسلام عند البلاء ، وتقدم الكلام على (نظر) ذلك.

(قال عكرمة) عن ابن عباس إنها نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم إلى " بدر " ، وهم الذين نزلت فيهم : ﴿إن الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ ، وقال مجاهد : نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الناس ، أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا ، وقال قتادة : نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة.

جزء : ١٥ رقم الصفحة : ٣٢٠

". (١)

٢٠٠-"وجرحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد ، والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله من أعلمه الله به وإذا علم هذا العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جاريحة ، وكل واحد منها قسمان : قمس عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم.

أما القلبية مع أنها عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي هو أرق من الشعر وأحد من السيف ، ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطبف ، والميزان الذي تزن به الأعمال الذي لا ثقل بها في نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم (و) مقطوع به بالمسع ومنها ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات **والحكمة في ذلك** أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعمل ما فيه من الفائدة لا يكون الإتيان إلا لمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي بها لفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده : انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في لانقل فنقها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزا هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر وإذا علم ها فكذلك في العبادات السانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٠٣٤

فإذا قال : حم ، يس ، طس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به.
فصل قال ابن عباس : يس قسم ، ووري عنه أن معناه يا إنسان بلغة طيئ.
قيل : لأن تصغير إنسان أنيسين كما تقدم عن الزمخشري فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال : ياسين أي أنيسين.
قال أكثر المفسرين عين محمدا – صلى الله عليه وسلم – قال الحسن وسعيد بن جبير وجماعة.
وقال أبو (العالية : يا رجل.
وقال أبو بكر الوراق : يا سيد البشر وقوله : ﴿والقرآن
١٦٦
الحكيم﴾ أي ذي) الحكمة ك ﴿في عيشة راضية﴾ [الحاقة : ٢١] أي ذات رضا ، أو أنه ناطق بالحكمة وهو كالحي المتكلم.
قوله : ﴿إنك﴾ و ﴿على صراط﴾ يجوز أن يكون متعلقا ب " المرسلين " يقول : أرسلت عليه ، كما قال تعالى : ﴿وأرسل عليهم طيرا﴾ [الفيل : ٣] وأن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من الضمير المستكن في " لمن المرسلين " لوقوعه خبرا وأن يكون حالا من " المرسلين " وأن يكون خبرا ثانيا ل " إنك ".
فصل أقسم بالقرآن على أن محمدا من المرسلين.
وهو رد على الكفار ، حيث قولوا : (لست مرسلا).
فإن قيل : المطلب ثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة بالإقسام ؟ !.
فالجواب من وجوه : الأول : إن العرب كانوا يتقون الإيمان الفادرة وكانوا يقولون بأن الأيمان الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبي – عليه الصلاة والسلام – ذلك بقوله : " اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع " ثم إنهم كانوا يقولون : إن النبي عليه – (الصلاة و(السلام – يصيبه عذاب آلهتهم ، وهي الكواكب والنبي عليه (الصلاة و) السلام يحلق بأمر الله وإنزال كلامه عليه بأشياء مختلفة ، وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا ، فكان ذلك يوجب اعتقاد أنه ليس بكاذب.
الثاني : أن المتناظر (ين) إذا وقع بينهما كلام ، وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المغلوب : إنك قدرت هذا بقوة جدالك ، وأنت خبير في نفسك بضعف مقالتك ، وتعلم أن الأمر ليس كما تقول وإن أقمت عليه الدليل صورة ، وعجزت
١٦٧
". (١)

٢٠١–"وقال تعالى : ﴿ومآ آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ومآ آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولائك هم المضعفون﴾ [الروم : ٣٩] ، ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى ، إذا عرفت ذلك فنقول :

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٤٢١٨

القوم لما قالوا : " إنما نطعمكم لوجه الله " بقي فيه احتمال ، أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك ، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله تعالى : ﴿لا نريد منكم جزآء ولا شكورا﴾.

فصل في الشكر والكفور الشكور والكفور : مصدران كـ " الشكر والكفر " وهو على وزمن " الدخول والخروج " هذا قول جمهور أهل اللغة.

وقال الأخفش : إن شئت جعلت الشكور ، جماعة الشكر ، وجعلت الكفور في قوله تعالى : ﴿فأبى الظالمون إلا كفورا﴾ مثل " برد وبرود " وإن شئت جعلته مصدرا واحدا في معنى جمع مثل : قعد قعودا ، وخرج خروجا.

قوله : ﴿إنا نخاف من ربنا﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لإرادة مكافأتهم.

والثاني : لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى علل المكافأة بخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة.

فإن قيل : إنه - تعالى - لما حكى عنهم الإيفاء بالنذر ، علل ذلك بخوف القيامة فقط ، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين : بطلب رضا الله تعالى ، وبالخوف ، فما الحكمة في ذلك ؟ .

فالجواب : أن النذر هو الذي أوجبه على نفسه لأجل الله ، فلما كان كذلك ، لا جرم علله بخوف القيامة فقط ، وإما الإطعام فالله - تعالى - هو الذي شرعه ، فلا جرم ضم إليه خوف القيامة.

قوله : " يوما عبوسا قمطريرا ".

القمطرير : الشديد ، وأصله كما قال الزجاج : " مشتق من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها ، وجمعت قطريها وزمت بأنفها ".

قال الزمخشري : اشتقاقه من القطر ، وجعلت الميم زائدة ؛ قال أسد بن ناعصة : [الخفيف] ٥٠٣٥ - واصطليت الحروب في كل يوم

باسل الشر قمطرير الصباح

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ١٣

٢٥

قال أبو حيان : واختلف النحاة في هذا الوزن ، والأكثر على أنه لا يثبت " افمعل " في أوزان الأفعال ويقال : اقمطر يقمطر فهو مقمطر ؛ قال الشاعر : [الرجز] ٥٠٣٦ - قد جعلت شبوة تزبئر

تكسو لحما وتقمطر

ويوم قمطرير وقماطر : بكعنى شديد ؛ قال الشاعر : [الطويل] ٥٠٣٧ - ففروا إذا ما الحرب ثار غبارها

ولج بها اليوم العبوس القماطر

وقال الزجاج : القمطرير : الذي يعبس حتى يجتمع ما بين عينيه.

انتهى.

فعلى هذا استعماله في اليوم مجاز ، وفي بعض كلام الزمخشري ، أنه جعله من " القمط " فعلى هذا تكن الراءان فيه

مزيدتين.

وقال القرطبي : " القمطرير : الطويل " ؛ قال الشاعر :

٥٠٣٨ – شديدا عبوسا قمطريرا

تقول العرب : يوم قمطرير ، وقماطر ، وعصيب بمعنى ؛ وأنشد الفراء : [الطويل] ٥٠٣٩ – بني عمنا هل تذكرون بلاءنا

عليكم إذا ما كان يوم قماطر

بضم القاف ، واقمطر : إذا اشتد ، وقال الأخفش : القمطرير : أشد ما يكن من الأيام وأطوله في البلاء ؛ وأنشد : [الطويل]

٥٠٤٠ – ففروا إذا ما الحرب

البيت المتقدم.

وقال الكسائي : يقال : اقمطر اليوم وازمهر اقمطرارا وازمهرارا ، وهو القمطرير والزمهرير ، ويوم مقمطر ، إذا كاتن صعبا شديدا ؛ قال الهذلي : [الطويل] ٥٠٤١ – بنو الحرب ارضعنا لهم مقمطرة

ومن يلق منا ذلك اليوم يهرب

٢٦

". (١)

٢٠٢–"فلما فصل طالوت أى خرج والفصل في الأصل القطع وهو فعل متعد يعنى فصل نفسه عن بلده فلما كثر استعماله حذف مفعوله فصار كاللازم بمعنى انفصل عن بلده شاخصا إلى العدو بالجنود هو في موضع الحال من فاعل فصل أى مختلطا بالجنود وذلك انهم لما راوا التابوت واستيقنوا النصر تسارعوا إلى الجهاد كلهم فقال طالوت لا يخرج معى إلا شاب نشيط فارغ فخرج على هذا سبعون الفا على قول مقاتل وقيل ثمانون الفا وكانوا فى حر شديد فسالوا ان يجرى الله لهم نهرا قال طالوت اما بوحي الله ان كان نبيا واما بإرشاد نبيهم إن الله مبتليكم بنهر قال ابن عباس والسدى هو نهر فلسطين وقال قتادة نهر بين الأردن وفلسطين – والابتلاء الاختبار – يعنى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر المطيع من العاصي فمن شرب منه فليس مني أى من اتباعى أو ليس بمتحد معى ومن لم يطعمه أى لم يذقه من طعم لشىء إذا اذاقه ماكولا أو مشروبا فإنه مني قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالإسكان إلا من اغترف غرفة بيده استثناء من قوله فمن شرب وانما قدمت الجملة الثانية للعناية بها والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير – ولعل **الحكمة في ذلك** ان شرب الماء الكثير في شدة الحر والعطش يضربا لناس يهلك أو يضعف عن القتال – ويحتمل ان يكون ذلك التحريم عقابا لهم لما اقترحوا بجريان النهر – قرأ أهل الحجاز والبصرة غرفة بفتح الغين والباقون بالضم قال الكسائي بالضم ما يحصل في الكف من الماء عند الاغتراف وبالفتح الاغتراف فهو منصوب على المفعولية أو المصدرية على اختلاف القراءتين فشربوا منه أى كرعوا فيه

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . ص/٥١٤٦

إذ المعنى الحقيقي لمن الابتدائية ان

التفسير المظهري ج ١ ، ص : ٣٥١". (١)

٢٠٣-" النحل ١٠١ – ١٠٥

مكى وأبو عمرو قالوا إنما انت مفتر هو جواب إذا وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون ان محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الاشق بالأهون والأهون بالاشق بل أكثرهم لا يعلمون **الحكمة في ذلك** قل نزله روح القدس أي جبريل عليه السلام أضيف إلى الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود والمراد الروح والمقدس وخاتم الجواد و المقدس المطهر من المآثم من ربك من عنده امره بالحق حال اي نزله ملتبسا بالحكمة ليثبت الذين آمنوا ليبلوهم بالنسخ حتى إذا قالوا فيه هو الحق من ربنا والحكمة لأنه حكيم لا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب وهدى وبشرى مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة للمسلمين وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصال لغيرهم ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر أراودا به غلاما كان لحو يطب قد أسلم وحسن اسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب أو هو جبر غلام رومى لعامر بن الحضرمى أو عبدان جبر ويسار كانا يقرآن التوراة والانجيل فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم يسمع ما يقرآن أو سلمان الفارسي لسان الذي يلحدون إليه وبفتح الياء والحاء حمزة وعلى أعجمى وهذا لسان عربي مبين أي لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمى غير بين وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة ردا لقولهم وإبطالا لطعنهم وهذه الجملة اعنى لسان الذي يلحدون إليه أعجمى لا محل لها لأنها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة ويقال الحد القبر ولحده وهو وملحود وملحوذ إذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان في قوله وألحد في دينه ومنه الملحد لانه أمال مذهبه عن الاديان كلها إن الذين لا يؤمنون بآيات الله أي القرآن لايهديهم الله ما داموا مختارين الكفر ولهم عذاب أليم في الآخرة على كفرهم إنما يفتربالكذب على الله الذين لا يؤمنون بآيات الله أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لأنه ". (٢)

٢٠٤-" الإسراء ٨٣ – ٨٦

اعرض عن ذكر الله أو أنعمنا بالقرآن أعرض ونأى بجانبه تأكيد للاعراض لأن الاعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أن يلوى عنه عطفه ويوليه ظهره أو أراد الاستكبار لأن ذلك من عادة المستكبرين نأي بالإمالة حمزة وبكسرها على وإذا مسه الشر الفقر والمرض أو نازلة من النوازل كان يؤسا شديد اليأس من روح الله قل كل أي كل أحد يعمل على شاكلته على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال فربكم اعلم بمن هو أهدى سبيلا أسد مذهبا

---

(١) تفسير المظهرى ص/٦٥٢

(٢) تفسير النسفي ٢/٢٧١

وطريقة ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى أي من أمر يعلمه ربى الجمهور على أنه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من مر الله أي مما استأثر بعلمه وعن أبي هريرة لقد مضى النبي صلى الله عليه و سلم وما يعلم الروح وقد عجزت الأوائل عن إدراك ما هيته بعد انفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه **والحكمة في ذلك** تعجيز العقل عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن ادراك خالقه اعجز ولذا رد ما قيل في حده أنه جسم دقيق هوائي في كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحانى أعظم من الملك وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو جبريل عليه السلام نزل به الروح الأمين على قلبك وعن الحسن القرآن دليله وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ولأن به حياة القلوب ومن أمر ربى أي من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر وروى أن اليهود بعثت إلى قريش أن سلوه عن اصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عن الكل أوسكت عن الكل فليس بنبي وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فبين لهم القصتين وابهم أمر الروح وهو مبهم في التوارة فندموا على سؤالهم وقيل كان السؤال عن خلق الروح يعنى أهو مخلوق أم لا وقوله من أمر ربى دليل خلق الروح فكان هذا جوابا وما أوتيتم من العلم إلا قليلا الخطاب عام فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب أم انت معنا فيه فقال بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلا وقيل هو خطاب لليهود خاصة لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه و سلم قد أوتينا التوارة وفيها الحكمة وقد تلوت ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فقيل لهم ان علم التوارة قليل في جنب علم الله فالقلة والكثرة من الأمور الإضافية فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت الى علم الله تعالى فهى قليلة ثم نبه على نعمة الوحى وعزاء بالصبر على أذى الجدال في السؤال بقوله ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ". (١)

٢٠٥-"كسائر الاخبارت بالغيوب وذا لا يخالف كون السورة مكية وقيل المراد بالمرض الشك والارتياب لأن أهل مكة كن أكثرهم شاكين ومثلا تمييز لهذا او حال منه كقوله هذه ناقة الله لكم آية ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة وان مثله حقيق بان تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمي مثلا والمعنى أي شيء اراد الله بهذا العدد العجيب واي معنى اراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين وغرضهم انكاره اصلا وانه ليس من عند الله وانه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص كذلك يضل الله من يشاء الكاف نصب وذلك اشارة إلى ما قبله من معنى الاضلال والهدى أي مثل لتصديقه ورؤية **الحكمة في ذلك** يضل الله من يشاء من عباده وهو الذي علم منه اختيار الضلال ويهدي من يشاء وهو الذي علم منه إختيار الاهداء وفيه دليل خلق الأفعال ووصف الله بالهداية والإضلال ولما قال أبو جهل لعنه الله اما لرب محمد اعوان إلا تسعة عشر نزل وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو فلا يعز عليه تتميم الخزنة عشرين ولكن له في هذا العدد الخاص حكمة لا تعلمونها وما هي متصل بوصف سقر وهي ضميرها أي وما سقر وصفتها إلا ذكر البشر أي تذكرة للبشر أو ضمير الآيات التي ذكرت فيها كلا انكار بعد ان جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون والقمر اقسم به لعظم منافعه والليل إذا أدبر نافع وحفص وحمزة ويعقوب وخلف وغيرهم أدبر ومعناهما ولى وذهب وقيل أدبر ولى ومضى ودبر

---

(١) تفسير النسفي ٢/٢٩٨

جاء بعد النهار والصبح إذا اسفر اضاء وجواب القسم إنها ان سقر لإحدى الكبر هي جمع الكبرى أي لإحدى البلايا أو الدواهي الكبر ومعنى كونها احداهن انها من بينهن واحدة في العظم لا نظيرة لها كما تقول هو احد الرجال وهي احدى النساء نذيرا تمييز من إحدى أي أنها لإحدى الدواهي انذارا كقولك وهي احدى النساء عفافا وابدل من للبشر لمن شاء منكم باعادة الجار ان يتقدم إلى الخير أو يتأخر عنه وعن الزجاج إلى ما أمرو عما نهى كل نفس بما كسبت رهينة هي ليست بتأنيث رهين في قوله كل امرئ بما كسب رهين لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصفة لقيل رهين لان فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كانه قيل كل نفس بما كسبت رهن والمعنى كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك إلا أصحاب اليمين أي أطفال المسلمين لأنهم لا أعمال لهم يرهنون بها أو إلا المسلمين فانهم فكوا رقابهم بالطاعة كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق في جنات أي ". (١)

٢٠٦-"وللعقلاء ههنا قولان : أحدهما أن إبليس حين اشتغاله بالعبادة كان منافقا كافرا ، أما عند من يمنع الإحباط فلأن ختمه لما كان على الكفر علم أنه ما كان مؤمنا قط . وأما عند غيرهم فلما حكاه الشهرستاني في أول الملل والنحل عن شارح الأناجيل الأربعة على شبه منظرة بين إبليس والملائكة بعد الأمر بالسجود قال إبليس لعنه الله : إني سلمت أن الباري تعالى إلهي وإله الخلق عالم قادر حكيم ، إلا أن لي على مساق حكمه أسئلة؛ الأول : إنه قد علم قبل خلقي أي شيء يصدر عني فلم خلقني؟ وما الحكمة في خلقه إياي؟ الثاني : إذ خلقني على مقتضى إرادته ومشيئته ، فلم كلفني بمعرفته وطاعته؟ وما الحكمة في التكليف مع أنه لا ينتفع بطاعة ولا يتضرر بمعصية ، وكل ما يعود إلى المكلفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف؟ الثالث : إذ خلقني وكلفني فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة فأطعت وعرفت ، فلم كلفني بطاعة آدم والسجود له؟ وما الحكمة في هذا التكليف على الخصوص بعد أن لا يزيد ذلك في معرفتي وطاعتي؟ والرابع : إذ خلقني وكلفني بهذا التكليف على الخصوص فإذا لم أسجد ، فلم لعنني وأخرجني من الجنة وأوجب عقابي مع أنه لا فائدة له في ذلك ولي فيه أعظم الضرر؟ والخامس : ثم لما فعل ذلك فلم مكنني من الدخول إلى الجنة ومن وسوسة آدم بعد أن لو منعني من دخول الجنة استراح مني آدم وبقي خالدا في الجنة؟ والسادس : إذ خلقني وكلفني عموما وخصوصا ولعنني ثم طرقني إلى الجنة ، وكانت الخصومة بيني وبين آدم ، فلم سلطني على أولاده حتى أراهم من حيث لا يرونني ويؤثر فيهم وسوستي ولا يؤثر في حولهم وقوتهم؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة وأبقاهم على ذلك فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين كان أحرى بالحكمة؟ والسابع : سلمت هذا كله ، فلم إن استمهلته أمهلني ، وما الحكمة في ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال استراح الخلق مني وما بقي شر في العالم؟ ليس بقاء العالم على نظام الخير خيرا من امتزاجه بالشر؟

فقال شارح الإنجيل : فأوحى الله تعالى إلى الملائكة قولوا له : أما تسليمك الأول أني الهك وإله الخلق فغير صادق ولا مخلص ، إذ لو صدقت أني إله العالمين ما احتكمت علي وأنا الله الذي لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل والخلق مسؤولون

---

(١) تفسير النسفي ٤/٢٩٧

هذا مذكور في التوراة ومسطور في الإنجيل ، وهذه الشبهات بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور وليس يعدوها عقائد فرق الزيغ والكفر وإن اختلفت العبارات وتباينت الطرق ، ويرجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالخلق ، وإلى الجنوح إلى الهوى في مقابلة النص ، ولا جواب عنها بالتحقيق إلا الذي ذكره الله تعالى .". (١)

٢٠٧-"وفي الحديث « ولا يقبل منه صرف ولا عدل » أي توبة ، لأنها تصرف من الحال الذميمة إلى الحال الحميدة ولا فداء . والضمير في ﴿ ولا يقبل منها ﴾ يرجع إلى النفس الثانية العاصية غير المجزي عنها وهي التي لا يؤخذ منها عدل . ومعنى لا تقبل منها شفاعة أنها إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزي عنها شيئا ولو أعطت عدلا منها لم يؤخذ منها ولا هم ينصرون ، الضمير عائد إلى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة ، والتذكير بمعنى العباد أو الأناسي مثل ثلاثة أنفس . وفي وصف اليوم بهذه الصفات تهويل عظيم تنبيه على أن الخطب شديد ، لأنه إذا وقع أحد في كريهة وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه ، بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية ، فتحمل عنه ما يلزمه وتذب عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته ونهاية بطشه . فإن رأى من لا طاقة له بممانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة وبذل المال والمنال ، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن هذه الأمور تعلل بما أمكنه من نصر الإخوان ومدد الأخدان ، فأخبر الله تعالى أن شيئا من هذه لا يدفع يومئذ عن عذابه . وفي هذا تحذير من المعاصي وترغيب في تلافي ما فات بالتوبة ، لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية ، علم أنه لا ينفعه إلا الطاعة وتلافي البوادر . فالآية وإن كانت في بني إسرائيل إلا أنها تعم كل من يحضر ذلك اليوم . فإن قيل : قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الدية ، وفي موضع آخر من هذه السورة عكست القضية ، فما **الحكمة في ذلك؟** قلنا : من الناس من ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فيتمسك أولا بالشفيع ثم يستروح إلى بذل المال ، ومنهم من على العكس فيقدم الفدية على الشفاعة ، فتغيير الترتيب إشارة إلى الصنفين والله أعلم .

واعلم أن الشفاعة هي أن يستوهب أحد لأحد شيئا ويطلب له حاجة من الشفع ضد الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فردا فصار بالشفيع شفعا . ثم إن الأمة أجمعت على أن لمحمد A رتبة الشفاعة في الآخرة ، وعليه يحمل قوله تعالى ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ [الإسراء : ٧٩] ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : ٥] . وأجمعوا على أنه لا شفاعة للكفار . بقي الخلاف فيمن عداهم . فأهل السنة أثبتوا الشفاعة لغير الكفار ، والمعتزلة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب بقي خالدا في النار ولا شفاعة له وسائر الناس لهم الشفاعة . قالوا : إن هذه الآية تدل على نفي الشفاعة مطلقا ، والآيات والأحاديث الدالة على وجود الشفاعة كثيرة ، فعرفنا أن الآية ليست على عمومها ، لكن الآيات الواردة

---

(١) تفسير النيسابوري ١/١٨٧

في وعيد صاحب الكبيرة كثيرة كقوله تعالى". (١)

٢٠٨-"[النساء : ٤١] قلت : **والحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد A في الفضل عن سائر الأمم حيث يبادرون إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء والإيمان بهم جميعا ، فهم بالنسبة إلى غيرهم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق ، ولذلك تقبل شهادتهم على الأمم ، ولا تقبل شهادة الأمم عليهم . وإنما سمي هذا الإخبار شهادة لقوله A « إذا علمت مثل الشمس فاشهد » والشيء الذي أخبر الله تعالى عنه معلوم مثل الشمس فتصح الشهادة عليه ، وإما بأن يشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها . قال ابن زيد : الأشهاد أربعة : الملائكة الحفظة ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : ٢١] والنبيون ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيد ﴾ وأمة محمد A خاصة ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر : ٥١] والجوارح ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم وأرجلهم ﴾ [النور : ٢٤] . وقيل : إن هذه الشهادة في الدنيا ، وذلك أن الشاهد في عرف الشرع من يخبر عن حقوق الناس بألفاظ مخصوصة على جهات مخصوصة ، فكل من عرف حال شخص فله أن يشهد عليه فإن الشهادة خبر قاطع ، وشهادة الأمة لا يجوز أن تكون موقوفة على الآخرة لأن عدالتهم في الدنيا ثابتة بدليل ﴿ جعلناكم ﴾ بلفظ الماضي ، فلا أقل من حصولها في الحال . ثم رتب كونهم شهداء على عدالتهم ، فيجب أن يكونوا شهداء في الدنيا . وإن قيل : لعل التحمل في الدنيا ولكن الأداء في الآخرة . قلنا : المراد في الآية الأداء لأن العدالة إنما تعتبر في الأداء لا في التحمل ، ومن هنا يعلم أن إجماعهم حجة لا بمعنى أن كل واحد منهم محق في نفسه ، بل بمعنى أن هيئتهم الاجتماعية تقتضي كونهم محقين ، وهذا من خواص هذه الأمة ، ثم لا يبعد أن يحصل مع ذلك لهم الشهادة في الآخرة فيجري الواقع منهم في الدنيا مجرى التحمل لأنهم إذا بينوا الحق عرفوا عنده من القابل ومن الراد ، ثم يشهدون بذلك يوم القيامة كما أن الشاهد عللعقود يعرف ما الذي تم وما الذي لم يتم ثم يشهد بذلك عند الحاكم ، أو يكون المعنى لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول الأخيار ، ويكون الرسول عليكم شهيدا يزكيكم ويعلم بعدالتكم . وإنما قدمت صلة الشهادة في الثاني لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم فقط ، فبقيت صلة الشهادة في مركزها . والغرض في الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم فأزيلت عن مركزها ليفيد الاختصاص . وإنما لم يقل لكم شهيدا مع أن شهادته لهم لا عليهم ، لأنه ضمن معنى الرقيب مثل ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ [المجادلة : ٦] مع رعاية الطباق للأول . وإنما قيل « شهداء على الناس في الدنيا » لأن قولهم يقتضي التكليف إما بفعل أو بقول وذلك عليهم لا لهم في الحال .". (٢)

٢٠٩-"ومنها أنهم خرجوا غير قاصدين للحرب فلم يتأهبوا . ومنها أن ذلك ابتداء غارة في الحرب لأنها من أول غزوات رسول الله A ، وكان قد حصل في المشركين أضداد هذه المعاني . كانوا تسعمائة وخمسين رجلا وفيهم أبو سفيان

---

(١) تفسير النيسابوري ١/٢١٤

(٢) تفسير النيسابوري ١/٣٥٤

وأبو جهل ، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير ، وأهل الخيل كلهم دارعون ، وكان معهم دروع سوى ذلك ، وكانوا قد مرنوا على الحرب والغارات . وإذا كان كذلك كانت غلبة المسلمين خارقة للعادة فكانت معجزة . وثانيها أنه A كان قد أخبر عن ذلك بإخبار الله في قوله تعالى ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين ﴾ [الأنفال : ٧] يعني جمع قريش أو عير أبي سفيان . وكان أخبر قبل الحرب بأن هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان والإخبار عن الغيب معجز . وثالثها إمداد الملائكة كما سيجيء في هذه السورة . ورابعها قوله ﴿ يرونهم مثليهم ﴾ وفيه أربعة احتمالات لأن الضمير في « يرون » إما أن يعود إلى الفئة الكافرة أو إلى الفئة المسلمة ، وعلى كلا التقديرين يجوز عود الضمير في ﴿ مثليهم ﴾ إلى كل منهما فهذه أربعة : الأول أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين . الثاني أنها رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين ، ودليل هذا الاحتمال قراءة من قرأ ﴿ ترونهم ﴾ بتاء الخطاب أي ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلي أنفسهم . ودليل الاحتمالين جميعا أن عود الضمير في « يرون » إلى الأقرب وهو الفئة الكافرة أولى ، ولأنه سبحانه جعل هذه الحالة آية للكفار حيث خاطبهم بقوله ﴿ قد كان لكم آية ﴾ فوجب أن يكون الراؤون هم الكفار حتى تكون حجة عليهم ، ولو كانت الآية مما شاهدها المؤمنون لم يصلح جعلها حجة على الكفرة . **والحكمة في ذلك** أن يهابهم المشركون ويجبنوا عن قتالهم وهذا لا يناقض قوله في سورة الأنفال ﴿ ويقللكم في أعينهم ﴾ [الآية : ٤٤] لاختلاف الوقتين فكأنهم قللوا أولا في أعينهم حتى اجترؤا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا . على أن تقليلهم تارة في أعينهم وتكثيرهم أخرى أبلغ في القدرة وإظهار الآية . الاحتمال الثالث أن الرائين هم المسلمون والمرئيين هم المشركون . فالمسلمون رأوا المشركين مثلي المسلمين والسبب فيه ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ [الأنفال : ٦٥] والكافرون كانوا قريبا من ثلاثة أمثالهم ، فلو رأوهم كما هم لجبنوا وضعفوا . الاحتمال الرابع أن يكون الراؤون هم المسلمين ، ثم إنهم رأوا المشركين على الضعف من عدد المشركين وهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصرة الكفار وإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين ، والآية تنافي ذلك .". (١)

٢١٠-"قالوا : **والحكمة في ذلك** أن يعرف أهل الموقف كل صنف فيعظمونهم أو يصغرون بحسب ذلك ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور . وأيضا إذا عرف المكلف في الدنيا أنه يحصل له في الآخرة إحدى الحالتين ازدادت رغبته في الطاعات وترك المحرمات . قلت : والتحقيق فيه أن والهيئات والأخلاق الحميدة أنوار ، والملكات والعادات الذميمة ظلمات ، وكل منهما لا يظهر آثارهما كما هي إلا بعد المفارقة إلى الآخرة ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ [الحديد : ١٣] واحتج أهل السنة بالآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر وإنه ليس ههنا منزلة بين المنزلتين ، لأنه قسم أهل القيامة إلى قسمين : مبيض الوجوه وهم المؤمنون ، ومسودها وهم الكافرون لقوله تعالى في آخر الآية ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ واعترض القاضي عليه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه ، وأيضا لفظ وجوه نكرة فلا يفيد العموم . وأيضا المذكور في الآية هم المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ، ولا شبهة أن

---

(١) تفسير النيسابوري ٢/٢١٩

الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين فكذا القول في الفساق . والواب لم لا يجوز أن يكون لامراد أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم ، فيكون الخطاب لجميع الكفار؟ وأنه أيضا جعل موجب العذاب في آخر الآية هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث إنه بعد الإيمان . فإن قيل : لم قدم البياض على السواد أولا وعكس آخرا؟ فالجواب بعد تسليم إفادة الواو الترتيب ، أنه بدأ بذكر أهل الثواب وختم بها أيضا تنبيها على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال : « سبقت رحمتي غضبي » ولما في ذلك من رعاية حسن المطلع والمقطع وأنه فن بديع في الفصاحة . ومن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟ قال أبي بن كعب : هم جميع الكفار لأنهم آمنوا وقت الميثاق ، ورواه الواحدي في البسيط بإسناده عن النبي A . وقيل : المراد أكفرتم بعدما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو ما نصبه الله من دلائل التوحيد والنبوة؟ وقال عكرمة والأصم والزجاج : إنهم أهل الكتاب آمنوا قبل مبعث النبي A وكفروا به بعد بعثه . وقال قتادة : إنهم المرتدون . وقال الحسن : هم المنافقون . وقيل : هم الخوارج الذين قال فيهم رسول الله A : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » ولما رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على درج مسجد دمشق دمعت عيناه ثم قال : كلاب النار هؤلاء شر قتلى تحت أديم السماء ، وخير قتلى تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء . فقال له أبو غالب : أشيء تقوله برأيك أم شيء سمعته من رسول الله A ؟ قال : بل سمعته من رسول الله A ، ولو لم أسمعه ، إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا حتى عد سبعا ما حدثتكموه .". (١)

٢١١-"﴿ ولو أراكهم كثيرا ﴾ على ما هم عليه ﴿ لفشلتم ﴾ والفشل الجبن والخور . ﴿ ولتنازعتم في الأمر ﴾ أمر الحرب والإقدام ﴿ ولكن الله سلم ﴾ عصم من الفشل والتنازع ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ يعلم ما سيحدث فيها من مواجب الإقدام والإحجام ﴿ وإذ يريكموهم ﴾ يبصركم إياهم ﴿ إذ التقيتم في أعينكم قليلا ﴾ نصب على الحال لأن الرؤية رؤية العين لا القلب وقد استوفت الإراءة مفعولية فلن يتعدى إلى ثالث ﴿ ويقللكم في أعينهم ﴾ الحكمة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة مع أن في ذلك تصديقا لرؤيا النبي ، وأما تقليل المؤمنين في أعين الكفار **فالحكمة في ذلك** أن يجترىء الكفار عليهم قلة مبالاة بهم وأن يستعدوا لهم كما ينبغي ﴿ ليقضي الله أمرا كان مفعولا ﴾ فعل ما فعل من التقليل ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ فيه أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها . وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا للمعاد . ثم علم المؤمنين آداب اللقاء في الحروب فقال ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ لقتالهم ولا تفروا واللقاء اسم غلب في القتال فلهذا ترك وصف الفئة بالمحاربين ونحو ذلك ، والأمر بالثبات في القتال لا ينافي الرخصة في التحرف والتحيز فلعل الثبات في الحرب لا يحصل إلا بهما . ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ في مواطن الحرب ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ تظفرون بمرادكم من النصر والمثوبة . وفيه إشعار بأن العبد لا يجوز له أن يفتر عن ذكر ربه في أي شغل وعمل كان ، ولو أن رجلا أقبل من المغرب إلى المشرق منفقا أمواله لله ، والآخر من المشرق إلى المغرب ضاربا بسيفه في سبيل الله كان الذاكر لله أعظم أجرا . وقيل : المراد من هذا الذكر أن يدعو على العدو : اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم ونحو ذلك والأولى حمله على العموم ﴿ وأطيعوا الله

---

(١) تفسير النيسابوري ٢/٣٢٧

ورسوله ﴾ في سائر ما يأمر به لأن الجهاد لا ينفع إلى مع التمسك بسائر الطاعات ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾ منصوب بإضمار « أن » أو مجزوم لدخوله في حكم النهي ويظهر التقدير « أن » في قوله ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ على القراءتين . والريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها وتمشيته على وفق المشيئة بالريح وهبوبها . يقال : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره . وقيل : الريح حقيقة ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله . وفي الحديث : « نصرت بالصبا » حذرهم التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد بمخالفتهم رسول الله . احتج نفاة القياس بالآية لأن القول به يفضي غالبا إلى النزاع المنهى عنه . وكذا القائلون : بأن النص لا يجوز تخصيصه بالقياس .

قال أهل السير : إن أهل مكة حين نفروا لحماية العير أتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فأبى أبو جهل وقال : حتى نقدم بدرا نشرب بها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب .". (١)

٢١٢-"والباء في قوله : ﴿ بإمامهم ﴾ للإلصاق كما تقول أدعوك باسمك . عن أبي هريرة مرفوعا أنه ينادى يوم القيامة يا أمة إبراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد ، فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ، ثم ينادى يا أتباع فرعون وفلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر . ويجوز أن يتعلق الباء بمحذوف وهو الحال والتقدير : تدعو كل أناس متلبسين بإمامهم أي يدعون وإمامهم في نحو « ركب بجنوده » . وروى الضحاك وابن زيد أنه ينادى في القيامة يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل . وقال الحسن : يدعون بكتابهم الذي فيه أعمالهم فيقال : يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر . وهو قول الربيع وأبي العالية أيضا . قال صاحب الكشاف : ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع « أن » وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم . **والحكمة في ذلك** في رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين عليهما السلام وأن لا يفتضح أولاد الزنا . ثم قال : وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته؟ وقال في التفسير الكبير : كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعفة والشجاعة والعلم ، أوقبيح كأضدادها فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن كالإمام له وكالمنبع والمنشأ ، ويوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق ﴿ فمن أوتى ﴾ هو في معنى الجمع ولذلك قيل في جزائه ﴿ فأولئك يقرؤن ﴾ وخص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم لأن قراءة أصحاب الشمال كلا قراءة لما يعرض لهم فيه من الحياء والخجل والتتعتع ﴿ ومن كان في هذه ﴾ الدنيا ﴿ أعمى ﴾ لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب . وأما قوله : ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ [طه : ٢٥] وفي هذا زيادة العقوبة . ويحتمل أن يراد عمى القلب . قال ابن عباس : المراد ومن كان أعمى في هذه النعم التي عددها من قوله : ﴿ ربكم الذي يزجى ﴾ إلى قوله : ﴿ تفضيلا ﴾ فهو في الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى بالطريق الأولى ، لأن الضلال عن معرفة أحوال الآخرة أقرب وقوعا ، فعلى هذا يكون الأعمى في الموضعين في الدنيا ، ومثله ما روى أبو روق عن الضحاك . من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرته في خلق السماء والأرض والبحار والجبال والناس والدواب ، فهو

---

(١) تفسير النيسابوري ٤/٨٧

عن أمر الآخرة وتحصيل العلم به أعمى . قال المفسرون : لا يبعد أن يكون أعمى على هذا التفسير « أفعل » التفضيل ودليله قراءة أبي عمر وبإمالة الأول وتفخيم الثاني ، لأن الأول ألفه واقعة في الطرف فكانت عرضة للإمالة ومظنة لها بخلاف الثاني فإن تمامه بمن فكانت ألفه في حكم وسط الكلمة .". (١)

٢١٣-"واعلم أن مس الضر ههنا مطلق إلا أنه ورد في « ص » مقيدا وذلك قوله ﴿ أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ﴾ [ص : ٤١] فصح أن يكون سندا لهذه الروايات إلا أن الجبائي طعن فيها بأن الشيطان كيف يقدر على إحداث الأمراض والاسقام والقادر على ذلك قادر على خلق الأجسام وحينئذ يكون إلها . وأيضا إن هذه التأثيرات تنافي قوله سبحانه حكاية عنه ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم ﴾ [إبراهيم : ٢٢] والجواب أنه كان بإذن من الله كما حكينا فلا محذور ولا تنافي . وقال ومن البعيد أنه لم يسأل الله إلا عند أمور مخصوصة والجواب أن الأمور مرهونة بأوقاتها . وقال انتهاء أمراض الأنبياء إلى حد التنفير من القبول غير جائز . والجواب المنع ولا سيما بشرط العافية في العاقبة . قوله سبحانه ﴿ فكشفنا ما به من ضر ﴾ مجمل يقتضي إعادته إلى ما كان في بدنه وأحواله . وقوله : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ تفصيل لذلك المجمل وفيه قولان : الأول قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومقاتل والكلبي : إن الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم . والثاني قال الليث : ارسل مجاهد إلى عكرمة وسئل عن الآية فقال : أراد أهلك لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا . فقد روي أن زوجته ولدت بعد ذلك ستة وعشرين ابنا له . ثم بين **الحكمة في ذلك** الابتلاء ثم الاستجابة بقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ لأيوب ﴿ وذكرى ﴾ لغيره من العابدين للرحمن أو الرحمة والذكرى كلاهما ﴿ للعابدين ﴾ لكي يتفكروا فيصبروا كما صبر حتى يثابوا في الدارين كما أثيب . وإنما خص الرحمة والتذكرة بالعابدين لأنهم هم المنتفعون بذلك لا الذين يعبدون الهوى والشيطان . قال أهل البرهان : إنما قال في هذه السورة ﴿ رحمة من عندنا ﴾ وقال في « ص » ﴿ رحمة منا ﴾ [ص : ٤٣] لأنه بالغ ههنا في الدعاء بزيادة قوله : ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ فبالغ في الاستجابة لأن لفظ « عند » يدل على مزيد التخصيص وأنه سبحانه تولى ذلك من غير واسطة .

وحين ذكر صبر أيوب وانقطاعه إليه ذكر غيره من الأنبياء المشهورين بالصبر منهم إسماعيل عليه السلام ، صبر على الانقياد للذبح وعلى الإقامة بواد لا زرع فيه ولا ضرع ، وصبر على بناء البيت ورفع قواعده ، فلا جرم أخرج الله ببركة ذلك من صلبه خاتم النبيين ، ومنهم إدريس وقد مر ذكره في سورة مريم . قال ابن عمر : بعث إلى قومه داعيا لهم إلى الله فأبوا فأهلكهم الله ورفع إدريس إلى السماء . ومنهم ذو الكفل قيل : هو زكريا وعلى هذا فقد تقدمت قصته أيضا .". (٢)

٢١٤-"« جف القلم بما هو كائن إلى يوم الدين » ولم يقل إلى الأبد .

وفي الآية تخصيص آخر وهو أنه لم يذكر أحوال أهل السموات وفيه سر قال أهل البرهان : فصل في هذه السورة وأجمل في

---

(١) تفسير النيسابوري ٥/١٢٥

(٢) تفسير النيسابوري ٥/٣٦٩

« التغابن » فقال ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ [الحديد : ٢٢] والتفصيل بهذه السورة أليق لأنه فصل أحوال الدنيا والآخرة بقوله ﴿ اعلموا إنما الحياة الدنيا ﴾ إلى آخره قوله ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ من قبل أن نخلق المصائب والأنفس أو الأرض أو المخلوقات ﴿ إن ذلك ﴾ الإثبات أو الحفظ ﴿ على الله يسير ﴾ وإن كان عسيرا على غيره . ثم بين وجه **الحكمة في ذلك** الإثبات قائلا ﴿ لكيلا تأسوا ﴾ أي لكيلا تحزنوا ﴿ على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ نظيره ما ورد في الخبر : من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب لأنه لما علم وجوب وقوعه من حيث تعلق علم الله وحكمه وقدرته به عرف أن الفائت لا يرده الجزع والمعطى لا يكاد يثبت ويدوم لأنه عرضة للزوال ونهزة للانتقال فلا يشتد به فرحه . روى عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبرا وللخير شكرا أو المراد أنه لم ينف الأسى والفرح على الإطلاق ولكنه نفى ما بلغ الجزع والبطر ولا لوم على ما يخلو منه البشر . والباقي ظاهر وقد مر في النساء . والمقصود أن البخيل يفرح فرحا مطغيا لحبه المال ليفتخر به ويتكبر على الناس ويحمل غيره على إمساك المال لمقتضى شحه الطبيعي ﴿ ومن يتول ﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولا يعرف حق الله فما أعطاه ﴿ فإن الله هو الغني ﴾ عن طاعة المطيعين ﴿ الحميد ﴾ في ذاته وإن لم يحمده الحامدون . وقيل : إن الآية نزلت في اليهود الذين كتموا صفة محمد A وبخلوا ببيان نعته .

ثم أراد أن يبين الغرض من بعثة الرسل المؤيدين بالمعجزات ومن إنزال الكتاب والميزان معهم . يروى أن جبرائيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح فقال : مر قومك يزنوا به . وروي عن النبي A أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض . أنزل الحديد والنار والماء والملح . وعن الحسن : إنزالها تهيئتها كقوله ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ [الزمر : ٦] وقال قطرب : هو من النزل يقال : أنزل الأمير على فلان نزلا حسنا منهم من قال : هو من باب « علفتها تبنا وماء باردا » . وللعلماء في المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه .". (١)

٢١٥-"سورة البقرة

مدنية وآياتها مائتان وسبع وثمانون إن قلت أي سورة أطول وآيها أقصر؟ وأي آية أطول وآيها أقصر؟ قلت : قال أهل التفسير : أطول سورة في القرآن البقرة وأقصرها الكوثر وأطول آية الدين وأقصرها آية والضحى والفجر وأطول كلمة فيه كلمة ﴿فأسقيناكموه﴾ (الحجر : ٢٢) فإن قلت : ما الحكمة في أن سورة البقرة أعظم السور ما عدا الفاتحة؟ الجواب : لأنها فصلت فيها الأحكام وضربت الأمثال وأقيمت الحجج إذ لم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه ولذلك سميت فسطاط القرآن.

قال ابن العربي في "أحكام القرآن" : سمعت بعض أشياخي يقول فيها : ألف أمر وألف نهي وألف حكم وألف خبر ولعظم فقهها أقام ابن عمر رضي الله عنهما ثماني سنين على تعلمها كذا في أسئلة الحكم.

قال الإمام في التفسير "الكبير" : اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من

---

(١) تفسير النيسابوري ١٢٨/٧

فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغي والعناد وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التصلفات الفارغة عن المعاني والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرنا أمر ممكن الحصول قريب الوصول انتهى.

وإنما سورت السور طوالا وأوساطا وقصارا تنبيها على أن الطول ليس من شرط الإعجاز فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة ثم ظهرت لذلك التسوير حكمة في التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها تيسيرا من الله تعالى على عباده وفي ذلك أيضا ترغيب وتوسيع في الفضيلة في الصلاة وغيرها كسورة الإخلاص من القصار تعدل ثلث القرآن فمن فهم ذلك فاز بسر التسوير ، فإن قلت ما الحكمة في تعدد مواطن نزول القرآن وتكرر مشاهده مكيا مدنيا ليليا نهاريا سفريا حضريا صيفيا شتائيا نوميا برزخيا يعني بين الليل والنهار أرضيا سماويا غاريا ما نزل في الغار يعني تحت الأرض برزخيا ما نزل بين مكة والمدينة عرشيا معراجيا ما نزل ليلة المعراج آخر سورة البقرة ، الجواب **الحكمة في ذلك** تشريف مواطن الكون كلها بنزول الوحي الإلهي فيها وحضور الحضرة المحمدية عندها كما قيل : سر المعراج والإسراء به وسير المصطفى في مواطن الكون كلها كأن الكون والعرش والجنان يسأل كل موطن بلسان الحال أن يشرفه الله تعالى بقدوم قدم حبيبه وتكتحل أعين الأعيان والكبار بغبار نعال قدم سيد السادات ومفخر موجودات الولاة ما شم الكون رائحة الوجود وما بدا من حضرة الكمون لمعة الشهود كما ورد بلسان القدس (لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك).

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٦

﴿الام﴾ إن قلت ما الحكمة في ابتداء البقرة بألم والفاتحة بالحرف الظاهر؟ المحكم الجواب قال السيوطي رحمه الله (. في "الأنفال" .) أقول في مناسبة ابتداء البقرة بألم أنه لما ابتدئت الفاتحة بالحرف المحكم الظاهر لكل أحد بحيث لا يعذر في فهمه ابتدئت البقرة بمقابله وهو الحرف المتشابه البعيد التأويل ليعلم مراتبه للعقلاء والحكماء ليعجزهم بذلك ليعتبروا ويدبروا آياته

٢٧

كذا في خواتم الحكم وحل الرموز وكشف الكنوز للعارف بالله الشيخ المعروف بعلي دده.

واعلم أنهم تكلموا في شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها فقيل إنها من العلوم المستورة والأسرار المحجوبة أي : من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وهي سر القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها والألف الله واللام لطيف والميم مجيد أي : أنا الله اللطيف المجيد كما أن قوله تعالى : ﴿الار﴾ (يونس : ١) أنا الله أرى و﴿كاهيعاص﴾ (مريم : ١) أنا الله الكريم الهادي الحكيم العليم الصادق وكذا قوله تعالى : ﴿ق﴾ (ق : ١) إشارة إلى أنه القادر القاهر و﴿﴾ (القلم : ١) إشارة إلى أنه النور الناصر فهي حروف مقطعة كل منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى والاكتفاء ببعض الكلمة معهود إلى العربية كما قال الشاعر :

قلت لها قفي فقالت ق

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٧". (١)

٢١٦-"فيه معجزة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كان بنو إسرائيل ينظر بعضهم إلى سوءة بعض وكان موسى يغتسل وحده فوضع ثوبه على حجر ففر بثوبه فجمع موسى بأثره يقول : ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوءة موسى فقالوا والله ما بموسى أدرة" وهي بالضم نفخة بالخصية ، وإما للجنس أي : اضرب الشيء الذي يقال له الحجر وهو الأظهر في الحجة أي : أبين على القدرة فإن إخراج الماء بضرب العصا من جنس الحجر أي : حجر كان أدل على ثبوت نبوة موسى عليه السلام من إخراجه من حجر معهود معين لاحتمال أن يذهب الوهم إلى تلك الخاصية في ذلك الحجر المعين كخاصية جذب الحديد في حجر المغناطيس ﴿فانفجرت﴾ أي : فضرب فالفاء متعلقة بمحذوف والانفجار الانسكاب ولانبجاس الترشح والرش فالرش أول ثم الانسكاب ﴿منه﴾ أي : من ذلك الحجر ﴿اثنتا عشرة عينا﴾ ماء عذبا على عدد الأسباط لكل سبط عين وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر ويضربه إذا ارتحل فييبس ﴿قد علم كل أناس﴾ أي : كل سبط من الأسباط الاثني عشر ﴿مشربهم﴾ أي : عينهم الخاصة بهم أو موضع شربهم لا يدخل سبط على غيره في شربه والمشرب المصدر والمكان **والحكمة في ذلك** أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر وكل سبط أراد تكثير نفسه فجعل الله لكل سبط منهم نهرا على حدة ليستقوا منها ويسقوا دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة وكان ينبع من كل وجه من الحجر ثلاث أعين تسيل كل عين في جدول إلى سبط وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثني عشر ميلا ثم أن الله تعالى قد كان قادرا على تفجير الماء وفلق البحر من غير ضرب لكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد وليترتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في المعاد ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر ويمقر الخل ويجذب الحديد لم يمتنع أن يخلق الله حجرا يسخره لجذب الماء تحت الأرض أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٤٦

قال القرطبي في "تفسيره" : ما ورد من انفجار الماء ونبعه من يد نبينا صلى الله عليه وسلم وبين أصابعه أعظم في المعجزة فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار آناء الليل وأطراف النهار ومعجزة نبينا عليه السلام لم تكن لنبي قبل إذ لم يخرج الماء من لحم ودم.

﴿كلوا﴾ على إرادة القول أي : قلنا لهم أو قيل لهم كلوا ﴿واشربوا من رزق الله﴾ هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء فالأكل يتعلق بالأولين والشرب بالثالث وإنما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا إيذانا بأن الأمر بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام.

﴿ولا تعثوا فى الأرض﴾ العثي أشد الفساد فقيل لهم : لا تتمادوا في الفساد حال كونهم ﴿مفسدين﴾ فالمراد بهذه الحال

---

(١) تفسير روح البيان . ١/١٨

تعريفهم بأنهم على الفساد لا تقييد العامل وإلا لكان مفهومه مفيدا معنى تمادوا في الفساد حال كونهم مصلحين وهذا غير جائز والأصل في العثي مطلق التعدي وإن غلب في الفساد فيكون التقييد بالحال تقييدا للعامل بالخاص.

ودلت الآية على فضيلة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن بني إسرائيل احتاجوا إلى الماء فرجعوا إلى موسى ليسأل

١٤٧

واحتاجوا إلى البقل والقثاء وسائر المأكولات ففعلوا ذلك وهذه الأمة أطلق لهم أن يسألوا الله كلما احتاجوه قال تعالى : ﴿وسالوا الله من فضله﴾ (النساء : ٣٢) وقال : ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ (غافر : ٦٠) وفيها بشارة عظيمة وسأل موسى ربه الماء لقومه بقولهم وسأل عيسى ربه المائدة بقولهم وسأل نبينا عليه الصلاة والسلام المغفرة لنا بأمر الله تعالى قال : ﴿واستغفر لذنابك وللمؤمنين﴾ (محمد : ١٩) فلما أجاب الله لهما فيما سألاه بطلب القوم فلأن يجيب نبينا فيما سأله بأمره أولى.

وأفادت الآية أيضا إباحة الخروج إلى الاستسقاء وهو إنما يكون إذا دام انقطاع المطر مع الحاجة إليه فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة وقد استسقى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فخرج إلى المصلى متواضعا متذللا متخشعا مترسلا متضرعا.

وروي عن جندبة "أن أعرابيا دخل عليه صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وقال : يا رسول الله هلكت الكراع والمواشي وأجدبت الأرض فادع الله أن يسقينا فرفع يديه ودعا قال أنس رضي الله عنه والسماء كأنها زجاجة ليس بها قزعة فنشأت سحابة ومطرت إلى الجمعة القابلة".

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٤٦

قال في "المثنوي" :

تافرود آيد بلا بي دافعي

ون نباشد ازتضرع شافعيتاسقاهم ربهم آيد خطاب". (١)

٢١٧-"﴿تعلمونهن﴾ حال ثانية ﴿مما علمكم الله﴾ من الحيل وطرق التعليم والتأديب فإن العلم به الهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه أو مما علمكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه.

قال صاحب "الكشاف" قوله تعالى : ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ فيه تنبيه على أن كل من يأخذ علما ينبغي أن يأخذه ممن هو متبحر في ذلك العلم غواص في بحار لطائفه وحقائقه وإن احتاج في ذلك إلى ارتكاب سفر بعيد قال عليه السلام : "اطلبوا العلم ولو بالصين" فكم من آخذ من غير متقن ضيع أيامه وعض عند لقاء النحارير أنامله ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ من تبعيضية لما أن البعض مما لا يتعلق به الأكل كالجلود والعظام والريش وما موصولة حذف حائدها وعلى متعلقة

---

(١) تفسير روح البيان. ١/١١٦

بأمسكن أي فكلوا بعض ما أمسكنه عليكم وهو الذي لم يأكلن منه وأما ما أكلن منه فهو مما أمسكن على أنفسهن لقوله عليه السلام لعدي بن حاتم : "وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسكه على نفسه" وإليه ذهب أكثر الفقهاء.

وقال بعضهم ومنهم أبو حنيفة : يؤكل مما بقي من جوارح الطير ولا يؤكل مما بقي من الكلب والفرق أنه يمكن أن يؤدب الكلب على الأكل بالضرب ولا يؤدب البازي على الأكل ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ الضمير لما في علمتم أي سموا عليه عند إرساله أو لما في ما أمسكن أي سموا عليه إذا أدركتم ذكاته.

وعن أبي ثعلبة قال : قلت يا نبي الله إنا بأرض قوم أهل كتاب أفنأكل في آنيتهم وبأرض صيد أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلم وبكلبي المعلم فما يصلح لي قال : "أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله فكل وما صدت بكلبك المعلم فذكرت الله عليه فكل وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل" وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان يضحي بكبشين أملحين أقرنين يطأ على صفاحهما ويذبحهما بيده ويقول : باسم الله والله أكبر" كذا في "تفسير البغوي".

والمستحب أن يقول بسم الله الله أكبر بلا واو لأن ذكر الواو يقطع نور التسمية كما في "شرح مختصر الوقاية" وكره ترك التوجه إلى القبلة وحلت كذا في "الذخيرة" ومتروك التسمية عمدا حرام لأنه ميتة بخلاف متروكها نسيانا فإنه حلال ﴿واتقوا الله﴾ في شأن محرماته ﴿إن الله سريع الحساب﴾ سريع إتيان حسابه أو سريع تمامه إذا شرع فيه يتم في أقرب ما يكون من الزمان والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعا في كل ما جل ودق ودلت الآية على إباحة الصيد.

قال في "الأشباه" : الصيد مباح إلا للتلهي

٣٤٦

أو حرفة كذا في "البزازية" وعلى هذا فاتخاذه حرفة كصيادي السمك حرام.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٤٥

. يحكى . عن إبراهيم بن أدهم أنه قال : كان أبي من ملوك خراسان فركبت إلى الصيد فأثرت أرنبا إذ هتف بي هاتف يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟ ففزعت ودفعت ثم أخذت ففعلت ثانيا ثم هتف بي هاتف من قربوس السرج والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فنزلت فصادفت راعي أبي ولبست جبته وتوجهت إلى مكة ، ولما نزلت هذه الآية أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها ونهى عن اقتناء ما لا ينتفع بها وأمر بقتل الكلب العقور وبما يضر ويؤذي ورفع عما سواها مما لا ضرر فيه وفي الحديث "من اتخذ كلبا إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط" **والحكمة في ذلك** أنه ينبح الضيف ويروع السائل كذا في "تفسير الحدادي" وفي الحديث "لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب" والمراد بالملائكة ملائكة الرحمة والاستغفار أي النازلون بالبركة والرحمة والطائفون على العباد للزيارة واستماع الذكر لا الكتبة فانهم لا يفارقون المكلفين طرفة عين والمراد بالصورة صورة ذي الروح لمشابهته بيوت الأصنام وبعض الصور يعبد فأبغض إلى الخواص ما عصى الله به.

وأما الكلب فلأنه نجس فاشبه المتبرز وزاد في بعض الأحاديث ولا جنب إلا أن يتوضأ ، قال في "الترغيب والترهيب" :

ورخص للجنب إذا نام أو أكل أو شرب أن يتوضأ ثم قيل هذا في حق كل من أخر الغسل لغير عذر ولعذر إذا أمكنه الوضوء فلم يتوضأ أو قيل هو الذي يؤخره تهاونا وكسلا ويتخذ ذلك عادة انتهى.
قال في "الشرعة وشرحها" لابن السيد علي : وينام بعد الوطء نومة خفيفة فإنه أروح للنفس لكن السنة فيه أن يتوضأ أولا وضوءه للصلاة ثم ينام وكذا إذا أراد الأكل جنبا ولو أراد العود فليتوضأ والمراد به التنظف بغسل الذكر واليدين لا الوضوء الشرعي كما ذهب إليه بعض المالكية.
". (١)

٢١٨-"ومر الحسن البصري بشاب وهو يضحك فقال له : يا بني هل مررت على الصراط؟ فقال : لا ، فقال : هل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار؟ فقال : لا ، فقال : ففيم هذا الضحك فما رؤي الفتى بعد ذلك يضحك.
قيل : لما فارق موسى الخضر عليهما السلام قال : إياك واللجاجة ولا تكن مشاء إلا لحاجة ولا ضحاكا من غير عجب كان وابكك على خطيئتك يا ابن عمران.
قال محمد بن واسع إذا رأيت رجلا في الجنة يبكي ألست تتعجب من بكائه قال : بلى ، قال : فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلام يصير هو أعجب منه.
وعن وهب بن منبه أنه قال إن زكريا عليه السلام فقد ابنه يحيى عليه السلام فوجده مضطجعا على قبر يبكي فقال : يا بني ما هذا البكاء ، قال : أخبرتني أمي أن جبريل أخبرك أن بين الجنة والنار مفازة ذات لهب لا يطفىء حرها إلا الدمع فقال زكريا ابك يا بني ابك.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٧٤
وعن كعب الأحبار أنه قال إن العبد لا يبكي حتى يبعث الله إليه ملكا فيمسح كبده بجناحه فإذا فعل ذلك بكى.
وعن أنس قال ثلاثة أعين لا تمسها النار عين فقئت في سبيل الله وعين باتت تحرس في سبيل الله وعين دمعت من خشية الله.
وفي الحديث : "لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن تصدق بألف دينار" وفي التوراة يا ابن آدم إذا دمعت عيناك فلا تمسح الدموع بثوبك ولكن امسحها بكفك فإنها رحمة.
قال العلماء : البكاء على عشرة أنواع : بكاء فرح ، وبكاء حزن ، وبكاء رحمة ، وبكاء خوف ، مما يحصل ، وبكاء كذب كبكاء النائحة ؛ لأنها تبكي لشجو غيرها وجاء "تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء عليها جلباب
٤٧٦
من لعنة ودرع من جرب ، وضعت يدها على رأسها تقول واويلاه وتنبح كما ينبح الكلب".
وبكاء موافقة بأن يرى جماعة يبكون فيبكي مع عدم علمه بالسبب ، وبكاء المحبة والشوق ، وبكاء الجزع من حصول ألم

---

(١) تفسير روح البيان . ٢/٢٧٦

لا يحتمله ، وبكاء الجور والضعف.

وبكاء النفاق وهو أن تدمع العين والقلب قاس.

وأما التباكي فهو تكلف البكاء وهو نوعان محمود ومذموم.

والأول ما يكون لاستجلاب رقة القلب.

والثاني ما يكون لأجل الرياء والسمعة كما في "إنسان العيون".

والحاصل : أن طالب الآخرة ينبغي له تقليل الضحك وتكثير البكاء ولا يغفل عن الموت ولقاء الجزاء فإنه كم ضاحك وكفنه عند القصار.

قال الحافظ :

ديد آن قهقهه كبك خرامان حافظ

كه زسر نه شاهين قضا غافل بود

﴿فإن رجعك الله﴾ من الرجع المتعدي دون الرجوع اللازم يقول رجع رجوعا أي انصرف ورجع الشيء عن الشيء ، أي صرفه ورده كأرجعه.

والمعنى فإن ردك الله من غزوة تبوك.

﴿إلى طآئفة منهم﴾ الطائفة من الشيء القطعة منه وضمير منهم إلى المنافقين المتخلفين في المدينة دون المتخلفين مطلقا منافقا كان أو مخلصا فإن تخلف بعضهم إنما كان لعذر عائق مع الإسلام أو إلى من بقي من المنافقين لأن منهم من مات ومنهم من غاب عن البلد ومنهم من تاب ومنهم من لم يستأذن وعن قتادة أنهم كانوا اثني عشر رجلا قيل فيهم ما قيل.

﴿فاستاذنوك للخروج﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه وهي تبوك.

﴿فقل لن تخرجوا معى أبدا﴾ أي : لا تأذن لهم بحال وهو إخبار في معنى النهي للمبالغة ، وكذا قوله : ﴿ولن تقاتلوا معى عدوا﴾ من الأعداء ﴿إنكم﴾ تعليل لما سلف ، أي : لأنكم ﴿رضيتم بالقعود﴾ أي : عن الغزو وفرحتم بذلك ﴿أول مرة﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك وتذكير اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث هو الأكثر الدائر على الألسنة فإنك لا تكاد تسمع قائلا يقول هي كبرى امرأة أو أولى مرة.

﴿فاقعدوا﴾ من بعد ﴿مع الخالفين﴾ أي : المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان ففي الخالفين تغليب الذكور على الإناث.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٧٤

فإن قيل : كانت أعمال المنافقين من الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد مقبولة عند النبي عليه السلام وإن لم تكن مقبولة عند الله تعالى فكان النبي عليه السلام يقول نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فما الحكمة في أن الله تعالى أمر النبي عليه السلام بأن لا يقبل من المتخلفين أعمالهم من الخروج معه والقتال مع العدو وغير ذلك.

قلنا : إن **الحكمة في ذلك** والله أعلم أن المنافقين لما كانوا يظهرون الإسلام والائتمار بأوامر النبي عليه السلام وسرائرهم

موكولة إلى الله تعالى طمعا في إنابتهم ورجوعهم من النفاق إلى الوفاق فلما أظهروا ما اضمروا ردت إليهم أعمالهم فكان الحكم بالظاهر أيضا فافهم.

قال العلماء : أخرجهم الله تعالى من ديوان الغزاة ومحا أساميهم من دفتر المجاهدين وأبعد محلهم من محفل صحبة النبي صلى الله عليه وسلم عقوبة لهم على تخلفهم لما فيه من الإهانة وإظهار نفاقهم وبيان أنهم ليسوا ممن يتقوى به الدين ويعز الإسلام كالمؤمنين

٤٧٧

". (١)

٢١٩-"يقول الفقير : تبعه على هذا جمهور المفسرين ولكن تفسير رسول الله كما سبق أحق بأن يتبع ، ويرجح ويقدم على الكل ، ولا مانع من أن يراد بالزيادة الفضل واللقاء فإن اللقاء الذي هو أفضل الكرامات إذا حصل فلأن يحصل ما هو دونه من الفضل والتضعيف أظهر وترهقهم (وبوشد ايشانرا) إذا عاينوا النار.

ذلة (خوارى ورسوايى يعني آثار مذلت برايشان هويدا كردد) وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنها محيطة بها غاشية لهم جميعا.

ما لهم من الله من عاصم أي : لا يعصمهم أحد من سخطه تعالى وعذابه ولا يمنعه كأنما اغشيت البست.

وبالفارسية (كوييا وشيده شده است) وجوههم قطعا من الليل لفرط سوادها وظلمتها مظلما حال من الليل والعامل فيه معنى الفعل أي : قطعا كائنة من الليل في حال كونه مظلما ، يعني : (سياه كردد رويهاى ايشان ازغم واندوه ون شب تيره) وقطعا بفتح الطاء جمع قطعة مفعول ثاني لأغشيت وقرىء

٣٩

قطعا بسكون الطاء وهو مفرد اسم للشيء المقطوع فحينئذ يصح أن يكون مظلما صفة له لتطابقهما في الأفراد والتذكير.

أولئك (آن كروه كه كاسب سيآتند) يعني : مشركان ومنافقان.

أصحاب النار هم فيها خالدون اعلم أن دخول الجنة برحمة الله تعالى وقسمة الدرجات بالأعمال والخلود بالنيات فهذه ثلاثة مقامات وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله وطبقات عذابها بالأعمال وخلودهم بالنيات ، يعني : أن المؤمن لما كانت نيته في الدنيا أن يعبد الله أبدا ما عاش وكذا الكافر لما كانت نيته عبادة الأصنام أبدا ما عاش جوزي كل أحد بتأبيد النية ، وأصل ما استوجبوا به هذا العذاب المؤبد المخالفة كما كانت في السعادة الموافقة وكذلك من دخل من العاصين النار لولا المخالفة ما عذبهم الله شرعا نسأل الله لنا ولك وللمسلمين أن يستعملنا بصالح الأعمال ويرزقنا الحياء منه تعالى.

قال أبو العباس الأقليشي : لم أجد في مقدار بقاء العصاة في النار حدا في صحيح الآثار غير أن الغزالي ذكر في الإحياء

---

(١) تفسير روح البيان . ٣٦١/٣

حال عصاة الموحدين فقال : إن بقاء العاصي في النار لحظة وأكثره سبعة آلاف عام لما ورد به الأخبار انتهى.

يقول الفقير : لعل **الحكمة في ذلك** كون تلك المدة ، عمر النوع الإنساني فاقتضى التشديد في التربية بقاءه في النار تلك المدة فالظاهر أن تلك السنين إنما هي باعتبار سني الآخرة التي كل يوم منها ألف سنة كما في حق الكفرة إلا أن يتفضل الله تعالى على المؤمنين والله أعلم.

وعذاب كل عاص كيفية وكمية إنما هو على حسب حجابه كيفية وكمية ، ألا ترى إلى قوله تعالى : كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما فإنه باعتبار توجههم إلى السفليات ، وهي الصفات الحيوانية والسبعية والشيطانية ظلمات بعضها فوق بعض ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين انتقلوا من معادنهم الطينية وخرجوا من رعونة البشرية والتحقوا بالعالم الأعلى وكل من صفت جوهرته ولطف معناه يكون هكذا بخلاف من انكدرت جوهرته وكثف معناه فلا بد لك من أن تضرم على النفس نار المجاهدة وتلقيها في أبواط الرياضة فإن الرجال الأنجاد رضي الله عنهم ما اشتغلوا بتدبير جسومهم من حيث الشهوات وإنما اشتغلوا بنفوسهم أن يخلصوها من رعونة الطبع حتى يلحقوها بعالمها ، ألا ترى سهلا التستري وهو من رؤساء هذا الطريق وساداته لما قيل : له ما القوت؟ فقال : ذكر الحي الذي لا يموت ، قيل له : هذا قوت الأرواح فما قوت الأشباح؟ فقال : دع الديار إلى بانيها إن شاء عمرها وإن شاء خربها ، فما أحرم عبدا لم يوفقه الله لتخليص جوهرته؟ نعوذ الله من الحرمان.

وفي المثنوى :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٨

يقول الفقير : تبعه على هذا جمهور المفسرين ولكن تفسير رسول الله كما سبق أحق بأن يتبع ، ويرجح ويقدم على الكل ، ولا مانع من أن يراد بالزيادة الفضل واللقاء فإن اللقاء الذي هو أفضل الكرامات إذا حصل فلأن يحصل ما هو دونه من الفضل والتضعيف أظهر وترهقهم (وبوشد ايشانرا) إذا عاينوا النار.

ذلة (خوارى ورسوايى يعني آثار مذلت برايشان هويدا كردد) وفي إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنها محيطة بها غاشية لهم جميعا.

ما لهم من الله من عاصم أي : لا يعصمهم أحد من سخطه تعالى وعذابه ولا يمنعه كأنما اغشيت البست.

وبالفارسية (كوييا وشيده شده است) وجوههم قطعا من الليل لفرط سوادها وظلمتها مظلما حال من الليل والعامل فيه معنى الفعل أي : قطعا كائنة من الليل في حال كونه مظلما ، يعني : (سياه كردد رويهاى ايشان ازغم واندوه ون شب تيره) وقطعا بفتح الطاء جمع قطعة مفعول ثاني لأغشيت وقرىء

٣٩

". (١)

(١) تفسير روح البيان. ١٩/٤

٢٢٠-"قطعا بسكون الطاء وهو مفرد اسم للشيء المقطوع فحينئذ يصح أن يكون مظلما صفة له لتطابقهما في الأفراد والتذكير.

أولئك (آن كروه كه كاسب سيآتند) يعني : مشركان ومنافقان.

أصحاب النار هم فيها خالدون اعلم أن دخول الجنة برحمة الله تعالى وقسمة الدرجات بالأعمال والخلود بالنيات فهذه ثلاثة مقامات وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله وطبقات عذابها بالأعمال وخلودهم بالنيات ، يعني : أن المؤمن لما كانت نيته في الدنيا أن يعبد الله أبدا ما عاش وكذا الكافر لما كانت نيته عبادة الأصنام أبدا ما عاش جوزي كل أحد بتأبيد النية ، وأصل ما استوجبوا به هذا العذاب المؤبد المخالفة كما كانت في السعادة الموافقة وكذلك من دخل من العاصين النار لولا المخالفة ما عذبهم الله شرعا نسأل الله لنا ولك وللمسلمين أن يستعملنا بصالح الأعمال ويرزقنا الحياء منه تعالى.

قال أبو العباس الأقليشي : لم أجد في مقدار بقاء العصاة في النار حدا في صحيح الآثار غير أن الغزالي ذكر في الإحياء حال عصاة الموحدين فقال : إن بقاء العاصي في النار لحظة وأكثره سبعة آلاف عام لما ورد به الأخبار انتهى.

يقول الفقير : لعل **الحكمة في ذلك** كون تلك المدة ، عمر النوع الإنساني فاقتضى التشديد في التربية بقاءه في النار تلك المدة فالظاهر أن تلك السنين إنما هي باعتبار سني الآخرة التي كل يوم منها ألف سنة كما في حق الكفرة إلا أن يتفضل الله تعالى على المؤمنين والله أعلم.

وعذاب كل عاص كيفية وكمية إنما هو على حسب حجابه كيفية وكمية ، ألا ترى إلى قوله تعالى : كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما فإنه باعتبار توجههم إلى السفليات ، وهي الصفات الحيوانية والسبعية والشيطانية ظلمات بعضها فوق بعض ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين انتقلوا من معادنهم الطينية وخرجوا من رعونة البشرية والتحقوا بالعالم الأعلى وكل من صفت جوهرته ولطف معناه يكون هكذا بخلاف من انكدرت جوهرته وكثف معناه فلا بد لك من أن تضرم على النفس نار المجاهدة وتلقيها في أبواط الرياضة فإن الرجال الأنجاد رضي الله عنهم ما اشتغلوا بتدبير جسومهم من حيث الشهوات وإنما اشتغلوا بنفوسهم أن يخلصوها من رعونة الطبع حتى يلحقوها بعالمها ، ألا ترى سهلا التستري وهو من رؤساء هذا الطريق وساداته لما قيل : له ما القوت؟ فقال : ذكر الحي الذي لا يموت ، قيل له : هذا قوت الأرواح فما قوت الأشباح؟ فقال : دع الديار إلى بانيها إن شاء عمرها وإن شاء خربها ، فما أحرم عبدا لم يوفقه الله لتخليص جوهرته؟ نعوذ الله من الحرمان.

وفي المثنوى :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٨

اين رياضتهاى درويشان راست

كان بلا برتن بقاي جانهاست

مردن تن در رياضت زند كيست

رنج ابن تن روح را ايند كيست

س رياضت رابجان شو مشترى

ون سردى تن بخدمت جان برى

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٣٨

﴿ويوم نحشرهم﴾ يوم منصوب على المفعولية بفعل مضمر ، أي : أنذرهم أو ذكرهم وضمير نحشرهم لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات لأنه المتبادر من قوله : جميعا حال من الضمير ، أي : مجتمعين لا يشذ منهم فريق ثم نقول للذين أشركوا أي : نقول للمشركين من بينهم مكانكم نصب على أنه في الأصل ظرف لفعل أقيم مقامه لا على أنه اسم فعل وحركته حركة بناء كما هو رأي الفارسي أي : الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم

٤٠

أنتم تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله لسده مسده وشركاؤكم عطف عليه فزيلنا من زلت الشيء عن مكانه ازيله ، أي : أزلته والتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية لأن ثلاثيه متعد بنفسه ، وهذا التزييل وإن كان مما سيكون يوم القيامة إلا أنه لتحقق وقوعه صار كالكائن الآن فلذلك جاء بلفظ الماضي بعد قوله نحشر ونقول ، أي : ففرقنا بينهم وبين الآلهة التي كانوا يعبدونها وقطعنا العلائق والوصل التي كانت بينهم في الدنيا فخابت أعمالهم وانصرمت عرى أطماعهم وحصل لهم اليأس الكلي من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم ، والحال وإن كانت معلومة لهم من حين الموت والابتلاء بالعذاب لكن هذه المرتبة من اليقين إنما حصلت عند المشاهدة والمشافهة وقال شركاؤهم التي كانوا يعبدونها ويثبتون الشركة لها وهم الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه من أولي العلم ، وقيل : الأصنام ينطقها الله الذي أنطق كل شيء.

ما كنتم إيانا تعبدون مجاز عن براءة الشركاء من عبادة المشركين حيث لم تكن تلك العبادة بأمر الشركاء وإرادتهم وإنما الآمر بها هو أهواؤهم والشياطين ، فالمشركون إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم.

". (١)

٢٢١-"﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ الذين ضيعوا الأمانة بعدما قبلوها ﴿والمشركين والمشركات﴾ الذين خانوا في الأمانة بعدم قبولها رأسا.

قال في "الإرشاد" : إشارة إلى الفريق الأول أي : حملها الإنسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فإن التعذيب وإن لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها أبرز في معرض الغرض أي : كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذب الله هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية.

قال في "بحر العلوم" : ويجوز أن تكون اللام علة لعرضنا أي : عرضنا ليظهر نفاق المنافقين وإشراك المشركين فيعذبهما الله

---

(١) تفسير روح البيان. ٢٠/٤

﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ الذين حفظوا الأمانة وراعوا حقها.

قال في "الإرشاد" : إشارة إلى الفريق الثاني أي : كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله على هؤلاء من أفراده أي : يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما يخلو عنها الإنسان بحكم جبليته وتداركهم لها بالتوبة والإنابة والالتفات إلى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والإظهار في موضع الإضمار ثانيا لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامي الوعيد والوعد حقه ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ مبالغا في المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم.

وفي "التأويلات النجمية" : هذه اللام لام الصيرورة والعاقبة يشير إلى أن الحكمة في عرض الأمانة أن يكون الخليقة في أمرها على ثلاث طبقات :

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٣١

طبقة منها : تكون الملائكة وغيرهم ممن لم يحملها فلا يكون لهم في ذلك ثواب ولا عقاب.

وطبقة منها : من يحملها ولم يؤد حقها وقد خان فيها وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات الذين حملوها بالظلومية على أنفسهم وضيعوها بجهولية قدرها فما رعوها حق رعايتها فحاصل أمرهم العذاب المؤبد.

وطبقة منها : من يحملها ويؤدي حقها ولم يخن فيها ولكن لثقل الحمل وضعف الإنسانية يتلعثم في بعض الأوقات فيرجع إلى الحضرة بالتضرع والابتهال معترفا بالذنوب وهم المؤمنون والمؤمنات فيتوب الله عليهم لقوله : ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ **والحكمة في ذلك** ليكون كل طبقة من الطبقات الثلاث مرآة يظهر فيها جمال

٢٥٦

صفة من صفاته.

فالطبقة الأولى : إذا لم يحملوا الأمانة وتركوا نفعها لضرها فهم مرآة جمال صفة عدله.

والطبقة الثانية : إذ حملوها طمعا في نفعها ولم يؤدوا حقها وقد خانوا فيها بأن باعوها بعوض من الدنيا الفانية فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فهم مرآة يظهر فيها جمال صفة قهره.

والطبقة الثالثة : إذ حملوها بالطوع والرغبة والشوق والمحبة وأدوا حقها بقدر وسعهم ولكن كما قيل لكل جواد كبوة وقع في بعض الأوقات قدم صدقهم عند ربهم في حجر بلاء وابتلاء بغير اختيارهم ثم اجتباهم ربهم فتاب عليهم وهداهم بجذبات العناية إلى الحضرة فهم مرآة يظهر فيها جمال فضله ولطفه وذلك قوله تعالى : ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ للمؤمنين بفضله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء انتهى.

قال بعض العارفين : الحكمة الإلهية اقتضت ظهور المخالفة من الإنسان ليظهر منه الرحمة والغفران ، قال الحافظ :

سهو وخطاى بنده كرش نيست اعتبار

معنى عفو ورحمت آمرزكار يست

". (١)

٢٢٢-"وفي الحديث القدسي : "لو لم تذنبوا لذهبت بكم وخلقت خلقا يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم" وفي الحديث النبوي : "لو لم تذنبوا لخشيت عليكم أشد من الذنب ألا وهو العجب" ولهذه الحكمة خلق الله آدم بيديه أي : بصفاته الجلالية والجمالية فظهر من صفة الجلال قابيل والمخالفة ومن صفة الجمال هابيل والموافقة وهكذا يظهر إلى يوم قيام الساعة وليس الحديثان المذكوران واردين على سبيل الحث على الذنب فإن قضية البعثة إصلاح العالم وهو لا يوجد إلا بترك الكفر والشرك والمعاصي ولكن على سبيل الحث على التوبة والاستغفار.
إبراهيم أدهم قدس سره (كفت فرصت مى جستم تا كعبه را خالى يابم ازطواف وحاجتى خواهم هيج فرصتى نيافتم تا شبى باران عظيم بود كعبه خالى ماند طواف كردم ودست در حلقه زدم وعصمت خواستم ندا آمدكه يزى مى خواهى كه كسى را نداده ام اكر من عصمت دهم آنكاه درياى غفارى وغفورى ورحمانى ورحيمى من كجا شود س كفتم "اللهم اغفر لي ذنوبي" آوازى شنودم كه از همه جهان با ما سخن كوى واز خود مكوى كه سخن تو ديكران كويند ودر مناجات كفت يا رب العزة مرا ازذل معصيت باعز طاعت آور وديكر كفت الهى آه "من عرفك لم يعرفك فكيف حال من لم يعرفك" آه آنكه ترا مى داند ترا نمى داند س كونه باشد حال كسى كه ترانميداند ابراهيم كفت انزده سال مشقت كشيدم تانداى شنودم كه) كن عبدا فاسترح يعني : ليست الراحة إلا في العبودية للمولى والإعراض عن الهوى من الأدنى والأعلى فلا راحة لعبد الدنيا وما دون المولى لا في الأولى ولا في العقبى فإذا وقع تقصير أو سهو أو نسيان فالله تعالى يحكم اسميه الغفور الرحيم بمحوه ويعرض عنه ولا يثبته في صحيفة ولا يناقش عليه ولا يعذب به بل من العصاة من يبدل الله سيآتهم حسنات هذا.
قال أبي بن كعب رحمه الله : كانت سورة الأحزاب تقارب سورة البقرة أو أطول منها وكان فيها آية الرجم وهي : "إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله العزيز الحكيم" ثم رفع أكثرها من الصدور ونسخ وبقي ما بقي وفي الحديث : "من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر"
٢٥٧
اللهم اختم لنا بالخير واعصمنا من كل سوء وضير وآمنا من البلايا وفتنة القبر ومحاسبة الحشر تمت سورة الأحزاب بعون الله الوهاب يوم الأحد الثامن عشر من شهر الله المحرم سنة عشر ومائة وألف.
جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٣١
طبقة منها : تكون الملائكة وغيرهم ممن لم يحملها فلا يكون لهم في ذلك ثواب ولا عقاب.
وطبقة منها : من يحملها ولم يؤد حقها وقد خان فيها وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات الذين حملوها بالظلومية على أنفسهم وضيعوها بجهولية قدرها فما رعوها حق رعايتها فحاصل أمرهم العذاب المؤبد.
وطبقة منها : من يحملها ويؤدي حقها ولم يخن فيها ولكن لثقل الحمل وضعف الإنسانية يتلعثم في بعض الأوقات فيرجع

---

(١) تفسير روح البيان. ١٩٩/٧

إلى الحضرة بالتضرع والابتهال معترفا بالذنوب وهم المؤمنون والمؤمنات فيتوب الله عليهم لقوله : ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ **والحكمة في ذلك** ليكون كل طبقة من الطبقات الثلاث مرآة يظهر فيها جمال

٢٥٦

صفة من صفاته.

فالطبقة الأولى : إذا لم يحملوا الأمانة وتركوا نفعها لضرها فهم مرآة جمال صفة عدله.

والطبقة الثانية : إذ حملوها طمعا في نفعها ولم يؤدوا حقها وقد خانوا فيها بأن باعوها بعوض من الدنيا الفانية فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين فهم مرآة يظهر فيها جمال صفة قهره.

والطبقة الثالثة : إذ حملوها بالطوع والرغبة والشوق والمحبة وأدوا حقها بقدر وسعهم ولكن كما قيل لكل جواد كبوة وقع في بعض الأوقات قدم صدقهم عند ربهم في حجر بلاء وابتلاء بغير اختيارهم ثم اجتباهم ربهم فتاب عليهم وهداهم بجذبات العناية إلى الحضرة فهم مرآة يظهر فيها جمال فضله ولطفه وذلك قوله تعالى : ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ للمؤمنين بفضله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء انتهى.

قال بعض العارفين : الحكمة الإلهية اقتضت ظهور المخالفة من الإنسان ليظهر منه الرحمة والغفران ، قال الحافظ :

سهو وخطاى بنده كرش نيست اعتبار

معنى عفو ورحمت آمرزكار يست

وفي الحديث القدسي : "لو لم تذنبوا لذهبت بكم وخلقت خلقا يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم" وفي الحديث النبوي : "لو لم تذنبوا لخشيت عليكم أشد من الذنب ألا وهو العجب" ولهذه الحكمة خلق الله آدم بيديه أي : بصفاته الجلالية والجمالية فظهر من صفة الجلال قابيل والمخالفة ومن صفة الجمال هابيل والموافقة وهكذا يظهر إلى يوم قيام الساعة وليس الحديثان المذكوران واردين على سبيل الحث على الذنب فإن قضية البعثة إصلاح العالم وهو لا يوجد إلا بترك الكفر والشرك والمعاصي ولكن على سبيل الحث على التوبة والاستغفار.

إبراهيم أدهم قدس سره (كفت فرصت مى جستم تا كعبه را خالى يابم ازطواف وحاجتى خواهم هيج فرصتى نيافتم تا شبى باران عظيم بود كعبه خالى ماند طواف كردم ودست در حلقه زدم وعصمت خواستم ندا آمدكه يزى مى خواهى كه كسى را نداده ام اكر من عصمت دهم آنكاه درياى غفارى وغفورى ورحمانى ورحيمى من كجا شود س كفتم "اللهم اغفر لي ذنوبي" آوازى شنودم كه از همه جهان با ما سخن كوى واز خود مكوى كه سخن تو ديكران كويند ودر مناجات كفت يا رب العزة مرا ازذل معصيت باعز طاعت آور وديكر كفت الهى آه "من عرفك لم يعرفك فكيف حال من لم يعرفك" آه آنكه ترا مى داند ترا نمى داند س كونه باشد حال كسى كه ترانميداند ابراهيم كفت انزده سال مشقت كشيدم تانداى شنودم كه) كن عبدا فاسترح يعني : ليست الراحة إلا في العبودية للمولى والإعراض عن الهوى من الأدنى والأعلى فلا راحة لعبد الدنيا وما دون المولى لا في الأولى ولا في العقبى فإذا وقع تقصير أو سهو أو نسيان فالله تعالى يحكم اسميه الغفور الرحيم بمحوه ويعرض عنه ولا يثبته في صحيفة ولا يناقش عليه ولا يعذب به بل من العصاة من يبدل الله سيآتهم حسنات هذا.

قال أبي بن كعب رحمه الله : كانت سورة الأحزاب تقارب سورة البقرة أو أطول منها وكان فيها آية الرجم وهي : "إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله العزيز الحكيم" ثم رفع أكثرها من الصدور ونسخ وبقي ما بقي وفي الحديث : "من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطى الأمان من عذاب القبر"

٢٥٧

اللهم اختم لنا بالخير واعصمنا من كل سوء وضير وآمنا من البلايا وفتنة القبر ومحاسبة الحشر تمت سورة الأحزاب بعون الله الوهاب يوم الأحد الثامن عشر من شهر الله المحرم سنة عشر ومائة وألف.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ١٣١". (١)

٢٢٣-"وقال عطاء : الحاء حرب وهو موت ذريع في الناس ، وفي الحيوان حتى يبيدهم ويفنيهم.

والميم تحويل ملك من قوم إلى قوم ، والعين عدو لقريش يقصدهم ، ثم ترجع إليهم الدولة لحرمة البيت ، والسين : هو استئصال بالسنين ؛ كسني يوسف عليه السلام وسبي يكون فيهم.

والقاف : قدرة الله نافذة في ملكوت الأرض لا يخرجون من قدرة الله ، وهي نافذة فيهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الحاء حكم الله والميم ملك الله ، والعين علو الله ، والسين سنا الله ، والقاف قدرة الله ، أقسم الله بها ؛ فكأنه يقول : فحكمي وملكي وعلوي وسناي وقدرتي لا أعذب عبدا قال : لا إله إلا الله مخلصا ، فلقيني بها.

ومعناه على ما قال أبو الليث في "تفسيره" : لا يعذبه عذابا دائما خالدا.

وفي الحديث : "افتتحوا صبيانكم لا إله إلا الله" ، و"لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله".

والحكمة في ذلك أن حال الصبيان حال حسن لا غل ولا غش في قلوبهم.

وحال الموتى حال الاضطرار ، فإذا قلتم في أول ما يجري عليكم القلم ، وآخر ما يجف عليكم القلم.

فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك ، ويقال : الحاء من الرحمن الرحيم ، والميم من مجده ، والعين من العليم ، والسين من القدوس ، والقاف من القاهر.

ويقال : الحاء حلمه والميم من المجيد ، والعين عظمته ، والسين سناه ، والقاف قدرته.

ويقال : إن القاف ، اسم لجبل يحيط بالدنيا.

(در كشف اسرار أورده كه اين حروف ايمانيست بأن عطاياكه حق سبحانه وتعالى بحضرت رسالت ارزانى داشت حاء حوض مورود اوست يعنى حوض كوثر كه تشنه لبان امت ازان سيراب كردانند وميم ملك ممدود او كه از مشرق تابمغرب بتصرف امت اودر آيدو عين عز موجود اوكه اعز همه اشيا نزد حق سبحانه بوده وسين سناء مشهود اوكه مرتبة هيجكس برتبة رفعت او همه نرسيد وقاف مقام محمود اوكه درشب معراج درجة او ادناست ودر روز ميامت شفاعت كبرى) :

---

(١) تفسير روح البيان. ٧/٢٠٠

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٥

مقام تو محمود ونامت محمد

بدين سان مقامى ونامى كه دارد

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى القسم بحاء حبه وميم محبوبه محمد ، وعين عشقه على سيده ، وقاف قربه إلى سيده بكمال لا يبلغه أحد من خلقه.

ويقول الفقير : الحاء هو الحجر الأسود ، والميم مقام إبراهيم ، والعين عين زمزم ، والسين والقاف سقياها ، فمن استلم الحجر الأسود ساد سيادة معنوية ، ومن صلى خلف المقام أكرمه الله بالخلة ، ومن دعا عند زمزم إجابه الله ، ومن شرب من زمزم سقاه الله شرابا طهورا لا يبقي فيه وجعا ولا مرضا.

﴿كذالك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ .

الكاف في حيز النصب على أنه مفعول ليوحي ، والجلالة فاعله ؛ أي : مثل ما في هذه السورة من المعاني يوحي الله العزيز الحكيم إليك في سائر السور ، وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم على أن مناط المماثلة هو الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق ، وما فيه صلاح العباد في المعاش ، ويجوز أن يكون الكاف في حيز النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد ليوحي ؛ أي : مثل إيحاء هذه السورة يوحي الله العزيز الحكيم إليك عند إيحاء سائر السور ، وإلى سائر الرسل عند إيحاء كتبهم إليهم لا إيحاء مغايرا على أن مدار المثلية كونه بواسطة الملك ، وإنما ذكر بلفظ المضارع مع أن مقتضى المقام ، أن يذكر بلفظ الماضي ضرورة أن الوحي إلى الذين من قبله

٢٨٦

قد مضى ، دلالة على استمرار الوحي ، وتجدده وقتا فوقتا ، وأن إيحاء مثله عادته تعالى ، ويجوز أن يكون إيذانا أن الماضي والمستقبل بالنسبة إليه تعالى واحد كما في "الكواشي".

والعزيز الحكيم : صفتان مقررتان لعلو شأن الموحي به ؛ لأنه أثر من اتصف بكمال القدرة والعلم.

﴿له ما فى السماوات وما فى الأرض﴾ ؛ أي : أن الله تعالى يختص به جميع ما في العوالم العلوية والسفلية خلقا وملكا وعلما.

﴿وهو العلى﴾ الشأن ﴿العظيم﴾ الملك والقدرة والحكمة ، أو هو العلي ؛ أي : المرتفع عن مدارك العقول إذ ليس كذاته ذات ، ولا كصفاته صفات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، وهو العظيم الذي يصغر عند ذكره وصف كل شيء سواه. والعظيم من العباد الأنبياء والعلماء الوارثون لهم ، فالنبي عظيم في حق أمته ، والشيخ عظيم في حق مريده ، والأستاذ في حق تلميذه.

وإنما العظيم المطلق هو الله تعالى.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٨٥

﴿له ما فى السماوات وما فى الارضا وهو العلى العظيم * تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارضا ألا إن الله هو الغفور الرحيم * والذين اتخذوا من دونه أوليآء الله حفيظ عليهم ومآ أنت عليهم

بوكيل * وكذالك أوحينآ إليك قرءانا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ .

." (١)

٢٢٤-"﴿لهم أجرهم ونورهم﴾ مبتدأ وخبر والجملة خبر ثان للموصول والضمير الأول على الوجه الأول للموصول والأخيران للصديقين والشهداء ولا بأس بالفك عند الأمن أي لهم مثل أجرهم ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال وقد حذف أداة التشبيه تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك حيث قيل هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ما للفريق الأول من الأجر والنور وبين تمام ما للأخيرين من الأصل بدون الأضعاف ليحصل التفاوت وأما على الوجه الثاني فمرجع الكل واحد والمعنى لهم الأجر والنور الموعود أن لهم قال بعض الكبار : لا يكون الأجر إلا مكتسبا فإن أعطاك الحق تعالى ما هو خارج عن الكسب فهو نور وهبات ولا يقال له أجر ولهذا قال تعالى : لهم أجرهم ونورهم فإن أجرهم ما اكتسبوه ونورهم ما وهبه الحق لهم من ذلك حتى لا ينفرد الأجر من غير أن يختلط به الوهب لأن الأجر فيه شائبة الاستحقاق إذ هو معاوضة عن عمل متقدم يضاف إلى العبد فما تم أجر إلا ويخالطه نور وذلك لتكون المنة الإلهية مصاحبة للعبد حيث كان فإن تسمية العبد أجيرا مشعر بأن له نسبة في الطاعات والأعمال الصادرة عنه فتكون الإجارة من تلك النسبة ولذلك طلب العبد العون على خدمة سيده فإن قلت من أي جهة قبل العبد الأجرة والبعد واجب عليه الخدمة لسيده من غير أن يأخذ أجرة وإن جعلناه أجنبيا فمن أي جهة تعين الفرض عليه ابتداء قبل الأجرة والأجير لا يفترض عليه إلا حين يؤجر نفسه قلت : الإنسان مع الحق تعالى على حالتين حالة عبودية وحالة إجارة فمن كونه عبدا فهو مكلف بالفرض كالصلاة والزكاة وجميع الفرائض ولا أجر له على ذلك جملة واحدة ومن كونه أجيرا له الأجرة بحكم الوعد الإلهي ولكن ذلك مخصوص بالأعمال المندوبة لا المفرضة فعلى تلك الأعمال التي ندب الحق إليها فرضت الأجور فإن تقرب العبد بها إلى سيده أعطاه إجارته وإن لم يتقرب لم يطلب بها ولا عوتب عليها ومن هنا كان العبد حكمه حكم الأجنبي في الإجارة للفرض الذي يقابله الجزاء إذ هو العهد الذي بين الله وبين عباده وأما النوافل فلها الأجور المتجة للمحبة الإلهية كما قال لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه **والحكمة في ذلك** أن المتنفل عبد اختياري كالأجير فإذا اختار الإنسان أن يكون عبد الله لا عبد هواه فقد آثر الله على هواه وهو في الفرائض عبد اضطرار لا عبد اختيار وبين عبودية الاضطرار وعبودية الاختيار ما بين الأجير والعبد المملوك إذ العبد الأصلي ماله على سيده استحقاقا إلا ما لا بد منه من مأكل وملبس ثم يقوم بواجبات مقام سيده ولا يزال في دار سيده لا يبرح ليلا ولا نهارا إلا إذا وجهه في شغل آخر فهو في الدنيا مع الله وفي القيامة مع الله وفي الجنة مع الله لأنها جميعا ملك لسيده فيتصرف فيها

٣٦٨

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٤٤

تصرف الملاك والأجير ماله سوء ما عين له من الأجرة منها نفقته وكسوته وماله دخول على حرم سيده وموجره ولا له

---

(١) تفسير روح البيان . ٨/٢١٩

اطلاع على أسراره ولا تصريف في ملكه إلا بقدر ما استؤجر عليه فإذا انقضت مدة إجارته وأخذ أجرته فارق مؤجره واشتغل بأهله وليس له من هذا الوجه حقية ولا نسبة تطلب ممن استأجره إلا أن يمن عليه رب المال بأن يبعث خلفه ويجالسه ويخلع عليه فذلك من باب المنة وقد ارتفعت عنه في الآخرة عبودية الاختيار فإن تفطنت لهذا نبهك على مقام جليل تعرف منه من أي مقام قالت الأنبياء عليهم السلام مع كونهم عبيدا خلصا لم يملكهم هوى نفوسهم ولا أحد من خلق الله ومع هذا قالوا : إن أجري إلا على الله وذلك لأن قولهم هذا راجع إلى تحققهم بدخولهم تحت حكم الأسماء الإلهية بخلاف غيرهم ومن هناك وقعت الإجارة فهم في حال الاضطرار والاختيار عبيد للذات وهم لها ملك فإن الأسماء الإلهية تطلبهم لنظهر آثارها فيهم وهم مخيرون في الدخول تحت أي اسم إلهي شاءوا وقد علمت الأسماء الإلهية ذلك فعينت لهم الأجور وكل اسم يناديهم ادخلوا تحت أمري وأنا أعطيكم كذا وكذا فلا يزال أحدهم في خدمة ذلك الاسم حتى يناديه السيد من حيث عبودية الذات فيترك كل اسم الهي ويقوم لدعوة سيده فإذا فعل ما أمر به حينئذ رجع إلى أي اسم شاء ولهذا يتنقل الإنسان ويتعبد بما شاء حتى يسمع إقامة الصلاة المفروضة فيؤمر بها ويترك النافلة فهو دائما مع سيده بحكم عبودية الاضطرار كذا في كتاب الجواهر للإمام الشعراني قدس سره ﴿والذين ءامنوا بالله ورسله أولئك﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿أصحاب الجحيم﴾ بحيث لا يفارقونها أبدا وفيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار من حيث أن التركيب يشعر بالاختصاص والصحبة تدل على الملازمة عرفا وأراد بالكفر الكفر بالله فهو في مقابلة الإيمان بالله وبتكذي الآيات تكذيب ما بأيدي الرسل من الآيات الإلهية وتكذيب

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٤٤". (١)

٢٢٥-"هـ- الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها: كوني ترابا ، فتكون ترابا ، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت ترابا) .

كيف يحشر الناس ؟

يحشرون حفاة عراة غرلا .

لحديث عائشة . قالت : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قالت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) متفق عليه .

وعن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال (إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا ، ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم) متفق عليه .

حفاة : جمع حاف وهو من ليس عليه نعال .

---

(١) تفسير روح البيان . ٣٠٢/٩

عراة : جمع عار وهو من ليس عليه ثياب .

غرلا : أي غير مختونين .

أول من يكسى إبراهيم .

للحديث السابق (وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام) .

والحكمة في ذلك :

قيل : لم يكن في الأولين والآخرين لله عز وجل عبد أخوف من إبراهيم فتعجل له كسوته أمانا له ليطمئن قلبه .

وقيل : لأنه أول من أمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر .

وقيل : أن الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله جازاه على ذلك بأن جعله أول من يدفع عنه العرى يوم القيامة ، وهذا أحسنها .

أرض المحشر الشام .

عن سهل بن سعد . قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ، ليس فيها معلم لأحد) رواه البخاري .

عفراء : أي ليس بياضها ناصع . كقرصة النقي : الدقيق الخالص من الغش .

ليس فيها معلم لأحد : أي : شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة والبناء .". (١)

٢٢٦-"قال الحافظ ابن حجر : (فالذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العامة في معظم الأرض ، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم ، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العلوية ، وينتهي ذلك بقيام الساعة ، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب . قال : **والحكمة في ذلك** أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة ، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر ، تكميلا للمقصود من إغلاق باب التوبة ، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس) . انتهى .

وقال عبد الله بن عمرو : (لا تلبثون بعد يأجوج ومأجوج إلا قليلا حتى تطلع الشمس من مغربها ، فيناديهم مناد : يا أيها الذين آمنوا قد قبل منكم ، ويا أيها الذين كفروا قد أغلق عنكم باب التوبة ، وجفت الأقلام وطوت الصحف) . رواه نعيم ، وحماد .

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه : « يخرج الدجال من أمتي – الحديث وفيه – : فبعث الله عيسى ابن مريم فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة من خير أو إيمان إلا قبضته – وفيه – : فيبقى شرار الناس في خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون

---

(١) تفسير سورة ق ص/٣٥

معروفا ولا ينكرون منكرا . فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان ، ثم ينفخ في الصور » . وروى أحمد وغيره من حديث أنس : « إن أمام الدجال سنون خداعات يكذب فيها الصادق ، ويصدق فيها الكاذب ، ويخون فيها الأمين ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويتكلم فيها الرويبضة » . وفي حديث أبي هريرة عند ابن ماجة قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « الرجل التافه يتكلم في أمره العامة » .". (١)

٢٢٧-"البيت : الحرم المكي . مثابة : مرجعا يثوب اليه الناس . مقام ابراهيم : هو الحجر الذي كان يقوم عليه حين بناء الكعبة . وقيل ان الحرم كله مقام ابراهيم .

عهد : وصى .

في هذه الآيات يأتي الحديث عن ابراهيم واسماعيل ، وعن البيت الحرام وشعائره ، لتقدير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول النسب الذي يمت به ويحترمه أهل الكتاب ومشركوا العرب ، وهو ملة ابراهيم ونسبه الى عقيدة المسلمين .

اذكروا قصة بناء ابراهيم مع ابنه اسماعيل لبيت الله الحرام بمكة ، اذ جعلنا هذا البيب للخلف ملاذا ومأمنا ، واذ امرنا الناس ان يتخذوا منه مكانا يصلون فيه . وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ، اي وصيناهم ، بتطهير البيت ، وان يصوناه من كل رجس معنوي كلاشرك بالله وعبادة الأصنام ، أو رجس حسي كاللغو والرفث والتنازع فيه ، وقت اداء العبادات . كما أوصيناهما ان يجعلاه مهيأ للناس للطواف والصلاة والسعي .

ومقام ابراهيم الذي جاءت الاشارة اليه كان ملاصقا للكعبة ، وكان الحجاج أثناء الطواف يتزاحمون عنده ، وربما حدث كثير من الانزعاج لبعضهم ، مما حدا بالمسئولين ان يستفتوا العلماء لإبعاده قليلا . وقد افتى بذلك جمهور من العلماء فتمت زحزحته عن مكانه . وهناك من المفسرين من يقول : مقام ابراهيم هو الحرم جميعه ، سماه الله بيته لأنه أمر المصلين ان يتوجهوا في عبادتهم اليه . **والحكمة في ذلك** ان الناس في حاجة الى التوجه الى خالقهم لشكره والثناء عليه ، لكنهم يعجزون عن التوجه الى « ذات مجردة » لا تنحصر في جهة ، فعين الله لهم هذا البيت المقدس نسبة اليه .

واذكروا اذا طلب ابراهيم الى ربه ان يجعل مكة ، البلد الحرام ، بلدا آمنا ، وان يرزق من يحل فيه من ثمرات الأرض وخيراتها . هذا ما طلبه ابراهيم ، فأجابه الله تعالى اليه . اما من كفر فإني انا العلي القدير ، أمتعه في هذه الحياة الدنيا القصيرة الأمد ثم أسوقه الى عذاب النار يوم القيامة .

القراءات :

قرأ نافع وابن عام : « اتخذوا » بلفظ الماضي . وقرأ ابن عامر : « فأمتعه » من أمتع الرباعي .". (٢)

---

(١) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك ٣٨١/٣

(٢) تيسير التفسير للقطان ٦٧/١

٢٢٨-"التربص : الانتظار . القرء : الحيض أو الطهر من الحيض . بعولة : جمع بعل وهو الزوج .

وعلى المطلقات اللاتي دخل بهن أزواجهن ان ينتظرن ثلاثة حيضات لا يجوز للمرأة منهن ان تتزوج قبل انقضائها ، وهي العدة . **والحكمة في ذلك** هي التأكيد من أنها ليست ذات حمل . ولا يجوز لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن من الاولاد ، أو دم الحيض . . ذلك ان بعض المطلقات يدعين ان مدة الحيض طالت فيطالبن بالنفقة عن تلك المدة .

وكانت المرأة في الجاهلية قد تتزوج بعد طلاقها دون ان تنتظ العدة ، ثم يظهر انها حبلى من الاول ، فتلحق الولد بالثاني . . وفي هذا اختلاط الأنساب وضياع لحقوق الناس . فلما جاء الإسلام حرم هذا وشدد في ذلك بقوله : ﴿ إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ اي اذا كن صادقات في الايمان بالله واليوم الآخر .

والأزواج أحق من غيرهم في ارجاع مطلقاتهم اليهم قبل انقضاء العدة إذا قصدوا الاصلاح وحسن المعاشرة . أما اذا قصدوا الإضرار بالمرأة ومنعها من التزوج حتى تبقى كالمعلقة ، فلا ، ويكون الزوج آثما عند الله .

﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . . . ﴾ ان للرجال والنساء حقوقا الواحد منهم تجاه الآخر وعليهم وعليهن واجبات . « وبالمعروف » تعني ان هذه الحقوق والواجبات موكولة الى اصطلاح ما يجري عليه العرف بينهم وما تعارفوا عليه من آداب وعادات . وقد أجمل النبي A هذه الحقوق عندما قضى بين ابنته فاطمة وزوجها علي ، حيث قضى عليها بخدمة البيت ، وعليه بماكان في خارجه من الأعمال .

وهذا ما تحكم به الفطرة في توزيع الأعمال بين الزوجين ، فعلى المرأة تدبير شؤون المنزل وعلى الرجل السعي والكسب في خارجه . ولا يمنع هذا من استعانة اي منهما بالخدم ولا من مساعدة كل منهما للآخر .

أما قوله تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فقد فسرتها الآية الواردة في سورة النساء : ﴿ الرجال قوامون على النسآء بما فضل الله بعضهم على بعض وبمآ أنفقوا من أموالهم ﴾ . فهذه الدرجة هي الرياسة ومسؤولية القيام على المصالح ، والانفاق على الأسرة .

ان الحياة الزوجية تقتضي وجود مسؤول يرجع اليه عند اختلاف الآراء والرغبات حتى لا يعمل كل ضد الآخر ، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة . والرجل هو الأحق بذلك .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فمن عزته ان أعطى المرأة مثل ما اعطى الرجل من الحقوق بعد ان كانت كالمتاع لدى جميع الأمم . إنه هو الذي رفعها عما كانت عليه في كل شريعة من الشرائع الماضية . فلقد كانت المرأة عند الرومان مثلا أمة في بيت زوجها عليها واجبات ، وليس لها حقوق .

ويرى الاستاذ سيد قطب ان هذه الدرحة مقيدة في هذا السياق بحق الرجل في هذا الموضع ، وليست مطلقة الدلالة ، كما يفهمها الكثيرون ، ويستشهدون بها في غير موضعها .". (١)

---

(١) تيسير التفسير للقطان ١٢٩/١

٢٢٩-"الفجر : ضوء الصبح بعد ذهاب الليل . وليال عشر : العشر الأول من ذي الحجة . والشفع والوتر : العدد الزوجي والفردي . والليل اذا يسر : الليل اذا يمضي ويذهب . لذي حجر : لذي عقل . عاد : من قبائل العرب البائدة . إرم ذات العماد : ارم ذات البناء الرفيع ،كانت في الأحقاف بين عمان وحضرموت . ثمود : قبيلة من العرب البائدة . جابوا الصخر : قطعوه ونحتوه . وفرعون ذي الأوتاد : فرعون مصر صاحب الاهرام التي تشبه الاوتاد . طغوا في البلاد : تجاوزوا القدر في الظلم . سوط عذاب : فأنزل الله عليهم ألوانا من العذاب . المرصاد : مكان المراقبة ، رصد الأمر يرصده : راقبه . ابتلاه . اختبره بكثرة الرزق . فقدر عليه رزقه : ضيقه عليه .

﴿ والفجر وليال عشر . . . . ﴾

يقسم الله تعالى بالفجر والليالي العشر المباركة ، وبالزوج والفرد من كل شيء ، وبالليل اذا يمضي بحركة الكون العجيبة ليهلك كل معاند جبار . ﴿ هل في ذلك قسم لذى حجر؟ ﴾ ان في ذكر هذه الأشياء جميعا قسما عظيما مقنعا لذوي العقول ، وحجة كافية على وجوده وقدرته .

وبعد ان أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين – شرع يذكر بعض قصص الجبابرة من الأمم الغابرة : كيف أفسدوا وطغوا ، فأوقع بهم أشد العذاب فقال :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . . . . ﴾

ألم تعلم يا محمد كيف أنزل ربك عقابه بعاد قوم هود ، أهل إرم ذات البناء الرفيع ، والتي لم يخلق مثلها في البلاد ضخامة وارتفاعا!؟ يوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ [الشعراء : ١٢٨-١٢٩] . وقد تقدم الكلام على عاد ونبيهم هود في أكثر من سورة .

﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . . . . ﴾

وثمود ، قوم صالح ، الذين قطعوا الصخر ونحتوه ، وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة . وكانت مساكنهم في الحجر شمالي الحجاز ، ولا تزال بقايا من آثارهم موجودة . كما قال تعالى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ [الشعراء : ١٤٩] .

كذلك ورد ذكر ثمود وبيهم صالح في عدد من السور .

﴿ وفرعون ذى الأوتاد . . . . ﴾

اذكر كيف أنزل ربك عقابه بفرعون صاحب الأهرام والمباني العظيمة ، ووصف الأهرام بالأوتاد في غاية الدقة .

﴿ الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد ﴾

إن جميع هؤلاء : قوم عاد وثمود وفرعون ، قد طغوا وبغوا ، وأفسدوا أشد الفساد .

﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾

فأنزل الله تعالى عليهم الوانا من البلاء والعذاب الشديد ، وأهلكهم وأبادهم .

﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾

إنه ليرقب عمل الناس ، ويحصيه عليهم ويجازيهم به .

وبعد أن بين سبحانه أنه لا يفوته شيء من شأن عباده ، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم – ذكر هنا طبيعة الإنسان الذي يبطر عند الرخاء ويقنط من رحمة ربه عند الضراء فقال :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأمآ إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ .

فأما الانسان اذا ما اختبره ربه فأنعم عليه ووسع له في الرزق والجاه ، فيقول مغترا بذلك : ربي فضلني لأني أستحق هذا كله .

وأما إذا ما اختبره بضيق الرزق فيقول غافلا عن **الحكمة في ذلك** : لقد أهانني ربي .

قراءات :

قرأ عاصم : والوتر بفتح الواو ، والباقون بكسرها . وقرأ ابن عامر فقدر بفتح الدال بالتشديد . والباقون بدون تشديد .". (١)

٢٣٠-"يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم بقوله : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك ، ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ وقال : ﴿ ويجعلكم خلفآء الأرض ﴾ [النمل : ٦٢] وقال : ﴿ ولو نشآء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ [الزخرف : ٦٠] وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين ، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من ﴿ صلصال من حمإ مسنون ﴾ [الحجر : ٢٦] أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم (قاله القرطبي) . أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك .

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين ، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه ، وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء ﴾ ؟ الآية . وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك** ، يقولون : يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء ، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك ولا يصدر منا شيء من ذلك ، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ ، أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون ، والعباد والزهاد ، والأولياء والأبرار ، والمقربون ، والعلماء

---

(١) تيسير التفسير للقطان ٤٣٢/٣

العاملون ، والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى ، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم .
وقيل : معنى قوله تعالى : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها ، وقيل : إنه جواب ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ فقال : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ أي من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به . وقيل : بل تضمن قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ ، طلبا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم ، فقال الله تعالى ذلك : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم .". (١)

٢٣١-"هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة ، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة ، حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم ، فقال تعالى : ﴿ وعلم ءادم الأسمآء كلها ﴾ قال السدي عن ابن عباس : ﴿ وعلم ءادم الأسمآء كلها ﴾ علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا ، والدواب فقيل هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس . وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ وعلم ءادم الأسمآء كلها ﴾ قال : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ، ودواب ، وسماء ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وخيل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وقال مجاهد ﴿ وعلم ءادم الأسمآء كلها ﴾ : علمه اسم كل دابة وكل طير ، وكل شيء ، وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء . والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها ، ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية عن أنس عن النبي A قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا » الحديث . فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال : ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ يعني المسميات ﴿ فقال أنبئوني بأسمآء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ قال مجاهد : ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة .
وقال ابن جرير عن الحسن وقتادة قالا : علمه اسم كل شيء ، وجعل يسمي كل شيء باسمه وعرضت عليه أمة أمة ، وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله تعالى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إني لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال السدي ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء . ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنآ إلا ما علمتنآ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا : ﴿ سبحانك لا علم لنآ إلا ما علمتنآ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أي العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك ، وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ص/٤٠

الحكمة في ذلك والعدل التام . عن ابن عباس ﴿ سبحان الله ﴾ قال : تنزيه الله نفسه عن السوء .". (١)

٢٣٢-"يقول تعالى : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة ﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم ، ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾ يعني يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا ، وأسروا سبعين أسيرا ﴿ قلتم أنى هذا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا؟ ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ . عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول الله A عنه وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ بأخذكم الفداء ، وهكذا قال الحسن البصري وقوله : ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله A حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم ، يعني بذلك الرماة ، ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه . ثم قال تعالى : ﴿ ومآ أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره ، وله **الحكمة في ذلك** ، ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ، ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ يعني بذلك أصحاب (عبد الله بن أبي ابن سلول) الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال : ﴿ أو ادفعوا ﴾ ، قال ابن عباس وعكرمة : يعني كثروا سواد المسلمين ، وقال الحسن : ادفعوا بالدعاء ، وقال غيره : رابطوا ، فتعللوا قائلين : ﴿ لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ ، قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ، ولكن لا تلقون قتالا . وقد روي أن رسول الله A خرج إلى أحد في الف رجل من أصحابه؛ حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الناس فقال : أطاعهم فخرج وعصاني ، ووالله ما ندري علام نقتل انفسنا هاهنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول : يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكن لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم ، ومضى رسول الله A ، قال الله عز وجل : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ ، استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ .". (٢)

٢٣٣-"يقول تعالى : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف ، كقوله تعالى : ﴿ ولو نشآء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ [الزخرف : ٦٠] ، وكقوله

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ص/٤٣

(٢) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ص/٤١٨

تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفآء الأرض ﴾ [النمل : ٦٢] ، وقوله : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وقوله : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، وقوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ ، أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي ، والمناظر والأشكال والألوان ، وله **الحكمة في ذلك** ، كقوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وقوله : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ [الإسراء : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿ ليبلوكم في مآ آتاكم ﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به ليختبر الغني في غناه ، ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ويسأله عن صبره . وفي صحيح مسلم قال رسول الله A : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » وقوله تعالى : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ، ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب . وقال محمد بن إسحاق : ليرحم العباد على ما فيهم . وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين ، كقوله : ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ [الحجر : ٤٩-٥٠] إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب . فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه ، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب . وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا أن رسول الله A قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة . خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه ، يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون » ، وعنه أيضا قال : سمعت رسول الله A يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » .". (١)

٢٣٤-"وقد وضح النبي صلى الله عليه وسلم النصب في هذه الأنواع كلها ، وبين مقدار الواجب منها ، وأنها عشر الخارج من الأرض مما يسقى بلا مؤنة ، ونصف عشره فيما سقي بمؤنة ، وربع العشر من أموال التجارة ، وذلك إذا حال الحول في أموال التجارة ، وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار ، كما هو صريح الآية المذكورة .

وأمر تعالى بإخراج الوسط ، فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالي من ماله - إلا أن يختار هو ذلك - ولا يحل له أن يتيمم الخبيث - وهو الرديء من ماله - فيخرجه ، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضا ، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نفلا ؛ وبين تعالى **الحكمة في ذلك** ، وأنها حكمة معقولة : فكما أنكم لا ترضون ممن عليه حق لكم أن يعطيكم الرديء من ماله الذي هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والإغماض ، فكيف ترضون لربكم ولإخوانكم ما لا ترضونه

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ص/٨٢٥

لأنفسكم ؟ فليس هذا من الإنصاف والعدل .". [(١)]

٢٣٥-"أنه يملك عبادا غيرك كما قال : "وما يعلم جنود ربك إلا هو" [المدثر : ٣١] وأنت ليس لك رب سواه ، ثم أنه يربيك كأنه ليس له عبد سواك وأنت تخدمه كأن لك ربا غيره ، فما أحسن هذه التربية أليس أنه يحفظك في النهار عن الآفات من غير عوض ، وبالليل عن المخافات من غير عوض ؟ واعلم أن الحراس يحرسون الملك كل ليلة ، فهل يحرسونه عن لدغ الحشرات وهل يحرسونه عن أن تنزل به البليات ؟ أما الحق تعالى فإنه يحرسه من الآفات ، ويصونه من المخافات ، بعد أن كان قد زج أول الليل في أنواع المحظورات وأقسام المحرمات والمنكرات ، فما أكبر هذه التربية وما أحسنها (١). أ هـ

وقال السلمى : وقيل أيضا : الحمد لله رب العالمين عن العالمين قبل العالمين لعلمه بعجز العالمين عن أداء حمد رب العالمين. وقيل هذا رحمة للعالمين بإضافته إياهم إليه أنه ربهم.أهـ [حقائق التفسير للسلمى حـ ١ صـ ٣٤ . ط العلمية . بيروت]

وقال فى تنوير الأذهان ما نصه : ﴿رب العالمين﴾ لما نبه على استحقاقه الذاتى بجميع المحامد بمقابلة الحمد باسم الذات أردفه بأسماء الصفات جمعا بين الاستحقاقين وهو أى [رب العالمين] كالبرهان على استحقاقه جميع المحامد الذاتى والصفاتي والدنيوىوالأخروى. أهـ ﴿تنوير الأذهان حـ١ صـ ٩﴾

الرحمن الرحيم

فإن قيل : إنه تعالى ذكر الرحمن الرحيم في التسمية ثم ذكرهما مرة ثانية دون الأسماء الثلاثة الباقية ، فما **الحكمة في ذلك** ؟ أجيب بأن **الحكمة في ذلك** كأنه قال تعالى : أذكر أني إله ورب مرة واحدة وأذكر أني رحمن رحيم مرتين ليعلم أن العناية بالرحمة أكثر منه بسائر الأمور (٢). أ هـ

وقال القاسمي – رحمه الله – إيرادهما عقب وصف الربوبية من باب قرن الترغيب بالترهيب الذي هو أسلوب التنزيل الحكيم (٣). أ هـ

مالك يوم الدين

---

(١) التفسير الكبير حـ١ ص١٩٩ : ٢٠١ باختصار يسير.

(٢) السراج المنير للخطيب الشربيني حـ١ ص٩

(٣) تفسير القاسمي حـ٢ ص٢٤٧". [(٢)]

٢٣٦-"وتقديم الجار والمجرور على عامله لا أراه إلا لمجرد الاهتمام بتشريف أمر هذه الأمة حتى أنها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلا رسولها أ هـ

---

(١) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ١/١٣٥

(٢) جامع لطائف التفسير ١/٧٤

﴿التحرير والتنوير حـ ٢ صـ ٢٠ - ٢٢ باختصار يسير﴾.
سؤال : فإن قيل : لم قدم المجرور في قوله ﴿عليكم شهيدا﴾ وآخره في قوله ﴿شهداء على الناس﴾ ؟
فالجواب : أن تقديم المعمولات يفيد الحصر فقدم المجرور في قوله ﴿عليكم شهيدا﴾ لاختصاص شهادة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمته ، ولم يقدمه في قوله ﴿شهداء على الناس﴾ لأنه لم يقصد الحصر. أ هـ ﴿التسهيل حـ ١ صـ ٦٢﴾.
سؤال : ما **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - في الفضل عن سائر الأمم ؟
الجواب : **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء ، والإيمان بهم جميعا ، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق ، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهارا لعدالتهم وكشفا عن فضيلتهم ومنقبتهم. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٤ صـ ٩٢﴾.
قال الشيخ الشنقيطى :
قوله تعالى : ﴿ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.
لم يبين هنا هل هو شهيد عليهم في الدنيا أو الآخرة ؟ ولكنه بين في موضع آخر أنه شهيد عليهم في الآخرة ، وذلك في قوله : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا﴾ [النساء : ٤١-٤٢]. أ هـ
﴿أضواء البيان حـ ١ صـ ٧٠﴾.". (١)

٢٣٧-"لطيفة
وجاء في هذا المكان " من بعد ما جاءك " وقال قبل هذا : ﴿بعد الذي جآءك﴾ [البقرة : ١٢٠] وفي " الرعد " : ﴿بعد ما جآءك﴾ [الرعد : ٣٧] فلم يأت بـ " من " الجارة إلا هنا ، واختص موضعا بـ " الذين " ، وموضعين بـ " ما " ، فما **الحكمة في ذلك** ؟
والجواب : ما ذكره بعضهم وهو أن " الذي " أخص و" ما " أشد إبهاما ، فحيث أتي بـ " الذي " أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى ، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه ؛ لأنه علم بكل أصول الدين ، وحيث أتي بلفظ " ما " أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين ، أحدهما : القبلة ، والأخر : بعض الكتاب ؛ لأنه أشار إلى قوله : ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ [الرعد : ٣٦].
قال : وأما دخول " : من " ففائدته ظاهرة ، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يخالف أهل

(١) جامع لطائف التفسير ٢/٢٠٤

الكتاب في قبلتهم ، والذي يقال في هذا : إنه من باب التنوع من البلاغة. أ هـ. ﴿تفسير ابن عادل حـ ٣ صـ ٥٠﴾". (١)

٢٣٨-"﴿بل﴾ للإضراب الإبطالي إبطالا لمضمون المنهي عن قوله ، والتقدير بل هم أحياء ، وليس المعنى بل قولوا هم أحياء لأن المراد إخبار المخاطبين هذا الخبر العظيم ، فقوله : "أحيآء" هو خبر مبتدأ محذوف وهو كلام مستأنف بعد ﴿بل﴾ الإضرابية.

وإنما قال : ﴿ولكن لا تشعرون﴾ للإشارة إلى أنها حياة غير جسمية ولا مادية بل حياة روحية ، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح ، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحشر مع إحساس ما بكونها آيلة إلى نعيم أو جحيم ، وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة ، ولذلك ورد في الحديث " إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طيور خضر ترعى من ثمر الجنة وتشرب من مائها ". **والحكمة في ذلك** أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحواس الجسمانية ، فلما انفصلت الروح عن الجسد عوضت جسدا مناسبا للجنة ليكون وسيلة لنعميها. أ هـ

﴿التحرير والتنوير حـ ٢صـ ٥٣ . ٥٤﴾.

سؤال : ما مالمراد من قوله ﴿بل إحياء﴾ ؟

قال الماوردى :

في الآية تأويلان :

أحدهما : أنهم ليسوا أمواتا وإن كانت أجسامهم أجسام الموتى بل هم عند الله أحياء النفوس منعمو الأجسام.

والثاني : أنهم ليسوا بالضلال أمواتا بل هم بالطاعة والهدى أحياء ، كما قال تعالى : ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام : ١٢٢] فجعل الضال ميتا ، والمهتدي حيا.

ويحتمل تأويلا ثالثا : أنهم ليسوا أمواتا بانقطاع الذكر عند الله وثبوت الأجر. أ هـ ﴿النكت والعيون حـ ١صـ ١٠٩﴾.

وقد رجح القول الأول الإمام فخر الدين الرازى فقال :

اعلم أن أكثر العلماء على ترجيح القول الأول ، والذي يدل عليه وجوه.". (٢)

٢٣٩-"الأول : وهو قول أكثر المفسرين حمل الآية على هذه الأحوال التي رويناها في سبب النزول ، إلا أن على هذا التقدير صعب الكلام في نظم الآية ، فإن القوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحكمة في تغيير نور القمر ، فذكر الله تعالى **الحكمة في ذلك** ، وهي قوله : ﴿قل هى مواقيت للناس والحج﴾ فأي تعلق بين بيان الحكمة في اختلاف نور القمر ، وبين هذه القصة ، ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن هذا السؤال من وجوه أحدها : أن الله تعالى لما ذكر أن

---

(١) جامع لطائف التفسير ٢/٢٣١

(٢) جامع لطائف التفسير ٢/٣١٢

الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج ، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج لا جرم تكلم الله تعالى فيه وثانيها : أنه تعالى إنما وصل قوله : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ بقوله : ﴿يسئلونك عن الأهلة﴾ لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معا في وقت واحد ووصل أحد الأمرين بالآخر وثالثها : كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة فقيل لهم : اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم لكم فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر وليس الأمر كذلك.

". (١)

٢٤٠-"كذلك ليس الذكر كالأنثى في التركيب البدني والهرموني والدماغي ليس الذكر كالأنثى في فرض بعض الأمور الشرعية مثل الجهاد، فإنه لم يفرض على النساء ولله تعالى **الحكمة في ذلك**؛ لأن المرأة هي التي تلد الرجال الذين يجاهدون، وهي مهيأة لولادة الرجال بكل تكوينها العضوي والنفسي ومهيأة لإعدادهم للجهاد وللحياة على حد سواء، فالحرب حين تحصد الرجال وتستبقي الإناث تدع للأمة مراكز إنتاج الذرية، فرجل واحد مع أربع نساء يعوض الأمة الكثير من الرجال، ولكن ألف رجل لا يملكون أن يجعلوا امرأة واحدة تنتج أكثر مما تنتج من رجل واحد، فهذا باب من أبواب حكمة الله التي لم تجعل الذكر كالأنثى وأعفت المرأة من فريضة الجهاد إلا في حالات الضرورة القصوى.

ثالثا: للرجال درجة في المنزلة والتقديم:

فهو إمامها في الصلاة ولم يعرف التاريخ الإسلامي منذ فجره أن امرأة مهما بلغ علمها وحفظها لكتاب الله تعالى وفقهها أن المسلمين قدموها لتصلي بهم، ولا طلبت المرأة هذا. والكل يحفظ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عند مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه". ﴿رقم ٦٧٣﴾.

أليس هذا فضلا ودرجة من قبيل تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم الأقرأ من الرجال وتقديمه وإن كان في القوم من هو أقرأ منه من النساء وأفقه؟!

رابعا: هو رئيسها والحاكم عليها وليس العكس:". (٢)

٢٤١-"الأول : قال الحسن : القدس هو الله تعالى ، وروحه جبريل عليه السلام ، والإضافة للتشريف ، والمعنى أعناه بجبريل عليه السلام في أول أمره وفي وسطه وفي آخره ، أما في أول الأمر فلقوله : ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ [التحريم : ١٢] وأما في وسطه فلأن جبريل عليه السلام علمه العلوم ، وحفظه من الأعداء ، وأما في آخر الأمر فحين أرادت

---

(١) جامع لطائف التفسير ١٧٧/٤

(٢) جامع لطائف التفسير ٢٧٨/٦

اليهود قتله أعانه جبريل عليه السلام ورفعه إلى السماء والذي يدل على أن روح القدس جبريل عليه السلام قوله تعالى : ﴿قل نزله روح القدس﴾ [النحل : ١٠٢].

والقول الثاني : وهو المنقول عن ابن عباس أن روح القدس هو الاسم الذي كان يحيي به عيسى عليه السلام الموتى.

والقول الثالث : وهو قول أبي مسلم : أن روح القدس الذي أيد به يجوز أن يكون الروح الطاهرة التي نفخها الله تعالى فيه ، وأبانه بها عن غيره ممن خلق من اجتماع نطفتي الذكر والأنثى. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٦ صـ ١٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ ولو شآء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ ولو شآء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ﴾ أي من بعد الرسل.

قيل : الضمير لموسى وعيسى ، والاثنان جمع.

وقيل : من بعد جميع الرسل ، وهو ظاهر اللفظ.

وقيل : إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى ، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي ، وهذا كما تقول : اشتريت خيلا ثم بعتها ، فجاز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرسا وبعته ثم آخر وبعته ، ثم آخر وبعته ، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا وعلى حطام الدنيا ، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك** الفعل لما يريد. أ هـ ﴿تفسير القرطبي حـ ٣ صـ ٢٦٥﴾

وقال أبو حيان :". (١)

٢٤٢-"وما أبدوه في تخصيص الأربعة وفي تعيينها لا تكاد تظهر حكمته فيما ذكروه ، وما أجراه الله تعالى لأنبيائه من الخوارق مختلف ، وحكمة اختصاص كل نبي بما أجرى الله له منها مغيبة عنا.

ألا ترى خرق العادة لموسى في أشياء ، ولعيسى في أشياء غيرها ، ولرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم في أشياء لا يظهر لنا سر **الحكمة في ذلك** ؟ فكذلك كون هذه الأربعة من الطير ، لا يظهر لنا سر حكمته في ذلك. أ هـ ﴿البحر المحيط حـ ٢ صـ ٣١٠﴾

لطيفة

قال ابن عاشور :

وجيء بمن للتبعيض لدلالة على أن الأربعة مختلفة الأنواع ، والظاهر أن حكمة التعدد والاختلاف زيادة في تحقق أن الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض ، فلذلك عددت الأنواع ، ولعل جعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع : المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا يظن لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتي الإحياء ، ويجوز أن المراد بالأربعة أربعة

---

(١) جامع لطائف التفسير ١٣٦/٨

أجزاء من طير واحد فتكون اللام للعهد إشارة إلى طير حاضر ، أي خذ أربعة من أجزائه ثم ادعهن ، والسعي من أنواع المشي لا من أنواع الطيران ، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة ، لئلا يظن أنهن لم يمتن تماما. أ هـ ﴿التحرير والتنوير حـ ٣ صـ ٣٩ . ٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿فصرهن إليك﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة ﴿فصرهن إليك﴾ بكسر الصاد ، والباقون بضم الصاد ، أما الضم ففيه قولان

الأول : أن من صرت الشيء أصوره إذا أملته إليه ورجل أصور أي مائل العنق ، ويقال : صار فلان إلى كذا إذا قال به ومال إليه ، وعلى هذا التفسير يحصل في الكلام محذوف ، كأنه قيل : أملهن إليك وقطعهن ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ، فحذف الجملة التي هي قطعهن لدلالة الكلام عليه كقوله ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ على معنى : فضرب فانفلق لأن قوله ﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ يدل على التقطيع.

". (١)

٢٤٣-"أحدها : المراد : ونكفر عنكم بعض سيئاتكم لأن السيئات كلها لا تكفر بذلك ، وإنما يكفر بعضها ثم أبهم الكلام في ذلك البعض لأن بيانه كالإغواء بارتكابها إذا علم أنها مكفرة ، بل الواجب أن يكون العبد في كل أحواله بين الخوف والرجاء وذلك إنما يكون مع الإبهام والثاني : أن يكون ﴿من﴾ بمعنى من أجل ، والمعنى : ونكفر عنكم من أجل ذنوبكم ، كما تقول : ضربتك من سوء خلقك أي من أجل ذلك والثالث : أنها صلة زائدة كقوله ﴿فيها من كل الثمرات﴾ [محمد : ١٥] والتقدير : ونكفر عنكم جميع سيئاتكم والأول أولى وهو الأصح. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٧ صـ ٦٧﴾

وقال القرطبى :

و "من" في قوله ﴿من سيئاتكم﴾ للتبعيض المحض.

وحكى الطبري عن فرقة أنها زائدة.

قال ابن عطية : وذلك منهم خطأ. أ هـ ﴿تفسير القرطبى حـ ٣ صـ ٣٣٦﴾

وقال الماوردى :

إنها ليست زائدة وإنما دخلت للتبعيض ، لأنه إنما يكفر بالطاعة من غير التوبة الصغائر ، وفي تكفيرها وجهان :

أحدهما : يسترها عليهم.

والثاني : يغفرها لهم. أ هـ ﴿النكت والعيون حـ ١ صـ ٣٤٥﴾

---

(١) جامع لطائف التفسير ٣٩٦/٨

وقال ابن الجوزى :

قال أبو سليمان الدمشقي : ووجه **الحكمة في ذلك** ﴿التعبير بتكفير بعض الذنوب دون الكل﴾ أن يكون العباد على خوف ووجل. أ هـ ﴿زاد المسير حـ ١ صـ ٣٢٦﴾

قوله تعالى ﴿والله بما تعملون خبير﴾

قال الفخر :

إشارة إلى تفضيل صدقة السر على العلانية ، والمعنى أن الله عالم بالسر والعلانية وأنتم إنما تريدون بالصدقة طلب مرضاته ، فقد حصل مقصودكم في السر ، فما معنى الإبداء ، فكأنهم ندبوا بهذا الكلام إلى الإخفاء ليكون أبعد من الرياء.أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٧ صـ ٦٧﴾

وقال الطبرى :

قوله : ﴿والله بما تعملون خبير﴾". (١)

٢٤٤-"وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الراسخين في العلم فقال : " هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه " فإن قيل : كيف كان في القرآن متشابه والله يقول : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل : ٤٤] فكيف لم يجعله كله واضحا ؟ قيل له : **الحكمة في ذلك** والله أعلم أن يظهر فضل العلماء ، لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضل بعضهم على بعض.

وهكذا يفعل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا وبعضه مشكلا ، ويترك للجثوة موضعا ؛ لأن ما هان وجوده قل بهاؤه. والله أعلم. أ هـ ﴿تفسير القرطبي حـ ٤ صـ ١٦ ـ ١٩﴾

فائدة

قال القرطبي :

هذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة ، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ : إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدري من هم.

قلت : قد مر هذا التفسير عن أبي أمامة مرفوعا ، وحسبك. أ هـ ﴿تفسير القرطبي حـ ٤ صـ ١٣﴾

فصل

قال القرطبي :

قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه :

متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك في القرآن وإضلال العوام ، كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون

---

(١) جامع لطائف التفسير ١٧٥/٩

في القرآن ؛ أو طلبا لاعتقاد ظواهر المتشابه ، كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن الباريء تعالى جسم مجسم وصورة مصورة ذات وجه وعين ويد وجنب ورجل وأصبع ، تعالى الله عن ذلكا ؛ أو يتبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها ، أو كما فعل صبيغ حين أكثر على عمر فيه السؤال.

فهذه أربعة أقسام :

الأول : لا شك في كفرهم ، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة.". (١)

٢٤٥-"قرأ نافع وأبان عن عاصم ﴿ترونهم﴾ بالتاء المنقطة من فوق ، والباقون بالياء فمن قرأ بالتاء فلأن ما قبله خطاب لليهود ، والمعنى ترون أيها اليهود المسلمين مثل ما كانوا ، أو مثلي الفئة الكافرة ، أو تكون الآية خطابا مع مشركي قريش والمعنى : ترون يا مشركي قريش المسلمون مثلي فئتكم الكافرة ، ومن قرأ بالياء فللمغالبة التي جاءت بعد الخطاب ، وهو قوله ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم﴾ فقوله ﴿يرونهم﴾ يعود إلى الإخبار عن إحدى الفئتين. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٧ صـ ١٦٦﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه قد تقدم في هذه الآية ذكر الفئة الكافرة وذكر الفئة المسلمة فقوله ﴿يرونهم مثليهم﴾ يحتمل أن يكون الراؤن هم الفئة الكافرة ، والمرئيون هم الفئة المسلمة ، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذان احتمالان ، وأيضا فقوله ﴿مثليهم﴾ يحتمل أن يكون المراد مثلي الرائين وأن يكون المراد مثلي المرئين فإذن هذه الآية تحتمل وجوها أربعة الأول : أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين.

والاحتمال الثاني : أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين ، **واﻟﺤﻜﻤﺔ ﻓﻲ ذﻟﻚ** أنه تعالى كثر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم.

فإن قيل : هذا متناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال ﴿ويقللكم فى أعينهم﴾ [الأنفال : ٤٤].

فالجواب : أنه كان التقليل والتكثير في حالين مختلفين ، فقللوا أولا في أعينهم حتى اجترؤا عليهم ، فلما تلاقوا كثرهم الله في أعينهم حتى صاروا معلوبين ، ثم إن تقليلهم في أول الأمر ، وتكثيرهم في آخر الأمر ، أبلغ في القدرة وإظهار الآية.". (٢)

٢٤٦-"فصل

قال ابن العربى :

التفرق المنهي عنه يحتمل ثلاثة أوجه : الأول : التفرق في العقائد لقوله تعالى : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا

---

(١) جامع لطائف التفسير ٢٢٣/١١

(٢) جامع لطائف التفسير ٣٧٥/١١

والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ الثاني : قوله عليه السلام : ﴿لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا﴾ ، ويعضده قوله تعالى : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ الثالث : ترك التخطئة في الفروع والتبري فيها ، وليمض كل أحد على اجتهاده ؛ فإن الكل بحبل الله معتصم ، وبدليله عامل ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : ﴿لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة﴾ ؛ فمنهم من حضرت العصر فأخرها حتى بلغ بني قريظة أخذا بظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من قال : لم يرد هذا منا يعني وإنما أراد الاستعجال فلم يعنف النبي عليه السلام أحدا منهم.

والحكمة في ذلك أن الاختلاف والتفرق المنهي عنه إنما هو المؤدي إلى الفتنة والتعصب وتشتيت الجماعة ؛ فأما الاختلاف في الفروع فهو من محاسن الشريعة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد﴾.

وروي أن له إن أصاب عشرة أجور. أ هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ ١ صـ ٣٨١ . ٣٨٢﴾". (١)

٢٤٧-"وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل وعند التهنئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذي بيض وجهك ، ويقال لمن وصل إليه مكروه : إربد وجهه واغبر لونه وتبدلت صورته ، فعلى هذا معنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله ، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني.

والقول الثاني : إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب المصير إليه ، قلت : ولأبي مسلم أن يقول : الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾ فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلا ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ، ثم قال القائلون بهذا القول : **الحكمة في ذلك** أن أهل الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين أحدهما : أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة ، قال تعالى مخبرا عنهم ﴿ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾ [يس : ٢٦ ، ٢٧]". (٢)

---

(١) جامع لطائف التفسير ٢٨٩/١٥

(٢) جامع لطائف التفسير ٣٦٩/١٥

٢٤٨-"ثم أضاف الأولاد إليهم بقوله أولادكم ومعلوم أن الولد فلذة الكبد وذلك موجب للرحمة الشديدة فمع أنه أضاف الأولاد إليهم جعل الوصية لنفسه دونهم ليدل على أنه أرأف وأرحم بالأولاد من آبائهم ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول العبد لأخيه أوصيك في أولادك لأن أبا الولد أرحم بهم فكيف يوصيه غيره بهم وإنما المعروف أن يقول أوصيك بولدي خيرا فلما قال الله تبارك وتعالى يوصيكم الله في أولادكم علم أن رب الأولاد أرحم بالأولاد من الوالدين لهم حيث أوصى بهم وفيهم ولذلك قال عليه الصلاة

والسلام في امرأة رآها قد ألقت نفسها على ابنها في بعض المغانم الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها وكذلك قال في الحمرة التي أخذ فراخها فألقت نفسها عليهم حتى أطبق عليها الكساء معهم فقال عليه الصلاة والسلام أتعجبون من رحمة هذه بفراخها فالله أرحم بعبده المؤمن منها وحسبك بقوله سبحانه وهو أرحم الراحمين فالأبوان من الراحمين فالله تعالى أرحم منهما فلذلك أوصى الاباء بأولادهم وإن كان المعروف ألا يوصى والد بولده وإنما يوصي الإنسان غيره بولد نفسه إذا غاب عنه وأما أن يوصى والد بولد نفسه فغير معروف في العادة لأن للولد أن يقول أنا أرحم بولدي منك فكيف توصيني بهم فسبحان من هو أرحم الراحمين وأعدل الحاكمين

فصل

في أسرار قوله يوصيكم الله

وقال سبحانه يوصيكم بلفظ الفعل الدائم لا بلفظ الماضي كما قال في غير آية نحو قوله تعالى أنزلناها وفرضناها ونحو قوله فرض عليك القرآن ونحو قوله ذلكم وصاكم به ونحو قوله كتب عليكم الصيام وكتب عليكم القتال ولم يقل ههنا كذلك وإنما قال يوصيكم **والحكمة في ذلك** والله أعلم أن الآية ناسخة للوصية المكتوبة عليهم في قوله كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت الآية فلما نسخ الوصية الماضية واستأنف حكما". (١)

٢٤٩-"وقال وأبناؤكم ولم يقل بنوكم وقال بنو إسرائيل وبني آدم لأن لفظ الجمع المكسر وهو الأبناء أولى في الفصاحة إذا أضيف إلى جمع كما قلنا في أولادكم ولفظ الجمع المسلم لقربه من لفظ الواحد ومن معناه في القلة أولى إذا أضفت البنين إلى واحد هذا حكم البلاغة فتأمله في القرآن حيث وقع تجده كذلك ونحو منه ما ذكرناه في أولادكم وسيد ولد آدم

وقال فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما أي بعلمه وحكمته فرض هذا أو وصى به ولم يكلكم إلى علمكم ورأيكم لما علم في ذلك من الضرر لكم

فصل في حجب الأب للإخوة

ذكر عبد بن حميد الكشي عن بعض التابعين أن الأب حجب الأخوة وأخذ سهامهم لأنه يتولى نكاحهم والإنفاق عليهم دون الأم وذكره الطبري أيضا وقال محتمل أن تكون الحكمة فيه هذا أو يحتمل أن يكون هذا تعبدا من الله تعالى استأثر بعلم السر فيه والمصلحة دون العبادة فصل

---

(١) جامع لطائف التفسير ٤٢٤/٢٠

سر تكرار من بعد وصية عقب ميراث الزوج والزوجة

وقوله ولكم نصف ما ترك أزواجكم الآية كلام بين لا إشكال فيه غير أنه قال بعد الفراغ من ميراث الزوج من بعد وصية وقال مثل ذلك بعد الفراغ من ميراث الزوجة مرة أخرى ولم يقل مثل هذا فيما تقدم إلا مرة واحدة وقد ذكر ميراث الأولاد وميراث الأبوين وميراث الأم مع الأخوة

والحكمة في ذلك أن ذكره لما تقدم يدور على موروث واحد وإن تغايرت الورثة لأن الضمائر كلها تعود على واحد من قوله ولأبويه ولأمه

و له إخوة ويوصي بها فالموروث في هذا كله واحد فلما فرغ من قصته قال من بعد وصية يوصي بها أو دين فالموروث في قصة الأزواج غير الموروث في قصة الزوجات وكذلك موروث الكلالة بعد هذا فتأمله والله المستعان فصل في حكمة التعبير بضمير الجمع في ولهن". (١)

٢٥٠-"ج٣ص١٥٥

يشمل من يتبعهم ، والولدان على الأول جمع وليد ووليدة بمعنى ولد ، وقيل : إنه جمع ولد كورل وورلان وأما على كونه بمعنى العبيد ، والإماء فجمع وليد ووليدة بمعنى عبد وجارية على التغليب لأنه ورد بهذا المعنى في اللغة وان كانت الوليدة غلبت على الجارية. فقوله : وهو جمع وليد كان الظاهر أن يقول ووليدة كما في الكشاف فكأنه اعتبر التغليب في المفرد فتأمل. قوله : (فاستجاب الله دعاءهم الخ) إشارة إلى دفع ما يقال إن الدعاء إن كان بمجموع الأمرين لم يستجب وان كان بأحدهما لا على التعيين فالظاهر العطف بأو بأنه على التوزيع فلذا عطف بالواو أو هو لمجموعهما ، والمقصود منه الخلاص وقد حصل وعتاب بالتشديد ابن أسيد بفتح الهمزة ، وكسر السين وكان حين ولاه على مكة ابن ثماني عشرة سنة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أسيدا في الجنة ، وهو مات كافرا فانتبه وقال : " أولتة بابنه عتاب " فشهد له بالجنة وكأن **الحكمة في ذلك** مع وجود كبار الصحابة إظهار عزة الدين وغلبته حتى لا يخشى من أحد فيليها من المؤمنين الكبير والصغير ، وفي الانتصاف في الآية نكتة حسنة ، وهي أن كل قرية ذكرت في القرآن نسب إليها ما لأهلها مجازا كقوله : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت ﴾ [سورة النحل ، الآية : ١١٢] الآية وفي هذه عدل إلى الإسناد

الحقيقي لأهلها لأن المراد مكة فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفا لها به شرفها الله. قوله :) فيما يصلون به إلى الله (وفي ظرفية أو بمعنى اللام ، وسبيل الطاغوت الكفر والمراد بأولياء الشيطان الكفرة المجاهرون ، والمراد بالذين كفروا قبله هم المنافقون ، وكذا الفريقين فيقوله مقصد الفريقين المؤمنون ، والمنافقون كما قيل ولا يؤبه بالمجهول بمعنى لا يبالي به كيعبأ ، وأضعف شيء هو الشيطان ، والتفضيل في الضعف مأخوذ من كان المفيدة للاستمرار لأن استمرار الضعف لزيادته ، ولو كان قليلا لانقطع ، وقيل : إنه من صيغة ضعيفا ، وفيه نظر لأنها لا تفيد المبالغة ، والذين قيل لهم كفوا عن القتال مع الكفار هم

---

(١) جامع لطائف التفسير ٤٤٣/٢٠

المؤمنون الذين كانوا بمكة لأنهم أمروا به ما داموا بمكة ، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه فنزلت ، ولذا فسر أبو منصور ، والزمخشري الخشية بأنها ما ركز في طبع الإنسان من كراهة ما فيه خوف هلاكه لا أنها كراهة لأمر الله وحكمه اعتقادا. قوله : (وإذا للمفاجأة الخ) وهي ظرف مكان كما تقرر في النحو وقيل ظرف زمان ، وجوز فيها أن تكون خبرا لمبتدأ هنا فيخشون صفة أيضا. قوله : (من إضافة المصدر إلى المفعول الخ) قال النحرير ليس المصدر من المبني للمفعول بحيث تكون الإضافة إلى ما هو قائم مقام الفاعل كقوله تعالى : ﴿ وهم من بعد غلبهم ﴾ [سورة الروم ، الآية : ٣] أي مغلوبيتهم وذلك لأنه حينئذ لا يكون لإضافة الأهل إليهم كبير معنى بمنزلة قولك مثل أهل مخوفية الله بل المعنى مثل أهل الخائفية من الله وهم الخائفون فليتنبه للفرق بين المصدر المبني للمفعول ، والمضاف إلى المفعول وقوله وقع موقع المصدر أي خشية كخشية الله أو هو حال من فاعل يخشون ويقدر مضاف أي حال كونهم مثل أهل خشية الله أي مشبهين بأهل خشيته ، وقيل إنها حال من ضمير مصدر محذوف أي يخشونها الناس كخشية الله وقوله منه أي من الله وإنما ذكر لأنه لو لم يذكر احتمل كونه بسبب معنى آخر فلا يقال لا حاجة له. توله : (وإن جعلته مصدراً فلا الخ) أي التمييز في المعنى ، والمجرور بمن التفضيلية يكون مانعا من الموصوف بأفعل التفضيل فالمعنى على تقدير الحالية أنهم أشد خشية من غيرهم بمعنى أن خشيتهم أشد من خشية غيرهيم ، وهو مستقيم ، وعلى تقدير المصدرية المعنى أن خشيتهم أشد خشية من خشية غيره بمعنى أن خشية خشيتهم أشذ ولا يستقيم إلا على طريقة جد جده على ما ذهب إليه أبو علي وابن جني ويكون كقولك زيد أجد جدا بخلاف ما إذا قلت أو أشذ خثية بالجر ، فإن معناه تفضيل خشيتهم على سائر الخشيات إذا فصلت واحدة واحدة ، وذكر ابن
الحاجب رحمه الله أنه يجوز أن يكون من عطف الجمل أي يخشون الناس كخشية الله أو يخشون الناس أشد خشية على أن الأول مصدر ، والثاني حال وقيل عليه إن حذف المضاف أهون من حذف الجملة ، وأو في بمقتضى المقابلة ، وحسن المطابقة واعترض أيضا بأن التمييز بعد اسم التفضيل قد يكون نفس ما انتصب عنه لا متعلقا به كقوله : ﴿ فالله خير حافظا ﴾". (١)

٢٥١-"ج٦ص٤٩
الحية أفعو لكن هذه تكون في الوقف وهذه في الوصل ، أما إجراء له مجرى الوقف وأما لأنها لا تختص به كما نقل عن سيبويه ، والثاني : ما أشار إليه بقوله أو على أن الواو الخ يعني أن الواو ليست ضميرا بل حرف أتى به علامة للجمع وليست فاعلا بل الفاعل كل أناس وحينئذ ليس حذف النون شاذا على حد قوله :
أبيت أسري وتبيتي تدلكي وجهك بالعنبر والمسك الذكي ..
لقلة المبالاة بها كما سيأتي ولا يجوز أن يقال إنه للضرورة لوقوعه في هذه القراءة وفي الحديث لا تؤمنوا حتى تحابوا فكيف يقال إنه من ضرورة الشعر فتأمل ، ولا وجه لما أورد على

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٣/١٥٥

هذا من أنه إما أن يقول إنها بدل من الألف فيرجع لما قبله أو زائدة فيلزم حذت لام الفعل من غير سبب لاختيار الثاني وأنها حذفت لسبب وهو التقاء الساكنين الواو التي هي لام حذفت ضمتها للاستثقال والواو التي هي علامة الجمع ، وقوله أو ضميره فهي فاعلة وكل بدل كل منه بخلافه على الأول. قوله : (والنون محذوفة لقلة المبالاة بها (ظاهره أنه جار على الوجهين وأن النون لما كانت علامة إعراب عوملت معاملة حركته في إظهارها تارة وتقديرها أخرى وخالف الزمخشري في جعل هذا توجيها له على كونها علامة إعراب لأن النون إنما تلزم وتكون علامة إعراب بعد ضمير الجمع لا بعد علامته فإنه لا يجب فيه ذلك ورفعه حينئذ بحركات مقدرة كما في يدعي المفرد لأنه مفرد مثله ، وأما على الوجه الثاني : فحذفها مخصوص بالضرورة فلا تقل المبالاة بها هنا وقد رذه صاحب التقريب بأنها علامة رفع فيهما من غير فرق بينهما وهو الحق ومن قال إن قوله والنون محذوفة الخ على أن تكون الواو ضميرا ، وإلا فعلى كونها علامة جمع لا يقال النون محذوفة إذ الكلمة مفردة ألحقت بها علامة الجمع والرفع تقديري فهو مقدر كما في يدعي والنون غير مقدرة إذ لا موجب للحذف هنا كما في البيت السابق الذي حذفت فيه النون ضرورة فقد خبط خبطا عجيبا ، ومن أمثلة كونها علامة يتعاقبون فيكم ملائكة ورفعه بالنون بلا خلاف ومنه تعلم أن الإعراب بالحروف يكون ملفوظا ومقدرا ، فلا حاجة إلى تصويره بمسلميئ الجمع المضاف للياء. قوله : (من نبتي الخ (يعني المراد كل متبع عاقلا أو لا ، وعلى الوجه الآخر المراد به كتاب الأعمال فقط ، وقوله التي قدموها صفة أعمالهم توجيه لإطلاق الإمام عليه ، وقوله تنقطع علقة الأنساب الخ يعني على هذا التفسير وما قبله لأنه لا يدعي بابن فلان وإنما ينادي يا صاحب هذا الكتاب الفلاني أو الدين الفلاني أو أتباع فلان. قوله : (بالقوي (كالعصب والعصبية فيقال : يا أصحاب العصبية والجاهلية ولأتباعهم لها جعلت إماما ولا يخفى بعده ولذا مرضه. قوله : (وقيل بأمهاتهم جمع أم الخ (ضعفه لأن المعروف في جمع أم أمهات ولما في تعليله من الدخل مع ما فيه كما ستراه ، وقوله : **والحكمة في ذلك** أي في النداء بالأمهات نحو يا ابن فلانة أما تعظيم المسيح صلى الله عليه وسلم للإشارة بأنه لا أب له وأنه روح الله ولو نودي الناس بآبائهم ونودي بأمه لربما يشعر ذلك بنقص وكذا تعظيم الحسن والحسين رضي الله عنهما ببيان نسبهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو نسبا إلى أبيهما لم يفهم هذا لا لأن أمّهما رضي الله عنها أفضل من علي رضي الله عنه أو سترا على خلقه حتى لا يفتضح أولاد الزنا فإنه لو نودي الناس بآبائهم ونودوا هم بأمهاتهم علم أنهم لا نسبة لهم إلى آباء يدعون بهم وفيه تشهير لهم ولو نودوا بآباء لم يعرفوا بهم في الدنيا ولم ينسبوا لهم شرعا كان كذلك ، فما قيل إن رعاية حق عيسى عليه الصلاة والسلام في امتيازه بالدعاء بالأم كرامة له عليه الصلاة والسلام لا غض فيه ليجبر بجعل الناس أسوة له في الانتساب إلى الأمهات وإظهار شرت السبطين رضي الله عنهما بدون ذلك أتم ، فإن أباهما خير من أمهما رضي الله عنهما مع أن أهل العباء كالحلقة المفرغة ، وأما أولاد الزنا فلا فضيحة إلا لأنهاتهم وهي حاصلة دير غيرهم أو لم يدع مع أنهم لا ذنب لهم يترتب عليه الافتضاح ظاهر السقوط بما قررناه ، وقوله : كالحلقة المفرغة جواب تسليمي ، أي عليئ رضي الله عنه لكونه أحد الخلفاء الأربعة الذين ظاهر كلام أهل السنة أنهم أفضل من غيرهم

من الصحابة مطلقا أفضل ولو سلم فلكل منهما أفضلية وشرف من جهة ، ككون فاطمة رضي الله عنها بضعة من". [1]

٢٥٢-"وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله – عز وجل – ، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم. قال تعالى في أول سورة هود: ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ ثم بين **الحكمة في ذلك** فقال: ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧) ﴾ [سورة هود: ٧]، وقال تعالى في أول سورة الملك: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [سورة الملك: ٢]، وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧) ﴾ [سورة الكهف: ٧]، فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملا يفسر قوله ((ليعبدون)). وخير ما يفسر به القرآن القرآن "(ﷺ١).

فترجيح الشيخ الشنقيطي لمعنى ((إلا ليعبدون)) أي إلا لآمرهم بعبادتي وابتليهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

الموافقون:

إلى مثل ما ذهب إليه الشنقيطي قد ذهب عدد من المفسرين، منهم:

١- الماوردي: " ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) فيه خمسة تأويلات:

أحدها: إلا ليقروا بالعبودية طوعا أو كرها.

الثاني: إلا لآمرهم وأنهاهم.

الثالث: إلا لأجبلهم على الشقاء والسعادة.

الرابع: إلا ليعرفوني.

الخامس: إلا للعبادة، وهو الظاهر "(ﷺ٢) .

ﷺ______________

(ﷺ١) أضواء البيان للشنقيطي (٧/٦٧١-٦٧٤) بتصرف يسير.

(ﷺ٢) النكت والعيون للماوردي (٥/٣٧٥).". [2]

٢٥٣-"المحرمات من الرضاع :

والمحرمات من الرضاع سبع أيضا كما هو الحال في النسب لقوله E : « يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » والآية

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٦/٤٩

(٢) دراسة ترجيحات الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره أضواء البيان ص/١٩٩

الكريمة لم تذكر من المحرمات بالرضاع سوى (الأمهات ، والأخوات) والأم أصل والأخت فرع ، فنبه بذلك على جميع الأصول والفروع ، ووضحت السنة النبوية ذلك بالتفصيل وبصريح العبارة كما في الحديث السابق ، وقد ثبت في الصحاح عنه A أنه قال عن ابنة حمزة « إنها ابنة أخي من الرضاعة » .

المحرمات بسبب المصاهرة :

وأما المحرمات بسبب المصاهرة فقد ذكرت الآية الكريمة منهن أربعا وهن كالتالي :

أ – زوجة الأب لقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النسآء ﴾ .

ب – زوجة الابن لقوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ .

ج – أم الزوجة لقوله تعالى : ﴿ وأمهات نسآئكم ﴾ .

د – بنت الزوجة إذا دخل بأمها لقوله تعالى : ﴿ وربائبكم الاتي في حجوركم من نسآئكم الاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ .

والأصل في هذا أن أم الزوجة تحرم بمجرد العقد على البنت ، ولا تحرم البنت إلا بالدخول بالأم الآية الكريمة ﴿ الاتي دخلتم بهن ﴾ وقد استنبط العلماء من ذلك هذه القاعدة الأصولية وهي : (العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات) .

تنبيه : الربيبة (بنت الزوجة) التي دخل بأمها تحرم على الزوج سواء كانت في حجره أو لم تكن في حجره ، والتقييد في قوله ﴿ الاتي في حجوركم ﴾ ليس للشرط أو للقيد وإنما هو لبيان الغالب ، لأن الغالب أنها تكون مع أمها ويتولى الزوج تربيتها وهذا بإجماع الفقهاء فتدبره .

المحرمات حرمة مؤقتة

وقد أشارت الآية الكريمة إلى من يحرم الزواج بهن حرمة مؤقتة وذكرت نوعين :

أ – الجمع بين الأختين لقوله تعالى : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ وألحقت السنة المطهرة (الجمع بين المرأة وعمتها) و (الجمع بين المرأة وخالتها) زيادة على الجمع بين الأختين .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي A نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها .

والحكمة في ذلك خشية القطيعة لحديث ابن عباس : نهى رسول الله A أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال : « إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

ب – زوجة الغير أو معتدته رعاية لحق الزوج لقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النسآء ﴾ أي المتزوجات من النساء ، والمعتدة حكمها حكم المتزوجة ما دامت في العدة ، وقد مر حكمها سابقا في سورة البقرة [٢٣٥] في قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ وبينا **الحكمة في ذلك** فارجع إليها هناك والله يتولاك .". (١)

---

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ص/٢٠٧

٢٥٤-". . وأعجب منه أن (اللعان) يمين عنده وهولا يصلح لإيجاب المال ولا لإسقاطه بعد الوجوب ، وأسقط به كل من الرجل والمرأة الحد عن نفسه وأوجب به (الرجم) الذي هو أغلظ الحدود على المرأة!! وكون النكول إقرارا به شبهة ، (والحدود تدرأ بالشبهات) .

ووافق الإمام (أحمد) C الأحناف في حكم الزوجة الممتنعة في إحدى الروايتين عنه بأنها تحبس ولا ترجم وفي رواية أخرى عنه : لا تحبس ويخلى سبيلها كما لو لم تكمل البينة .

وجاء في كتاب « فقه السنة » للسيد سابق ما نصه :

قال ابن رشد : (وبالجملة فقاعدة الدماء مبناها في الشرع على أنها لا تراق إلا بالبينة العادلة أو الاعتراف ، ومن الواجب ألا تخصص هذه القاعدة بالاسم المشترك) . . فأبو حنيفة في هذه المسألة أولى بالصواب إن شاء الله وقد اعترف أبو المعالي في كتابه « البرهان » بقوة الإمام أبي حنيفة في هذه المسألة وهو شافعي) انتهى .

أقول : رأي أبي حنيفة وإن كان وجيها إلا أنه ليس بقوة رأي الجمهور لظهور أدلتهم النقلية ، وهو ما نختاره كما اختاره شيخ المفسرين الطبري وغيره من الجهابذة الأعلام .

الحكم السابع : هل آية اللعان ناسخة لآية القذف؟

إن الروايات التي ذكرت في سبب النزول متفقة كلها على ثلاثة أمور : أولها : أن آيات اللعان نزلت بعد آية القذف أن حكم من رمى زوجة كحكم من رمى الأجنبية .

ثالثها : أن آية (اللعان) نزلت تخفيفا على الزوج وبيانا للمخرج مما وقع فيه من القذف .

وبناء على ذلك فإن قواعد أصول الحنيفية تقضي بأن آيات اللعان ناسخة لعموم آية القذف ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾ [النور : ٤] لتراخي نزولها عنها .

وعلى مذهب الأحناف : يكون ثبوت (حد القذف) على من قذف زوجته منسوخا بآيات اللعان وليس على الزوج سوى الملاعنة لا غير . . . وعلىمذهب الأئمة الثلاثة : تتكون آيات اللعان مخصصة للعموم في آية القذف لا ناسخة لها .

ويصبح معنى الآيتين : كل من قذف محصنة ولم يأتي بأربعة شهداء فعليه (حد القذف) إلا من قذف زوجته فعليه (الحد أو اللعان) ، والخلاف في الحقيقة شكلي لا جوهري .

الحكم الثامن : هل يفرق بين المتلاعنين؟

قضت السنة النبوية أن المتلاعنين لا يجتمعان أبدا ، فإذا تلاعن الزوجان وقعت الفرقة بينهما على سبيل (التأبيد) لما روي عن ابن عباس أن النبي A قال : « المتلاعنان إذا تفرقا لا يجتمعان أبدا » . وعن علي وابن مسعود قالا : (مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان) . . **والحكمة في ذلك** (التحريم المؤبد) أنه قد وقع بينهما من التباغض والتقاطع ما أوجب القطيعة بينهما بصفة دائمة . فإن الرجل إن كان صادقا فقد أشاع فاحشتها وفضحها على رؤوس الأشهاد ، وأقامها مقام الخزي

والغضب ، وإن كان كاذبا فقد أضاف إلى ذلك أنه بهتها وزاد في إيلامها وحسرتها وغيظها ."[1]

٢٥٥-"فذكر الأجور ليس للقيد أو الشرط وغنما هو لبيان الأفضل .

اللطيفة الثالثة : تخصيص ما ملكت يمينه في قوله تعالى : ﴿ ممآ أفآء الله عليك ﴾ للإشارة إلى أنها أحل وأطيب مما تشتري من الجلب . فما سبي من دار الحرب قيل فيه (سبي طيبة) ، وما كان عن طريق العهد قيل (سبي خبيثة) والله تعالى لا يرغب لنبيه إلا في الطيب ، دون الخبيث . أفاده أبو حيان في « البحر المحيط » .

اللطيفة الرابعة : ذكر العم والخال مفردا ، وجمع العمات والخالات في قوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ قال ابن العربي : **والحكمة في ذلك** أن العم ، والخال في الإطلاق (اسم جنس) كالشاعر ، والراجز ، وليس كذلك في العمة والخالة ، وقد جاء الكلام عليه بغاية البيان ، على العرف الذي جرى عليه العرب كما قيل : (قالت بنات العم يا سلمى) .

وكقولهم : (إن بني عمك فيهم رماح) وهذا دقيق فتأملوه .

اللطيفة الخامسة : العدول عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى : (إن أراد النبي) ثم الرجوع إلى الخطاب في قوله (خالصة لك) وذكره A في الموضعين بعنوان (النبوة) للدلالة على أن الاختصاص كان من الله تعالى تكرمة له لأجل النبوة ، والتكرير للتفخيم من شأنه A ، وبيان استحقاقه الكرامة لنبوته .

قال الزجاج : وإنما قال : (إن وهبت نفسها للنبي) ولم يقل : لك ، لأنه لو قال : « لك » جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله A كما جاز في بنات العم وبنات العمات .

وجوه القراءات

أولا : قوله تعالى : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ قرأ الجمهور ﴿ وامرأة ﴾ بالنصب عطفا على مفعول (أحللا) و (إن وهبت) بكسر الهمزة شرطية ، وقرأ أبو حيوة (وامرأة مؤمنة) بالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف أي أحللناها لك .

وقرأ الحسن ﴿ أن وهبت ﴾ بفتح الهمزة وتقديره : لأن وهبت نفسها للنبي .

ثانيا : قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ ترجي ﴾ بغير همز ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ﴿ ترجئ ﴾ مهموزا والمعنى واحد .

ثالثا : قرأ ابن محيصن ، والجوني ﴿ أن تقر ﴾ بضم التاء وكسر القاف ﴿ أعينهن ﴾ بنصب النون ، وقرأ الجمهور ﴿ أن تقر أعينهن ﴾ فالأولى من (أقر) الرباعي ، والثانية من (قر) الثلاثي فتنبه .

رابعا : قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النسآء ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يحل ﴾ بالياء ، وقرأ أبو عمرو (تحل) بالتاء .

قال ابن الجوزي : والتأنيث ليس بحقيقي ، إنما هو تأنيث الجمع ، فالقراءتان حسنتان .

---

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ص/٣٣٥

وجوه الإعراب

أولا : قوله تعالى : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ اللاتي : اسم موصول للمؤنث في محل نصب صفة لقوله (أزواجك) و (أجورهن) مفعول ثان لآتيت لأنها بمعنى أعطيت ، والمفعول الأول محذوف تقديره : آيتتهن .". (1)

٢٥٦-" ووضع عليه الفرش وضرب عليه حلة من استبرق فقال عليه السلام : أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي فقال : قد وضعته إجلالا لك واقرارا بفضلك فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض اليه الملك أمره وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام في السنة الاولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق منها شيء وفي الثانية بالحلي والجواهر وفي الثالثة بالدواب والمواشي وفي الرابعة بالعبيد والجواري وفي الخامسة بالضياع والعقار وفي السادسة بالاولاد وفي السابعة بالرقاب حتى استرقهم جميعا وكان ذلك مما يصح في شرعهم فقالوا : ما رأينا كاليوم ملكا أجل وأعظم منه فقال للملك : كيف رأيت صنع الله تعالى فيما خولني فما ترى في هؤلاء فقال الملك : الرأي رأيك ونحن لك تبع فقال : اني أشهد الله تعالى وأشهدك أني قد أعتقتهم ورددت اليهم أملاكهم

ولعل **الحكمة في ذلك** اظهار قدرته وكرمه وانقيادهم بعد ذلك لأمره حتى يخلص ايمانهم ويتبعوه فيما يأمرهم به فلا يقال : ما الفائدة في تحصيل ذلك المال العظيم ثم اضاعته وكان عليه السلام في تلك المدة فيما يروى لايشبع من الطعام فقيل له : أتجوع وخزائن الأرض بيدك فقال : أخاف إن شبعت أنسى الجائع وأمر عليه السلام طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار وأراد بذلك أن يذوق طعم الجوع فلا ينسى الجياع قيل : ومن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار وقد أشار سبحانه الى ما آتاه من الملك العظيم بقوله جل وعلا : وكذلك أي مثل التمكين البديع مكنا ليوسف أي جعلنا له مكانا في الأرض أي أرض مصر روى أنها كانت أربعين فرسخا في أربعين وفي التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين في الارض مسندا الى ضميره تعالى من تشريفه عليه السلام والمبالغة في كمال ولايته والاشارة الى حصول ذلك من أول الامر لا أنه حصل بعد السؤال ما لايخفى واللام في ليوسف على ما زعم أبو البقاء يجوز أن تكون زائدة أي مكنا يوسف وأن لاتكون كذلك والمفعول محذوف أي مكنا له الامور وقد مر لك ما يتضح منه الحق يتبوء منها ينزل من قطعها وبلادها حيث يشاء ظرف ليتبوأ وجوز أن يكون مفعولا به كما في قوله تعالى : الله أعلم حيث يجعل رسالته و منها متعلق بما عنده وقيل : بمحذوف وقع حالا من حيث وتعقب بأن حيث لايتم الا بالمضاف اليه وتقديم الحال على المضاف اليه لايجوز والجملة في موضع الحال من يوسف وضمير يشاء له وجوز أن يكون لله تعالى ففيه التفات ويؤيده أنه قرأ ابن كثير والحسن وبخلاف عنهم أبو جعفر وشيبة ونافع نشاء بالنون فان الضمير على ذلك لله تعالى قطعا نصيب برحمتنا بنعمتنا وعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم وقيل : المراد بالرحمة النبوة وليس بذاك من نشاء بمقتضى الحكمة الداعية للمشيئة

---

(1) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ص/٤٤٧

ولا نضيع أجر المحسنين ٦٥ بل نوفى لهم أجورهم في الدنيا لاحسانهم والمراد به على ما قيل : الايمان والثبات على التقوى فان قوله سبحانه : ولأجر الآخرة خير للذين ءامنوا وكانوا يتقون

٧٥

- قد وضع فيه الموصول موضع ضمير المحسنين وجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل تنبيها على ذلك والمعنى ولأجرهم في الآخرة خير والاضافة ". (١)

٢٥٧-" وأنت تعلم أنه لامانع من اعتباره ويكون معنى الآية قل في جوابهم : إني إنما أمرني الله تعالى بما هو من معالي الامور واليه أدعو وقتا فوقتا واليه مرجعي ومرجعكم فيثيبني على ما أنا عليه وينتقم منكم على انكاركم وتخلفكم عن اتباع دعوتي أو فحينئذ يظهر حقية جميع ماأنزل الى ويتبين فساد رأيكم في انكاركم شيئا منه وقد يقال على عدم اعتباره نحو ما قيل فيما قبل : إن المعنى قل في مقابلة انكارهم إني إنما أمرني الله تعالى بما أمرني به واليه ادعو واليه مرجعي فيما يعرض لي في أمر الدعوة وغيره فلا أبالي بانكاركم فانه سبحانه كاف من رجع اليه ولعل هذا المعنى هنا من حيث انه فيه تأسيس محض منه هناك واقتصر في الارشاد على جعل الكلام الزاما وجعله نكتة أمره صلى الله عليه و سلم بأن يخاطبهم بذلك وذكر أن قوله تعالى : وكذلك أنزلناه حكما عربيا شروع في رد إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان **الحكمة في ذلك** وأن الضمير راجع لماأنزل اليك والاشارة إلى مصدر أنزلناه أو انزل اليك اي مثل ذلك الانزال البديع الجامع لأصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة ومخالفة حسبما يقتضيه قضية الحكمة أنزلناه حاكما يحكم في القضايا والواقعات بالحق ويحكم به كذلك والتعرض لهذا العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربيته وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه والتعرض لكونه عربيا أي مترجما بلسان العرب للاشارة إلى أن ذلك إحدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وإدراك اعجازه يعني بالنسبة للعرب وأما بالنسبة الى غيرهم فلعل الحكمة ان ذلك يكون داعيا لتعلم العلوم التي يتوقف عليها ماذكر ومنهم من اقتصر على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده على رأي قوله تعالى : قل إنما أمرت إلى آخره وتعقب بأنه يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وانه لكل أجل كتاب فان المجمع عليه لايتصور فيه الاستتباع والاتباع وقيل : ان الاشارة إلى انزال الكتب السالفة على الانبياء عليهم السلام والمعنى كما أنزلنا الكتب على من قبلك أنزلنا هذا الكتاب عليك لأن قوله تعالى : والذين آتيناهم الكتاب يتضمن انزاله تعالى ذلك وهذا الذي انزلناه بلسان العرب كما أن الكتب السابقة بلسان من أنزلت عليه وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم والى هذا ذهب الإمام وأبو حيان وقال ابن عطية : المعنى كما يسرنا هؤلاء للفرح وهؤلاء لانكار البعض أنزلناه حكما الى آخره وليته ما قيل والابلغ الاحتمال الأول مما أشرنا اليه ونصب حكما على الحال من المنصوب أنزلناه واذا أريد به حاكما كان هناك مجاز في النسبة كما لايخفى ونصب عربيا على الحال أيضا أما من ضمير انزلناه كالحال الأولى فتكون حالا مترادفة أو من المستتر في الأولى فتكون حالا متداخلة ويصح أن

---

(١) روح المعاني ٦/١٣

يكون وصفا لحكما الحال وهي موطئة وهي الاسم الجامد الواقع حالا لوصفه بمشتق وهو الحال في الحقيقة والاول أولى لأن حكما مقصود بالحالية هنا والحال الموطئة لاتقصد بالذات

واختار الطبرسي أن معنى حكما حكمة كما في قوله تعالى : وءاتيناه الحكم والنبوة وهو أحد أوجه ذكرها الامام ونصبه على الحال أيضا فلا تغفل واستدلت المعتزلة بالآية على حدوث القرآن من وجوه الاول انه تعالى وصفه بكونه منزلا وذلك لايليق الا بالمحدث

الثاني أنه وصفه بكونه عربيا والعربي أمر وضعي وما كان كذلك كان محدثا الثالث أنها دلت على أنه انما كان حكما عربيا لأن الله تعالى جعله كذلك والمجعول محدث وأجاب الامام بأن كل ذلك انما يدل على ان المركب من الحروف والاصوات محدث ولا نزاع فيه ". (١)

٢٥٨-"كان كمن صلى فيه وروى بعضه أبو داود وهو ثاني مسجد وضع في الأرض لخبر أبي ذر قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولا قال : المسجد الحرام قلت : ثم أي قال : المسجد الأقصى قلت : كم بينهما قال : أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه وقد أسسه يعقوب عليه السلام بعد بناء إبراهيم عليه السلام الكعبة بما ذكر في الحديث وجدده سليمان أو أتم تجديد أبيه عليهما السلام بعد ذلك بكثير والكلام فيما يتعلق بذلك مفصل في محله لنريه من ءاياتنا أي لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة فقد صح أنه عرج به من صخرة بيت المقدس كما تقدم واجتمع في كل سماء مع نبي من الأنبياء عليهم السلام كما في صحيح البخاري وغيره واطلع عليه الصلاة و السلام على أحوال الجنة والنار ورأى من الملائكة ما لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى

ونقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه عليه الصلاة و السلام رأى ليلة المعراج في مملكة الله تعالى خلقا كهيئة الرجال على خيل بلق شاكين السلاح طول الواحد منهم ألف عام والفرس كذلك يتبع بعضهم بعضا لا يرى أولهم ولا آخرهم فقال يا جبريل من هؤلاء فقال : ألم تسمع قوله تعالى وما يعلم جنود ربك إلا هو فأنا أهبط وأصعد أراهم هكذا يمرون لا أدري من أن يجيئون ولا إلى أين يذهبون وقد صلى بالأنبياء عليهم السلام في بيت المقدس قال في العقائق : وكانت صلاته عليه الصلاة و السلام بهم ركعتين قرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص قال بعضهم : كانت دعاء وذكر أن الأنبياء كانوا سبعة صفوف ثلاثة منهم مرسلون وأن الملائكة عليهم السلام صلت معهم وهذا من خصائصه عليه الصلاة و السلام كما قال القاضي زكريا في شرح الروض **والحكمة في ذلك** أن يظهر أنه إمام الكل عليه الصلاة و السلام وهل صلى بأرواحهم خاصة أو بها خاصة أو بها مع الأجساد فيه خلاف وكذا اختلف في أنه صلى بهم قبل العروج أو بعده فصحح الحافظ ابن كثير أنه بعده وصحح القاضي عياض وغيره أنه قبله وجاء في رواية أنه عليه الصلاة و السلام صلى في كل سماء ركعتين يؤم أملاكها وكان الإسراء والعروج في بعض ليلة واحدة وكان رجوعه على ما كان ذهابه عليه ولم يعين مقدار ذلك البعض وكيفما كان فوقوع ما وقع فيه من أعجب الآيات وأغرب الكائنات وفي بعض الآثار أنه لما رجع وجد

---

(١) روح المعاني ١٦٧/١٣

فراشه لم يبرد من أثر النوم وقيل : إن غصن شجرة أصابه بعمامته في ذهابه فلما رجع وجده بعد يتحرك وزعم بعضهم أن ليلة الإسراء غير ليلة المعراج وظاهر الآية على ما سمعت يقتضي أنهما في ليلة واحدة وإنما أسري به أولا إلى بيت المقدس وعرج به ثانيا منه ليكون وصوله إلى الأماكن الشريفة على التدريج فإن شرف بيت المقدس دون شرف الحضرة التي عرج إليها على ما قيل وقيل : توطينا له عليه الصلاة و السلام لما في المعراج من الغرابة العظيمة التي ليست في الإسراء وإن كان غريبا أيضا وقيل : لتتشرف به أرض المحشر ذهابا وإيابا وقيل : لأن باب السماء الذي يقال مصعد الملائكة عليهم السلام على مقابلة صخرة بيت المقدس فقد نقل عن كعب الأحبار أنه قال : إن لله تعالى بابا مفتوحا من سماء الدنيا إلى بيت المقدس ينزل منه كل يوم سبعون ألف ملك يستغفرون لمن أتى بيت المقدس وصلى فيه فأسرى به إلى هناك أولا ثم عرج به ليكون صعوده على الاستواء وقيل : إن اسطوانات المسجد قالت ربنا حصل لنا من كل نبي حظ وقد اشتقنا إلى ". (١)

٢٥٩-" أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد والجار والمجرور في موضع الصفة لحور أو الحال والإتيان بالكاف للمبالغة في التشبيه ولعل الأمر عليه نحو يد قمر جزاء بما كانوا يعملون

٢٤

- مفعول له لفعل محذوف أي يفعل بهم ذلك جزاءا بأعمالهم أو بالذي استمروا على عمله أو هو مصدر مؤكد أي يجزون جزاء لا يسمعون فيها لغوا لا يعتد به من الكلام وهو الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى الغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطير وقد يسمى كل قبيح لغوا ولا تأثيما

٢٥

- أي ولا نسبة إلى الإثم أي لا يقال لهم أثمتم وعن ابن عباس كما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم تفسيره بالكذب وأخرجه هناد عن الضحاك وهو من المجاز كما لا يخفى والكلام من باب

ولا ترى الضب ينجحر

إلا قليلا أي قولا مصدر مثله سلاما سلاما

٢٦

- بدل من قيلا كقوله تعالى : لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما وقال الزجاج : هو صفة بتأويله بالمشتق أي سالما من هذه العيوب أو مفعوله والمراد لفظه فلذا جاز وقوعه مفعولا للقول مع إفراده والمعنى إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاما وقيل : هو مصدر لفعل مقدر من لفظه وهو مقول القول ومفعوله حينئذ أي نسلم سلاما والتكرير للدلالة على فشو السلام وكثرته فيما بينهم لأن المراد سلاما بعد سلام والأستثناء منقطع وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم محتمل لأن يكون من الضرب الأول منه وهو أن يستثنى منصفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح له بتقدير دخولها فيها بأن يقدر السلام هنا داخلا فيما قبل فيفيد التأكيد من وجهيم وأن يكون من الضرب الثاني منه وهو أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة

---

(١) روح المعاني ١٢/١٥

استثناء يليها صفة مدح أخرى لا يقدر ذلك ويجعل الأستثناء من أصله منقطعا فيفيد التأكيد من وجه ولولا ذكر التأثيم على ما قاله السعد جاز جعل الأسنثناء متصلا حقيقة لأن معنى السلام الدعاء وأهل الجنة أغنياء عن ذلك فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام ولو لا ما فيه من فائدة الإكرام وإنما منع التأثيم الذي هو النسبة إلى الإثم لأنه لا يمكن جعل السلام من قبيله وليس لك في الكلام أن تذكر متعددين ثم تأتي بألستثناء المتصل من الأول مثل أن تقول : ما جاء من رجل ولا امرأة إلا زيدا ولو قصدت ذلك كان الواجب أن تؤخر ذكر الرجل وقريء سلام سلام بالرفع على الحكاية وقوله تعالى : وأصحاب اليمين الخ شروع في بيان تفاصيل شؤنهم بعد بيان تفاصيل شئون السابقين وأصحاب مبتدأ وقوله : ما أصحاب اليمين

٢٧

– جملة استفهامية مشعرة بتفخيمهم والتعجيب من حالهم وهي على ما قالوا : إما للمبتدأ وقوله سبحانه : في سد مخضود خبر ثان له أو لمبتدأ محذوف أي هم في سدر والجملة استئناف لبيان ما أبهم في قوله عز و جل : ما أصحاب اليمين من علو الشأن وإما معترضة والخبر هو قوله تعالى شأنه : في سدر وجوز أن تكون الجملة في موضع الصفة والخبر هو هذا الجار والمجرور والجملة عطف على قوله تبارك وتعالى في شرح أحوال السابقين : أولئك المقربون في جنات النعيم أي وأصحاب اليمين المقول فيهم ما أصحاب اليمين كائنون في سدر الخ والظاهر أن التعبير بالميمنة فيما مر وباليمين هنا للتفنن وكذا يقال في المشأمة والشمال فيما بعد وقال الإمام : **الحكمة في ذلك** أن في الميمنة وكذا المشأمة ". (١)

٢٦٠–" الإستفهام حقيقة عن الحكمة ولا القدح في اشتماله عليها مع اعترافهم بصدور الأخبار بذلك عنه تعالى وجوز أن يكون أراد الله تعالى من الحكاية وهم قالوا ماذا أريد ونحوه وقيل يجوز أن يكون المثل بمعناه الآخر وهو ما شبه مضربه بأن يكونوا قد عدوه لاستغرابه مثلا مضروبا ونسبوه إليه عز و جل استهزاء وتهكما وإفراد قوله بهذا التعليل مع كونه من باب فتنتهم قيل للإشعار باستقلاله في الشناعة وفي الحواشي الشهابية إنما أعيد اللام فيه للفرق بين العلتين إذ مرجح الأولى الهداية المقصودة بالذات ومرجح هذه الضلال المقصود بالعرض الناشيء من سوء صنيع الضالين وتعليل أفعاله بالحكم والمصالح جائز عند المحققين وجوز في هذه اللام وكذا الأولى كونها للعاقبة كذلك يضل الله من يشاء ذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهداية ومحل الكاف في الأصل على أنها صفة لمصدر محذوف وأصل التقدير يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إضلالا وهداية كائنين مثل ما ذكرمن الإضلال والهداية فحذف المصدر وأقيم وصفه مقامهثم قدم على الفعل لإفادةالقصر فصار النظم مثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضل الله تعالى من يشاء إضلاله لصرف اختياره حسب استعداده السيء إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله تعالى الناطقة بالهدى ويهدي من يشاء هدايته لصرف اختياره حسب استعداده الحسن عند مشاهدة تلك الآيات إلى جانب الهدى لا إضلالا وهداية أدنى منهما ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما بعد كما في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا على ما حقق في موضعه وما يعلم جنود ربك جمع جند اشتهر في

---

(١) روح المعاني ١٣٩/٢٧

العسكر اعتبارا بالغلظة من الجند أي الأرض الغليظة التي فيها حجارة ويقال لكل جمع أيوما يعلم جموع خلقه تعالى التي من جملتها الملائكة المذكورون على ما هم عليه إلا هو عز و جل إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والوقوف على حقائقها وصفاتها ولوا إجمالا فضلا عن الإطلاع على تفاصيل أحوالها من كم وكيف ونسبة وهو رد لاستهزائهم يكون الخزنة تسعة عشر لجهلهم وجه **الحكمة في ذلك** وقال مقاتل هو جواب لقول أبي جهل أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر وحاصله أنه لما قلل الأعوان أجيب بأنهم لا يحصون كثرة إنما الموكلون على النار هؤلاء المخصوصون لا أن المعنى ما يعلم بقوة بطش الملائكة إلا هو خلافا للطيبي فإن اللفظ غير ظاهر الدلالة على هذا المعنى واختلف في أكثر جنود الله عز و جل فقيل الملائكة لخير أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد وفي بعض الأخبار أن مخلوقات البر عشر مخلوقات البحر والمجموع عشر مخلوقات الجو والمجموع عشر مخلوقات ملائكة السماء الدنيا والمجموع عشر ملائكة السماء الثانية وهكذا إلى السماء السابعة والمجموع عشر ملائكة الكرسي والمجموع عشر الملائكة الحافين بالعرش والمجموع أقل قليل بالنسبة إلى ما لا يعلمه إلا الله وقيل المجموع أقل قليل بالنسبة إلى الملائكة المهيمين الذين لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خلق أحدا سواء والمجموع أقل قليل بالنسبة إلى ما يعلمه سبحانه من مخلوقاته وعن الأوزاعي قال قال موسى عليه السلام يا رب من مهك في السماء قال ملائكتي قال كم عدتهم قال اثنا عشر سبطا قال كم عدة السبط قال عدد التراب وفي صحة هذا روي إن صح فصدره من المتشابه وأنا لا أجزم بأكثرية صف فما يعلم جنود ربك إلا هو ولم يصح عندي في ذلك بيد أنه يغلب على الظن أن الأكثر الملائكة عليهم السلام وهذه الآية وأمثالها من الآيات والأخبار تشجع على القول باحتمال أن يكون في الأجرام العلوية جنود من جنود الله تعالى لا يعلم حقائقها وأحوالها إلا هو عز و جل ودائرة ملك الله جل جلاله أعظم من أن يحيط بها نطاق الحصر أو يصل إلى مركزها طائر الفكر فإني وهيهات ولو استغرقت القوى والأوقات هذا واختلف في المخصص لهذا العدد ". (١)

٢٦١-" أفضل قاله ابن عباس في آخرين واختاره القاضي أبو يعلى وقال الزجاج كان إخفاء الزكاة على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم أحسن فأما اليوم فالناس يسيؤون الظن فاظهارها أحسن والثاني إخفاؤها أفضل قاله الحسن وقتادة و يزيد بن أبي حبيب وقد حمل أرباب القول الأول الصدقات في الآية على الفريضة وحملوا وإن تخفوها على النافلة وهذا قول عجيب و إنما فضلت صدقة السر لمعنيين أحدهما يرجع إلى المعطي وهو بعده عن الرياء وقربه من الإخلاص والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية والثاني يرجع إلى المعطى وهو دفع الذل عنه باخفاء الحال لأنه في العلانية ينكسر

قوله تعالى ويكفر عنكم من سيئاتكم قرأ ابن كثير و أبو عمر وابو بكر عن عاصم ونكفر عنك بالنون والرفع والمعنى ونحن نكفر عنكم ويجوز أن يكون مستأنفا وقرأ نافع وحمزة والكسائي ونكفر بالنون وجزم الراء قال أبو علي وهذا على حمل الكلام على موضع قوله فهو خير لكم لأن قوله فهو خير لكم في موضع جزم ألا ترى أنه لو قال وإن تخفوها يكون أعظم لأجركم لجزم ومثله لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن المنافقون ١٠ حمل قوله و أكن على موضع فأصدق وقرأ ابن

---

(١) روح المعاني ١٢٨/٢٩

عامر ويكفر بالياء والرفع وكذلك عن حفص عن عاصم على الكناية عن الله عز و جل وقرأ أبان عن عاصم وتكفر بالتاء المرفوعة وفتح الفاء مع تسكين الراء

قوله تعالى من سيئاتكم في من قولان أحدهما أنها زائدة والثاني أنها داخلة للتبعيض قال أبو سليمان الدمشقي ووجه **الحكمة في ذلك** أن يكون العباد على خوف ووجل

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ". (١)

٢٦٢-" وقدرناه الخبر

قال المفسرون ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ينزلها من أول الشهر إلى آخره وقد سميناها في سورة يونس ٥ فاذا صار إلى آخر منازله دق فعاد كالعرجون وهو عود العذق الذي تركته الشماريخ فاذا جف وقدم يشبه الهلال قال ابن قتيبة والقديم هاهنا الذي قد أتى عليه حول شبه القمر آخر ليلة يطلع به قال الزجاج وتقدير عرجون فعلون من الانعراج

وقرأ أبو مجلز وأبو رجاء والضحاك وعاصم الجحدري وابن السميفع كالعرجون بكسر العين

قوله تعالى لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر فيه ثلاثة أقوال

أحدها أنهما إذا اجتمعا في السماء كان أحدهما بين يدي الآخر فلا يشتركان في المنازل قاله ابن عباس

والثاني لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر قاله مجاهد

والثالث لا يجتمع ضوء أحدهما مع الآخر فاذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر قاله قتادة فيكون وجه **الحكمة في ذلك** أنه لو اتصل الضوء لم يعرف الليل

قوله تعالى ولا الليل سابق النهار وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء ". (٢)

٢٦٣-" الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم ووجه **الحكمة في ذلك** من ثلاثة أوجه

أحدها أن أهل الجنة جاؤوها وقد فتحت أبوابها ليستعجلوا السرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة وأهل النار يأتونها وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا

والثاني أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل فصين أهل الجنة عنه وجعل في حق أهل النار ذكره لي بعض مشايخنا

---

(١) زاد المسير ١/٣٢٦

(٢) زاد المسير ٧/٢٠

والثالث أنه لو وجد أهل الجنة بابها مغلقا لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجيء أهلها لأن الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة وقد قال عز و جل ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم النساء ١٤٧ قال المصنف هذا وجه خطر لي

والقول الثالث أن الواو زيدت لأن أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة والعرب تعطف في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم الكهف ٢٢ حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي

واختلف العلماء أين جواب هذه الآية على ثلاثة أقوال

أحدها أن الجواب محذوف قاله أبو عبيدة والمبرد والزجاج في آخرين وفي تقدير هذا المحذوف قولان أحدهما أن تقديره حتى إذا جاؤوها إلى آخر الآية سعدوا قاله المبرد والثاني حتى إذا جاؤوها إلى قوله ". (١)

٢٦٤-"قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعماهي ﴾ قال ابن السائب : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ قالوا : يا رسول الله ، صدقة السر أفضل ، أم العلانية؟ فنزلت هذه الآية قال الزجاج ، يقال : بدا الشيء يبدو : إذا ظهر ، وأبديته إبداءا : إذا أظهرته ، وبدا لي بداء : إذا تغير رأيي عما كان عليه .

قوله تعالى : ﴿ فنعما هي ﴾ في «نعم» أربع لغات . «نعم» بفتح النون ، وكسر العين ، مثل : علم . و «نعم» بكسرها ، و «نعم» بفتح النون ، وتسكين العين ، و«نعم» بكسر النون ، وتسكين العين . وأما قوله ﴿ فنعما هي ﴾ فقرأ نافع في غير رواية «ورش» ، وأبو عمرو ، وعاصم في رواية أبي بكر ، والمفضل : «فنعما» بكسر النون ، والعين ساكنة . وقرأ ابن كثير ، وعاصم في رواية حفص ، ونافع في رواية «ورش» ويعقوب بكسر النون والعين . وقرأ ابن عامر ، وحمزة والكسائي ، وخلف : «فنعما» بفتح النون ، وكسر العين ، وكلهم شددوا الميم . وكذلك خلافهم في سورة النساء . قال الزجاج : «ما» في تأويل الشيء ، أي : فنعم الشيء هي . وقال أبو علي : نعم الشيء إبداؤها . وقوله تعالى : ﴿ فهو خير لكم ﴾ يعني الإخفاء . واتفق العلماء على أن إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها ، وفي الفريضة قولان . أحدهما : أن إظهارها أفضل ، قاله ابن عباس في آخرين . واختاره القاضي أبو يعلى . وقال الزجاج : كان إخفاء الزكاة على عهد رسول الله A ، أحسن ، فأما اليوم ، فالناس يسيؤون الظن ، فاظهارها أحسن . والثاني : إخفاؤها أفضل ، قاله الحسن ، وقتادة ، ويزيد بن أبي حبيب . وقد حمل أرباب القول الأول الصدقات في الآية على الفريضة ، وحملوا ﴿ وإن تخفوها ﴾ على النافلة ، وهذا قول عجيب . وإنما فضلت صدقة السر لمعنيين . أحدهما : يرجع إلى المعطي ، وهو بعده عن الرياء ، وقربه من الإخلاص ، والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية . والثاني : يرجع إلى المعطى ، وهو دفع الذل عنه باخفاء الحال ، لأنه في العلانية ينكسر .

قوله تعالى : ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم ﴿ ونكفر عنك ﴾ بالنون والرفع ، والمعنى : ونحن نكفر عنكم ، ويجوز أن يكون مستأنفا . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : و«نكفر» بالنون وجزم

---

(١) زاد المسير ٧/٢٠٠

الراء . قال أبو علي : وهذا على حمل الكلام على موضع قوله : ﴿ فهو خير لكم ﴾ لأن قوله : ﴿ فهو خير لكم ﴾ في موضع جزم ، ألا ترى أنه لو قال : وإن تخفوها يكون أعظم لأجركم لجزم ، ومثله ﴿ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن ﴾ [المنافقون : ١٠] حمل قوله . و «أكن» ، على موضع «فأصدق» . وقرأ ابن عامر : و «يكفر» بالياء والرفع ، وكذلك عن حفص عن عاصم على الكناية عن الله D ، وقرأ أبان عن عاصم ، و «تكفر» بالتاء المرفوعة ، وفتح الفاء مع تسكين الراء .

قوله تعالى : ﴿ من سيئاتكم ﴾ في «من» قولان . أحدهما : أنها زائدة . والثاني : أنها داخلة للتبعيض . قال أبو سليمان الدمشقي : ووجه **الحكمة في ذلك** أن يكون العباد على خوف ووجل .". (١)

٢٦٥-"قوله تعالى : ﴿ وآية له الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي : وعلامة لهم تدل على توحيدنا وقدرتنا الليل نسلخ منه النهار؛ قال الفراء : نرمي بالنهار عنه . و « منه » بمعنى « عنه » . وقال أبو عبيدة : نخرج منه النهار ونميزه منه فتجيء الظلمة ، قال الماوردي : وذلك أن ضوء النهار يتداخل في الهواء فيضيء ، فإذا خرج منه أظلم . وقوله ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ أي : داخلون في الظلام .

﴿ والشمس ﴾ أي : وآية لهم الشمس ﴿ تجري لمستقر لها ﴾ وفيه أربعة أقوال :

أحدها : إلى موضع قرارها؛ روى « أبو ذر قال سألت رسول الله A عن قوله ﴿ لمستقر لها ﴾ قال : » مستقرها تحت العرش « ، وقال : » إنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ، فتستأذن في الطلوع ، فيؤذن لها «

والثاني : أن مستقرها مغربها لا تجاوزه ولا تقصر عنه ، قاله مجاهد .

والثالث : لوقت واحد لا تعدوه ، قاله قتاده . وقال مقاتل : لوقت لها إلى يوم القيامة .

والرابع : تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها الذي لا تجاوزه ، ثم ترجع إلى أول منازلها ، قاله ابن السائب . وقال ابن قتيبة : إلى مستقر لها ، ومستقرها : أقصى منازلها في الغروب ، [وذلك] لأنها لا تزال تتقدم إلى أقصى مغاربها ، ثم ترجع .

وقرأ ابن مسعود ، وعكرمة ، وعلي بن الحسين ، والشيزري عن الكسائي : ﴿ لا مستقر لها ﴾ والمعنى : أنها تجري أبدا ، لا تثبت في مكان واحد .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس ﴿ تقدير العزيز ﴾ في ملكه ﴿ العليم ﴾ بما يقدر .

قوله تعالى : ﴿ والقمر ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : » والقمر « بالرفع . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : و » القمر « بالنصب . قال الزجاج : من قرأ بالنصب فالمعنى : وقدرنا القمر قدرناه منازل . ومن قرأ بالرفع فالمعنى : وآية لهم القمر قدرناه ، ويجوز أن يكون على الابتداء ، و » قدرناه « الخبر .

قال المفسرون : ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ، ينزلها من أول الشهر إلى آخره ، وقد سميناها في سورة [يونس : ٥]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ١/٢٨٠

، فإذا صار إلى آخر منازله دق فعاد كالعرجون ، وهو عود العذق الذي تركته الشماريخ فإذا جف وقدم يشبه الهلال . قال ابن قتيبة : و » القديم « هاهنا : الذي قد أتى عليه حول ، شبه القمر آخر ليلة يطلع به . قال الزجاج : وتقدير » عرجون « : فعلون من الانعراج .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، والضحاك ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : ﴿كالعرجون ﴾ بكسر العين .

قوله تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنهما إذا اجتمعا في السماء ، كان أحدهما بين يدي الآخر ، فلا يشتركان في المنازل ، قاله ابن عباس .

والثاني : لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر ، قاله مجاهد .

والثالث : لا يجمتع ضوء أحدهما مع الآخر ، فإذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر ، قاله قتادة؛ فيكون وجه **الحكمة في ذلك** أنه لو اتصل الضوء لم يعرف الليل .

قوله تعالى : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران ، وعاصم الجحدري : ﴿ سابق ﴾ بالتنوين » النهار « بالنصب ، وفيه قولان :

أحدها : لا يتقدم الليل قبل استكمال النهار .

والثاني : لا يأتي ليل بعد ليل من غير نهار فاصل بيهما . وباقي الآية مفسر في سورة [الأنبياء : ٣٣] .". (١)

٢٦٦-"قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾ قال أبو عبيدة : الزمر : جماعات في تفرقة بعضهم على إثر بعض ، واحدها : زمرة .

قوله تعالى : ﴿ رسل منكم ﴾ أي : من أنفسكم . و ﴿كلمة العذاب ﴾ هي قوله ﴿ لأملأن جهنم ﴾ [الأعراف : ١٨] .

قوله تعالى : ﴿ فتحت أبوابها ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ فتحت ﴾ و ﴿ فتحت ﴾ مشددتين؛ وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بالتخفيف .

وفي هذه الواو ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها زائدة ، روي عن جماعة من اللغويين منهم الفراء .

والثاني : أنها واو الحال؛ فالمعنى : جاؤوها وقد فتحت أبوابها ، فدخلت الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم ، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم ، ووجه **الحكمة في ذلك** من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن أهل الجنة جاؤوها وقد فتحت أبوابها ليستعجلوا السرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة ، وأهل النار يأتونها وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها ، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا .

والثاني : أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل ، فصين أهل الجنة عنه ، وجعل في حق أهل النار ، ذكره لي بعض مشايخنا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ١٩٢/٥

.

والثالث : أنه لو وجد أهل الجنة بابها مغلقا لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم ، ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجيء أهلها ، لأن الكريم يعجل المثوبة ، ويؤخر العقوبة ، وقد قال D : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ [النساء : ١٤٧] قال المصنف : هذا وجه خطر لي .

والقول الثالث : أن الواو زيدت لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة ، والعرب تعطف في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : ٢٢] حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي .

واختلف العلماء : أين جواب هذه الآية؟ على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن الجواب محذوف ، قاله أبو عبيدة ، والمبرد ، والزجاج في آخرين . وفي تقدير هذا المحذوف قولان :

أحدهما : أن تقديره : ﴿ حتى إذا جاؤوها . . . ﴾ إلى آخر الآية سعدوا ، قاله المبرد .

والثاني : ﴿ حتى إذا جاؤوها . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ فادخلوها خالدين ﴾ . . دخلوها ، وإنما حذف ، لأن في الكلام دليلا عليه ، وهذا اختيار الزجاج .

والقول الثاني : أن الجواب : قال لهم خزنتها ، والواو زائدة ، ذكره الأخفش . قال : ومثله في الشعر .

فإذا وذلك يا كبيشة لم يكن ... إلا كلمة حالم بخيال

أي : فإذا ذلك .

والثالث : الجواب : ﴿ حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ والواو زائدة ، حكاه الزجاج عن قوم من أهل اللغة .

وفي قوله : ﴿ طبتم ﴾ خمسة أقوال :

أحدها : أنهم إذا انتهوا إلى باب الجنة وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان ، فيشربون من إحداهما فلا يبقى في بطونهم أذى ولا قذى إلا خرج ، ويغتسلون من الأخرى ، فلا تغبر جلودهم ولا تشعث أشعارهم أبدا ، حتى إذا انتهوا إلى باب الجنة قال لهم عند ذلك خزنتها : ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ رواه عاصم بن ضمرة عن علي رضى الله عنه ، وقد ذكرنا في [الأعراف : ٤٤] نحوه عن ابن عباس .". (١)

٢٦٧-"وهنا إشارة بيانية يحسن التنبيه إليها:

الأولى: في كلمة (لكم) فيها اللام المفيدة للملكية أو الاختصاص، وقد ابتدأ بها بيانا لزعمهم، ولذلك جاء بعدها خالصة لكم من دون الناس.

الثانية: الإشارة إلى أن الدار الآخرة هي عند الله تعالى مالك يوم الدين، وهو الذي تدعون أنكم أبناؤه وأحباؤه ومع ذلك تكفرون به وتتخذون العجل تشركون وتعبدونه.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ٢٨٠/٥

الثالثة: الإشارة إلى أنهم ليسوا صادقين، بل هم كاذبون؛ ولذلك كانت أداة التعليق هي إن في قوله: (إن كنتم صادقين) ولهذا نفى الله سبحانه أن يتمنوه.

* * *

تنبيه: يلاحظ أن الله تعالى أمر نبيه بأن يتولى الرد عليهم في قوله تعالى: (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا. . .)، وقوله تعالى: (قل بئسما يأمركم به إيمانكم. . .)، وفي قوله تعالى: (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله).

لم يتول الله تعالى الرد والجدل معهم وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يتولى الجدل معهم فما **الحكمة في ذلك؟** ونقول ما تصل إليه مداركنا - والله هو الحكيم العليم - إن مجادلتهم التي فيها التحدي كانت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فناسب أن يتولى بأمر الله تعالى الرد هو عليه الصلاة والسلام؛ ولأن مقام الله تعالى أعلى من أن ينزل لمجادلة الكافرين الظالمين لأنفسهم.

ولقد قال سبحانه وتعالى حاكما على حالهم بأنهم في ذات أنفسهم وفي مداركهم يعلمون مآثمهم، ويعلمون كذبهم؛ ولذلك ليست الجنة لهم، ولذا لا يتمنون الموت، فقال تعالى:". (١)

٢٦٨-"الإيمان، ممن لم يرشدوا ولم تمس بشاشة الإسلام نفوسهم، ولم تشرب قلوبهم حبه.

ثانيها - التعبير بقوله سبحانه: (الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم). وفي التعبير السامي، إشارة إلى أن الذين يعطون لهم حق الولاية والنصرة دون المؤمنين، سبب هذا الأمر منهم هو أن في قلوبهم مرضا، ومرض القلوب يكون إما من خور العزيمة، وعدم الإحساس بالقوة الدافعة لأن ينتصروا مما يقع عليهم من أذى، وإما من النفاق.

والمسارعة. المبادرة، وتعدى الفعل هنا بـ " في " مع أن المبادرة تتعدى بـ " إلى "، **والحكمة في ذلك** الإشارة إلى أنهم لا يدخلون ابتداء فيهم، بل إنهم فيهم بقلوبهم من قبل، فالمسارعة انتقال من حال إلى حال في صفوفهم أي أنهم منغمرون فيهم دائما، ولا يخرجون عن دائرتهم.

ثالثها - أنهم في مسارعتهم وبقائهم على الولاء لهم والانتصار بهم يقولون بأفواههم: (نخشى أن تصيبنا دائرة). الدائرة ما يصيب الجماعات من شدائد ونوازل بسبب أعدائهم، ويقول الواحدي في أصل معناها: الدائرة من دوائر الدهر كالدولة، وهي التي تدور من قوم إلى قوم، والدائرة هي التي تخشى كالهزيمة والحوادث، ومقتضى كلام الواحدي أن الدائرة كالدولة، إذ تتداول بين الناس، كما قال تعالى: (. . . وتلك الأيام نداولها بين الناس).

والدائرة تدور بين الناس والجماعات، بيد أن الدولة تتداول بالقوة والسلطان والعزة، والدائرة تدور بالهزيمة والجائحات، فهي تدور بين الناس من جماعة إلى جماعة، ومن يخشى الدائرة من الجزع والهلع يتوقع الأذى والشر، ولقد قال الشاعر في معنى الدائرة:

ترد عنك القدر المقدورا ... ودائرات الدهر أن تدورا

---

(١) زهرة التفاسير ١/٣٢٢

وإن أولئك المتصفين بهذه الصفات من مرضى القلوب لا يثقون بنصر الله، أو على الأقل حالهم ليست حال المطمئن إلى نصر الله، لخور نفوسهم، وضعف". (١)

٢٦٩-"(ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)، هذا بيان نهاية كل إنسان في هذه الحياة الدنيا، فهو يعيش إلى أجل محدود قد عينه الله تعالى له، لا يتأخر ولا يتقدم، وأجل الإنسان هو نهاية حياته.
وقال - سبحانه وتعالى: (ولكل أمة أجل)، ولم يقل لكل إنسان أجل مع أنه لكل إنسان أجل فعلا فلماذا اختار - جل جلاله - ذكر أجل الأمة تلك حكمة الله تعالى فيما يختار من بيان في الذكر الحكيم، ونتلمس **الحكمة في ذلك**، نقول: إنه - سبحانه وتعالى - ذكر الأمة، دون الآحاد بآحادها أولا - لأنه إذا كان للأمة بآحدها وجماعاتها أجل فأولى أن يكون للآحاد آجالها، ثانيا - ولأن الأمة". (٢)

٢٧٠-"وليس معنى هذا أن الناس غير متفاوتين،بل هم متفاوتون بطبيعة الخلق والتكوين والمواهب..يقول تعالى:﴿ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾(١)،أي فاوت بينهم في الخلق والرزق والقوة والبسطة والفضل والعلم والأشكال والألوان.. فخالف الله بينهم بأن رفع من درجة هذا على درجة هذا،وخفض من درجة هذا عن درجة هذا(٢)؛ذلك(ليستعمل بعضهم بعضا في حوائجهم فيحصل بينهم تآلف وينتظم بذلك نظام العالم)(٣)،و(ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره،والفقير في فقره ويسأله عن صبره)(٤)،وله **الحكمة في ذلك** كقوله تعالى:﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾(٥)،أي(نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا،ولم نفوض ذلك إليهم،وليس لأحد من العباد أن يتحكم في شيء بل الحكم لله وحده)(٦)،فالمطلوب هو العدل بين الناس وليس محو الفوارق الطبيعية بينهم،وهي المعادلة التي لا يستطيع القيام بها وجعلها واقعا في حياة الناس غير الإسلام،وهذا ما لا يسمح به الطاغوت.
رابعا:طغيان المفهوم المادي للحياة

---

(١) الأنعام:١٦٥].
(٢) انظر:تفسير الطبري(١١٤/٨)وتفسير القرطبي(١٥٨/٧).
(٣) تفسير البيضاوي(١٤٥/٥)وانظر:تفسير ابن كثير(١٢٨/٤)وتفسير أبي السعود(٤٦/٨).
(٤) تفسير ابن كثير(٢٠١/٢).
(٥) الزخرف:٣٢].

---

(١) زهرة التفاسير ٢٢٤٤/٥
(٢) زهرة التفاسير ٢٨٢٥/٦

(٦) فتح القدير(٤/٥٥٤)."‏. (١)

٢٧١-" فصل

في أسرار قوله يوصيكم الله

وقال سبحانه يوصيكم بلفظ الفعل الدائم لا بلفظ الماضي كما قال في غير آية نحو قوله تعالى أنزلناها وفرضناها ونحو قوله فرض عليك القرآن ونحو قوله ذلكم وصاكم به ونحو قوله كتب عليكم الصيام و كتب عليكم القتال ولم يقل ههنا كذلك وإنما قال يوصيكم **والحكمة في ذلك** والله أعلم أن الآية ناسخة للوصية المكتوبة عليهم في قوله كتب عليكم إذا حضز أحدكم الموت الآية فلما نسخ الوصية الماضية واستأنف حكما ". (٢)

٢٧٢-" فصل

في حجب الأب للإخوة

ذكر عبد بن حميد الكشي عن بعض التابعين أن الأب حجب الأخوة وأخذ سهامهم لأنه يتولى نكاحهم والإنفاق عليهم دون الأم وذكره الطبري أيضا وقال محتمل أن تكون الحكمة فيه هذا أو يحتمل أن يكون هذا تعبدا من الله تعالى استأثر بعلم السر فيه والمصلحة دون العبادة فصل

سر تكرار من بعد وصية عقب ميراث الزوج والزوجة

وقوله ولكم نصف ما ترك أزواجكم الآية كلام بين لا إشكال فيه غير أنه قال بعد الفراغ من ميراث الزوج من بعد وصية وقال مثل ذلك بعد الفراغ من ميراث الزوجة مرة أخرى ولم يقل مثل هذا فيما تقدم إلا مرة واحدة وقد ذكر ميراث الأولاد وميراث الأبوين وميراث الأم مع الأخوة

والحكمة في ذلك أن ذكره لما تقدم يدور على موروث واحد وإن تغايرت الورثة لأن الضمائر كلها تعود على واحد من قوله ولأبويه و لأمه ". (٣)

٢٧٣-"[وعلم آدم الأسماء كلها] أي أسماء المسميات كلها قال ابن عباس : علمه اسم كل شئ حتى القصعة والمغرفة

[ثم عرضهم على الملائكة] أي عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التبكيت

[فقال أنبئوني] أي أخبروني

---

(١) شخصية فرعون في القرآن ص/٢٦٥

(٢) شرح آيات الوصية ص/٣٣

(٣) شرح آيات الوصية ص/٦٧

[بأسماء هؤلاء] أي بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها
[إن كنتم صادقين] أي في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته ، والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة ، وخصه بالمعرفة التامة دونهم ، من معرفة الأسماء ، والأشياء ، والأجناس ، واللغات ، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور
[قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا] أي ننزهك يا الله عن النقص ونحن لا علم لنا إلا ما علمتنا إياه
[إنك أنت العليم] أي الذي لا تخفى عليه خافية
[الحكيم] الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة
[قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم] أي أعلمهم بالأسماء التى عجزوا عن علمها ، واعترفوا بتقاصر هممهم عن بلوغ مرتبتها
[فلما أنبأهم بأسمائهم] أي أخبرهم بكل الأشياء ، وسمى كل شئ باسمه ، وذكر حكمته التي خلق لها
[قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض] أي قال تعالى للملائكة : ألم أنبئكم بأني أعلم ما غاب فى السموات والأرض عنكم
[وأعلم ما تبدون] أي ما تظهرون
[وما كنت تكتمون] أي تسرون من دعواكم أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم. روي أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام رأت الملائكة فطرته العجيبة ، وقالوا : ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أكرم عليه منه!!.
البلاغة :
١- التعرض بعنوان الربوبية [وإذ قال ربك] مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه ، وتقديم الجار والمجرور [للملائكة] للاهتمام بما قدم ، والتشويق إلى ما أخر.
٢- الأمر في قوله تعالى [أنبئوني] خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت.
٣- [فلما أنبأهم بأسمائهم] فيه مجاز بالحذف والتقدير : فأنبأهم بها فلما أنبأهم ، حذف لفهم المعنى.
٤- [ثم عرضهم] هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور ، ولو لم يغلب لقال [ثم عرضها] أو عرضهن.
٥- إبراز الفعل فى قوله [إني أعلم غيب السموات] ثم قال [وأعلم ما تبدون] للاهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء ، ويسمى هذا بالإطناب.
٦- تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى بـ " الطباق " وذلك فى كلمتي [تبدون] و[تكتمون] كقوله تعالى عن أصحاب الكهف [وتحسبهم أيقاظا وهم رقود] .
الفوائد :
الأولى : قال بعض العلماء : في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض ، تعليم لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها.
الثانية : الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد – لا لافتقار الله – وذلك أن العباد لا طاقة لهم على

تلقي الأوامر والنواهي من الله مباشرة ، ولا بواسطة ملك ، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر.

الثالثة : قال الحافظ ابن كثير : وقول الملائكة : [أتجعل فيها من يفسد فيها] الآية ليس هذا على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك** ، يقولون : ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ؟ وقال فى التسهيل : وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك ، وقيل : كان في الأرض جن فأفسدوا ، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم ، فقاس الملائكة بني آدم عليهم.

الرابعة : سئل الشعبي : هل لإبليس زوجة ؟ قال : ذلك عرس لم أشهده ؟ قال : ثم قرأت قوله تعالى : [أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني] فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة ، فقلت : نعم.

". (١)

٢٧٤-"[وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها] أي وحرثوا الأرض للزراعة ، وحفروها لإستخراج المعادن ، وعمروها بالأبنية المشيدة ، والصناعات الفريدة ، أكثر مما عمرها هؤلاء ! ! قال البيضاوي : وفي الآية تهكم بأهل مكة ، من حيث أنهم مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالا فيها ، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة ، وهم ضعفاء ملجأون إلى دار لا نفع فيها

[وجاءتهم رسلهم بالبينات] أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم

[فما كان الله ليظلمهم] أي فما كان الله ليهلكهم بغير جرم

[ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب ، فاستحقوا الهلاك والدمار

[ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى] أي ثم كان عاقبة المجرمين ، العقوبة التي هي أسوأ العقوبات ، وهي نار جهنم

[أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون] أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا ، وإستهزءوا بها

[الله يبدأ الخلق ثم يعيده] أي الله جل وعلا بقدرته ينشيء خلق الناس ، ثم يعيد خلقهم بعد موتهم

[ثم إليه ترجعون] أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء

[ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون] أي ويوم تقوم القيامة ويحشر الناس للحساب ، يسكت المجرمون ، وتنقطع حجتهم ، فلا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة ، قال ابن عباس : [يبلس المجرمون] ييأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون ، قال القرطبي : والمعروف في اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجتة

[ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء] أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها ، شفعاء يشفعون لهم

[وكانوا بشركائهم كافرين] أي تبرءوا منها وتبرأت منهم

[ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون] كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف ، لأن قيام الساعة أمر هائل ، أي ويوم تقوم القيامة يومئذ يتفرق المؤمنون والكافرون ، ويصبحون فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ولهذا قال

---

(١) https://twitter.com/aziz6202/status/1565169862124732416 s=20&t=-tJC1PtKwL_io9qxW8rRA

[فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أي فأما المؤمنون المتقون ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح

[فهم في روضة يحبرون] أي فهم في رياض الجنة ، يسرون ويتنمون

[وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة] أي وأما الذين جحدوا بالقرآن ، وكذبوا بالبعث بعد الموت

[فأولئك في العذاب محضرون] أي فأولئك في عذاب جهنم ، مقيمون فيها على الدوام

[فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون] أي سبحوا الله ونزهوه عما لا يليق به من صفات النقص ، حين تدخلون في المساء ، وحين تدخلون في الصباح

[وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون] أي وهو جل وعلا المحمود في السموات والأرض ، قال ابن عباس : يحمده أهل السموات وأهل الأرض ويصلون له ، قال المفسرون : [وله الحمد في السموات والأرض] جملة اعتراضية وأصل الكلام : [فسبحان الله حين تمسون وحبن تصبحون وعشيا وحين تظهرون] **والحكمة في ذلك** ، الاشارة إلى أن التوفيق للعبادة نعمة ينبغي أن يحمد عليها ، والعشي : من صلاة المغرب إلى العتمة [وتظهرون] أي تدخلون وقت الظهر

[يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحي] أي يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والنبات من الحب ، والحب من النبات ، والحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان

[ويحي الأرض بعد موتها] أي ويحي الأرض بالنبات ، بعد يبسها وجدبها

[وكذلك تخرجون] أي كما يخرج الله النبات من الأرض ، كذلك يخرجكم من قبوركم للبعث يوم القيامة ، قال القرطبي : بين تعالى كمال قدرته ، فكما يحي الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث .

البلاغة :

تضمنت الآيات الكريمة وجوها من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

." (١)

٢٧٥-"يستحق على المالك أجرة. (والله ذو الفضل العظيم) لا يحاط بفضله. خلق وهدى وأعطى ما لم يخطر على قلب، من غير وجوب ولا استحقاق.

(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب ... (٢٢) في اللوح، (من قبل أن نبرأها) نخلقها أي: الأنفس أو المصيبة. الأول أوجه؛ لما روى مسلم " أن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام، وكان عرشه على الماء ". (إن ذلك على الله يسير)؛ لعلمه بالأشياء قبل وقوعها، كعلمه بها حال وقوعها. ثم أشار إلى **الحكمة في ذلك** بقوله: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ... (٢٣) فإن من علم أن ما أصابه من الضر

---

(١) صفوة التفاسير . للصابونى ٣/٥

كان مقدرا علمه في الأزل لم يحزن الحزن الشديد؛ لأنه قد وطن نفسه على ذلك، وكذا في جانب الخير، لأنه كان مترقبا. والمراد بهما ما يخرج إلى الجزع وعدم الصبر، والفرح المطغي المفضي إلى البطر، لا ما يعتري الإنسان من الهم والسرور شكرا لنعمة الله. وقرأ أبو عمرو: (أتاكم) مقصورا أي: جاءكم، وهي قراءة حسنه فسرها (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) (والله لا يحب كل مختال فخور) متكبر، فخور على الناس بكثرة المال. واكتفى بأحد الشقين؛ لدلالته على الآخر، وآثر الثاني، لأنه أشد تكبرا.

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ... (٢٤) بدل من (كل مختال) وأوفى منه؛

لدلالته على أن عز المال وحبه بلغ حدا يشح بمال الغير. وقرأ حمزة والكسائي". (١)

٢٧٦-"" صفحة رقم ٢٥٢ "

يرونني ويؤثر فيهم وسوستي ولا يؤثر في حولهم وقوتهم ؟ وما **الحكمة في ذلك** بعد أن لو خلقهم علىالفطرة وأبقاهم على ذلك فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين كان أحرى بالحكمة ؟ والسابع : سلمت هذا كله ، فلم إن استمهلته أمهلني ، وما **الحكمة في ذلك** بعد أن لو أهلكني في الحال استراح الخلق مني وما بقي شر في العالم ؟ ليس بقاء العالم على نظام الخير خيرا من المتزاجه بالشر ؟ فقال شارح الإنجيل : فأوحى الله تعالى إلى الملائكة قولوا له : أما تسليمك الأول أني الهك وإله الخلق فغير صادق ولا مخلص ، إذ لو صدقت أني إله العالمين ما احتكمت علي وأنا الله الذي لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل والخلق مسؤولون هذا مذكور في التوراة ومسطور في الإنجيل ، وهذه الشبهات بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور وليس يعدوها عقائد فرق الزيغ والكفر وإن اختلفت العبارات وتباينت الطرق ، ويرجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالخلق ، وإلى الجنوح إلى الهوى في مقابلة النص ، ولا جواب عنها بالتحقيق إلا الذي ذكره الله تعالى .

فاللعين لما أن حكم العقل على من لا يحتكم عليه العقل ، لزمه أن يجري حكم الخالق في الخلق ، أو حكم الخالق في الخالق .

فالأول غلو كالحلولية وكالغلاة من الشيعة ، والثاني تقصير كالمشبهة وصفوا الخالق بصفات الأجسام ، وكالخوارج نفوا تحكيم الرجال وقالوا : لا حكم إلا لله كقوله) أأسجد لبشر خلقته من صلصال) [الحجر : ٣٣] لا أسجد إلا لك .

فالشبهات كلها ناشئة من اللعين ، وتلك في الأول مصدرها ، وهذه في الأخير مظهرها ، ولهذا قال تعالى) ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) [البقرة : ٢٠٨] وشبه النبي (صلى الله عليه وسلم) كل فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السالفة فقال (القدرية مجوس هذه الأمة والمشبهة يهود هذه الأمة ، والرافضة - يعني الغلاة - نصارها) وقال (صلى الله عليه وسلم) : (لتسلكن سبيل الأمم قبلكم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) القول الثاني أن إبليس كان مؤمنا ثم كفر بعد ذلك ثم كفر بعد ذلك ثم اختلفوا .

فمن قائل معناه (وكان من الكافرين في علم الله) أي كان الله عالما في الأزل بأنه سيكفر .

---

(١) غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني ص/٩٨

فصيغة (كان) متعلقة بالعلم لا بالمعلوم .
ومن قائل إن (كان) بمعنى (صار) .
وقيل : لما كفر في وقت معين بعد أن كان مؤمنا فبعد لحظة يصدق عليه أنه كان من الكافرين .
وإنما حكم بكفره على هذا القول الثاني لاستكباره واعتقاده كونه محقا في ذلك التمرد بدليل قوله) أنا خير منه) [ص : ٧٦] وإلا فمجرد المعصية لا يوجب الكفر عندنا". (١)

٢٧٧-"" صفحة رقم ٢٨٠ "
مفعول به ، ويجوز أن يكون في موضع مصدر أي قليلا من الجزاء مثل (ولا تظلمون شيئا) .
ومعنى تنكير النفس أن نفسا من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئا من الأشياء وهو الإقناط الكلي القاطع للمطامع .
وكذلك قوله) ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل (أي فدية لأنها معمادلة للمفدى .
وفي الحديث (ولا يقبل منه صرف ولا عدل) أي توبة ، لأنها تصرف من الحال الذميمة إلى الحال الحميدة ولا فداء .
والضمير في) ولا يقبل منها (يرجع إلى النفس الثانية العاصية غير المجزي عنها وهي التي لا يؤخذ منها عدل .
ومعنى لا تقبل منها شفاعة أنها إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزي عنها شيئا ولو أعطت عدلا منها لم يؤخذ منها ولا هم ينصرون ، الضمير عائد إلى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة ، والتذكير بمعنى العباد أو الأناسي مثل ثلاثة أنفس .
وفي وصف اليوم بهذه الصفات تهويل عظيم تنبيه على أن الخطب شديد ، لأنه إذا وقع أحد في كريهة وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه ، بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية ، فتحمل عنه ما يلزمه وتذب عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته ونهاية بطشه .
فإن رأى من لا طاقة له بممانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة وبذل المال والمنال ، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن هذه الأمور تعلل بما أمكنه من نصر الإخوان ومدد الأخدان ، فأخبر الله تعالى أن شيئا من هذه لا يدفع يومئذ عن عذابه .
وفي هذا تحذير من المعاصي وترغيب في تلافي ما فات بالتوبة ، لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية ، علم أنه لا ينفعه إلا الطاعة وتلافي البوادر .
فالآية وإن كانت في بني إسرائيل إلا أنها تعم كل من يحضر ذلك اليوم .
فإن قيل : قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الدية ، وفي موضع آخر من هذه السورة عكست القضية ، فما **الحكمة في ذلك** ؟ قلنا : من الناس من ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فيتمسك أولا بالشفيع ثم يستروح إلى بذل المال ، ومنهم من على العكس فيقدم الفدية على الشفاعة ، فتغيير الترتيب إشارة إلى الصنفين والله أعلم .

---
(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/٢٥٢

واعلم أن الشفاعة هي أن يستوهب أحد لأحد شيئا ويطلب له حاجة من الشفع ضد الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فردا فصار بالشفيع شفعا .

ثم إن الأمة أجمعت على أن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) رتبة الشفاعة في الآخرة ، وعليه يحمل قوله تعالى) عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) [الإسراء : ٧٩] (ولسوف يعطيك ربك فترضى) [الضحى : ٥] .

وأجمعوا على أنه لا شفاعة للكفار .

بقي الخلاف فيمن عداهم .

فأهل السنة أثبتوا الشفاعة لغير الكفار ،". (١)

٢٧٨-"" صفحة رقم ٤٢١ "

ينصرف إلى قوله) ولله المشرق والمغرب (أي كما خصصنا بعض الجهات المتساوية بمزيد التشريف والتكريم حتى صارت قبلة فضلا منا وإحسانا ، جعلناكم مختصين بالعدالة برا منا وامتنانا مع تساوي الخلق في العبودية .

وقيل : قد يذكر ضمير الشيء وإن لم يكن المضمر مذكورا إذا كان المضمر مشهورا معروفا مثل) إنا أنزلناه في ليلة القدر (ثم من المشهور المعروف عند كل أحد أنه سبحانه هو القادر على إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء ، فالمعنى ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد غيري جعلناكم أمة وسطا .

الجوهري : يقال جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف ، وجلست وسط الدار بالتحريك لأنه اسم ، وكل موضع صلح فيه بين فهو وسط ، وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك .

قال : والوسط من كل شيء أعدله ، وشيء وسط أي بين الجيد والرديء ، وأمة وسطا أي عدولا قال زهير :

همو وسط يرضى الأنام بحكمهم

إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وذلك أن العدل متوسط في الأخلاق بين طرفي الإفراط والتفريط ، ولهذا ذكره الله تعالى في معرض المدح والامتنان .

وقيل : الوسط الخيار لأنه يستعمل في الجمادات .

قال في الكشاف : اكتريت بمكة جمل أعرابي فقال : أعطني من سطاتهن - أراد من خيار الدنانير - ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر) كنتم خير أمة أخرجت للناس) [آل عمران : ١١٠] وإنما أطلق الوسط على الخيار لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والعيب ، والأوساط محمية محوطة .

وقيل : المراد بالوسط ههنا أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر في شأن الأنبياء لا كالنصارى حيث جعلوا النبي صلى الله عليه وسلم ابنا وإلها ، ولا كاليهود حيث قتلوا الأنبياء وبدلوا الكتب ، ولأن الوسط في الأصل اسم وصف به استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث) لتكونوا شهداء على الناس (الأكثرون على أن هذه الشهادة في

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/٢٨٠

الآخرة إما بأن يكونوا شهداء للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم .

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء يوم القيامة فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا – وهو أعلم – فيؤتى بأمة محمد فيشهدون فيقول الأمم : من أين عرفتم ؟ فيقولون : علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق .

فيؤتى بمحمد فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى) فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) [النساء : ٤١] قلت : **والحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) في الفضل عن سائر الأمم حيث يبادرون إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء والإيمان بهم جميعا ، فهم بالنسبة إلى غيرهم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق ، ولذلك". (١)

٢٧٩-"" صفحة رقم ١٢١ "

الأقرب وهو الفئة الكافرة أولى ، ولأنه سبحانه جعل هذه الحالة آية للكفار حيث خاطبهم بقوله) قد كان لكم آية (فوجب أن يكون الراؤون هم الكفار حتى تكون حجة عليهم ، ولو كانت الآية مما شاهدها المؤمنون لم يصلح جعلها حجة على الكفرة .

والحكمة في ذلك أن يهابهم المشركون ويجبنوا عن قتالهم وهذا لا يناقض قوله في سورة الأنفال) ويقللكم في أعينهم) [الآية : ٤٤] لاختلاف الوقتين فكأنهم قللوا أولا في أعينهم وتكثيرهم أخرى أبلغ في القدرة بإظهار الآية .

الاحتمال الثالث أن الرائين هم المسلمون والمرئيين هم المشركون .

فالمسلمون رأوا المشركين مثلي المسلمين والسبب فيه ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) [الأنفال : ٦٥] والكافرون كانوا قريبا من ثلاثة أمثالهم ، فلو رأوهم كما هم لجبنوا وضعفوا الاحتمال الرابع أن يكون الراؤون هم المسلمين ، ثم إنهم رأوا المشركين على الضعف من عدد المشركين وهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصرة الكفار وإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين ، والآية تنافي ذلك ، وفي الآية احتمال خامس وهو أن أول الآية قد بينا أنه خطاب مع اليهود فيكون المراد : ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة .

وههنا بحث وهو أن الاحتمال الأول والثاني يقتضي أن المعدوم صار مرئيا ، والاحتمال الثالث يوجب أن يكون الموجود والحاضر غير مرئي ، أما الأول فهو محال عقلا والقول به سفسطة فلهذا قيل : لعل الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيرا .

وعلى هذا تكون الرؤية البصر ، ويكون) مثليهم (نصبا على الحال ، أو تحمل الرؤية على الظن والحسبان فإن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنه في غاية الكثرة ، لكن قوله : (رأى العين (لا يجاوب ذلك إذ معناه رؤية ظاهرة مكشوفة

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٢١/١

لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات .

وأما الثاني فهو جائز عند الأشاعرة إذ عند حصول الشرائط وصحة الحاسة لا يكون الإدراك واجب الحصول بل يكون عندهم جائزا لا واجبا والزمان زمان خوارق العادات .

وأما المعتزلة فعندهم الإدراك واجب الحصول عند استجماع الشروط وسلامة الحس ، فاعتذروا عن ذلك بأن الإنسان عند الخوف لا يتفرغ للتأمل البالغ ، فقد يرى البعض دون البعض. أو لعل الغبار صار مانعا عن إدراك البعض ، أو خلق الله تعالى في الهواء ما صار مانعا عن رؤية ثلث العسكر ، أو يحدث في عيونهم ما يستقل به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين وكل ذلك محتمل) والله يؤيد بنصره من يشاء (إما بالغلبة كيوم بدر ، وإما بالحجة العاقبة كيوم أحد) إن في ذلك (الذي ذكره من". (١)

٢٨٠-"" صفحة رقم ٢٣٠ "

يا بياض القرون سودت وجهي

عند بيض الوجوه سود القرون .

وثانيهما : أن السواد والبياض محمولان على ظاهرهما وهما النور والظلمة ، إذ الأصل في الإطلاق الحقيقة .

فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وسعى النور بين يديه وبيمينه ، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكمده واسودت صحيفته وأحاطت به الظلمة من كل جانب .

قالوا : **والحكمة في ذلك** أن يعرف أهل الموقف كل صنف فيعظمونهم أو يصغرون بحسب ذلك ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور .

وأيضا إذا عرف المكلف في الدنيا أنه يحصل له في الآخرة إحدى الحالتين ازدادت رغبته في الطاعات وترك المحرمات .

قلت : والتحقيق فيه أن والهيئات والأخلاق الحميدة أنوار ، والملكات والعادات الذميمة ظلمات ، وكل منهما لا يظهر آثارهما كما هي إلا بعد المفارقة إلى الآخرة) انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) [الحديد : ١٣]

واحتج أهل السنة بالآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر وإنه ليس ههنا منزلة بين المنزلتين ، لأنه قسم أهل القيامة إلى قسمين : مبيض الوجوه وهم المؤمنون ، ومسودها وهم الكافرون لقوله تعالى في آخر الآية) فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (واعترض القاضي عليه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه ، وأيضا لفظ وجوه نكرة فلا يفيد العموم .

وأيضا المذكور في الآية هم المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ، ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين فكذا القول في الفساق .

والواب لم لا يجوز أن يكون لامراد أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم ، فيكون الخطاب لجميع الكفار ؟ وأنه أيضا جعل موجب العذاب في آخر الآية هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث إنه بعد الإيمان .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/١٢١

فإن قيل : لم قدم البياض على السواد أولا وعكس آخرا ؟ فالجواب بعد تسليم إفادة الواو الترتيب ، أنه بدأ بذكر أهل الثواب وختم بها أيضا تنبيها على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال : (سبقت رحمتي غضبي) ولما في ذلك من رعاية حسن المطلع والمقطع وأنه فن بديع في الفصاحة .

ومن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ؟ قال أبي بن كعب : هم جميع الكفار لأنهم آمنوا وقت الميثاق ، ورواه الواحدي في البسيط بإسناده عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقيل : المراد أكفرتم بعدما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو ما نصبه الله من دلائل التوحيد والنبوة ؟ وقال عكرمة والأصم والزجاج : إنهم أهل الكتاب آمنوا قبل مبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) وكفروا به بعد بعثه .

وقال قتادة : إنهم المرتدون .

وقال الحسن : هم المنافقون وقيل : هم الخوارج الذين قال فيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (يمرقون من الدين كما يمرق السهم من". (١)

٢٨١-"" صفحة رقم ٤٠٤ "

الرؤية رؤية العين لا القلب وقد استوفت الإراءة مفعولية فلن يتعدى إلى ثالث) ويقللكم في أعينهم (الحكمة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة مع أن في ذلك تصديقا لرؤيا النبي ، وأما تقليل المؤمنين في أعين الكفار **فالحكمة في ذلك** أن يجترئ الكفار عليهم قلة مبالاة بهم وأن يستعدوا لهم كما ينبغي) ليقضي الله أمرا كان معفولا (فعل ما فعل منالتقليل) ولى الله ترجع الأمور (فيه أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها .

وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا للمعاد .

ثم علم المؤمنين آداب اللقاء في الحروب فقال) إذا لقيتم فئة فاثبتوا (لقتالهم ولا تفروا واللقاء اسم غلب في القتال لفهذا ترك وصف الفئة بالمحاربين ونحو ذلك ، والأمر بالثبات في القتال لا ينافي الرخصة في التحرف والتحيز فلعل الثبات في الحرب لا يحصل إلا بهما .

) واذكروا الله كثيرا (في مواطن الحرب) لعلكم تفلحون (تظفرون بمرادكم من النصر والمثوبة .

وفيه إشعار بأن العبد لا يجوز له أن يفتر عن ذكر ربه في أي شغل وعمل كان ، ولو أن رجلا أقبل من المغرب إلى المشرق منفقا أمواله لله ، والآخر من المشرق إلى المغرب ضاربا بسيفه في سبيل الله كان الذاكر لله أعظم أجرا .

وقيل : المراد من هذا الذكر أن يدعو على العدو : اللهم اخذلهم اللهم اقتطع دابرهم ونحو ذلك والأولى حمله على العموم) وأطيعوا الله ورسوله (في سائر ما يأمر لأن الجهاد لا ينفع إلى مع التمسك بسائر الطاعات) ولا تنازعوا فتفشلوا (منصوب بإضمار (أن) أو مجزوم لدخوله في حكم النهي ويظهر التقدير (أن) في قوله) وتذهب ريحكم (على القراءتين .

والريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها وتمشيته على وفق المشيئة بالريح وهبوبها .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢/٢٣٠

يقال : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره .

وقيل : الريح حقيقة ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله .

وفي الحديث : (نصرت بالصبا) حذرهم التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد بمخالفتهم رسول الله .

احتج نفاة القياس بالآية لأن القول به يفضي غالبا إلى النزاع المنهى عنه .

وكذا القائلون : بأن النص لا يجوز تخصيصه بالقياس .

قال أهل السير : إن أهل مكة حين نفروا لحماية العير أتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فأبى أبو جهل وقال : حتى نقدم بدرا نشرب بها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب .

فوافوها فسقوا كؤوس". (١)

٢٨٢-"" صفحة رقم ٣٧٠ "

فيقال : يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر. وهو قول الربيع وأبي العالية أيضا. قال صاحب الكشاف : ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع (أن) وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم. **والحكمة في ذلك** في رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين عليهما السلام وأن لا يفتضح أولاد الزنا. ثم قال : وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته ؟ وقال في التفسير الكبير : كل خلق يظهر من الإنسان حسن العفة والشجاعة والعلم ، أوقبيح كأضادها فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن كالإمام له وكالمنيع والمنشأ ، ويوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق) فمن أوتى (هو في معنى الجمع ولذلك قيل في جزائه) فأولئك يقرؤون (اوخص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم لأن قراءة أصحاب الشمال كلا قراءة لما يعرض لهم فيه من الحياء والخجل والتتعتع) ومن كان في هذه (الدنيا) أعمى (لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب. وأما قوله : (فهو في الآخرة أعمى (لا خلاف أن المراد البصر كقوله : (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا) [طه : ٢٥] وفي هذا زيادة العقوبة. ويحتمل أن يراد عمى القلب. قال ابن عباس : المراد ومن كان أعمى في هذه النعم التي عددها من قوله : (ربكم الذي يزجى (إلى قوله : (تفضيلا (فهو في الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى بالطريق الأولى ، لأن الضلال عن معرفة أحوال الآخرة أقرب وقوعا ، فعلى هذا يكون الأعمى في الموضعين في الدنيا ، ومثله ما روى أبو روق عن الضحاك. من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرته في خلق السماء والأرض والبحار والجبال والناس والدواب ، فهو عن أمر الآخرة وتحصيل العلم به أعمى. قال المفسرون : لا يبعد أن يكون أعمى على هذا التفسير (أفعل) التفضيل ودليله قراءة أبي عمر وبإمالة الأول وتفخيم الثاني فإن تمامه بمن فكانت ألفه في حكم وسط الكلمة. هذا قول صاحب الكشاف تابعا لأبي علي الفارسي. وأقول : في هذا الوجه نظر ، لأن الإمالة ليست مختصة بآخر الكلمة مثل (شيئان) (والكافرين) ونحوهما ولهذا قرىء بإمالة كليهما مع قيام هذا الاحتمال في الثاني ، ولعل من لم يمل الثاني راعى المشاكلة بينه وبين أضل والله أعلم. قال

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣/٤٠٤

الحسن : في الآخرة أي في الدار الآخرة وذلك أنه في الدنيا تقبل توبه وفي الآخرة لا تقبل. وقيل : المراد بالعمى في الآخرة أنه لا يهتدي إلى طريق الجنة وإلى طيباتها والابتهاج ، بها ولا يمكن أن يراد بها الجهل بالله لأن أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة .". (١)

٢٨٣-"" صفحة رقم ٤٤ "

إن امرأته تدخل عليكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدي غليكم علته ، فحينئذ لم يستعملها أحد فتحيرت وكان لها ثلاث ذوائب فعمدت غلى إحداها وقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزا ولحما فقال أيوب : من أين هذا ؟ قالت : كل فإنه حلال. فلما كان من الغد لم تجد شيئا فباعت الثانية ، وكذلك فعلت في اليوم الثالث وقالت : كل فإنه حلال. فقال : لا آكل أو تخبريني فأخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم فقال : (رب إني مسني الضر (. والرواية الخامسة قيل : سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها غلى موضعها وقال : قد جعلني الله طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال : (مسني الضر (فأوحى الله إليه : لولا أني جعلت في كل شعرة منك صبرا لما صبرت. واعلم أن مس الضر ههنا مطلق إلا أنه ورد في (ص) مقيدا وذلك قوله) أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) [ص : ٤١] فصح أن يكون سندا لهذه الروايات إلا أن الجبائي طعن فيها بأن الشيطان كيف يقدر على إحداث الأمراض والاسقام والقادر على ذلك قادر على خلق الأجسام وحينئذ يكون إلها. وأيضا إن هذه التأثيرات تنافي قوله سبحانه حكاية عنه) وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم) [إبراهيم : ٢٢] والجواب أنه كان بإذن من الله كما حكينا أن الأمور مرهونة بأوقاتها. وقال انتهاء أمراض الأنبياء إلى حد التنفير من القبول غير جائز. والجواب المنع ولا سيما بشرط العافية في العاقبة. قوله سبحانه) فكشفنا ما به من ضر (مجمل يقتضي إعادته إلى ما كان في بدنه وأحواله. وقوله : (وآتيناه أهله ومثلهم معهم (تفصيل لذلك المجمل وفيه قولان : الأول قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومقاتل والكلبي : إن الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم. والثاني قال الليث : ارسل مجاهد غلى عكرمة وسئل عن الآية فقال : أراد أهلك لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا. فقد روي أن زوجته ولدت بعد ذلك ستة وعشرين ابنا له. ثم بين **الحكمة في ذلك** الابتلاء ثم الاستجابة بقوله) رحمة من عندنا (لأيوب) وذكرى (لغيره من العابدين للرحمن أو الرحمة والذكرى كلاهما) للعابدين (لكي يتفكروا فيصبروا كما صبر حتى يثابوا في الدارين كما أثيب. وإنما خص الرحمة والتذكرة بالعابدين لأنهم هم المنتفعون بذلك لا الذين يعبدون الهوى والشيطان. قال أهل البرهان : إنما قال في هذه السورة) رحمة من عندنا (وقال في (ص)) رحمة منا) [ص : ٤٣] لأنه بالغ ههنا في الدعاء بزيادة قوله : (وأنت أرحم الراحمين (فبالغ في الاستجابة لأن لفظ (عند) يدل على مزيد التخصيص وأنه سبحانه تولى ذلك من غير واسطة. وحين ذكر صبر أيوب وانقطاعه إليه ذكر غيره من الأنبياء المشهورين

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤/٣٧٠

بالصبر منهم". (١)

٢٨٤-"" صفحة رقم ٢٥٩ "

وفي الآية تخصيص آخر وهو أنه لم يذكر أحوال أهل السموات وفيه سر قال أهل البرهان : فصل في هذه السورة وأجمل ي (التغابن) فقال) ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) [الحديد : ٢٢] والتفصيل بهذه السورة ألأيق لأنه فصل أحوال الدنيا والآخرة بقوله) اعملوا إنما الحياة الدنيا (إلى آخره قوله) من قبل أن نبرأها (من قبل أن نخلق المصائب والأنفس أو الأرض أو المخلوقات) إن ذلك (الإثبات أو الحفظ) على الله يسير (وإن كان عسيرا على غيره .

ثم بين وجه **الحكمة في ذلك** افثبات قائلا) لكيلا تأسوا (أي لكيلا تحزنوا) على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم (نظيره ما ورد في الخبر : من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب لأنه لما علم وجوب وقوعه من حيث تعلق علم الله وحكمه وقدرته به عرف أن الفائت لا يرده الجزع والمعطى لا يكاد يثبت ويدوم لأنه عرضة للزوال ونهزة للانتقال فلا يشتد به فرحه .

روى عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبرا وللخير شكرا أو المراد أنه لم ينف الأسى والفرح على الإطلاق ولكنه نفى ما بلغ الجزع والبطر ولا لوم على ما يخلو منه البشر .

والباقي ظاهر وقد مر في النساء .

والمقصود أن البخيل يفرح فرحا مطغيا لحبه المال ليفتخر به ويتكبر على الناس ويحمل غيره على إمساك المال لمقتضى شحه الطبيعي) ومن يتول (عن أوامر الله ونواهيه ولا يعرف حق الله فما أعطاه) فإن الله هو الغني (عن طاعة المطعين) الحميد (في ذاته وإن لم يحمده الحامدون .

وقيل : إن الآية نزلت في اليهود الذين كتموا صفة محمد (صلى الله عليه وسلم) وبخلوا ببيان نعته .

ثم أراد أن يبين الغرض من بعثة الرسل المؤيدين بالمعجزات ومن إنزال الكتاب والميزان معهم .

يروى أن جبرائيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح فقال : مر قومك يزنوا به .

وروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض .

أنزل الحديد والنار والماء والملح .

وعن الحسن : إنزالها تهيئتها كقوله) وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) [الزمر : ٦] وقال قطرب : هو من النزل يقال : أنزل الأمير على فلان نزلا حسنا منهم من قال : هو من باب (علفتها تبنا وماء باردا) .

وللعلماء في المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد الذي فيه بأس شديد والأول إما أن يكون من باب الاعتقادات ولن يتم إلا بالكتاب السماوي ولا سيما إذا كان معجزا .

وإما أن يكون من باب المعاملات ولا ينتظم إلا بالميزان فأشرف الأقسام ما يتعلق بالوقة النظرية الروحاينة ، ثم ما يتعلق

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤٤/٥

بالعملية الجسمانية ، ثم ما يتعلق بالزواجر وقد روعي في الآية هذا النسق .
وثانيها". (١)

٢٨٥-"عشر مائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه، ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث على حقيقته فضلا عن أممهم المقتدين بهم.
فيالله العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول والقانعين بالمعقول من المنقول إلى هذا الحد الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن الله بالكلام فيه ولم يستأثر بعلمه، وقد عجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه.
والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز، ولذا رد ما قيل في حده قديما وحديثا.
ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) الخطاب عام لجميع الخلق ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل هو خطاب لليهود خاصة، والأول أولى، ويدخل فيه اليهود دخولا أوليا.
والمعنى أن علمكم الذي علمكم الله ليس إلا المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه وأن أوتيتم حظا من العلم وافرا، بل علم الأنبياء عليهم السلام ليس هو بالنسبة إلى علم الله سبحانه إلا كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام.
وعبارة الخازن أن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة، فوصف الشيء بالقلة بالنسبة إلى ما فوقه وبالكثرة إلى ما تحته. أهـ.
أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود". (٢)

٢٨٦-"(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أي رضي الله عنهم وقت تلك البيعة، وهي بيعة الرضوان وكانت بالحديبية، وهذه الشجرة هي سمرة كانت بها، وقيل: سدرة، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا وروي أنه بايعهم على الموت وأتى بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة والسمرة من شجر الطلح، وجمهور المفسرين على أن المراد بالطلح في القرآن الموز، وفي الصحيح عن ابن عمر أن الشجرة أخفيت، **والحكمة في ذلك** أن لا يحصل الافتتان بها لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم الجهال لها، حتى ربما اعتقدوا أن لها قوة نفع أو ضر، كما نشاهده الآن فيما دونها، ولذلك أشار ابن عمر بقوله: كان خفاؤها رحمة من الله، كذا في الفتح وشرح المواهب.
وعن نافع قال: " بلغ عمر بن الخطاب أن ناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت " أخرجه ابن أبي شيبة في

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/٢٥٩

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ٧/٤٤٨

المصنف، وقد تقدم ذكر عدد أهل هذه البيعة قريبا، والقصة مبسوطة في كتب الحديث والسير، وفي الباب أحاديث ذكرها الخازن وغيره (رَحِمَهُ اللَّهُ١)، والمعنى فعل بالراسخين في الإيمان فعل الراضي بما جعل لهم من الفتح، وما قدر لهم من الثواب، وأفهم ذلك أنه لم يرض عن الكافرين فخذلهم في الدنيا، مع ما أعد لهم في الآخرة، فالآية تقرير لما ذكر من جزاء الفريقين بأمور شاهدة، ولأجل هذا الرضا سميت بيعة الرضوان.

رَحِمَهُ اللَّهُ_____________

(رَحِمَهُ اللَّهُ١) ابن حجر في الفتح ٧/ ٣٤٥.". (١)

٢٨٧-"(هو الذي أرسل رسوله بالهدى) أي البيان الشافي بالقرآن أو المعجزات (ودين الحق) أي الملة الحقة، وهي ملة الإسلام (ليظهره على الدين كله) أي ليجعله ظاهرا على جميع الأديان المخالفة لها، عاليا عليها، غالبا لها، قال الخطيب: فإن قيل: قال أولا: (ولو كره الكافرون)، وقال ثانيا: (ولو كره المشركون)، فما **الحكمة في ذلك؟** أيقول بأنه تعالى أرسل رسوله، وهو من نعم الله تعالى، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء، فلهذا قال: (ولو كره الكافرون)، لأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون، فلفظ الكافر". (٢)

٢٨٨-"فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة، وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لابد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقها ما فقهه قوم قط : قالوا : والدليل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك، كما سأله عمر فقال : ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به ؟ وسأله . أيضا . عمر : ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا ؟ ولما نزل قوله : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، شق عليهم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم، ولما نزل قوله : ﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ [البقرة : ٢٨٤] ، شق عليهم حتى بين لهم **الحكمة في ذلك**، ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من نوقش الحساب عذب) قالت عائشة : ألم يقل الله : ﴿ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ [الانشقاق : ٨] قال : (إنما ذلك العرض) .

قالوا : والدليل على ما قلناه إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن . وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عنها، وتلقوا ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن . عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما . أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى/يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن، إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحدا من الناس لا يعلمه، لكن لأنه هو لم يعلمه .

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٠٥/١٣

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٢١/١٤

". (١)

٢٨٩-"وقال ابن زيد : الغاسق : الثريا إذا سقطت، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وقد تقع عند طلوعها، ويشبه . والله أعلم . أن يكون من **الحكمة في ذلك** : أن النور هو جنس الخير، والظلمة جنس الشر، وفي الليل يقع من الشرور النفسانية ما لا يقع في النهار، والقمر له تأثير في الأرض لا سيما حال كسوفه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنهما آيتان يخوف الله بهما عباده) . والتخويف إنما يكون بانعقاد سبب الخوف، ولا يكون ذلك إلا عند سبب العذاب، أو مظنته، فعلم أن الكسوف مظنة حدوث عذاب بأهل الأرض؛/ ولهذا شرع عند الكسوف الصلاة الطويلة، والصدقة، والعتاقة، والدعاء لدفع العذاب، وكذلك عند سائر الآيات التي هي إنشاء العذاب، كالزلزلة، وظهور الكواكب، وغير ذلك . وهو أقرب الكواكب التي لها تأثير في الأرض بالترطيب واليبس وغير ذلك .

ولهذا كان الطالبون للمنفعة والمضرة من الكواكب إنما يأخذون الأحداث بحسب سير القمر، فإذا كان في شرفه . كالسرطان . كان الوقت عندهم سعيدا، وإذا كان في العقرب . وهو هبوطه . كان نحسا، فهذا في علمهم، وكذلك في عملهم من السحر وغيره : القمر أقرب المؤثرات، حتى صنفوا [مصحف القمر] لعبادته وتسبيحه، فوقع ترتيب المستعاذ منه في هذه السورة على كمال الترتيب، انتقالا من الأعم الأعلى الأبعد إلى الأخص الأقرب الأسفل، فجعلت أربعة أقسام :

الأول : من شر المخلوقات عموما، وقول الحسن : إنه إبليس وذريته، وقول بعضهم : إنه جهنم ذكر للشر الذي هو لنا شر محض من الأرواح والأجسام .

والثاني : شر الغاسق إذا وقب، فدخل فيه ما يؤثر من العلويات في السفليات من الليل وما فيه من الكواكب، كالثريا وسلطانه الذي هو القمر، ودخل في ذلك سحر التمرسحات الذي هو أعلى السحر وأرفعه .

/الثالث : شر النفاثات في العقد، وهن السواحر اللواتي يتصورن بأفعال في أجسام .

". (٢)

٢٩٠-"ج ١ ، ص : ٦١٤

سورة الإسراء

سورة بني إسرائيل ، وتسمى سورة الإسراء ، وسبحان مكية ، غير قوله :

وإن كادوا ليستفزونك إلى قوله : سلطانا نصيرا فهذه الآيات الثمانية مدنيات ، مائة وإحدى عشر آية ، ألف وخمسمائة وتسعة وخمسون كلمة ، ستة آلاف وستمائة واثنان وأربعون حرفا

سبحان الذي أسرى بعبده أي تبرأ عن الشريك من سير عبده محمدا صلى الله عليه وسلم ليلا أي في جزء قليل من الليل

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ٣٩٠/٥

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ١٥/٦

من المسجد الحرام أي من حرم مكة من بيت أم هانئ بنت أبي طالب إلى المسجد الأقصى أي الأبعد من الأرض وأقرب إلى السماء وهو مسجد بيت المقدس وسمي أقصى ، لأنه أبعد المساجد التي تزار ويطلب بها الأجر من المسجد الحرام.

وروي أن عبد الله بن سلام قال في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءته هذه الآية لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئا ولا ينقص فقال صلى الله عليه وسلم : «صدقت» ثم قال : «ويقال له البيت المقدس والزيتون ولا يقال له الحرم»

اه. والحكمة في إسرائه صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليحصل له العروج إلى السماء مستويا من غير تعريج لما روي عن كعب أن باب السماء الذي يقال له : مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس قال : وهو أقرب من الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا. وقيل : **الحكمة في ذلك** أن الشام خيرة الله تعالى من أرضه كما في حديث صحيح فهي أفضل الأرض بعد الحرمين وأول إقليم ظهر فيه ملكه صلى الله عليه وسلم.

وروي أن صخرة بيت المقدس من جنة الفردوس. وقيل : **الحكمة في ذلك** لإظهار الحق على من عاند ، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعانده سبيلا إلى الإيضاح فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا علموا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن رآها قبل ذلك لما أخبرهم بها حصل التحقق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس في ليلة وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ذلك من خبر المعراج إلى السموات. وقيل : **الحكمة في ذلك** ليجمع الله له صلى الله عليه وسلم بين القبلتين الذي باركنا حوله أي المسجد الأقصى من أرض الشام بركة". (١)

٢٩١-"سورة الشورى

الآية الأولى منها – قوله تعالى : (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩) أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) (الشورى : ٤٩-٥٠) ، ثم قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم) (الشورى : ٥١) ، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آية من هاتين الآيتين فقيل في الأولى : (إنه عليم قدير) وفي الثانية : (إنه علي حكيم) وهل كان يمكن عكس الواقع ؟

والجواب عن ذلك ، والله أعلم : أن الآية الأولى لما تضمنت الإعلام بانفراده سبحانه بملك السماوات والأرض وقهره جميع (من) فيهن ، وأنه الخالق لكل شيء فلا اختيار لمخلوق ولا مشيئة ، وكل صادر منه إحسان ، فيهب لمن يشاء إناثا ، وقدم ذكر الإناث لكراهة العرب إياهن ، فأشار بتقديم ذكرهن إلى أن فلعهم وكراهتهم معارضة لما نفذت به مشيئته ، ثم قال : (ويهب لمن يشاء الذكور) ، وجاء لفظ الذكور معرفا ليشير بما تعطيه الألف واللام من العهدية إلى حالهم من الفضل ودرجة التقدم على الإناث ، فكأنه في قوة أن لو قيل : الذين من أمرهم و (من) شأنهم ، بتوازن تقديم الإناث وتعريف الذكور ، فقدم ذكر الإناث لإرغام العرب ، وعرف الذكرو لشرف المنزلة ، ثم قال : (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) أي على

---

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن مجييد ٦١٤/١

التساوي عددا ، ثم قال : (ويجعل من يشاء عقيما) ، فجعل من هذا كله أن الفعل لا يشركه فيه غيره ، يفعل في ذلك كله ما أراده. فلما تضمنت الآية قهر العباد وانفراده سبحانه بالخلق والأمر ناسبها الختام بقوله تعالى : (إنه عليم قدير) أي عليم بوجه **الحكمة في ذلك** ، قدير على ما يريده.

ولما قال في الآية بعد : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) (الشورى : ٥١) فأوضحت الآية علي كماله تعالى وتنزيهه عن سمات الحدوث وأن المخصوصين من البشر للسفارة والرسالة إنما خطابه سبحانه لهم بهذه الوجوه المفصحة بتنزيهه عن شبه خليقته ، فلا يصلون إلى ما يتقرر عنهم". (١)

٢٩٢-"وقال السعدي : ﴿ JYHTVYف WâX£W{ Wè/@ ... طTTTÙSfT†'TWT?‰Yك@ ... "

[التوبة:٤٦] معكم في الخروج للغزو ﴿ طWTÙS'W‰¹JVت " قدرا وقضاء ، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج وجعلهم مقتدرين عليه ، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم ؛ بل خذلهم ..) إلى أن قال : (ثم ذكر **الحكمة في ذلك** فقال : ﴿ Véض yR W£W-Sé ... NYت ﷺTWQع طRjVP, ¦W ... SèپXM ... ,ـپﷺW‰W " [التوبة:٤٧] ، أي : نقصا) (١) . والله أعلم .

قال تعالى : ﴿ SéûfäYص mïm`ژ Y†@/JYث طRVض ضYkS¤`Séض{S ... èW @/SJJS ... SI,مRضSéهQS èW¤WجWژVK ...TS£¶SéâS ... VKے -TSé ... N ... MXكﷺYkûf {WقY`عS`ëع (٦٢) " [التوبة:٦٢] .

٦٤/٤- قال ابن عقيل : ﴿ /@ ... SI, مWRضSéهQS èW¤WجWژVK ...TS£¶SéâS ... VKے " ولم يقل يرضوهما وطلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما ذكره الله في كتابه (رحمه الله٢) ، وهاء الكناية في التثنية والجمع أبلغ من الجمع بالواو اهـ) (رحمه الله٣) .

الدراسة :

للعلماء في إفراد الضمير : ﴿ TS£¶SéâSےَ " [التوبة:٦٢] توجيهات كثيرة ، أهمها ثلاثة :

١- أن الإفراد جاء لتعظيم الله سبحانه .

٢- أنه في حكم أمر واحد إذ في رضى الله رضى رسوله – صلى الله عليه وسلم – (رحمه الله٤) .

٣- أن الكلام فيه جملتان ، حذف خبر أحدهما لدلالة الثاني عليه (رحمه الله٥) ، والتقدير : والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه .

رحمه الله ________________

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ٤٣٧/٢

(١) تفسير السعدي ٣/ ٢٤٣ .
(٢) يقصد به حديث الخطيب الذي قال : ومن يعصهما ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – " بئس الخطيب أنت .." الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٧٠) .
(٣) الواضح ٣/ ٣٠٥ .
(٤) ينظر : الكشاف ٢/ ٢٧٢ ، التسهيل ١/ ٣٦٢ ، تفسير أبي السعود ٣/ ١٦٤.
(٥) ينظر : معاني القرآن وإعرابه ٢ / ٤٥٨ ، معاني القرآن للنحاس ٣ / ٢٢٨ ، تفسير السمرقندي ٢/ ٦٩ ، المحرر الوجيز ٣/ ٥٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٩٣ .". (١)

٢٩٣-"ومن حكم خلق السماوات والأرض ما قاله ابن جزي : (خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما ﴿ ذضYx.QS ¢Vفv٥؛Wفےz،PVضY@ ... &èS£W ... NöTVj " الآية [ص:٢٧] المعنى : أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السماوات والأرض عندهم باطلا بغير الحكمة ؛ فإن **الحكمة في ذلك** إنما تظهر في الجزاء الأخروي) (١) . والله أعلم .

سورة الزمر

قال تعالى : ﴿ ذtŒQYTWكPVTi ... MXع ŸSOTVPكW èW ... MXSéچWQTYQع (٣٠) " [الزمر:٣٠] .
١/١٢١- قال ابن عقيل : (المراد به : ستموت ويموتون اهـ) (٢) .

الدراسة :
أبان ابن عقيل أن معنى : ميت وميتون أي : ستموت ويموتون ، وهذا هو ما عليه أكثر العلماء (٣) ؛ قالوا : لأن من لغة العرب إطلاق الشيء وإرادة ما يؤول إليه ، فالشيء إذا قرب من الشيء سمي باسمه .
قال السمرقندي : (يعني : أنت ستموت وهم سيموتون ، ويقال : إنك ميت وإنهم ميتون يعني : إنك لميت لا محالة ، وإنهم لميتون لا محالة ، والشيء إذا قرب من الشيء سمي باسمه ؛ فالخلق كلهم إذا كانوا بقرب من الموت فكل واحد منهم يموت لا محالة فسماهم ميتين) (٤) .
ولأن كل ما هو كائن فهو قريب وكأنه قد كان .
قال الزمخشري : (والمعنى في قوله : ﴿ ذtŒQYTWكPVTi ... MXع ŸSOTVPكW èW ... MXSéچWQTYQع (٣٠) " [الزمر:٣٠] ، إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى ؛ لأن ما هو كائن فكأن قد كان) (٥) .

---

(١) منهج ابن عقيل الحنبلي وأقواله في التفسير جمعا ودراسة ٢٠٢/١

وقال الرازي : (وقوله تعالى : ﴿ tŒQYTWكPVTـ ... MXع طPVTOSb ... Wè WكPVTOSb ... SXMéSچQWTYQع (٣٠) "
[الزمر:٣٠] ، أي : إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فإنك وإياهم في أعداد الموتى ؛ لأن كل ما هو آت آت) (رحمه الله٦) .
رحمه الله________________

(رحمه الله١) التسهيل ٢/ ٢٥٣ .

(رحمه الله٢) الواضح ٢/ ٣٨٥ .

(رحمه الله٣) ينظر : جامع البيان ٢٠/ ٢٠٠ ، تفسير السمعاني ٤/ ٤٦٨ ، المفردات ص ٥٣٢ .

(رحمه الله٤) تفسير السمرقندي ٣/ ١٧٧ .

(رحمه الله٥) الكشاف ٤/ ١٢٩ .

(رحمه الله٦) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٢ .". (١)

٢٩٤-" صفحة رقم ١٥٠

بالكتاب والرسول ، وأنه أشير في هذه السورة إلى الإيجاد الثاني لانسياق الكلام إلى إثبات الحشر والرد على منكري الساعة حيث قال سبحانه) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي (انتهى ، وقد علم مما قررته أنها من أولها مشيرة إلى ذلك على طريق البرهان .

وقال أبو جعفر بن الزبير : افتتحت بالحمد لله لما أعقب بها ما انطوت عليه سورة الأحزاب من عظيم الآلاء وجليل النعماء حس ما أبين - آنفا - يعني في آخر كلامه على سورة الأحزاب - فكان مظنة الحمد على ما منح عباده المؤمنين وأعطاهم فقال تعالى) الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض (ملكا واختراعا ، وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعا عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم وتفريقهم بحسب ما شاء فكأن قد قيل : إذا كانوا له ملكا وعبيدا ، فلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من تيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شاءه بهم على فهم علته واستطلاع سببه ، بل يفعل بهم ما شاء وأراد من غير حجر ولا منع) وهو الحكيم الخبير (وجه **الحكمة في ذلك** التي خفيت عنكم ، وأشار قوله (وله الحمد في الآخرة) إلى أنه سيطلع عباده المؤمنين - من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجزاء أو عظيم الثواب في الآخرة - على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا ولا وفت به أفكارهم
٧٧ ( ) فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ( ) ٧
[السجدة : ١٧] ثم أتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه فقال تعالى) يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيه (إلى قوله) وهو الحيم (فبرحمته وغفرانه أنال عباده المؤمنين ما خصهم به وأعطاهم ، فله الحمد الذي هو أهله ، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب وكفر مع عظيم اجترائهم لتتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة (إلى قوله : (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب

---

(١) منهج ابن عقيل الحنبلي وأقواله في التفسير جمعا ودراسة ١/ ٤١٠

) أي إن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قولهم) لا تأتينا الساعة (وقوله : (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد (وإغضائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض وأمنهم أخذهم من أي الجهات وفي إمهالهم وإدرار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب واعتبر ، ثم بسط لعباده المؤمنين من ذكر الاية ونعمه وتصريفه في مخلوقاته ما يوضح استيلاء قهره وملكه ، ويشير إلى عظيم ملكه كما أعلم في قوله سبحانه) الحمد لله الذي له في السموات وما في الأرض (فقال سبحانه) ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه الطير وألنا له الحديد (ثم قال) ولسليمان الريح (إلى قوله : (اعملوا آل داود شكرا (ثم أتبع ذلك بذكر حال لم يشكر فذكر". (١)

٢٩٥-"وقال أبو جعفر بن الزبير : افتتحت بالحمد لله لما أعقب بها ما انطوت عليه سورة الأحزاب من عظيم الآلاء وجليل النعماء حس ما أبين - آنفا - يعني في آخر كلامه على سورة الأحزاب - فكان مظنة الحمد على ما منح عباده المؤمنين وأعطاهم فقال تعالى ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ ملكا واختراعا ، وقد أشار هذا إلى إرغام من توقف منقطعا عن فهم تصرفه سبحانه في عباده بما تقدم وتفريقهم بحسب ما شاء فكأن قد قيل : إذا كانوا له ملكا وعبيدا ، فلا يتوقف في فعله بهم ما فعل من تيسير للحسنى أو لغير ذلك مما شاءه بهم على فهم علته واستطلاع سببه ، بل يفعل بهم ما شاء وأراد من غير حجر ولا منع ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ وجه **الحكمة في ذلك** التي خفيت عنكم ، وأشار قوله " وله الحمد في الآخرة " إلى أنه سيطلع عباده المؤمنين - من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجزاء أو عظيم الثواب في الآخرة - على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا ولا وفت به أفكارهم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة : ١٧] ثم أتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه فقال تعالى ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيه﴾ إلى قوله ﴿وهو الحيم﴾ فبرحمته وغفرانه أنال عباده المؤمنين ما خصهم به وأعطاهم ، فله الحمد الذي هو أهله ، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب وكفر مع عظيم اجترائهم لتتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ إلى قوله : ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ أي إن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قولهم ﴿لا تأتينا الساعة﴾ وقوله : ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد﴾ وإغضائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض وأمنهم أخذهم من أي الجهات وفي إمهالهم وإدرار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب واعتبر ، ثم بسط لعباده". (٢)

٢٩٦-"والدية تتحملها العاقلة كما دلت عليه السنة، ولكن الفقهاء اختلفوا في تحديد العاقلة:
فقال أبو حنيفة هم أهل ديوانه .

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب) ٦/١٥٠

(٢) نظم الدرر . ٦/٢٢٢

وقال الجمهور هم قرابته من جهة أبيه وهم عصبته، وحجتهم أنه تعاقل الناس في زمن النبي(وفي زمن أبي بكر، ولم يكن هناك ديوان، وإنما كان الديوان في زمن عمر.

وتحميل العاقلة الدية من باب المعاونة، وقد كان تحمل العاقلة الدية معروفا عند العرب –بل لا زال في اليمن إلى اليوم– وكانوا يعدونه من مكارم الأخلاق فجاء الإسلام وأقرهم على ذلك.

بقي أن أشير إلى أن الأصم والخوارج منعوا تحمل العاقلة الدية متمسكين بالآية، ولا دليل لهم مع قياس النص والإجماع **والحكمة في ذلك** أن دية المسلم كثيرة لا يطيقها القاتل وحده إلا نادرا، ولا يمكن إهدار دم المقتول عند فقر القاتل فكانت على عاقلته حفظ الدماء٤٩٥.

الحكم الثالث:مقدار دية الخطأ:

أجمع أهل العلم على أن على أهل الإبل مائة من الإبل والجمهور أنها مخمسة كما في أثر ابن مسعود أنه قال :

"دية الخطأ خمسة أخماس : عشرون حقه، وعشرون جذعة، وعشرون بنات مخاض، وعشرون بنات لبون، وعشرون بني لبون ذكور" قال الدارقطني : هذا إسناد حسن.

واختلفوا فيما يجب على غير أهل الإبل على أقوال:

١. قال مالك والشافعي في القديم: على أهل الذهب ألف دينار ، وأما أهل الورق فاثنا عشر ألف درهم، وحجتهم ما جاء عن عمر أنه قوم الدية على أهل القرى فجعلها على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثني عشر ألف درهم

٢. وقال الشافعي في الجديد: لا تؤخذ من أهل الذهب ولا من أهل الفضة إلا قيمة الإبل بالغة ما بلغت.

٣. وقال أبو حنيفة وأصحابه و الثوري : الدية من الورق عشرة آلاف درهم رواه الشعبي عن عبيدة عن عمر أنه جعل الدية على أهل الذهب ألف دينار، وعلى أهل الورق عشرة آلاف درهم، وعلى أهل البقرة مائتي بقرة، وعلى أهل الشاء ألف شاة، وعلى أهل الإبل مائة من الإبل، وعلى أهل الحلل مائتي حلة". (١)

٢٩٧–"تفسير قوله تعالى: (قال ذلك بيني وبينك)

قال تعالى: ﴿قال ذلك بيني وبينك﴾ [القصص:٢٨] يعني: هذا العقد، أو هذا العهد بيني وبينك.

قوله: ﴿أيما الأجلين قضيت﴾ [القصص:٢٨] يعني: أيا من الأجلين، سواء ثمان سنوات ثم أنا اكتفيت فيكون لي ذلك، أو عشر سنوات وفيها زيادة فلك ذلك.

﴿أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي﴾ [القصص:٢٨] يعني: لا حرج علي في ذلك، وإنك لا تلزمني بأن أمكث الأجل الأكثر بحسب ما يشاء الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ [القصص:٢٨] فجعل الله سبحانه وتعالى وكيلا على ما يقولان، يعني: على ما يعقدان فيما بينهما.

---

(١) نيل المرام شرح آيات الأحكام ص/١٨٦

ومكث موسى هنالك عشر سنوات يرعى الأنعام، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه: (ما من نبي إلا ورعى الغنم).

والحكمة في ذلك: أن الأغنام كثيرة الشرود والنفور وتحتاج إلى من يرعاها ويحوطها ومن يقوم بأمرها، وفيها الضعيفة، فيحمل الضعيف منها، وفيها المريضة، فيطعم المريضة ويراعيها وينظر في شأنها، فراعي الغنم فيه رقة، وفيه رحمة، وفيه حنان، فما من نبي إلا ورعى الأغنام.

ولذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن التواضع والرقة في رعاة الأغنام، وأن الكبر والخيلاء في الفدادين الذين هم رعاة الإبل وأصحابها، فصاحب الإبل متعود على أن يركب فوق سنام الجمل، وينظر إلى الناس من عل، فيتعالى على الناس إلا من رحم الله عز وجل.

فلذلك لم يجعل ربنا سبحانه الأنبياء رعاة إبل، وقد تكون الإبل عند هذا الرجل الصالح تبعا للغنم، عنده أغنام كثيرة والإبل قليل، أو كل ما كان عنده أغنام كما ذكر البعض من المفسرين، لكن الله عز وجل يعلم الأنبياء كيف يسوسون الناس بهذا الأمر، ولا يكون ذلك إلا برعيهم الغنم، فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم وأنت؟ قال: (وأنا)، فقد رعى النبي صلى الله عليه وسلم الغنم لأهل مكة على قراريط.

فهذا من الله تأديب لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وتعليم لهم وتخليق لهم على الحلم وعلى الصبر؛ لأن الأغنام تحتاج لصبر كثير من صاحبها في رعايتها، وأنه لو غفل عن أغنامه، جاء الذئب وأخذ منها، أو عاث فيها فسادا، والأغنام فيها شيء من الحمق، لو أن إنسانا ساق غنمة من أغنام كثيرة، فجرت الغنمة وقفزت من أعلى الجبل على الأرض لتبعها القطيع كله وقفز من فوق الجبل، ومات القطيع كله.

ولذلك يحتاج راعي الغنم إلى أن يكون بصيرا برعاية الغنم، وإلى أن يعرف كيف يطعم هذه الأغنام، وكيف يكون معها، فالغنم تنفر بسرعة، ولو أن راعي الغنم أمسك عصا وهي ذاهبة تشرب الماء؛ ليجعلها على الماء، لتركت الماء وهربت من خوفها وجبنها.

فالأغنام تحتاج إلى من يسوسها، فالله عز وجل لحكمته جعل الأنبياء يعتادون على ذلك حتى يكون في أخلاقهم الحلم والصبر، وسياسة الأمر، كيف يسوسون أمر هذه الأغنام فيعتادون على سياسة أمور الناس إلى طريق رب العالمين سبحانه وتعالى.

قال موسى ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ [القصص:٢٨] فجعل الله هو الشاهد على ما فعل هو والرجل الصالح.

وهنا لم يذكر الله لنا من شهد هذا الزواج، وقد تزوج موسى ولم يكن حتى هذا الحين من الأنبياء، إلا في علم الله سبحانه وتعالى، ولكن الله عز وجل ذكر أنه تزوج من إحدى الفتاتين، قال: ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾ [القصص:٢٧]، يا ترى هل هذا زواج على الإبهام؟ هذا تخيير في البداية، فلما انتقى موسى إحداهما، قالوا: إنها الصغرى منهما، فصارت معينة فزوجه منها بهذا الشرط الذي اشترطه: ﴿على أن تأجرني ثماني حجج﴾ [القصص:٢٧].

ولم يذكر هنا شهودا، واختلف العلماء في هل يشترط في النكاح الشهود أو يكتفى فيه بالإعلان؟ وقد ثبت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل) إذا: لا بد من الشهود، ولكن كما يقول الإمام مالك رحمه الله:

إنه إذا انتشر الخبر بين الناس واستفاض فحضروا، كفى الإعلان عن الشهود، فإن لم يعلن فلا بد من الشهود، وإلا فلا يصح النكاح.". (١)

٢٩٨-"عظمة خلق الله تعالى للأرض

﴿وألقى في الأرض رواسي﴾ [لقمان:١٠] والتعبير بـ (في)، غير التعبير بـ (على)، فقوله: (وألقى في الأرض رواسي) الرواسي فوق الأرض، ولكن الباحثين في علوم الأرض وطبقاتها يقولون: الجبل ليس فوق الأرض، الجبل جزء منه فوق الأرض وباقي الجبل تحت الأرض، فخمس الجبل فوق الأرض وأربعة أخماس الجبل تحت الأرض.

فالتعبير القرآني العظيم حين يعبر عن الجبال أنها أوتاد للأرض: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ [لقمان:١٠] هو تعبير عظيم ودقيق يذهل ويعجز العلماء حين ينظرون فيه.

فالجبال داخل الأرض وفوق الأرض، وصفة هذه الجبال أنها أوتاد -جمع وتد- والوتد هو الذي تجعله للخيمة، فتدق في الأرض أعمدة من خشب تجعلها وتدا في الأرض، وتربط فيها الخيمة حتى لا تميل ولا تتحرك.

كذلك الجبال تثبت الأرض بعضها في بعض، والقشرة الأرضية العليا التي قد يكون سمكها من خمسمائة متر إلى الألف والألفين متر تحتها سوائل منصهرة في باطن الأرض، وفيها مياه جوفية، وفيها أشياء لو لم توجد الجبال لاضطربت الأرض ومالت القشرة الأرضية كالسفينة على الماء.

ولكن الله عز وجل ثبت هذه القشرة العليا في باطن الأرض بهذه الجبال الرواسي، فتتحرك الأرض وتدور حول نفسها، وتجري الأرض بحسب ما قدر الله عز وجل لها، ولا يحدث اهتزاز أو تحرك، والإنسان يركب حافلة مثلا، ويشعر بأن الحافلة تتحرك، أما في حال دوران الأرض فلا يشعر بها، مع أن الأرض تتحرك بسرعة أعظم بكثير من سرعة القطار ومن سرعة الحافلة.

قال هنا سبحانه وتعالى: ﴿أن تميد بكم﴾ [لقمان:١٠] أي: لئلا، أي: كراهة أن تميد، والميد: هو الاضطراب، ومعنى تمور الأرض وتميد: تضطرب وتتحرك، كما تضطرب السفينة فوق الماء، فلم يجعل الله الأرض على هذا الحال، ولكنه ثبتها لكم لتستقروا فوقها بفضله وقدرته العظيمة سبحانه.

﴿وبث﴾ [لقمان:١٠] أي: نشر سبحانه وتعالى.

﴿فيها من كل دابة﴾ [لقمان:١٠] ويخلق ما لا تعلمون، فقد بث في الأرض من كل دابة سواء اكتشفتم هذه الدواب أو لم تكتشفوها التي جعلها الله عز وجل على الأرض.

والإنسان قد أوتي من العلم شيئا، ويظن أنه عرف كل شيء، وهو يجهل أشياء كثيرة موجودة على الأرض، ويجهل الحكمة من خلق الله عز وجل لهذه الأشياء، ولكن الله سبحانه لا يخلق شيئا إلا بعلم وبحكمة سبحانه وتعالى.

وقد تكلمنا في سورة العنكبوت عن حشرة ضعيفة صغيرة ذكرها الله عز وجل، قال الله: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٣/١٧٠

أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ [العنكبوت:٤١] وهذه الحشرة التي يحتقرها الإنسان يقول بعض العلماء: إنه لو انقرضت هذه الحشرة من على وجه الأرض لفني الإنسان، فلا يكون للإنسان بقاء مع عدم وجود هذه الحشرة، وكأن هذه الحشرة تقضي على أعداء للإنسان لا يقدر على القضاء عليها، والإنسان لا يدري ولا يعرف؛ بل إنه يحتقر هذه الحشرة.

وكذلك النملة التي تقرص الإنسان ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن قتل النمل، وإذا كانت مؤذية فاقتل ما يؤذيك، ودع ما لا يؤذيك، فيقول العلماء: إن هذه النملة نافعة جدا للإنسان، تنفعه وتقضي على حشرات معينة لا يقدر على القضاء عليها.

ولذلك ذكرنا أنهم في اليمن يبيعون النمل، يأخذونه من الغابات بفروع الأشجار، وينقلون هذه الفروع على الجمال من الغابة إلى مكان البيع في السوق، ليأخذها أصحاب حقول الموالح، ليضعوا هذه الفروع في أشجار الموالح التابعة لهم، فيصعد النمل على الأشجار ويقضي على ميكروبات أو جراثيم معينة موجودة تتلف الموالح: البرتقال واليوسف أفندي وغيرها مما يأكله الإنسان، فالنملة نافعة للإنسان، وحين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتلها كان كثير من الناس لا يدرون ما **الحكمة في ذلك**، وأنت قد لا تعرف، ولكن غيرك يعرف، وعلم الله فوق كل ذي علم سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل:٨] فكل شيء له حكمة، والله عز وجل لم يخلق الذبابة عبثا، ولم يضرب المثل بالبعوضة عبثا، ولكن الله عز وجل يخلق الدواب ويضرب بها الأمثال، ليريك آيته وقدرته، فهل تقدر أن تصنع مثل ذلك؟ فانظر إلى آيات الله في خلقه من أصغر الأشياء إلى أكبر الأشياء! والبعوضة الصغيرة التي يقول الله عز وجل: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ [البقرة:٢٦]، التي تطير فيضربها الإنسان بيده ليقتلها، هذه البعوضة التي تؤذي الإنسان وتقرصه عندما يتأملها العلماء يقولون عنها لها تقريبا ستة وثلاثون عينا، فهي تنظر بنظر عجيب جدا، وترى ما حولها من كل مكان.

والإنسان لا يقدر أن ينظر إلا إلى أمامه، أو يحرك عينه لليمين والشمال وفوق وتحت، لكن البعوضة تستطيع أن ترى ثلاثمائة وستين درجة، وكيف تقرص الإنسان هذه البعوضة؟ أنت عندما تذهب لتضرب إبرة تكون خائفا وتقول: ضع لي شيئا قبل أن تعطيني الإبرة، والبعوضة قبل أن تقرصك تبحث عن العرق الذي فيه دم؛ من أجل أن تسحبه، فترش قليلا من البنج، وهو سائل موجود في داخلها، ثم تنزل إبرتها وأنت لا تحس بها، لكن تحس بشفط الدم، واللسعة تشعر بها وقت خروج الدم منك ودخوله في البعوضة، أما وخز الإبرة فلا تشعر بها، وأمهر مخلوق يضرب الإبر هي البعوضة.

والجاهل لا يعرف شيئا، فالبعوضة تأتي أمامه فيغتاظ: لماذا خلقها الله مع أنها تؤذينا؟! والعالم يتأمل البعوضة ويشرحها، فالبعوضة لها أربعون ضرسا وأنت معك ستة وثلاثون ضرسا، فسبحان الخلاق العظيم! حيث يقول: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة﴾ [البقرة:٢٦] لأنها خلق عظيم من خلق الله لا تقدر أنت ولا غيرك، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يخلقوا شيئا ما استطاعوا أن يوجدوا ولا أقل الأشياء التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

فهنا يقول الله: أنه بث في الأرض من كل دابة، والدابة هي التي تدب على الأرض، وكل ما يدب على الأرض يسمى دابة

سواء كان يمشي برجليه أو يطير بجناحيه.

قال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ [لقمان:١٠] وقد عبر سبحانه وتعالى بنون العظمة هنا.

فقوله: (خلق) الضمير عائد على الله سبحانه وتعالى، (وألقى) الضمير يعود على الله سبحانه وتعالى في الأرض رواسي أن تميد بكم، (وبث) ستجد الضمائر كلها عائدة على الله سبحانه وتعالى على الإفراد، وفي قوله: (وأنزلنا) عبر بنون العظمة سبحانه وتعالى، وكأن هذه الأشياء السابقة لا يجرؤ الإنسان أن يقول فيها شيئا، فلا يجرؤ أن يقول: أنا أخلق سموات، أو أنا أخلق أرضا كهذه الأرض، أو أنا أخلق جبالا، لا يقدر الإنسان أن يقول ذلك.

وكأن الإنسان قد يتبجح ويقول: أنا سأنزل من السماء ماء، أنا سأوجه السحاب من مكان إلى مكان، وعندما تأتي سأفجر فيها بقنبلة أو بمدفع أو شيء آخر فتنزل الماء، وقد أراد الإنسان أن يصنع ذلك، وإذا بنون العظمة تقول: لا، لن تستطيع، فنحن الذين نتحكم في ذلك، لا تقدر أنت على ذلك، فالله وحده هو القادر على أن ينزل من السماء ماء، ويرسل الرياح فتثير سحابا فيسيره الله سبحانه وتعالى إلى أي مكان شاء، ثم يقول له: كن فيكون، فينزل من السماء هذا الماء الذي يغيث الله عز وجل به عباده، فإذا بالعباد لا يملكون إلا أن يتضرعوا عندما يعجزون وييأسون: لم نستطع أن نحضر ماء، حركنا السحاب من مكان إلى مكان فلم نستطيع، انتظرنا حتى تأتي سحابة مليئة بالماء وفجرناها بقنبلة وبغيرها، ولم ينزل أي شيء، ولما نزل نزل رذاذ ولم نستفد منه، فعرفوا أنهم لا يقدرون على شيء فرجعوا إلى الله وقالوا: يا رب! ووقفوا يصلون صلاة استسقاء يطلبون من الله عز وجل أن ينزل عليهم من السماء ماء.

قال تعالى: (وأنزلنا) فعبر بنون العظمة هنا، وكل أفعال الله سبحانه وتعالى عظيمة.

قال تعالى: ﴿فأنبتنا﴾ [لقمان:١٠] عبر بنون العظمة أيضا؛ لأن الإنسان قد يتبجح ويقول: أنا زرعت هذه الأرض، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد لك غذاءك وكساءك وماءك وشرابك، قال تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾ [الواقعة:٦٨ - ٦٩] من الذي أنزل الماء من السماء؟! ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما﴾ [الواقعة:٦٣ - ٦٥]، فالله عز وجل هو القادر على كل شيء سبحانه.

فهنا قال: ﴿فأنبتنا﴾ [لقمان:١٠] وهناك قال: ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما﴾ [الواقعة:٦٤ - ٦٥]، والإنسان يرى نفسه أنه يزرع، ولكن هل الفعل الذي فعلته هو الذي شق هذه الحبة التي في الأرض، وهو الذي أنبت بذرها، وأخرج ساقها، وأخرج ورقها، وأخرج ثمارها؟

A لا، فما أنت إلا سبب من الأسباب.

قد تبذر الحب وقد لا تبذر، فتأتي الرياح على حبوب موجودة في مكان فتذروه الرياح فيطير ويقع على الأرض، فينزل المطر فيخرج من الأرض سنابل بقدرة الله سبحانه وتعالى، فالإنسان يجب عليه أن ينظر إلى نفسه أنه سبب من الأسباب، وأنه ليس خالقا يخلق، وليس هو الذي يخرج الزرع وإنما الذي يخرجه هو الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ [لقمان:١٠] أي: أنبتنا في الأرض من كل زوج أي: من كل صنف، ومن كل نوع، ومن كل ما يشتهيه الإنسان من طعام، (كريم) وصفه الله عز وجل بأنه كريم، والكريم عكسه: اللئيم، فالزرع الذي

ينبت لئيما لا ينتفع به الإنسان، ويكون خبيثا، و". [(١)]

٢٩٩-"سبب رفعة لقمان وعلو منزلته

قيل: كان لقمان راعيا، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال: ألست عبد بني فلان؟ أي: أما زلت عبدا عند بني فلان؟ فقال: بلى فقال: فما بلغ بك إلى ما أرى؟ أي: ما الذي جعل الناس يلتفون حولك، ويتعلمون منك وقد كنت عبدا من العبيد؟ فقال له لقمان: قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وترك ما لا يعنيني، وهذه من الحكمة التي آتاه الله سبحانه وتعالى، فالإنسان الذي يؤتى الحكمة يجعله الله عز وجل يتأمل في ذلك ويحاول أن يقرب من مثل هذه الأخلاق العظيمة بمجاهدة نفسه.

وما في قلب الإنسان يخرج من لسانه؛ ولذلك كانوا يقولون: إن قلب العاقل أمام لسانه، ولسان الأحمق أمام قلبه.

فالإنسان العاقل قلبه كالحجر أمام لسانه، فإذا أراد اللسان أن يتكلم أحاط به القلب، أما الأحمق فقلبه وراء لسانه، كلما انفعل القلب خرج أثره على اللسان، فيقول لقمان رضي الله عنه: إن الذي بلغ به إلى ما يراه هذا الآخر ويتعجب من أمره قدر الله، ولا شك أن كل شيء بقضاء الله وقدره.

فنستفيد من هذا: وجوب معرفة الفضل لصاحبه، فلم يقل لقمان: أنا الذي وصلت لذلك بنفسي، وإنما أشعره أن الله سبحانه وتعالى بفضله هو الذي أوصله إلى ذلك.

ثم ذكر طرفا من الأخلاق التي كان عليها فقال: وأدائي الأمانة، أي: أديت أمانة الله عز وجل التي أمرت بأدائها، فأديت ما علمت من العلم، وأعطيت الناس حقوقهم، وعلمتهم ما أرادوا مني بأمانة.

ثم قال: وصدق الحديث، أي: أنه كان صادق الحديث، وكلما كان الإنسان صادق الحديث كلما أعطاه الله عز وجل من العلم والحكمة ما يشاء سبحانه، فيجاهد الإنسان نفسه بالامتناع عن الكذب، فيكون صادقا في كلامه ومصيبا في رأيه واختياره.

ثم قال لقمان: وترك ما لا يعنيني، وهذا من أهم ما يوصل الإنسان إلى رضا الله تبارك وتعالى، أي: ألا يتدخل فيما لا يعنيه، كما قالوا: ما لا يعنيك يعنيك، فالإنسان الذي يتدخل فيما لا يعنيه يتعب نفسه من غير فائدة.

فالذي يتدخل في كل شيء لن يصل إلى كل شيء، لكنه يتعب نفسه في هذه الأشياء كلها ولن يصل إلى شيء، لكن العاقل هو الذي ينظر فيما ينفعه في دنياه وأخراه، فيؤتيه الله عز وجل الحكمة في ذلك وفي غيره.". [(٢)]

٣٠٠-"أطيب ما في الإنسان وأخبث ما فيه

مما جاء عن خالد الربعي أنه قال: كان لقمان نجارا فقال له سيده: اذبح لي شاة، وأتني بأطيبها مضغتين، فأتاه باللسان

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٣/٢٢٥

(٢) تفسير أحمد حطيبة ٦/٢٢٦

والقلب، فقال له: ما كان فيها شيء أطيب من هذين؟ فسكت، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له: ألق بأخبثها مضغتين، فألقى اللسان والقلب! فقال له: أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقي أخبثها فألقيت اللسان والقلب، فكأنه يقول: ما **الحكمة في ذلك؟**

و A أن الإنسان أطيب ما فيه لسانه وقلبه وهما أخبث ما فيه.

فصاحب اللسان الطيب لا يخرج منه إلا الكلام الطيب، وكل إناء بما فيه ينضح، فاللسان دليل على ما في قلب الإنسان؛ لذلك قال لقمان رضي الله عنه: ليس شيء أطيب منهما -أي: القلب واللسان- إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا.

وهذا مصداق لما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)، فقلب الإنسان إذا صلح صلحت سائر جوارحه، وإذا فسد فسدت سائر جوارحه.

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا: (من وقاه الله شر اثنتين ولج الجنة، ما بين لحييه ورجليه)، يقصد لسانه وفرجه، فإذا وقى الله سبحانه الإنسان شر لسانه وفرجه استحق أن يكون من أهل الجنة.

فاللسان قد يكب الإنسان على منخره في النار والعياذ بالله؛ ولذلك جاء في حديث معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم).

وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين)، وهذا من أثر اللسان، والمجاهر فسر بقوله عليه الصلاة والسلام: (وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر ربه)، فهذا المجاهر، السبب في أنه استحق عذاب الله عز وجل لسانه، فلعله عمل معصية فبات عليها، ولو أنه قام فتاب إلى الله سبحانه لتاب الله عليه، لكنه ذهب قائلا: يا فلان عملت البارحة كذا، كأنه يفتخر بهذه المعصية فيجاهر بها، فاستحق عذاب الله سبحانه فلا يعافيه الله؛ لأنه فضح نفسه، فكان اللسان آفته فأوقعه في النار والعياذ بالله.

وقد قيل لـ لقمان أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي إن رآه الناس مسيئا.

وهذا هو معنى ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين)، فالإنسان الذي يسيء ولا يبالي ليس عنده حياء، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت)، وليس المعنى: أنه أمر بفعل ما يشتهيه من لا حياء له، لكنه تهديد، أي: أن اعمل وأنت قليل الحياء وانتظر عقوبة الله وناره يوم القيامة.". (١)

٣٠١-"تفسير قوله تعالى: (رب السماوات والأرض وما بينهما)

قال تعالى: ﴿رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ [الصافات:٥].

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٧/٢٢٦

الرب: هو الخالق سبحانه، والرب: هو المالك الذي ملك المخلوقات ودبر أمرها.

(وما بينهما) أي: كل شيء بين السماوات والأرض، فهو خالقه ومدبره.

(ورب المشارق)، فهو رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق سبحانه وتعالى كذلك.

وقد ذكر الله عز وجل المشارق هنا، وذكر أيضا في كتابه المشرق والمغرب وكرر ذلك فقال لنا في سورة المزمل: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ [المزمل:٩]، وقال لنا في سورة الرحمن: ﴿رب المشرقين ورب المغربين * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ [الرحمن:١٧ - ١٨]، وقال لنا سبحانه: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾ [المعارج:٤٠]، وهنا قال لنا: (ورب المشارق) سبحانه تبارك وتعالى.

والحق أن القرآن كلام عظيم، وهو كلام رب العالمين لا يتناقض أبدا، ومن توهم فيه التناقض فإنما هو لقصر فهمه وتفكيره، لكن العلماء ينظرون في هذا القرآن العظيم فيجدونه بليغا فصيحا قويا متينا، والدليل على ذلك هذه الآيات العجيبة فمرة يقول: (رب المشرق والمغرب)، ومرة يقول: (رب المشرقين ورب المغربين)، ومرة يقول: (برب المشارق والمغارب)، وكل هذا صحيح، فالمشرق: هو مكان الشروق، والمغرب: هو مكان الغروب، فهناك مشرق ومغرب.

أما قوله: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن:١٧]، فإنك إذا تتبعت فصول السنة ومشرق الشمس في الشتاء في أقصر الأيام، ثم مشرق الشمس في الصيف في أطول الأيام، فستجد أن مشرقها في أطول يوم في السنة غير المشرق الذي تشرق فيه في أقصر يوم في السنة، فكأن المشرق مشرقان مختلفان ينبني عليهما طول اليوم والليل وقصرهما، فحسن إطلاق لفظ المشرق والمغرب بالمثنى في قوله تعالى: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن:١٧].

أما إطلاق لفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿برب المشارق والمغارب﴾ [المعارج:٤٠]، فباعتبار أن ما بين أقصر الأيام وأطول الأيام تشرق الشمس كل يوم في زاوية معينة تطلع منها، وتغرب من زاوية أخرى ينبني عليها اختلاف الأيام في الطول والقصر في العام كله، فتشرق الشمس على مكان دون الآخر، فالأرض لها مشارق ومغارب، وللمجموعة الشمسية مشارق حولها، على كل كوكب من هذه الكواكب مشرق ومغرب تشرق فيه، فسبحان الله المدبر الحكيم! وقد اكتشف علماء الفلك هذه الحقيقية بعد أن جاءت في القرآن قبل مئات السنين، فتبارك الله رب العالمين، فإن الإنسان إذا تفكر في القرآن عرف الإتقان والإعجاز الذي فيه، وكيف أن الله يذكر المشرق والمغرب تارة بلفظ الإفراد وتارة بلفظ التثنية والجمع وهو يعلم العلة والحكمة في ذلك، فعندما يقول سبحانه في سورة المزمل: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ [المزمل:٩]، ناسب إفراد الله سبحانه تبارك وتعالى بالعبودية أن يذكر مشرقا واحدا ومغربا واحدا، وهو جنس لمكان الشروق والغروب.

وفي سورة الرحمن يقول تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس﴾ [الرحمن:٣٣]، يخاطب الاثنين، وهو يقول في كل السورة مخاطبا الإنس والجن: ﴿فبأي آلاء ربكما﴾ [الرحمن:١٣]، فناسب أن يذكر المشرق والمغرب بلفظ المثنى فقال: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن:١٧].

وهنا يقول سبحانه: (رب السموات والأرض وما بينهما)، فلأنهما جمع قال: (ورب المشارق)، فجمع فناسب ذلك.

وفي سورة المعارج يقول الله سبحانه: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون * على أن نبدل﴾ [المعارج:٤٠ – ٤١] أي: أمثال هذه المجموعات من الكفار والبشر الذين يكيدون للنبي صلى الله عليه وسلم، فناسب ذكر المشارق والمغارب باعتبار سياق الجمع.

والحاصل: أننا نجد إعجاز القرآن في الحقائق العلمية التي لا تتناقض، وهي مع ذلك في سياق عظيم بديع يلائم الآيات السابقة واللاحقة في السورة التي يذكرها الله سبحانه تبارك وتعالى.

ولذلك نقول: إن الذي يتأمل في هذا القرآن ويتعمق فيه يعرف قدر هذا الكلام العظيم الذي لا يدانيه كلام الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله، فعندما تقرأ هذا القرآن العظيم الفصيح البليغ، وهذا السياق اللغوي الرصين المتين العظيم الجميل، تتعجب من وجوه إعجازه! وهذا من ذلك.". (١)

٣٠٢–"تفسير قوله تعالى: (أولئك الذين لعنهم الله)

قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾.

قوله: ((أولئك الذين لعنهم الله)) أي: طردهم وأبعدهم من رحمته، ((فأصمهم وأعمى أبصارهم)) أي: فأصمهم عن استماع الحق، ((وأعمى أبصارهم))، أي: قلوبهم عن الخير، أو أعمى أبصارهم عن مشاهدة ما يستدلون به على التوحيد، والبعث، وحقيقة سائر ما دعاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتبع الإخبار بأن من فعل ذلك حقت عليه اللعنة، وسلب الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل.

قيل: إن الله سبحانه وتعالى بعد ما قال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾، قال: ((أولئك الذين لعنهم الله)) يعني: من فعلوا ذلك، (فأصمهم) أي: عاقبهم، ((وأعمى أبصارهم)).

وقال: ((فهل عسيتم))، ثم قال: ((أولئك الذين لعنهم الله))، فرجع من الخطاب إلى الغيبة، فهذا أيضا التفات على عادة العرب في ذلك، وهذا فيه التفات للإيذان؛ لأن ذكر جناياتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم.

أي: أنه كان في الأول: ((فهل عسيتم)) بتوجيه الخطاب إليهم، ((إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم))، ثم أعرض في الخطاب عنهم؛ لأنهم إذا فعلوا هذين الفعلين فلا يستحقون أن يخاطبهم الله مباشرة، فمن ثم انتقل إلى الغيبة فقال: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾، فرجع من الخطاب إلى الغيبة على عادة العرب في ذلك للإيذان بأن ذكر جناياتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم.

قال عز وجل في آخر الآية: ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾، فلم يقل الله سبحانه وتعالى: فأصم آذانهم وأعماهم، وإنما قال: ((فأصمهم وأعمى أبصارهم))، **والحكمة في ذلك** أنه لا يلزم من ذهاب الأذن ذهاب الاستماع، ويلزم من ذهاب الأعين ذهاب الإبصار، فلو أن إنسانا قطعت أذنه فإنه لا يفقد حاسة السمع تماما، لكن لا شك أنه

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٥/٣٢٠

سيتأثر؛ لأن الأذن لها فائدة عظيمة، لكن يبقى له السمع؛ فلذلك قال: ((فأصمهم))، فلو قال: فقطع آذانهم، أو ذهب بآذانهم لما دل ذلك على انتفاء السمع؛ لأنه لا يلزم من ذهاب الأذن ذهاب السمع، ثم قال: ((وأعمى أبصارهم))، ولم يقل: (وأعماهم) لأن الأعين يلزم من ذهابها ذهاب الإبصار.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى العينين مقدمتين، وجعل الأذنين في الجانبين، **والحكمة في ذلك**: أن العينين بمنزلة الكاشف والرائد الذي يتقدم القوم ليكشف لهم، وبمنزلة السراج الذي يضيء للسالك ما أمامه، أما الأذنان فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العقل من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه، فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور، فسبحان من بهرت حكمته العقول! وكذلك جعل للعينين غطاء؛ لأن الأذن تجلب الأصوات، والأصوات عبارة عن طاقة لا بقاء لها، فلو جعل على الأذنين غطاء لذهب الصوت قبل ارتفاع الغطاء.

فتزول المنفعة المقصودة، وأما نظرة العين فأمر فائت، فالعين محتاجة إلى غطاء يقيها، وحصول الغطاء لا يؤثر في الرؤية قال بعض أهل العلم: عينا الإنسان هاديان، وأذناه رسولان إلى قلبه، ولسانه ترجمانه، ويداه جناحان، ورجلاه بريدان، والقلب ملك، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث خبثت جنوده.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطا ونفوذا يقوم به بعضها مقام بعض؛ ولهذا يقرن بينهما سبحانه كثيرا في كتابه، فقال عز وجل: ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة﴾ [الأحقاف:٢٦]، وقال تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال أيضا: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج:٤٦]، إذا: فالعبرة ببصيرة القلب لا بالعين الباصرة؛ ولذلك جاء في حديث جابر رضي الله عنه مرفوعا: (انطلقوا بنا إلى البصير الذي في بني واقف نعوده)، وكان رجلا أعمى، ونجد العلماء يقولون عند وصف العالم الضرير: الشيخ فلان بن فلان البصير بقلبه، وهذه إشارة إلى أنه لا يرى بعينه، لكنه بصير بقلبه، كيف لا وقد آتاه الله كتابه! فهذا تأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال: (انطقوا بنا إلى البصير الذي في بني واقف نعوده)، وكان رجلا أعمى.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ ظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار، وقال قتادة وغيره: معنى الآية: يخاف عليكم إن أعرضتم عن الإيمان أن تعودوا إلى الفساد في الأرض لسفك الدماء.

وقال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى؟! ألم يسفكوا الدماء الحرام، ويقطعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ فالرحم على هذا رحم دين الإسلام والإيمان التي قد سماها الله أخوة.

فإذا: إذا كان المقصود بقوله: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ [محمد:٢٢]: أن تقطعوا رحم الإسلام والإيمان بالقتل الذي يكون بين المسلمين، فالرحم على هذا هو عام وليس الرحم الخاص، فالمقصود به رحم الأخوة الإيمانية التي سماها الله أخوة بقوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات:١٠].

وعلى قول الفراء: أن الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية فالمراد: من أضمر منهم نفاقا، فأشار بقطع الرحم إلى ما كان بينهم

وبين النبي صلى الله عليه وسلم من القرابة؛ لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى آخره.". (١)

٣٠٣-"خفاء الشجرة التي بايع تحتها الصحابة والحكمة من ذلك

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: (بينما نحن قائلون -والقيلولة: هي الاستراحة وسط النهار- إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيها الناس! البيعة البيعة، نزل روح القدس، قال: فثرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ((لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة)) فبايع لـ عثمان بإحدى يديه على الأخرى -لأن عثمان جاء الخبر أنه قتل فبايع نيابة عن عثمان بإحدى يديه على الأخرى-، فقال الناس: هنيئا لـ ابن عفان يطوف بالبيت ونحن هاهنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف).

قال القاسمي: وقد أجمع الرواة في الصحاح على أن الشجرة لم تعلم بعد، ففي الصحيحين من حديث أبي عوانة عن طارق عن سعيد بن المسيب قال: كان أبي ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، وإن كان بينت لكم فأنتم أعلم.

وفيهما أيضا عن سفيان أنه قال: إنهم اختلفوا في موضعها.

وروى ابن جرير عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال: كان جدي يقال له: حزن، وكان ممن بايع تحت الشجرة، قال: فأتيناها من قابل فعميت علينا.

يعني: لم يستطيعوا أن يهتدوا لمكانها.

ثم قال ابن جرير: وزعموا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة، فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: هنا، وبعضهم يقول: هاهنا، فلما كثر اختلافهم قال: سيروا؛ هذا التكلف.

أي: هذا مما لا يعنيكم ولا يفيدكم، فذهبت الشجرة وكانت سمرة إما ذهب بها سيل وإما شيء سوى ذلك.

انتهى كلام ابن جرير.

وقال الحافظ في الفتح: روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوما يأتون الشجرة فيصلون عندها فتوعدهم، ثم أمر بقطعها فقطعت، وهذا صححه الحافظ ابن حجر عن نافع أن عمر بلغه أن قوما يأتون الشجرة فيصلون عندها؛ فتوعدهم، ثم أمر بقطعها فقطعت، ولا ينافي ما تقدم لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها أو توهموها فاتخذوها مسجدا ومكانا مقدسا فقطعها عمر عندئذ؛ صونا لعقيدتهم من الشرك؛ لأن دوام العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعد، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها وإجلال أمثال أصحابها.

وقال في الفتح أيضا في شرح حديث ابن عمر: وقوله: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم ٣/١١٦

يعني: اختلف الصحابة اختلافا شديدا في مكان الشجرة، فيقول: كانت رحمة من الله أنها عميت، وما كاد اثنان من الصحابة يتفقان على مكانها.

يقول: وقد وافق المسيب بن حزن والد سعيد ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة، **والحكمة في ذلك** ألا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر، كما نراه الآن مشاهدا في ما هو دونها.

وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله: كانت رحمة من الله.

أي: كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تبارك وتعالى، فإذا كان هذا فعل الصحابة رضي الله تعالى عنهم في هذه الشجرة التي ذكرت في القرآن: ((إذ يبايعونك تحت الشجرة))، ومع ذلك الصحابة سدوا ذرائع الافتتان، فأولى ثم أولى ما يفترى ويزعم الآن من وجود آثار للرسول عليه الصلاة والسلام، وأنه موجود فيما يسمونه كذبا وزورا وافتراء على الله الحرم الأحمدي، وحرم إبراهيم الدسوقي وأحمد البدوي، يزعمون أنه موجود في أحد الأماكن هناك! وهذا من الكذب على الله أن يدعى أي مكان في الأرض سوى مكة والمدينة حرما، لا يوجد إلا حرمان فقط، حتى المسجد الأقصى لا يسمى حرما، وسبق أن درسنا في دروس الفقه ما معنى كلمة (حرم)، فليست كلمة تطلق هكذا بالطريقة التي نستعملها الآن: الحرم الجامعي، وحرم السكة الحديد، وحرم كذا فهذا لا يجوز، فضلا عن الحرم الإبراهيمي والحرم الدسوقي إلى آخره، وهذه الأماكن توجد في بعضها أثر يزعمون أنه أثره صلى الله عليه وسلم، أو أن قدمه مطبوع على حجر، وهذا كله كذب وزور، وحتى جدلا لو كان ذلك لكان أولى أن يفعل به ما فعل مع هذه الشجرة، فيطمس حتى لا يحصل به هذا الافتتان، حيث يتمسحون بها ويفعلون هذه الأشياء.

فهذا يشير إلى قاعدة مهمة جدا في حماية جناب التوحيد، وهي قاعدة: سد ذرائع الشرك والفتنة، وهي من القواعد المهمة جدا، والتي يؤسس عليها المنهج السلفي، فالمنهج السلفي له أصول، والأصول يرجع إليها لبناء قواعد هذا المنهج: القرآن، السنة، إجماع الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ومنها أيضا: قاعدة سد الذرائع، فهي من أصول المنهج السلفي التي امتاز بها هذا المنهج، وقد ناقشنا من قبل بالتفصيل عند مدارسة كتاب: دعوة التوحيد للدكتور محمد خليل هراس رحمه الله تعالى فصلا مهما جدا، وكنا أوصينا الإخوة بحفظه ومذاكرته جيدا، وعنوانه: احتياطات الشريعة لحماية توحيد الألوهية، ومع أن الفصل في صفحات قليلة جدا لكنه في غاية الأهمية.

ومن الاحتياطات التي اتخذتها الشريعة لحماية توحيد الألوهية حتى لا يشرك الناس بالله: ١ - تحريم التصوير والتماثيل؛ لأنها تكون ذريعة للافتتان بأصحابها.

٢ - النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة.

٣ - تحريم الذبح في مكان كان فيه عيد من أعياد الجاهلية أو كان فيه صنم يذبح له.

٥ - تحريم بناء المساجد على القبور.

٦ - تحريم الغلو في الصالحين؛ لأنه يفضي إلى الشرك، وحتى الغلو في مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

هذا كان فصلا في غاية الأهمية، وما زلنا نوصي الإخوة بهذا الكتاب، كتاب: دعوة التوحيد للدكتور محمد خليل هراس رحمه الله تعالى، فمن هذه الاحتياطات هذا المسلك الذي فعله الصحابة مع هذه الشجرة، وقد صح عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه قال: يوشك أن تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية.

لأن من لم يعرف الجاهلية يسهل عليه أن يتورط في شيء من أفعال الجاهلية؛ لأنه لا يعرف أفعال الجاهلية، لكن من رأى ضلال الجاهلية ونور الإسلام أمكنه أن يميز بينهما، فمن ثم كثير من الناس يزعمون أنهم على الإسلام الصحيح أو على الفهم الصحيح للإسلام، بينما هم واقعون في بعض الشركيات كدعاء الموتى من دون الله، والاستغاثة بهم، والطواف بقبورهم وغير ذلك من هذه الشركيات؛ لأنهم ما عرفوا الجاهلية، ولو عرفوا الجاهلية لأدركوا أن هذه من خصال أهل الجاهلية، ومن أفعال أهل الجاهلية، ولذلك شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى له رسالة مهمة جدا في هذا الباب، اسمها: (مسائل الجاهلية) فهذا كتاب ينبغي أن يكون مشهورا، عدد فيه خصائص الجاهلية التي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطهر المسلمين منها، وقد شرح هذا الكتاب العلامة محمود شكري الألوسي رحمه الله تعالى.

ونحن معشر المصريين عموما نميل جدا إلى الغلو في هذه الأشياء، فالخبر يخرج شبرا ويعود ذراعا، ونضع عليه التوابل والبهارات حتى نثير إعجاب الناس بما ننقله من حكايات، وأي موضوع يتداول فغالبا إذا تتبعت سلسلة الخبر تنتهي بك إلى مجاهيل أو إلى مجروحين أو إلى آخره، فنحن نعاني من آفة النقل.

وما آفة الأخبار إلا رواتها فما بالك بمجتمع العوام الذين لا يعرفون شيئا عن وجوب التحري؟! فالأمية عندهم هي التي تدفعهم إلى المغالاة والغلو وزيادة الثقة، وهذه الأخبار غالبا مفتراة، ونحن نعرف طبيعة بني جلدتنا، عندنا ميل إلى الغلو في هذه الأشياء، وربما يكون هذا الغلو بسبب ما يحصل من الإيحاء النفسي أن توجد حالة نفسية تعالج بالإيحاء، فينبغي أن نحترم عقولنا، ونحن لا نقول: إن هذا غير ممكن في حكم العقل، يعني: خرق العادة شيء ممكن خاصة لأولياء الله الصالحين، فلذلك نحن نقول: خرق العادة في حد ذاته لا ينبغي أن يفتننا أبدا، ولا يهزنا ولا يؤثر فينا إلا بشروط، وأوضح دليل حتى نسكت الجميع قضية المسيح الدجال؛ لأن كثيرا من الناس لاسيما النصارى الشيطان يلبس عليهم جدا في هذا الباب، تكلمهم في التوحيد والدخول في الإسلام، فيقول لك: عندي دليل على أن ديني دين صحيح، فهذه المعجزات التي حصلت لي أو التي رأيتها بعيني تدل على ذلك، فالشيطان يلبس عليهم بهذه الأشياء، وخرق العادة لا يدل على أن الذي جرى على يديه خرق العادة هو رجل صالح أبدا، بدليل الدجال الأعور الذي يأتي بأشياء تدهش العقول حتى يفتن الناس به ويعبدونه من دون الله، فـ المسيح الدجال كل اليهود والنصارى يتهيئون لاستقباله، فالنصارى يزعمون عودة المسيح للمرة الثانية على أنه -والعياذ بالله- إله، واليهود يزعمون أن المسيح الذي بشروا به لم يأت، والذي أتى كان هو المسيح الدجال.

فالشاهد من هذا: أن المسيح الدجال الذي سوف يدعي الألوهية هو نفسه سيأتي بخوارق، ومع ذلك هو الدجال، فمجرد خرق العادة لا يكفي، وإنما ينبغي أن ننظر في الخارقة نفسها هل هي موافقة للشرع أم مخالفة؟ ننظر في سلوك الشخص صاحب خرق العادة هل هو متبع للسنة موحد مسلم ومتبع للسنة والجماعة أم هو من أهل البدع والضلالة؛ لأن الشيطان يمكن أن يعينه على إنجاز هذه الخوارق بقدرة الله سبحانه وتعالى وحكمه الكوني القدري؛ فتنة واختبارا وابتلاء للناس كما

سيحصل مع الدجال، فالخو". [1]

٣٠٤-"تفسير قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله)

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [الصف:١٤].

وفي قراءة أخرى: (كونوا أنصارا لله).

أي: دوموا على ما أنتم عليه، وانصروا دين الله مثل نصرة الحواريين إذ قال لهم عيسى: (من أنصاري إلى الله) أي: من يتوجه معي إلى نصرة الله.

((قال الحواريون نحن أنصار الله)) أي: ننصر دينه وما أمر به، وندعو إليه، ونضحي لأجله بحياتنا.

((فآمنت طائفة من بني إسرائيل)) أي: بعيسى عليه السلام، ونهضت تدعو إلى ما بعث به وتنصر دعوته.

((وكفرت طائفة)) يعني: برسالته، وبالحق الذي معه، قيل: هم اليهود الذين جحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم.

وقيل: كفرت طائفة من أتباعه الذين غلوا فيه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، واقترفوا الشرك، وافترقوا في ذلك شيعا: فمن قائل إنه ثالث ثلاثة، وهؤلاء قال تعالى فيهم: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ [المائدة:٧٣] وهؤلاء هم الكاثوليك الذين يعتقدون بالثالوث، وأن كل إله له الهوية الخاصة به.

ومن قائل إنه ابن الله: ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ [التوبة:٣٠].

ومن قائل إنه هو الله: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ [المائدة:١٧].

وكانت أول كلمة نطق بها المسيح في المهد: ﴿إني عبد الله﴾ [مريم:٣٠] وكذلك: ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ [آل عمران:٥١]، وقال تعالى عنه: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة:٧٢].

فانظر إلى دعوة الإيمان كيف فرقتهم مع أنهم من قبيلة واحدة، وهي بنو إسرائيل؛ لكن على أساس الموالاة في الله والبراء من الكفار انقسموا.

فقوله: ((فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم))، فهذه هي المعاداة في الله لأقرب الأقربين.

(فأيدنا الذين آمنوا) أي: بعيسى (على عدوهم) من اليهود والرومان الوثنيين ((فأصبحوا ظاهرين))، أي: غالبين عليهم بالبراهين الواضحة، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة.

وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم إذا كانوا متناصرين على الحق، مستمرين عليه، غير متفرقين ولا متخاذلين عنه، كما وقع لسلفهم، فإذا اتفقوا ملكوا، وإذا تفرقوا هلكوا.

---

(١)

يقول الشيخ عطية سالم رحمه الله تعالى: قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين)، إلى آخره، هذا أمر للمسلمين أن يكونوا أنصارا لله كما كان الحواريون، لكن لم يبين هنا هل كان المؤمنون الذين خوطبوا بهذه الآية أنصارا لله أم لا؟

و A نعم، كانوا كذلك، وقد بين الله ذلك في سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله﴾ [الحشر:٨].

كذلك قال عز وجل: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ [التوبة:١٠٠].

وقال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا﴾ [الفتح:٢٩]، فقوله: (أشداء على الكفار) معناه: أنهم ينصرون الله ورسوله.

وقال تعالى: ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ [الفتح:٢٩].

فسماهم أنصارا، وبين نصرتهم سواء كانوا من المهاجرين أو الأنصار رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وقال الرازي: قال أصحاب عيسى: (نحن أنصار الله)، ولم يقل أصحاب محمد ذلك، فما هي **الحكمة في ذلك؟**

و A أن خطاب عيسى عليه السلام كان بطريق السؤال، فلابد من الجواب، فأجابوا بذلك، ولم يقولوا ذلك ابتداء.

وأما خطاب محمد صلى الله عليه وسلم فهو بطريق الإلزام، فالجواب غير لازم، بل اللازم هو امتثال هذا الأمر وهو قوله تعالى: (كونوا أنصار الله)، وامتثال ذلك يكون بالفعل، والقرآن أثبت أنهم قد نصروا الله، قال تعالى: (وينصرون الله ورسوله) إلى آخره.

إذا: فأصحاب المسيح سئلوا سؤالا لا جواب له إلا هذا ما داموا مؤمنين، ف

Q (من أنصاري إلى الله) والجواب: (نحن أنصار الله) وأما الصحابة فأمروا بأن يكونوا أنصار الله، فكانوا كذلك فعلا وامتثالا، ولم يحتاجوا إلى أن يردوا نفس الرد، ونختم الكلام بقول الشاعر: سيأخذ ثأر الله أنصار دينه ولله أوس آخرون وخزرج وهذا قول لبعض الشعراء ختم به إحدى قصائده التي أشار فيها إلى أن جميع المؤمنين في كل زمان مطالبون أن يمتثلوا هذا الأمر: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [الصف:١٤].

فالشاعر يقول في القصيدة: وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم فأحر بهم أن يغرقوا حيث لجوا لعل لهم في منطوي الغيب ثائرا سيسموا لكم والصبح في الليل مولج بمجر تضيق الأرض عن زفراته له زجل ينفي الوحوش وهزمج على حين لا عذرى لمعتذركم ولا لكم من حجة الله مخرج فيأخذ ثأر الله أنصار دينه ولله أوس آخرون وخزرج والله أعلم.". (١)

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم ٢٧/١٧٠

٣٠٥-"الحكمة من ذكر القصص في القرآن

قال الدهلوي ولي الله في الفوز الكبير: واختار سبحانه في تنزيله من أيام الله -يعني الوقائع التي أحدثها الله سبحانه وتعالى- كإنعام المطيعين وتعذيب العصاة ما قرع سمعهم، وهذا من مقاصد القرآن، تذكر القصص كي تكون عبرة للجميع.

وذكر لهم إجمالا قصص قوم نوح وعاد وثمود، وكانت العرب تتلقى هذه القصص أبا عن جد، ومثل قصص سيدنا إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل، فإنها كانت مألوفة عند العرب، مألوفة لأسماعهم؛ لأنهم كانوا يخالطون اليهود العرب في قرون كثيرة.

وانتزع من القصص المشهورة ما ينفع في تذكرهم، ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها، **والحكمة في ذلك** أن القرآن الكريم لو سرد تفاصيل القصص وتفاصيل كل الأحداث التي تتعلق بهذه القصص فإن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة، أو سمعوا الخصوصيات يميلون إلى القصص نفسها ويفوتهم التذكر والاعتبار الذي هو الغرض الأصلي هنا.

فإذا ذكرت القصة كلها من أولها إلى آخرها بجميع ما يتعلق بها من أحداث ووقائع، فالناس ينجرون إلى متابعة تسلسل الأحداث، وينبهرون به، وينجذبون إليه، ويفوتهم الاعتبار، فلذلك القرآن الكريم ما ذكر كل تفاصيل قصصهم، وإنما ذكر ما ينفعهم لأجل الاعتبار.

وهذا يظهر لنا إذا قارنا بين كثير من قصص القرآن الكريم وبين نفس القصص إذا ذكرت في التوراة مثلا، فنجد القصص في التوراة موجودة بتفاصيل عجيبة جدا، وتفاصيل كثيرة جدا، بما في ذلك الأسماء، ومواقع البلاد، وأنواع الضيوف، والطيور وغير ذلك من تفاصيل وخصوصيات القصة، أما القرآن الكريم فحذرا وتجنبا لما يحصل من العوام، لأنهم إذا سمعوا القصص بجميع خصوصياتها وتفصيلاتها يميلون إلى هذه الخصوصيات وتسلسلها، وينسون وينشغلون عن موضع العبرة، مع أن العبرة والاعتبار والتذكر هو الغرض الأصلي من سردها، فيذكر الله من القصة في القرآن.

ونظير هذا الكلام في موضوع القصص ما قاله بعض العارفين: إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع في التلاوة! ولذلك ينبغي أن ينتبه الإنسان إذا درس علم التجويد ألا يلبس عليه الشيطان بأن يصرف كل همه إلى مراعاة قواعد التجويد ومخارج الحروف دون الاعتبار بالمعاني.". (١)

٣٠٦-"تفسير قوله تعالى: (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق)

قوله: ﴿نتلوا عليك﴾ [القصص:٣] كان هذا كالديباج؛ لما في داخل السورة من أحكام وفصول.

يقول تعالى مخاطبا نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾ [القصص:٣] أي: نتلو عليك يا محمد، ونقرأ عليك وننزل عليك ونبين لك.

(من نبإ) (من) للتبعيض أي: بعض أنباء وأخبار موسى نبي الله، أحد أولي العزم من الرسل، المنزلة عليه التوراة، من أنبياء بني إسرائيل.

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم ٦/١٨

(نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق) أي: تلك الأكاذيب والأضاليل التي يقصها اليهود والنصارى في كتبهم المحرفة وتوراتهم بعد تبديلها وتغييرها، وفي إنجيلهم بعد تبديله وتغييره، وفي كلام علمائهم وهم أكذب وأفجر الخلق، ومن أضلهم الله على علم، نحن سنتلو ونقص عليك ونملي عليك من أنباء هؤلاء وأخبارهم (بالحق) أي: بالصدق البين الذي لا شك فيه، ولا مين ولا تردد ولا احتمال.

((لقوم يؤمنون﴾ [القصص:٣].

أي: الذي آمن بالقرآن وآمن بالمرسل إليه نبينا صلى الله عليه وسلم، فهو الذي سيؤمن بما يتلو ويقص القرآن، أما أولئك الكفرة الفجرة الذين لم يؤمنوا بالله في الأصل ولا بكتابه ولا بنبيه هؤلاء لا يؤمنون لا بقصص القرآن، ولا بأحكام القرآن، فهم كفروا بالأصل فكيف بما جاء بعد ذلك؟! ولذلك يخاطب الله هنا المؤمنين الذين سيصدقون ما يقال لهم إذا آمنوا، فهو يتلو علينا ذلك لنأخذ الحكمة والعبرة والفائدة لما يستقبل حياتنا ومجتمعنا وأحكامنا، وقد ذكرت قصة موسى وبني إسرائيل في القرآن كثيرا من المرات، فما **الحكمة في ذلك؟** سبقنا في الديانة عيسى، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، بينه وبين نبينا عليه الصلاة والسلام ستة قرون وثلث قرن وسنوات، وليس بينه وبين نبينا رسالة ولا نبوة، وقبله سبق موسى وكان من أولي العزم، وهو الذي أنزلت عليه التوراة، ثم أنزل الإنجيل على عيسى، فالله يذكر لنا قصص بني إسرائيل من أتباع موسى وأتباع عيسى، وهو قد فضلهم يوما على العالمين، ومكنهم في الأرض، وأرى فرعون وهامان منهما ما أراهم، ثم لعنوا بعد ذلك وغضب عليهم، وذلوا واستعبدوا، وأصبحوا أذل من شسع النعل، لم ذلك؟ لأنهم خرجوا عن أمر الله، وقتلوا الأنبياء، ونشروا الفواحش والفساد، وكانوا قساة القلوب.

ولا تغتر أيها المسلم بما يجري اليوم فليس هو إلا استدراجا، فعن قريب وعن قليل تقشع، فيعودون إلى السحق بالأقدام، وإلى الطرد من جميع ديار المسلمين، ولن تقوم لهم بعد ذلك قائمة؛ لأن القرآن الكريم حدثنا بذلك، وأعطاهم فرصتين وزمنين للإفساد في الأرض، وبعد الإفساد الثاني لن تقوم لهم قائمة، وسيكون هذا الإفساد استدراجا للقضاء عليهم وتشريدهم وطردهم.

ولكن القرآن عندما يقص علينا أخبارهم يقول لنا: يا هؤلاء المسلمون الذين فضلهم الله على كل البشر من اليهود والنصارى وغيرهم، وجميع الأمم السابقة، وجعل نبيهم أفضل وأكرم الأنبياء، ولا نبي بعده، ولا رسول بعده ودينه عالمي لكل الخلق في حين أن نبوة عيسى قومية مقصورة على بني إسرائيل.

قال نبينا عليه الصلاة والسلام: (اختصصت بخمس: كان الأنبياء قبلي يرسلون إلى أقوامهم خاصة وبعثت إلى الناس عامة) فالإسلام وحده هو الدين العالمي، وقد قلت: وأكد هذا ما وجد في الإنجيل من قول الله تعالى نقلا عن عيسى: إنما أرسلت إلى بني إسرائيل خاصة، عيسى نفسه يقول: جئت إلى كباش هؤلاء اليهود ولم يرسل لغيرهم.

أكد ذلك القرآن الكريم فقال: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ [الصف:٦] ليس رسولا إلا لنبي إسرائيل، لم يرسل لعرب ولا أوروبيين، ولا لأمريكيين، ولا لأحد من الخلق إلا لبني إسرائيل، فلم يؤمر غيرهم بأن يكونوا أتباعه ولا أن يؤمنوا به، ولكن عندما جاء الإسلام نسخت هذه الأديان، وانتهت نبوءات رسلهم، ثم هي كانت قد

نسخت وبدلت وغيرت، بعد ذلك نسخت للإسلام، وأصبح بعد ذلك من لم يدخل الإسلام ولم يدن بالإسلام لا دين له؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران:١٩] ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ [آل عمران:٨٥].

وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: (والله لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي).

وعيسى سينزل في آخر الدنيا من السماء، وسيكون من أتباع نبينا عليهما الصلاة والسلام، وما فعله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ليلة الإسراء في المسجد الأقصى أعاده الله للمسلمين، وطرد منه القردة والخنازير وعبد الطاغوت من اليهود، حيث صلى إماما بالأنبياء بأرواحهم، وما كانت تلك الإمامة إلا إشارة إلى أنه سيدهم وكبيرهم، والذين أخذ عليهم العهد أن من أدرك الحياة المحمدية ليؤمنن به وليدينن بدينه ولينصرنه، ذاك أمر الله.". (١)

٣٠٧-"تفسير قوله تعالى: (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج)

قال الله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا﴾ [الأحزاب:٥٢].

لا نزال مع هؤلاء اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة تكرمة لهن، فالله حرم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أن يتزوج غيرهن، فقال سبحانه: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ [الأحزاب:٥٢] أي: بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واخترن زهادتك وتقشفك وصبرك على شظف العيش فلا تتزوج عليهن بعد، فكما أعطيناك عدم القسمة بينهن وعدم الحرج في ذلك، كذلك لا تتزوج عليهن بعد: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ [الأحزاب:٥٢]، أي: من بعد هؤلاء التسع.

وقال المفسرون: لم يكن الأمر كذلك وإنما تفسير الآية: أن الله أباح له أصنافا من النساء، فقال له: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾ [الأحزاب:٥٠] أي: هذه الأصناف من النساء اللاتي آتيت أجورهن ومهورهن من بنات عمك وعماتك القرشيات، ومن بنات خالك وخالاتك الزهريات، ومؤمنة وهبت نفسها لك بلا مهر ولا ولي ولا شهود، كل هؤلاء لا يباح لك ولا يجوز أن تتزوج غيرهن من بقية العرب، ومن باب أولى ألا تتزوج سوى مسلمة من هؤلاء، فلا يحل لك الزواج من نصرانية ولا يهودية ولا من لم يذكر الله في هذه الأصناف، وأباح له الإماء، وقد ذكرت **الحكمة في ذلك**.

سئل أبي بن كعب القارئ المفسر العالم بالقرآن: لو مات نساء النبي عليه الصلاة والسلام أيحل له أن يتزوج بعدهن؟ فأجاب: وما يمنعه من ذلك؟ قال: قوله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ [الأحزاب:٥٢].

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٤/١٤٣

قال: ليس معنى الآية كما فهمت، ولكنهن ضروب من النساء أباحهن الله له من بنات العم والعمة والخال والخالة من المسلمات المهاجرات معه ومؤمنة وهبت نفسها له، هذه الضروب هي التي أباحها له، ولا يحل له سواها، وهؤلاء لو متن فعنده كثير من القرشيات وكثير من الزهريات وكثير ممن يمكن أن تهب نفسها، وإن كان النبي عليه الصلاة والسلام لم يتزوج بالمرأة التي وهبت نفسها له.

إذا: قوله: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ [الأحزاب:٥٢] أي: هؤلاء النسوة بعد أن اخترن الله ورسوله حرم الله عليه أن يتزوج بعد غيرهن؛ تكرمة لهن على أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة عندما خيرن.

قال الله تعالى: ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ [الأحزاب:٥٢] أي: ولا أن تبدل واحدة بواحدة بأن تطلق زوجة من هؤلاء وتتزوج مكانها أخرى، أو تطلقهن كلهن وتتزوج غيرهن، وإن كان الطلاق لم يحرم عليه.

وقد قيل: إنه طلق حفصة بنت عمر ثم راجعها، وعلى كل اعتبار فقد راجعها فلم تطلق واحدة منهن ألبتة، ولم يتزوج عليهن بعد ذلك، ومن وهبت نفسها لم يقبلها، ولم تكن عنده واحدة ممن وهبن أنفسهن له، كما نص على ذلك ابن عباس والإمام الزهري.

وقوله: (ولو أعجبك حسنهن) أي: قد يرى النبي عليه الصلاة والسلام امرأة تأتيه فتكون عذراء أو أرملة أو واهبة فيلفت جمالها نظره، فقال له الله تعالى: لا تتزوج على هؤلاء ولا تستبدل واحدة منهن بغيرها، ولو كن جميلات في نظرك.

وكون النبي صلى الله عليه وسلم رآهن أو يمكن أن يراهن لم يحدث هذا، ولكن من باب الفرض، والله قد أحل له ذلك وأباحه، وهذا مصرح به من النبي عليه الصلاة والسلام فقد جاءه المغيرة بن شعبة وقد خطب فقال له: (هل نظرت إليها؟ قال: لا، قال: لو نظرت إليها فإن في أعين الأنصار شيئا)، قيل: كان في أعين الأنصار صفر، وقال عليه الصلاة والسلام: (من أراد أن يتزوج فلينظر إلى من يريدها فإن ذلك أدوم للنكاح بها، أو آدم).

وفي حديث آخر: (من أراد أن يتزوج امرأة فلينظر إليها)، أو: (فلينظر إلى ما يعجبه منها).". (١)

٣٠٨-"تفسير قوله تعالى: (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم)

قال الله جل جلاله: ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا﴾ [الكهف:٢٠].

لما استيقظ أصحاب الكهف من نومهم وأخذوا يتساءلون، كما قال تعالى: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا﴾ [الكهف:١٩].

فقد ظنوا أنهم قد ناموا يوما أو بعض يوم، وشعروا بالجوع، وكلفوا أحدهم وقد أعطوه دراهم أن ينزل للسوق ويأتيهم بما يسد جوعتهم، ويشبع حاجتهم، وأخذ كبيرهم ينصحه ويوجهه ويرشده، ويقول له: تلطف في حديثك، وإياك أن يبدر منك ما يشعرهم بك ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم﴾ [الكهف:٢٠] أي: إنهم إن يطلعوا عليكم يعرفوكم فيرجموكم.

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٣/٢٠٨

فأصحاب الكهف لا زلوا يتحدثون عما مضى عليه ثلاثمائة سنة وتسع سنوات، وهم يظنون أنهم فارقوا البلدة بالأمس، فقال هذا لمن أرسله ليأتي بالطعام والشراب: إياك أن يبدر منك ما يعرفون به حالك، وأنك من أولئك الذين تركوا الأمة على شركها ووثنيتها، وفروا بالتوحيد كافرين بأوثان دقيانوس وشعبه، فإنهم إن يطلعوا عليكم ويعرفوا حقيقتكم، يلقوا القبض عليكم، ثم يرجموكم بالحجارة حتى الموت، على عادتهم في قتل الموحدين والبطش بالمؤمنين، وإن لم يفعلوا فلعلهم يطمعون فيكم ليعيدوكم في ملتهم، أي: في كفرهم وشركهم ووثنيتهم، وإن أنتم استجبتم لهم فلن تفلحوا إذا أبدا، إذ تصبحون ضلالا تعودون للوثنية والشرك ويذهب عنكم الفلاح والصلاح والإيمان والتقى، فنزل هذا الشاب المؤمن وإذا به يرى كما يقول الشاعر: أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحي غير رجاله فرأى البلدة قد تغيرت واندثرت، ورأى نفسه غريبا بينهم، ولم ير أحدا في الأزقة والطرقات يعرفه لا من الصغار ولا من الكبار، بل لم يجد البنيان باقيا على شكله، فحصل له من الذهول والغرابة ما جعله يشك في نفسه، هل جن؟ هل فقد عقله؟ هل هو لا يزال نائما أم قد استيقظ؟ وبينما هو في حركته هذه أراد أن يستعجل الأحداث فوقف عند أول دكان يبيع الخبز، فمد يده إليه وهو مضطرب ومستغرب، وإذا بصاحب الدكان عندما رأى دراهمه تعجب منها، فقد كانت من الدراهم التي مضى عليها دهر سحيق، فيها اسم دقيانوس الذي مضى على حكمه وملكه في هذه الديار قرون.

وأمسك به صاحب الدكان وقال له: من أين لك هذه الدراهم؟ هل وجدت كنزا؟ أخبرني، فأخذ يضطرب، ولا يدري ما يقول له، وبماذا يجيبه؛ لأن كل ما في ذهنه أنه ما فارق البلدة إلا بالأمس، نام يوما أو بعض يوم، فاجتمع الناس حوله وهكذا قال الله تعالى: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا﴾ [الكهف:٢١].

يقول جل جلاله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ [الكهف:٢١] أي: كما أنمناهم وأدخلناهم الكهف وأيقظناهم وهم يتساءلون، كذلك أعثرنا عليهم، يقال: فلان عثر على كذا، أي: وجده من غير إعداد سابق، كأنه وجده اتفاقا.

فقوله: (أعثرنا عليهم) أي: الله جل جلاله قدر الأسباب في العثور على هؤلاء الشباب المؤمنين الموحدين الذين أقاموا في الكهف قرونا.

فقوله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ [الكهف:٢١] أي: كشفنا أمرهم، وعرفوا بما لديهم من دراهم أنه قد مضى عليها قرون، وتجمع حوله الناس، وأخذ يقص قصتهم مضطربا.

وهكذا علم بخبره ملك البلاد، وكانت الأمة كلها قد آمنت وأصبحت على التوحيد.

فعندما بلغ الملك أمرهم، وكان قد سمع بهم في التاريخ، ذهب مع الأفواج من الخلق، وأخذهم هذا الشاب إلى الكهف ودخلوا الكهف ورأوا الرقيم: فلان ابن فلان، سنة كذا تاريخ كذا أيام دقيانوس، وإذا بالملك يحمد الله ويشكره.

وكان صالحا موحدا، فحاول دخول الكهف فرأوا وجوها مرعبة ومخيفة، رأوا شعورا قد طالت وأظافر قد طالت مع ما ألبسهم الله به من رداء الخوف والهيبة والرعب، والكلب باسط ذراعيه بالباب.

فأخذوا يتنازعون فيما بينهم، وبينما هم في هذه الحال مات أصحاب الكهف موتا حقيقيا.

والحكمة في ذلك أن الله جعل لكل زمن ولكل نبي معجزة من المعجزات، من أجلها آمن من آمن وصدق من صدق، وكانت بمثابة أن يقول: هذه معجزتي وعلامة صدقي، فآمنوا بالله ولن أكذبكم، ولا يكذب الرائد قومه.

فكان هؤلاء ورثة للأنبياء ودعاة لله والتوحيد بحالهم قبل مقالهم.

إذا: عندما سقطوا موتى فعلا أخذوا يتنازعون شأنهم، بعد أن وجدوهم من غير بحث سابق ولا طلب فتأكدوا وتيقنوا، أن هؤلاء أصحاب الكهف، وأصحاب الرقيم أي: اللوحة التي فيها أسماؤهم، وقد أكدنا أن المعنى كذلك، بخلاف من زعم أن الرقيم اسم لمكان قرب أيلة، أو قرب البلقان أو قرب نينوى، فالرقيم: كتاب مرقوم، أي: مكتوب، والكتابة رقم.

قال تعالى: ﴿ليعلموا أن وعد الله حق﴾ [الكهف:٢١] أي: وعد الله بالبعث يوم القيامة، وأن الله يحيي الإنسان بعد أن يموت ويعيده إليه، وذلك لنحاسب على ما قدمت أيدينا، إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

وجعل الله هذا في الدنيا مثالا لما هو أكبر من ذلك في يوم القيامة الذي لا ريب فيه ولا شك.

فقوله: ﴿ليعلموا﴾ [الكهف:٢١].

أي: ليعلم قومهم، وليعلم الناس الذين رأوهم، وعلموا حقيقتهم وأمر كتابهم المكتوب فيه أسماؤهم، والزمن المذكور فيه.

وقوله: ﴿أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ [الكهف:٢١] أي: وعد الله في إرسال أنبيائه والبعث بعد الموت، ووعد الله في قيام الساعة الذي لا ريب فيه ولا شك، ولا يرتاب فيه إلا مشرك، ولا يشك فيه إلا كافر.

قال تعالى: ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ [الكهف:٢١].

في هذه الحال، والله قد أعثرهم عليهم أخذوا يتنازعون: كم عددهم؟ وهابوا أن يدخلوا إلى الداخل، إذ رأوا منهم أفرادا، وكأنهم تنقلوا من جنب إلى جنب، فأخذوا يتنازعون الكلام والقول، هذا يقول قولا والآخر ينازعه، وعلى هذا الاعتبار فإنهم قد ماتوا، مع الهيبة التي ألبسهم الله تعالى إياها رداء، وهي هيبة المؤمن الواثق بربه.

قال تعالى: ﴿فقالوا ابنوا عليهم بنيانا﴾ [الكهف:٢١].

لما ماتوا أمامهم، ولم يأكلوا ولم يشربوا، ولم يطل بهم الزمن، وقالوا: ابنوا عليهم بناء، أي: قبة مثلا أو بناء حائط، حتى نقصدهم بالزيارة.

وعندما اختلفوا فيهم وفي أسمائهم والزمن الذي كانوا فيه وفي آبائهم وأجدادهم، قال الله عنهم: ﴿ربهم أعلم بهم﴾ [الكهف:٢١] فلا حاجة للتفاصيل.

إذ إن المراد العبرة والحكمة، وأنهم قوم في دار الدنيا، ناموا ثلاثمائة سنة وتسع سنوات، ولم يبلوا ولم يندثروا ولم يفنوا، ثم أحياهم الله بعد كل هذا الزمن الطويل، والرقيم هو الذي أكد لهم تاريخهم بالأسماء وتاريخ الملك الوثني الذي طاردهم.

وبينما هم في هذا العجب قالوا: لا فائدة من النزاع، ربهم أعلم بهم، أي: بعددهم وأسمائهم وأزمانهم، وبكل ما يتعلق بهم، فقالت طائفة ممن عثروا عليهم: ﴿ابنوا عليهم بنيانا﴾ [الكهف:٢١] أي: اجعلوا عليهم أثر بناء لنقصدهم بالزيارة ولنترحم عليهم وندعو لهم.

قال تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ [الكهف:٢١].

ولا شك أن الذي غلب على أمرهم هو الملك الحاكم، وكان مؤمنا، وسموه تيدوسيس، قال تعالى: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا﴾ [الكهف:٢١].

وما ذكر المسجد إلا للمؤمنين الموحدين (لنتخذن) أي: أقسموا بالله، فهذه اللام موطئة للقسم، ومؤكدة بنون التوكيد الثقيلة. كأنهم قالوا: والله لنتخذن عليهم مسجدا، وكأنهم تنازعوا في البناء، ويظهر أنهم كان معهم وثنيون جاءوا للاستغراب والتعجب، فقال هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم وأصبح أمرهم بيدهم (لنتخذن عليهم مسجدا)، ولا يكون هذا عادة إلا للسلطان، وكان الملك حاضرا ومعه كبار من قومه ورجاله.

فقوله: ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾ [الكهف:٢١].

أي: مكانا للعبادة، نسجد فيه لله.

يقول عبد الله بن عباس: ذهبت في حرب في بلاد الروم وإذ بهم يذكرون كهفا، وأن فيه بقايا من عظام، فدخل ودخل معه آخرون وقالوا له: هؤلاء هم أصحاب الكهف، وهذا هو الكهف الذي ذكره الله في القرآن.

وقال ابن عباس: وكان قد مضى من الزمن ثلاثمائة عام.

ولكن هذا يخالف ما قلناه من قبل، فالنبي عليه الصلاة والسلام أرسل بالنسبة للتاريخ الميلادي سنة ٦٤٠م وكون ابن عباس يخبرنا عن ذلك في أواخر القرن السابع الميلادي، فمعناه: أنهم كانوا نصارى من أتباع عيسى، وبما أننا قد علمنا من قبل أن الذين دلوا كفار قريش على أن يسألوا عنهم النبي عليه الصلاة والسلام هم يهود المدينة، واليهود لا يؤمنون بعيسى فضلا عن اتباعه، أو أن يعطوهم هذا الاعتبار ويعترفوا بهم، وهذا مما يؤكد أنهم كانوا قبل عيسى، وكانوا من الشعوب المؤمنة السابقة.

ولم يكن الذي حكي عن ابن عباس إلا ظنا: ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئا﴾ [النجم:٢٨].". (١)

٣٠٩-"تفسير قوله تعالى: (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب)

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ [الحج:٥ - ٧].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد].

أي: أن هذه هي المناسبة بين ربط الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما ذكر حال المنكر للبعث ذكر بعدها الدليل على إثبات البعث فقال: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾ [الحج:٥]،

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٥/٢

فاستدل على البعث بالبدء، يعني: أن الذي خلقكم من تراب ثم من علقة قادر على أن يعيدكم ويبعثكم مرة أخرى، كما قال سبحانه وتعالى في آية الروم: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم:٢٧]، يعني: وهو هين عليه.
وكذلك أيضا إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على البعث، فاستدل على البعث بدليلين: الدليل الأول: بدء خلق الإنسان؛ فإنه خلق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة.
والدليل الثاني: إحياء الله الأرض بعد موتها.
قال المؤلف رحمه الله تعالى: [لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ((يا أيها الناس إن كنتم في ريب)) أي: في شك ((من البعث)) وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة].
يعني: بعث الأجساد وإعادة الأرواح إليها.
وهذا أصل من أصول الإيمان وركن من أركان الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا به، فمن لم يؤمن بالبعث فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من قال: إن البعث إنما هو للأرواح، كالفلاسفة؛ فإن الفلاسفة يقولون: البعث للأرواح، وأما الأجساد فلا تبعث، وهذا كفر بإجماع المسلمين، بل نفس الأجساد تعاد، فإن الذرات التي استحالت ترابا يعيدها الله؛ فهو عالم بالذرات التي استحالت، وهو قادر على ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون﴾ [يس:٧٨ - ٨٠].
فالذرات التي استحالت يعيدها الله خلقا جديدا، والإنسان يبلى إلا عجب الذنب، وهو العصعص آخر فقرة في العمود الفقري، منه خلق ابن آدم ومنه ركب، كما في الحديث: (كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب، منه خلق ابن آدم ومنه ركب)، فيعيد الله الذرات التي استحالت، ثم ينشئه الله خلقا جديدا، فتبدل الصفات، وأما الذوات فهي هي، لكن الصفات تكون صفات أقوى من الصفات التي كانت عليها في دار الدنيا، فتتحمل مواقف وأهوال القيامة، ولهذا يعظم خلق الكافر في النار حتى يكون ضرسه مثل جبل أحد كما جاء في الحديث الصحيح، نسأل الله السلامة.
والجلود تبدل كما قال عز وجل: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها﴾ [النساء:٥٦]، فالتبديل يكون للصفات، والمراد بالتبديل التجديد، كما جاء ذلك عن الإمام أحمد رحمه الله حين رد على الزنادقة حينما شبهوا وشكوا في المتشابه من القرآن ونسبوا الله إلى الظلم وقالوا: إن الله ظالم -نعوذ بالله- إذ كيف يعذب جلودا لم تذنب؟! فبين لهم رحمه الله أن هذا من جهلهم وضلالهم وكفرهم، وأن المراد: تجديد، وليس المراد تبديل ذوات.
فالإنسان يعاد بذاته وبجسده، ونفسه هي هي، ولما قال الجهم بن صفوان: إنه يعاد شيئا آخر، كفره العلماء، وفتح بذلك بابا للفلاسفة فأنكروا البعث.
نسأل الله السلامة.
وكذلك الأرض عندما تبدل يكون تبديلها تبديل صفات، والذات هي هي.
فقوله تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ [إبراهيم:٤٨]، أي: تبديل صفات لا تبديل ذات، فالناس يبعثون بذواتهم

التي كانوا عليها وتبقى كما كانت لا تبدل، أما الأعمار فإنهم في الجنة يكونون كلهم شبابا، أبناء ثلاث وثلاثين، حتى الأطفال الذين ماتوا يكونون شبابا، وأما الصفات التي كانت عليها الذوات فإنها تبدل، ولهذا لا يستطيع أحد أن يرى الله في الدنيا، وأما في يوم القيامة فينشئ الله الخلق تنشأة قوية فيثبتون فيها لرؤية الله.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [((فإنا خلقناكم من تراب)) أي: أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام، ((ثم من نطفة)) أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين].

يعني: أن آدم خلق من تراب، وذريته كل واحد خلق من نطفة من ماء مهين، فالإنسان يخلق من ماء الرجل وماء المرأة جميعا، إلا عيسى عليه السلام فإنه خلق من أم بلا أب، خلق بالنفخة التي نفخها جبريل في جيب درعها فولدت عيسى عليه السلام، وهكذا حواء خلقت من آدم، وأما سائر الناس فخلقوا من ذكر وأنثى.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [((ثم من علقة ثم من مضغة)) وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة -قطعة من لحم- لا شكل فيها ولا تخطيط].

ذكر في هذا تطور خلق الإنسان، وأنه يخلق من مني الرجل وماء المرأة، فيكون كذلك أربعين يوما، ثم تتطور هذه النطفة فتتحول إلى قطعة دم -علقة- ثم بعد أربعين يوما تتحول إلى قطعة لحم -مضغة- بقدر ما يمضغ في الفم، ثم يخلق الله العظام، ثم بعد مضي أربعة أشهر يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، وجاء في بعض الأحاديث أن الملك يدخل بعد اثنين وثمانين يوما.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ثم يشرع في التشكيل والتخطيط؛ فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء].

يعني: أن هذه المضغة من اللحم يصور الله منها يدين ورجلين ورأسا وهكذا، ثم يأتي الملك فينفخ فيه الروح بإذن الله، ويؤمر بكتب أربع كلمات، فيقول: يا رب! ما الرزق؟ ما الأجل؟ ما العمل؟ ما الشقاوة والسعادة؟ فيكتب هذا وهو في بطن أمه. وله سبحانه وتعالى **الحكمة في ذلك.**

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ((ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة))].

فإذا أسقطت المرأة مضغة -قطعة لحم غير مخلقة- فليس لها حكم النفاس، وإنما يكون ما يخرج منها دم فساد، فتصوم وتصلي، أما إذا أسقطت قطعة لحم فيها تشكيل وتصوير؛ وفيها يد أو أصبع أو رجل أو رأس فهذا إنسان، فيكون حكمها حكم النفاس، والدم الخارج منها دم نفاس، ويكون هذا آدمي يغسل ويصلى عليه ويدفن ويعق عنه ويسمى.

ولو كان ميتا.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [ولهذا قال تعالى: ((ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة)) أي: كما تشاهدونها، ((لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى)) أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله

تعالى: ((مخلقة وغير مخلقة)) قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق، فإذا مضى عليها أربعون يوما وهي مضغة أرسل الله تعالى ملكا إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها وشقي أو سعيد.

كما ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح).

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: (النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه فقال: يا رب! مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة، لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دما، وإن قيل: مخلقة قال: أي رب! ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأي أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله، فيقال له: اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة، قال: فتخلق فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك المكان ثم تلا عامر الشعبي: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ث". (١)

٣١٠-"تفسير قوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)

قال الله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠].

قال المصنف رحمه الله: [يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ [البقرة:٣٠]، أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك.

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن "إذ" هاهنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك.

ورده ابن جرير.

قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء من أبي عبيدة].

أبو عبيدة مع أنه لغوي ومعروف عند أهل اللغة إلا أنهم خطأوه في هذا، والصواب أن المعنى: واذكر، فإذ هنا ليست زائدة، وإنما هي معروفة، ومعناها معروف في اللغة العربية.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [قوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة:٣٠]، أي: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ [النمل:٦٢]، وقال ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ [الزخرف:٦٠]، وقال ﴿فخلف من

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي ٢/١٠٤

بعدهم خلف﴾ [مريم:٥٩].

وقرئ في الشاذ: (إني جاعل في الأرض خليقة) حكاها الزمخشري وغيره.

ونقل القرطبي عن زيد بن علي، وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام، فقط].

والقراءة السابقة إذا كان معناها صحيح، فتحمل على أنها تفسير، مثلما جاء في مصحف عبد الله بن مسعود في كفارة اليمين صوم ثلاثة أيام متتابعات، فقوله: متتابعات يحمل على أنها تفسير، ومثله ما جاء في مصحف عائشة حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر يحمل على أنه تفسير، ولا يثبت على أنه قراءة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام، فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه الرازي في تفسيره وغيره. والظاهر أنه لم يرد آدم عينا؛ إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة:٣٠]، فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم، قاله القرطبي.

أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه].

سؤال الملائكة عن حكمه، وليس اعتراضا على الله، فهم عليهم الصلاة والسلام لا يعترضون على الله، كما قال الله، ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ [الأنبياء:٢٧].

فإن الله لما أخبرهم أنه سيكون خليفة في الأرض، قالوا: يا ربنا! ما الحكمة في خلق هذا الخليفة؟ فهل سيكون منهم فساد، أو سفك للدماء؟، إن كانوا كذلك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا، قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ [البقرة:٣٠] الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك**، يقولون: يا ربنا! ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا

Q ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]، أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون، والشهداء، والصالحون، والعباد، والزهاد، والأولياء، والأبرار، والمقربون، والعلماء العاملون، والخاشعون، والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقد ثبت في الصحيح: أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده سألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون.

وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه السلام: (يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل).

فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]، وقيل: معنى قوله تعالى جوابا لهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]، أن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب لقولهم: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ [البقرة:٣٠]، فقال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]، أي: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به.

وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠] طلبا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]، من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم.

ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم].

وعلى كل حال، فالسؤال عن استكشاف الحكمة، وليس اعتراضا على الله، وظاهر الآية، ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ [البقرة:٣٠]، يعني: من الحكمة في وجود هذا الخليفة، وأنه سيحصل منهم الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والعلماء، والعاملون، إلى غير ذلك من حكمته سبحانه وتعالى في خلق بني آدم.". (١)

٣١١-"تفسير قوله تعالى: (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا)

قال الله تعالى: [﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ [البقرة:٣٢].

قال المؤلف رحمه الله تعالى: [هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ [البقرة:٣٢] أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك من تشاء، ومنعك من تشاء، لك **الحكمة في ذلك** والعدل التام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس: (سبحان الله) قال: تنزيه الله نفسه عن السوء، ثم قال عمر لـ علي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله قد عرفناها فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال.

قال: وحدثنا أبي حدثنا فضيل بن النضر بن عدي، قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله قال: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء].

يعني: عن كلمة سبحان الله، أو عن قول: سبحان الله.

---

(١) شرح تفسير ابن كثير - الراجحي ٢/٢٦

ولهذا يشرع للمسلم في الأسفار إذا هبط واديا أن يسبح الله، وإذا علا مرتفعا أن يكبر، وهذا مناسب؛ لأن الله أكبر من كل شيء، وأكبر من كل كبير، وإذا هبط ينزه الله عن النقص وعن السهول.". (١)

"واختاره ابن كثير، وهو قول الزركشي من أن الأمر بعد الحظر يدل على رجوع الحكم إلى ما كان عليه قبل التحريم، عرفت أن ذلك هو الحق، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا الآية، نهى الله المسلمين في هذه الآية الكريمة أن يحملهم بغض الكفار لأجل أن صدوهم عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية أن يعتدوا على المشركين بما لا يحل لهم شرعا.

كما روى ابن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية عن زيد بن أسلم، قال: «كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه بالحديبية حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم –: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية» ، اهـ. بلفظه من ابن كثير.

ويدل لهذا قوله قبل هذا: ولا آمين البيت الحرام [٥ \ ٢] ، وصرح بمثل هذه الآية في قوله: ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا الآية [٥ \ ٨] ، وقد ذكر تعالى في هذه الآية أنهم صدوهم عن المسجد الحرام بالفعل على قراءة الجمهور: أن صدوكم، بفتح الهمزة ؛ لأن معناها: لأجل أن صدوكم، ولم يبين هنا حكمة هذا الصد، ولم يذكر أنهم صدوا معهم الهدي معكوفا أن يبلغ محله، وذكر في سورة الفتح أنهم صدوا معهم الهدي، وأن **الحكمة في ذلك** المحافظة على المؤمنين والمؤمنات، الذين لم يتميزوا عن الكفار في ذلك الوقت، بقوله: هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما [٤٨ \ ٢٥] ؛ وفي هذه الآية دليل صريح على أن الإنسان عليه أن يعامل من عصى الله فيه، بأن يطيع الله فيه.

وفي الحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك» .

وهذا دليل واضح على كمال دين الإسلام، وحسن ما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، مبين أنه دين سماوي لا شك فيه.." (٢)

"اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم [٦ \ ١٤٥] الآية.

يدل بدلالة المطابقة دلالة صريحة على إباحة لحوم الحمر الأهلية ؛ لصراحة الحصر بالنفي والإثبات في الآية في ذلك. فإذا

---

(١) شرح تفسير ابن كثير – الراجحي ٤/٢٧

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١/٣٢٨

صرح النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك يوم خيبر في حديث صحيح: «بأن لحوم الحمر الأهلية غير مباحة» ، فلا معارضة البتة بين ذلك الحديث الصحيح وبين تلك الآية النازلة قبله بسنين ؛ لأن الحديث دل على تحريم جديد، والآية ما نفت تجدد شيء في المستقبل كما هو واضح.

فالتحقيق – إن شاء الله – هو جواز نسخ المتواتر بالآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عنه، وإن خالف فيه جمهور الأصوليين، ودرج على خلافه وفاقا للجمهور صاحب المراقي بقوله: والنسخ بالآحاد للكتاب ليس بواقع على الصواب.

ومن هنا تعلم: أنه لا دليل على بطلان قول من قال: إن الوصية للوالدين والأقربين منسوخة بحديث: «لا وصية لوارث» ، والعلم عند الله تعالى.

المسألة السابعة: اعلم أن التحقيق هو جواز النسخ قبل التمكن من الفعل، فإن قيل: ما الفائدة في تشريع الحكم أولا إذا كان سينسخ قبل التمكن من فعله؟ .

فالجواب: أن الحكمة ابتلاء المكلفين بالعزم على الامتثال. ويوضح هذا: أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ولده، وقد نسخ عنه هذا الحكم بفدائه بذبح عظيم قبل أن يتمكن من الفعل. وبين أن **الحكمة في ذلك**: الابتلاء بقوله: إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم [٣٧ \ ١٠٦، ١٠٧] ، ومن أمثلة النسخ قبل التمكن من الفعل: نسخ خمس وأربعين صلاة ليلة الإسراء، بعد أن فرضت الصلاة خمسين صلاة، كما هو معروف. وقد أشار إلى هذه المسألة في مراقي السعود بقوله:

والنسخ من قبل وقوع الفعل ... جاء وقوعا في صحيح النقل

المسألة الثامنة: اعلم أن التحقيق: أنه ما كل زيادة على النص تكون نسخا، وإن خالف في ذلك الإمام أبو حنيفة – رحمه الله –، بل الزيادة على النص قسمان: قسم مخالف النص المذكور قبله، وهذه الزيادة تكون نسخا على التحقيق ؛ كزيادة تحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع مثلا، على المحرمات الأربعة المذكورة في آية: قل لا أجد في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه الآية [٦ \ ١٤٥] ؛ لأن الحمر الأهلية ونحوها لم يسكت عن حكمه في الآية، بل مقتضى الحصر بالنفي والإثبات." (١)

"أو كرها» ، لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبرا عليه، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره، ويدل له قوله تعالى: ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها [١٣ \ ١٥] ، والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل لله – جل وعلا – وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعا وبعضهم يفعله كرها.

وعن مجاهد أنه قال: إلا ليعبدون: أي إلا ليعرفوني. واستدل بعضهم لهذا القول بقوله: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله [٤٣ \ ٨٧] ، ونحو ذلك من الآيات وهو كثير في القرآن، وقد أوضحنا كثرته فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم [١٧ \ ٩] .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٤٥٢/٢

وقال بعض أهل العلم: وهو مروي عن مجاهد أيضا معنى قوله: إلا ليعبدون: أي إلا لآمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى هذا القول: فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: ليعبدون – إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله، لا إرادة كونية قدرية، لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد إلى آخر السورة.
قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق – إن شاء الله – في معنى هذه الآية الكريمة إلا ليعبدون، أي إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.
قال تعالى في أول سورة هود: وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء [١١ \ ٧] ، ثم بين **الحكمة في ذلك** فقال: ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين [١١ \ ٧] .." (١)

"واستقبل القبلة، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فسمي المسجد مسجد القبلتين، **والحكمة في ذلك** واضحة بل هي أروع ما تصل اليه المعاملة الانسانية التي تستهدف قبل كل شيء استمالة القلوب وتلين العواطف، بيد أن ذلك لم يجد شيئا في ازالة التحجر الذي ران على قلوب اليهود، وقد علل القرآن هذا التحجر بالآية التالية:

[سورة البقرة (٢) : آية ١٤٥]
ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين (١٤٥)

الإعراب:
(ولئن) الواو استئنافية، واللام موطئة للقسم، وإن شرطية (أتيت) فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعل (الذين) اسم موصول في محل نصب مفعول به (أوتوا الكتاب) فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل، والكتاب مفعول أوتوا الثاني (بكل آية) الجار والمجرور متعلقان بأتيت (ما) نافية (تبعوا) فعل ماض وفاعل (قبلتك) مفعول به، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم، وقد أغنت عن جواب الشرط لتقدم القسم، وإذا اجتمع شرط وقسم فالجواب للمتقدم منهما (وما) الواو عاطفة، وما نافية حجازية (أنت) اسم ما (بتابع) الباء حرف جر زائد، وتابع مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما (قبلتهم) مفعول به لاسم." (٢)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٧/٤٤٥
(٢) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ١/٢٠٨

"ويؤمن فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة وهو في محل نصب بأن مضمرة بعد حتى ونون النسوة فاعل والجار والمجرور من حتى والمصدر المؤول متعلقان بتنكحوا (ولأمة) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان الفرق بين المؤمنة والمشركة واللام للابتداء وأمة مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة لوصفها (مؤمنة) صفة لأمة (خير) خبر (من مشركة) الجار والمجرور متعلقان بخير (ولو) الواو للحال ولو شرطية بمعنى إن (أعجبتكم) فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هي يعود على الأمة والكاف مفعول به، وجملة أعجبتكم خبر لكان المحذوفة هي واسمها بعد لو، وجملة لو أعجبتكم حالية والمعنى ولأمة مؤمنة خير من مشركة حال كونها قد أعجبتكم لجمالها ومالها، وسيأتي مزيد بيان لذلك في باب الفوائد (ولا) الواو عاطفة ولا ناهية (تنكحوا) بضم التاء مضارع أنكح مجزوم بلا والواو فاعل (المشركين) مفعول به (حتى يؤمنوا) حتى حرف غاية وجر ويؤمنوا فعل مضارع مجزوم بأن مضمرة بعد حتى (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) تقدم إعراب مثيلتها (أولئك) اسم الإشارة مبتدأ (يدعون إلى النار) الجملة خبر اسم الاشارة والجملة مستأنفة مسوقة لبيان **الحكمة في ذلك**، ولك أن تجعلها مفسرة. وعلى كل حال لا محل لها (والله يدعوا إلى الجنة) عطف على ما تقدم (والمغفرة) عطف على الجنة (بإذنه) الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أي آذنا بذلك (ويبين آياته) عطف على يدعو وآياته مفعول به وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة (للناس) الجار والمجرور متعلقان بيبين (لعلهم) لعل واسمها (يتذكرون) الجملة الفعلية خبر لعل، وجملة الرجاء حالية.." (١)

"متعلقان بأرسلنا ومن حرف جر زائد ونذير مجرور لفظا منصوب محلا على أنه مفعول به وإلا أداة حصر وجملة قال مترفوها حال من قرية وإن كانت نكرة لوقوعها في سياق النفي ومترفوها فاعل قال أي المتنعمون فيها. (إنا بما أرسلتم به كافرون) الجملة مقول قولهم، وإن واسمها وبما متعلقان بكافرون وما موصولة وجملة أرسلتم صلة وأرسلتم بالبناء للمجهول والتاء نائب فاعل وبه متعلقان بأرسلتم وكافرون خبر إن والتقدير إننا كافرون بالذي أرسلتم به. (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) الواو عاطفة وقالوا فعل وفاعل ونحن مبتدأ وأكثر خبر وأموالا تمييز وأولادا عطف على أموالا وما حجازية ونحن اسمها والباء حرف جر زائد ومعذبين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما. (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) إن واسمها وجملة يبسط الرزق خبرها ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ويقدر عطف على يبسط ومعناه يضيقه، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الواو حالية ولكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها ومفعول يعلمون محذوف أي وجه **الحكمة في ذلك** فهو يبسط الرزق للعاصي بطريق الاستدراج والإملاء ويقدره على المطيع بطريق الاختبار والابتلاء. (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى) الواو عاطفة أو استئنافية وما حجازية وأموالكم اسمها ولا أولادكم عطف على أموالكم والباء حرف جر زائد والتي مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس ووصف الأموال والأولاد بالتي لأن جمع التكسير العاقل وغير العاقل يعامل معاملة المؤنثة الواحدة وجملة تقربكم صلة وعندنا ظرف متعلق بمحذوف حال وزلفى مصدر من معنى العامل فهو مفعول." (٢)

---

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٣٢٩/١

(٢) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ١٠١/٨

"عليه وسلم فغاظ هذا القول قريشا وهاج حفيظتها فأمرت بسجن عثمان ثلاثة أيام حتى تنظر في أمره فتناقل الناس الخبر مكبرا حتى وصل معسكر الرسول أن عثمان قد قتل، هنا قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا قائلا: ان كان حقا ما سمعنا فلن نبرح حتى نناجز القوم، البيعة البيعة أيها الناس، فتوافد الناس يبايعون رسول الله تحت الشجرة وكانت سمرة وكان أول من بايعه سنان الأسدي فقال له وهو يبايعه: أبايعك على ما في نفسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما في نفسك؟

قال سنان: أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو اقتل وبايعه الناس على ما بايعه سنان وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين إلى آخر تلك القصة الممتعة التي يرجع إليها من شاء في كتب السير.

الفوائد:

روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوما يأتون الشجرة يصلون عندها فتوعدهم ثم أمر بقطعها فقطعت **والحكمة في ذلك** أن لا يحصل الافتتان بها.

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٦]

ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا (٢٢) سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢٣) وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٢٤) هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما (٢٥) إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦)." (١)

"﴿خلائف﴾ ﴿درجات﴾ ﴿آتاكم﴾

(١٦٥) - والله ربكم ورب كل شيء، هو الذي استخلفكم في الأرض، وجعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل، وخلفا بعد سلف، وقد فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ، والمناظر والأشكال والألوان. . . وله **الحكمة في ذلك** ليختبركم في الذي أنعم به عليكم، ويمتحنكم به، فيختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

ويرهب الله تعالى العباد ويرغبهم، فيقول تعالى: إن حسابه وعقابه لمن خالف رسله وكذب بآياته، سريعان، وإنه غفور رحيم لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من الخير، ولمن تاب وأناب وأحسن العمل.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٩/٢٤٦

خلائف الأرض - يخلف بعضهم بعضا في الأرض.

ليبلوكم - ليختبركم.." (١)

"﴿بالحياة﴾ ﴿الحياة﴾ ﴿الآخرة﴾ ﴿متاع﴾

(٢٦) - وإذا كان هؤلاء المشركون يستعلون، بأموالهم، على المسلمين الفقراء فليعلموا أن الله هو الذي يبسط الرزق ويوسعه على من يشاء، ويقتر الرزق على من يشاء (ويقدر) ، لما له من **الحكمة في ذلك**، وهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد والميثاق يفرحون بما بسط الله لهم من الرزق، وبما آتاهم في الحياة الدنيا استدراجا وإمهالا، مع أن الله يعطي الدنيا المؤمن وغير المؤمن، فلا يظنن أهل المال أن كثرة المال في أيديهم دليل على أنهم على حق.

ثم يقول تعالى لهؤلاء مصغرا شأن الدنيا: إن الدنيا ليست شيئا يذكر بالنسبة إلى الآخرة، وإن هي إلا متاع سريع الزوال.

(ويروي أن رسول الله A مر بجدي صغير الأذنين ميت وملقى في الطريق فقال: " والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه ") . (رواه مسلم) .

يقدر - يضيق على من يشاء لحكمته.

متاع - شيء قليل ذاهب زائل.." (٢)

"(٢٥) - ثم إن الله تعالى يبعث المتقدمين والمتأخرين مرة أخرى، ويحشرهم إليه، يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم، وله **الحكمة في ذلك**، وهو عالم بهم جميعا.." (٣)

"(٣٠) - إن ربك أيها الرسول يبسط الرزق لمن يشاء، ويوسع عليه، ويقتر على من يشاء ويضيق عليه، لما له من **الحكمة في ذلك**، وهو خبير بعباده، فيعرف من يصلحه الغنى فيغنيه، ومن يصلحه الفقر. . وهو بصير بتدبيرهم وتصرفهم.

(وفي الحديث: " إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ") .

يقدر - يضيق على من يشاء لحكمة.." (٤)

"﴿واحدة﴾ ﴿الظالمون﴾

(٨) - ولو شاء الله لجعل الناس جميعا أمة واحدة، لا اختلاف بينهم، ولجمعهم على الهدى أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من شاء عنه، وله **الحكمة في ذلك**. فقد شاء الله أن يكون الإيمان مبنيا على التكليف والاختيار، يدخل فيه المرء بطوعه واختياره، ونتيجة تأمله في الأدلة الموصلة إلى الهدى، وقد أعد الله تعالى

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٩٥٥

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١٧٣٤

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١٨٢٨

(٤) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٢٠٦٠

للكافرين، الظالمين أنفسهم بكفرهم، عذابا أليما، ولا يجدون لهم من ينصرهم من الله، أو يجيرهم من عذابه، فلا تهلك نفسك يا محمد أسى وحزنا على أن لم يكونوا مؤمنين.." (١)

"معنى الآية:

يأمر تعالى رسوله أن يذكر قوله للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة يخلفه في إجراء أحكامه في الأرض، وإن الملائكة تساءلت١ متخوفة من أن يكون هذا الخليفة ممن يسفك الدماء ويفسد في الأرض بالكفر والمعاصي قياسا على خلق من الجن حصل منهم ما تخوفوه. فأعلمهم ربهم أنه يعلم من الحكم والمصالح ما لا يعلمون.

والمراد من هذا التذكير: المزيد من ذكر الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته الموجبة للإيمان به تعالى ولعبادته دون غيره.

هداية الآية:

من هداية الآية:

١- سؤال من لا يعلم غيره ممن يعلم.

٢- عدم انتهار السائل وإجابته أو صرفه بلطف.

٣- معرفة بدء الخلق.

٤- شرف آدم وفضله.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١) قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم (٣٢) قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣) ﴾

---

١ إذ هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك**، وليس هو من باب الاعتراض على الله أبدا.." (٢)

"معنى الآيات:

كأن المشركين قالوا شامتين إن محمدا سيموت، وقالوا نتربص به ريب المنون فأخبر تعالى أنه لم يجعل لبشر من قبل نبيه ولا من بعده الخلد حتى يخلد هو صلى الله عليه وسلم كل نفس ذائقة الموت، ولكن إن مات رسوله فهل المشركون يخلدون والجواب لا، إذا فلا وجه للشماتة بالموت لو كانوا يعقلون. هذا ما دلت عليه الآية الأولى (٣٤) ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم١ الخالدون﴾ وقوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت٢﴾ أي كل نفس منفوسة ذائقة مرارة الموت بمفارقة الروح للبدن، **والحكمة في ذلك** أن يتلقى العبد بعد الموت جزاء عمله خيرا كان أو شرا، دل عليه قوله بعد: ﴿ونبلوكم بالشر والخير﴾ من غنى وفقر ومرض وصحة وشدة ورخاء ﴿فتنة﴾ أي لأجل فتنتكم أي اختباركم ليرى الصابر الشاكر

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٤١٥٩

(٢) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ١/٤١

والجزع الكافر. وقوله تعالى: ﴿وإلينا ترجعون﴾ أي بعد الموت للحساب والجزاء على كسبكم خيره وشره.
وقوله تعالى: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا﴾ يخبر تعالى رسوله بأن المشركين إذا رأوه ما يتخذونه إلا هزوا وذلك لجهلهم بمقامه وعدم معرفتهم فضله عليهم وهو حامل الهدى لهم، وبين وجه استهزائهم به صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي بعيبها وانتقاصها، قال تعالى: ﴿وهم بذكر الرحمن٣ هم كافرون﴾ أي عجبا لهم يتألمون لذكر ألهتم بسوء وهي محط السوء فعلا، ولا يتألمون لكفرهم بالرحمن ربهم سبحانه وتعالى حتى إنهم أنكروا أن يكون اسم الرحمن اسما لله تعالى وقالوا لا رحمن إلا رحمن اليمامة.
وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان٤ من عجل﴾ قال تعالى هذا لما استعجل المشركون

---

١ الاستفهام مقدر أي: أفهم الخالدون؟ وهو للنفي والإنكار كقول الشاعر:

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع

فقلت وأنكسرت الوجوه هم هم

أي: أهم؟ ومعنى رفوني سكنوني يقال رفاه إذا سكنه.

٢ يروى أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قد استشهد بالبيتين الآتيين:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى

تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

٣عجبا لجهلهم وسوء فهمهم يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم يجحدون إلهية الرحمن إن هذا لغاية الجهل والغرور.

٤ إن طبع الإنسان العجلة إنه يستعجل الأشياء وإن كان فيها مضرته، ولفظ الإنسان جائز أن لا يكون المراد به جنس الإنسان أو آدم عليه السلام قال سعيد بن جبير لما دخل الروح في عين آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، فذلك قوله تعالى ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ .." (١)

"وجملة الأمر بالشكر، وجملة النهي عن الكفران. فبدىء أولا بجملة الذكر، لأنه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى، وذكر له جواب مترتب عليه. وثنى بجملة الشكر، لأنه ثناء على شيء خاص، وقد اندرج تحت الأول، فهو بمنزلة التوكيد، فلم يحتج إلى جواب. وختم بجملة النهي، لأنه لما أمر بالشكر، لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات. ونهى عن الكفران، لأن النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان، وذلك ممكن لأنه من باب التروك. وقد تقدم لنا الكلام على أنه إذا كان أمر ونهي، بدىء بالأمر. وذكرنا **الحكمة في ذلك** في قوله: وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به»

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٤١٢/٣

، فأغنى عن إعادته هنا.

يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة، قيل: سبب نزول هذه الآية أن المشركين قالوا: سيرجع محمد إلى ديننا، كما رجع إلى قبلتنا. هزهم بهذا النداء المتضمن هذا الوصف الشريف، وهو الإيمان مجعولا فعلا ماضيا في صلة الذين، دالا على الثبوت والالتباس به في تقدم زمانهم، ليكونوا أدعى لقبول ما يرد عليهم من الأمر والتكليف الشاق، لأن الصبر والصلاة هما ركنا الإسلام. فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة، وهو أمر قلبي والصلاة ثمرته، وهي من أشق التكاليف لتكررها.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، لأنهم سمعوا من طعن الكفار على التوجه إلى الكعبة والصلاة إليها أذى كثيرا، فأمروا عند ذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة. وقد قيد بعضهم الصبر هنا: بأنه الصبر على أذى الكفار بالطعن على التحول والصلاة إلى الكعبة، وبعضهم بالصبر على أداء الفرائض. وروي عن ابن عباس وبعضهم قال: هو كناية عن الصوم، ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر، وبعضهم قال: هو كناية عن الجهاد لقوله، بعد: ولا تقولوا لمن يقتل، وهو قول أبي مسلم. والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ، فتندرج هذه الأفراد تحته.

وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس له.

وقد تقدم الكلام على شرح هذه الجملة من قوله: استعينوا بالصبر والصلاة.

إن الله مع الصابرين: أي بالمعونة والتأييد، كما قال: اهجهم، وروح القدس

---

(١) سورة البقرة: ٢/ ٤١.." (١)

"آمنت، ولكن اشتقت إلى قولك: أو لم تؤمن؟ فإني بقولك: أو لم تؤمن؟ يطمئن قلبي والمحب أبدا يجتهد في أن يجد خطاب حبيبه على أي وجه أمكنه.

قال: فخذ أربعة من الطير لما سأل رؤية كيفية إحياء الموتى أجابه تعالى لذلك، وعلمه كيف يصنع أولا، فأمره أن يأخذ أربعة من الطير، ولم يذكر الله تعالى تعيين الأربعة من أي جنس هي من الطير، فيحتمل أن يكون المأمور به معينا، وما ذكر تعيينه، ويحتمل أن يكون أمر بأخذ أربعة، أي أربعة كانت من غير تعيين، إذ لا كبير علم في ذكر التعيين.

وقد اختلفوا فيما أخذ، فقال ابن عباس: أخذ طاووسا ونسرا وديكا وغرابا. وقال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وابن جريج، وابن زيد: كذلك، إلا أنهم جعلوا حمامة بدل النسر. وقال ابن عباس أيضا، فيما روى عبد الرحمن بن هبيرة عنه: أخذ حمامة وكركيا وديكا وطاووسا. وقال في رواية الضحاك: أخذ طاووسا وديكا ودجاجة سندية وأوزة. وقال في رواية أخرى عن الضحاك: أنه مكان الدجاجة السندية: الرأل، وهو فرخ النعام. وقال مجاهد فيما روى ليث: ديك وحمامة وبطة وطاووس. وقال: ديك وحمامة وبطة وغراب.

وزاد عطاء الخراساني وصفا في هذه الأربعة فقال: ديك أحمر، وحمامة بيضاء، وبطة خضراء، وغراب أسود.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥١/٢

وقال أبو عبد الله: طاووس وحمامة وديك وهدهد، ولما سأل ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى، وكان لفظ الموتى جمعا، أجيب بأن يأخذ ما مدلوله جمع، لا أن يأخذ واحدا.

قيل: وخص هذا العدد بعينه إشارة إلى الأركان الأربعة التي في تركيب أبدان الحيوانات والنباتات، وكانت من الطير، قيل لأن الطير همته الطيران في السماء والارتفاع، والخليل عليه السلام كانت همته العلو والوصول إلى الملكوت، فجعلت معجزته مشاكلة لهمته، وعلى القول الأول في تعيين الأربعة بما عين قيل: خص الطاووس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة والجاه والترفع، والنسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وطول الأمل، والديك إشارة إلى شدة الشغف بقضاء شهوة النكاح، والغراب إشارة إلى شدة الحرص والطلب. وما أبدوه في تخصيص الأربعة وفي تعيينها لا تكاد تظهر حكمته فيما ذكروه، وما أجراه الله تعالى لأنبيائه من الخوارق مختلف، وحكمة اختصاص كل نبي بما أجرى الله له منها مغيبة عنا. ألا ترى خرق العادة لموسى في أشياء، ولعيسى في أشياء غيرها، ولرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم في أشياء لا يظهر لنا سر **الحكمة في ذلك؟** فكذلك كون هذه الأربعة من الطير، لا يظهر لنا سر حكمته في ذلك.." (١)

"وقال محمد بن كعب القرظي: بأسماء أمهاتهم، فيكون جمع «أم» ، كخف وخفاف، لكن في الحديث: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم» «١» ، ولعل ما قاله القرظي مخصوص بأولاد الزنا. وفي البيضاوي: قيل: بأمهاتهم، **والحكمة في ذلك**: إجلال عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين، وألا يفتضح أولاد الزنى. هـ.

وقال أبو الحسن الصغير: قيل لأبي عمران: هل يدعى الناس بأمهاتهم يوم القيامة أو بآبائهم؟ قال: قد جاء في ذلك شيء أنهم يدعون بأمهاتهم فلا يفتضحوا. وفي البخاري- باب يدعى الناس بآبائهم، وساق حديث ابن عمر: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة. يقال: هذه غدرة فلان ابن فلان» «٢» ، فظاهر الحديث أنهم يدعون بآبائهم، وهو الراجح، إلا فيمن لا أب له. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: فمن أوتي كتابه بيمينه أي: فمن أوتي صحيفة أعماله، يومئذ، من أولئك المدعوين بيمينه إظهارا لخطر الكتاب، وتشريفا لصاحبه، وتبشيرا له من أول الأمر، فأولئك يقرؤن كتابهم المؤتى لهم. والإشارة إلى «من» : باعتبار معناها لأنها واقعة على الجمع إيذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل، وإشعارا بأن قراءتهم لكتبهم يكون على وجه الاجتماع، لا على وجه الانفراد كما في حال الدنيا. وأتى بإشارة البعيد إشعارا برفع درجاتهم، أي: أولئك المختصون بتلك الكرامة، التي يشعر بها الإيتاء المذكور، يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ولا ينقصون من أجور أعمالهم المرسومة في صحيفتهم أدنى شيء، فإن الفتيل- وهو:

قشر النواة- مثل في القلة والحقارة.

ثم ذكر أهل الأخذ بالشمال فقال: ومن كان في هذه الدنيا، التي فعل بهم ما فعل من فنون التكريم والتفضيل، أعمى فاقد البصيرة، لا يهتدي إلى رشده، ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل، فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمل ما أودعنا فيه من العقل والقوى، فيما خلق له من العلوم والمعارف، فهو في الآخرة أعمى كذلك، لا يهتدي إلى

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢/٦٤٥

ما ينجيه مما يرديه لأن النجاة من العذاب والتنعم بأنواع النعم الأخروية مرتب على العمل في الدنيا، ومعرفة الحق، ومن عمي عنه في الدنيا فهو في الآخرة أشد عمى عما ينجيه، وأضل سبيلا عنه لزوال الاستعداد الممكن لسلوك طريق النجاة. وهذا بعينه هو الذي أخذ كتابه

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) ، وأبو داود فى (الأدب، باب فى تغيير الأسماء) عن أبي الدرداء، وصححه الهيثمي فى المجمع (٣/ ٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري فى (كتاب الأدب، باب يدعى الناس بآبائهم) .." (١)

"ثم قال تعالى: وأن ألق عصاك، أي: نودي: أن ألق عصاك، فألقاها، فقلبها الله ثعبانا، فلما رآها تهتز تتحرك كأنها جان حية رقيقة. فإن قيل: كيف قال في موضع: (كأنها جان) ، وفي أخرى: فإذا هي ثعبان مبين «١» ؟ قلت: هي في أول أمرها جان، وفي آخر أمرها ثعبان لأنها كانت تصير حية على قدر العصا، ثم لا تزال تنتفخ حتى تصير كالثعبان، أو: يريد في سرعة الجان وخفته، وفي قوة الثعبان. فلما رآها كذلك ولى مدبرا ولم يعقب ولم يرجع عقبه. فقيل له: يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين، أي:

أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

واسلك: أدخل يدك في جيبك جيب قميصك تخرج بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس من غير سوء برص. واضمم إليك جناحك من الرهب، أي: الخوف، فيه لغات: «الرهب» ، بفتحتين، وبالفتح والسكون، وبالضم معه، وبضمتين. والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية، وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كل خائف، إذا وضع يده على صدره، ذهب خوفه) «٢» . وقيل:

المراد بضم يده إلى جناحه تجلده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما.

فذانك أي: اليد والعصا، ومن شدد فإحدى النونين عوض من المحذوف، برهانان أي: حجتان نيرتان. وسميت الحجة برهانا لإنارتها، من قولهم: بره الشيء: إذا ابيض، والمرأة برهاء وبرهرهة: أي: بيضاء.

من ربك إلى فرعون وملائه أي: أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين، إنهم كانوا قوما فاسقين: خارجين عن الحق، كافرين بالله ورسوله.

الإشارة: قد تقدم في سورة «طه» «٣» بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد، بعد كمال تربيته، كمال، وأما قبل كماله: فإن كان بإذن شيخه فلا يضره. وربما يترقى له اليقين أكثر من غيره. قوله تعالى: وسار بأهله قال الورتجبي: افهم أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار. هـ.

وقوله تعالى: آنست نارا قال الورتجبي: **الحكمة في ذلك**: أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة، لذلك تجلى النور في

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢١٩/٣

النار لاستئناسه بلباس [الاستئناس] «٤» ، ولا تخلو النار من الاستئناس، خاصة في الشتاء، وكان شتاء، فتجلى الحق بالنور في لباس النار لأنه كان في طلب النار، فأخذ الحق مراده، وتجلى من حيث إرادته، وهو سنة الله تعالى. هـ.

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٢٠٧) .

(٣) راجع المجلد الثالث، ص: ٣٨٢- ٣٨٣.

(٤) فى الورتجي: «الالتباس» .." (١)

"رب الدار، وشبه ذلك، فبدأ به لاشتراك معناه، وأما الملك فلا يوصف به إلا آحاد من الناس، وهم الملوك، ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس، فلذلك جيء به بعد الرب، وأما الإله فهوأعلى من الملك، ولذلك لا يدعي الملوك أنهم آلهة، وإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير قاله ابن جزي.

﴿من شر الوسواس﴾ أي: الموسوس، فالوسواس مصدر، كالزلزال، بمعنى اسم الفاعل، أو سمي به الشيطان مبالغة، كأنه نفس الوسوسة، و ﴿الخناس﴾ الذي عادته أن يخنس، أي: يتأخر عند ذكر الإنسان ربه، ﴿الذي يوسوس في صدور الناس﴾ إذا غفلوا عن ذكر الله، ولم يقل: في قلوب الناس؛ لأن الشيطان محله الصدور، ويمد منقاره إلى القلب، وأما القلب فهو بيت الرب، وهو محل الإيمان، فلا يتمكن منه كل التمكن، وإنما يحوم في الصدر حول القلب، فلو تمكن منه لأفسد على الناس كلهم إيمانهم.

قال ابن جزي: وسوسة الشيطان بأنواع كثيرة، منها: فساد الإيمان والتشكيك في العقائد، فإن لم يقدر على ذلك ثبطه عن الطاعات، فإن لم يقدر على ذلك أدخل الرياء في الطاعات ليحبطها، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه، واستكثار عمله، ومن ذلك: أنه يوقد في القلب نار الحسد والحقد والغضب، حتى يقود الإنسان إلى سوء الأعمال وأقبح الأحوال. وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء، وهي: الإكثار من ذكر الله، والإكثار من الاستعاذة منه، ومن أنفع شيء في ذلك: قراءة سورة الناس. هـ. قلت: لا يقلع الوسوسة من القلب بالكلية إلا صحبة العارفين، أهل التربية، حتى يدخلوه مقام الفناء، وإلا فالخواطر لا تنقطع عن العبد.

ثم بين الموسوس بقوله: ﴿من الجنة﴾ أي: الجن ﴿والناس﴾ ووسواس النار أعظم؛ لأن وسواس الجن يذهب بالتعوذ، بخلاف وسوسة الناس، والمراد بوسوسة الناس: ما يدخلون عليك من الشبه في الدين، وخوض في الباطن، أو سوء اعتقاد في الناس، أو غير ذلك.

قال ابن جزي: فإن قلت: لم ختم القرآن بالمعوذتين، وما **الحكمة في ذلك؟** فالجواب من ثلاثة أوجه، الأول: قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما كان القرأن من أعظم نعم الله على عباده، والنعمة مظنة الحسد، ختم بما يطفىء الحسد،

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/٢٤٩

من الاستعاذة بالله. الثاني: يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما: " أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط "كما قال في فاتحة الكتاب: " لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها " فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين." (١)

"تركوا الحكم بالإنجيل لا يتعجب منهم أن يكفروا بمحمد. وكذلك

حديث عبد الله بن مسعود قال لما نزل قوله تعالى: الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا أينا لم يلبس إيمانه بظلم (ظنوا أن الظلم هو المعصية) . فقال رسول الله: إنه ليس بذلك؟ ألا تسمع لقول لقمان لابنه: إن الشرك لظلم عظيم

[لقمان: ١٣] . ومن هذا القسم مالا يبين مجملا ولا يؤول متشابها ولكنه يبين وجه تناسب الآي بعضها مع بعض كما في قوله تعالى: في سورة النساء [٣] وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء الآية، فقد تخفى الملازمة بين الشرط وجزائه فيبينها ما في «الصحيح» عن عائشة أن عروة بن الزبير سألها عنها فقالت: «هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن» .

هذا وإن القرآن كتاب جاء لهدي أمة والتشريع لها، وهذا الهدي قد يكون واردا قبل الحاجة، وقد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غير هما، وقد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية، **والحكمة في ذلك** أن يكون وعي الأمة لدينها سهلا عليها، وليمكن تواتر الدين، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط، وإلا فإن الله قادر أن يجعل القرآن أضعاف هذا المنزل وأن يطيل عمر النبي صلى الله عليه وسلم للتشريع أكثر مما أطال عمر إبراهيم وموسى، ولذلك قال تعالى:

وأتممت عليكم نعمتي [المائدة: ٣] ، فكما لا يجوز حمل كلماته على خصوصيات جزئية لأن ذلك يبطل مراد الله، كذلك لا يجوز تعميم ما قصد منه الخصوص ولا إطلاق ما قصد منه التقييد لأن ذلك قد يقضي إلى التخليط في المراد أو إلى إبطاله من أصله، وقد اغتر بعض الفرق بذلك، قال ابن سيرين في الخوارج: إنهم عمدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير بالذنب، وقد قال الحورية لعلي رضي الله عنه يوم التحكيم إن الحكم إلا لله [الأنعام: ٥٧]

فقال علي «كلمة حق أريد بها باطل»

وفسرها في خطبة له في «نهج البلاغة» .

وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي أن في نزول القرآن عند حدوث

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٧٨/٧

حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين.." (١)

"واختلاف هاته الإطلاقات مقالات ملأت الفضاء، وكانت للمخالفين كحجر المضاء، فلما قيض الله أعلاما نفوا ما شاكها، وفتحوا أغلاقها، تبين أن الجواز الإمكاني في الجميع ثابت لأن الله تعالى يفعل ما يشاء لو شاء، لا يخالف في ذلك مسلم. وثبت أن الجواز الملائم للحكمة منتف عندنا وعند المعتزلة وإن اختلفنا في تفسير الحكمة لاتفاق الكل على أن فائدة التكليف تنعدم إذا كان المكلف به متعذر الوقوع. وثبت أن الممتنع لتعلق العلم بعدم وقوعه مكلف به جوازا ووقوعا، وجل التكاليف لا تخلو من ذلك، وثبت ما هو أخص وهو رفع الحرج الخارجي عن الحد المتعارف، تفضلا من الله لقوله: وما جعل عليكم في الدين من حرج [الحج: ٧٨] وقوله:

علم أن لن تحصوه فتاب عليكم [المزمل: ٢٠] أي لا تطيقونه كما أشار إليه ابن العربي في «الأحكام» .

هذا ملاك هاته المسألة على وجه يلتئم به متناثرها، ويستأنس متنافرها. وبقي أن نبين لكم وجه تعلق التكليف بمن علم الله عدم امتثاله أو بمن أخبر الله تعالى بأنه لا يمتثل كما في هاته الآية، وهي أخص من مسألة العلم بعدم الوقوع إذ قد انضم الإخبار إلى العلم كما هو وجه استدلال المستدل بها، فالجواب أن من علم الله عدم فعله لم يكلفه بخصوصه ولا وجه له دعوة تخصه إذ لم يثبت أن النبيء صلى الله عليه وسلم خص أفرادا بالدعوة إلا وقد آمنوا كما خص عمر بن الخطاب حين جاءه،

بقوله: «أما آن لك يا ابن الخطاب أن تقول لا إله إلا الله»

وقوله لأبي سفيان يوم الفتح قريبا من تلكم المقالة، وخص عمه أبا طالب بمثلها، ولم تكن يومئذ قد نزلت هذه الآية، فلما كانت الدعوة عامة وهم شملهم العموم بطل الاستدلال بالآية وبالدليل العقلي، فلم يبق إلا أن يقال لماذا لم يخصص من علم عدم امتثاله من عموم الدعوة، ودفع ذلك أن تخصيص هؤلاء يطيل الشريعة ويجرىء غيرهم ويضعف إقامة الحجة عليهم، ويوهم عدم عموم الرسالة، على أن الله تعالى قد اقتضت حكمته الفصل بين ما في قدره وعلمه، وبين ما يقتضيه التشريع والتكليف، وسر **الحكمة في ذلك** بيناه في مواضع يطول الكلام بجلبها ويخرج من غرض التفسير، وأحسب أن تفطنكم إلى مجمله ليس بعسير.." (٢)

"فلما كان التحريض بعد ذلك على استدامة الدعوة إلى الدين محتاجا لبيان **الحكمة في ذلك** بينت الحكمة بأن الله هو أعلم بمصير الناس وليس ذلك لغير الله من الناس فما عليك إلا البلاغ، أي فلا تيأس من هدايتهم ولا تتجاوز إلى حد الحزن على عدم اهتدائهم لأن العلم بمن يهتدي ومن يضل موكول إلى الله وإنما عليك التبليغ في كل حال. وهذا قول فصل بين فريق الحق وفريق الباطل.

وقدم العلم بمن ضل لأنه المقصود من التعليل لأن دعوتهم أوكد والإرشاد إلى اللين

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٠/١

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٥٣/١

في جانبهم بالموعظة الحسنة والمجادلة الحسنى أهم، ثم أتبع ذلك بالعلم بالمهتدين على وجه التكميل.

وفيه إيماء إلى أنه لا يدري أن يكون بعض من أيس من إيمانه قد شرح الله صدره للإسلام بعد اليأس منه.

وتأكيد الخبر بضمير الفصل للاهتمام به. وأما إن فهي في مقام التعليل ليست إلا لمجرد الاهتمام، وهي قائمة مقام فاء التفريع على ما أوضحه عبد القاهر في دلائل الإعجاز فإن إفادتها التأكيد هنا مستغنى عنها بوجود ضمير الفصل في الجملة المفيدة لقصر الصفة على الموصوف، فإن القصر تأكيد على تأكيد.

وإعادة ضمير الفصل في قوله: وهو أعلم بالمهتدين للتنصيص على تقوية هذا الخبر لأنه لو قيل: وأعلم بالمهتدين، لاحتمل أن يكون معطوفا على جملة هو أعلم بمن ضل على أنه خبر (لإن) غير داخل في حيز التقوية بضمير الفصل، فأعيد ضمير الفصل لدفع هذا الاحتمال.

ولم يقل: وبالمهتدين، تصريحا بالعلم في جانبهم ليكون صريحا في تعلق العلم به.

وهذان القصران إضافيان، أي ربك أعلم بالضالين والمهتدين، لا هؤلاء الذين يظنون أنهم مهتدون وأنكم ضالون.." (١)

"المقام للأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقا، وإلى قوله: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا [الفرقان: ١] في مقام كونه فارقا بين الحق والباطل، ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعنى فرقناه جعلناه فرقا، أي أنزلناه منجما مفرقا غير مجتمع صبرة واحدة.

يقال: فرق الأشياء إذا باعد بينها، وفرق الصبرة إذا جزأها. ويطلق الفرق على البيان لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون فرقناه محتملا معنى بيناه وفصلناه، وإذ قد كان قوله: قرآنا حالا من ضمير فرقناه آل المعنى إلى: أنا فرقناه وأقرأناه.

وقد علل بقوله: لتقرأه على الناس على مكث. فهما علتان: أن يقرأ على الناس وتلك علة لجعله قرآنا، وأن يقرأ على مكث، أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه.

والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين.

وجملة ونزلناه تنزيلا معطوفة على جملة وقرآنا فرقناه. وفي فعل نزلناه المضاعف وتأكيده بالمفعول المطلق إشارة إلى تفريق إنزاله المذكور في قوله: وبالحق أنزلناه [الإسراء: ١٠٥] .

وطوي بيان الحكمة للاجتزاء بما في قوله: لتقرأه على الناس على مكث من اتحاد الحكمة. وهي ما صرح به قوله تعالى: كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا [الفرقان: ٣٢] .

ويجوز أن يراد: فرقنا إنزاله رعيا للأسباب والحوادث. وفي كلام الوجهين إبطال لشبهتهم إذ قالوا: لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة [الفرقان: ٣٢] .." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤/٣٣٣

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥/٢٣١

"بل حياة روحية، لكنها زائدة على مطلق حياة الأرواح، فإن للأرواح كلها حياة وهي عدم الاضمحلال وقبول التجسد في الحشر مع إحساس ما بكونها آئلة إلى نعيم أو جحيم، وأما حياة الذين قتلوا في سبيل الله فهي حياة مشتملة على إدراكات التنعم بلذات الجنة والعوالم العلوية والانكشافات الكاملة، ولذلك

ورد في الحديث «إن أرواح الشهداء تجعل في حواصل طيور خضر ترعى من ثمر الجنة وتشرب من مائها»

. **والحكمة في ذلك** أن اتصال اللذات بالأرواح متوقف على توسط الحواس الجسمانية، فلما انفصلت الروح عن الجسد عوضت جسدا مناسبا للجنة ليكون وسيلة لنعميها.

[١٥٥، ١٥٧]

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٥٥ إلى ١٥٧]

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين (١٥٥) الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون (١٥٦) أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (١٥٧)

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات.

عطف: ولنبلونكم على قوله: استعينوا بالصبر والصلاة [البقرة: ١٥٣] عطف المقصد على المقدمة كما أشرنا إليه قبل، ولك أن تجعل قوله: ونبلوكم عطفا على قوله: ولأتم نعمتي عليكم [البقرة: ١٥٠] الآيات ليعلم المسلمين أن تمام النعمة ومنزلة الكرامة عند الله لا يحول بينهم وبين لحاق المصائب الدنيوية المرتبطة بأسبابها، وأن تلك المصائب مظهر لثباتهم على الإيمان ومحبة الله تعالى والتسليم لقضائه فينالون بذلك بهجة نفوسهم بما أصابهم في مرضاة الله ويزدادون به رفعة وزكاء، ويزدادون يقينا بأن اتباعهم لهذا الدين لم يكن لنوال حظوظ في الدنيا، وينجر لهم من ذلك ثواب، ولذلك جاء بعده وبشر الصابرين وجعل قوله: يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة [البقرة:

١٥٣] الآية بين هذين المتعاطفين ليكون نصيحة لعلاج الأمرين تمام النعمة والهدى والابتلاء، ثم أعيد عليه ما يصير الجميع خبرا بقوله: وبشر الصابرين.

وجيء بكلمة (شيء) تهوينا للخبر المفجع، وإشارة إلى الفرق بين هذا الابتلاء وبين الجوع والخوف اللذين سلطهما الله على بعض الأمم عقوبة، كما في قوله: فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون [النحل: ١١٢] ولذلك جاء هنا بكلمة (شيء) وجاء

هنالك بما يدل على الملابسة والتمكن، وهو أن استعار لها اللباس الملازم للابس، لأن كلمة (شيء) من أسماء الأجناس." (١)

"يتلقى بهما نعمة ربه وبلاءه وكيف لم يفطر على الخلق الأكمل ليتلقى النعمة بالشكر، والضر بالصبر والضراعة، وسؤالا أيضا عن سبب إذاقة الإنسان النعمة مرة والبؤس مرة فيبطر ويكفر وكيف لم يجعل حاله كفافا لا لذات له ولا بلايا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٤/٢

كحال العجماوات فكان جوابه: أن الله المتصرف في السماوات والأرض يخلق فيهما ما يشاء من الذوات وأحوالها. وهو جواب إجمالي إقناعي يناسب حضرة الترفع عن الدخول في المجادلة عن الشؤون الإلهية.

وفي قوله: يخلق ما يشاء من الإجمال ما يبعث المتأمل المنصف على تطلب **الحكمة في ذلك** فإن تطلبها انقادت له كما أومأ إلى ذلك تذييل هذه الجملة بقوله: إنه عليم قدير، فكأنه يقول: عليكم بالنظر في الحكمة في مراتب الكائنات وتصرف مبدعها، فكما خلق الملائكة على أكمل الأخلاق في جميع الأحوال، وفطر الدواب على حد لا يقبل كمال الخلق، كذلك خلق الإنسان على أساس الخير والشر وجعله قابلا للزيادة منهما على اختلاف مراتب عقول أفراده وما يحيط بها من الاقتداء والتقليد، وخلقه كامل التمييز بين النعمة وضدها ليرتفع درجات وينحط دركات مما يختاره لنفسه، ولا يلائم فطر الإنسان على فطرة الملائكة حالة عالمه المادي إذ لا تأهل لهذا العالم لأن يكون سكانه كالملائكة لعدم الملاءمة بين عالم المادة وعالم الروح. ولذلك لما تم خلق الفرد الأول من الإنسان وآن أوان تصرفه مع قرينته بحسب ما بزغ فيهما من القوى، لم يلبث أن نقل من عالم الملائكة إلى عالم المادة كما أشار إليه قوله تعالى: قال اهبطا منها جميعا [طه: ١٢٣] .

ولكن الله لم يسد على النوع منافذ الكمال فخلقه خلقا وسطا بين الملكية والبهيمية إذ ركبه من المادة وأودع فيه الروح ولم يخله عن الإرشاد بواسطة وسطاء وتعاقبهم في العصور وتناقل إرشادهم بين الأجيال، فإن اتبع إرشادهم التحق بأخلاق الملائكة حتى يبلغ

المقامات التي أقامته في مقام الموازنة بين بعض أفراده وبين الملائكة في التفاضل. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى [طه: ١٢٣، ١٢٤] ،." (١)

"من فظيع توغلهم في الإعراض عن التوحيد الذي كان عليه أبوهم فكان موقع بل في هذه الآية أبلغ من موقعها في قول لبيد:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت ... وتقطعت أسبابها ورمامها

إذ كان انتقاله اقتضابا وكان هنا تخلصا حسنا.

وهؤلاء إشارة إلى غير مذكور في الكلام، وقد استقريت أن مصطلح القرآن أن يريد بمثله مشركي العرب، ولم أر من اهتدى للتنبيه عليه، وقد قدمته عند قوله تعالى:

وجئنا بك على هؤلاء شهيدا في سورة النساء [٤١] وفي مواضع أخرى.

والمراد بآبائهم آباؤهم الذين سنوا عبادة الأصنام مثل عمرو بن لحي والذين عبدوها من بعده. وتمتيع آبائهم تمهيد لتمتيع هؤلاء، ولذلك كانت غاية التمتيع مجيء الرسول فإن مجيئه لهؤلاء. والتمتيع هنا التمتيع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدل عليه الغاية في قوله: حتى جاءهم الحق ورسول مبين.

والمراد ب الحق القرآن كما يدل عليه قوله: ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر [الزخرف: ٣٠] وقوله: وقالوا لولا نزل هذا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٣٧/٢٥

القرآن على رجل من القريتين عظيم [الزخرف: ٣١] وهذه الآية ثناء راجع على القرآن متصل بالثناء عليه الذي افتتحت به السورة.

فإنه لما جاء القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم انتهى التمتيع وأخذوا بالعذاب تدريجا إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين، وهدى الله للإسلام من بقي يوم فتح مكة وأيام الوفود. وهذا في معنى قوله تعالى: وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم في سورة هود [٤٨] .

والحق الذي جاءهم هو: القرآن، والرسول المبين: محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه ب مبين لأنه أوضح الهدى ونصب الأدلة وجاء بأفصح كلام. فالإبانة راجعة إلى معاني دينه وألفاظ كتابه. **والحكمة في ذلك** أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق من عقب إبراهيم بالانتشال." (١)

"نكاح الإماء المسلمات مشروطا بالعجز عن الحرائر المسلمات، فحصل من ذلك أن يكون مشروطا بالعجز عن الكتابيات أيضا بقاعدة قياس المساواة. وعلة ذلك أن نكاح الأمة يعرض الأولاد للرق، بخلاف نكاح الكتابية، فتعطيل مفهوم قوله: المؤمنات مع المحصنات حصل بأدلة أخرى، فلذلك ألغوا الوصف هنا، وأعملوه في قوله: من فتياتكم المؤمنات. وشذ بعض الشافعية، فاعتبروا رخصة نكاح الأمة المسلمة مشروطة بالعجز عن الحرة المسلمة، ولو مع القدرة على نكاح الكتابية، وكأن فائدة ذكر وصف المؤمنات هنا أن الشارع لم يكترث عند التشريع بذكر غير الغالب المعتبر عنده، فصار المؤمنات هنا كاللقب في نحو (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) .

والفتيات جمع فتاة، وهي في الأصل الشابة كالفتي، والمراد بها هنا الأمة أطلق

عليها الفتاة كما أطلق عليها الجارية، وعلى العبد الغلام، وهو مجاز بعلاقة اللزوم، لأن العبد والأمة يعاملان معاملة الصغير في الخدمة، وقلة المبالاة. ووصف المؤمنات عقب الفتيات مقصود للتقييد عند كافة السلف، وجمهور أيمة الفقه، لأن الأصل أن يكون له مفهوم، ولا دليل يدل على تعطيله، فلا يجوز عندهم نكاح أمة كتابية. **والحكمة في ذلك** أن اجتماع الرق والكفر يباعد المرأة عن الحرمة في اعتبار المسلم، فيقل الوفاق بينهما، بخلاف أحد الوصفين. ويظهر أثر ذلك في الأبناء إذ يكونون أرقاء مع مشاهدة أحوال الدين المخالف فيمتد البون بينهم وبين أبيهم. وقال أبو حنيفة: موقع وصف المؤمنات هنا كموقعه مع قوله: المحصنات المؤمنات، فلم يشترط في نكاح الأمة كونها مؤمنة، قال أبو عمر بن عبد البر: ولا أعرف هذا القول لأحد من السلف إلا لعمرو بن شرحبيل- وهو تابعي قديم روى عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ولأن أبا حنيفة لا يرى إعمال المفهوم.

وتقدم آنفا معنى ملكت أيمانكم.

والإضافة في قوله: أيمانكم وقوله: من فتياتكم للتقريب وإزالة ما بقي في نفوس العرب من احتقار العبيد والإماء والترفع عن

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٩٧/٢٥

نكاحهم وإنكاحهم، وكذلك وصف المؤمنات، وإن كنا نراه للتقيد فهو لا يخلو مع ذلك من فائدة التقريب، إذ الكفاءة عند مالك تعتمد الدين أولا.." (١)

"فقلت له ارفعها إليك فأحيها ... بروحك واقتته لها قيتة قدرا

(أي بنفخك) .

وتلقيب عيسى بالروح طفحت به عبارات الأناجيل. و (من) ابتدائية على التقادير.

فإن قلت: ما حكمة وقوع هذين الوصفين هنا على ما فيهما من شبهة ضلت بها النصارى، وهلا وصف المسيح في جملة القصر بمثل ما وصف به محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي [الكهف: ١١٠] فكان أصرح في بيان العبودية، وأنفى للضلال.

قلت: **الحكمة في ذلك** أن هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل، أو في كلام الحواريين وصفا لعيسى- عليه السلام-، وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ، فلما تغيرت أساليب اللغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل، أي أن قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة الله وبروح الله، وليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنه ابن الله وأنه إله.

وتصدير جملة القصر بأنه رسول الله ينادي على وصف العبودية إذ لا يرسل الإله إلها مثله، ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح.

فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا الفاء للتفريع عن جملة القصر وما بنيت عليه. أي إذا وضح كل ما بينه الله." (٢)

"[سورة المائدة (٥) : آية ٩٥]

يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام (٩٥)

استئناف لبيان آية: ليبلونكم الله بشيء من الصيد [المائدة: ٩٤] أو لنسخ حكمها أن كانت تضمنت حكما لم يبق به عمل. وتقدم القول في معنى وأنتم حرم في طالع هذه السورة [المائدة: ١] .

واعلم أن الله حرم الصيد في حالين: حال كون الصائد محرما، وحال كون الصيد من صيد الحرم، ولو كان الصائد حلالا **والحكمة في ذلك** أن الله تعالى عظم شأن الكعبة من عهد إبراهيم- عليه السلام- وأمره بأن يتخذ لها حرما كما كان الملوك يتخذون الحمى، فكانت بيت الله وحماه، وهو حرم البيت محترما بأقصى ما يعد حرمة وتعظيما فلذلك شرع الله حرما للبيت واسعا وجعل الله البيت أمنا للناس ووسع ذلك الأمن حتى شمل الحيوان العائش في حرمه بحيث لا يرى الناس للبيت إلا أمنا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٤/٥

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٥٣/٦

للعائذ به وبحرمه. قال النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل فالسند

فالتحريم لصيد حيوان البر، ولم يحرم صيد البحر إذ ليس في شيء من مساحة الحرم بحر ولا نهر. ثم حرم الصيد على المحرم بحج أو عمرة، لأن الصيد إثارة لبعض الموجودات الآمنة. وقد كان الإحرام يمنع المحرمين القتال ومنعوا التقاتل في الأشهر الحرم لأنها زمن الحج والعمرة فألحق مثل الحيوان في الحرمة بقتل الإنسان، أو لأن الغالب أن المحرم لا ينوي الإحرام إلا عند الوصول إلى الحرم، فالغالب أنه لا يصيد إلا

حيوان الحرم.." (١)

"قلت: فإن قيل: هلا أنزل القرآن دفعة واحدة وحفظه إذا كان ذلك في قدرته؟ قيل: في قدرة الله أن يعلمه الكتاب والقرآن في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه.

لا يسأل عما يفعل -جل وعلا-.

وقد بينا وجه **الحكمة في ذلك**، وقد قيل: إن قوله ﴿كذلك﴾ من كلام المشركين: أي لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك.

يعني كما أنزل الكتب السابقة.

أي: كالتوراة والإنجيل، فيتم الوقف على ﴿كذلك﴾ ثم يبتدئ ﴿ولنثبت به فؤادك﴾ [(٣٢) سورة الفرقان].

يعني هذا جواب الاقتراح الذي اقترحوه -اقترحه الكفار- هذا جوابه: ﴿لنثبت به فؤادك﴾.

ويجوز أن يكون الوقف على قوله: جملة واحدة، ثم يبتدئ ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ [(٣٢) سورة الفرقان] على معنى: أنزلناه عليك كذلك متفرقا؛ لنثبت به فؤادك، قال أبن الأنباري: والوجه الأول أجود وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير، حدثنا محمد بن عثمان الشيبي قال: حدثنا منجاب قال: حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ [(١) سورة القدر] قال: أنزل القرآن جملة واحدة من عند الله -عز وجل- في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء فنجمه السفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل -عليه السلام- على محمد عشرين سنة، قال: فهو قوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾ [(٧٥) سورة الواقعة] يعني نجوم القرآن ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم﴾ [(٧٦ - ٧٧) سورة الواقعة] قال: فلما لم ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- جملة واحدة، ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ [(٣٢) سورة الفرقان] فقال الله -تبارك وتعالى-: ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ يا محمد، ﴿ورتلناه ترتيلا﴾ [(٣٢) سورة الفرقان] يقول: ورسلناه ترسيلا، يقول: شيئا بعد شيء.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٢/٧

(٢) التعليق على تفسير القرطبي - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ٤/١٦

"الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، الحوت «١» .

(٢) اليوم الموعود: كناية عن يوم القيامة.

(٣) وشاهد ومشهود: في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشاهد هو يوم الجمعة والمشهود هو يوم عرفة. واليوم الموعود هو يوم القيامة. ومع ذلك فقد روي عن بعض التابعين أن المشهود هو يوم القيامة والشاهد هو ابن آدم أو أن المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الأضحى. ومما قاله الطبري الصواب أن يقال إن الله أقسم بشاهد شهد ومشهود شوهد، وما ذكر من بيان هو ما ظنه العلماء أنه المعنى المقصود.

(٤) الأخدود: الشق الطويل الذي يحفر في الأرض.

(٥) وما نقموا منهم: وما أنكروا عليهم أو حقدوا عليهم أو سخطوا منهم.

في الآيات قسم رباني بالأقسام الثلاثة بأن لعنة الله قد حقت على الذين حفروا الأخدود وأججوا فيه النيران وألقوا فيه المؤمنين وهم جالسون يشهدون عذابهم دون أن تأخذهم الشفقة عليهم. ولم يكن لهم ذنب يغضبهم عليهم إلا أنهم آمنوا بالله وحده.

والمتبادر أن الأقسام الثلاثة في بدء السورة مما كان يعرف السامعون خطورته ومداه مهما اختلف المؤولون فيه. وبهذا فقط تبدو **الحكمة في ذلك**، والله أعلم ولقد رويت روايات مختلفة في صدد الحادث الذي ذكر في الآيات منها حديث نبوي «٢» عن ساحر كان يعلم أحد الأولاد السحر فمر الولد براهب فأسلم على يديه وصار يبرئ الأكمه والأبرص باسم الله ثم أسلم الساحر على يد الولد

---

(١) انظر تفسير هذه السورة وسورة الحجر والفرقان في الطبري والبغوي وابن كثير والخازن والطبرسي.

(٢) انظر تفسير السورة في تفسير الطبري وابن كثير والبغوي والطبرسي والتاج ج ٤ ص ٢٥٤- ٢٥٧.." (١)

"رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ألا إنها ستكون فتنة. فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: كتاب الله فإن فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم. وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. هو الذي لا تزيغ به الأهواء. ولا تلتبس به الألسنة. ولا يشبع منه العلماء. ولا يخلق على كثرة الرد. ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد. من قال به صدق. ومن عمل به أجر. ومن حكم به عدل. ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم» «١» . حيث ينطوي في هذا الحديث أيضا حث قوي على التمسك بكتاب الله مع التنويه بما فيه من هدى ورحمة. وحيث يتساوق كل هذا مع التلقين القرآني.

تعليق على الإسهاب في قصص بني إسرائيل

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ١٤٤/٢

هذا، ويلحظ بصورة عامة أن قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل قد جاءت مسهبة أكثر من القصص الأخرى. وليس هذا في هذه السورة بل في السور الأخرى أيضا.

ويتبادر لنا أن **الحكمة في ذلك** هي أن بني إسرائيل لم يبيدوا كما باد الأقوام الأولون، وأنه كان لهم دوي عظيم في مجالات الدين والدنيا وظل مستمرا لم ينقطع في البلاد التي تتصل بجزيرة العرب، وأنه كان منهم فريق كبير في بلاد الحجاز. ويضاف إلى هذا أن أحداث موسى وفرعون وبني إسرائيل كانت مدونة في أسفار العهد القديم بإسهاب كبير وكانت متداولة بمقياس أوسع من قصص الأنبياء وأقوامهم الآخرين نتيجة لذلك. فحكمة التنزيل القرآني ماشت هذه الوقائع والحقائق في صدد قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل.

---

(١) التاج ج ٤ ص ٧.." (١)

"ذلك فلا يكون إلا من قبيل الإمهال إلى حين كأنما يهيب بهم إلى اغتنام الفرصة السانحة قبل نفاد صبره وإنزال عذابه فيهم.

والآيات قوية نافذة. موجهة إلى القلب والعقل بسبيل ما جاءت من أجله من التذكير والعظة والبرهنة والإنذار.

ومع وجوب الإيمان بحقيقة ما احتوته الآيات من تقريرات متنوعة فإن أسلوبها وفحواها وجملة وآية لهم التي بدأت بها وتكررت في مقاطعها قد يفيد أن السامعين كانوا يعرفون ويحسون ويتصورون ما احتوته من مشاهد كونية وأرضية وسماوية وفق ما ذكر فيها. وبهذا تبدو **الحكمة في ذلك** وتكون الحجة القرآنية مستحكمة في السامعين.

ولقد روى الطبري والبغوي في سياق جملة والشمس تجري لمستقر لها حديثا عن أبي ذر الغفاري قال: «كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد فلما غربت الشمس قال يا أبا ذر هل تدري أين تذهب الشمس قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب فتسجد بين يدي ربها ثم تستأذن بالرجوع فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مكانها وذلك مستقرها» .

وما جاء في الحديث أمر مغيب فيجب الوقوف عنده إذا صح «١» مع وجوب

---

(١) في التاج نص آخر فيه زيادة رواه البخاري والترمذي عن أبي ذر وهو: «قال أبو ذر كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس فقال يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشمس؟ قلت:

الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها. ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها فيقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم» (التاج ج ٤ ص ١٩٤) والزيادة متصلة بآية من آيات قيام الساعة وهي طلوع الشمس من مغربها حيث جاء في حديث رواه مسلم والترمذي وأبو داود عن حذيفة الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم في علامات الساعة ومنها طلوع

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٥٢٧/٢

الشمس من مغربها (التاج ج ٥ ص ٣٠٤) ونرجح أن حديث أبي ذر واحد روى بعضه راو وروى جميعه راو آخر. وطلوع الشمس من مغربها كعلامة من علامات الساعة مماثل لما ذكرته آيات عديدة في سور المزمل والتكوير والقيامة والمرسلات من تبدل مشاهد الكون عند ما تأزف الساعة وتخرب الدنيا. وكل هذا مغيب يجب الإيمان به والوقوف عنده وإيكال حكمته إلى الله تعالى. وليس معرفة كنهه والمماراة فيه من ضروريات الدين. والله تعالى أعلم.." (١)

"وقيل إنها هنا بمعنى الطراوة في العمر.

والآيات استمرار للسياق. وقد احتوت تنويها بأصحاب اليمين ووصفا لمنازلهم وحياتهم ونعيمهم في الجنة بعبارة واضحة.

تعليق على منازل أصحاب اليمين

والوصف أقل روعة من الوصف الأول. **والحكمة في ذلك** ظاهرة متسقة مع طبائع الأشياء. فالمؤمنون في مجال العمل متفاوتون، فمنهم السابق المجلي والمستغرق المتفاني. ومنهم المقتصد المتقي بل ومنهم المقصر بعض التقصير مع حسن النية. فاقتضت حكمة التنزيل أن يعلم الناس أن لكل منهم منازل فيها رضاء الله وعطفه مع التفاوت حسب سيرهم في مجال العمل. وتعبير ثلة من الأولين (٣٩) وثلة من الآخرين (٤٠) في صدد أصحاب اليمين ينطوي على ما هو المتبادر على تقرير كون أصحاب هذه المرتبة هم السواد الأعظم من المؤمنين في جميع الأوقات.

وهو المتسق مع طبائع الأمور.

وفي الآيات تشجيع وتطمين لأصحاب هذه المرتبة. فالله سبحانه يقبل من عباده المؤمنين عملهم الصالح مهما كان مقداره. ويرضى عنه ويثيب أصحابه.

وما قلناه في آخر تعليقنا على ما جاء في الآيات السابقة من الإطناب في وصف مجلس الشراب والطعام وهدفه نقوله هنا بتمامه فلا حاجة إلى التكرار.

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٤١ الى ٤٨]

وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال (٤١) في سموم وحميم (٤٢) وظل من يحموم (٤٣) لا بارد ولا كريم (٤٤) إنهم كانوا قبل ذلك مترفين (٤٥)

وكانوا يصرون على الحنث العظيم (٤٦) وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون (٤٧) أوآباؤنا الأولون (٤٨)

(١) سموم: الريح الشديدة الحرارة واللفح.." (٢)

"تعليق على وصف الجبال بأنها جعلت لئلا تميد الأرض بالناس وعلى وصف السماء بأنها رفعت بدون عمد

ووصف الجبال بأنها جعلت لئلا تميد الأرض بالناس ووصف السماء بأنها رفعت بدون عمد يراها الناس قد تكرر في سور

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٣٠/٣

(٢) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٢٣١/٣

أخرى ترتيبها متأخر عن هذه السورة. والإيمان بما جاء في القرآن في صدد المشاهد الكونية واجب مع واجب الوقوف عند ما اقتضت الحكمة وحيه بالأسلوب الذي جاء به واستشفاف **الحكمة في ذلك**. والمتبادر من ذلك أن هذا الوصف مما كان مستقرا أيضا في أذهان السامعين الذين كانوا يعترفون بالله وكونه خالق السموات والأرض على ما ذكرناه في مناسبات سابقة فاقتضت حكمة التنزيل التذكير بها من خلال ذلك بقدرة الله وإبداعه والتدليل على شمول قدرته للبعث والجزاء الأخرويين أيضا. وعلى كل حال إن القرآن لم يقصد تقريرات فنية لأن ذلك خارج عن هدفه في الهداية والإرشاد على ما شرحناه في مناسبات سابقة. وعلى ضوء هذا الشرح تبدو الآيات قوية رائعة في تذكيرها وتنويهها وتحديها، والله أعلم.

[سورة لقمان (٣١) : الآيات ١٢ الى ١٩]

ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد (١٢) وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (١٣) ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير (١٤) وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (١٥) يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير (١٦)

يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (١٧) ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور (١٨) واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير (١٩)." (١)

"مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت عنه حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى يخرج إلى الأرض» . حيث ينطوي في الحديثين تلقين وتأديب نبويان حكيمان. وهذا التلقين والتأديب مندمجان في جملة إن الحسنات يذهبن السيئات الواردة في الآية [١١٤] من سورة هود والتي ورد في سياقها أحاديث نبوية أخرى أوردناها في مناسبتها. ولقد ورد في سورة القصص جملة مماثلة للجملة التي نحن في صددها بسبيل الثناء والتنويه ببعض المؤمنين من أهل الكتاب حيث اقتضت حكمة التنزيل تكرار التلقين والتأديب واقتضت حكمة النبي تكرار مثل ذلك في هذه المسألة **والحكمة في ذلك** جليلة المدى والمغزى بدون ريب.

[سورة الرعد (١٣) : آية ٢٦]

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع (٢٦)

. عبارة الآية واضحة، والمتبادر أن تعبير وفرحوا قد عنى الذين وصفوا في الآية السابقة مباشرة بنقض ميثاق الله وقطع ما أمر الله به أن يوصل والفساد في الأرض ولعنوا بناء على ذلك وأنذروا بسوء العقبى. وقد تضمنت الآية حكاية فرح هذه

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٢٤٤/٤

الطبقة وزهوها بما تيسر لهم من وسائل القوة والثروة في الحياة الدنيا والتنديد بهم لاغترارهم بذلك إلى الدرجة التي أعمتهم عن الهوى وجعلتهم يرتكسون فيما ارتكسوا فيه من مواقف المناوأة لرسول الله ورسالته والبغي والفساد. ثم نبهتهم إلى الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها وهي أن بسط الرزق وتقتيره هما بيد الله وأن الحياة الدنيا مهما بسمت للناس فإنها ليست إلا متاعا تافها جدا في قيمته ومدته بالنسبة للحياة الأخرى.

وبهذا الشرح تكون الآية متصلة بالسياق السابق اتصال تعقيب واستطراد وتعليل وتنديد.

وننبه على أن مثل هذا التنبيه والتنديد الذي تضمنته الآية قد تكرر في آيات." (١)

"ردا قويا مستمدا من النصر الذي أحرزه المسلمون على قتلهم. فالمخلص المتوكل على الله لا يبالي بكثرة عدد عدوه وقلة عدده لأنه موقن بتأييد الله العزيز الحكيم له.

هذا، ومع خصوصية الآيات الزمنية فإنها احتوت تلقينات عامة جليلة مستمرة المدى بما فيها من علاج نفسي قوي في ذكر الله حين اشتداد الملحمة وما يثيره هذا من قوة وروحانية وثقة وأمل، وبما فيها من حث على الثبات والصبر كما في ذلك من ضمان النصر وكسب لرضاء الله وتأييده. وبما فيها من حكمة اجتماعية فيما في التنازع من فشل وإدبار. وفيما في التضامن والاتحاد من قوة وفلاح، وبما فيها من حث على طاعة الله ورسوله. وتتمثل طاعة الله في التزام ما في القرآن من مبادئ وأحكام وخطوط، وطاعة رسوله في التزام ما ثبت عنه من سنن قولية وفعلية تمثلا دائما.

ولقد أورد ابن كثير في سياق هذه الآيات حديثا رواه أيضا البخاري ومسلم والترمذي عن عبد الله بن أبي أو فى جاء فيه: «إن رسول الله في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال: أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم» «١» .

ومع تساوق الحديث مع التلقين القرآني فإن فيه نقطة هامة، وهي نهي المسلمين عن الاستعجال بلقاء العدو أو استعجال التحرش به. والمتبادر أن **الحكمة في ذلك** هي أن لا يكون الاستعجال بدون ضرورة محتمة، أو أن لا يؤدي إلى خطر وضرر وفي هذا تلقين جليل آخر والله أعلم.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٠ الى ٥٤]

ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق (٥٠) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (٥١) كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب (٥٢) ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم (٥٣) كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين (٥٤) .

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٥٣٦/٥

(١) التاج ج ٤ ص ٣٣٠ و ٣٣١.." (١)

"السدس الذي ينقص من الأم يعود إلى الأب لأنه أولي ذكر في العصبة دون الإخوة.

ونكتفي بما تقدم «١» وفيه سداد للفراغ والاقتضاب والإطلاق الملحوظ في الآيات دون تبسط في التفريعات والاصطلاحات والاستنباطات والتطبيقات لأنه خارج عن منهج التفسير.

هذا، ومما يحسن لفت النظر إليه أن هذه الأحكام قد غيرت وعدلت ما كان جاريا قبل نزولها في أمر الميراث مما كان فيه تموج وجنف. فقد كان حق الآباء والأقربين حائرا أو غير ثابت حتى لقد اقتضت حكمة التنزيل التعجيل بالأمر بوجوب الوصية للوالدين والأقربين في آيات سورة البقرة [١٨٠- ١٨٢] وكان كذلك حق الإناث في مختلف حالاتهن أمهات كن أو بنات أو زوجات أو أخوات حائرا غير ثابت وعرضة للتهضم والإنكار. فثبتت الآيات حق الوالدين وحق المرأة في جميع حالاتها وحق الأقربين على أساس الأقرب فالأقرب عصبة بقطع النظر عن كونهم ذكورا وإناثا وصغارا وكبارا وضعفاء وأقوياء وليس فيها غبن ولا إجحاف في حق أحد.

ونريد أن نخص مسألة نصيب الأنثى في هذا المقام بكلمة لأن الأغيار غمزوا الشريعة الإسلامية بسبب جعلها نصيب الذكر ضعف نصيبها. مع أن **الحكمة في ذلك** ظاهرة بليغة وفيه كل الحق والإنصاف بل وربما كان فيه الإحسان الذي يفوق العدل. فالأنثى في غالب أحوالها مضمونة النفقة من ابنها أو أبيها أو زوجها بل أو أخيها. وحينما لا تكون كذلك فإنها لا تكون في الغالب مكلفة بغير نفسها. وذلك بعكس الذكر المكلف دائما بالإنفاق عليها وعلى أسرته مما هو مشاهد وممارس في مختلف الأدوار والبيئات دون استثناء. فإذا أضيف إلى هذا أن القرآن قد اهتم اهتماما عظيما بتثبيت حقها الذي كان ضائعا أو حائرا وحماها من الظلم والإجحاف ظهر أن في الغمز أو النقد قلبا للحقيقة وغمضا لمزايا الشريعة الإسلامية

---

(١) في تفسير الخازن خاصة بسط واسع.." (٢)

"منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فو الله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من المساكين ووضع عنه الجزية وعن ضربائه «١» . وحيث روى الإمام أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى واليه بالبصرة أن لا يأخذ الجزية إلا ممن أطاق حملها وأن يجري على من كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب من أهل الذمة من بيت المال ما يصلحه لأنه بلغه أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد فعل ذلك «٢» . ومما ورد في موطأ مالك «٣» قوله «مضت السنة أن لا جزية على نساء أهل الكتاب ولا على صبيانهم ولا تؤخذ إلا من الذين بلغوا الحلم. وليس على نخلهم وكرومهم ومواشيهم صدقة (أي زكاة) لأن الصدقة قد وضعت على المسلمين تطهيرا لهم وردا على فقرائهم. وليس على أهل الكتاب سوى الجزية. إلا أن يتجروا في بلاد

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٧/٧٠

(٢) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٨/٤٢

المسلمين فيؤخذ منهم العشر فيما يدبرون من تجارات. ويعامل المجوس معاملتهم» . والشاهد في هذا الكلام السنة التي استثنت النساء والصبيان من الجزية. مما هو متساوق مع المقتبسات السابقة. وفي كل هذا ما فيه من العدل والتسامح الإسلامي.

ولقد رويت سنن راشدية «٤» بالنهي عن إعنات دافعي الجزية وعدم التشدد في أخذها ذهبا وفضة وجواز أخذ عدلها سلعة ما من غلة أو صنعة يد. وهذا متساوق مع ذلك العدل والتسامح.

ويلحظ أن القرآن لم يذكر مصارف الجزية. وقد تكون **الحكمة في ذلك** أن الآية لم ترد في معرض التشريع لمورد قد تحقق كما هو الشأن في الغنائم والفيء والزكاة. والجزية من حق بيت مال المسلمين. ولقد ذكرت مصارف حصة بيت المال من الغنائم والفيء في آيات سورة الأنفال [٤١] وسورة الحشر [٧] وهذه

---

(١) كتاب الخراج ص ٧٢.

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٧٢ وكتاب الأموال لأبي عبيد ص ٤٥.

(٣) الموطأ ج ١ ص ١٥٢ و ١٥٣.

(٤) كتاب الأموال ٤٣- ٤٦ والخراج ٦٨ وما بعدها.." (١)

"إني توكلت على الله ربي وربكم أي هو ربي، فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم علي ولا يمنعكم مني! فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئا بدون مشيئته. فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم علي فله من **الحكمة في ذلك** ما له الحمد عليه. لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لا يظلم ولا يفعل شيئا عبثا بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية المجوسية، والقدرية الجبرية، نفاة الحكم والمصالح والتعليل. والله الموفق سبحانه.

فصل

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريد لسلوك طريق مرافقه فيها غاية العزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرق، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقا فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه. وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم. فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدرا، وإن كانوا الأكثرين عددا، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين.

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٤١٣/٩

وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عمن سواهم. فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا. وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك. وقد ضربت لك مثلين، فليكونا منك على بال.." (١)

"هذا التابوت فيكم فاخرجوه عنكم فاتوا بعجله وحملوه عليه ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبهما فوكل الله اربعة من الملائكة يسوقونها فجاءوا به الى بنى إسرائيل- وقيل كان التابوت في التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقى هناك الى زمن طالوت فجاءت به تحمله الملائكة حتى وضعته فى دار طالوت إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٢٤٨) يحتمل ان يكون تمام كلام النبي اشموئيل ويحتمل ان يكون ابتداء خطاب من الله تعالى- قال ابن عباس ان تابوت وعصاء موسى في البحيرة الطبرية وانهما يخرجان قبل يوم القيامة-.

فلما فصل طالوت اى خرج والفصل في الأصل القطع وهو فعل متعد يعنى فصل نفسه عن بلده فلما كثر استعماله حذف مفعوله فصار كاللازم بمعنى انفصل عن بلده شاخصا الى العدو بالجنود هو في موضع الحال من فاعل فصل اى مختلطا بالجنود وذلك انهم لما راوا التابوت واستيقنوا النصر تسارعوا الى الجهاد كلهم فقال طالوت لا يخرج معى إلا شاب نشيط فارغ فخرج على هذا سبعون الفا على قول مقاتل وقيل ثمانون الفا وكانوا فى حر شديد فسالوا ان يجرى الله لهم نهرا قال طالوت اما بوحي الله ان كان نبيا واما بإرشاد نبيهم إن الله مبتليكم بنهر قال ابن عباس والسدى هو نهر فلسطين وقال قتادة نهر بين الأردن وفلسطين- والابتلاء الاختبار- يعنى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر المطيع من العاصي فمن شرب منه فليس مني اى من اتباعى او ليس بمتحد معى ومن لم يطعمه اى لم يذقه من طعم لشيء إذا اذاقه ماكولا او مشروبا فإنه مني قرا نافع وابو عمرو بفتح الياء والباقون بالإسكان إلا من اغترف غرفة بيده استثناء من قوله فمن شرب وانما قدمت الجملة الثانية للعناية بها والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير- ولعل **الحكمة في ذلك** ان شرب الماء الكثير في شدة الحر والعطش يضربا لناس يهلك او يضعف عن القتال- ويحتمل ان يكون ذلك التحريم عقابا لهم لما اقترحوا بجريان النهر- قرا اهل الحجاز والبصرة غرفة بفتح الغين والباقون بالضم قال الكسائي بالضم ما يحصل في الكف من الماء عند الاغتراف وبالفتح الاغتراف فهو منصوب على المفعولية او المصدرية على اختلاف القراءتين فشربوا منه اى كرعوا فيه إذ المعنى الحقيقي لمن الابتدائية ان." (٢)

"المحسوسة لتأنس بها النفوس، وتنكشف أمامها الغوامض، وتزول الأوهام عن معارضة العقل. والله الحكيم يفعل ما يحقق المصلحة بضرب المثل في العظائم والمحقرات حسب الأحوال والمناسبات، فإن كان الأمر عظيما كالحق والإسلام ضرب مثله بالنور والضياء، وإن كان الأمر مهينا حقيرا كالأصنام ضرب مثله في عدم النفع وانعدام الفائدة بما يشبهه من الذباب والبعوض والعنكبوت.

فأما المؤمنون الذين يصدقون بأن الله خالق الأشياء كلها صغيرها وكبيرها، فيقولون: هذا كلام الله حق، لا يقول غير الحق،

---

(١) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٢٥

(٢) التفسير المظهري المظهري، محمد ثناء الله ١/٣٥٠

والكل لديه سواء، وهذا المثل لمصلحة وحكمة. وأما الكافرون الذين يستهزئون بالأمثال بالمحقرات فيقولون متعجبين: ماذا أراد الله بمثل هذه الأشياء الحقيرة؟ فهم في حيرة من أمرهم، وخسارة في نهايتهم، ولو آمنوا لعرفوا الحق ووجه **الحكمة في ذلك**، قال تعالى:

ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيمانا، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون: ماذا أراد الله بهذا مثلا [المدثر ٧٤/ ٣١] .

ثم رد الله تعالى على المتسائلين بأن هذا المثل كان سببا في زيادة ضلال كثير من الكافرين لكفرهم بالله، وزيادة هداية كثير من المؤمنين لإيمانهم بالله، ولا يضل بضرب المثل أو بغيره من القرآن، إلا الفاسقون: الخارجون عن طاعة الله وعن سننه في خلقه وجحد آياته، وتعطيل عقولهم ومشاعرهم عن إدراك المصالح والغايات.

وفي هذا إشارة إلى أن علة إضلالهم خروجهم عن السنن الكونية التي جعلها الله عبرة لمن تذكر، فإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب، لأنه لما ضرب المثل، فضل به قوم، واهتدى به قوم، تسبب لضلالهم وهداهم «١» . قال

---

(١) الكشاف: ١/ ٢٠٦ وما بعدها.." (١)

"٢- الانتخاب بواسطة جماعة: كما فعل عمر، ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في تعيين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٣- إجماع أهل الحل والعقد.

ثانيا

- الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب «١» . وفي إخبار الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه في الأرض تعليم لعباده المشاورة في أمورهم. وقول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ليس على وجه الاعتراض أو الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف **الحكمة في ذلك**.

ثالثا

- استدل الأشعري والجبائي والكعبي بآية وعلم آدم الأسماء كلها على أن اللغات كلها توقيفية، بمعنى أن الله تعالى خلق علما ضروريا بتلك الألفاظ وتلك المعاني، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني «٢» .

رابعا

- آية تعليم آدم الأجناس التي خلقها الله، وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها، إما في آن واحد أو آنات

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١/١١١

متعددة، هذه الآية دالة على فضل العلم، فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه السلام، إلا بأن أظهر علمه، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم، لكان من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء، لا بالعلم «٣»
.
وكانت الحكمة في التعليم والعرض على الملائكة تشريف آدم واصطفاءه، كيلا يكون للملائكة مفخرة عليه بعلومهم ومعارفهم، وإظهار الأسرار والعلوم

---

(١) تفسير الرازي: ٢/ ١٦٦

(٢) تفسير الرازي: ١/ ١٧٥

(٣) المصدر السابق: ١/ ١٧٨." (١)

"رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة

[الفتح ٤٨/ ١٨] فعم وخص، ونفى عنهم الشين والنقص، ووعد كلا منهم الحسنى.

وأما النزاع والاقتتال بين الناس بعد الرسل فكله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان، ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك الفعل لما يريد.

الأمر بالإنفاق في سبيل الخير

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٤]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

الإعراب:

لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة قرئ بالرفع بالابتداء، أو على أن يجعل: لا بمعنى ليس، وفيه الخبر، وقرئ بالبناء على الفتح، لأنه معه بمنزلة «خمسة عشر» .

البلاغة:

والكافرون هم الظالمون مبتدأ محصور في خبره أي قصر صفة على موصوف، وقد أكدت بالجملة الاسمية وبضمير الفصل، أي: ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ وهو كافر وهم: مبتدأ ثان، والظالمون خبر الثاني، أو أن: هم ضمير فصل، والظالمون: خبر. وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: والكافرون هم الظالمون ولم يقل: والظالمون هم الكافرون. أي يصبح كل ظالم كافرا، وما أكثر الظلم بين الناس.

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١/١٣٠

المفردات اللغوية:

يوم المراد به هنا يوم الحساب لا بيع فيه البيع في الأصل: الكسب بأي نوع من أنواع المبادلة أو المعاوضة، والمراد به هنا: لا فداء، فيتدارك المقصر تقصيره. ولا خلة أي." (١)

"أراد من البشر أن يستقيم على الحق والإيمان والطاعة، فمن أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه مناجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه.

قال الزمخشري: لمن شاء منكم بدل من للعالمين وإنما أبدلوا منهم لأن الذين شاؤوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم، وإن كانوا موعوظين جميعا.

وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين أي وما تشاؤون الاستقامة ولا تقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه، فليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب الإنس والجن والعالم كله. آمنت بالله وبما يشاء، فلا يقدر أحد على شيء إلا بما يخلق فيه من قوة، وبما يودع الله فيه من قدرة يتمكن من توجيهها نحو الإيمان والخير أو نحو الكفر والشر، وهذا يعني أن الله أودع في الناس قدرة الاختيار، بدليل الآيات الأخرى التي تنفي الإجبار والإكراه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- لله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته من حيوان وجماد، وإن لم يعلم وجه **الحكمة في ذلك**، كما قال القرطبي «١» .

٢- أقسم الله تعالى بجميع الكواكب التي تخنس (تختفي) بالنهار وعند غروبها، وخنوسها: غيبتها عن البصر بالنهار، والتي تجري في أفلاكها، وتكنس، وكنوسها: ظهورها للبصر في الليل، كما يظهر الظبي أو الوحش من كناسه، ثم تغيب وتستتر في مغيبها تحت الأفق، لما في تحركها وظهورها مرة،

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ٢٣٧." (٢)

"الصلاة والسلام بمفارقة المكان الذي طلب منكم الوقوف فيه لحماية ظهور المقاتلين. ومن المعلوم أن العقوبات نتائج لازمة للأعمال، وأن الله وعدكم النصر بشرط ترك المعصية واتباع أوامر الله والرسول صلى الله عليه وسلم: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [محمد ٤٧/ ٧] .

إن الله على كل شيء قدير، أي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، فهو القادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم،

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٠/٣

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٩٢/٣٠

وهو القادر على حجب النصر عنكم إن خالفتم وعصيتم، وذلك كله خاضع لقانون ربط الأسباب بالمسببات، وليس هناك شيء خارج عن القدرة الإلهية.

ثم أشار الله تعالى معزيا ومسليا إلى أن كل ما أصابكم أيها المؤمنون يوم التقاء الجمعين: جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد، فبإذن الله وإرادته وقضائه وقدره، وله **الحكمة في ذلك**، فما من شيء في الوجود إلا وهو خاضع لإرادته وحكمته.

ومن مظاهر الحكمة: أن يظهر الله علمه بحال المؤمنين من قوة الإيمان وضعفه، والصبر والثبات وعدمه، فيعلم الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا، ويعلم المنافقين أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في الطريق، وكانوا ثلاثمائة رجل.

هؤلاء المنافقون إذا دعوا إلى القتال في سبيل الله، أو إلى الدفاع عن النفس والأهل والوطن، أجابوا: لو نعلم أنكم تلقون قتالا في غزوتكم لاتبعناكم وسرنا معكم، ولكننا نعلم أنكم لا تقاتلون. وهذا يدل على تأصل النفاق في قلوبهم، وأن غايتهم التلبيس والتدليس والاستهزاء وتعمية الحقائق، مع أن جمع المشركين في أحد وخروج المسلمين لمقابلتهم قرينة قاطعة على إرادة القتال. روي أن الآية نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه الذين خرجوا من المدينة في جملة." (١)

"﴿فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا﴾ هذا قول الله -سبحانه وتعالى- في قوله: ﴿فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما﴾ (الكهف: ٨٠، ٨١) فكان هذا عملا مبرورا وعملا خيرا.

ولعلنا هنا نتساءل عن سر **الحكمة في ذلك**، فنقول: مرد ذلك إلى علم الله سبحانه وتعالى، الذي لا يسأل عما يفعل، فقد خلق أناسا وهو يعلم أنهم كافرون، وأنهم من أهل النار، كما خلق أناسا وهو يعلم أنهم مؤمنون، وهم من أهل الجنة، وهؤلاء وأولئك جريا على حكمته وسنته في خلقه، فسبحانه من إله حكيم عليم، ومن هنا اتضحت الحكمة في قتل الخضر لهذا الغلام.

أما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحا، ولو أن هذا الجدار سقط لظهر هذا الكنز، ولاستولى أهل هذه البلدة البخلاء على هذه الأموال، ولم يستطع اليتيمان أن يدفعا عن مالهما هؤلاء الأشرار، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك، فهذه رحمة الله سبحانه وتعالى، أن يقام هذا الجدار، وأن يبقى إلى أن يصل هذان اليتيمان إلى سن الرشد، ليستخرجا هذا الكنز، ولينتفعا به. يقول الخضر: ﴿وما فعلته عن أمري﴾، وإنما هذا أمر الله سبحانه وتعالى، ثم يقول: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا﴾ (الكهف: ٨٢).

الدروس المستفادة من قصة موسى والخضر

هذا ملخص وموجز لقصة موسى والخضر -عليهما السلام- وفيها من الدروس النافعة والعظات البالغة، ما يستحق أن نقف أمامه طويلا؛ منها أن طلب العلم يحتاج إلى جهد وإلى تعب، وكل جهد في سبيل طلب العلم جهد يهون؛ لأن العلم

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٥٥/٤

به حياة القلوب، وفي القصة كما نرى أثر الصحبة، وحاجة الإنسان إلى أن يكون له صاحب مخلص، فهذا موسى –عليه السلام– قد أخذ معه يوشع بن نون، فكان رفيقا له ونعم الرفيق.." (١)

"ولا تأخذوها وتأكلوها عن طريق الإسراف والتبذير، فإن طبيعة النفس التبذير في مال الغير، ولا تأكلوها مسرعين قبل أن يصل اليتيم إلى مرحلة البلوغ والإدراك السليم.

أما الأكل من غير إسراف ولا تبذير وبلا إسراع ومبادرة فحكمه أن من كان غنيا فليطلب العفة ويحمل نفسه عليها حتى يتعود ذلك، وفي هذا إشارة إلى أن طبيعة النفوس ميالة إلى الاعتداء على حق الغير وإن كان صغيرا ضعيفا.

ومن كان فقيرا محتاجا فليأكل بالمعروف شرعا وعرفا بلا إسراف وتبذير حتى قال بعضهم: إن الولي ليس له أن يأكل إلا قرضا أو بأجر المثل.

والحكمة في ذلك أن اليتيم الصغير من الخير له أن يخالط الولي ويأكل مع أولاده حتى يتسنى للولي أن يشرف عليه إشرافا فعليا، فإن كان الولي غنيا كانت المخالطة لمصلحة اليتيم، وإن كان فقيرا فالواجب عليه أن يأكل بالمعروف من كسب المال وثمرته، وليس له أن يجمع من مال اليتيم شيئا خاصا به.

فإذا اختبرتم اليتيم أو السفيه وتبينتم صلاحيته لإدارة المال فادفعوه إليه بحضور الشهود قطعا للنزاع، والله شهيد عليكم ورقيب فراقبوه فإنه لا تخفى عليه خافية في الأرض والسماء.

تشريع حقوق اليتامى والنساء [سورة النساء (٤) : الآيات ٧ الى ١٠]

للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (٧) وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا (٨) وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا (٩) إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا (١٠)." (٢)

"حكم عامة للأحكام السابقة [سورة النساء (٤) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم (٢٦) والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا (٢٨)

المفردات:

سنن: جمع سنة، وهي الطريقة والشريعة. ضعيفا: غير قادر على مخالفة نفسه وهواه.

---

(١) التفسير الموضوعي ٢ – جامعة المدينة جامعة المدينة العالمية ص/٢٦٠

(٢) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ١/٣٤٠

المعنى:

بعد ما ذكر الله الأحكام السابقة المتعلقة بالبيوت والنكاح- حلاله وحرامه- كأن سائلا سأل: ما هي **الحكمة في ذلك؟** وهل الأنبياء والأمم السابقة كانت مكلفة بمثل هذا؟ وهل هذه الأحكام مقصود بها التخفيف علينا أم التشديد؟ فأجاب الله بهذه الآيات مبينا الحكم العالية في آياته وأحكامه وأنه ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم «١» ..

يريد الله أن يبين لكم ما هو خفى عنكم، ويرشدكم إلى ما فيه مصلحتكم، ويهديكم إلى مناهج من قبلكم من الأنبياء والصالحين وطرقهم التي سلكوها في دينهم ودنياهم وأن دينهم الذي ارتضاه لهم سابقا لا يبعد عما اختاره لكم.

يريد الله أن يرشدكم إلى طاعات وأعمال إن قمتم بها وأديتموها على وجهها كانت

---

(١) سورة الحج آية ٧٨.." (١)

"وجوب قتال المشركين [سورة التوبة (٩) : آية ٥]

فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم (٥)

المفردات:

انسلخ: انقضى، وأصل الاستعمال في الجلد، شبه الزمان به لأنه محيط بما فيه إحاطة الجلد بالشاة، فإذا مضى الزمن فكأنه انسلخ عما فيه. خذوهم المراد:

ائسروهم، والأخيذ: الأسير. واحصروهم: امنعوهم من التقلب في البلاد والسير فيها. كل مرصد المراد: كل ممر وطريق يجتازونه في أسفارهم.

المعنى:

فإذا انقضى الأشهر الحرم التي كانت ساترة لهم، وحرزا تمنعهم من أيدى المسلمين، وهل المراد بها الأشهر الحرم السابقة؟ أو المراد بها الأشهر الحرم مع ما فهم من قوله تعالى: فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم؟

فإذا انقضى الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين الناكثين خاصة، أو المشركين مطلقا حيث تم لهم عهدهم.

وخذوهم أسرى حرب، واحصروهم حالة كونكم مانعين لهم من الأسفار والتقلب في البلاد، واقعدوا لهم كل مرصد وممر، وترصدوا لهم في كل طريق حتى تملأوا قلوبهم خوفا ورهبة منكم، فيخشى الواحد منهم لقاءكم حتى بينه وبين نفسه، **والحكمة في ذلك** محو الشرك من جزيرة العرب بالقوة لتكون معقل الإسلام مع مراعاة قوله تعالى:." (٢)

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٣٦٢/١

(٢) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٨٥٥/١

"يعتذروا، ومنهم المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا، وقدموا أموالهم كفارة عما فرط منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم، ومنهم فريق حاروا في أمرهم وشق عليهم تخلفهم بغير عذر فأرجئوا توبتهم، ولم يفعلوا ما فعل أبو لبابة وأصحابه من ربط أنفسهم بسواري المسجد فأرجأ الله توبتهم حتى نزلت آيتا التوبة فيهم (١١٧– ١١٨) من هذه السورة.

وآخرون من المتخلفين مرجون لأمر الله، ومؤخرون لحكمه، فحالهم غامضة عند الناس، لا يدرون ما ينزل في شأنهم؟ هل يخلصون في التوبة فيتوب الله عليهم ويقبل منهم توبتهم؟ أم لا؟ فيعذبهم ويحكم عليهم كما حكم على المنافقين، والترديد إنما هو بالنسبة للناس لا بالنسبة إلى الله. ولعل **الحكمة في ذلك** أن بقي الرسول والمؤمنون على حالهم فلا يكلمونهم ولا يخالطونهم، تربية لهم وتهذيبا لنفوسهم، وبيانا لجرم التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثار الراحة والدعة عن الجهاد ونصر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء المرجون لأمر الله هم الثلاثة: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة ابن الربيع.

والله عليم بهم وبعباده كلهم وما به تصلح نفوسهم، وحكيم في تشريعه، وقد كان إرجاء قبول توبتهم لحكمة الله يعلمها!!.

مسجد الضرار ولم بني؟ وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم منه [سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون (١٠٧) لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين (١٠٨) أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين (١٠٩) لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم (١١٠)." (١)

"ولهذا ذكرت القصة الثانية بين قصتي إبراهيم عليه السلام. قال تعالى:

﴿وإذقال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾:؟

والمعنى: واذكر يا محمد، حين نادى إبراهيم – عليه السلام – ربه، طالبا منه أن يريه – عمليا – كيفية إحياء الموتى.

والسؤال يدل على أنه يؤمن بإحياء الموتى، ولكنه يطلب رؤية طريقة الإحياء عمليا، ليزداد إيمانا ويقينا.

﴿قال أولم تؤمن﴾:؟

أي لقد آمنت .. فلماذا تسأل هذا السؤال؟.

﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾:

اعلم أن الله تعالى عليم بإيمان نبيه وخليله إبراهيم، وليس بحاجة إلى استفهام عنه. لكن **الحكمة في ذلك**: أن يعلن إبراهيم إيمانه العميق بقدرة الله، حتى لا يتطرق إلى الأذهان، أن إبراهيم حين سأل ذلك – خطر له أي شك في الله.

فالسؤال في الحقيقة: سؤال تقرير.

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ١٤/٢

ولهذا أجابه إبراهيم مؤكدا إيمانه، نافيا عن نفسه أية خاطرة من الشك أو الارتياب.

فقال: بلى. آمنت. ثم علل سؤاله لربه بحرصه على الاطمئنان القلبي – عن طريق المشاهدة والعيان، إلى جانب طريق الوحي والبرهان – ليزداد ثباتا فوق ثبات.

والله يثبت إيمان أنبيائه وأوليائه دائما فيقول: ﴿ ... كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾ (رحمه الله١).

رحمه الله________________

(رحمه الله١) الفرقان: من الآية ٣٢." (١)

"﴿واسألوا الله من فضله﴾: إذا رغبتم المزيد من نعمه، فإن خزائن الله لا تنفد. وذلك خير من الطمع فيما أنعم الله به على فريق من عباده ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ (رحمه الله١).

﴿إن الله كان بكل شيء عليما﴾: فيعطى كل واحد من عباده ما يناسب استعداده، وتصلح به – في نظره – أمور حياته.

وبهذا البيان الحكيم المعجز، عالج القرآن الكريم، ما يعتمل في نفوس كثير من الناس، حين يرون التفاوت الواضح: فيما أنعم الله به على عباده، وفضل بعضهم على بعض، في كثير من وجوه الرزق.

وقد يصعب على الناس فهم **الحكمة في ذلك**. ولكن حياتهم في هذه الدنيا لن تستقيم إلا بهذا التفاوت فيما بينهم.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ (رحمه الله٢).

﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا (٣٣)﴾.

المفردات:

﴿موالي﴾: جمع مولى؛ وهو يطلق على من يتولى شئون غيره. كما يطلق على من يتولاه غيره. والمراد هنا: ورثة.

رحمه الله________________

(رحمه الله١) النساء. من الآية: ٥٤.

(رحمه الله٢) الزخرف. من الآية: ٣٢.." (٢)

"التفسير

١٤٥ – ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء﴾:

أي وبينا لموسى في التوراة التي أنزلناها عليه مكتوبة في الألواح والصحف من كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل لإصلاح شئونهم في الدين والدنيا من المواعظ وتفصيل الأحكام وبيان الحلال والحرام والحسن والقبيح وغير ذلك من أنواع الهداية

---

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٤٤٧/١

(٢) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٨٠٣/٢

والإرشاد.

﴿فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾:

أي وبينا لموسى – عليه السلام – كل شيء في الألواح وقلنا له: فتقبلها يا موسى بصدق وتناولها بحرص وعزيمة كما يفعل أولو العزم من الرسل وأمر بني إسرائيل أن يمتثلوا مواعظها، ويتبعوا أحكامها وشرائعها البالغة غاية الحسن والكمال بالنسبة لهم: إذ فتحت أمامهم أبواب سعادة الدنيا والآخرة.

ويلاحظ أن التوراة الأصلية فقدت في الغزو البابلى، أما توراة اليهود التي بأيديهم فهى من صنعهم وتأليفهم ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾:

أي: سأرى قومك – بنى إسرائيل – ديار الهالكين، من عاد وثمود وأمثالهم من الذين خرجوا عن طاعة الله وعصوا أمر ربهم. **والحكمة في ذلك** بعثهم على الجد والاجتهاد في امتثال ما أمروا به، وتحذيرهم من الكفر والعصيان حتى لا يحل بهم ما حل بأولئك الذين مردوا على الفسوق والطغيان، لأن رؤية الديار خالية من أهلها، خاوية على عروشها تدعو إلى مزيد من الحذر والاعتبار،

وقيل معنى: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾: سأورثكم حكم الوثنيين في تلك الديار التي هاجرتم إليها، بدليل قراءة: "سأورثكم دار الفاسقين". وقيل: المراد بدار الفاسقين جهنم فإنها دارهم في الآخرة. وإراءتهم إياها كناية عن إدخالهم فيها، إن عصوا التوراة.

وخوطب قوم موسى – عليه السلام – بقوله: – سأريكم – دون قوله – سأريهم – التفاتا إليهم بعد الغيبة، ليكون أبلغ في حملهم على الطاعة والامتثال وتخويفهم من اتباع طريق الظالمين.." (١)

"وقد اعتبر بعض الفقهاء ما جاء في السنة مخصصا لعموم الجلد وقاصرا له على غير المحصن، واعتبره بعض آخر منهم عقوبة للمحصن زائدة على جلده، فيجلد مائة ثم يرجم، والرأى الأول أرجح، لأن النبي لم يجمعهما على محصن في عهده، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله تعالى أعطى نبيه حق بيان القرآن بقوله: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ وهذا البيان ملزم للمسلمين أن يعملوا به لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ فالنبي حين بين أن حكم الزانى المحصن من الإناث والذكور الرجم يكون قد بين السبيل الثاني الذي جعله الله بدلا من حبس الزناة. وإيذائهم الواردين في سورة النساء، تنفيذا لوعد الله إذ يقول: ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ كما بين عمليا أن السبيل الأول الوارد بآية الجلد خاص بمن لم يتزوج، وكلاهما حق منحه الله لنبيه، ومعظم ما جاء في القرآن قواعد عامة، فلم يتعرض القرآن لتفصيل الأحكام إلا قليلا، **والحكمة في ذلك** أن يتيسر حفظه ويتضح إعجازه، ولهذا أحيل تفصيل معظم الأحكام ولو كانت خطيرة على الرسول بوحى من الله تعالى، كتفصيل أحكام الصلاة والزكاة، فإنهما لم يرد عنهما في القرآن سوى الأمر بهما دون تفصيل لأركانهما وشروطهما وأوقاتهما، وغيرهما كثير على هذا النمط.

ولعل الحكمة في إسناد بيان حكم الرجم إلى الرسول أن يعلم المؤمنون أن السنة يجب الأخذ بها حتى في أخطر الأحكام.

---

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٣/١٥٠٩

والله الموفق.

الحكمة في تشديد الحد على الزناة

قد يقول قائل: لماذا شدد الإسلام في حد الزناة، فجعله في غير المحصن من الذكور والإناث إلى مائة جلدة، وفي المحصن منهما إلى الرجم؟

والجواب: أن العقاب ينبغي أن يكون بقدر حجم الجريمة، ولما كان الزنى تترتب عليه آثار سيئة في المجتمع الإسلامى، حيث تفضح به الأعراض، وتختلط به الأنساب." (١)

"وقال القرآن: يخادعون الله والذين آمنوا. ولم يذكر مخادعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم، ولعل **الحكمة في ذلك** أن القرآن يعتبر مخادعة الله مخادعة لرسوله، لأنه هو الذي بعثه إليهم، وهو المبلغ عن الله أحكامه وشرائعه. قال- تعالى-: إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم وقال- تعالى- من يطع الرسول فقد أطاع الله.

ثم بين- سبحانه- غفلتهم وغباءهم فقال: وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

الأنفس: جمع نفس بمعنى ذات الشيء وحقيقته. وتطلق على الجوهر اللطيف الذي يكون به الحس والحركة والإدراك.

ويشعرون: مضارع شعر بالشيء- كنصر وكرم- يقال: شعر بالشيء أى: فطن له، ومنه الشاعر لفطنته، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره من غريب المعاني ودقائقها.

والشعور: العلم الحاصل بالحواس، ومنه مشاعر الإنسان أى: حواسه.

والمعنى: أن هؤلاء المنافقين لم يخادعوا الله لعلمه بما يسرون، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم ضرر خداع المنافقين، وإنما يخدعون أنفسهم لأن ضرر المخادعة عائد عليهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك. لأن ظلام الغي خالط قلوبهم، فجعلهم عديمي الشعور، فاقدى الحس.

وأتى بجملة «وما يخدعون إلا أنفسهم» ، بأسلوب القصر مع أن خداعهم للمؤمنين قد ينالهم بسببه ضرر، لأن أولئك المنافقين سيصيبهم عذاب شديد بسبب ذلك، أما المؤمنون فحتى لو نالهم ضرر فلهم عند الله ثوابه.

ونفى عنهم الشعور مع سلامة مشاعرهم، لأنهم لم ينتفعوا من نعمتها، ولم يستعملوها فيما خلقت له، فكانوا كالفاقدين لها.

ثم بين- سبحانه- العلة في خداعهم لله وللمؤمنين فقال: في قلوبهم مرض.

والمرض: العلة في البدن ونقيضه الصحة، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه، كسوء العقيدة والحسد، والبغضاء والنفاق، وهو المراد هنا.

وسمى ما هم فيه من نفاق وكفر مرضا، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل. كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف

---

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٦/١٣٥٥

الكامل.

وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض، للإشعار بأنه تمكن منها تمكنا شديدا كما يتمكن الظرف من المظروف فيه.." (١)

"لا يليق بعظمتك، تنزيها متلبسا بحمدك والثناء عليك، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيما لك وتمجيدا.

وقولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ... إلخ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يصدر منه الإفساد في الأرض وسفك الدماء. وقطعهم بحكمة الله في كل ما يفعل لا ينافي تعجبهم من بعض أفعاله، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل، فمن تعجب من فعل شيء وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا يعد منكرا. والملائكة لا يعلمون الغيب، فلا بد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التي يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين الأخبار من خلقه.

قال الإمام ابن كثير في توضيح هذا المعنى: قوله- تعالى-: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم. ويردعهم عن المحارم والمآثم.. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه البعض.. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك**، يقولون يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ولا يصدر منا شيء من ذلك فهلا وقع الاقتصار علينا؟ «١» .

وقد رد الله- تعالى- على الملائكة بقوله: قال إني أعلم ما لا تعلمون.

أي: إنى أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون له- تعالى- المتبعون رسله.

فالجملة الكريمة إرشاد لهم إلى الأمر الذي من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق- عز وجل- وتنبيه إلى أنه- تعالى- عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه، فله أن يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء، وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه حين يأمرهم بشيء، أو يعلمهم بأنه

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٩.." (٢)

"فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص، فإذا اشتركا في نحو الجمع أو التثنية أتى بالجمع أو التثنية على ما يطلق حال الكامل منهما.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٥٦/١

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٩٣/١

والأمر في قوله: أنبئوني بأسماء هؤلاء، ليس من قبيل الأوامر التي يقصد بها التكليف، أى: طلب الإتيان بالمأمور به، وإنما هو وارد على جهة إفحام المخاطب بالحجة.

والمعنى: أن الله- تعالى- ألهم آدم معرفة ذوات الأشياء التي خلقها في الجنة، ومعرفة أسمائها ومنافعها، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة. فقال لهم على سبيل التعجيز:

أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فيما اختلج في خواطركم من أنى لا أخلق خلقا إلا وأنتم أعلم منه وأفضل.

قال ابن جرير: «وفي هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن ذكر، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن، وذلك أن الله- تعالى- احتج فيها لنبيه صلى الله عليه وسلم على من كان بين ظهرانيه من يهود بنى إسرائيل، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن- تعالى- أطلع عليها من خلقه إلا خاصا، ولم يكن مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ليقرر عندهم صدق نبوته، ويعلموا أن ما أتاهم به إنما هو من عند الله» .

ثم حكى- سبحانه- ما كان من الملائكة فقال:

قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

سبحان: اسم مصدر بمعنى التسبيح أى التنزيه، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه.

وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر في ذهن السامع للجملة السابقة، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله- تعالى-: أنبئوني بأسماء هؤلاء، ماذا كان من الملائكة؟

هل أنبأوا بأسماء المسميات المعروضة عليهم؟ فقال- تعالى-: قالوا سبحانك لا علم لنا إلخ الآية.

ولو قال الملائكة: لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لكان جوابهم على قدر السؤال، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئا غير ما يعلمهم الله، ودخل في ضمن هذا النفي العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المسئول عنها.

ومعنى إنك أنت العليم الحكيم أى: أنت يا ربنا العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك **الحكمة في ذلك**، والعدل التام.." (١)

"وقوله: لا يعزب عنه مثقال ذرة تمثيل لقلة الشيء، ودقته، والمراد انه لا يغيب عن علمه شيء ما، مهما دق أو صغر، إذ المثقال: مفعال من الثقل، ويطلق على الشيء البالغ النهاية في الصغر، والذرة تطلق على النملة، وعلى الغبار الذي يتطاير من التراب عند النفخ.

وفي قوله- سبحانه-: ولا أصغر من ذلك إعجاز علمي بليغ للقرآن الكريم، إذ كان من المعروف إلى عهد قريب، أن الذرة أصغر الأجسام، فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم الذرة، وتقسيمها إلى جزئيات.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٩٥/١

قال الجمل: وقوله: ولا أصغر من ذلك العامة على رفع أصغر وأكبر، وفيه وجهان:

أحدهما: الابتداء، والخبر إلا في كتاب، والثاني: العطف على مثقال، وعلى هذا فيكون قوله: إلا في كتاب تأكيد للنفي في لا يعزب كأنه قال: لكنه في كتاب مبين.

فإن قيل: فأى حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن من علم ما هو أصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الأكبر؟ فالجواب: لما كان الله- تعالى- أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته، فقال: الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر مكتوب أيضا «١» .

واللام في قوله- تعالى- ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات.. متعلقة بقوله لتأتينكم وهي للتعليل ولبيان الحكمة في إتيانها.

أى: لتأتينكم الساعة أيها الكافرون، **والحكمة في ذلك** ليجزي- سبحانه- الذي آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذي يستحقونه.

أولئك الموصوفون بصفتى الإيمان والعمل الصالح لهم مغفرة عظيمة من ربهم لذنوبهم ولهم كذلك رزق كريم تنشرح له صدورهم، وتقر به عيونهم.

والذين سعوا في آياتنا معاجزين أى: والذين سعوا في إبطال آياتنا، وفي تكذيب رسلنا معاجزين أى مسابقين لنا، لتوهمهم أننا لا نقدر عليهم، وأنهم يستطيعون الإفلات من عقابنا. يقال: عاجز فلان فلانا وأعجزه إذا غالبه وسبقه.

أولئك الذين يفعلون ذلك لهم عذاب من رجز أليم أى: لهم عذاب من أسوأ أنواع العذاب وأشده ألما وإهانة.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤٦٠.." (١)

"ذريته من بعده، بأن جعل من ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

ويؤيد هذا المعنى قوله- تعالى- في سورة الصافات: سلام على إبراهيم، كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين. وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين. وباركنا عليه وعلى إسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ...

ويصح أن يكون ضمير الفاعل يعود إلى إبراهيم- عليه السلام-، على معنى أنه أوصى ذريته من بعده بعبادة الله- تعالى- وحده، وأنه دعا ربه أن يجعل في ذريته من يعبده وحده.

فيكون المعنى: وجعل ابراهيم هذه الكلمة وهي كلمة التوحيد باقية في ذريته حيث أوصاهم بعبادة الله وحده.

ويشهد لذلك قوله- تعالى-: ووصى بها- أى بكلمة التوحيد- إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ... «١» .

ثم بين- سبحانه- **الحكمة في ذلك** الجعل فقال: لعلهم يرجعون أى: جعلها كذلك رجاء أن يرجع إلى كلمة التوحيد من أشرك من ذرية ابراهيم، ببركة دعائه لهم بالإيمان ودعاء من آمن منهم.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٦٧/١١

فلقد حكى القرآن عن إبراهيم أن دعا الله- تعالى- بقوله: رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ... وبقوله: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام.

وقوله- سبحانه-: بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين إضراب عن كلام محذوف ينساق إليه الكلام، والمراد «بهؤلاء» أهل مكة المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله: متعت من التمتع بمعنى إعطائهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب والنعم المتعددة، واشتغالهم بذلك عن طاعة الله- تعالى- وشكره.

والمعنى: اقتضت حكمتنا أن نجعل كلمة التوحيد باقية في بعض ذرية إبراهيم لعل من بقي من هذه الذرية على الشرك أن يرجع إليها، ولكنهم لم يرجعوا بل أصروا على كفرهم، فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل متعت هؤلاء المشركين المعاصرين لك- أيها الرسول الكريم- بأن أمددتهم بالنعم المتعددة هم وآباءهم، وبقيت تلك النعم فيهم: حتى جاءهم الحق وهو دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا، وجاءهم رسول مبين هو أنت- أيها الرسول الكريم- فإن رسالتك واضحة المعالم، بينة المقاصد، ليس فيها شيء من الغموض الذي يحملهم على الإعراض عنها.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٢.." (١)

"فيهم بذلك، كقولهم: ثبت عند فلان القاضي كذا أى: في حكمه، ولذا قدم الصغار على العذاب لأنه يصيبهم في الدنيا.

قال ابن كثير: ولما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدا. وجاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال:

هذه غدرة فلان بن فلان» **والحكمة في ذلك** أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل» «١» .

ثم بين- سبحانه- حال المستعد لهداية الإسلام، وحال المستعد للضلال فقال:

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.

أى: فمن يرد الله أن يهديه للإسلام، ويوفقه له، يوسع صدره لقبوله، ويسهله له بفضله وإحسانه.

وشرح الصدر: توسعته، يقال: شرح الله صدره فانشرح، أى: وسعه فاتسع، وهو مجاز أو كناية عن جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها. مصفاة عما يمنعه وينافيه.

روى عبد الرازق أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية: كيف يشرح صدره؟ فقال: «نور يقذف فينشرح له وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» «٢» .

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٧٥/١٣

وقوله: ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا أى ومن يرد أن يضله لسوء اختياره، وإيثاره الضلالة على الهداية يصير صدره ضيقا متزايد الضيق لا منفذ فيه للإسلام.

والحرج: مصدر حرج صدره حرجا فهو حرج، أى: ضاق ضيقا شديدا. وصف به الضيق للمبالغة، كأنه نفس الضيق، وأصل الحرج مجتمع الشيء ويقال: للحديقة الملتفة الأشجار التي يصعب دخولها حرجة.

وقرئ حرجا- بكسر الراء- صفة لقوله ضيقا.

روى أن جماعة من الصحابة قرءوا أمام عمر- رضى الله عنه- «ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا» بكسر الراء فقال عمر: يا فتى ما الحرجة فيكم؟ قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير» «٣» .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٤. [.....]

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٤.

(٣) تفسير الآلوسى ج ٨ ص ٢.." (١)

"وزروعهم وثمارهم، ولكن هؤلاء المكتسبين للدنيا، الذين لم يغن عنهم اكتسابهم، ليسوا في شيء، فإن السماوات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثا ولا سدى، وإنما خلقت بالحق، ولواجب مقصود، وأغراض لها نهايات، من عذاب ونعيم. وإن الساعة (القيامة) آتية على جميع أمور الدنيا، فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك، فإن الجزاء لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، من غير عتب ولا تعرض، وهذا يقتضي مهادنة.

ثم آنس الله نبيه وسرى عنه في آخر الآيات بأن الله تعالى يخلق ما شاء لمن شاء، ويعلم تعالى وجه **الحكمة في ذلك**، لا هذه الأوثان التي تعبدونها. وهذا تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة (القيامة) فإنه سبحانه خالق كل شيء، عليم بكل أجزاء الأجساد المتفتتة، والجميع صائرون إليه، محاسبون بين يديه.

توجيهات إلهية للنبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الدعوة

اقتضت حكمة الله وخطته أن يصفح النبي صلى الله عليه وسلم صفحا جميلا عن أذى قومه ويعاملهم معاملة سلمية وادعة آمنة، بالرغم من كثرة المضايقات، واستدامة الإيذاء والإضرار، ومقابل هذا الصفح الجميل: إنعام الله على نبيه بألوان النعم الكثيرة المتوجه بإنزال السبع المثاني (الفاتحة) والقرآن العظيم عليه، فهو المعجزة الخالدة والمفخرة الدائمة، قال الله تعالى واصفا هذه النعم وواضعا توجيهات للنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم في تبليغ دعوته:

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٧ الى ٩٣]

ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (٨٧) لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨) وقل إني أنا النذير المبين (٨٩) كما أنزلنا على المقتسمين (٩٠) الذين جعلوا القرآن عضين (٩١)

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ١٧٤/٥

فو ربك لنسئلنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)

«١»

---

(١) هي الفاتحة، التي تثنى وتكرر قراءتها.." (١)

"على معصيته ومخالفته، والتبذير كما ذكرت: النفقة في معصية، لا في مباح، قال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في حق لم يكن تبذيرا، ولو أنفق مدا في باطل كان تبذيرا.

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية، إذا سأله أحد من المساكين وبني السبيل، فلم يجد عنده ما يعطيه، واستحى من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة، وأعرض عنه تأدبا منه، في أن يرده تصريحا، وانتظارا لرزق من الله تعالى يأتي، فيعطي منه، ويعده وعدا حسنا، ويؤنسه بالقول الميسور: وهو عقد الرجاء على فضل الله، والتأنيس بالميعاد الحسن، والدعاء بتوسعة الله تعالى وعطائه.

روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول كما ذكر القرطبي ١٠/ ٢٤٩ بعد نزول هذه الآية- إذا لم يكن عنده ما يعطي- : «يرزقنا الله وإياكم من فضله» .

فالمراد من الرحمة في آية ابتغاء رحمة من ربك: الرزق الحسن.

وسياسة الإنفاق من الأموال: هي القصد والاعتدال، فلا تجعل أيها النبي، وكل إنسان، يدك مغلولة إلى عنقك، أي تمسكها عن الإنفاق، وتبخل على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات، ولا تسرف ولا تتوسع في الإنفاق توسعا مفرطا، فتعطي فوق طاقتك، فتقع في الملامة والحسرة والندم، حين لا تجد في يدك شيئا.

ثم أبان الله تعالى منهاج المدد الإلهي ورزق العباد، مخاطبا رسوله: كن أنت يا محمد على ما رسم لك من الاقتصاد والاعتدال، ولا يهمنك فقر من تراه فقيرا، فإنه بمرأى من الله وبمسمع وبمشيئة، فإنه تعالى يبسط الرزق لمن يشاء، ويضيقه (يقدر) على من يشاء، ويغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لما له من **الحكمة في ذلك**، يعلم مصلحة قوم في الفقر، ويعلم مصلحة آخرين في الغنى.." (٢)

"الكثيفة، التي تغشي أبصار الكافرين والمنافقين وبصائرهم، ممن أحاطت بهم خطيئاتهم من كل جانب، حتى أصبحوا وهم لا يهتدون سبيلا، ولا يجدون بين أيديهم دليلا، وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾.

وفي حصة هذا الربع آية أخرى كان لها أبلغ الأثر في تعميق عاطفة الإحسان بين المسلمين، ودفعهم إلى البذل في وجوه البر والخير دون حساب، ألا وهي قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ١٢٣٥/٢

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ١٣٤٣/٢

سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾. فهاهنا تعهد صريح من الحق سبحانه وتعالى الذي لا يخلف وعده بمضاعفة ربح المؤمن المحسن سبعمائة مرة، مقابل الواحد الذي أنفقه في سبيل الله، بينما أقصى ما يمكن أن يصل إليه ربح الأناني المستغل –مهما بذل من الوسائل– لن يتجاوز في الغالب المائة في المائة، وهذا إغراء لمن رزقهم الله أن ينفقوا مما رزقهم، ووعد لهم بمضاعفة الرزق والأجر إلى أقصى الحدود، حتى لا يشحوا ولا يبخلوا ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

غير أن الحق سبحانه وتعالى حذر المؤمنين المحسنين من أن يفسدوا صنيعهم، ويحبطوا عملهم، بالمن والأذى إذا أنفقوا وأحسنوا، فقال تعالى تهذيبا لهم وتعليما: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

والحكمة في ذلك أن المؤمن مهما كان فقيرا محتاجا فإن." (١)

"إذا اهتديتم﴾ بمعنى أن المؤمنين إذا استقاموا على الطريقة المثلى كما أمروا، وأدوا ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وفي طليعتها حق إسداء النصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، ثم أصر العصاة على الاسترسال في المعاصي والفواحش دون أن يستجيبوا لنصيحة ولا إرشاد، فإن أولئك الناصحين لهم بعد أن أدوا ما عليهم، واستنفدوا وسائل الدعوة والإصلاح التي يملكونها تصبح ذممهم خالية من المسؤولية، ويصدق عليهم وقتئذ قوله تعالى: ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾، وقوله تعالى: ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾، وقوله تعالى مخاطبا لنبيه: ﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر﴾.

وبعدما تحدثت الآيات الكريمة عن جملة من قصص الأنبياء وأممهم امتن الحق سبحانه وتعالى على خاتم رسله بما قصه عليه وعلى أمته من أنباء الأمم السالفة ومواقفها من أنبيائها السالفين، إذ إن **الحكمة في ذلك** هي تمكين رسوله وأمته من وسائل التدبر والاعتبار، حتى يكون الرسول وأمته على بصيرة من سنن الله الثابتة في خلقه، التي مهما اختلفت الأعصار والأمصار، فهي تنتج نفس النتائج وتحدث نفس الآثار، ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ – ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.

ثم أجمل كتاب الله معركة الحق مع الباطل، وصراع الخير مع الشر، خلال العصور الغابرة، فقال تعالى: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ وواضح أن هذه الآية." (٢)

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ١٧١/١

(٢) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٢٤٨/٢

"الربع الثاني من الحزب السابع عشر

في المصحف الكريم (ت)

عباد الله

في حصة هذا اليوم نتناول الربع الثاني من الحزب السابع عشر في المصحف الكريم، ابتداء من قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾.

هذا الربع، كله متعلق بقصة موسى وبني إسرائيل من جهة، وفرعون وقومه من جهة أخرى، وهو استمرار لقصة موسى التي ابتدأت في الربع الماضي من قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾.

وقد استغرقت قصة موسى أكثر من ثلاثة أرباع هذا الحزب السابع عشر، مما يؤكد ما نبهنا إليه في مطلع سورة الأعراف، من أن قصة موسى وفرعون هي أطول قصة وردت في هذه السورة من بين قصص الأنبياء السابقين، ولعل **الحكمة في ذلك** - والله أعلم -." (١)

"أبي حاتم عن ابن عمر، وروي مثله عن ابن عباس وغيره من مفسري السلف، اعتمادا على قوله صلى الله عليه وسلم: (الحج عرفة)، وإما أنه يوم النحر كما روي عن الإمام مالك، نظرا لأنه اليوم الذي ترمى فيه الجمرة، وينحر فيه الهدي، وينقضي فيه الحج، ورجح القاضي أبو بكر " ابن العربي " أن المراد (بيوم الحج الأكبر) الوارد في هذه الآية بالخصوص هو يوم النحر، لثبوت الحديث الصحيح بذلك، إذ قال صلى الله عليه وسلم يوم النحر: (أي يوم هذا؟ أليس يوم الحج الأكبر؟).

وقوله تعالى: ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ يتضمن الإشارة إلى مبدإ أساسي في الإسلام، هو أن الإسلام يجب ما قبله، وذلك لما انبنى عليه من سماحة ورحمة وعفو، فمهما اقتحم المشركون والكفار من المعاصي والجرائم، وارتكبوا من الموبقات والمآثم، ثم أسلموا وجوههم لله، إلا ونالتهم المغفرة، وقبلت منهم التوبة، ولم يواخذوا بما سلف: ﴿عفا الله عما سلف﴾ **والحكمة في ذلك** تأليفهم على الملة، وتسهيل دخولهم في الدين، حتى ينيبوا إلى الله، ويسلموا وجوههم إليه.

أما قوله تعالى: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ فهو استثناء من ضرب الأجل المحدود بأربعة أشهر، ومعناه من كان لهم من المشركين عهد مؤقت بمدة معينة،

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٢/٢٥٣

فالأجل بالنسبة إليهم هو انتهاء المدة المعينة التي عوهدوا عليها، وفي مثل هؤلاء ورد في الحديث: (إن من كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته) لكن بشرط أن لا ينقض المعاهد منهم عهده، وأن." (١)

"خمس، رحمة منه ولطفا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ". ثم قال ابن كثير: " والأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناما، ولا ينكرون أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الإسراء قبل ذلك مناما، ثم رآه بعده يقظة، لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ". انتهى ما اقتطفناه من كلام ابن كثير، وعلى القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الإسراء رؤيا منام، ثم رآه رؤية يقظة، يكون الأمر فيه مشابها لبدء نزول الوحي من قبل، فقد كان الملك جاءه في المنام أولا، ثم جاءه بعد ذلك في اليقظة. وشرح القاضي أبو بكر (ابن العربي) الحكمة في هذا التدرج فقال: " وكانت **الحكمة في ذلك** أن أراه الله في المنام ما أراه، توطيدا وتثبيتا لنفسه، حتى لا يأتيه الحال فجأة، فتقاسي نفسه الكريمة من ذلك شدة، لعجز القوى الآدمية عن مباشرة الهيئة الملكية ".

واقتصر كتاب الله من قصة الإسراء على بيان وقته، وبيان المكان الذي أسري منه، وبيان الحكمة المقصودة من الإسراء فقال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾.

وقوله تعالى: ﴿سبحان﴾ علم للتسبيح، ومعناه براءة الله." (٢)

"ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا﴾، والمراد " بضعف الحياة " العذاب المعجل في الدنيا، و " بضعف الممات " العذاب المؤخر إلى الآخرة، أي لأذقناك عذابا ضعفا في الحياة، وعذابا ضعفا في الممات، و " الضعف " بمعنى المضاعف، ومنه قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فآتهم عذابا ضعفا﴾ [الأعراف: ٣٨].

ثم أشار كتاب الله إلى تبرم المشركين في مكة بمقام رسول الله بين أظهرهم، ولاسيما بعد أن أسقط في أيديهم وفشلوا فشلا ذريعا في استدراجه إلى مهادنتهم، الأمر الذي جعلهم يفكرون جديا في اتخاذ قرار بنفيه من مسقط رأسه، لكن الله تعالى عصم رسوله منهم فأوحى إليه بالهجرة من مكة إلى المدينة، وحالت الهجرة دون أن يخرج مشروعهم من حيز التفكير إلى حيز التنفيذ، **والحكمة في ذلك** والله أعلم أن الله تعالى كان قد قدر في سابق علمه وأزله أنهم مهما طال عليهم الأمد فهم

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٣٥٩/٢

(٢) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٣٧٥/٣

لا بد من الشرك خارجون، وفي دين الله داخلون فصرفهم الحق سبحانه وتعالى عن إخراج الرسول من أرضه، حفاظا عليهم إلى اليوم الموعود، يوم فتح مكة المشهود، إذ لو أخرجوه فعلا لعاقبهم الله على جريمتهم الشنعاء، بالإبادة والفناء، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في إيجاز وإعجاز، ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا * سنة من." (١)

"ليحيي الناس ويزكيهم، وليعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، إذ قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ أي أن القرآن من وحي الله وكلامه، لا من كلام البشر ﴿وما أوتيتم من العلم﴾ أي قبل نزول القرآن ﴿إلا قليلا * ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا * إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا﴾.

وتفسير " الروح " في هذه الآية بالقرآن كما أوردناه وارد عن الحسن البصري رضي الله عنه، ويشهد له قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢]. على أن التفسير الشائع عند الجمهور أن المراد بالروح هنا الروح السارية في الأحياء، وأنها مما استأثر الله بعلمه، قال أبو بكر (ابن العربي): " الروح خلق من خلق الله تعالى إذا أراد العبد إنكارها لم يقدر، لظهور آثارها، وإذا أراد معرفتها وهي بين جنبيه لم يستطع، لأنه قصر عنها، وقصر به دونها "، وقال النسفي: " **والحكمة في ذلك** تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز ".

وتحدى كتاب الله -رابعا- جميع المتشككين في معجزة القرآن، على تعاقب الأزمان، إذ قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ - ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾.." (٢)

"معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾.

ويستفاد من هذا الوصف أيضا أن الوساطات والشفاعات التي اعتدها الناس في حياتهم بالنسبة للعصاة والمذنبين، جريا مع أهوائهم ومصالحهم، لا تأثير لها في الآخرة، لكن هناك شفاعة خالية من الأغراض والأهواء، يأذن بها الحق سبحانه وتعالى لمن يشاء، من المشفوع فيهم والشفعاء ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا﴾.

وإلى جانب هذا كله تعهد الحق سبحانه وتعالى في هذا الوصف، للمؤمنين الصالحين من عباده، بالنصرة والتأييد، والهداية

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٤٠٩/٣

(٢) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٤١٣/٣

والتسديد، والسعادة الحقيقية التي لا يشوبها شقاء، في الدنيا والآخرة على السواء، فقال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾، وقال تعالى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

وكما قص كتاب الله في هذه السورة (سورة طه) قصة موسى مع فرعون، ردد فيها أيضا صدى قصة آدم مع إبليس، التي سبق ذكرها في سورة البقرة، وسورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة الكهف، **والحكمة في ذلك** حسبما يظهر من السياق هي تنبيه بني آدم إلى وجوب التحفظ من وسوسة الشيطان، والحذر التام من التعرض لغوائله، حتى يسعدوا بنعيم الجنة ولا يشقوا بعذاب النار." (١)

"البقرة (٢٣٧): ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾.

أما (المتعة) بالنسبة لمن كان نكاحها نكاح (تفويض) لأنه لم يسم صداقها قبل الطلاق، فيراعى في قدرها حال الزوج المفارق، مصداقا لقوله تعالى في نفس السورة (٣٦: ٢): ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾.

وأما الزوجة التي تم العقد عليها ثم مات عنها زوجها قبل الدخول، فلا بد لها من أن تعتد منه أربعة أشهر وعشرا، وهي في ذلك سواء مع الزوجة التي مات عنها زوجها بعد الدخول، مصداقا لقوله تعالى فيما سبق من سورة البقرة (٢٣٤) ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾.

والحكمة في ذلك بالنسبة لمن مات عنها زوجها قبل الدخول إشعار الزوجة المتوفي عنها زوجها بأن اختياره لها، وتعلق قلبه بها، وحرصه على تكوين أسرة معها، ومفاجأته بالموت قبل تحقيق أمنيته، كل ذلك يستحق من جانبها تقدير فقده واحترام ذكراه، وعدم التسرع في الزواج بغيره في الحين، فالزواج تحيط به اعتبارات إنسانية وأخلاقية متعددة، وليس عقدا ماديا صرفا.

وخصص كتاب الله الآية الثانية من هذا الربع للحديث عما." (٢)

"مركبة من همزة وذال ونون، وقد شبهت العرب نونها بتنوين المنصوب فقلبوها في الوقف ألفا وكتبوها الكتاب على ذلك، وهذا نهاية القول فيها. /

وجاء في هذا المكان ﴿من بعد ما جآءك﴾ وقال قبل هذا: ﴿بعد الذي جآءك﴾ [البقرة: ١٢٠] وفي الرعد: ﴿بعد ما جآءك﴾ [الرعد: ٣٧] فلم يأت ب» من «الجارة إلا هنا، واختص موضعا ب» الذي «، وموضعين ب» ما «، فما **الحكمة في ذلك؟** والجواب ما ذكره بعضهم وهو أن» الذي «أخص، و» ما «أشد إبهاما، فحيث أتى بالذي أشير به إلى

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٩٩/٤

(٢) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ١٤٤/٥

العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه لأنه علم بكل أصول الدين، وحيث أتى بلفظ» ما «أشير به إلى العلم بركن من أركان الدين، أحدهما: القبلة، والآخر: بعض الكتاب لأنه أشار إلى قوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ [الرعد: ٣٦] . قال» وأما دخول «من» ففائدته ظاهرة وهي بيان أول الوقت الذي وجب [على] عليه السلام أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم، والذي يقال في هذا: إنه من باب التنوع في البلاغة.." (١)

"الساكنين، وضمها الباقون إتباعا لضم الثالث. وليس هذا الخلاف مقصورا على هذه الكلمة، بل إذا التقى ساكنان من كلمتين، وضم الثالث ضما لازما نحو: ﴿ولقد استهزىء﴾ [الأنعام: ١٠] ﴿قل ادعوا﴾ [الإسراء: ١١٠] قالت اخرج جرى الخلاف المذكور. إلا أن أبا عمرو خرج عن أصله في ﴿أو﴾ [المزمل: ٣] و ﴿قل﴾ [١١٠: الإسراء] فضمهما، وابن ذكوان خرج عن أصله فكسر التنوين خاصة نحو: ﴿محظورا انظر﴾ [٢٠-٢١: الإسراء] ، واختلف عنه في: ﴿برحمة ادخلوا﴾ [الأعراف: ٤٩] ، واختلف عنه في: ﴿خبيثة اجتثت﴾ [إبراهيم: ٢٦] ، وسيأتي بيان **الحكمة في ذلك** عند ذكره إن شاء الله تعالى.

قوله: ﴿غير باغ﴾ نصب على الحال، واختلف في صاحبها، فالظاهر أنه هو الضمير المستتر في «اضطر» ، وجعله القاضي وأبو بكر الرازي من فاعل فعل محذوف بعد قوله: «اضطر» ، قالا: تقديره: فمن اضطر فأكل غير باغ، كأنهما قصدا بذلك أن يجعلاه قيدا في الأكل لا في الاضطرار.

قال الشيخ «ولا يتعين ما قالاه، إذا يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله: ﴿غير." (٢)

"بكلامه كله لم يطقه شيء فمكث موسى أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين • وأخرج الديلمي عن أبي هريرة رفعه لما خرج أخي موسى إلى مناجاة ربه كلمه ألف كلمة ومائتي كلمة فأول ما كلمه بالبربرية أن قال: يا موسى ونفسي معبرا: أي أنا الله الأكبر • قال موسى: يا رب أعطيت الدنيا لأعدائك ومنعتها أولياءك فما **الحكمة في ذلك** فأوحى الله إليه: أعطيتها أعدائي ليتمرغوا ومنعتها أوليائي ليتضرعوا • وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عجلان قال: كلم موسى بالألسنة كله وكان فيما كلمه لسان البربر فقال كلمته بالبربرية: أنا الله الكبير • وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم كلم الله موسى كان عليه جبة صوف وكساء صوف وسراويل صوف وكمه صوف ونعلان من جلد حمار غير ذكي • وأخرج أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن معاوية قال: لما كلم موسى ربه عز وجل مكث أربعين يوما لا يراه أحد إلا مات من نور رب العالمين • وأخرج أبو الشيخ عن عروة بن رويم قال: كان موسى لم يأت النساء منذ كلمه ربه وكان قد ألبس على وجهه برقع فكان لا ينظر إليه أحد إلا مات فكشف لها عن وجهه فأخذتها من غشيته مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت لله ساجدة • وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال: كلم الله موسى من

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٢/١٦٨

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٢/٢٣٩

ألف مقام فكان كلما كلمه رأى النور على وجهه ثلاثة أيام قال: وما قرب موسى امرأة مذ كلمه ربه ٠ وأخرج ابن المنذر عن عروة بن رويم اللخمي قال: قالت امرأة موسى لموسى: إني أيم منك مذ أربعين سنة فأمتعني بنظرة ٠ فرفع البرقع عن وجهه فغشى وجهه نور التمع بصرها فقالت: ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة ٠ قال: على أن لا تزوجي بعدي وأن لا تأكلي إلا من عمل يديك ٠ قال: فكانت تتبع الحصادين فإذا رأوا ذلك تخاطوا لها فإذا أحست بذلك تجاوزته ٠." (١)

"في الحقيقة كله له إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ (النحل، ٥٣) انتهى.

فإن قيل: بل هو موليه مطلقا بغير وسط، أجيب: بأن المراد بالوسط من تصل إليه النعمة أولا ثم تنتقل منه إلى غيره لا أنه وسط في التأثير.

فأن قيل: لم خص الحمد بالله ولم يقل الحمد للخالق أو نحو من بقية الصفات أجيب: بأن لا يتوهم اختصاص استحقاق الحمد بوصف دون وصف، قال البيضاوي: وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه، ﴿رب العالمين﴾ أي: مالك جميع الخلق من الإنس والجن والملائكة والدواب وغيرهم، إذ كل منها يطلق عليه عالم، يقال: عالم الإنس وعالم الجن إلى غير ذلك، وسمي المالك بالرب لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيدا كقوله تعالى: ﴿ارجع إلى ربك﴾ (يوسف، ٥٠) والعالمين اسم جمع عالم بفتح اللام وليس جمعا له لأن العالم عام في العقلاء وغيرهم والعالمين مختص بالعقلاء والخاص لا يكون جمعا لما هو أعم منه، قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام في «توضيحه» ، وذهب كثير إلى أنه جمع عالم على حقيقة الجمع ثم اختلفوا في تفسير العالم الذي جمع هذا الجمع فذهب أبو الحسن إلى أنه أصناف الخلق العقلاء وغيرهم وهو ظاهر كلام الجوهري، وذهب أبو عبيدة إلى أنه أصناف العقلاء فقط وهو الإنس والجن والملائكة وقيل: عنى به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث أنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير ووجه اشتمال الصغير وهو الإنسان على نظائر ما في الكبير وهو ما سوى الله تعالى أن تفاصيله شبيهة بتفاصيل العالم الكبير، إذ الكبير ينقسم إلى ظاهر محسوس كالعالم الملك وهو ما ظهر للحواس وتكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض وتضمنه التغيير وإلى باطن معقول كعالم الملكوت وهو ما أوجده سبحانه وتعالى بالأمر الأزلي بلا تدريج وبقي على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه، وإلى عالم الجبروت وهو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك فجبر بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس كاللحم والعظم والدم، وإلى باطن كالروح والعقل والإرادة والقدرة، وإلى ما هو مشابه لعالم

الجبروت كالإدراكات الموجودة بالحواس والقوى الموجودة بأجزاء البدن.

فإن قيل: لم جمع جمع قلة مع أن المقام يستدعي الإتيان بجميع الكثرة أجيب: بأن فيه تنبيها على أنهم وإن كثروا قليلون في جنب عظمته وكبريائه تعالى.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٥٣٧/٣

﴿الرحمن الرحيم مالك يوم الدين﴾ ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من أسمائه خمسة: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك، والسبب فيه كأنه يقول: خلقتك أولا فأنا الله ثم ربيتك بوجود النعمة، فأنا رب ثم عصيت فسترت عليك، فأنا رحمن ثم تبت عليك، فأنا رحيم، ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك، فأنا مالك يوم الدين.

فإن قيل: إنه تعالى ذكر الرحمن الرحيم في التسمية ثم ذكرها مرة ثانية دون الأسماء الثلاثة الباقية، فما **الحكمة في ذلك؟** أجيب: بأن **الحكمة في ذلك** كأنه قال تعالى: اذكر أني إله ورب مرة واحدة واذكر أني رحمن رحيم مرتين ليعلم أن العناية بالرحمة أكثر منه بسائر الأمور، ثم لما بين الرحمة المضاعفة فكأنه قال: لا تغتروا بذلك فإني مالك يوم الدين ونظيره، قوله تعالى: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ (غافر، ٣) وقرأ عاصم والكسائي: مالك." (١)

"لسد جواب القسم مسده لكونه دالا عليه ﴿ورحمة﴾ أي: من الله فحذف صفتها لدلالة الأولى عليها ولا بد من حذف آخر مصحح للمعنى تقديره لمغفرة من الله لكم ورحمة منه لكم.

فإن قيل: المغفرة هي الرحمة فلم كررها ونكرها؟ أجيب: بأنه إنما نكرها إيذانا بأن أدنى خير وأقل شيء خير من الدنيا وما فيها وهو المراد بقوله: ﴿خير مما تجمعون﴾ من الدنيا وأما التكرير فغير مسلم؛ لأن المغفرة مترتبة على الرحمة فيرحم ثم يغفر.

فإن قيل: كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلا؟ أجيب: بأن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات فقيل: المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

﴿ولئن متم أو قتلتم﴾ على أي وجه اتفق هلاككم ﴿لا إلى الله﴾ لا غيره ﴿تحشرون﴾ في الآخرة فيجازيكم وقرأ نافع وحمزة ﴿متم﴾ بكسر الميم والباقون بالضم، وقرأ حفص ﴿يحشرون﴾ بياء الغيبة والباقون بتاء الخطاب ورسمت لا إلى الله بألف بعد اللام.

فإن قيل: هنا ثلاثة مواضع فقدم الموت على القتل في الأول والأخير وقدم القتل على الموت في المتوسط فما **الحكمة في ذلك؟** أجيب: بأن الأول لمناسبة ما قبله من قوله: ﴿إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزا﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض والقتل لمن غزا، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد فقدم الأهم الأشرف، وأما الأخير فلأن الموت أغلب.

﴿فبما رحمة﴾ أي: فبرحمة ﴿من الله لنت لهم﴾ فما مزيدة للتأكيد والجار والمجرور مقدم للدلالة على أن لينه صلى الله عليه وسلم ما كان إلا برحمة من الله، ومعنى الرحمة توفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه ﴿ولو كنت فظا﴾ أي: سيء الخلق ﴿غليظ القلب﴾ أي: جافيا ﴿لانفضوا﴾ أي: تفرقوا ﴿من حولك﴾ أي: عنك وذلك؛ لأن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله تعالى إلى الخلق وذلك لا يتم إلا بميل قلوبهم إليه وسكون نفوسهم لديه وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيما بهم كريما يتجاوز عن ذنوبهم ويعفو عن سيئاتهم ويخصهم بالبر والشفقة فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق وغلظ القلب ويكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء كثير القيام بإعانة الفقراء. وحمل القفال هذه

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٩/١

الآية على واقعة أحد قال: فبما رحمة من الله لنت لهم يوم أحد حين عادوا إليك بعد الإنهزام، ولو كنت فظا غليظ القلب فشافهتهم بالملامة على ذلك الإنهزام لانفضوا من حولك هيبة منك وحياء بسبب ما كان منهم من الإنهزام، فكان ذلك مما يطمع العدو فيك وفيهم ﴿فاعف﴾ أي: تجاوز ﴿عنهم﴾ أي: ما أتوه ﴿واستغفر لهم﴾ ذنوبهم حتى أشفعك فيهم فأغفر لهم.

واختلفوا في معنى قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ على وجوه أحدها: إن ذلك يقتضي شدة محبته لهم فلو لم يفعل ذلك لكان ذلك إهانة لهم فيحل سوء الخلق والفظاظة وثانيها: إنه عليه الصلاة والسلام وإن كان أكمل الناس عقلا إلا أن عقول الخلق غير متناهية، فقد يخطر ببال إنسان من وجوه المصالح ما لا يخطر ببال آخر لا سيما فيما يتعلق بأمور الدنيا، قال عليه الصلاة والسلام: «أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم» ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم «ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم» وثالثها: قال الحسن." (١)

"والعراق واليمن وكل ذلك قريب من بلاد العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم وقوله تعالى: ﴿أتتهم رسلهم﴾ راجع إلى كل هؤلاء الطوائف ﴿بالبينات﴾ أي: المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها الكفار والمنافقون فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم. وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ بتعجيل العقوبة لهم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب، ولما بالغ سبحانه وتعالى في وصف المنافقين بالأعمال الفاسدة والأفعال الخبيثة ثم ذكر عقبه أنواع الوعيد في حقهم في الدنيا والآخرة ذكر بعده صفات المؤمنين بقوله تعالى:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة وهذا في مقابلة قوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ (التوبة، ٦٧)

فإن قيل: لم قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿بعضهم من بعض﴾ وقال في وصف المؤمنين: ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ ما **الحكمة في ذلك؟** أجيب: بأنه لما كان نفاق الإتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة قال فيهم: ﴿بعضهم من بعض﴾ ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الحكمة، وقوله تعالى: ﴿يأمرون بالمعروف﴾ أي: بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة ﴿وينهون عن المنكر﴾ أي: الشرك والمعاصي، والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع في مقابلة قوله تعالى في المنافقين: ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف﴾ ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي: المفروضة ويتمون أركانها وشروطها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي: الواجبة عليهم في مقابلة قوله تعالى في المنافقين: ﴿ويقبضون أيديهم﴾ المعبر به عن البخل وقوله تعالى: ﴿ويطيعون الله ورسوله﴾ أي: فيما يأمرهم به في مقابلة قوله تعالى في المنافقين: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ ، ولما ذكر تعالى ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهي ثواب الآخرة بقوله تعالى: ﴿أولئك﴾ أي: المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٢٥٩/١

الصفات ﴿سيرحمهم الله﴾ بوعد لا خلف فيه ﴿إن الله عزيز﴾ أي: غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده ﴿حكيم﴾ أي: لا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه، ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الإجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى:

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فذكر في هذه الآية أن الرحمة هي هذه الأنواع المذكورة في هذه الآية أولها قوله تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فهي لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة، ولما كان النعيم لا يكمل إلا بالدوام قال تعالى: ﴿خالدين فيها﴾ والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار البساتين التي يحير في حسنها الناظر لأنه تعالى قال: ﴿ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ أي: إقامة وخلود وهذا هو النوع الثاني فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الأخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه. قد كثر كلام أصحاب الآثار." (١)

"في الإنجاء والإهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الإنجاء لأنها أثر الرحمة وآخر آيات الهلاك لأنها أثر الغضب ورحمته سابقة، وعن الثاني بأن الإنجاء بالسفينة لا يفتقر إلى أمر آخر، وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديارهم المعمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وإنما ذلك بإرادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وبزمان دون زمان فهي بينة لا يمكن الجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة أمرها يكون كذلك فيقال له فلو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كانت تحصل لهم النجاة ولو سلط الله تعالى عليهم الريح العاصفة كيف تكون أحوالهم، وعن الثالث بأن السفينة موجودة معلومة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال السفينة يتذكرون بها حالة نوح وإذا ركبوها يطلبون من الله النجاة منه ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا إلى الله تعالى طالبا للنجاة، وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه إلا من مر بها ويصل إليها ويكون له عقل يعلم أن ذلك من الله تعالى وإراداته بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان دون زمان، ولما كان شعيب عليه السلام أيضا قد ابتلي بتكذيب قومه اتبع قصته بقصة لوط بقوله تعالى:

﴿وإلى مدين﴾ أي: ولقد أرسلنا أو بعثنا إلى مدين ﴿أخاهم﴾ أي: من النسب والبلد ﴿شعيبا﴾ ومدين قيل: اسم رجل في الأصل وجهل وله ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما، وقيل: اسم ماء نسب القوم إليه فاشتهر في القوم، قال الرازي: والأول كأنه أصح لأن الله تعالى أضاف الماء إلى مدين بقوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ (القصص: ٢٣)

ولو كان اسما للماء لكانت الإضافة غير صحيحة أو غير حقيقية والأصل في الإضافة التغاير والحقيقة، فإن قيل: قال تعالى في نوح: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ (القصص: ٢٣)

فقدم نوحا في الذكر وعرف القوم بالإضافة إليه، وكذلك في إبراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف إليهم أخاهم شعيبا، فما **الحكمة في ذلك؟**.

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ١/٦٣١

أجيب: بأن الأصل في الجميع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لأن الرسل لا تبعث إلى غير معينين وإنما تبعث الرسل إلى قوم محتاجين إلى الرسل فيرسل الله تعالى إليهم من يختاره، غير أن قوم نوح وإبراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاصة ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بنبيهم عليه السلام فقيل قوم نوح وقوم لوط فأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله قال تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ ﴿فقال﴾ أي: فتسبب عن إرساله وبعثه أن قال: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: الملك الأعلى وحده ولا تشركوا به شيئا فإن العبادة التي فيها شرك ظاهر أو خفي عدم لأن الله تعالى أغنى الشركاء فهو لا يقبل إلا ما كان له خالصا.

فإن قيل: لم يذكر عن لوط عليه السلام أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد، وذكر عن شعيب ذلك؟ أجيب: بأن لوطا كان من قوم إبراهيم وفي زمانه وكان إبراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الأمر بالتوحيد عند الخلق من إبراهيم فلم يحتج لوط إلى ذكره وإنما ذكر ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها وإن كان هو أبدا يأمر بالتوحيد إذ ما من رسول إلا ويكون أكثر كلامه في التوحيد، وأما شعيب فكان بعد انقراض ذلك الزمن." (١)

"لم يكن له أصلا اتصاف ما بحياة، أو أنه خلقكم من نطفة، والنطفة من الغذاء، والغداء إنما يتولد من الماء والتراب ﴿ثم﴾ أي: بعد إخراجكم منه ﴿إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ في الأرض كقوله تعالى ﴿وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ (النساء: ١)

تنبيه: الترتيب والمهلة ههنا ظاهران، فإنهم يصيرون بشرا بعد أطوار كثيرة، وتنتشرون حال. وإذا هي الفجائية إلا أن الفجائية أكثر ما تقع بعد الفاء؛ لأنها تقتضي التعقيب. ووجه وقوعها مع ثم بالنسبة إلى ما يليق بالحالة الخاصة أي: بعد تلك الأطوار التي قصها علينا في موضع آخر من كونها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما مجردا ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار.

﴿ومن آياته﴾ أي: على ذلك ﴿أن خلق لكم﴾ أي: لأجلكم ليبقى نوعكم بالتوالد وفي تقديم الجار وهو قوله تعالى ﴿من أنفسكم﴾ أي: جنسكم بعد إيجادها من ذات أبيكم آدم عليه السلام ﴿أزواجا﴾ إناثا هن شفع لكم دلالة ظاهرة على حرمة التزوج من غير الجنس كالجن، قال البقاعي: والتعبير بالنفس أظهر في كونها من بدن الرجل أي: فخلق حواء من ضلع آدم ﴿لتسكنوا﴾ مائلين ﴿إليها﴾ بالشهوة والألفة من قولهم: سكن إليه إذا مال وانقطع واطمأن إليه، ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها، قال ابن عادل: والصحيح أن المراد من جنسكم كما قال تعالى ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ (التوبة: ١٢٨)

ويدل عليه قوله تعالى ﴿لتسكنوا إليها﴾ يعني أن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي: لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه. ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الإلفة قال تعالى ﴿وجعل﴾ أي: صير بسبب الخلق على هذه الصفة ﴿بينكم مودة﴾ أي: معنى من المعاني يوجب أن لا يحب أحد من الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ١٣٩/٣

﴿ورحمة﴾ أي: معنى يحمل كلا على أن يجتهد للآخر في جلب الخير ودفع الضر، وقيل: المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد تمسكا بقوله تعالى: ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ (مريم، ٢) وقوله تعالى: ﴿ورحمة منا﴾ (مريم، ١،) ﴿إن في ذلك﴾ أي: الذي تقدم من خلق الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع ﴿لآيات﴾ أي: دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته ﴿لقوم يتفكرون﴾ أي: يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة ويجتهدون في ذلك فيعلمون ما في ذلك من الحكم، ولما بين تعالى دلائل الأنفس ذكر دلائل الآفاق بقوله تعالى:

﴿ومن آياته﴾ أي: الدالة على ذلك ﴿خلق السموات﴾ على علوها وإحكامها ﴿والأرض﴾ على اتساعها وإتقانها، وقدم السماء على الأرض لأن السماء كالذكر لها، ولما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس بقوله تعالى: ﴿واختلاف ألسنتكم﴾ أي: لغاتكم من العربية والعجمية وغيرهما، ونغماتكم وهيآتها، فلا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس ولا جهارة ولا شدة ولا رخاوة ولا لكنة ولا فصاحة ولا غير ذلك من صفات النطق وأشكاله وأنتم من نفس واحدة ﴿و﴾ اختلاف ﴿ألوانكم﴾ من أبيض وأسود وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الألوان وأنتم بنو رجل واحد وهو آدم عليه السلام، **والحكمة في ذلك**: أن الإنسان يحتاج إلى التمييز بين الأشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو إليه، وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الإقبال عليه، وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور، وقد يكون." (١)

"الألف والحاء، وترك سبعة وترك من القسم الأخير حرفين هما الألف واللام، وذكر سبعة ولم يترك من القسم الأول من حروف الحلق والصدر إلا واحدا لم يذكره وهو الخاء، ولم يذكر من القسم الأخير من حروف الشفة إلا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الأوسط ذكر منه حرفا وترك حرفا فترك الزاي وذكر الراء، وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين، وليس لها أمر يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة لكنها غير معلومة.

وهب أن واحدا يدعى فيه شيئا فماذا يقول في كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص، وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه، وبعضها بثلاثة أحرف كألم وطسم والر، وبعضها بأربعة أحرف كسورة المر والمص، وبعضها بخمسة أحرف كسورة حم عسق وكهعيص.

وهب أن قائلا يقول: إن هذه إشارة بأن الكلام إما حرف وإما فعل وإما اسم، والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الإلصاق وغيرها، وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وإن للشرط وغيرها، والفعل والاسم والحرف جاءت ثلاثة أحرف كإلى وعلى في الحرف وإلى وعلى في الاسم وألا يألوا بالواو، وعلا يعلو في الفعل والاسم، والفعل جاء على أربعة أحرف، والاسم خاصة جاء على ثلاثة أحرف وأربعة وخمسة كعجل ومسجد وجردحل.

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ١٦٢/٣

فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله تعالى، ومن أعلمه الله تعالى به.

وإذا علم هذا فالعبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية، وكل واحد منها قسمان: قسم عقل معناه وحقيقته، وقسم لم يعلم، أما القلبية مع أنها أبعد عن الشك والجهل فمنها ما لم يعلم دليله عقلا، وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي هو أدق من الشعر وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطف، والميزان الذي توزن به الأعمال التي لا ثقل لها في نظر الناظر، وكيفية الجنة والنار، فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي، وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع، ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله تعالى وصدق الرسل، وكذلك في العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات.

والحكمة في ذلك أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة فلا يكون الإتيان إلا لمحض الفائدة بخلاف ما لم تعلم الفائدة، فربما تأتي الفائدة وإن لم يؤمر كما لو قال السيد لعبده: انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في النقل فنقلها، ولو قال: انقلها فإن تحتها كنزا هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر.

وإذا علم هذا فكذلك في العبادات اللسانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي فإذا قال: حم طس يس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به، انتهى كلام ابن عادل بحروفه وهو كلام دقيق، وقرأ يس بإمالة الياء شعبة وحمزة والكسائي، والباقون بالفتح، وأظهر النون من يس عند واو.

﴿والقرآن﴾ قالون وابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة." (١)

"الملازمة المفهومة من هذه الآلة أعني الغل. وقرأ قالون وأبو عمرو والكسائي بسكون الهاء، والباقون بكسرها والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين ﴿فهم مقمحون﴾ أي: رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم في أنهم لا يلتفتون لفتة إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطؤن رؤوسهم له، والإقماح رفع الرأس إلى فوق كالإقناع وهو من قمح البعير رأسه إذا رفعها بعد الشرب إما لبرودة الماء، وإما لكراهة طعمه.

ولما كان الرافع رأسه غير ممنوع من النظر أمامه قال تعالى:

﴿وجعلنا﴾ أي: بعظمتنا ﴿من بين أيديهم﴾ أي: الوجه الذي يمكنهم عمله ﴿سدا﴾ فلا يسلكون طريق الاهتداء.

ولما كان الإنسان إذا انسدت عليه جهة مال إلى أخرى قال تعالى ﴿ومن خلفهم﴾ أي: الوجه الذي هو خفي عنهم ﴿سدا﴾ فلا يرجعون إلى الهداية فصارت كل جهة يلتفتون إليها منسدة فصاروا لذلك لا يمكنهم النظر إلى الحق، ولا الخلوص إليه، فلذلك قال تعالى ﴿فأغشيناهم﴾ أي: جعلنا على أبصارهم بما لنا من العظمة غشاوة ﴿فهم﴾ أي: بسبب

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٣/٣٣٦

ذلك ﴿لا يبصرون﴾ أي: لا يتجدد لهم هذا الوصف من إبصار الحق وما ينفعهم بصر ظاهر ولا بصيرة باطنة، وأيضا الإنسان مبدؤه من الله تعالى ومصيره إليه فعمى الكافرين بأن لا يبصروا ما بين أيديهم من المصير إلى الله تعالى، وما خلفهم من الدخول في الوجود بخلق الله تعالى كمن أحاط بهم سد فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل، وأيضا فإن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فإن انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع، فإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه والموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامته هلك.

فإن قيل: ذكر السد من بين الأيدي ومن الخلف ولم يذكره من اليمين والشمال فما **الحكمة في ذلك؟** أجيب: بأنهم إذا قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء وموليين عن شيء فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم، فيجعل الله تعالى السد هناك فيمنعه من السلوك فكيفما توجه الكافر يجعل الله تعالى بين يديه سدا، وقرأ حمزة والكسائي وحفص سدا بفتح السين في الموضعين وهو لغة فيه، والباقون بالضم.

ولما منعوا بذلك حس البصر أخبر عن حس السمع بقوله تعالى:

﴿وسواء عليهم﴾ أي: مستو ومعتدل غاية الاعتدال ﴿أأنذرتهم﴾ أي: بما أخبرناك به من الزواجر المانعة للكفر ﴿أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ ؛ لأنهم ممن علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون، وقد سبق أيضا في البقرة تفسيره والكلام على الهمزتين، ثم بين الله تعالى الأقل الناجي؛ لأنه المقصود بالذات بقوله تعالى:

﴿إنما تنذر﴾ أي: إنذارا ينفع المنذر فتتأثر عنه النجاة ﴿من اتبع الذكر﴾ أي: القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿وخشي الرحمن﴾ أي: خاف عقابه ﴿بالغيب﴾ أي: قبل موته ومعاينة أهواله أو في سريرته ولا يغتر برحمته فإنه تعالى كما هو رحمن رحيم منتقم جبار ﴿فبشره﴾ أي: بسبب خشيته بالغيب ﴿بمغفرة﴾ أي: لذنوبه وإن عظمت وتكررت.

ولما حصل العلم بمحو الذنوب عينها وأثرها قال تعالى ﴿وأجر كريم﴾ أي: هو الجنة فإنها دار لا كدر فيها بوجه، والمقصود منها هو النظر لوجهه الكريم، اللهم متعنا ومحبينا بالنظر إلى وجهك الكريم.." (١)

"الإنسان محل النقصان لا سيما النسوان رجاهن سبحانه بقوله تعالى: ﴿واستغفر﴾ أي: اسأل ﴿لهن الله﴾ أي: الملك الأعظم ذا الجلال والإكرام في الغفران إن وقع منهن تقصير وهو واقع، لأنه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره ﴿إن الله﴾ أي: الذي له صفات الكمال ﴿غفور﴾ أي: بالغ الستر للذنوب عينا وأثرا ﴿رحيم﴾ أي: بالغ الإكرام بعد الغفران تفضلا منه وإحسانا.

وروي أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تتولوا﴾ أي: لا تعالجوا أنفسكم أن توالوا ﴿قوما﴾ أي: ناسا لهم قوة على ما يحاولونه فغيرهم من

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٣/٣٣٩

باب أولى ﴿غضب الله﴾ أي: أوقع الملك الأعلى الغضب ﴿عليهم﴾ لإقبالهم على ما أحاط بهم من الخطايا، فهو عام في كل من اتصف بذلك يتناول اليهود تناولا أوليا ﴿قد يئسوا﴾ أي: تحققوا عدم الرجاء ﴿من الآخرة﴾ أي: من ثوابها مع إيقانهم بها لعنادهم النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم أنه الرسول المبعوث في التوراة ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ أي من موتاهم أن يبعثوا ويرجعوا أحياء.

وقيل: من أصحاب القبور بيان للكفار، أي: كما يئس الكفار الذين قبروا من خير الآخرة، إذ تعرض عليهم مقاعدهم من الجنة لو كانوا آمنوا، وما يصيرون إليه من النار فيتبين لهم قبح حالهم، وسوء منقلبهم. وما قاله البيضاوي تبعا للزمخشري من أنه صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة» حديث موضوع.

سورة الصف

مدنية في قول الأكثرين، وذكر النحاس عن ابن عباس أنها مكية، وهي أربع عشرة آية ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف

﴿بسم الله﴾ الملك الأعظم الذي لا كفء له ﴿الرحمن﴾ الذي عم بفضله كل أحد من خلقه ﴿الرحيم﴾ الذي خص من شاء من عباده فهيأه لعبادته وأهله.

﴿سبح لله﴾ أي: أوقع التنزيه الأعظم للملك الأعظم ﴿ما في السموات﴾ من جميع الملائكة وغيرها كالأفلاك والنجوم ﴿وما في الأرض﴾ كذلك من الآدميين وغيرهم كالشجر والثمار. وقيل: اللام مزيدة، أي: نزه الله وأتى بما دون من، قال الجلال المحلي: تغليبا للأكثر.

فإن قيل: ما الحكمة في انه تعالى قال في بعض السور سبح لله بلفظ الماضي، وفي بعضها يسبح بلفظ المضارع، وفي بعضها فسبح بلفظ الأمر؟.

أجيب: بأن **الحكمة في ذلك** تعليم العبد أن يسبح الله تعالى على الدوام كما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان، والأمر يدل عليه في الحال فإن قيل: هلا قيل سبح لله السموات والأرض وما فيهما، وهو أكثر مبالغة أجيب: بأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها، وبالأرض جهة السفل فيشمل الأرض وما فيها ﴿وهو﴾ أي: وحده ﴿العزيز﴾ أي: الغالب على غيره أي شيء كان ذلك الغير، ولا يمكن أن يغلب عليه غيره ﴿الحكيم﴾ أي: الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها. روى الدارمي." (١)

"بأن يعظمه كل من بلغه أمره لأن عظمته من عظمته، ولم يذكر حرف الغاية إشارة إلى عموم الإرسال إلى كل من شمله الملك كما مضى ﴿بالهدى﴾ أي: البيان الشافي بالقرآن والمعجزة ﴿ودين الحق﴾ أي: والملة الحنيفية ﴿ليظهره﴾ أي: يعليه مع الشهرة وإذلال المنازع ﴿على الدين﴾ أي: جنس الشريعة التي ستجعل ليجازى من يسلكها ومن يزغ عنها بما

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٢٧٢/٤

يشرع فيها من الأحكام ﴿كله﴾ فلا يبقى دين إلا كان دونه، وانمحق به وذل أهله ذلا لا يقاس به ذل ﴿ولو كره﴾ أي: إظهاره ﴿المشركون﴾ أي: المعاندون في كفرهم الراسخون في سلك المعاندة.

فإن قيل: قال أولا: ﴿ولو كره الكافرون﴾ ، وقال ثانيا: ﴿ولو كره المشركون﴾ ، فما **الحكمة في ذلك؟**.

أجيب: بأنه تعالى أرسل رسوله، وهو من نعم الله تعالى، والكافرون كلهم في كفران النعم سواء فلهذا قال ﴿ولو كره الكافرون﴾ لأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك فالمراد من الكافرين هنا اليهود والنصارى والمشركون، فلفظ الكافر أليق به. وأما قوله تعالى: ﴿ولو كره المشركون﴾ فذلك عند إنكارهم التوحيد وإصرارهم عليه، لأنه صلى الله عليه وسلم في ابتداء الدعوة أمر بالتوحيد بلا إله إلا الله فلم يقولوها، فلهذا قال: ﴿ولو كره المشركون﴾ .

﴿س٦١ش١٠/ش١٤ يا؟أيها الذين ءامنوا؟ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله؟ وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم؟ ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها ا؟نهار ومساكن طيبة فى جنات عدن؟ ذالك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها؟ نصر من الله وفتح قريب؟ وبشر المؤمنين * يا؟أيها الذين ءامنوا؟ كونو؟ا؟ أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواري؟ن من أنصارى؟ إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله؟ ف؟امنت طآ؟؟فة من؟ بنى؟ إسرا؟ءيل وكفرت طآ؟؟فة؟ فأيدنا الذين ءامنوا؟ على عدوهم فأصبحوا؟ ظاهرين﴾

واختلف في سب نزول قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ أي: أقروا بالإيمان ﴿هل أدلكم﴾ أي: وأنا المحيط علما وقدرة فهي إيجاب في المعنى، ذكر بلفظ الاستفهام تشريفا ليكون أوقع في النفس ﴿على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ أي: مؤلم فقال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون قال: «يا رسول الله لو أذنت لي طلقت خولة، وترهبت واختصيت، وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبدا، ولا أفطر بنهار، فقال صلى الله عليه وسلم إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخصاء أمتي الصوم، ولا تحرموا طيبات ما احل الله لكم، ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني، فقال عثمان: والله لوددت يا رسول الله أي التجارة أحب إلى الله تعالى فأتجر فيها، فنزلت» وقيل: أدلكم، أي: سأدلكم، والتجارة: الجهاد، قال الله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ (التوبة: ١١١)

الآية، وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل: نزل هذا حين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملنا به. قال البغوي: وجعل هذا بمنزلة التجارة لأنهم يربحون بها رضا الله تعالى، ونيل جنته والنجاة من النار وقرأ ابن عامر بفتح النون وتشدد الجيم، والباقون بسكون النون وتخفيف الجيم

ثم بين سبحانه تلك التجارة بقوله تعالى: ﴿تؤمنون﴾ أي: تدومون على الإيمان ﴿بالله﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال، وعلى هذا فلا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وقيل: المراد من هذه الآية المنافقون وهم الذين آمنوا في الظاهر، وقيل: أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فإنهم آمنوا بالكتب المتقدمة ﴿ورسوله﴾ الذي تصديقه آية الإذعان للعبودية ﴿وتجاهدون﴾ بيانا لصحة إيمانكم على سبيل التجديد والاستمرار ﴿في سبيل الله﴾ أي: الملك الأعظم الذي لا أمر لغيره ﴿بأموالكم وأنفسكم﴾ وقدم الأموال لعزتها في ذلك الزمان، ولأنها قوام الأنفس فمن بذل ماله كله لم يبخل بنفسه،

لأن المال قوامها. وقال القرطبي: ذكر الأموال أولا لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق ﴿ذلكم﴾ أي: الأمر العظيم من الإيمان وتصديقه بالجهاد ﴿خير لكم﴾ أي: من أموالكم." (١)

"القرآن للجواز نحو قوله هنا: (وإذا حللتم فاصطادوا) وقوله: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) وقوله: (فالآن باشروهن) الآية، وقوله: (فإذا تطهرن فأتوهن) الآية. وبهذا تعلم أن التحقيق الذي دل عليه الاستقراء التام في القرآن أن الأمر بالشيء بعد تحريمه يدل على رجوعه إلى ما كان عليه قبل التحريم من إباحة أو وجوب، فالصيد قبل الاحرام كان جائزا فمنع للإحرام، ثم أمر به بعد الإحلال بقوله: (وإذا حللتم فاصطادوا) .

قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنئان قوم أن عدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) الآية.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (ولا يجرمنكم شنئان قوم) يقول: لا يحملنكم بغض قوم.

قال الشيخ الشنقيطي: لم يبين حكمة هذا الصد، ولم يذكر أنهم صدوا معهم الهدي معكوفا أن يبلغ محله، وذكر في سورة الفتح أنهم صدوا معهم الهدي، وأن **الحكمة في ذلك** المحافظة على المؤمنين والمؤمنات، الذين لم يتميزوا عن الكفار في ذلك الوقت، بقوله: (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) وفي هذه الآية دليل صريح على أن الإنسان عليه أن يعامل من عصى الله فيه، بأن يطيع الله فيه.

قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)

قال مسلم: حدثني محمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا ابن مهدى، عن معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، عن النواس بن سمعان الأنصاري قال: سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن البر والإثم؟ فقال: "البر حسن الخلق، والإثم ماحاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس".

(الصحيح ٤/١٩٨٠ ح ٢٥٥٣ – ك البر والصلة، في تفسير البر والإثم) .." (٢)

"خلق، وأن يكون منصوبا بفعل مضمر، وأن يكون صفة للحي الذي لا يموت، أو بدلا، أو بيانا هذا على قراءة «الرحمن» بالرفع ومن قرأه بالجر فيتعين أن يكون «الذي خلق» صفة للحي فقط.

قوله: ﴿في ستة أيام﴾ فيه سؤال، وهو أن الأيام عبارة عن حركة الشمس في السموات فقيل السموات لا أيام، فكيف قال: خلقها في ستة أيام؟

والجواب: في مدة مقدارها (هذه المدة) ، لا يقال: الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان، لأنا نقول: هذا معارض بنفس الزمان، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل بخمسة أيام والمدة المتوهمة المحتملة لخمسة

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٤/٢٧٨

(٢) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ٢/١٤٨

أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى، فلما لم يلزم من هذا قدم الزمان لم يلزم ما قلتموه، وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام. وقيل: في ستة أيام من أيام الآخرة كل يوم مقداره ألف سنة. وهو بعيد، لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول. فإن قيل: لم قدر الخلق والإيجاد بهذا المقدار؟

فالجواب على قول أهل السنة المشيئة والقدرة كافية للتخصيص، وقالت المعتزلة: لا بد وأن يكون من حكمة وهو أن التخصيص بهذا المقدار أصلح، وهذا بعيد لوجهين:

الأول: أن حصول تلك الحكمة إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا، فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة فلا يصلح أن يكون سببا لزمان معين، وإن كان جائزا افتقر حصول تلك **الحكمة في ذلك** الوقت إلى مخصص آخر، ولزم التسلسل.

والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.." (١)

"السدي، ابن زيد هذا (في) المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر.

واعلم أنه قال: «فتنة الناس» ولم يقل: «عذاب الناس» ؛ لأن فعل العبد ابتلاه من الله، والفتنة تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الإيمان ليؤذيه فبين منزلته، كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا، وهذا إشارة (إلى) أن الصبر على البلية الصادرة (من الإنسان) كالصبر (على العبادات) فإن قيل: هذا يقتضي منع المؤمن من إظهار كلمة الكفر بالإكراه لأن من أظهر كلمة الكفر بالإكراه - احترازا عن العذيب العاجل - يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله.

فالجواب: ليس كذلك لأن من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لأن عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في بطنه الإيمان. قوله: ﴿ولئن جآء نصر من ربك﴾ أي فتح ودولة للمؤمنين «ليقولن» يعني هؤلاء المنافقين للمؤمنين ﴿إنا كنا معكم﴾ على عدوكم، وقال: ﴿ولئن جآء نصر من ربك﴾ ولم يقل: «ولئن جاءكم» «ولئن جاءك» والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون إنا معكم، وهذا يقتضي أن يكونوا قائلين: «إنا معكم» إذا جاء النصر لا يجيء إلا للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ [الروم: ٤٧] ، ولأن غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر، لأن النصر ما يكون عاقبته سليمة، بدليل أن أحد الجيشين إذا انهزم في الحال ثم ذكر المهزوم كرة أخرى وهزموا الغالبين لا يطلق اسم النصر إلا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وإن كسر في الحال فالعاقبة للمتقين، اولنصر لهم في الحقيقة. فإن قيل: ﴿ولئن جاء نصر من ربك﴾ ولم يقل: «من الله» من أن ما تقدم كله يذكر الله كقوله: ﴿أوذي في الله﴾ ، وقوله: «كعذاب الله» فما **الحكمة في ذلك؟**

فالجواب: لأن - «الرب» - اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة، و «الله» اسم مدلوله الهيبة والعظمة، فعند النصر ذكر

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥٥٥/١٤

الاسم الدال على الرحمة والشفقة، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة.

قوله: «ليقولن» العامة على ضم اللام، أسند الفعل." (١)

"وجرحل فما جاء في القرآن إشارة إلى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل في تخصيص بعض السور بالحرف الواحد، والبعض بأكثر فلا يعلم ما السر إلا الله من أعلمه الله به وإذا علم هذا العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جاريحة، وكل واحد منها قسمان:

قمس عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم.

أما القلبية مع أنها عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وإنما وجب الإيمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذي هو أرق من الشعر وأحد من السيف، ويمر عليه المؤمن كالبرق الخاطبف، والميزان الذي تزن به الأعمال الذي لا ثقل بها في نظر الناظر وكيفية الجنة والنار فإن هذه الأشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلي وإنما المعلوم بالعقل إمكانها ووقوعها معلوم (و) مقطوع به بالمسع ومنها ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات **والحكمة في ذلك** أن العبد إذا أتى بما أمر به من غير أن يعمل ما فيه من الفائدة لا يكون الإتيان إلا لمحض العبادة بخلاف ما لو علم الفائدة فربما يأتي بها لفائدة وإن لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده: انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما في لانقل فنقها ولو قال انقلها فإن تحتها كنزا هو لك فإنه ينقلها وإن لم يؤمر وإذا علم ها فكذلك في العبادات السانية الذكرية يجب أن يكون ما لم يفهم معناه إذا تكلم به العبد علم أنه لا يعقل غير الانقياد لأمر المعبود الإلهي. فإذا قال: حم، يس، طس علم أنه لا يذكر ذلك لمعنى يفهمه بل يتلفظ به امتثالا لما أمر به.

فصل

قال ابن عباس: يس قسم، ووري عنه أن معناه يا إنسان بلغة طيىء. قيل: لأن تصغير إنسان أنيسين كما تقدم عن الزمخشري فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال: ياسين أي أنيسين.

قال أكثر المفسرين عين محمدا – صلى الله عليه وسلم – قال الحسن وسعيد بن جبير وجماعة. وقال أبو (العالية: يا رجل. وقال أبو بكر الوراق: يا سيد البشر وقوله: ﴿والقرآن." (٢)

"وقال تعالى: ﴿ومآ آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ومآ آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ [الروم: ٣٩] ، ولا شك أن التماس الشكر من جنس المن والأذى، إذا عرفت ذلك فنقول: القوم لما قالوا: «إنما نطعمكم لوجه الله» بقي فيه احتمال، أنه أطعمه لوجه الله ولسائر الأغراض على سبيل التشريك، فلا جرم نفى هذا الاحتمال بقوله تعالى: ﴿لا نريد منكم جزآء ولا شكورا﴾ .

فصل في الشكر والكفور

الشكور والكفور: مصدران ك «الشكر والكفر» وهو على وزن «الدخول والخروج» هذا قول جمهور أهل اللغة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢١/١٥

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٦٦/١٦

وقال الأخفش: إن شئت جعلت الشكور، جماعة الشكر، وجعلت الكفور في قوله تعالى: ﴿فأبى الظالمون إلا كفورا﴾ مثل «برد وبرود» وإن شئت جعلته مصدرا واحدا في معنى جمع مثل: قعد قعودا، وخرج خروجا.

قوله: ﴿إنا نخاف من ربنا﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: إن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لإرادة مكافأتهم.

والثاني: لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى علل المكافأة بخوف عقاب الله على طلب المكافأة بالصدقة.

فإن قيل: إنه – تعالى – لما حكى عنهم الإيفاء بالنذر، علل ذلك بخوف القيامة فقط، ولما حكى عنهم الإطعام علل ذلك بأمرين: بطلب رضا الله تعالى، وبالخوف، فما **الحكمة في ذلك؟** .

فالجواب: أن النذر هو الذي أوجبه على نفسه لأجل الله، فلما كان كذلك، لا جرم علله بخوف القيامة فقط، وإما الإطعام فالله – تعالى – هو الذي شرعه، فلا جرم ضم إليه خوف القيامة.

قوله: ﴿يوما عبوسا قمطريرا﴾ . القمطرير: الشديد، وأصله كما قال الزجاج: «مشتق من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها، وجمعت قطريها وزمت بأنفها» .

قال الزمخشري: اشتقاقه من القطر، وجعلت الميم زائدة؛ قال أسد بن ناعصة: [الخفيف]

٥٠٣٥ – واصطليت الحروب في كل يوم ... باسل الشر قمطرير الصباح." (١)

"والدين، كما نقله الرسول – عليه السلام – وكذلك القولان في «على» الأخيرة، بمعنى أن الشهادة لمعنى التزكية منه – عليه السلام – لهم.

وإنما قدم متعلق الشهادة آخرا، وقدم أولا لوجهين:

أحدهما: وهو ما ذكره الزمخشري أن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم.

والثاني: أن «شهيدا» أشبه بالفواصل والمقاطع من «عليكم» ، فكان قوله «شهيدا» تمام الجملة، ومقطعها دون «عليكم» ، وهذا الوجه قاله الشيخ مختارا له رادا على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المعفول يشعر بالاختصاص، وقد تقدم ذلك.

فصل في الكلام على الشهادة.

اختلفوا في هذه الشهادة هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فالقائل بأنها في الآخرة وهم الأكثرون لهم وجهان:

الأول: أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم.

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فيطالب الله – تعالى – الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد – صلى الله عليه وسلم – فيشهدون فتقول الأمم: من أين عرفتم فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد – عليه الصلاة والسلام – فيسأل عن حال أمته، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ [النساء: ٤١] وقد

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠/٢٥

طعن القاضي رحمه الله تعالى في هذ الرواية من وجوه:

أحدها: أن مدار هذه الرواية على أن الأمم يكذبون أنبياءهم، وهذا بناء على أن أهل القيامة يكذبون.

وهذا باطل عند القاضي، وسيأتي الكلام على هذه المسألة في سورة «الأنعام» عند قوله تعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ [الأنعام: ٢٣ - ٢٤] .

وثانيها: أن شهادة الأمة، وشهادة الرسول - عليه الصلاة والسلام - مستندة في الآخرة إلى شهادة الله - تعالى - على صدق الأنبياء، وإذا كان كذلك، فلم لم يشهد الله - تعالى - لهم بذلك ابتداء؟

والجوا: **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله - تعالى - وتصديق جميع الأنبياء، والإيمان بهم جميعا، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق.

وثالثها: أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة، وهذا ضعيف لقوله عليه الصلاة." (١)

"قررت معناها هنا؛ لأنها كثيرة الدور في القرآن، فتحمل في كل موضع على ما يناسب من هذا الذي قررناه انتهى كلامه.

واعلم أ، ها إذا تقدمها عاطف جاز إعمالها وإهمالها، وهو الأكثر، وهي مركبة من «همزة وذال ونون» ، وقد شبهت العرب نونها بتنوين المنصوب قلبوها في الوقف ألفا، وكتبوها في الكتاب على ذلك، وهذا نهاية القول فيها.

وجاء في هذا المكان «من بعد ما جاءك» وقال قبل هذا: ﴿بعد الذي جآءك﴾ [البقرة: ١٢٠] وفي «الرعد» : ﴿بعد ما جآءك﴾ [الرعد: ٣٧] فلم يأت ب «من» الجارة إلا هنا، واختص موضعا ب «الذين» ، وموضعين ب «ما» ، فما **الحكمة في ذلك؟**

والجواب: ما ذكره بعضهم وهو أن «الذي» أخص و «ما» أشد إبهاما، فحيث أتي ب «الذي» أشير به إلى العلم بصحة الدين الذي هو الإسلام المانع من ملتي اليهود والنصارى، فكان اللفظ الأخص الأشهر أولى فيه؛ لأنه علم بكل أصول الدين، وحيث أتي بلفظ «ما» أشير به إلى العلم [بركنين] من أركان الدين، أحدهما: القبلة، والأخر: بعض الكتاب؛ لأنه أشار إلى قوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ [الرعد: ٣٦] .

قال: وأما دخول «: من» ففائدته ظاهرة، وهي بيان أول الوقت الذي وجب عليه - عليه السلام - أن يخالف أهل الكتاب في قبلتهم، والذي يقال في هذا: إنه من باب التنوع من البلاغة.." (٢)

"وليس هذا الخلاف مقصور على هذه الكلمة، بل إذا التقى ساكنان من كلمتين؛ وضم الثالث ضما لازما نحو: ﴿ولقد استهزئ﴾ [الأنعام: ١٠] ﴿قل ادعوا﴾ [الإسراء: ١١٠] ، ﴿وقالت اخرج﴾ [يوسف: ٣١] ، جرى الخلاف المذكور، إلا أن أبا عمرو خرج عن أصله في ﴿أو﴾ [المزمل: ٣] و ﴿قل ادعوا﴾ [الإسراء: ١١٠] فضمهما، وابن ذكوان خرج عن أصله، فكسر التنوين خاصة؛ نحو ﴿محظورا انظر﴾ [الإسراء: ٢٠ - ٢١] واختلف عنه في ﴿برحمة ادخلوا﴾

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣/٥٠

[الأعراف: ٤٩] ﴿خبيثة اجتثت﴾ [إبراهيم: ٢٦] فمن كسر، فعلى أصل التقاء الساكنين، ومن ضم، فلإتباع، وسيأتي بيان **الحكمة في ذلك**. عند، ذكره، إن شاء الله – تعالى – والله أعلم.

قوله: «غير باغ» : «غير» : نصب على الحال، واختلف في صاحبها:

فالظاهر: أنه الضمير المستتر [في «اضطر»] ، وجعله القاضي، وأبو بكر الرازي من فاعل فعل محذوف بعد قوله «اضطر» ؛ قالا: تقديره: «فمن اضطر فأكل غير باغ» ؛ كأنهما قصدا بذلك أن يجعلاه قيدا في الأكل لا في الاضطرار.

قال أبو حيان: ولا يتعين ما قالاه؛ إذ يحتمل أن يكون هذا المقدر بعد قوله ﴿غير باغ ولا عاد﴾ بل هو الظاهر والأولى؛ لأن في تقديره قبل «غير باغ» فضلا بين ما ظاهره الاتصال فيما بعده، وليس ذلك في تقديره بعد قوله: «غير باغ» .

و «عاد» : اسم فاعل من: عدا يعدو، إذا تجاوز حده، والأصل: «عادو» فقلب الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها؛ كغاز من الغزو، وهذا هو الصحيح؛ وقيل: إنه مقلوب من، عاد يعود، فهو عائد، فقدمت اللام على العين، فصار اللفظ «عادو» فأعل بما تقدم، ووزنه «فالع» ؛ كقولهم: «شاك» في «شائك» من الشوكة، و «هار» ، والأصل «هائر» ، لأنه من: هار يهور.

قال أبو البقاء – رحمه الله تعالى –: «ولو جاء في غير القرآن الكريم منصوبا، عطفا على موضع» غير «جاز» ، يعني: فكان يقال: «ولا عاديا» .

قوله: «اضطر» أحوج وألجىء، فهو: «افتعل» من الضرورة، وأصله: من الضرر، وهو الضيق، وهذه الضرورة لها سببان:

أحدهما: الجوع الشديد، وألا يجد مأكولا حلالا يسد به الرمق، فيكون عند ذلك مضطرا.

والثاني: إذا أكره على تناوله.." (١)

"وعظم: «إني أحمس» فقال الرجل: «إن كنت أحمسيا، فإني أحمسي، رضيت بهديك، وسمتك، ودينك» ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة.

قال الزهري: كان ناس من الأنصار، فإذا أهلوا بالعمرة، لم يحل بينهم وبين السماء شيء، وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة، فتبدوا له الحاجة بعد ام يخرج من بيته؛ فيرجع، ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء، فيفتح الجدار من ورائه، ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته؛ حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله علنه وسلم، وشرف، وكرم، ومجد، وبجل، وعظم، أهل زمن الحديبية بالعمرة، فدخل حجرة، فدخل رجل على أثره من الأنصار من بني سلمة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وشرف، وكرم، ومجد، وبجلأ، وعظم: «لم فعلت ذلك؟» قال: «لأني رأيتك دخلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرف، وكرم، ومجد، وبجل، وعظم:» إني أحمسي «فقال الأنصاري: وأنا أحمسي، وأنا على دينك، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة.

فصل في اخلافهم في تفسير الآية

ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه:

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٧٨/٣

أحدها: - وهو قول أكثر المفسرين - وهو حمل الآية الكريمة على ما قدمناه في سبب النزول، ويصعب نظم الآية الكريمة عليه؛ فإن القوم سألوا عن الحكمة في تغيير لون القمر، فذكر الله تعالى **الحكمة في ذلك**، وهي قوله: ﴿مواقيت للناس والحج﴾ فأي تعلق بي بيان الحكمة في اختلاف نور القمر، وبين هذه القصة، فذكروا وجوها:

أحدها: أن الله - تبارك وتعالى - لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس والحج، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبرها في الحج، لا جرم ذكرها الله تعالى.

وثانيها: أنه تعالى إنما وصل قوله: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ بقوله: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ ؛ لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد، فنزلت الآية الكريمة فيهما معا في وقت واحد، ووصل أحد الأمرين بالآخر.

وثالثها: كأنهم لما سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة، فقيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم، وارجعوا إلى البحث، عما هو أهم لكم، فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر؛ وليس الأمر كذلك.

الوجه الثاني من تفسير الآية: أن قوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من." (١)

"بالغيبة - إما على الرجوع على الكفار المتقدمين، وإما على الالتفات من خطاب المؤمنين.

فإن قيل: ههنا ثلاثة مواضع، تقدم الموت على القتل في الأول والأخير، وقدم القتل على الموت في المتوسط فما **الحكمة في ذلك؟**

فالجواب: ان الأول لمناسبة ما قبله، من قوله: ﴿إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض، والقتل لمن غزا، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد، فقدم الأهم الأشرف، وأما الأخير فلأن الموت أغلب.

فإن قيل: كيف تكون المغفرة موصوفة بأنها خير مما يجمعون ولا خير فيما يجمعونه أصلا.

فالجواب: أن الذي يجمعونه في الدنيا قد يكون من الحلال الذي يعد خيرا، وأيضا هذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم أن تلك الأموال خيرات.

فقيل: المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات.

قوله: ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ هذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإنه قال في الآية الأولى: ﴿لمغفرة من الله﴾ وهذه إشارة إلى من عبده خوفا من عقابه، ثم قال: ﴿ورحمة﴾ وهو إشارة إلى من عبده لطلب ثوابه، ثم ختمها بقوله: ﴿لإلى الله تحشرون﴾ وهو إشارة إلى من عبده لمجرد العبودية والربوبية، وهذا أعلى المقامات، يروى أن عيسى - عليه السلام - مر باقوام نحفت أبدانهم، واصفرت وجوههم، ورأى عليهم آثار العبادة، فقال: ماذا تطلبون؟ فقالوا: نخشى عذاب الله، فقال: هو أكرم من أن يمنعكم رحمته.

ثم مر بقوم، فرأى آثار العبودية عليهم أكثر، فسألهم: فقالوا: نعبده لأنه إلهنا، ونحن عبيده، لا لرغبة ولا لرهبة، فقال: أنتم العبيد المخلصون، والمتعبدون المحقون.

قوله: ﴿لإلى الله﴾ اللام جواب القسم، فهي داخلة على ﴿تحشرون﴾ و ﴿وإلى الله﴾ متعلق به، وإنما قدم للاختصاص،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٨/٣

أي: إلى الله – لا إلى غيره – يكون حشركم، أو للاهتمام به، وحسنه كونه فاصلة، ولولا الفصل لوجب توكيد الفعل بالنون؛ لأن المضارع المثبت إذا كان مستقبلا وجب توكيده [بالنون] ، مع اللام، خلافا للكوفيين؛ حيث يجيزون التعاقب بينهما.

كقول الشاعر: [الكامل]." (١)

"١٩٦٦ – هما نفثا في في من فمويهما ... على النابح العاوي أشد رجام

بخلاف الإفراد فإنه ورد في فصيح الكلام، ومنه: «مسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما» .

وقال بعضهم: الأحسن الجمع، ثم التثنية، ثم الإفراد كقوله: [الطويل]

١٩٦٧ – حمامة بطن الواديين ترنمي ... سقاك من الغر الغوادي مطيرها

وقال الزمخشري: أيديهما: يديهما، ونحوه: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾ [التحريم: ٤] اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأريد باليدين اليمنيان بدليل قراءة عبد الله: «والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم» ورد عليه أبو حيان بأنهما ليسا بشيئين، فإن النوع الأول مطرد فيه وضع الجمع موضع التثنية، بخلاف الثاني فإنه لا ينقاس، لأن المتبادر إلى الذهن من قولك: «قطعت آذان الزيدين» : «أربعة الآذان» وهذا الرد ليس بشيء؛ لأن الدليل دل على أن المراد اليمنيان.

فصل من أول من قطع في حد السرقة؟

قال القرطبي: أول من حكم بقطع [اليد] في الجاهلية ابن المغيرة، فأمر الله بقطعه في الإسلام، فكان أول سارق قطعه رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – في الإسلام، من الرجال الخيار بنش عدي بن نوفل بن عبد مناف ومن النساء مرة بنت سفيان من بني مخزوم، وقطع أبو بكر – رضي الله عنه – يد الفتى الذي سرق العقد، وقطع عمر – رضي الله عنه – يد ابن سمرة أخي عبد الرحمن بن سمرة.

فصل لماذا بدأ الله بالسارق في الآية؟

قال القرطبي: بدأ الله بالسارق في هذه الآية قبل السارقة، وفي الزنا بدأ بالزانية، **والحكمة في ذلك** أن يقال: لما كان حب المال على الرجال أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب بدأ بهما في الموضعين.

قوله تعالى: «جزاء» فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر، أي: جازوهما جزاء.

الثاني: أنه مصدر [أيضا] لكنه منصوب على معنى نوع المصدر؛ لأن قوله: «فاقطعوا» في قوة: جازوهما بقطع الأيدي جزاء.." (٢)

"جيب ذراعها بعد أمن منعته منه إذ لم تعرفه.

وقيل: أمر الله تعالى جبريل A، فنفخ الروح الذي هو روح عيسى في فرجها فحيي بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ أي: عبرة لعالم زمانهما. والتقدير على مذهب سيبويه: وجعلناها آية وابنها

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٤/٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢٤/٧

آية، ثم حذف الأولى. أي: علما وحجة على العالمين والمعنى: جعلها آية إذا ولدت من غير فحل، وجعله آية إذ ولد من غير نطفة، وإذ نطق في يوم ولد، وتكلم **بالحكمة في ذلك** اليوم.

ثم قال تعالى ذكره: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾.

أي: وإن هذه ملتكم ملة واحدة، وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون، دون الأصنام والأوثان.

قال مجاهد وابن عباس: " أمتكم أمة واحدة " أي: دينكم دين واحد. وأمة نصبت على الحال/.." (١)

"من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته.."١.

– وإنما تعرضت لذكر هذه المقدمة باعتبار أن هذه الآية الكريمة التي ختمت بتسبيح الله ذاته متعلقة بما قبلها في ذكر سلسلة من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا. فكان لا بد من الوقوف على وجه **الحكمة في ذلك**، ولارتباط غاية مجيء التسبيح بذكر أسماء الله تعالى ههنا.

– وتبدأ هذه الآية الكريمة كسابقتها بقوله ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو﴾ وهذا التكرار للاستئناف لأن المقام مقام تعظيم وهو من مقامات التكرير، وفيه –أيضا– اهتمام بصفة الوحدانية له تعالى. أي هو الإله المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له.

ثم يجيء بعد هذا ذكر أسماء وصفات له أخرى غير ما ذكر في الآية قبلها (الملك) أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة (القدوس) أي المبارك (السلام) أي من جميع العيوب والنقائص (المؤمن) أي الذي أمن خلقه من أن يظلمهم (المهيمن) أي الشاهد على خلقه بأعمالهم (العزيز) أي الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه (الجبار) أي المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم (المتكبر) أي عن كل شر وسوء٢.ومن بعد هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا يسبح الله نفسه الكريمة وهو ما سأبينه في المطلب القادم.

---

١ التحرير والتنوير لابن عاشور: ج٢٨ ص١١٧_١١٨.

٢ انظر: تفسير الطبري ج٢٨ ص٣٦_٣٧؛ تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٣.." (٢)

"﴿زين للناس﴾ كلام مستأنف سيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها وتزهيد للناس فيها وتوجيه رغباتهم إلى ما عنده تعالى إثر بيان عدم نفعها للكفرة الذين كانوا يتعززون بها والمراد بالناس الجنس

﴿حب الشهوات﴾ الشهوة نزوع النفس إلى ما تريده والمراد ههنا المشتهيات عبر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مشتهاة مرغوبا فيها كأنها نفس الشهوات أو أيذانا بانهماكهم في حبها بحيث أحبوا شهواتها كما في قوله تعالى ﴿إني أحببت حب الخير﴾ أو استرذالا لها فإن الشهوة مسترذلة مذمومة من صفات البهائم والمزين هو الباري سبحانه وتعالى إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعي **والحكمة في ذلك** ابتلاؤهم قال تعالى إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم الآية فإنها ذريعة

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٤٨١١/٧

(٢) تسبيح الله ذاته العلية في آيات كتابه السنية عماد بن زهير حافظ ص/٦٢

لنيل سعادة الدارين عندكون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة وسيلة إلى بقاء النوع وإيثار صيغة المبني للمفعول للجري على سنن الكبرياء وقرئ على البناء للفاعل وقيل المزين هو الشيطان لما أن مساق الآية الكريمة على ذمها وفرق الجبائي بين المباحات فأسند تزيينها إليه تعالى وبين المحرمات فنسب تزيينها إلى الشيطان

﴿من النساء والبنين﴾ في محل النصب على أنه حال من الشهوات وهي مفسرة لها في المعنى وقيل من لبيان الجنس وتقديم النساء على البنين لعراقتهن في معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان وعدم التعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن

﴿والقناطير المقنطرة﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير وقيل مائة ألف دينار وقيل ملء مسك ثور وقيل." (١)

"الرعد ٣٧ ٣٨ لكم إلى إنكاره لإطباق جميع الأنبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا فما لكم تشركون به عزير أو المسيح وقرىء ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به (إليه) إلى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو إلى ما أمرت به من التوحيد (أدعو) الناس لا إلى غيره أولا إلى شيء آخر مما لم يطبق عليه الكتب الإلهية والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه إنكاركم (وإليه) إلى الله تعالى وحده (مآب) مرجعي للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك إلزاما وتبكيتا لهم ثم شرع في رد إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان **الحكمة في ذلك** فقيل." (٢)

"السابعة عشرة: أن منعهم الجلوس مع العظماء في مجلس العلم هو الطرد المذكور.

الثامنة عشرة: ذكر فتنته سبحانه بعض خلقه ببعض.

التاسعة عشرة: ذكر بعض **الحكمة في ذلك**.

العشرون: أن من ذلك رفعة من لا يظن الناس فيه ذلك.

الحادية والعشرون: أن الدين إن صح فهو المنة العظيمة التي لا تساويها منن الدنيا.

الثانية والعشرون: أن من الفتنة حرمانه سبحانه من لا يظن الناس أنه يحرمه.

الثالثة والعشرون: المسألة العظيمة الكبيرة، وهي الاستدلال بصفات الله على ما أشكل عليك من القدرة، لأنه سبحانه رد عليهم ما وقع في أنفسهم من استبعاد كون الله حرمهم، وخص هؤلاء بالكرامة.

الرابعة والعشرون: جلالة هذه المسألة، وهي مسألة علم الله لأنه سبحانه رد بها على الملائكة لما قالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ ١ الآية، ورد بها على الكفار الجهال في هذه الآية كما ترى.

الخامسة والعشرون: أنه متقرر عند الكفار عبدة الأوثان منكري البعث أن الله سبحانه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، والأشعرية يزعمون أنه لا يفعل شيئا لشيء.

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٤/٢

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٦/٥

١سورة البقرة آية: ٣٠.." (١)

"سورة الأعراف

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: مسائل في سورة الأعراف:

الآية الأولى ١.

الأولى: فيها وصفه بأنه كتاب.

الثانية: كونه منزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

الثالثة: النهي عن الحرج.

الرابعة: فاء التفريع.

الخامسة: ذكر **الحكمة في ذلك**، وهي الإنذار العام، والذكرى الخاصة.

الآية الثانية ٢.

الأولى: فيها الأمر باتباعه.

الثانية: التحريض على ذلك بأنه منزل إلينا من ربنا.

الثالثة: النهي عن اتباع ما سواه.

الرابعة: أنه لا بد من هذا وهذا.

---

١ قوله تعالى: (كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) سورة الأعراف: ٢.

٢ قوله تعالى: (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) سورة الأعراف: ٣.." (٢)

"الثانية: الاستغفار.

الثالثة: المبالغة فيه.

الرابعة: أن العاصي لم يظلم إلا نفسه.

وفي الآية الثالثة والعشرين ١.

الأولى: أمره لهم بالهبوط.

الثانية: إخباره بعداوة بعضهم لبعض.

الثالثة: إخباره لهما بما لهم في الأرض.

الرابعة: مضرة المعصية ولو تاب فاعلها منها.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٥٨

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٦٩

الخامسة: الرد على من قال: بالعصمة.

وفي الآية السادسة والعشرين ٢.

الأولى: فيها تذكيره بما يواري السوءات.

الثانية: تذكيره بإنزال الريش.

الثالثة: تذكيره بإنزال لباس التقوى.

الرابعة: إخباره بخير اللباسين.

الخامسة: ذكره أن ذلك من آياته.

السادسة: ذكره **الحكمة في ذلك**.

---

١ قوله تعالى: الآية: ٢٤.

٢ في الأصل (الثامنة عشر) ، وفي هذا الموضع من المخطوطة شيء من الخطأ في عد الآيات. والمقصود قوله تعالى: (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) الآية: ٢٦.." (١)

"السادسة: أن هذا ليس من المن والأذى المذموم.

السابعة: أن قوله: ﴿فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾ ليس من منع المضطر المذموم.

الثامنة: ما صنع الله له من إذلالهم بين يديه، وذلك أنهم وعدوه أنهم يراودون أباه، وأكدوا ذلك له بالعزم على الفعل.

التاسعة: أمره الفتيان بجعل بضاعتهم في رحالهم، **والحكمة في ذلك** أنهم إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا المتاع ووجدوها ردت إليهم، رجعوا.

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظونرضي الله عنهقال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾ ١.

فيه مسائل:

الأولى: أنهم وفوا ليوسف بما وعدوه.

الثانية: أنهم ذكروا لأبيهم ما يقتضي الإجابة، وهو منع الكيل.

الثالثة: أن هذا مما يدل على أنهم لا غناء لهم عن التردد إلى الميرة.

الرابعة: أنهم وعدوه حفظه وأكدوه، بأن، واللام.

الخامسة: جوابه عليه السلام لهم فيدل على قوله: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" ٢ ٣.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٧٦

١ سورة يوسف آية: ٦٣- ٦٤.

٢ البخاري: الأدب (٦١٣٣) ، ومسلم: الزهد والرقائق (٢٩٩٨) ، وأبو داود: الأدب (٤٨٦٢) ، وابن ماجه: الفتن (٣٩٨٢) ، وأحمد (٢/٣٧٩) ، والدارمي: الرقاق (٢٧٨١) .

٣ رواه الشيخان وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا. وراجع في سبب قولها: سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٥٦.." (١)

"التاسعة والسبعون ١، وسبع بعدها، فيها:

الأولى: التنبيه على تنزيهه ٢ عن مضاد الحكمة.

الثانية: كونه ما خلق ذلك إلا بالحق؛ ففيه إثبات الحكمة.

الثالثة: أن من **الحكمة في ذلك** الإيمان به وتوحيده.

الرابعة: الإيمان بإتيان الساعة.

الخامسة: أن العلم بإتيانها فيه تعزية للمظلوم.

السادسة: أن العلم بكونه الخلاق العليم فيه تعزية أيضا.

السابعة: أن فيه الوعيد للظالم.

الثامنة: المنة بإيتاء السبع المثاني والقرآن العظيم، وفيه التعزية عما أصابه به، وعما صرف عنه.

التاسعة: نهيه عن مد العين إلى دنياهم.

العاشرة: كون ذلك من نتائج ذلك الإيتاء.

الحادية عشرة: نهيه عن الحزن عليهم ولو كانوا الملأ.

---

١ قوله تعالى: (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين وقل إني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) الآيات: ٨٥-٩٣.

٢ في س " تنزيهه الله ".." (٢)

"الخامسة ١، والآيتان ٢ بعدها ٣. فيها:

الأولى: الاستدلال بخلق الأنعام على اختلافها.

الثانية: أن ذلك لنا.

الثالثة: التنبيه على ما فيها من المصالح، منها الدفء والأكل والجمال، وحمل الأثقال، إلى ما ذكره، وغير ذلك من المنافع.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/١٦٠

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/١٩٥

الرابعة: التنبيه على رأفته ورحمته بنا.

الثامنة: ٤

الأولى: ذكر الخيل والبغال والحمير في الاستدلال.

الثانية: ذكر نعمته أن **الحكمة في ذلك** لركوبنا.

الثالثة: زينة لنا.

الرابعة: التنبيه على خلق ما لا نعلم.

التاسعة: ٥فيها:

الأولى: أن السبيل منها قاصد.

---

١ قوله تعالى: (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) الآية: ٥.

٢ قوله تعالى: (ولكم فيا جمال حين تريحون وحين تسرحون) الآية: ٦.

٣ قوله تعالى: (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) الآية: ٧.

٤ قوله تعالى: (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) الآية: ٨.

٥ قوله تعالى: (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين) الآية: ٩.." (١)

"الرابعة: ذكر الآيات في ذلك.

الخامسة: أنها مخصوصة بالذين يعقلون.

الثانية عشرة: ١

الأولى: الاستدلال بخلق ما في الأرض لنا على اختلافه وكثرته.

الثانية: ذكر النعمة في كونه لنا.

الثالثة: ذكر الآيات في ذلك.

الرابعة: تخصيص المتفكرين بفهمها.

الثالثة عشرة: ٢

الأولى: تسخير البحر.

الثانية: أنه الذي فعله، لا غيره.

ال ثالثة: التنبيه على ما فيه من مصالحنا، من أكل اللحم الطري، واستخراج الحلية ولبسها؛ وجريان الفلك فيه، والابتغاء من فضله.

الرابعة: أن **الحكمة في ذلك** ليستخرج منكم الشكر في هذه الأمور التي فيها الآيات والنعم.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٢٠١

الرابعة عشرة: ٣

الأولى: الاستدلال بخلق الجبال.

---

١ قوله تعالى: (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) الآية: ١٣.

٢ قوله تعالى: (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) الآية: ١٤.

٣ قوله تعالى: (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون) الآيتان: ١٥-١٦.." (١)

"التاسعة: إخباره أن السواد الأعظم لا يعلمون.

العاشرة: ذكره **الحكمة في ذلك** وهي تبيينه لهم ما اختلفوا فيه، ومعرفة الكافرين أنهم أهل الكذب لا خصومهم.

الحادية عشرة: ذكره عظيم قدرته، وأنها على غير القياس، وهم نفوا لما نظروا إلى عظمة الأمر، ولم يعرفوا عظمة الله.

السادسة والثلاثون: ١

الأولى: ذكر الهجرة.

الثانية: ذكر نية أهلها.

الثالثة: ذكر الظلم الذي أصابهم وصبروا.

الرابعة: الوعيد بحسنة الدنيا.

الخامسة: أن أجر الآخرة أعظم.

السادسة: أن هذا الخير العظيم لا يعلمه الأكثر، ولو علموه لاستبقوا إليه.

السابعة: وصفهم بالصبر.

الثامنة: وصفهم بالتوكل.

السابعة والثلاثون: ٢

الأولى: ذكر الحجة الدامغة لإنكارهم لإرسال البشر مع تسليمهم بنبوة المتقدمين.

---

١ قوله تعالى: (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) الآيتان ٤١-٤٢.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٢٠٣

٢ قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) الآيتان: ٤٣-٤٤.." (١)

"الثانية: الأكنان من الجبال.

الثالثة: سرابيل الحر.

الرابعة: سرابيل البأس.

الخامسة: إتمام النعمة.

السادسة: **الحكمة في ذلك.**

السبعون، ١ والتي بعدها:

الأولى: ذكر الوعيد.

الثانية: التعزية.

الثالثة: التعليم أن ذلك ليس عليه.

الرابعة: ذكر ما عليه.

الخامسة: نعمته بالبيان.

السادسة: العجب العجاب، وهو جمعهم بين الضدين.

السابعة: أن أكثرهم عدم القوة العملية. ٢

الحادية والسبعون، وآيتان بعدها:

الأولى: ذكر بعثة الشهداء.

الثانية: أنه من كل أمة شهيدا.

---

١ قوله تعالى: ﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾ الآيتان: ٨٢-٨٣.

٢ قوله تعالى: ﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون﴾ الآيتان: ٨٦-٨٧.." (٢)

"الرابعة: بيانه لكل شيء.

الخامسة: كونه هدى.

السادسة: كونه رحمة.

السابعة: كونه بشرى لقوم مخصوصين.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٢١١

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٢٢٢

الثامنة: الثناء على الإسلام.

السابعة والسبعون ١:

الأولى: الأمر بالعدل.

الثانية: الأمر بالإحسان.

الثالثة: الأمر بإيتاء ذي القربى.

الرابعة: النهي عن الفحشاء.

الخامسة: النهي عن المنكر.

السادسة: النهي عن البغي.

السابعة: ذكر أن الأمر والنهي موعظة.

الثامنة: ذكر **الحكمة في ذلك**.

التاسعة: أن التذكير مستلزم العمل.

الثامنة والسبعون: ٢

الأولى: الأمر بالوفاء بالعهد.

---

١ قوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ الآية: ٩٠.

٢ قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾ الآية: ٩١.." (١)

"العاشرة: نصيحة موسى لقومه فيها أمران، وثلاثة أخبار.

الحادية عشرة: ردهم على موسى.

الثانية عشرة: جوابه لهم.

الثالثة عشرة: إخبار الله أنه أخذهم بالسنين ونقص الثمرات.

الرابعة عشرة: ذكر **الحكمة في ذلك**.

الخامسة عشرة: أنهم لم يفهموا مراد الله بالحسنة والسيئة التي تأتيهم، بل عكسوا الأمر.

السادسة عشرة: قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ ١.

السابعة عشرة: كون الأكثر لا يعلمون هذه المسألة.

الثامنة عشرة: شدة عنادهم.

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٢٢٤

التاسعة عشرة: ذكره إرسال الآيات عليهم.

العشرون: كونهم مع ذلك استكبروا.

الحادية والعشرون: قوله: ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ ٢.

الثانية والعشرون: كلامهم لموسى لما وقع عليهم الرجز.

الثالثة والعشرون: نكثهم ما قالوا.

الرابعة والعشرون: قوله: ﴿فانتقمنا منهم﴾ بالفاء.

الخامسة والعشرون: ذكره السبب.

السادسة والعشرون: ذكر فضله على الضعفاء.

السابعة والعشرون: أن ذلك سبب صبرهم.

الثامنة والعشرون: تدمير ما صنعوا وما كانوا يعرشون.

---

١ سورة الأعراف آية: ١٣١.

٢ سورة الأعراف آية: ١٣٣.." (١)

"السجود، فقيل: إن الركوع هنا بمعنى السجود، وقيل: خر من ركوعه ساجدا بعد أن ركع، ومعنى أناب: تاب، وروي أنه بقي ساجدا أربعين يوما يبكي حتى نبت البقل من دموعه، وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك خلافا للشافعي، إلا أنه اختلف في مذهب مالك هل يسجد عند قوله: وأناب، أو عند قوله: وحسن مآب

وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب الزلفى القربة والمكانة الرفيعة، والمآب المرجع في الآخرة يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض تقديره قال الله يا داود، وخلافة داود بالنبوة والملك، قال ابن عطية: لا يقال خليفة الله إلا لنبي، وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وقول الناس فيهم خليفة الله تجوز وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا أي عبثا بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما ذلك ظن الذين كفروا المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلا بغير الحكمة، فإن **الحكمة في ذلك** إنما تظهر في الجزاء الأخروي أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار: أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار، بل يجازي كل واحد بعلمه لتظهر حكمة الله في الجزاء، ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء، وفيه أيضا وعد ووعيد.

إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد الصافنات جمع صافن، وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه أو يديه ويقف على طرف الأخرى، وقيل: الصافن هو الذي يسوي يديه، والصفن علامة على فراهة الفرس، والجياد السريعة الجري واختلف الناس في قصص هذه الآية، فقال الجمهور: إن سليمان عليه السلام عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه وقيل:

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٣٠٤

أخرجتها له الشياطين من البحر، وكانت ذوات أجنحة، وكانت ألف فرس، وقيل: أكثر فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشي «العصر» ، فأسف لذلك، وقال: ردوا علي الخيل وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها لما كانت سبب فوات الصلاة، ولم يترك منها إلا اليسير، فأبدله الله أسرع منها وهي الريح، وأنكر بعض العلماء هذه الرواية وقال: تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز، فكيف يفعله سليمان عليه السلام؟ وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة فقال بعضهم:." (١)

"الشيطان في صدر الإنسان بأنواع كثيرة منها: إفساد الإيمان والتشكيك في العقائد فإن لم يقدر على ذلك أمره بالمعاصي، فإن لم يقدر على ذلك ثبطه عن الطاعات، فإن لم يقدر على ذلك أدخل عليه الرياء في الطاعات ليحبطها، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه، واستكثار عمله، ومن ذلك أنه يوقد في القلب نار الحسد، والحقد، والغضب، حتى يقود الإنسان إلى شر الأعمال وأقبح الأحوال وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء واحدها الإكثار من ذكر الله وثانيها الإكثار من الاستعاذة بالله منه ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السورة وثالثها مخالفته والعزم على عصيانه فإن قيل: لم قال في الصدور الناس ولم يقل: في قلوب الناس؟ فالجواب أن ذلك إشارة إلى عدم تمكن الوسوسة، وأنها غير حالة في القلب بل هي محومة في صدور حول القلب

من الجنة والناس هذا بيان لجنس الوسواس وأنه يكون من الجن، ومن الناس، ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد من يوسوس بخدعه وأقواله الخبيثة، فإنه الشيطان كما قال تعالى شياطين الإنس والجن [الأنعام: ١١٢] أو يريد به نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء، فإنها أمارة بالسوء والأول أظهر، وقيل: من الناس معطوف على الوسواس كأنه قال: أعوذ من شر الوسواس من الجنة ومن شر الناس، وليس الناس على هذا ممن يوسوس. والأول أظهر وأشهر.

فإن قيل: لم ختم القرآن بالمعوذتين وما **الحكمة في ذلك؟** فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده، والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله. الثاني يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما: أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط كما قال في فاتحة الكتاب: لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم ير مثلهما ليجمع حسن الافتتاح والاختتام، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها. الوجه الثالث يظهر لي أيضا أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القراءة، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، وليكون القارئ محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره.

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٢٠٧

تم بفضل الله كتاب التسهيل لعلوم التنزيل للإمام محمد بن أحمد بن جزي رحمه الله وأجزل مثوبته راجيا من الله حسن الختام لكل من قرأه وانتفع به ودعا لمصححه وناشره وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم." (١)

"قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم ... ﴾

الظلم هنا المراد به الكفر لتقيده (باتخاذ) العجل. قال الله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وقال جل ذكره: ﴿الذينءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ هو مطلق فلذلك أشكل على الصحابة رضي الله عنهم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟

قال ابن عرفة: وقدم المجرور هنا على المفعول، والأصل تأخيره عنه، ولا (يقدم) إلا لنكتة (تتوخى) **والحكمة في ذلك** أن النداء إقبال على المنادى، وتخصيص له فلو قيل: (وإذ) قال موسى: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم لقومه. لما كان." (٢)

"الدرجات في المسافة ويبقى التفضيل مذكورا في صدر الآية فقط، وبينات عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين، و «روح القدس» جبريل عليه السلام، وقد تقدم ما قال العلماء فيه.

قوله عز وجل:

ولو شاء الله ...

ظاهر اللفظ في قولهم: من بعدهم يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل، وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي فلف الكلام لفا يفهمه السامع، وهذا كما تقول:

اشتريت خيلا، ثم بعتها، فجائزة لك هذه العبارة وأنت اشتريت فرسا ثم بعته، ثم آخر وبعته، ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغيا وحسدا، وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى، ولو شاء خلاف ذلك لكان. ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك**. الفعال لما يريد، فاقتتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر. وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض.

قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٤]

يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

قال ابن جريج: هذه الآية تجمع الزكاة والتطوع، وهذا كلام صحيح فالزكاة واجبة والتطوع مندوب إليه، وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر من سبيل وصلة رحم، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين، يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: والكافرون هم الظالمون، أي فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال، وندب الله تعالى بهذه الآية، إلى إنفاق شيء مما أنعم به وهذه غاية التفضل فعلا وقولا، وحذر تعالى من الإمساك، إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك بنفقة في ذات الله، إذ هي

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٥٣٠/٢

(٢) تفسير ابن عرفة ابن عرفة ٢٨٩/١

مبايعة على ما قد فسرناه في قوله تعالى: من ذا الذي يقرض الله [البقرة: ٢٤٥] ، أو إذ البيع فدية لأن المرء قد يشتري نفسه ومراده بماله، وكأن معنى الآية معنى سائر الآي التي تتضمن إلا فدية يوم القيامة.
وأخبر الله تعالى بعدم الخلة يوم القيامة، والمعنى: خلة نافعة تقتضي المساهمة، كما كانت في الدنيا، وأهل التقوى بينهم في ذلك اليوم خلة ولكنها غير محتاج إليها. وخلة غيرهم لا تغني من الله شيئا.
وأخبر تعالى أن الشفاعة أيضا معدومة في ذلك اليوم، فحمل الطبري ذلك على عموم اللفظ وخصوص المعنى، وأن المراد ولا شفاعة للكفار. وهذا لا يحتاج إليه. بل الشفاعة المعروفة في الدنيا وهي." (١)

"وغيرهما، وقال ابن عباس: تأويله مآله يوم القيامة، وقال السدي: ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضا، والمراد هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مآل الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه وهم يعتقدون مآله جميلا لهم؟ فأخبر الله عز وجل أن مآله يوم يأتي يقع معه ندمهم، ويقولون تأسفا على ما فاتهم من الإيمان لقد صدقت الرسل وجاءوا بالحق، فالتأويل على هذا مأخوذ من آل يؤول، وقال الخطابي: أولت الشيء رددته إلى أوله فاللفظة مأخوذة من الأول، حكاه النقاش.
قال القاضي أبو محمد: وقد قيل أولت معناه طلبت أول الوجوه والمعاني ونسوه في الآية يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك ويقرون بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعتب لهم فيه، وقرأت فرقة: «أو نرد» برفع الفعل على تقدير أو هل نرد وبنصب «فنعمل» في جواب هذا الاستفهام الأخير، وقرأ الحسن بن أبي الحسن «أو نرد فنعمل» بالرفع فيهما على عطف «فنعمل» ، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو حيوة «أو نرد فنعمل» ونصب نرد في هذه القراءة إما على العطف على قوله: فيشفعوا، وإما بما حكاه الفراء من أن «أو تكون» بمعنى حتى كنحو قول امرئ القيس:
أو نموت فنعذرا ويجيء المعنى، أن الشفاعة تكون في أن يردوا ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة.
وقوله تعالى: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام الآية، خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله، والرب أصله في اللغة المصلح من رب يرب وهو يجمع في جهة ذكر الله تعالى المالك والسيد وغير ذلك من استعمالات العرب، ولا يقال الرب معرفا إلا لله، وإنما يقال في البشر بإضافة، وروى بكار بن الشقير «إن ربكم الله» بنصب الهاء، وقوله في ستة أيام حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كألف سنة، وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قدرة الله تعالى، وأما وجه **الحكمة في ذلك** فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع، وما ذهب إليه من أراد أن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تخرص، وجاء في التفسير وفي الأحاديث أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وكملت المخلوقات يوم الجمعة، ثم بقي دون خلق يوم السبت، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره، ولليهود لعنهم الله تعالى في هذا كلام سوء تعالى الله عما يصفون.
ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج في كتاب الدلائل لثابت السرقسطي، أن الله تعالى خلق التربة يوم السبت وذكره

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٣٩/١

مكي في الهداية، وقوله تعالى: استوى على العرش معناه عند أبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين بالملك والسلطان، وخص العرش بالذكر تشريفا له إذ هو أعظم المخلوقات، وقال سفيان الثوري: فعل فعلا في العرش سماه استواء.

قال القاضي أبو محمد: والعرش مخلوق معين جسم ما، هذا الذي قررته الشريعة، وبلغني عن أبي الفضيل بن النحوي أنه قال: العرش مصدر عرش يعرش عرشا، والمراد بقوله استوى على العرش هذا.

قال القاضي أبو محمد: وهذا خروج كثير عن ما فهم من العرش في غير ما حديث عن النبي صلى." (١)

"هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته، والخطاب بها لجميع الناس، وخلق السماوات والأرض هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وقوله في ستة أيام قيل هي من أيام الآخرة، وقال الجمهور، وهو الصواب:

بل من أيام الدنيا.

قال القاضي أبو محمد: وذلك في التقدير لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ وقول النبي صلى الله عليه وسلم في خلق الله المخلوقات إن الله ابتدأ يوم الأحد كذا ويوم كذا كذا إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتدأ ترتيب اليوم والليلة والمشهور أن الله ابتدأ بالخلق يوم الأحد، ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم وفي الدلائل أن البداءة وقعت يوم السبت وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور.

قال القاضي أبو محمد: وهذا مما لا يوصل تعليله وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق الثمار وغير ذلك والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدرا وهو أعلم بوجه **الحكمة في ذلك** وقوله ثم استوى على العرش قد تقدم القول فيه في المص [الأعراف: ١] وقوله يدبر الأمر يصح أن يريد ب الأمر اسم الجنس من الأمور ويحتمل أن يريد الأمر الذي هو مصدر أمر يأمر، وتدبيره لا إله إلا هو إنما هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علما. وقال مجاهد يدبر الأمر معناه يقضيه وحده، وقوله ما من شفيع إلا من بعد إذنه رد على العرب في اعتقادها أن الأصنام تشفع لها، وقوله ذلكم إشارة إلى الله تعالى أي هذا الذي هذه صفاته فاعبدوه، ثم قررهم على هذه الآيات والعبر فقال أفلا تذكرون أي فيكون التذكر سببا للاهتداء، واختصار القول في قوله ثم استوى على العرش [إما] أن يكون استوى بقهره وغلبته وإما أن يكون استوى بمعنى استولى إن صحت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

إنه بيت مصنوع. وإما أن يكون فعل فعلا في العرش سماه استوى، واستيعاب القول قد تقدم، وقوله إليه مرجعكم جميعا الآية، آية إنباء بالبعث من القبور وهي من الأمور التي جوزها العقل وأثبت وقوعها الشرع، وقوله جميعا حال من الضمير في مرجعكم، وعد الله نصب على المصدر، وكذلك قوله حقا وقال أبو الفتح حقا نعت، وقرأ الجمهور «إنه» بكسر الألف على القطع والاستئناف، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعمش وسهل بن شعيب وعبد الله «أنه» بفتح الألف، وموضعها

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢/٤٠٨

النصب على تقدير أحق أنه، وقال الفراء: موضعها رفع على تقدير يحق أنه.
قال القاضي أبو محمد: يجوز عندي أن يكون إنه بدلا من قوله وعد الله، قال أبو الفتح: إن شئت قدرت لأنه يبدأ الخلق أي فمن في قدرته هذا فهو غني عن إخلاف الوعد. وإن شئت قدرته «وعد الله حقا أنه» ولا يعمل فيه المصدر الذي هو وعد الله لأنه قد وصف فإذن." (١)

"ومن ذلك أيضا قول الشاعر: [الرجز]

قد رابني أن الكرى قد أسكتا ... ولو غدا يعني بنا لهيتا

أسكت: دخل في سكوت، و «هيت» معناه: قال: هيت، كما قالوا: أفف إذا قال: أف أف، ومنه سبح وكبر ودعدع إذ قال: داع داع.
والتاء على هذه اللغات كلها مبنية فهي في حال الرفع كقبل وبعد، وفي الكسر على الباب لالتقاء الساكنين، وفي حال النصب ككيف ونحوها قال أبو عبيدة: وهيت لا تثنى ولا تجمع، تقول العرب:
هيت لك، وهيت لكما، وهيت لكم.
وقرأ هشام ابن عامر «هيت» ، بكسر الهاء والهمز، ضم التاء وهي قراءة علي بن أبي طالب، وأبي وائل، وأبي رجاء ويحيى، ورويت عن أبي عمرو، وهذا يحتمل أن يكون من هاء الرجل يهيء إذا أحسن هيئته- على مثال جاء يجيء- ويحتمل أن يكون بمعنى تهيأت، كما يقال: فئت وتفيأت بمعنى واحد، قال الله عز وجل: يتفيؤا ظلاله [النحل: ٤٨] وقال: حتى تفيء إلى أمر الله [الحجرات: ٩] .
وقرأ ابن أبي إسحاق- أيضا- «هيت» بتسهيل الهمزة من هذه القراءة المتقدمة. وقرأ ابن عباس- أيضا- «هيت لك» .
وقرأ الحلواني عن هشام «هئت» بكسر الهاء والهمز وفتح التاء قال أبو علي: ظاهر أن هذه القراءة وهم، لأنه كان ينبغي أن تقول: هئت لي، وسياق الآيات يخالف هذا. وحكى النحاس: أنه يقرأ «هيت» بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء.
ومعاذ نصب على المصدر ومعنى الكلام أعوذ بالله.
ثم قال: إنه ربي فيحتمل أن يعود الضمير في إنه على الله عز وجل، ويحتمل أن يريد العزيز سيده، أي فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مثواي وائتمنني، قال مجاهد، والسدي ربي معناه سيدي، وقاله ابن إسحاق.
قال القاضي أبو محمد: وإذا حفظ الآدمي لإحسانه فهو عمل زاك، وأحرى أن يحفظ ربه.
ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن، ثم يبتدىء ربي أحسن مثواي.
والضمير في قوله: إنه لا يفلح مراد به الأمر والشأن فقط، وحكى بعض المفسرين: أن يوسف عليه الصلاة والسلام- لما قال: معاذ الله ثم دافع الأمر باحتجاج وملاينة، امتحنه الله تعالى بالهم بما هم به، ولو قال لا حول ولا قوة إلا بالله، ودافع بعنف وتغيير- لم يهم بشيء من المكروه.
وقرأ الجحدري «مثواي» وقرأها كذلك أبو طفيل وروي عن النبي عليه السلام: «فمن تبع هداي» .

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ١٠٤/٣

وقوله: ولقد همت به الآية، لا شك أن «هم» زليخا كان في أن يواقعها يوسف، واختلف في «هم» يوسف عليه السلام، فقال الطبري: قالت فرقة: كان مثل «همها» ، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي؟ فقيل ذلك ليريه الله تعالى موقع العفو والكفاية، وقيل **الحكمة في ذلك** أن يكون مثالا للمذنبين." (١)

"وما خليج من المروت ذو حدب ... يرمي الصعيد بخشب الأيك والضال

والضمير في قوله وإنهما يحتمل أن يعود على المدينتين اللتين تقدم ذكرهما: مدينة قوم لوط، ومدينة أصحاب الأيكة، ويحتمل أن يعود للنبيين: على لوط وشعيب، أي أنهما على طريق من الله وشرع مبين. و «الإمام» في كلام العرب الشيء الذي يهتدى به ويؤتم، يقولونه لخيط البناء، وقد يكون الطريق، وقد يكون الكتاب المفيد، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع، وقد يكون الرجل المقتدى به، ونحو هذا، ومن رأى عود الضمير في إنهما على المدينتين قال «الإمام» الطريق، وقيل على ذلك «الإمام» الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما، وأصحاب الحجر هم ثمود، وقد تقدم قصصهم، والحجر مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، وقال المرسلين من حيث يجب بتكذيب رسول واحد تكذيب الجميع، إذ القول في المعتقدات واحد للرسل أجمع، فهذه العبارة أشنع على المكذبين، و «الآية» التي آتاهم الله هي الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسبما تقدم تفسيره وبسطه، وقرأ أبو حيوة «وآتيناهم آيتنا» مفردة، وقوله تعالى: وكانوا ينحتون الآية، يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والتكسب منها فذكر من ذلك مثالا أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر الجبال، و «النحت» النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه، وقرأ جمهور الناس «ينحتون» بكسر الحاء، وقرأ الحسن «ينحتون» بفتحها، وذلك لأجل حرف الحلق، وهي قراءة أبي حيوة، وقوله آمنين قيل معناه من انهدامها، وقيل من حوادث الدنيا، وقيل من الموت لاغترارهم بطول الأعمال.

قال القاضي أبو محمد: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة. فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها، ومعنى مصبحين أي عند دخولهم في الصباح، وذكر أن ذلك كان يوم سبت، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغير ألوانهم، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئا، ولا دفع عذاب الله، وما الأولى تحتمل النفي وتحتمل التقرير، والثانية مصدرية، وقوله تعالى: وما خلقنا السماوات والأرض الآية، المراد أن هؤلاء المكتسبين للدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيء، فإن السماوات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثا ولا سدى، ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاء ونظراؤهم، وإنما خلقت بالحق ولواجب مراد وأغراض لها نهايات من عذاب أو تنعيم وإن الساعة لآتية على جميع أمور الدنيا، أي فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك فإن الجزاء لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، أي ولها صفحة عنقك بالإعراض عنها، وأكد الصفح بنعت الجمال إذ المراد منه أن يكون لا عتب فيه ولا تعرض. وهذه الآية تقتضي مداهنة، ونسخها في آية السيف قاله قتادة، ثم تلاه في آخر الآية بأن الله تعالى يخلق من شاء لما شاء ويعلم تعالى وجه **الحكمة في ذلك** لا هذه الأوثان التي يعبدونها، وقرأ جمهور الناس «الخلاق» ، وقرأ الأعمش والجحدري «الخالق» .

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٢٣٣

قوله عز وجل:

[سورة الحجر (١٥) : الآيات ٨٧ الى ٩٣]
ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (٨٧) لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين (٨٨) وقل إني أنا النذير المبين (٨٩) كما أنزلنا على المقتسمين (٩٠) الذين جعلوا القرآن عضين (٩١) فو ربك لنسئلنهم أجمعين (٩٢) عما كانوا يعملون (٩٣)." (١)

"﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون (٣٠) ﴾

يخبر (١) تعالى بامتنانه على بني آدم، بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية [وهو أبو عبيدة] (٢) أنه زعم أن "إذ" هاهنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير.

قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء (٣) من أبي عبيدة.

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ [النمل: ٦٢] . وقال ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ [الزخرف: ٦٠] . وقال ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ [مريم: ٥٩] . [وقرئ في الشاذ: "إني جاعل في الأرض خليقة" حكاه الزمخشري وغيره ونقلها القرطبي عن زيد بن علي] (٤) . وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم، عليه السلام، فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه فخر الدين الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ فإنهم (٥) إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون [أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ويقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم، قاله القرطبي] (٦) أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين [وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا. قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿أتجعل فيها﴾ الآية] (٧) وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك**، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي: نصلي لك كما سيأتي، أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك،

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣/٣٧٢

وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أي: إني أعلم من المصلحة (٨) الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها (٩) ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم

---

(١) في جـ: "أخبر".

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) في أ: "إجرام".

(٤) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٥) في جـ، ب: "فإن الله".

(٦) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٧) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٨) في جـ: "بالمصلحة".

(٩) في جـ: "الذي ذكروها".." (١)

"الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم: إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين.

[وقوله] (١) ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى، ولهذا قالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك **الحكمة في ذلك**، والعدل التام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن حجاج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء. [قال] (٢) ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناها (٣) فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال (٤) .

قال: وحدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل، حدثنا النضر بن عربي قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن "سبحان الله"، فقال: اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء.

وقوله تعالى: ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢١٦/١

ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ قال زيد بن أسلم. قال: أنت جبريل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل، حتى عدد الأسماء كلها، حتى بلغ الغراب.

وقال مجاهد في قول الله: ﴿يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾ قال: اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء.

وروي عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، نحو ذلك.

فلما ظهر فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ أي: ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي، كما قال [الله] (٥) تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ وكما قال تعالى إخبارا عن الهدهد أنه قال

---

(١) زيادة من أ.

(٢) زيادة من جـ، ط، أ، و.

(٣) في جـ، ط: "عرفناه".

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١/١١٧) .

(٥) زيادة من أ.." (١)

"سيجازيه على ذلك، ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه (١)

ثم قال تعالى: ﴿فإن حاجوك﴾ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده، لا شريك له ولا ند [له] (٢) ولا ولد ولا صاحبة له ﴿ومن اتبعن﴾ على ديني، يقول كمقالتي، كما قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني [وسبحان الله وما أنا من المشركين] (٣) ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

ثم قال تعالى آمرا لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكتابيين (٤) من الملتين والأميين من المشركين فقال: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله **الحكمة في ذلك**، والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي: هو (٥) عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [الأنبياء: ٣٣] وما ذاك (٦) إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه (٧) عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير (٨) ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان: ١] وفي الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٢٥/١

ملوك الآفاق، وطوائف (٩) بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميهم، امتثالا لأمر الله له بذلك. وقد روى عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبي هريرة، عن النبي (١٠) صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أهل النار" رواه مسلم (١١) .
وقال صلى الله عليه وسلم: "بعثت إلى الأحمر والأسود" (١٢) وقال: "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة". وقال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا ثابت عن أنس، رضي الله عنه: أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي صلى الله عليه وسلم وضوءه ويناوله نعليه، فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا فلان، قل: لا إله إلا الله" فنظر إلى أبيه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام:: أشهد أن

---

(١) في أ، و: "بكتابه".

(٢) زيادة من جـ، ر، أ، و.

(٣) زيادة من جـ، ر، أ، و، وفي هـ: "الآية".

(٤) في جـ: "أهل الكتابين".

(٥) في أ، و: "وهو".

(٦) في أ، و: "وذلك".

(٧) في جـ: "الله".

(٨) في أ: "وغير".

(٩) في و: "من طوئف".

(١٠) في جـ، ر، أ، و: "رسول الله".

(١١) صحيح مسلم برقم (١٥٣) .

(١٢) في جـ، ر، أ، و: "الأسود والأحمر".." (١)

"قال ابن أبي حاتم: ذكره أبي، أنبأنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا قراد أبو (١) نوح، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾ بأخذكم الفداء.
وهكذا رواه الإمام أحمد (٢) عن عبد الرحمن بن غزوان، وهو قراد أبو نوح، بإسناده ولكن بأطول منه، وكذا قال الحسن

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٦/٢

البصري.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا إسماعيل بن علية عن ابن عون، عن محمد عن عبيدة (ح) قال سنيد -وهو حسين-: وحدثني حجاج عن جرير، عن محمد، عن عبيدة، عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل، عليه السلام، إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين، إما أن يقدموا فتضرب (٣) أعناقهم، وبين أن يأخذوا الفداء، على أن يقتل منهم عدتهم. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فذكر ذلك لهم، فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا وإخواننا، ألا نأخذ فداءهم فنتقوى (٤) به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر.

وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي داود الحفري، عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، به. ثم قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة. وروى أبو أسامة عن هشام نحوه. وروى عن ابن سيرين عن عبيدة، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا (٥) .

وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدي: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أي: بسبب عصيانكم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه (٦) .

ثم قال تعالى:

﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله **الحكمة في ذلك**. [وقوله] (٧) ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا.

---

(١) في أ، و: "بن".

(٢) المسند (١/٣٠، ٣١) .

(٣) في جـ، أ، و: "فيضرب".

(٤) في ر: "فنقوى".

(٥) تفسير الطبري (٧/٣٧٦) وسنن الترمذي برقم (١٥٦٧) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٦٦٢) .

(٦) انظر: تفسير الطبري (٧/٣٧٤) .

(٧) زيادة من جـ، ر.." (١)

"جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها (١) إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢/١٥٩

[فاطر: ١٨] ، وقوله ﴿فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾ [طه: ١١٢] ، قال علماء التفسير (٢) : فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩] ، معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود (٣) بركات أعمالهم الصالحة على ذراريهم، كما قال في سورة الطور: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ [الآية: ٢١] ، أي: ألحقنا بهم ذرياتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، ﴿وما ألتناهم﴾ أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم، بفضله ومنته (٤) ثم قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ [الطور: ٢١] ، أي: من شر.

وقوله: ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون. قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم﴾ [سبأ: ٢٥، ٢٦]

.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وخلفا بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ [الزخرف: ٦٠] ، وكقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ [النمل: ٦٢] ، وقوله ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠] ، وقوله ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٩] .

وقوله: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله **الحكمة في ذلك**، كقوله: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ [الزخرف: ٣٢] ، وقوله [تعالى] (٥) : ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ [الإسراء: ٢١] .

---

(١) في م: "بالأعمال".

(٢) في د، م، أ: "العلماء بالتفسير".

(٣) في أ: "يعود".

(٤) في أ: "ومنه".

(٥) زيادة من أ.." (١)

"الكلام: وقال ربك، ورده ابن جرير «١» . قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجتراء من أبي عبيدة «٢» .

إني جاعل في الأرض خليفة أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى: هو الذي جعلكم خلائف الأرض [الأنعام: ١٦٥] قال: ويجعلكم خلفاء الأرض [النمل: ٦٢] وقال: ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون [الزخرف:

٦٠] وقال: فخلف من بعدهم خلف [مريم: ٥٩] وقرئ في الشاذ: إني جاعل في الأرض خليفة حكاها الزمخشري وغيره. ونقل القرطبي عن زيد بن علي «٣» وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه الرازي في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس في ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم، قاله القرطبي أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين- وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول «٤» أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه، وهاهنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا، قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية- وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك** يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك كما سيأتي. أي ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: إني أعلم ما لا تعلمون أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم فإني سأجعل فيهم الأنبياء

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٣٢- ٢٣٣.

(٢) في القرطبي (١/ ٢٦٢) : «هذا اجترام» . وقال: فالتقدير: وابتدأ خلقكم إذ قال. فكان هذا من المحذوف الذي دل عليه الكلام، كما قال الشاعر:

فإن المنية من يخشها ... فسوف تصادفه أينما

قال: يريد أينما ذهب. ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر تقديره: واذكر إذ قال.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٣٨٤

(٣) العبارة غير واضحة. والحال أن القرطبي يذكر هنا أن زيد بن علي قرأ «خليقة» بالقاف.

(٤) كما جاء في سورة الأنبياء، الآية ٢٧: لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.." (١)

"قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء لك **الحكمة في ذلك** والعدل التام. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس: سبحان الله، قال تنزيه الله نفسه عن السوء، ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال. قال: وحدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا النضر بن عربي قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله، قال: اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء.

قوله تعالى: قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب. وقال مجاهد في قول الله قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شيء. وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى [طه: ٧] وكما قال إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم [النمل: ٢٥- ٢٦] وقيل في قوله تعالى: وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون غير ما ذكرناه، فروى الضحاك عن ابن عباس وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون قال يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار. وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قال: قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية، فهذا الذي أبدوا وما كنتم تكتمون يعني ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدي والضحاك والثوري، واختار ذلك ابن جرير. وقال أبو العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فكان الذي أبدوا هو قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم:

لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم. وقال ابن جرير: حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في." (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١٢٤/١

(٢) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١٣٣/١

"والترمذي من حديث أبي داود الحفري عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، عن سفيان بن سعيد، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين به، ثم قال الترمذي: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زائدة، وروى أبو أسامة عن هشام نحوه، وروى عن ابن سيرين عن عبيدة، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا.

وقال محمد بن إسحاق وابن جريج والربيع بن أنس والسدي قل هو من عند أنفسكم أي بسبب عصيانكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة إن الله على كل شيء قدير أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله **الحكمة في ذلك** وليعلم المؤمنين أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال أو ادفعوا قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي: يعني كثروا سواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين لو نعلم قتالا لاتبعناكم قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالا.

قال محمد بن إسحاق «١» : حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدث «٢» ، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني حين خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة، انحاز «٣» عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم فخرج وعصاني، وو الله ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم وقومكم عند ما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٠- ٦٤.

(٢) عبارة ابن إسحاق في السيرة: «كلهم قد حدث بعض الحديث من يوم أحد، وقد اجتمع حديثهم كله فيما سقت من هذا الحديث. قالوا، أو من قال منهم ... إلخ» .

(٣) في السيرة: «انخزل» .." (١)

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٢/١٤٠

"[النمل: ٦٢] وقوله إني جاعل في الأرض خليفة [البقرة: ٣٠] وقوله عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون [الأعراف: ١٢٩] وقوله ورفع بعضكم فوق بعض درجات أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان، وله **الحكمة في ذلك**، كقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا [الزخرف: ٣٢] وقوله انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا [الإسراء: ٢١] .

وقوله تعالى ليبلوكم في ما آتاكم أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» «١» .

وقوله تعالى إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع، فيمن عصاه وخالف رسله وإنه لغفور رحيم لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب. وقال محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم، رواه ابن أبي حاتم، وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب [الرعد: ٦] وقوله نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم [الحجر: ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.

وقد قال الإمام أحمد «٢» : حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زهير عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون» «٣» ورواه الترمذي عن قتيبة عن عبد العزيز الدراوردي عن العلاء به، وقال: حسن، ورواه مسلم، عن يحيى بن يحيى وقتيبة وعلي بن حجر، ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٩٩.

(٢) المسند ٢/ ٤٨٤.

(٣) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٢٣، والترمذي في الدعوات باب ٩٩.." (١)

"الناس لا يعلمون

أنهم يعبثون إما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣٤٦/٣

امتناعه، ثم إنه تعالى بين الأمرين فقال:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]
ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين (٣٩) إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون (٤٠)
ليبين لهم أي يبعثهم ليبين لهم. الذي يختلفون فيه وهو الحق. وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له من حيث الحكمة، وهو المميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل بالثواب والعقاب ثم قال:
إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون وهو بيان إمكانه وتقريره أن تكوين الله بمحض قدرته ومشيئته لا توقف له على سبق المواد والمدد، وإلا لزم التسلسل فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكوينها إعادة بعده، ونصب ابن عامر والكسائي ها هنا وفي «يس» فيكون عطفا على نقول أو جوابا للأمر.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤١ الى ٤٢]
والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٤١) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٤٢)
والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المهاجرون ظلمهم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله. في الله أي في حقه ولوجهه. لنبوئنهم في الدنيا حسنة مباءة حسنة وهي المدينة أو تبوئة حسنة. ولأجر الآخرة أكبر مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل. لو كانوا يعلمون الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.
الذين صبروا على الشدائد كأذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحله النصب أو الرفع على المدح.
وعلى ربهم يتوكلون منقطعين إلى الله مفوضين إليه الأمر كله.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٤٣) بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون (٤٤)
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم رد لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، أي جرت السنة الإلهية

بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشرا يوحي إليه على ألسنة الملائكة، **والحكمة في ذلك** قد ذكرت في سورة «الأنعام» فإن شككتم فيه. فسئلوا أهل الذكر أهل الكتاب أو علماء الأخبار ليعلموكم.

إن كنتم لا تعلمون وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكا للدعوة العامة وقوله: جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال.

ورد بما روي: أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين.

وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.." (١)

"أم أمنتم أن يعيدكم فيه في البحر. تارة أخرى بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه.

فيرسل عليكم قاصفا من الريح لا تمر بشيء إلا قصفته أي كسرته. فيغرقكم وعن يعقوب بالتاء على إسناده إلى ضمير الريح. بما كفرتم بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء. ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا مطالبا يتبعنا بانتصار أو صرف.

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٠]

ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا (٧٠)

ولقد كرمنا بني آدم بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتمييز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقف الحصر دون إحصائه ومن ذلك ما ذكره ابن عباس وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده وحملناهم في البر والبحر على الدواب والسفن من حملته حملا إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الأرض ولم يغرقهم الماء ورزقناهم من الطيبات المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة، والمستثنى جنس الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل بعض أفراده والمسألة موضع نظر، وقد أول الكثير بالكل وفيه تعسف.

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧١]

يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١)

يوم ندعوا نصب بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه ولا يظلمون، وقرئ «يدعو» و «يدعي» و «يدعو» على قلب الألف واوا في لغة من يقول أفعو في أفعى، أو على أن الواو علامة الجمع كما في قوله:

وأسروا النجوى الذين ظلموا أو ضميره وكل بدل منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع، وهو قد يقدر كما في «يدعي» . كل أناس بإمامهم بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٢٢٧/٣

التي قدموها فيقال يا صاحب كتاب كذا، أي تنقطع علقة الأنساب وتبقى نسبة الأعمال. وقيل بالقوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهاتهم جمع أم كخف وخفاف، **والحكمة في ذلك**، إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. فمن أوتي من المدعوين. كتابه بيمينه أي كتاب عمله. فأولئك يقرؤن كتابهم ابتهاجا وتبجحا بما يرون فيه. ولا يظلمون فتيلا ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء، وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من أوتي في معنى الجمع، وتعليق القراءة بإيتاء الكتاب باليمين يدل على أن من أوتى كتابه بشماله إذا اطلع على ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة، ولذلك لم يذكرهم مع أن قوله:

[سورة الإسراء (١٧) : آية ٧٢]

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧٢)

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى أيضا مشعر بذلك فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة. وأضل سبيلا منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة. وقيل لأن الاهتداء بعد لا ينفعه والأعمى مستعار." (١)

"من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعا الاستخلاف، والعصيان.

١٤ أوقال أحمد بن يحيى/ ثعلب «١» وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت، وعلمت ما كان من إفساد الجن، وسفكهم الدماء في الأرض فجاء قولهم: أتجعل فيها ... «٢»

الآية على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة يا ربنا على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟

وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقا يفسدون، ويسفكون الدماء، فلما قال لهم سبحانه بعد ذلك: إني جاعل قالوا: ربنا، أتجعل فيها ... الآية على جهة الاسترشاد والاستعلام، هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به سبحانه قبل، أو غيره؟ ونحو هذا في «مختصر الطبري» ، قال: وقولهم:

أتجعل فيها ليس بإنكار لفعله عز وجل وحكمه، بل استخبار، هل يكون الأمر هكذا، وقد وجهه بعضهم بأنهم استعظموا الإفساد وسفك الدماء فكأنهم سألوا عن وجه **الحكمة في ذلك** إذ علموا أنه عز وجل لا يفعل إلا حكمة. انتهى.

ت: والعقيدة أن الملائكة معصومون، فلا يقع منهم ما يوجب نقصانا من رتبتهم، وشريف منزلتهم- صلوات الله وسلامه على جميعهم- والسفك صب الدم، هذا عرفه، وقولهم: ونحن نسبح بحمدك.

قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام كأنهم أرادوا: ونحن نسبح بحمدك ... الآية، أم نتغير عن هذه الحال؟

قال ع «٣» : وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: أتجعل.

وقال آخرون: معناه: التمدح ووصف حالهم، وذلك جائز لهم كما قال يوسف:

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٢٦٢

إني حفيظ عليم [يوسف: ٥٥] ، وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله

---

(١) هو: أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار، وقيل: سيار الشيباني، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة. صنف: «المصون في النحو» ، و «معاني القرآن» ، و «ما تلحن فيه العامة» ، و «الفصيح» وغيرها. توفي (٢٩١ هـ) .
ينظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (١/ ٣٠) ، و «بغية الوعاة» (١/ ٢٩٦) ، و «غاية النهاية» (١/ ١٤٨) .
(٢) ينظر: ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (١/ ١١٧) .
(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ١١٨) .." (١)

"[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٥٣ الى ٢٥٤]

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٢٥٣) يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون (٢٥٤)

قوله سبحانه: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ... الآية: «تلك» : رفع بالابتداء، والرسل: خبره، ويجوز أن يكون «الرسل» عطف بيان، و «فضلنا» : الخبر، و «تلك» : إشارة إلى جماعة، ونص الله سبحانه في هذه الآية على تفضيل بعض النبيين على بعض من غير تعيين.

وقوله تعالى: ورفع بعضهم درجات:

قال مجاهد وغيره: هي إشارة إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بعث إلى الناس كافة، وأعطي الخمس التي لم يعطها أحد قبله، وهو أعظم الناس أمة، وختم الله به النبوات «١» إلى غير ذلك مما أعطاه من الخلق العظيم، ومن معجزاته، وباهر آياته، ويحتمل اللفظ أن يراد به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته، وبينات عيسى- عليه السلام- إحياء الموتى، وإبراء الأكمه، والأبرص، وخلق الطير من الطين، وروح القدس جبريل- عليه ٦٤ أالسلام- وقد تقدم/ ما قال العلماء فيه.

وقوله تعالى: ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم ... الآية: معنى الآية: ولو شاء الله ما اقتتل الناس بعد كل نبي، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر بغيا وحسدا، وعلى حطام الدنيا، وذلك كله بقضاء، وقدر، وإرادة من الله سبحانه، ولو شاء الله خلاف ذلك، لكان، ولكنه المستأثر بسر **الحكمة في ذلك**، وهو الفعال لما يريد سبحانه.

ص: ولو شاء الله ما اقتتل، قيل: في الكلام حذف، أي: فاختلف أممهم، فاقتتلوا، ولو شاء الله، فمفعول «شاء» محذوف، أي: «ألا يقتتلوا» انتهى.

وقوله: ما اقتتلوا، أي: بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر، وذلك هو

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٠٦/١

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٣/ ٣) برقم (٥٧٥٧) بنحوه، وذكره ابن عطية (١/ ٣٣٨) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥٧١) ، وعزاه لآدم بن أبي إياس، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الأسماء والصفات» . [.....]." (١)

"بالآية ومن هذه اللفظة قول حسان رضي الله عنه «١» : [الطويل]

لنا القدم العليا إليك وخلفنا ... لأولنا في طاعة الله تابع «٢»

ومن هذه اللفظة قوله صلى الله عليه وسلم: «حتى يضع الجبار فيها قدمه» «٣» أي ما قدم لها، هذا على أن الجبار اسم الله تعالى، و «الصدق» هنا بمعنى الصلاح، وقال البخاري: قال زيد بن أسلم: قدم صدق محمد صلى الله عليه وسلم «٤» . انتهى.

وقولهم: إن هذا لساحر مبين: إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم، وحال بين القريب وقريبه فأشبه ذلك ما يفعله الساحر في ظنهم القاصر فسموه ساحرا.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣ الى ٤]

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون (٣) إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٤)

وقوله سبحانه: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ...

الآية: هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وتوحيده، وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة، وفي القدرة أن يقول لها: كن فتكون، إنما هي ليعلم عباده التؤدة والتماهل في الأمور، قال ع «٥» : وهذا مما لا يوصل إلى تعليله، وعلى هذا هي الأجنة في البطون، وخلق الثمار، وغير ذلك، والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدرا، وهو أعلم بوجه **الحكمة في ذلك.**

(١) ذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣) . [.....]

(٢) البيت في «ديوانه» (٢٤١) ، والطبري (١٣/ ٢٠٩) ، و «البحر» (٥/ ١٢٤) ، و «الدر المصون» (٣/ ٣٦٦) ، و «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٣) .

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٦٠) كتاب «التفسير» باب: وتقول: هل من مزيد، حديث (٤٨٤٨) ، ومسلم (٤/ ٢١٨٧) كتاب «الجنة» باب: النار يدخلها الجبارون، حديث (٣٧/ ٢٨٤٨) ، والترمذي (٥/ ٣٩٠) كتاب «التفسير» باب:

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١/٤٩٨

ومن سورة ق، حديث (٣٢٧٢) ، وأحمد (٣/ ١٣٤، ١٤١، ٢٣٤) ، وأبو يعلى (٥/ ٤٣٨- ٤٣٩) ، رقم: (٣١٤٠) ، وابن حبان (٢٦٨) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص:

(٣٤٩) من حديث أنس.

(٤) أخرجه البخاري (٨/ ١٩٦) كتاب «التفسير» باب: «سورة يونس» ، وذكر معلقا بصيغة الجزم، ووصله ابن جرير من طريق ابن عيينة، عنه بهذا الحديث. كما قال ابن حجر، والطبري (٦/ ٥٢٩) برقم:

(١٧٥٥٧) ، وذكره ابن عطية (٣/ ١٠٣) بنحوه، والسيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٥٣٦) .

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٤) .." (١)

"وروى الحسن عن عبد الله بن معقل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم وأيما قوم اتخذوا كلبا ليس بكلب حرث أو صيد أو ماشية نقصوا من أجورهم كل يوم قيراطا» «١» [١٨] .

عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من اقتنى كلبا ليس كلب صيد ولا ماشية ولا أرض فإنه ينتقص من أجره قيراطان كل يوم» «٢» [١٩] .

والحكمة في ذلك ما

روى أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الرزاق السريعي قال: قيل لعبد الله بن المبارك: ما تقول في قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «من اقتنى كلبا لا كلب صيد ولا ماشية نقص من عمله كل يوم كذا وكذا من الأجر» «٣» [٢٠] .

فقال حدثني [الأصمعي] قال: قال أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد: ما بلغك في الكلب؟ قال: بلغني أن من أخذ كلبا لغير زرع ولا حراسة نقص من أجره كل يوم قيراط. فقال له: ولم ذلك؟ قال: هكذا جاء الحديث، قال: خذها بحقها إنما ذلك لأنه ينبح على الضيف ويروع السائل «٤» .

وكانت أسخياء العرب تبغض الكلاب لهذا المعنى وتذم من ربطه وهم بقتله.

قال الثعلبي: أنشدني أبو الحسن الفارسي قال: أنشدني أبو الحسن الحراني البصري أن بعض شعراء البصرة نزل بعمار فسمع لكلابه نبحا فأنشأ يقول:

نزلنا بعمار فأشلى كلابه ... علينا فكدنا بين بيتيه نؤكل

فقلت لأصحابي أسر إليهم ... إذا اليوم أم يوم القيامة أطول «٥» .

قال عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال: نزلت في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل [الطائيين] وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير وذلك إنهما جاءا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالا: يا رسول الله إنا قوم نصيد الكلاب والبزاة فإن كلاب آل درع وآل حورية تأخذ البقر والحمر والظباء والضب فمنه ما يدرك ذكاته ومنه ما يقتل فلا يدرك ذكاته وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها فنزلت يسئلونك يا محمد ماذا أحل لهم قل: أحل لكم

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٣٤/٣

الطيبات يعني الذبائح التي أحلها الله وما علمتم يعني وصيد ما علمتم من الجوارح.

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٨٥

. (٢) صحيح مسلم: ٥/ ٣٨

. (٣) مسند أحمد: ٢/ ٦٠

. (٤) تنوير الحوالك: ٦٩٧ ح ١٧٤٢،

. (٥) عمار: اسم شخص، والبيت في تفسير القرطبي: ٦/ ٧٤

.." (١)

"فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة، قال: وآل فرعون يقولون: اللهم لا تقم الساعة أبدا. قال: ويوم القيامة يقول أدخلوا آل فرعون أشد العذاب قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس».
قوله: بطنه مثل البيت الضخم أي العظيم الكبير الغليظ، وقوله: منضدين أي موضوعين بعضهم على بعض والسابلة الطريق، وقوله مثل الإبل المنهومة، النهم بالتحريك إفراط في الشهوة بالطعام من الجوع. قوله عز وجل: ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا أي ذلك الذي نزل بهم من العذاب بقولهم هذا واستحلالهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يطالبه به فيقول الغريم لصاحب الحق زدني في الأجل حتى أزيدك في المال فيفعلان ذلك وكانوا يقولون: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير فكذبهم الله تعالى. ورد عليهم ذلك بقوله: وأحل الله البيع وحرم الربا يعني وأحل الله لكم الأرباح في التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذي هو زيادة في المال لأجل تأخير الأجل وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق فهم عبيده وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء ويستعبدهم بما يريد ليس لأحد أن يعترض عليه في شيء مما حل أو حرم، وإنما على كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه. وذكر بعض العلماء الفرق بين البيع والربا فقال إذا باع ثوبا يساوي عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلا للعشرين فلما حصل التراضي على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلا للآخر في المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض، أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض ولا يمكن أن يقال: إن العوض هو الإمهال في مدة الأجل لأن الإمهال ليس مالا أو شيئا يشار إليه حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة فقد ظهر الفرق بين الصورتين.
(فصل: في حكم الربا وفيه مسائل) المسألة الأولى: ذكروا في سبب تحريم الربا وجوها: أحدها: أن الربا يقتضي أخذ مال الغير بغير عوض، لأن من يبيع درهما بدرهمين نقدا كان أو نسيئة فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام. الوجه الثاني:
إنما حرم عقد الربا لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا خف عليه تحصيل

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ١٩/٤

الزيادة من غير تعب ولا مشقة، فيقضي ذلك إلى انقطاع منافع الناس بالتجارات وطلب الأرباح. الوجه الثالث: أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، فلما حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى. الوجه الرابع: أن تحريم الربا قد ثبت بالنص ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لا نعلم وجه **الحكمة في ذلك**.

المسألة الثانية: اعلم أن الربا في اللغة هو الزيادة، وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فثبت أن الزيادة المحرمة هو الربا وهو على صفة مخصوصة في مال مخصوص بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء». وفي رواية: «الورق بالورق ربا إلا هاء وهاء والذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء» (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالذهب وزنا بوزن مثلا بمثل والفضة بالفضة وزنا بوزن مثلا بمثل فمن زاد واستزاد فقد أربى» وفي رواية: «التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد، فمن زاد واستزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه. (م) عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر وبالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا." (١)

"شعبا ولا واديا إلا وهم معنا حبسهم العذر» (خ) عن ابن عباس قال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إليها.

وقوله تعالى: فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة يعني فضيلة في الآخرة قال ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر فضل الله المجاهدين على أولي الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولو الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة وكلا يعني كلا من المجاهدين والقاعدين وعد الله الحسنى يعني الجنة بإيمانهم وفضل الله المجاهدين يعني في سبيل الله على القاعدين يعني الذين لا عذر لهم ولا ضرر أجرا عظيما يعني ثوابا جزيلا. ثم فسر ذلك الأجر العظيم فقال تعالى:

[سورة النساء (٤): آية ٩٦]

درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما (٩٦)

درجات منه قال قتادة: كان يقال للإسلام درجة والهجرة في الإسلام درجة الجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة، وقال ابن زيد الدرجات هي سبع وهي التي ذكرها الله في سورة براءة حين قال: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله إلى قوله: ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم وقال ابن محيريز الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة (م) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة فتعجب لها أبو سعيد فقال أعدها علي يا رسول الله فأعادها عليه ثم قال

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٠٩/١

وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هي يا رسول الله؟ قال الجهاد في سبيل الله» (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها فقالوا أولا نبشر الناس بقولك؟ فقال إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» فإن قلت قد ذكر الله عز وجل في الآية الأولى درجة واحدة وذكر في هذه الآية درجات فما وجه **الحكمة في ذلك؟** قلت أما الدرجة الأولى فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر. وأما الثانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر فضلوا عليهم بدرجات كثيرة وقيل يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم والدرجات درجات الجنة ومنازلها كما في الحديث والله أعلم.

قوله تعالى: ومغفرة يعني لذنوبهم يسترها ويصفح عنها ورحمة يعني رأفة بهم وكان الله غفورا يعني لذنوب عباده المؤمنين رحيما يعني بهم يتفضل عليهم برحمته ومغفرته عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: قال: «أيما عبد من عبادي خرج مجاهدا في سبيل الله ابتغاء مرضاتي ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وإن قبضته غفرت له ورحمته» أخرجه النسائي.

(فصل) اعلم أن الجهاد ينقسم إلى: فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين أن يدخل العدو دار قوم من المؤمنين وبلادهم فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لا عذر له ولا ضرر به من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوهم دفعا عن أنفسهم وعن أهليهم وجيرانهم وسواء في ذلك الحر والعبد والغني والفقير فيجب على الكافة وهو في حق من بعد عنهم من المسلمين فرض كفاية فإن لم تقع الكفاية بمن نزل بهم العدو فتجب مساعدتهم على من." (١)

"الخلق في يوم الجمعة وتهودت اليهود في يوم السبت ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدون ويعضد هذا القول ما حكاه صاحب المحكم ابن سيده قال: وسمي سابع الأسبوع سبتا لأن ابتداء الخلق كان من يوم الأحد إلى يوم الجمعة ولم يكن في السبت خلق. قال أصحاب الأخبار والسير والتواريخ: إن الله تعالى خلق التربة التي هي الأرض بلا دحو ولا بسط في يوم الأحد والاثنين ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات في يومين وهما الثلاثاء والأربعاء ثم دحا الأرض وبسطها وطحاها وأخرج ماءها ومرعاها وخلق دوابها ووحشها وجميع ما فيها في يومين وهما الخميس والجمعة وخلق آدم في يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة وقبل خلق الله عز وجل التربة يوم الأحد ثم استوى إلى السماء فخلقها وجميع ما فيها يوم الاثنين والثلاثاء ثم مد الأرض ودحاها يوم الأربعاء والخميس وخلق آدم يوم الجمعة وأسكنه الجنة هو وزوجته حواء ثم أهبطهما إلى الأرض في آخر ساعة من يوم الجمعة. وقيل: أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فكتب فيه ما كان وما سيكون وما خلق وما هو خالق إلى يوم القيامة ثم خلق الظلمة والنور ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء ثم خلق التربة ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولا ثم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤١٥/١

خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول جمهور العلماء وقيل في ستة أيام من أيام الدنيا.

فإن قلت إن الله عز وجل قادر على أن يخلق جميع الخلق في لحظة واحدة ومنه قوله تعالى: وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر فما الفائدة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وما **الحكمة في ذلك؟**

قلت: إن الله سبحانه وتعالى، وإن كان قادرا على خلق جميع الأشياء في لحظة واحدة، إلا أنه تعالى جعل لكل شيء حدا محدودا ووقتا معلوما فلا يدخل في الوجود إلا في ذلك الوقت والمقصود من ذلك تعليم عباده التثبت والتأني في الأمور. وقال سعيد بن جبير كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأني في الأمور كما في الحديث «التأني من الله والعجلة من الشيطان» وقيل إن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة فلعله أن يخطر ببال بعضهم أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الاتفاق فإذا أحدث شيئا بعد شيء على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة.

وقيل: إن الله تعالى أراد أن يوقع في كل يوم أمرا من أمره حتى تستعظمه الملائكة وغيرهم ممن شاهده. وقيل إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة والتثبت أبلغ في الحكمة فأراد الله تعالى إظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن فيكون.

وقوله تعالى: ثم استوى على العرش العرش في اللغة: السرير، وقيل: هو ما علا فأظل وسمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه. ويكنى عن العز والسلطان والمملكة بالعرش على الاستعارة والمجاز. يقال فلان فل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكه وسلطانه. قال الراغب في كتابه مفردات القرآن: وعرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة وليس هو كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى الله عن ذلك وليس كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب. وأما استوى بمعنى استقر فقد رواه البيهقي في كتابه الأسماء والصفات برواية كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها، وقال: أما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا كانوا لا يفسرونه ولا يتكلمون فيه كنحو مذهبهم في أمثال ذلك، وروى بسنده عن عبد الله بن وهب أنه قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه." (١)

"إذا لله ذبيح، فلما ولد وبلغ معه السعي قيل له أوف بنذرك. هذا هو السبب في أمر الله تعالى إياه بالذبح فقال لإسحاق انطلق نقرب لله قربانا فأخذ سكينا وحبلا وانطلق معه حتى ذهب به بين الجبال فقال الغلام يا أبت أين قربانك فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر. وقال محمد بن إسحاق كان إبراهيم عليه السلام إذا زار هاجر وإسماعيل حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٠٧/٢

حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يؤمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرماته أمر في المنام بذبحه وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان؟ فمن ثم سمي ذلك اليوم يوم التروية فلما أمسى رأى في المنام ثانيا فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى فسمي ذلك اليوم يوم عرفة. وقيل رأى ذلك ثلاث ليال متتابعات فلما عزم على نحره سمي ذلك اليوم يوم النحر فلما تيقن ذلك أخبر به ابنه فقال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى أي في الرأي على وجه المشاورة.

فإن قلت: لم شاوره في أمر قد علم أنه حتم من الله تعالى وما **الحكمة في ذلك**.

قلت لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى وليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره إن جزع ويراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله.

فإن قلت لم كان ذلك في المنام دون اليقظة وما **الحكمة في ذلك؟** قلت إن هذا الأمر كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح.

فورد في المنام كالتوطئة له ثم تأكد حال النوم بأحوال اليقظة فإذا تظاهرت الحالتان كان أقوى في الدلالة ورؤيا الأنبياء وحي وحق قال يا أبت افعل ما تؤمر يعني قال الغلام لأبيه افعل ما أمرت به قال ابن إسحاق وغيره لما أمر إبراهيم بذلك قال لابنه يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق إلى هذا الشعب نحتطب فلما خلا إبراهيم بابنه في الشعب أخبره بما أمر الله به فقال افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين إنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك وأنه لا حول عن معصية الله تعالى إلا بعصمة الله تعالى ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله فلما أسلما يعني انقادا وخضعا لأمر الله وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلم ابنه وأسلم الابن نفسه وتله للجبين يعني صرعه على الأرض قال ابن عباس أضجعه على جبينه على الأرض فلما فعل ذلك قال له ابنه يا أبت أشدد رباطي كيلا أضطرب واكفف عن ثيابك حتى لا ينتضح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد، وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني وإن رأيت أن ترد قميصي على أمي فافعل فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله ففعل إبراهيم ما أمره به ابنه ثم أقبل عليه يقبله وهو يبكي وقد ربطه والابن يبكي ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تحك شيئا. ثم إنه حدها مرتين أو ثلاثا بالحجر كل ذلك لا يستطيع أن يقطع شيئا. قيل ضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه والأول أبلغ في القدرة وهو منع الحديد عن اللحم، قالوا فقال الابن عند ذلك: يا أبت كبني لوجهي فإنك إذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله تعالى وأنا لا أنظر إلى الشفرة فأجزع منها ففعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا. وروي عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجاله قالوا لما رأى إبراهيم عليه الصلاة

والسلام ذبح ابنه قال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن منهم أحدا أبدا فتمثل الشيطان في صورة رجل وأتى أم الغلام فقال لها هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك قالت." (١)

"سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم ووفيت كل نفس ما عملت أي ثواب ما عملت وهو أعلم بما يفعلون يعني أنه سبحانه وتعالى عالم بأفعالهم لا يحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد.

قوله تعالى: وسيق الذين كفروا إلى جهنم يعني سوقا عنيفا زمرا أفواجا بعضهم على أثر بعض كل أمة على حدة وقيل جماعات متفرقة واحدتها زمرة حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها يعني السبعة وكانت قبل ذلك مغلقة وقال لهم خزنتها يعني توبيخا وتقريعا ألم يأتكم رسل منكم أي من أنفسكم ومن جنسكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب أي وجبت على الكافرين وهي قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين قوله عز وجل: وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا فإن قلت عبر عن الفريقين بلفظ السوق فما الفرق بينهما.

قلت المراد بسوق أهل النار طردهم إلى العذاب بالهوان والعنف كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنهم يذهبون إليها راكبين أو المراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان فشتان ما بين السوقين حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها فإن قلت قال في أهل النار فتحت بغير واو وهنا زاد حرف الواو فما الفرق.

قلت فيه وجوه أحدها أنها زائدة الثاني إنها واو الحال مجازه وقد فتحت أبوابها فأدخل الواو لبيان أنها كانت مفتحة قبل مجيئهم إليها وحذف الواو في الآية الأولى لبيان أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل مجيئهم إليها ووجه **الحكمة في ذلك** أن أهل الجنة إذا جاءوها ووجدوا أبوابها مفتحة حصل لهم السرور والفرح بذلك وأهل النار إذا رأوها مغلقة كان ذلك نوع ذلك وهوان لهم. الثالث زيدت الواو هنا لبيان أن أبواب الجنة ثمانية ونقصت هناك لأن أبواب جهنم سبعة والعرب تعطف بالواو فيما فوق السبعة تقول سبعة وثمانية.

فإن قلت حتى إذا جاءوها شرط فأين جوابه؟

قلت فيه وجوه أحدها أنه محذوف والمقصود من الحذف أن يدل على أنه بلغ في الكمال إلى حيث لا يمكن ذكره الثاني أن الجواب هو قوله وقال لهم خزنتها سلام عليكم بغير واو الثالث تقديره فادخلوها خالدين دخلوها فحذف دخلوها لدلالة الكلام عليه وقال لهم خزنتها سلام عليكم أي أبشروا بالسلامة من كل الآفات طبتم قال ابن عباس معناه طاب لكم المقام وقيل إذا قطعوا النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض حتى إذا هذبوا وطيبوا دخلوا الجنة فيقول لهم رضوان وأصحابه سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا سيقوا إلى الجنة فإذا انتهوا إليها وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحتها عينان فيغتسل المؤمن من إحداهما فيطهر ظاهره ويشرب من الأخرى فيطهر باطنه وتتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة يقولون سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/ ٢٣

[سورة الزمر (٣٩): الآيات ٧٤ الى ٧٥]
وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (٧٤) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (٧٥)
وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده أي بالجنة وأورثنا الأرض أي أرض الجنة نتصرف فيها كما نشاء تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه وهو قوله تعالى: نتبوأ أي ننزل من الجنة أي في الجنة حيث." (١)

"قولهم: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك أضافوا هذه الأفعال إلى أنفسهم فلو كانت أفعالا لله تعالى لما حسن التمدح بذلك ولا فضل لذلك على سفك الدماء إذ كل ذلك من فعل الله تعالى. وثانيها: لو كان الفساد والقتل فعلا لله تعالى لكان يجب أن يكون الجواب أن يقول إني مالك أفعل ما أشاء. وثالثها: أن قوله: أعلم ما لا تعلمون يقتضي التبري من الفساد والقتل لكن التبري من فعل نفسه محال. ورابعها: إذا كان لا فاحشة ولا قبح ولا جور ولا ظلم ولا فساد إلا بصنعه وخلقه ومشيئته فكيف يصح التنزيه والتقديس؟ وخامسها: أن قوله: أعلم ما لا تعلمون يدل على مذهب العدل لأنه لو كان خالقا للكفر لكان خلقهم لذلك الكفر فكان ينبغي أن يكون الجواب نعم خلقهم ليفسدوا وليقتلوا. فلما لم يرض بهذا الجواب سقط هذا المذهب.
وسادسها: لو كان الفساد والقتل، من فعل الله تعالى لكان ذلك جاريا مجرى ألوانهم وأجسامهم وكما لا يصح التعجب من هذه الأشياء فكذا من الفساد والقتل والجواب عن هذه الوجوه المعارضة بمسألة الداعي والعلم والله أعلم.
المسألة السادسة: إن قيل قوله: إني أعلم ما لا تعلمون كيف يصلح أن يكون جوابا عن السؤال الذي ذكروه قلنا قد ذكرنا أن السؤال يحتمل وجوها: أحدها: أنه للتعجب فيكون قوله: أعلم ما لا تعلمون جوابا له من حيث إنه قال تعالى لا تتعجبوا من أن يكون فيهم من يفسد ويقتل فإني أعلم مع هذا بأن فيهم جمعا من الصالحين والمتقين وأنتم لا تعلمون. وثانيها: أنه للغم فيكون الجواب لا تغتموا بسبب وجود المفسدين فإني أعلم أيضا أن فيهم جمعا من المتقين، ومن لو أقسم علي لأبره. وثالثها: أنه طلب الحكمة فجوابه أن مصلحتكم فيه أن تعرفوا وجه الحكمة فيه على الإجمال دون التفصيل. بل ربما كان ذلك التفصيل مفسدة لكم ورابعها: أنه التماس لأن يتركهم في الأرض وجوابه إني أعلم أن مصلحتكم أن تكونوا في السماء لا في الأرض، وفيه وجه خامس: وهو أنهم لما قالوا: نسبح بحمدك ونقدس لك قال تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون وهو أن معكم إبليس وأن في قلبه حسدا وكبرا ونفاقا. ووجه سادس: وهو أني أعلم ما لا تعلمون فإنكم لما وصفتم أنفسكم بهذه المدائح فقد استعظمتم أنفسكم فكأنكم أنتم بهذا الكلام في تسبيح أنفسكم لا في تسبيحي ولكن اصبروا حتى يظهر البشر فيتضرعون إلى الله بقولهم: ربنا ظلمنا أنفسنا [الأعراف: ٤٤] وبقوله: والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي [الشعراء: ٨٢] وبقوله: وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين [النمل: ١٩] .

[سورة البقرة (٢) : آية ٣١]

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٦٥/٤

وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين (٣١)
أعلم أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته وإسكانه تعالى إياهم في الأرض وأخبر الله تعالى عن وجه **الحكمة في ذلك** على سبيل الإجمال بقوله تعالى: إني أعلم ما لا تعلمون أراد تعالى أن يزيدهم بيانا وأن يفصل لهم ذلك المجمل، فبين تعالى لهم من فضل آدم عليه السلام ما لم يكن من ذلك معلوما لهم، وذلك بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كمال فضله وقصورهم عنه في العلم فيتأكد ذلك الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال الأشعري والجبائي والكعبي: اللغات كلها توقيفية. بمعنى أن الله تعالى خلق علما." (١)

"عليه صار المتوكل ضائعا، أما هو سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه البتة.

أما قوله: وسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول، ومنهم من حمله على الصلاة، ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال: وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال: كفى بالعلم جمالا، وكفى بالأدب مالا وهو بمعنى حسبك، أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد، كأنه قال إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا (٥٩) وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا (٦٠)

[في قوله تعالى الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فسئل به خبيرا] اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور: أولها: بأنه حي لا يموت وهو قوله:
وتوكل على الحي الذي لا يموت [الفرقان: ٥٨] وثانيها: أنه عالم بجميع المعلومات وهو قوله: وكفى به بذنوب عباده خبيرا [الفرقان: ٥٨] وثالثها: أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله: الذي خلق السماوات والأرض فقوله: الذي خلق متصل بقوله: الحي الذي لا يموت لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه. وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: الأيام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام، فكيف قال الله خلقها في ستة أيام؟
الجواب: يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا، بل لا بد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان، لأنا نقول هذا/ معارض بنفس الزمان، لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام، والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام، فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى، فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول لعل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٣٩٦

الله سبحانه خلق المدة أولا ثم السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام، ومن الناس من قال في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.

السؤال الثاني: لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير؟ الجواب: أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص، قالت المعتزلة بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين: أحدهما: أن حصول تلك الحكمة، إما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فإن كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الأزمنة، فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزا افتقر حصول تلك **الحكمة في ذلك** الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح.." (١)

"الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة، فصار بسبب تلك العداوة متهما في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك وثانيها: أن **الحكمة في ذلك** أن محمدا لو كان يداهن أحدا في الدين ويسامحه فيه، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحدا في شيء يتعلق بالدين أصلا وثالثها: أن الوجه الذي ذكرتم كالمتعارض، فإن كونه عما يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه، فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة، لا جرم استحق التغليظ العظيم.

السؤال الثالث: ما السبب في أنه لم يقل قل تبت يدا أبي لهب وتب وقال في سورة الكافرون: قل يا أيها الكافرون؟ الجواب: من وجوه الأول: لأن قرابة العمومة تقتضي/ رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له:

قل ذلك لئلا يكون مشافها لعمه بالشتم بخلاف السورة الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماما له الثاني: أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى: يا محمد أجب عنهم: قل يا أيها الكافرون وفي هذه السورة طعنوا في محمد، فقال الله تعالى أسكت أنت فإن أشتمهم: تبت يدا أبي لهب الثالث: لما شتموك، فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية: وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [الفرقان: ٦٣] وإذا سكت أنت أكون أنا المجيب عنك،

يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكتا، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره، فلما شرع أبو بكر في الجواب سكت الرسول، فقال أبو بكر: ما السبب في ذلك؟ قال: لأنك حين كنت ساكتا كان الملك يجيب عنك، فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان.

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذابا عنه وناصرا له ومعينا.

السؤال الرابع: ما الوجه في قراءة عبد الله بن كثير المكي حيث كان يقرأ: أبي لهب ساكنة الهاء؟

الجواب: قال أبو علي: يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر، وأجمعوا في قوله: سيصلى نارا ذات لهب [المسد: ٣] على فتح الهاء، وكذا قوله: ولا يغني من اللهب [المرسلات: ٣١] وذلك يدل على أن الفتح أوجه من الإسكان، وقال غيره: إنما اتفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لوفاق الفواصل.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٧٧/٢٤

[سورة المسد (١١١) : آية ٢]

ما أغنى عنه ماله وما كسب (٢)

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: ما في قوله: ما أغنى يحتمل أن يكون استفهاما بمعنى الإنكار، ويحتمل أن يكون نفيا، وعلى التقدير الأول يكون المعنى أي تأثير كان لماله وكسبه في دفع البلاء عنه، فإنه لا أحد أكثر مالا من قارون فهل دفع الموت عنه «١» ، ولا أعظم ملكا من سليمان فهل دفع الموت عنه، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك إخبارا بأن المال والكسب لا ينفع في ذلك.

المسألة الثانية: (ما كسب) مرفوع وما موصولة أو مصدرية يعني مكسوبه أو كسبه،

يروى أنه كان يقول: إن كان ما يقول ابن أخي حقا فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وأولادي، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ثم ذكروا في

---

(١) المناسب هنا أن يقول فهل الخسف عثة، للذي تنص عليه الآية الكريمة فخسفنا به وبداره الأرض [القصص: ٨١] .." (١)

"وإما أن لا يكون كذلك، بل الوجود والعدم بالنسبة إليه سيان، فإن كان الأول، كان ناقصا لذاته مستكملا بغيره، وذلك على الله محال، وإن كان الثاني استحال أن يكون غرضا ومقصودا ومرجحا فإن قيل: إنه وإن كان وجوده وعدمه بالنسبة إليه على السوية إلا أن وجوده لما كان أنفع للغير من عدمه، فالحكيم يفعله ليعود النفع إلى الغير قلنا: عود النفع إلى الغير ولا عوده إليه، هل هما بالنسبة إلى الله تعالى على السواء، أو ليس الأمر كذلك، وحينئذ يعود التقسيم. وثانيها: إن كل من فعل فعلا لغرض فإما أن يكون قادرا على تحصيل ذلك الغرض من دون تلك الواسطة، أو لا يكون قادرا عليه. فإن كان الأول كان توسط تلك الواسطة عبثا، وإن كان الثاني كان عجزا وهو على الله محال. وثالثها: أنه تعالى إن فعل فعلا لغرض فذلك الغرض إن كان قديما لزم من قدمه قدم الفعل وهو محال، وإن كان محدثا توقف إحداثه على غرض آخر، ولزم الدور أو التسلسل وهو محال.

ورابعها: أن تخصيص إحداث العالم بوقت معين دون ما قبله وما بعده إن كان لحكمة اختص بها ذلك الوقت دون ما قبله وما بعده كان طلب العلة في أنه لم حصلت تلك الحكمة في ذلك الوقت دون سائر الأوقات كطلب العلة في أنه لم حصل العالم في ذلك الوقت دون سائر الأوقات، فإن استغنى أحدهما عن المرجح فكذا الآخر، وإن افتقر فكذا الآخر وإن لم يتوقف ذلك على الحكمة فقد بطل توقيف فاعلية الله على الحكمة والغرض.

وخامسها: ما سبق من الدلائل على أن جميع الكائنات من الخير والشر، والكفر، والإيمان، والطاعة والعصيان واقع بقدرة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٥١/٣٢

الله تعالى وإرادته، وذلك يبطل القول بالغرض، لأنه يستحيل أن يكون لله غرض يرجع إلى العبد في خلق الكفر فيه وتعذيبه عليه أبد الآباد. وسادسها: أن تعلق قدرة الله تعالى وإرادته بإيجاد الفعل المعين في/ الأزل، إما أن يكون جائزا أو واجبا، فإن كان جائزا افتقر إلى مؤثر آخر ويلزم التسلسل، ولأنه يلزم صحة العدم على القديم، وإن كان واجبا فالواجب لا يعلل فثبت عندنا بهذه الوجوه أن تعليل أفعال الله وأحكامه بالدواعي والأغراض محال، وإذا كان كذلك كانت فاعليته بمحض الإلهية والقدرة والنفاذ والاستيلاء، وهذا هو الذي دل عليه صريح قوله تعالى: قل لله المشرق والمغرب فإنه علل جواز النسخ بكونه مالكا للمشرق والمغرب، والملك يرجع حاصله إلى القدرة، ولم يعلل ذلك بالحكمة على ما تقوله المعتزلة، فثبت أن هذه الآية دالة بصريحها على قولنا ومذهبنا، أما المعتزلة فقد قالوا: لما دلت الدلائل على أنه تعالى حكيم، والحكيم لا يجوز أن تكون أفعاله خالية عن الأغراض، علمنا أن له سبحانه في كل أفعاله وأحكامه حكما وأغراضا، ثم إنها تارة تكون ظاهرة جلية لنا، وتارة مستورة خفية عنا، وتحويل القبلة من جهة إلى جهة أخرى يمكن أن يكون لمصالح خفية وأسرار مطوية عنا، وإذا كان الأمر كذلك: استحال الطعن بهذا التحويل في دين الإسلام.

المسألة الرابعة: في الكلام في تلك الحكم على سبيل التفصيل، واعلم أن أمثال هذه المباحث لا تكون قطعية، بل غايتها أن تكون أمورا احتمالية أما تعيين القبلة في الصلاة فقد ذكروا فيه حكما. أحدها: أن الله تعالى خلق في الإنسان قوة عقلية مدركة للمجردات والمعقولات، وقوة خيالية متصرفة في عالم الأجساد، وقلما تنفك القوة العقلية عن مقارنة القوة الخيالية ومصاحبتها، فإذا أراد الإنسان استحضار أمر عقلي مجرد وجب أن يضع له صورة خيالية يحسبها حتى تكون تلك الصورة الخيالية معينة على إدراك تلك المعاني العقلية، ولذلك فإن المهندس إذا أراد إدراك حكم من أحكام المقادير، وضع له صورة معينة وشكلا معينا ليصير الحس والخيال معينين للعقل على إدراك ذلك الحكم الكلي، ولما كان العبد الضعيف إذا وصل إلى مجلس الملك العظيم، فإنه." (١)

"لجميع الأمة فإن قيل: لو كان الأمر كذلك لكان هذا خطابا لجميع من يوجد إلى قيام الساعة، فإنما حكم لجماعتهم بالعدالة فمن أين حكمت لأهل كل عصر بالعدالة حتى جعلتهم حجة على من بعدهم؟ قلنا: لأنه تعالى لما جعلهم شهداء على الناس، فلو اعتبرنا أول الأمة وآخرها بمجموعها في كونها حجة على غيرها لزالت الفائدة إذ لم يبق بعد انقضائها من تكون الأمة حجة عليه، فعلمنا أن المراد به أهل كل عصر، ويجوز تسمية أهل العصر الواحد بالأمة، فإن الأمة اسم للجماعة التي تؤم جهة واحدة، ولا شك أن أهل كل عصر كذلك ولأنه تعالى قال: أمة وسطا فعبر عنهم بلفظ النكرة ولا شك أن هذا يتناول أهل كل عصر.

المسألة الخامسة: اختلف الناس في أن الشهادة المذكورة في قوله تعالى: لتكونوا شهداء على الناس تحصل في الآخرة أو في الدنيا. فالقول الأول: إنها تقع في الآخرة، والذاهبون إلى هذا القول لهم وجهان.

الأول: وهو الذي عليه الأكثرون: أن هذه الأمة تشهد للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم، روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالب الله تعالى الأنبياء بالبينة على/ أنهم قد بلغوا وهو أعلم، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم الله عليه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨١/٤

وسلم فيشهدون فتقول الأمم من أين عرفتم فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام، فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا [النساء: ٤١] وقد طعن القاضي في هذه الرواية من وجوه:

أولها: أن مدار هذه الرواية عن أن الأمم يكذبون أنبياءهم وهذا بناء على أن القيامة قد يكذبون، وهذا باطل عند القاضي، إلا أنا سنتكلم على هذه المسألة في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم [الأنعام: ٢٣، ٢٤] .

وثانيها: أن شهادة الأمة وشهادة الرسول مستندة في الآخرة إلى شهادة الله تعالى على صدق الأنبياء، وإذا كان كذلك فلم لم يشهد الله تعالى لهم بذلك ابتداء؟ وجوابه: **الحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الفضل عن سائر الأمم بالمبادرة إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء، والإيمان بهم جميعا، فهم بالنسبة إلى سائر الأمم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق، فلذلك يقبل الله شهادتهم على سائر الأمم ولا يقبل شهادة الأمم عليهم إظهارا لعدالتهم وكشفا عن فضيلتهم ومنقبتهم.

وثالثها: أن مثل هذه الأخبار لا تسمى شهادة وهذا ضعيف

لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد»

والشيء الذي أخبر الله تعالى عنه فهو معلوم مثل الشمس فوجب جواز الشهادة عليه.

الوجه الثاني: قالوا معنى الآية: لتشهدوا على الناس بأعمالهم التي خالفوا الحق فيها قال ابن زيد: الأشهاد أربعة. أولها: الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد. قال تعالى: وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد [ق: ٢١] وقال: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد [ق: ١٨] وقال: وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون [الانفطار: ١٠- ١٢] . وثانيها: شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله حاكيا عن عيسى عليه السلام: وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد [المائدة: ١١٧] وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم وأمته في هذه الآية: لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وقال: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا." (١)

"اتقى مخالفة الله وأمرهم بترك سنة الجاهلية فقال: وأتوا البيوت من أبوابها فهذا ما قيل في سبب نزول هذه الآية.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير الآية ثلاثة أوجه الأول: وهو قول أكثر المفسرين حمل الآية على هذه الأحوال التي رويناها في سبب النزول، إلا أن على هذا التقدير صعب الكلام في نظم الآية، فإن القوم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحكمة في تغيير نور القمر، فذكر الله تعالى **الحكمة في ذلك**، وهي قوله: قل هي مواقيت للناس والحج فأي تعلق بين بيان الحكمة في اختلاف نور القمر، وبين هذه القصة، ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن هذا السؤال من وجوه أحدها: أن الله تعالى لما ذكر أن الحكمة في اختلاف أحوال الأهلة جعلها مواقيت للناس/ والحج، وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤/ ٨٧

في الحج لا جرم تكلم الله تعالى فيه وثانيها: أنه تعالى إنما وصل قوله: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها بقوله: يسئلونك عن الأهلة لأنه إنما اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معا في وقت واحد ووصل أحد الأمرين بالآخر وثالثها: كأنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة فقيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم لكم فإنكم تظنون أن إتيان البيوت من ظهورها بر وليس الأمر كذلك.

القول الثاني: في تفسير الآية أن قوله تعالى: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها مثل ضربه الله تعالى لهم، وليس المراد ظاهره، وتفسيره أن الطريق المستقيم المعلوم هو أن يستدل بالمعلوم على المظنون، فأما أن يستدل بالمظنون على المعلوم فذاك عكس الواجب وضد الحق وإذا عرفت هذا فنقول: إنه قد ثبت بالدلائل أن للعالم صانعا مختارا حكيما، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلا الصواب البريء عن العبث والسفه، ومتى عرفنا ذلك، وعرفنا أن اختلاف أحوال القمر في النور من فعله علمنا أن فيه حكمة ومصلحة، وذلك لأن علمنا بهذا الحكيم الذي لا يفعل إلا الحكمة يفيدنا القطع بأن فيه حكمة، لأنه استدلال بالمعلوم على المجهول، فأما أن يستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله ليس بالحكيم، فهذا الاستدلال باطل، لأنه استدلال بالمجهول على القدح في المعلوم إذا عرفت هذا فالمراد من قوله تعالى: وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها يعني أنكم لما لم تعلموا حكمته في اختلاف نور القمر صرتم شاكين في حكمة الخالق، فقد أتيتم الشيء لا من البر ولا من كمال العقل إنما البر بأن تأتوا البيوت من أبوابها فتستدلوا بالمعلوم المتيقن وهو حكمة خالقها على هذا المجهول فتقطعوا بأن فيه حكمة بالغة، وإن كنتم لا تعلمونها، فجعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية فإن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه وفي ضده يقال: إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه قال تعالى: فنبذوه وراء ظهورهم [آل عمران: ١٨٧] وقال:

واتخذتموه وراءكم [هود: ٩٢] فلما كان هذا طريقا مشهورا معتادا في الكنايات، ذكره الله تعالى هاهنا، وهذا تأويل المتكلمين ولا يصح تفسير هذه الآية فإن تفسيرها بالوجه الأول يطرق إلى الآية سوء الترتيب وكلام الله منزه عنه.

القول الثالث: في تفسير الآية ما ذكره أبو مسلم، أن المراد من هذه الآية ما كانوا يعلمونه من النسيء،." (١)

"قلنا: نحمل الرؤية على الظن والحسبان، وذلك لأن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنهم في غاية الكثرة، وإما أن نقول إن الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيرين والجواب الأول أقرب، لأن الكلام مقتصر على الفئتين ولم يدخل فيهما قصة الملائكة.

والوجه الرابع: في بيان كون هذه القصة آية، قال الحسن: إن الله تعالى أمد رسوله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة بخمسة آلاف من الملائكة لأنه قال: فاستجاب لكم أني ممدكم بألف [الأنفال: ٩] وقال: بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة [آل عمران: ١٢٥] والألف مع الأربعة آلاف: خمسة آلاف من الملائكة وكان سيماهم هو أنه كان على أذناب خيولهم ونواصيها صوف أبيض، وهو المراد بقوله والله يؤيد بنصره من يشاء والله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨٦/٥

أعلم.

ثم قال الله تعالى: فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: القراءة المشهورة فئة بالرفع، وكذا قوله وأخرى كافرة وقرئ فئة فقاتل وأخرى كافرة بالجر على البدل من فئتين، وقرئ بالنصب إما على الاختصاص، أو على الحال من الضمير في التقتا، قال الواحدي رحمه الله: والرفع هو الوجه لأن المعنى إحداهما تقاتل في سبيل الله فهو رفع على استئناف الكلام.

المسألة الثانية: المراد بالفئة التي تقاتل في سبيل الله هم المسلمون، لأنهم قاتلوا لنصرة دين الله.

وقوله وأخرى كافرة المراد بها كفار قريش.

ثم قال تعالى: يرونهم مثليهم رأي العين وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ نافع وأبان عن عاصم ترونهم بالتاء المنقطة من فوق، والباقون بالياء فمن قرأ بالتاء فلأن ما قبله خطاب لليهود، والمعنى ترون أيها اليهود المسلمين مثلي ما كانوا، أو مثلي/ الفئة الكافرة، أو تكون الآية خطابا مع مشركي قريش والمعنى: ترون يا مشركي قريش المسلمون مثلي فئتكم الكافرة، ومن قرأ بالياء فللمغالبة التي جاءت بعد الخطاب، وهو قوله فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم فقوله يرونهم يعود إلى الإخبار عن إحدى الفئتين.

المسألة الثانية: اعلم أنه قد تقدم في هذه الآية ذكر الفئة الكافرة وذكر الفئة المسلمة فقوله يرونهم مثليهم يحتمل أن يكون الراؤن هم الفئة الكافرة، والمرئيون هم الفئة المسلمة، ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذان احتمالان، وأيضا فقوله مثليهم يحتمل أن يكون المراد مثلي الرائين وأن يكون المراد مثلي المرئين فإذن هذه الآية تحتمل وجوها أربعة الأول: أن يكون المراد أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المشركين قريبا من ألفين.

والاحتمال الثاني: أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثلي عدد المسلمين ستمائة ونيفا وعشرين، **والحكمة في ذلك** أنه تعالى كثر المسلمين في أعين المشركين مع قلتهم ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم.

فإن قيل: هذا متناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال ويقللكم في أعينهم [الأنفال: ٤٤] .." (١)

"بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني.

والقول الثاني: إن هذا البياض والسواد يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة، فوجب المصير إليه، قلت: ولأبي مسلم أن يقول: الدليل دل على ما قلناه، وذلك لأنه تعالى قال: وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشار، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المجاز لما صح جعله مقابلا، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل، ثم قال القائلون بهذا القول: **الحكمة في ذلك** أن أهل/ الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين أحدهما: أن السعيد يفرح بأن يعلم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٧/٧

قومه أنه من أهل السعادة، قال تعالى مخبرا عنهم يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين [يس: ٢٦، ٢٧] الثاني: أنهم إذا عرفوا ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السواد في وجه الكفار سببا لمزيد غمهم في الآخرة، فهذا وجه الحكمة في الآخرة، وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغبا له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه، فهذا تقرير هذين القولين.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر، وأنه ليس هاهنا منزلة بين المنزلتين كما يذهب إليه المعتزلة، فقالوا: إنه تعالى قسم أهل القيامة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون، ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر الثالث، فلو كان هاهنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قالوا وهذا أيضا متأكد بقوله تعالى: وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة [عبس: ٣٨- ٤٢] .

أجاب القاضي عنه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه، يبين ذلك أنه تعالى إنما قال: يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فذكرهما على سبيل التنكير، وذلك لا يفيد العموم، وأيضا المذكور في الآية المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين، فكذا القول في الفساق.

واعلم أن وجه الاستدلال بالآية هو أنا نقول: الآيات المتقدمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتوحيد والنبوة وفي الزجر عن الكفر بهما ثم إنه تعالى أتبع ذلك بهذه الآية فظاهرها يقتضي أن يكون ابيضاض الوجه نصيبا لمن آمن بالتوحيد والنبوة، واسوداد الوجه يكون نصيبا لمن أنكر ذلك، ثم دل ما بعد هذه الآية على أن صاحب البياض من أهل الجنة، وصاحب السواد من أهل النار، فحينئذ يلزم نفي المنزلة بين المنزلتين، وأما قوله يشكل هذا بالكافر الأصلي فجوابنا عنه من وجهين الأول: أن نقول لم لا يجوز أن يكون المراد منه أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم؟ وإذا كان كذلك كان الكل داخلا فيه والثاني: وهو أنه تعالى قال في آخر الآية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فجعل موجب العذاب هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر." (١)

"﴿٢٣٤﴾ ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ .

أي: إذا توفي الزوج، مكثت زوجته، متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبا، **والحكمة في ذلك**، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة، عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾ أي: من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿بالمعروف﴾ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه.

وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٨/٨

العلماء.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي: عالم بأعمالكم، ظاهرها وباطنها، جليلها وخفيها، فمجازيكم عليها.

وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾ -[١٠٥]- دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.." (١)

"وفي قوله: ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ ﴿ومن أصدق من الله قيلا﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها. فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] (١) والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقا. -[١٩٢]-

﴿٨٨ - ٩١﴾ ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا * ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا * ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ .

(٢) المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تحرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم. فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفركم وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققتم ذلك منهم ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضا بغضهم وعداوتهم لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمنا حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأنهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ أي: في أي وقت وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما (٣) : من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/١٠٤

فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية: قوم ﴿حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضا أمر بتركهم، وذكر **الحكمة في ذلك** في قوله: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

﴿فـ﴾ هؤلاء ﴿إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾ .

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ستجدون آخرين﴾ أي: من هؤلاء المنافقين. ﴿يريدون أن يأمنوكم﴾ أي: خوفا منكم ﴿ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن أعماهم ونكسهم على رءوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احتراما لهم لا خوفا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفا لا احتراما، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون (٤) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم ويتضح اتضاحا عظيما اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: المسالمة والموادعة ﴿ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلوموا إلا أنفسهم.

---

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فأنزل الله: "فما لكم في المنافقين فئتين" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد". وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٤) في ب: سيقدمون.." (١)

"﴿٣٣، ٣٤﴾ ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/١٩١

تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ .

المحاربون لله ولرسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض -[٢٣٠]- بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطاع الطريق، الذين يعرضون للناس في القرى والبوادي، فيغصبونهم أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك الطريق التي هم بها، فتنقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم -عند إقامة الحد عليهم- أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع طريق يفعل به الإمام أو نائبه ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ، أو أن عقوبتهم تكون بحسب جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا ويرتدع غيرهم. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا، ولا أخذوا مالا نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ذلك﴾ النكال ﴿لهم خزي في الدنيا﴾ أي: فضيحة وعار ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة، وأن فاعله محارب لله ولرسوله.

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ أي: من هؤلاء المحاربين، ﴿فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ أي: فيسقط عنه ما كان لله، من تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ومن حق الآدمي أيضا، إن كان المحارب كافرا ثم أسلم، فإن كان المحارب مسلما فإن حق الآدمي، لا يسقط عنه من القتل وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب -بعد القدرة عليه- أنها لا تسقط عنه شيئا، **والحكمة في ذلك** ظاهرة.

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه، تمنع من إقامة الحد في الحرابة، فغيرها من الحدود -إذا تاب من فعلها، قبل القدرة عليه- من باب أولى.." (١)

"ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيمانا صحيحا، موجبا لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحا، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٢٢٩

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾ .

هذا من منن الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرا، ليطيعوه ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لا بد أن يختبر الله إيمانكم.

﴿ليبلونكم الله بشيء من الصيد﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة يسيرة، تخفيفا منه تعالى ولطفا، وذلك الصيد الذي يبتليكم الله به ﴿تناله أيديكم ورماحكم﴾ أي: تتمكنون من صيده، ليتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر **الحكمة في ذلك** الابتلاء، فقال: ﴿ليعلم الله﴾ علما ظاهرا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿من يخافه بالغيب﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿فمن اعتدى﴾ منكم ﴿بعد ذلك﴾ البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل. ﴿فله عذاب أليم﴾ أي: مؤلم موجع، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده. وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أي: محرمون في الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان حلالا له قبل الإحرام.

وقوله: ﴿ومن قتله منكم متعمدا﴾ أي: قتل صيدا عمدا ﴿فـ﴾ عليه ﴿جزاء مثل ما قتل من النعم﴾ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئا من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به. والاعتبار بالمماثلة أن ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش -على اختلاف أنواعه- بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئا من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئا ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدي لا بد أن يكون ﴿هديا بالغ الكعبة﴾ أي: يذبح في الحرم.

﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعام يطعم المساكين. قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره. ﴿أو عدل ذلك﴾ الطعام ﴿صياما﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوما. ﴿ليذوق﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وبال أمره﴾ ﴿ومن عاد﴾ بعد ذلك ﴿فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾ وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم

المتعمد والمخطئ، كما هو القاعدة الشرعية -أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطئ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الآدميين وأموالهم] (١) .

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلا منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرحت به الآية أنه لا جزاء على غير المتعمد كما لا إثم عليه) .." (١)

"﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾ .

﴿ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين (١) وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرا. ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

ولله **الحكمة في ذلك** والعدل والإحسان إلى (٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿كدأب آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وأغرقنا آل فرعون وكل﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.." (٢)

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٢٤٣

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٣٢٤

"﴿٤٦ -٤٨﴾ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين﴾ .

يقول تعالى مبينا أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعذارهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون ف ﴿لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فثبطهم﴾ قدرا وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم وثبطهم ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ من النساء والمعذورين.

ثم ذكر **الحكمة في ذلك** فقال ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا﴾ أي: نقصا.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿وفيكم﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سماعون لهم﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتثبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستنصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفا من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.." (١)

"﴿٩٨﴾ ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ .

يقول تعالى: ﴿فلولا كانت قرية﴾ من قرى المكذبين ﴿آمنت﴾ حين رأت العذاب ﴿فنفعها إيمانها﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه، حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبا، لما قال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ فقيل له ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾

وكما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده﴾

وقال تعالى ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي * أعمل صالحا فيما تركت كلا﴾

والحكمة في هذا ظاهرة فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٣٣٩

وقوله ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا﴾ بعدما رأوا العذاب ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ فهم مستثنون من العموم السابق

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا

قال الله تعالى ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى قوله ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ ولعل **الحكمة في ذلك** أن غيرهم من المهلكين لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه والله أعلم." (١)

"﴿٥١﴾ ﴿ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما﴾ .

وهذا أيضا من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته، على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك، فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك".

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهن﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها] (١) ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبيت عندها.

﴿و﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿من ابتغيت﴾ أي: أن تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات، له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم] (٢) .

ثم بين **الحكمة في ذلك** فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعا إليك وبيدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعا منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجبا، ولم تفرط في حق لازم.

-[٦٧٠]-

﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك.

﴿وكان الله عليما حليما﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه، أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه، أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

---

(١) زيادة من ب.

(٢) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.." (٢)

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٣٧٤

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٦٦٩

"﴿٢٧ - ٣١﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون * ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ .

يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، **والحكمة في ذلك** ﴿لعلهم يتذكرون﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿قرآنا عربيا غير ذي عوج﴾ أي: جعلناه قرآنا عربيا، واضح الألفاظ، -[٧٢٤]- سهل المعاني، خصوصا على العرب.

﴿غير ذي عوج﴾ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما﴾

﴿لعلهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال: ﴿ضرب الله مثلا رجلا﴾ أي: عبدا ﴿فيه شركاء متشاكسون﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ورجلا سلما لرجل﴾ أي: خالصا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. ﴿هل يستويان﴾ أي: هذان الرجلان ﴿مثلا﴾ ؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ ﴿هل يستويان مثلا الحمد لله﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾

﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلا ما عمله ﴿أحصاه الله ونسوه﴾." (١)

"﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين﴾ .

هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر **الحكمة في ذلك** فقال: ﴿لعلكم تعقلون﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٧٢٣

﴿وإنه﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لدينا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لعلي حكيم﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.
ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملا لا يرسل إليهم رسولا ولا ينزل عليهم كتابا، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:." (١)

"على اثنتي عشرة فرقة، وتصير اثني عشر نهرا. وقال بعضهم: كان للحجر اثنا عشر ثقبا، يخرج منها اثنتا عشرة عينا لا يختلط بعضها ببعض. قال مقاتل: كان الحجر مربعا، وكان جبريل- عليه السلام- أمر موسى بحمله معه يوم جاوز البحر ببني إسرائيل، وإنما انفجرت اثنتا عشرة عينا، لأنه أخذ من مكان فيه اثنا عشر طريقا.
ثم قال تعالى: قد علم كل أناس مشربهم، أي قد عرف كل سبط مشربهم، أي موردهم وموضع شربهم من العيون لا يخالطهم فيها غيرهم. **والحكمة في ذلك** أن الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة، وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر، وأراد كل سبط تكثير نفسه، فجعل لكل سبط منهم نهرا على حدة ليستقوا منها، ويسقوا دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة. وقال بعضهم: كان الحجر من الجنة. وقال بعضهم: رفعه موسى من أسفل البحر حيث مر فيه مع قومه. وقال بعضهم: كان حجرا من أحجار الأرض.
قوله عز وجل: كلوا واشربوا من رزق الله أي قيل لهم كلوا من المن والسلوى، واشربوا من ماء العيون، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، أي لا تعملوا فيها بالمعاصي، يقال: عثا يعثو عثوا، إذا أظهر الفساد وعثي، وعاث- لغتان- الذئب في الغنم أي أسرع بالفساد ثم أنهم أجمعوا من المن والسلوى.

[سورة البقرة (٢) : آية ٦١]
وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤ بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٦١)
وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد، أي من جنس واحد فادع لنا ربك، أي سل لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض، أي مما تخرج الأرض من بقلها وقثائها.
وقوله بقلها أراد به البقول كلها، وقوله وقثائها أراد به جميع ما يخرج من الفاكهة مثل القثاء والبطيخ ونحو ذلك، وقوله: وفومها، أي طعامها وهي الحبوب كلها، ويقال: هي الحنطة خاصة. وقال مجاهد: الفوم الخبز. وقال الفراء: فومي لنا يا جارية، يعني اخبزي لنا.

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٧٦٢

ويقال: الفوم هو الثوم، والعرب تبدل الفاء بالثاء لقرب مخرجهما. وفي قراءة عبد الله بن مسعود وثومها وعدسها وبصلها.." (١)

"أحدها: إني أتفكر في يوم الميثاق. حيث قال: هؤلاء في الجنة، ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، فلا أدري من أي الفريقين كنت في ذلك الوقت. والثاني حيث صورني في رحم أمي فقال الملك الموكل على الأرحام: يا رب شقي أم سعيد؟ فلا أدري كيف كان الجواب في ذلك الوقت. والثالث حيث يقبض روحي ملك الموت فيقول: يا رب أمع الكفار أم مع المؤمنين؟ فلا أدري كيف يخرج الجواب. والرابع حيث يقول: وامتازوا اليوم أيها المجرمون [يس: ٥٩] ، فلا أدري من أي الفريقين أكون. ثم قال تعالى: لا إله إلا هو يعني لا خالق ولا مصور إلا هو العزيز يعني المنيع بالنقمة لمن جحده الحكيم يحكم تصوير الخلق على ما يشاء.

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ٧ الى ٩]

هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب (٧) ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨) ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد (٩)

هو الذي أنزل عليك الكتاب يعني أنزل عليك جبريل بالقرآن منه آيات محكمات يعني من القرآن آيات واضحات ويقال مبينات بالحلال والحرام. ويقال: ناسخات لم تنسخ قط هن أم الكتاب يعني أصل كل كتاب، وهي ثلاث آيات من سورة الأنعام وهو قوله تعالى:

قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم [الأنعام: ١٥١] وروي عن ابن عباس أنه سمع رجلا يقول: فاتحة الكتاب أم الكتاب؟ فقال له ابن عباس: بل أم الكتاب قوله تعالى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم [الأنعام: ١٥١] إلى آخر ثلاث آيات الآية.

ثم قال تعالى وأخر متشابهات قال الضحاك أي منسوخات وقال الكلبي يعني ما اشتبه على اليهود كعب بن الأشرف وأصحابه ألم، والمص ويقال المحكم ما كان واضحا لا يحتمل التأويل، والمتشابه الذي يكون اللفظ يشبه اللفظ، والمعنى مختلف.

ويقال: المحكم الذي هو حقيقة اللغة، والمتشابه ما كان مجاوزا. ويقال: المحكمات التي فيها دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والمتشابه الذي اشتبهت الدلالة فيه، فإن قيل: إذا أنزل القرآن للبيان، فكيف لم يجعل كله، واضحا؟ قيل: الحكمة

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٥٧/١

في ذلك، والله أعلم أن يظهر فضل العلماء، لأنه لو كان الكل واضحا، لم يظهر فضل العلماء بعضهم على بعض. وهكذا يفعل." (١)

"فيستهل صارخا من الشيطان، إلا مريم وابنها عيسى عليهما السلام» ، قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم وقال الزجاج: معنى قوله إذ يعني إن الله اختار آل عمران، إذ قالت امرأت عمران: واصطفاهم، إذ قالت الملائكة. وقال أبو عبيدة: معناه قالت امرأة عمران، وقالت الملائكة و «إذ زيادة. وقال الأخفش: معناه واذكر إذ قالت امرأة عمران، واذكر إذ قالت الملائكة، وقال أهل اللغة: المحرر والعتيق في اللغة بمعنى واحد، ثم إن حنة لفتها في خرق، ثم وضعتها في بيت المقدس عند المحراب، فاجتمعت القراء، أي الزهاد فقال زكريا: أنا أحق بها، لأن خالتها عندي. فقال القراء: إن هذه محررة، فلو تركت لخالتها، فكانت أمها أحق بها، ولكن نتساهم، فخرجوا إلى عين سلوان، فألقوا أقلامهم في النهر. قال بعضهم: كانت أقلامهم من الشبة، فغابت أقلامهم في الماء، وبقي قلم زكريا على وجه الماء. وقال بعضهم كانت أقلامهم من قصب، فبقيت أقلامهم على وجه الماء، وغاب قلم زكريا في الماء. وقال بعضهم: ألقوا أقلامهم في النهر، فسال الماء بأقلامهم إلا قلم زكريا، فإنه جرى من الجانب الأعلى، فعلموا أن الحق له، فضمها إلى نفسه فذلك قوله تعالى: فتقبلها ربها بقبول حسن أي تقبل منها نذرها وأنبتها نباتا حسنا وقال مجاهد غذاها غذاء حسنا، ورباها تربية حسنة وكفلها زكريا قرأ حمزة وعاصم والكسائي بالتشديد، أي كفلها الله إلى زكريا. وقرأ الباقون بالتخفيف، أي ضمها زكريا إلى نفسه، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي في رواية حفص زكريا بغير إعراب، وجزم الألف. وقرأ الباقون بالإعراب والمد، وهما لغتان معروفتان عند العرب، فمن قرأ كفلها بالتشديد، قرأ زكريا بنصب الألف، لأنه يصير مفعولا، ومن قرأ كفلها بالتخفيف قرأ زكريا برفع الألف على معنى الفاعل.

وذكر في الخبر أن زكريا بنى لها محرابا في غرفة، وجعل باب الغرفة في وسط الحائط، لا يصعد إليها إلا بسلم، واستأجر ظئرا، فكان يغلق عليها الباب، وكان لا يدخل عليها أحد إلا زكريا حتى كبرت، فإذا حاضت أخرجها إلى منزله، فتكون عند خالتها، وكانت خالتها امرأة زكريا. وهذا قول الكلبي.

وقال مقاتل: كانت أختها امرأة زكريا، وكانت إذا طهرت من حيضها، واغتسلت ردها إلى المحراب. وقال بعضهم: كانت لا تحيض، وكانت مطهرة من الحيض، وكان زكريا إذا دخل عليها في أيام الشتاء، رأى عندها فاكهة الصيف، وإذا دخل عليها في أيام الصيف، وجد عندها فاكهة الشتاء، وكانت الحكمة في ذلك أن لا يدخل في قلب زكريا شيء من الريبة، إذا رأى الفاكهة في غير أوانها، وعلم أنه لم يدخل عليها أحد من الآدميين، فذلك قوله تعالى:

كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ويقال: المحراب في اللغة أشرف المجالس، وهو المكان العالي، وقد قيل: إن مساجدهم كانت تسمى المحاريب ف قال لها زكريا يا مريم أنى لك هذا يعني: من أين لك هذا؟ فإنه لا يدخل عليك أحد غيري." (٢)

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ١/١٩٤

(٢) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ١/٢٠٩

"وأما الآخر فكان لا يستنزه عن البول» . ثم أخذ جريدتين من شجر، وغرس إحداهما في قبر والأخرى في قبر الآخر، فقال: «لعلهما لا يعذبان ما دامتا رطبتين» «١» . قال الحكماء: **الحكمة في ذلك**، أنهما ما دامتا رطبتين تسبحان الله تعالى، ويقال: معناه ما من شيء إلا يسبح بحمده، ويقال: معناه وإن من شيء إلا يسبح بحمده يدل على وحدانية الله تعالى، ويسبحه، فإن الله خالقه. ولكن لا تفقهون تسبيحهم، يعني: أثر صنعه فيهم، هذا بعيد، وهو خلاف أقاويل المفسرين، إنه كان حليما، حيث لم يجعل العقوبة لمن اتخذ معه آلهة، غفورا لمن تاب منهم.

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا (٤٥) وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (٤٦) نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا (٤٧)

قوله عز وجل: وإذا قرأت القرآن، يعني: إذا أخذت في قراءة القرآن. جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا قال بعضهم: الحجاب المستور، هو أن يمنعهم عن الوصول إليه، كما روي أن امرأة أبي لهب جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده أبو بكر، فدخلت فقالت لأبي بكر: هجاني صاحبك. قال أبو بكر: والله هو ما ينطق بالشعر ولا يقوله.

فرجعت، فقال أبو بكر: أما رأتك يا رسول الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لم يزل بيني وبينها ملك يسترني عنها حتى رجعت» «٢» . وقال قتادة: الحجاب المستور هو الأكنة. وقال مقاتل: الحجاب المستور هو قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة أي: جعلنا أعمالهم على قلوبهم أغطية حتى لا يرغبوا في الحق، ويقال: جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعني: الجن والشياطين حجابا مستورا فلا يصلون إليك. وقال الكلبي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا القرآن، ستره الله وحجبه عن المشركين بثلاث آيات، إذا قرأهن حجب عنهم. إحداهن: في سورة الكهف:

وجعلنا على قلوبهم أكنة [الكهف: ٥٧] والآية الثانية في النحل: أولئك الذين طبع الله على قلوبهم [النحل: ١٠٨] والثالثة في حم الجاثية: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه [الجاثية: ٢٣] الآية.

قوله تعالى: وفي آذانهم وقرا، أي صمما وثقلا لا يسمعون الحق. قرأ ابن كثير

---

(١) حديث ابن عباس: أخرجه البخاري (٢١٨) (١٣٧٨) و (٦٠٥٢) ومسلم (٢٩٢) والترمذي (٧٠) والنسائي ١/ ٢٩- ٣٠ وأبو داود (٢٠) وأحمد ١/ ٢٢٥ والبيهقي: ٢/ ٤١٢ والبغوي (١٨٣) .

(٢) عزاه السيوطي: ٥/ ٢٩٥ إلى أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي و ٥/ ٢٩٦ إلى ابن مردويه عن أبي بكر.." (١)

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٢/٣١٣

"سورة الشورى

وهي ثلاث وخمسون آية مكية

[سورة الشورى (٤٢) : الآيات ١ الى ٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) عسق (٢) كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم (٣) له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم (٤)

قوله تبارك وتعالى: حم عسق روي عن ابن عباس أنه قال: الحاء حكم الله، والميم ملك الله، والعين علو الله، والسين سناء الله، والقاف قدرة الله. فكأنه يقول: فبحكمي، وملكي، وعلوي، وسنائي، وقدرتي، لا أعذب عبدا قال: لا إله إلا الله، مخلصا، فلقيني بها. ومعنى قول ابن عباس: لا يعذب عبدا يعني: لا يعذبه عذابا دائما، خالدا. وروى المسيب عن رجل، عن أبي عبيدة، قال: العين عذاب الله، والسين سنون، والقاف فيها القحط العجب. قال: وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «افتحوا صبيانكم قول لا إله إلا الله، ولقنوا موتاكم لا إله إلا الله» **الحكمة في ذلك**، لأن حال الصبيان حال حسن، لا غل، ولا غش في قلوبهم، وحال الموتى حال الاضطرار. فإذا قلتم ذلك في أول ما يجري عليكم القلم، وآخر يجف القلم فعسى الله أن يتجاوز ما بين ذلك. قال المسيب: وحدثنا محدث قال: قاف قذف وقال الضحاك: في قوله: حم عسق قال: قضى عذاب سيكون واقعا، وأرجو أن يكون قد مضى يوم بدر، والسنون. وقال شهر بن حوشب: حم عسق حرب يذل فيه العزيز، ويعز فيه الذليل من قريش، ثم يفضي إلى العرب، ثم إلى العجم، ثم هي متصلة إلى خروج الدجال. وقال عطاء: الحاء حرب، وهو موت ذريع في الناس، وفي الحيوان، حتى يبيدهم، ويفنيهم، والميم تحويل ملك من قوم إلى قوم، والعين عدو لقريش يركبهم، ثم ترجع الدولة إليهم بحرمة البيت، والسين هو استئصال بالسنين كسني يوسف، والقاف قدر من الله نافذ في ملكوت الأرض، لا يخرجون من قدره، وهو نافذ فيهم. وقال السدي: الحاء حلمه، والميم ملكه، والعين عظمته، والسين سناؤه، والقاف قدرته. وقال قتادة: هو اسم من أسماء الله تعالى. ويقال اسم من أسماء القرآن.." (١)

"قوله تعالى: ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾ أي: ليسأل النبيين عن تبليغهم الرسالة، فإن قال قائل: وأي حكمة في سؤالهم عن تبليغ الرسالة؟ والجواب عنه: **الحكمة في ذلك** تبكيت الذين أرسلوا إليهم، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ .

ويقال: ليسأل الصادقين عن عملهم لله، وقيل: ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم.

وقوله: ﴿وأعد للكافرين عذابا أليما﴾ قد تم الكلام الأول، وهذا ابتداء كلام، ومعناه معلوم.." (٢)

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٣/٢٣٥

(٢) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ٤/٢٦٢

"﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا﴾ [الكهف: ٦٨] .

فيقول سيدنا موسى وهو من أولي العزم من الرسل: ﴿قال ستجدني إن شآء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾ [الكهف: ٦٩] .

فيخرق العبد الصالح السفينه. وخرق السفينة في السطحية الفهمية شر، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابرا، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة، فقال للعبد الصالح: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا﴾ [الكهف: ٧١] .

لقد شك سيدنا موسى في ظاهر الأمر، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير. فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذي يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصبا: ﴿أوكان ورآءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف: ٧٩] .

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم، وبالخرق للسفينة ستظل لأصحابها؛ لأن بها عطبا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك. إذن، كل شيء يجري على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشري فلنعلم أنها ما دامت ليست من أحد، وهي من المكون الأعلى فوراءها حكمة.

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل؟ لقد قتل العبد الصالح غلاما. ما **الحكمة في ذلك؟** . إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسندا، وقد يكون هذا الابن سببا في فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغي.." (١)

"واستمع إلى قول الشاعر في هذا المعنى:

إن الأمير هو الذي يمسي أميرا يوم عزله ... إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطان فضله

وحين يقول الحق: ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض﴾ .

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول، فلم يقل: أو لم يهد الذين، بل قال: ﴿يهد للذين﴾ ، فما **الحكمة في ذلك؟** . نعرف أن «الهداية» هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية، وقد تعود فائدته عليك، أي أنك قد هديت غيرك لصالحك. وقد تكون الهداية وهي الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذي هدى وعلى المهدي معا، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت، ولا تعود على من هداك، أتشك في هدايته لك؟ لا، إن من حقك أن تشك في الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هدى، أو يعود أمرها على الاثنين؛ ففي ذلك شبهة لمصلحة، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يهدي ويعود كله لمن يهدي فليس في ذلك أدنى شك.

ولذلك يقول الحق سبحانه في حديثه القدسي:

« ... يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٢٤٥٣/٤

عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» .

إذن فحين يهديهم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذي يعود عليه سبحانه من صفات بهذا العمل؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه، فلن ينشئ خلقه." (١)

"وقص لنا سبحانه بعضا من قصص مواكب الرسل، من نوح عليه السلام، ثم فصل قليلا في قصة موسى وهارون عليهما السلام، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام.

ونحن نلحظ أن الحق سبحانه جاء بقصة نوح عليه السلام في إطناب، ثم جاء بخبر عن رسل لم يقل لنا عنهم شيئا، ثم جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام، ثم سيأتي من بعد ذلك بقصة يونس عليه السلام، فالسورة تضم ثلاثا من الرسالات: رسالة نوح، ورسالة موسى وهارون، ورسالة يونس: وهو الرسول الذي سميت السورة باسمه.

ولسائل أن يقول: ولماذا جاء بهؤلاء الثلاثة في هذه السورة؟

وأقول: لقد تعبنا كثيرا، ومعنا كثير من المفسرين حتى نتلمس **الحكمة في ذلك**، ولماذا لم تأت في السورة قصة هود، وثمود، وشعيب، وكان لا بد أن تكون هناك حكمة من ذلك.

هذه الحكمة فيما تجلى لنا أن الحق سبحانه وتعالى يعرض موكب الرسالة وموكب المعارضين لكل رسول، والنتيجة التي انتهى إليها أمر الأعداء، وكذلك النتيجة التي انتهى إليها أمر الرسول ومن آمن به.

ونجد الذين ذكرهم الله سبحانه هنا قد أهلكوا إهلاكا متحدا بنوع واحد في الجميع، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق، وكذلك الإهلاك لقوم فرعون كان بالغرق، وكذلك كانت قصة سيدنا يونس لها علاقة بالبحر، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر.." (٢)

"فالحق سبحانه يأتي بالمخفف في أشياء، ثم يأتي بالمثقل؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان، ويبين فضله عليه، كما قال له سبحانه ﴿عفا الله عنك ... ﴾ [التوبة: ٤٣] قبل أن يعاتبه بقوله: ﴿لم أذنت لهم ... ﴾ [التوبة: ٤٣] .

وهذه الآية ﴿لا يحل لك النسآء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ... ﴾ [الأحزاب: ٥٢] توضح أن ما شرع لرسول الله في مسألة تعدد الزوجات غير ما شرع لأمته، فرسول الله استثناه الله تعالى في المعدود لا في العدد، والفرق بين الاستثناء في العدد والاستثناء في المعدود أن العدد يدار في أشياء متعددة، فلو أنه أباح له عدد تسع ثم توفين لكان له أن يتزوج بتسع أخر، وإن ماتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلا منها.

لكن الاستثناء لم يكن لرسول الله في العدد كأمته، إنما في المعدود، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهن، **والحكمة في ذلك** أن التي يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أن تتزوج بغيره، على خلاف زوجات رسول الله، فإنهن أمهات للمؤمنين،

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٤٢٦٢/٧

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦٢٠٩/١٠

فلا يحل لهن الزواج بعد رسول الله.

ثم أوضحنا أن مسألة ملك اليمين ليست سبة في جبين الإسلام، إنما هي ميزة من ميزاته، فالله ملك الرقبة ليحميها من القتل، والمقارنة هنا ليست بين رق وحرية، إنما بين رق وقتل كما أوضحنا، والذي يتأمل حال المملوك أو المملوكة في ظل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع في هذه المسألة.." (١)

"الكفر – على العكس من ذلك؛ أما ظلمة الفسق فهي ظلمة جزئية تكبر، وتصغر بحسب ما معه من المعاصي؛ ودليل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء (رحمه الله١) – والسواد ظلمة، وتزول هذه النكتة بالتوبة، وتزيد بالإصرار على الذنب؛ فالظلمات ثلاث: ظلمة الجهل، والكفر، والمعاصي؛ يقابلها نور العلم، ونور الإيمان، ونور الاستقامة.

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ ؛ إذا تأملت هذه الجملة، والتي قبلها تجد فرقا بين التعبيرين في الترتيب: ففي الجملة الأولى قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ لأمور ثلاثة؛ أحدها: أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولا استبشر به؛ ثانيا: التبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل؛ ثالثا: إظهار المنة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتن عليهم أولا، فأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ أما الجملة الثانية: ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ ؛ ولو كانت الجملة على سياق الأولى لقال: «والطاغوت أولياء الذين كفروا» ؛ ومن **الحكمة في ذلك**: أولا: ألا يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله؛ ثانيا: أن الطاغوت أهون، وأحقر من أن يبدأ به، ويقدم؛ ثالثا: أن البداءة بقوله تعالى: ﴿الذين كفروا﴾ أسرع إلى ذمهم مما لو تأخر ذكره.

وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا﴾ أي كفروا بكل ما يجب الإيمان به سواء كان كفرهم بالله، أو برسوله، أو بملائكته، أو باليوم الآخر، أو بالقدر، أو غيرها مما يجب الإيمان به.

رحمه الله______________

(رحمه الله١) أخرجه مسلم ص٧٠٢، كتاب الإيمان، باب ٦٤: رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ... ، حديث رقم ٣٦٩ [٢٣١] ١٤٤.." (٢)

"جعلوا المقيس هو المقيس عليه؛ لقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ ؛ وكان مقتضى الحال أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع.

٦ – ومنها: أن الحكم لله – تبارك وتعالى – وحده؛ فما أحله فهو حلال؛ وما حرمه فهو حرام سواء علمنا **الحكمة في ذلك**، أم لم نعلم؛ لأنه تعالى رد قولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ بقوله تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ ؛ فكأنه قال: ليس الأمر إليكم؛ وإنما هو إلى الله.

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٢١١٨/١٩

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٢٧٢/٣

٧ - ومنها: أن بين الربا والبيع فرقا أوجب اختلافهما في الحكم؛ فإنا نعلم أن الله تعالى لا يفرق بين شيئين في الحكم إلا وبينهما فرق في العلة، والسبب المقتضي لاختلافهما؛ لقوله تعالى: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ [التين: ٨] ، وقوله تعالى: ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ [المائدة: ٥٠] .

٨ - ومنها: أن ما أخذه الإنسان من الربا قبل العلم فهو حلال له بشرط أن يتوب، وينتهي؛ لقوله تعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ .

٩ - ومنها: أنه لو تاب من الربا قبل أن يقبضه فإنه يجب إسقاطه؛ لقوله تعالى: ﴿فانتهى﴾ ؛ ومن أخذه بعد العلم فإنه لم ينته؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في عرفة في حجة الوداع: «ألا وإن ربا الجاهلية موضوع؛ وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» (رحمه الله١) ؛ فبين صلى الله عليه وسلم أن ما لم يؤخذ من الربا فإنه موضوع.

رحمه الله________________

(رحمه الله١) أخرجه مسلم ص٨٨٠ - ٨٨١، كتاب الحج، باب ١٩: حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم ٢٩٥٠ [١٤٧] ١٢١٨.." (١)

"قرر في مواضع كثيرة من التنبيه على اختلاف أحوال الناس عند هجوم المصائب وانكشافها، ما كان كثير الوقوع من الأمراض النفسانية. واختار من أيام الله- يعني الوقائع التي أحدثها الله سبحانه وتعالى كتنعيم المطيعين، وتعذيب العصاة- ما قرع سمعهم. وذكر لهم إجمالا مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود. وكان العرب تتلقاها أبا عن جد. ومثل قصص إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، فإنها كانت مألوفة لأسماعهم لمخالطة اليهود والعرب في قرون كثيرة. لا القصص الشاذة غير المألوفة. ولا أخبار المجازاة بين فارس والهنود. وانتزع من القصص المشهورة جملا تنفع في تذكيرهم. ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها.

والحكمة في ذلك أن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة، أو استقصى بين أيديهم ذكر الخصوصيات- يميلون إلى القصص نفسها، ويفوتهم التذكر الذي هو الغرض الأصلي فيها. ونظير هذا الكلام ما قاله بعض العارفين: إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع في التلاوة.

ولما ساق المفسرون الوجوه البعيدة في التفسير صار علم التفسير نادرا كالمعدوم.

ومما تكرر من القصص قصة خلق آدم من الأرض وسجود الملائكة له وامتناع الشيطان منه وكونه ملعونا. وسعيه بعد ذلك في إغواء بني آدم. وقصة مخاصمة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام وأقوامهم، في باب التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وامتناع الأقوام من الامتثال بشبهات ركيكة، مع ذكر جواب الأنبياء. وابتلاء الأقوام بالعقوبة الإلهية. وظهور نصرته عز وجل للأنبياء وتابعيهم، وقصة موسى مع فرعون وقومه، ومع سفهاء بني إسرائيل، ومكابرة هذه

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٣/٣٧٧

الجماعة حضرته عليه الصلاة والسلام. وقيام الله سبحانه وتعالى بعقوبة الأشقياء.

وظهور نصرة نبيه مرة بعد مرة، وقصة خلافة داود وسليمان وآياتهما وكراماتهما.

ومحنة أيوب ويونس، وظهور رحمة الله سبحانه لهما، واستجابة دعاء زكريا.

وقصص سيدنا عيسى العجيبة: من تولده بلا أب، وتكلمه في المهد، وظهور الخوارق منه. فذكرت هذه القصص بأطوار مختلفة إجمالا وتفصيلا بحسب ما اقتضاه أسلوب السور.

ومن القصص التي ذكرت مرة أو مرتين فقط رفع سيدنا إدريس، ومناظرة سيدنا إبراهيم لنمروذ ورؤيته إحياء الطير، وذبح ولده. وقصة سيدنا يوسف، وقصة ولادة." (١)

"البشارة بالإنذار. وهذا معنى تسمية القرآن مثاني- على الأصح- وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر- أو عكسه- أو حال السعداء ثم الأشقياء- أو عكسه- وحاصله ذكر الشيء ومقابله. **والحكمة في ذلك**: هي إرادة التنشيط لاكتساب ما يزلف، والتثبيط عن اقتراف ما يتلف. فلما ذكر الكفار وأعمالهم، وأوعدهم بالعقاب، قفاه ببشارة عباده الذين جمعوا بين التصديق والأعمال الصالحة من فعل الطاعات وترك المعاصي- فقال عز وجل:

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة البقرة (٢) : آية ٢٥]

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون (٢٥)

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات (البشارة) : الإخبار بما يظهر سرور المخبر به. ومنه البشرة: لظاهر الجلد. وتباشير الصبح ما ظهر من أوائل ضوئه. وأما فبشرهم بعذاب أليم فمن العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء- الزائد في غيظ المستهزأ به، وتألمه، واغتمامه- ففيه استعارة أحد الضدين للآخر تهكما وسخرية. والصالحات ما استقام من الأعمال أي صلح لترتب الثواب عليه.

وقد أجمع السلف على أن الإيمان: قول وعمل، يزيد وينقص. ثم إنه إذا أطلق دخلت فيه الأعمال،

لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وستون شعبة- أو بضع وسبعون شعبة- أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» «١» .

وإذا عطف عليه- كما في هذه الآية- فهنا، قد يقال: الأعمال دخلت فيه، وعطفت عطف الخاص على العام. وقد يقال: لم تدخل فيه، ولكن مع العطف- كما في اسم الفقير والمسكين. إذا أفرد أحدهما تناول الآخر، وإذا عطف أحدهما

---

(١)

أخرجه ابن ماجة في: المقدمة، باب في الإيمان، حديث ٥٧ ونصه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ١/١٦٦

«الإيمان بضع وستون أو سبعون بابا. أدناها إماطة الأذى عن الطريق. وأرفعها قول: لا إله إلا الله. والحياء شعبة من الإيمان»

.. " (١)

"الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريته، وأن يراد: خليفة مني، لأن آدم كان خليفة الله في أرضه. وكذلك كل نبي إنا جعلناك خليفة في الأرض [ص: ٢٦] والغرض من إخبار الملائكة بذلك، هو أن يسألوا ذلك السؤال، ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم، أو الحكمة: تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم- وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنيا عن المشاورة- أو تعظيم شأن المجعول، وإظهار فضله، بأن بشر بوجود سكان ملكوته، ونوه بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده، ولقبه بالخليفة.

قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون هذا تعجب من أن يستخلف- لعمارة الأرض وإصلاحها- من يفسد فيها، واستعلام عن **الحكمة في ذلك**. أي: كيف تستخلف هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك، ونقدس لك- أي ولا يصدر عنا شيء من ذلك- وهلا وقع الاقتصار علينا ... ؟ فقال تعالى مجيبا لهم إني أعلم ما لا تعلمون أي: إن لي حكمة- في خلق الخليفة- لا تعلمونها.

فإن قلت: من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجبوا منه، وإنما هو غيب؟

أجيب: بأنهم عرفوه: إما بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية. فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون [الحجر: ٢٦] أو فهموا من «الخليفة» أنه الذي يفصل بين الناس، ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم.

قال العلامة برهان الدين البقاعي في تفسيره: وما يقال من أنه كان قبل آدم، عليه السلام، في الأرض خلق يعصون، قاس عليهم الملائكة حال آدم عليه السلام- كلام لا أصل له. بل آدم أول ساكنيها بنفسه. انتهى.

وقوله تعالى: نسبح بحمدك أي: ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك، ملتبسين بحمدك- على ما أنعمت به علينا من فنون النعم التي من جملتها توفيقنا لهذه العبادة.

وقوله نقدس لك أي: نصفك بما يليق بك- من العلو والعزة- وننزهك عما لا يليق بك. وقيل: المعنى نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك. كأنهم قابلوا." (٢)

"قال ولي الله الدهلوي في (الفوز الكبير) : واختار سبحانه في تنزيله من أيام الله، يعني الوقائع التي أحدثها الله سبحانه وتعالى، كإنعام المطيعين وتعذيب العصاة، ما قرع سمعهم. وذكر لهم إجمالا مثل قصص قوم نوح وعاد وثمود. وكانت

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ١/٢٧٥

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ١/٢٨٥

العرب تتلقاها أبا عن جد، ومثل قصص سيدنا إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل فإنها كانت مألوفة لأسماعهم لمخالطة اليهود العرب في قرون كثيرة، وانتزع من القصص المشهورة جملا تنفع في تذكيرهم. ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها. **والحكمة في ذلك** أن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة، أو استقصى بين أيديهم ذكر الخصوصيات، يميلون إلى القصص نفسها ويفوتهم التذكر الذي هو الغرض الأصلي فيها. ونظير هذا الكلام ما قاله بعض العارفين: إن الناس لما حفظوا قواعد التجويد شغلوا عن الخشوع في التلاوة.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة البقرة (٢) : آية ٢٤٤]
وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم (٢٤٤)
وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم.
قال المفسرون: في إتباع القصة المتقدمة الأمر بالقتال، دليل على أنها سيقت بعثا على الجهاد. فحرض على الجهاد بعد الإعلام بأن الفرار من الموت لا يغني، كما قال تعالى: الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين [آل عمران: ١٦٨] ، وأصل السبيل هو الطريق. وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله تعالى من حيث إن الإنسان يسلكها ويتوصل إلى الله بها ليتمكن من إظهار عبادته تعالى، ونشر الدعوة إلى توحيده وحماية أهلها والمدافعة عن الحق وأهله. فالقتال دفاع في سبيل الله لإزالة الضرر العام. وهو منع الحق وتأييد الشرك. وذلك بتربية الذين يفتنون الناس عن دينهم وينكثون عهودهم لا لحظوظ النفس وأهوائها، والضراوة بحب التسافك وإزهاق الأرواح، ولا لأجل الطمع في الكسب. وفي قوله تعالى: واعلموا أن الله سميع عليم بعث على صدق النية والإخلاص. كما
في الصحيحين «١» عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «سئل رسول

---

(١)
أخرجه البخاري في: العلم، ٤٥- باب من سأل وهو قائم عالما جالسا، حديث ١٠٥ ونصه: عن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية. فرفع إليه رأسه (وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما) ، فقال «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل»
.

وأخرجه مسلم في: الإمارة، حديث ١٥٠.." (١)

"التوصل بالشر الخاص إلى الخير العام خير محض، لا ينبغي لحكيم أن يهمله. هذا أو قريب من هذا. وفي بعض كلامه نظر قد أوضحته في (العواصم) والسر في ذلك أن الله تعالى لا يريد الشر لكونه شرا قطعا، وإنما يريده وسيلة إلى الخير الراجح كما قال: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون [البقرة: ١٧٩] ، وكما صح في الحدود

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ١٧٥/٢

والمصائب أنها كفارات، فهذا هو سر القدر في الجملة، وإنما الذي خفي تفصيله ومعرفته في عذاب الآخرة وشقاوة الأشقياء، فمن الناس من كبر ذلك عليه وأداه إلى الحكم بنفي التحسين والتقبيح، فصرحوا بنفي حكمة الله تعالى، وهم غلاة الأشعرية، إلا بمعنى إحكام المصنوعات في تصويرها لا سواه، ومن الناس من أداه ذلك إلى القول بالجبر، ونفي قدرة العباد واختيارهم، ومنهم من جمع بينهما. ومن الناس من جعل الوجه في تحسين ذلك من الله عدم قدرته سبحانه على هدايتهم، وهم جمهور المعتزلة، لكنهم يعتذرون عن تسميته عجزا، ويسمونه غير مقدور. ومنهم من جعل العذر في ذلك أن الله لا يعلم الغيب، وهم غلاة القدرية، نفاة الأقدار. وقد تقصيت الردود الواضحة عليهم، والبراهين الفاضحة لهم في (العواصم) ، وجمعت في ذلك ما لم أسبق إليه ولا إلى قريب منه، في علمي. فتمت هذه المسألة في مجلد ضخم، وبلغت أحاديث وجوب الإيمان بالقدر اثنين وسبعين، وأحاديث صحته مائة وخمسة وخمسين، الجملة مائتان وسبعة وعشرون حديثا، من غير الآيات القرآنية، والأدلة البرهانية. وصنف ابن تيمية في بيان الحكمة في العذاب الأخروي، وتبعه تلميذه ابن قيم الجوزية، وبسط ذلك في كتابه (حادي الأرواح إلى ديار الأفراح) ، فأفردت ذلك في جزء لطيف وزادت عليه. ومضمون كلامهم أنه لا يجوز اعتقاد أن الله لا يريد الشر لكونه شرا، بل لا بد من خير راجح يكون ذلك الشر وسيلة إليه، وذلك الخير هو تأويل ذلك الشر السابق له على نحو تأويل الخضر لموسى. وطردوا ذلك في شرور الدارين معا. ونصر ذلك الغزالي في شرح (الرحمن الرحيم) ، ولنورد في ذلك حديثا واحدا، مما يدل على المنع من الخوض في تعيين **الحكمة في ذلك** فنقول: قال البيهقي في كتابه (الأسماء والصفات) عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس: لما بعث الله موسى وكلمه قال:

اللهم! أنت رب عظيم، ولو شئت أن تطاع لأطعت، ولو شئت أن لا تعصى لما عصيت، وأنت تحب أن تطاع، وأنت في ذلك تعصى، فكيف هذا يا رب؟ فأوحى الله إليه أني لا أسأل عما أفعل، وهم يسألون. فانتهى موسى.

ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد، وعزاه إلى الطبراني، وزاد فيه: فلما بعث الله." (١)

"ويرسل عليكم حفظة أي: ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها، وهم الكرام الكاتبون، كقوله تعالى: وإن عليكم لحافظين [الانفطار: ١٠- ١١] . وقوله: إذ يتلقى المتلقيان [ق: ١٧] . الآية.

لطيفة:

الحكمة في ذلك أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه، وتعرض على رؤوس الأشهاد، كان أزجر عن المعاصي. وأن العبد إذا وثق بلطف سيده، واعتمد على عفوه وستره، لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه- أفاده القاضي-.

حتى إذا جاء أحدكم الموت أي: أسبابه ومباديه توفته رسلنا أي: ملائكة موكلون بذلك، وهم لا يفرطون أي: بالتواني والتأخير. وقال ابن كثير: أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها ويتركونها حيث شاء الله عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار في سجين.

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢/٢٨٣

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الأنعام (٦) : آية ٦٢]

ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢)

ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق أي: الذي يتولى أمورهم. و (الحق) : العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. قال ابن كثير: الضمير للملائكة. أو للخلائق المدلول عليهم ب (أحد) . والإفراد أولا، والجمع آخرا لوقوع التوفي على الانفراد، والرد على الاجتماع. أي: ردوا بعد البعث، فيحكم فيهم بعدله، كما قال: قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم [الواقعة: ٤٩- ٥٠] . وقال: وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا [الكهف: ٤٧- ٤٩] . إلى قوله: ولا يظلم ربك أحدا ولهذا قال: مولاهم الحق.

ألا له الحكم يومئذ لا حكم فيه لغيره، وهو أسرع الحاسبين يحاسب الخلائق في أسرع زمان.

فوائد:

الأولى- قال ابن كثير: ونذكر هاهنا

الحديث الذي رواه الإمام «١» أحمد عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ٣٦٤.." (١)

"حتى تطلع الشمس من مغربها.

قال ابن حجر: سنده جيد.

وأخرجه أحمد «١» والدارمي «٢» وعبد بن حميد من حديثه أيضا بلفظ: لا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها.

وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل.

فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

إن الهجرة خصلتان: إحداهما أن تهجر السيئات، والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع ما تقبلت التوبة. ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل.

قال ابن كثير: هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

وهاهنا مسائل:

الأولى: ذهب الجمهور إلى أن المراد ب (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها. كما في حديث الصحيحين السابق.

ولا يقال يخالف ذلك

حديث مسلم: ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها.. الحديث

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٨٥/٤

. وفي ثبوت ذلك بخروج الدجال نظرا. لأن نزول عيسى صلى الله عليه وسلم بعده. وفي زمنه خير كثير دنيوي وأخروي. فالإيمان مقبول وقتئذ. لأنا نقول: لا منافاة. وذلك لأن (البعض) في الآية، إن كان عدة آيات، فطلوع الشمس هو آخرها المتحقق به عدم القبول، وإن كان إحدى آيات، فهو محمول على المعين في الحديث، لأنه أعظمها. كذا في (العناية) .
قال ابن عطية: إذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بتخصيص مانع القبول بالطلوع، في الحديث الصحيح، لم يجز العدول عنه، وتعين أنه معنى الآية. انتهى.
وقال القاضي عياض: المعنى لا تنفع توبة بعد ذلك. بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التي هو عليها. **والحكمة في ذلك** أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوي. فإذا شوهد ذلك حصل الإيمان الضروري بالمعاينة. وارتفع الإيمان بالغيب. فهو كالإيمان عند الغرغرة وهو لا ينفع. فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٩٩ ونصه كما جاء في أبي داود.
(٢) أخرجه الدارمي: في السير، ٧٠- باب إن الهجرة لا تنقطع.." (١)
"ثم إلى ربكم مرجعكم أي: رجوعكم بعد الموت يوم القيامة فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون بتمييز الحق من الباطل. وهذه الآية كقوله تعالى: قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم [الزخرف: ٣٢] .

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الأنعام (٦) : آية ١٦٥]
وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥)
وهو الذي جعلكم خلائف الأرض جمع خليفة. أي يخلف بعضكم بعضا فيها، فتعمرونها خلفا بعد سلف، للتصرف بوجوه مختلفة ورفع بعضكم فوق بعض درجات أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان، وله **الحكمة في ذلك**. كقوله تعالى: نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا [الزخرف: ٣٢] ، وقوله سبحانه: انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا [الإسراء: ٢١] ، وقوله تعالى: ليبلوكم في ما آتاكم أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم، أي امتحنكم، ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.
وفي صحيح مسلم «١» عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الدنيا حلوة خضرة. وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء
. أفاده ابن كثير.

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٤/٥٤٧

ثم رهب تعالى من معصيته ورغب في طاعته بقوله سبحانه إن ربك سريع العقاب أي: لمن عصاه وخالف رسله وإنه لغفور رحيم أي: لمن والاه واتبع رسله.

لطائف:

الأولى: قال السيوطي في (الإكليل) . استدل بقوله تعالى: جعلكم خلائف الأرض من أجاز أن يقال للإمام: خليفة الله. انتهى.

أي: بناء على وجه في الآية. وهو أن المعنى: جعلكم خلائف الله في الأرض

---

(١) أخرجه مسلم في: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث ٩٩.." (١)

"وفيهما أيضا عن سفيان قال: إنهم اختلفوا في موضعها.

وروى ابن جرير عن قتادة، عن سعيد بن المسيب قال: كان جدي يقال له (حزن) ، وكان ممن بايع تحت الشجرة، فأتيناها من قابل، فعميت علينا.

ثم قال ابن جرير: وزعموا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة فقال: أين كانت؟ فجعل بعضهم يقول: هنا، وبعضهم يقول:

ها هنا! فلما كثر اختلافهم قال: سيروا، هذا التكلف، فذهبت الشجرة، وكانت سمرة، إما ذهب بها سيل، وإما شيء سوى ذلك. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) : روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوما يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت!.

ولا ينافي ما تقدم، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها، أو توهموها، فاتخذوها مسجدا، ومكانا مقدسا، فقطعها عمر حالتئذ، صونا لعقيدتهم من الشرك، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعد، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها، وإجلال مثال أصحابها.

وقال في (الفتح) أيضا في شرح حديث ابن عمر، وقوله: رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها. كانت رحمة من الله، ما مثاله:

وقد وافق المسيب بن حزن، والد سعيد، ما قاله ابن عمر من خفاء الشجرة.

والحكمة في ذلك أن لا يحصل بها افتتان، لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر، كما نراه الآن مشاهدا فيما هو دونها. وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله (كانت رحمة من الله) أي كان خفاؤها عليهم، بعد ذلك، رحمة من الله تعالى. انتهى.

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٤/٥٥٨

وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان، سميت لهذه الآية، وتقدمت قصتها مفصلة.

فعلم ما في قلوبهم أي من الصدق والعزيمة على الوفاء بالعهد فأنزل السكينة عليهم أي في الصبر والطمأنينة والوقار. وأثابهم فتحا قريبا قال ابن جرير: أي وعوضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة، بقتالهم أهلها، فتحا قريبا، وذلك– فيما قيل– فتح خيبر.." (١)

"الإيضاح

(إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) أي إن الله جلت قدرته لا يرى من النقص أن يضرب المثل بالبعوضة فما دونها، لأنه هو الخالق لكل شيء جليلا كان أو حقيرا.

(فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) أي فالمؤمنون يقولون ما ضرب الله هذا المثل إلا لحكم ومصالح اقتضت ضربه لها، وهي تقرير الحق والأخذ به، فهو إنما يضرب لإيضاح المبهم بجعل المعقولات تلبس ثوب المحسوسات، أو تفصيل المجمل لبسطه وإيضاحه.

(وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) الذين كفروا هم اليهود والمشركون وكانوا يجادلون بعد أن استبانت لهم الحجة وحصحص الحق، ويقولون ماذا أراد الله بهذه المثل الحقيرة التي فيها الذباب والعنكبوت، ولو أنصفوا لعرفوا وجه **الحكمة في ذلك** وما أعرضوا وانصرفوا (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) .

ثم أجاب عن سؤالهم بقوله:

(يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا) أي إن من غلب عليهم الجهل إذا سمعوه كابروا وعاندوا وقابلوه بالإنكار، فكان ذلك سببا في ضلالهم، ومن عادتهم الإنصاف والنظر بثاقب الفكر إذا سمعوه اهتدوا به، لأنهم يقدرون الأشياء بحسب فائدتها.

ومن المعلوم أن أنفع الكلام ما تجلت به الحقائق، واهتدى به السامع إلى سواء السبيل، وأجله في ذلك الأمثال كما قال: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) والعالمون هم المؤمنون المهتدون بهدى الحق.

وقد جعل الله المهتدين في الكثرة كالضالين، مع أن هؤلاء أكثر كما قال:." (٢)

"**والحكمة في ذلك** أن الخلق في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم لشكره والثناء عليه والتوسل إليه لاستمداد رحمته ومعونته، وهم يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة، فعين لهم مكانا نسبه إليه رمزا إلى أن ذاته المقدسة تحضره، والحضور الحقيقي محال عليه، فالمراد أن رحمته الإلهية تحضره، ومن ثم كان التوجه إلى هذا المكان كالتوجه إلى تلك الذات العلية لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا.

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا) أي قال: رب اجعل هذا الوادي من البلاد الآمنة، وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمنا في نفسه من الجبابرة وغيرهم أن يسلطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وزلزال وغرق ونحو ذلك مما ينبئ عن سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد.

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٤٩٨/٨

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٧٢/١

وقد استجاب الله دعاءه فلم يقصده أحد بسوء إلا قصم ظهره، ومن تعدى عليه لم يطل زمن تعديه، بل يكون تعديا عارضا ثم يزول.

(وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) أي وارزق أهله من أنواع الثمار إما بزرعها بالقرب منه، وإما بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلاهما استجابة لدعوة إبراهيم كما هو مشاهد، وقد جاء في سورة القصص:

(أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء) .

وخص إبراهيم بدعائه المؤمنين، وإن كان سبحانه لواسع رحمته جعل رزق الدنيا عاما للمؤمنين والكافرين (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) لأن تمتيع الكافرين قصير محدود بذلك العمر القصير، ثم إلى النار وبئس المصير، وهذا ما بينه عز اسمه بقوله:

(قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) أي قال يا إبراهيم قد أجبت دعوتك، ورزقت مؤمني أهل هذا البلد من الثمرات، ورزقت." (١)

"١٠٧ قضية من قضايا داود التي حكم فيها ١١٠ الرد على المفسرين فيما قالوه في قصص داود ١١٤ الحكمة في خلق هذا الكون ١١٥ ليس من العدل مساواة البر بالفاجر في الجزاء ١١٧ عرض سليمان للصافنات الجياد **والحكمة في ذلك** ١١٩ تسخير الريح لسليمان عليه السلام ١٢٣ داء أيوب عليه السلام ودواؤه ورفض ما قيل في ذلك نقلا عن اليهود ١٣٠ وصف نعيم المتقين في مآكلهم ومشاربهم ١٣٣ محاورة بين رؤساء الضلال وأتباعهم ١٣٥ الرسول منذر لا مسيطر ١٣٦ الأدلة التي ترشد إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ١٤١ اعتذار المشركين على عبادة الأصنام ١٥٠ تهديد المشركين على أفعالهم القبيحة ١٥٢ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصح المؤمنين بنصائح ١٥٣ للصابرين أجرهم بغير حساب ١٥٦ بشرى من يسمعون القول فيتبعون أحسنه ١٥٨ صفات الدنيا الموجبة للنفرة منها ١٥٩ وجوب الإقبال على طاعة الله ١٦٠ ضرب القرآن الأمثال للناس ١٦٤ أصيب الأمم الماضية بضروب من العذاب في الدنيا قبل الآخرة." (٢)

"**والحكمة في ذلك** أن الله – عز وجل – قد وكل معرفة هذه الحقائق الكونية إلى بحث الإنسان واشتغاله بالعلم؛ لأنه من الأمور الكسبية، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم في كل جيل لم يرتق العلم فيه إلى أعلى درجة، ولكانت تلك المخالفة من أسباب الشك أو التكذيب، فإننا نرى من الناس من يطعن في كتب الوحي لتفسير بعض تلك الأمور المجملة بما يتراءى لهم، وإن لم تكن نصا ولا ظاهرا فيه، ويزعمون أن كتاب الدين جاء مخالفا للعلم، وإن كان ذلك الذي يطلقون عليه اسم العلم ظنيا أو فرضيا.

في (الملكين) قراءتان، فتح اللام وكسرها، فالأولى قراءة الجمهور، والثانية قراءة ابن عباس والحسن وأبي الأسود والضحاك. وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر ويؤيده ما قيل إن المراد بهما (داود وسليمان – عليهما السلام –) . . . وقيل. بل هما رجلان صاحبا وقار وسمت فشبها بالملائكة، وكان يؤمهما الناس بالحوائج الأهلية ويجلونهما أشد الإجلال فشبها

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٢١٢/١

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ١٦٨/٢٣

بالملوك، وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة يقولون: هذا ملك وليس بإنسان، كما يقولون فيمن كان سيدا عزيزا يظهر الغنى عن الناس من حيث يحتاجون إليه: " وهذا سلطان زمانه "، جلت حكمة الله في خلقه فقد قد هؤلاء الآدميين من أديم واحد، كان الناس على عهد هاروت وماروت – اللذين كان يتحدث بخبرهما ولا يحدد تاريخهما – على مثالهم اليوم لا يقصدون للفصل في شئونهم الأهلية من الجهة الروحانية إلا إلى أهل السمت والوقار اللابسين لباس أهل التقوى والصلاح، هذا ما نشاهدهم عليه في زماننا، وهذا ما حكى الله – تعالى – عنهم في الزمن القديم، وقال الأستاذ الإمام: لعل الله – تعالى – سماهما ملكين (بفتح اللام) حكاية لاعتقاد الناس فيهما، وأجاز أيضا كون إطلاق لفظ الملكين عليهما مجازا كما قال بعض المفسرين. قال – تعالى – في اليهود: (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل) ، والظاهر من العطف أن ما أنزل عليهما هو غير السحر ضم إليه؛ لأنه من جنسه في كون تعليمه سيئة مذمومة أو هو لتغاير الاعتبار أو النوع. وليس معنى الإنزال عليهما أنه وحي من الله كوحيه للأنبياء، فيشكل عده من الشر والباطل الذي يذم تعلمه، فإن كلمة (أنزل) تستعمل في مواضع لا صلة بينها وبين وحي الأنبياء، قالوا: أنزلت حاجتي على كريم، وأنزل لي عن هذه الأبيات،

ويقال: قد أنزل الصبر على قلب فلان، وقال – تعالى –: (وأنزلنا الحديد) (٥٧: ٢٥) وقال: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) (٩: ٢٦) . ولعل التعبير عما أوتياه من العلم بالإنزال؛ لأنه لم يكن يعرف له مأخذ غيرهما، يراد أنهما ألهماه إلهاما واهتديا إليه من غير أستاذ ولا معلم. ويصح أن يسمى مثل هذا وحيا لخفاء منبعه. وليس الوحي إلهام الخواطر خاصا في عرف اللغة ولا عرف القرآن بالأنبياء، ولا بما يكون موضوعه خيرا أو حقا، فقد قال – تعالى –: (وأوحى ربك إلى النحل) (١٦: ٦٨) ، وقال: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه)." (١)

"وإنما صلاته تدل على أن الصلاة هناك مشروعة، على أن في سند حديث أبي نعيم مقالا، والخطاب في الأصل للمؤمنين في زمن إبراهيم – عليه السلام – ولم تكن صلاتنا هذه صلاتهم، فحمل المقام على جميع شعائر الحج التي قام فيها إبراهيم والصلاة على معناها اللغوي الذي يشمل صلاة إبراهيم ومن كان معه على عبادته كما يشمل صلاتنا ومناسكنا أظهر، كما قال الأستاذ الإمام، والصلاة عند العرب وغيرهم من الأمم تشمل الدعاء والثناء على الله، والتوسل إليه بكل قول وعمل يدل على التوجه إليه سبحانه، ويقول المحققون من الفقهاء: حيثما صليت من المسجد فثم مقام إبراهيم، والناس يتحرون صلاة ركعتي الطواف خلف البناء المرتفع الذي وضع فيه الحجر الذي فيه أثر قدم إبراهيم – صلى الله عليه وسلم – إن أمكن، والمروي أنه كان ملاصقا للكعبة فأخره إلى ذلك المكان عمر – رضي الله عنه – كما رواه عبد الرزاق بسند قوي عندهم، وروى ابن مردويه عن مجاهد بسند ضعيف أن النبي – صلى الله عليه وسلم – هو الذي أخره، وسيأتي في تفسير آل عمران من أول الجزء الرابع مزيد كلام في هذا المقام.

قال – تعالى –: (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي) . . . إلخ؛ عهد إليه بالشيء وصاه به، والمراد أن الله كلفهما أن يطهرا ذلك المكان الذي نسبه إليه وسماه بيته؛ لأنه جعله معبدا يعبد فيه العبادة الصحيحة، ولم يذكر ما يجب أن يطهراه

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١/٣٣٢

منه ليشمل جميع الرجس الحسي والمعنوي كالشرك وأصنامه واللغو والرفث والتنازع.

وتخصيص الله – تعالى – ذلك البيت بالنسبة إلى ذاته المنزهة عن صفات الأجسام، ليس لخصوصية في موقعه ولا في أحجاره، وإنما كان بيتا لله لأن الله – تعالى – سماه بيته، وأمر بأن يتوجه إليه المصلون، وبأن يعبد فيه عبادة خاصة. **والحكمة في ذلك** أن البشر يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي مطلق لا يتقيد بمكان، ولا ينحصر في جهة وهم في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم وشكره والتوسل إليه والثناء عليه، واستمداد رحمته ومعونته لما في ذلك من الفائدة لهم؛ لأنه يعلي مداركهم عن التقيد في دائرة الأسباب المعروفة على ضيقها وعن الاستخذاء لما لا يعرفون له سببا، ويرفع نفوسهم عن الرضى بالحياة الحيوانية، فله الحمد والمنة أن عين لهم مكانا نسبه إليه فسماه بيته

رمزا إلى أن ذاته المقدسة تحضره، فإذا كان الحضور الحقيقي محالا عليها، فإنها تحضره رحمته الإلهية؛ ولذلك كان التوجه إليه بمنزلة التوجه إلى تلك الذات العلية، لو وجد العبد إلى ذلك سبيلا، ولو كلف الله عباده بعبادته مطلقا – وقد علمهم بنظر العقل وإرشاد الشرع أنه ليس كمثله شيء – لوقعوا في الحيرة والاضطراب لا يدرون كيف يتوجهون إلى ذات غيبية مطلقة، ولو اختار بعضهم لنفسه عبادة تليق بهذا التنزيه الذي أرشد إليه الكتاب وصدقه العقل، لما اهتدى إليه الآخرون، وبذلك يفقد المؤمنون الجامعة التي تجمعهم على أفضل الأعمال التي تؤلف بين قلوبهم، لذلك قلنا: إن الله رحمهم إذ جعل لنفسه بيتا يقصدونه." (١)

"غيره، وأجيب به من سألني عنه مستشكلا. فقول الحافظ: والذي يظهر إلخ.

كان يجب أن يكون: والذي يتعين القطع به كذا، وحسبك دليلا على هذا أنه قال: إنهم كانوا يسمعون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرؤها، فهو صريح في أن البحث كان عمن كتبها فقط، وجملة القول: أن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة، وإنما اختلفوا عند الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبي – صلى الله عليه وسلم – هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقا لقول أبي بن كعب الذي ثبت في الصحيح أنه أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وكذا زيد بن ثابت. وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلا، فلما كتبتا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما هاهنا. ولم يرو أي اعتراض على ذلك عمن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود – رضي الله عنه –.

بقي البحث في حكمة وضعهما في آخر هذه السورة المدنية، وموضوعهما مكي، يؤيده كون الخطاب فيهما لقومه – صلى الله عليه وسلم – على ما جزم به جماهير المفسرين وما هما بأول ما وضع من الآيات المكية في السور المدنية لمناسبة اقتضت ذلك. ولعل **الحكمة في ذلك** أن يفيدا بموضعهما صحة الخطاب بهما لكل من تبلغه الدعوة من أمة الإجابة، وهو ما ذهب إليه الخطابي، كما دل موضوعهما ونزولهما بمكة – كما قال ابن أبي الفرس – على كون الخطاب فيهما لقومه – صلى الله عليه وسلم –، وهو ما جزم به الجماهير. ويكون ما قلناه جامعا بين الأقوال كلها.

(طهارة نسبه – صلى الله عليه وسلم – وفضل قومه واصطفاؤه من خيارهم)

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١/٣٨٠

من المأثور في تفسير الآيتين ما ذكروا في قوله تعالى (رسول من أنفسكم) من الأحاديث المرفوعة في طهارة نسبه – صلى الله عليه وسلم – من سفاح الجاهلية ومن فضل قومه وعشيرته وعترته وأهل بيته على غيرهم، وأصح ما ورد في هذا ما رواه مسلم والترمذي من حديث واثلة – رضي الله عنه – مرفوعا ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)) ولم أر لأحد من العلماء بيانا لمعنى هذا الاصطفاء بم كان؟ وقد وفقني الله لاستنباطه من التاريخ العام، وبينته في المنار وفي خلاصة السيرة المحمدية في

جواب السؤال عن حكمة بعثة خاتم النبيين، وبالرسالة العامة للناس أجمعين، بالدين العام للبدو والحضر، من العرب الذين غلبت عليهم جهالة البدو، وبعد عهدهم بما سبق لأمتهم من الحضارة والعلم، ولم يبعث من بعض شعوب الحضارة القريبة كالفرس والروم والهند والصين، ويليه السؤال عن مزية كنانة في العرب." (١)

"الآية الآتية على أن فيهم

الصالحين والطالحين وأيد ذلك الواقع، بل لما كان أحدهم المذكور هنا كافرا هالكا.

(ثالثها) أن الله – تعالى – يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم، ولا يحابي أحدا منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء المرسلين، وأن من سأله من هؤلاء الآباء ما يخالف سننه في شرعه وحكمته في نظام خلقه، كان مذنبا يستحق التأديب، حتى يتوب وينيب.

(رابعها) أن هؤلاء المغرورين بأنسابهم من الشرفاء الجاهلين بكتاب ربهم وما يليق بعظمة الربوبية، وعلو الألوهية، الجاهلين بسنة نبيهم، الذين يزعمون أنهم أفضل من العلماء العاملين، والصالحين المصلحين، والأغنياء الشاكرين، والفقراء الصابرين، وإن كانوا عراة مما كسا الله هؤلاء الأصناف من لباس التقوى والدين، وأنهم يستحقون سعادة الدنيا والآخرة بنسبهم، ويستحقها من عظمهم وأفاض عليهم من ماله بمحاباة الله له لأجلهم، أولئك هم الجاهلون الذين يشهد عليهم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهديه في إنذار عشيرته وأهل بيته، كقوله لبنته سيدة نساء العالمين: ((يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا)) رواه الشيخان من حديث طويل.

هؤلاء الجاهلون المساكين يعدون أعدى أعدائهم من يدعوهم أو يدعو الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله وخاتم النبيين، ويعدون أصدق أصدقائهم المبتدعين الخرافيين المشعوذين.

قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين

الآية الأولى من هاتين الآيتين خاتمة قصة نوح – عليه السلام – والتي تليها

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٧٦/١١

استدلال بها على نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد وردت كل منهما مفصولة مما قبلها غير معطوفة عليه.
ولولا الفصل بين الأولى وبين آية: (وقيل يأرض ابلعي ماءك) (٤٤) لما بيناه من **الحكمة في ذلك**." (١)

"(السادسة) أن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة كما علم من قول المنكرين على ملك طالوت في تأييد إنكارهم
(ولم يؤت سعة من المال) وأصحاب الأنساب الشريفة، كما علم مما فسر به العلماء قولهم له: (ونحن أحق بالملك منه) فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الأمم الجاهلة خاصة، فإنها هي التي تخضع لأصحاب العظمة الوهمية، وهي التي ليست صفة لنفس صاحبها كالمال والانتساب إلى بعض العظماء في عرفهم، سواء كانت عظمتهم بحق أو بغير حق. هذا موضع الخطأ في تعظيم ذي النسب، ويشتد خطره إذا صار الأنساب يستعلون على الناس بأنسابهم دون علومهم وأعمالهم، والقرآن لم يصرح بأن ذلك هو وجه قولهم أنهم أحق بالملك، وفي المسألة نظر لا محل هنا لبسطه، ولكن نقول بالإجمال: إن الانتساب إلى أهل الشرف الحقيقي، وهم أصحاب المعارف الصحيحة والأخلاق الفاضلة والنفوس الكريمة العزيزة، له أثر في النفس عظيم؛ فإن سليل الشرفاء جدير بأن يحافظ على كرامة نفسه فلا يدنسها بالخيانة، ثم إنه لا بد أن يرث شيئا من فضائلهم النفسية فيكون استعداده للخير أعظم في الغالب.
وإنك لتجد الأمم الراقية في العلم والاجتماع تختار ملوكها من سلالة الملوك والأمراء وتحافظ على قوانين الوراثة في ذلك، وما ارتقى عن هذا إلا أصحاب الحكومة الجمهورية.
وقد جاء حكم الإسلام في هذه المسألة وسطا فلم يغفل أمر النسب بالمرة لئلا تتسع دائرة الخلاف بطمع كل قبيلة في الإمامة الكبرى، ولم يجعل الأمر في بيت معين لما في ذلك من الغوائل، بل جعله في قبيلة عظيمة كثيرة العدد لا تخلو ممن هو أهل للإمامة – وهي محترمة في نفسها – كانت محترمة في العصر الأول، ويرجى أن يدوم احترامها ما دام الإسلام الذي أتم الله نعمته على البشر بجعل رسول الله وخاتم النبيين منها ألا وهي قريش. فمن **الحكمة في ذلك** أن تظل الرياسة العليا للأمة مرتبطة بتاريخ ماضيها وقوم مؤسسها كارتباط دينها بوطنه في عبادتها الشخصية والاجتماعية وهما الصلاة والحج.
(السابعة) أن الشروط التي تعتبر في اختيار الرجل في الملك هي ما استفدناه من قوله تعالى: (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم) الآية، كما تقدم.
(الثامنة) هي ما أفاده قوله تعالى: (والله يؤتي ملكه من يشاء) كما بيناه معززا بالشواهد من الكتاب العزيز، على أن مشيئته تعالى إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في
تغيير أحوال الأمم." (٢)

"وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام –، كان قلقا مضطربا في اعتقاده بالبعث وذلك شك فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في حديث الصحيحين نحن أولى بالشك من

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٧٣/١٢

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٩٢/٢

إبراهيم أي أننا نقطع بعدم شكه كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعا، نعم ليس في الكلام ما يشعر، بالشك، فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينيا وهو لا يعرف كيفيتها ويود لو يعرفها، فهذا التلغراف الذي ينقل الخبر من المشرق إلى الغرب في دقيقة واحدة يوقن به كل الناس في كل بلد يوجد فيه، ويقل فيهم العارف بكيفية نقله للخبر بهذا السرعة، أفيقال فيمن طلب بيان هذه الكيفية إنه شاك بوجود التلغراف؟ طلب المزيد في العلم والرغبة في استكناه الحقائق والتشوف إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان، وأكمل الناس علما وفهما أشدهم للعلم طلبا وللوقوف على المجهولات تشوفا، ولن يصل أحد من الخلق إلى الإحاطة بكل شيء علما، وقتل كل موجود فقها وفهما، وقد كان طلب الخليل – عليه الصلاة والسلام – رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية. لا طلب في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان دون المشاهدة والعيان.

قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك قرأ حمزة " فصرهن " – بكسر الصاد – والباقون – بضمها – مع تخفيف الراء فيهما، ومعناه: أملهن وضمهن إليك. وقيل معنى قراءة – الكسر – فقطعهن، ولكنه إذا كان بهذا المعنى لا يتعدى بـ " إلى "كما تقدم، وقرئ بتشديد الراء، وتقدم معناه، ومع هذا قالوا: إنه قطعهن، وقد تكلموا في حكمة اختيار الطير على غيره من الحيوانات، فقال الرازي ما لا يصح أن يقال، وقال غيره: **الحكمة في ذلك** أن الطير أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان، ولسهولة تأتي ما يفعل به من
التقطيع والتجزئة.

وذكر الأستاذ الإمام في الدرس وجها آخر، وهو أن الطير أكثر نفورا من الإنسان في الغالب، فإتيانها بمجرد الدعوة أبلغ في المثل، وسيأتي الوجه الوجيه في تفسير أبي مسلم للآية، ثم تكلموا في أنواعها ولا حاجة إليه، وتكلموا في أربعة فقالوا: إنه الموافق لعدد الطبائع، أو لعدد الرياح وليس بشيء. وقال بعضهم: إنما كانت أربعة ليضع في كل جهة من الجهات الأربع بعضها وهو قريب، ومال الأستاذ الإمام في ذلك إلى التفويض ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا قرأ أبو بكر في روايته عن عاصم " جزؤا " – بضم الزاي – حيث وقع، والباقون – بسكونها – وهما لغتان، قالوا: والمعنى جزئهن، واجعل على كل جبل منهن جزءا، ورووا أنه ذبح الطيور ونتفها وقطعها أجزاء وخلط بعضها ببعض، ولا يدل." (١)

"قالوا: وأما الذم فإنما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن، فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب وهي فتنتها به ويطلبون تأويله، وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء بل لإجل الفتنة، وكذلك صبيغ بن عسل ضربه عمر؛ لأن قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة. وهذا كمن يورد أسئلة إشكالات على كلام الغير ويقول: ماذا أريد بكذا؟ وغرضه التشكيك والطعن فيه، ليس غرضه معرفة الحق، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ولهذا يتبعون أي يطلبون المتشابه ويقصدونه دون المحكم مثل المستتبع للشيء الذي يتحراه ويقصده وهذا فعل من قصده الفتنة، وأما من

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٦/٣

سأل عن معنى المتشابه ليعرفه ويزيل ما عرض له من الشبهة وهو عالم بالمحكم متبع له مؤمن بالمتشابه لا يقصد فتنة، فهذا لم يذمه الله. وهكذا كان الصحابة - رضي الله عنهم - يقولون مثل الأثر المعروف الذي رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: حدثنا يزيد بن عبد ربه ثنا بقية ثنا عتبة بن أبي حكيم

ثني عمارة بن راشد الكنائي عن زياد عن معاذ بن جبل قال: " يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس يلتمس أن يجد فيه أمرا يخرج به على الناس، أولئك شرار أمتهم، أولئك يعمي الله عليهم سبل الهدى، ورجل يقرؤه ليس له فيه هوى ولا نية يفليه فلي الرأس، فما تبين له منه عمل به وما اشتبه عليه وكله إلى الله، ليتفقهن أولئك فقها ما فقهه قوم قط، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه أو يفهمه إياها من قبل نفسه " قال بقية: استهدى ابن عيينة حديث عتبة هذا، فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة، وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لا بد أن يفقهه المتشابه فقها ما فقهه قوم قط.

" قالوا: والدليل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك كما سأل عمر فقال: " ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به " وسأله أيضا عمر: " ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ " ولما نزل قوله: ولم يلبسوا إيمانهم بظلم [٦: ٨٢] شق عليهم وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ حتى بين لهم، ولما نزل قوله: وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله [٢: ٢٨٤] شق عليهم حتى بين لهم **الحكمة في ذلك**، ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم: من نوقش الحساب عذب قالت عائشة: " ألم يقل الله: فسوف يحاسب حسابا يسيرا؟ " قال: إنما ذلك العرض قالوا: والدليل على ما قلناه إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن. وقال مجاهد: " عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عند كل آية وأسأله عندها " وتلقوا ذلك عن النبي - صلى الله عليه وسلم - كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي - صلى الله عليه وسلم -." (١)

"الفتنة، ولو عادت إلى أهلها بعد وفاة زوجها (وكان ابن عمها) لعذبوها وفتنوها فكفلها النبي - صلى الله عليه وسلم - وكافأها بهذه المنة العظيمة.

ثم بعد شهر عقد على عائشة بنت الصديق، **والحكمة في ذلك** كالحكمة في التزوج بحفصة بنت عمر بعد وفاة زوجها خنيس بن حذافة ببدر، وهي إكرام صاحبيه ووزيريه أبي بكر، وعمر (رضي الله عنهما) ، وإقرار أعينهما بهذا الشرف العظيم، (كما أكرم عثمان، وعليا - رضي الله عنهما - بناته، وهؤلاء أعظم أصحابه، وأخلصهم خدمة لدينه) .

وأما التزوج بزينب بنت جحش، فالحكمة فيه تعلو كل حكمة، وهي إبطال تلك البدع الجاهلية التي كانت لاحقة ببدعة التبني كتحريم التزوج بزوجة المتبنى بعده وغير ذلك. وقد نشرنا في المجلد الثالث من المنار مقالين في هذه المسألة أحدهما للأستاذ الإمام، فليراجعهما السائل هناك.

ويقرب من هذه الحكمة الحكمة في التزوج بجويرية، وهي برة بنت الحارث سيد قومه بني المصطلق، فقد كان المسلمون أسروا

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٤٧/٣

من قومها مائتي بيت بالنساء والذراري، فأراد النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يعتق المسلمون الأسرى فتزوج بسيدتهم، فقال الصحابة عليهم الرضوان: أصهار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا ينبغي أسرهم وأعتقوهم، فأسلم بنو المصطلق – لذلك – أجمعون، وصاروا عونا للمسلمين بعد أن كانوا محاربين لهم وعونا عليهم، وكان لذلك أثر حسن في سائر العرب.
وقبل ذلك تزوج – صلى الله عليه وسلم – بزينب بنت خزيمة بعد قتل زوجها عبد الله بن جحش في (أحد) ، وحكمته في ذلك أن هذه المرأة كانت من فضليات النساء في الجاهلية حتى كانوا يدعونها أم المساكين لبرها بهم، وعنايتها بشأنهم، فكافأها – عليه التحية

والسلام – على فضائلها بعد مصابها بزوجها بذلك، فلم يدعها أرملة تقاسي الذل الذي كانت تجير منه الناس، وقد ماتت في حياته.
وتزوج بعدها أم سلمة (واسمها هند) وكانت هي وزوجها (عبد الله أبو سلمة بن أسد ابن عمة الرسول برة بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاعة) أول من هاجر إلى الحبشة، وكانت تحب زوجها وتجله، حتى إن أبا بكر وعمر خطباها بعد وفاته فلم تقبل، ولما قال لها النبي – صلى الله عليه وسلم –: سلي الله أن يأجرك في مصيبتك ويخلفك خيرا قالت: ومن يكون خيرا من أبي سلمة؟ فمن هنا يعلم السائل وغيره مقدار مصاب هذه المرأة الفاضلة بزوجها، وقد رأى – صلى الله عليه وسلم – أنه لا عزاء لها عنه إلا به، فخطبها فاعتذرت بأنها مسنة وأم أيتام، فأحسن – صلى الله عليه وسلم – الجواب – وما كان إلا محسنا – وتزوج بها، وظاهر أن ذلك." (١)

"التركة للأقرب إليها من أصحاب الفروض والعصبات، وذوى الأرحام، يعلم كل ذلك من موضعه في الكتاب والسنة: من بعد وصية يوصين بها أو دين أي إنما يكون لكم ذلك في تركهن في كل من الحالتين. بعد إنفاذ الوصية ووفاء الدين، إذ ليس لوارث شيء إلا مما يفضل عنهما إن كانا كما تقدم.
ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ما على التفصيل السابق في أولادهن، فإن كان للميت منكم زوج واحدة كان لها وحدها، وإن كان له زوجان فأكثر اشتركتا، أو اشتركن فيه بالمساواة، والباقي يكون لمستحقه شرعا من ذوي القربى، وأولي الأرحام لكم فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم والباقي لولدكم علا أو نزل، ولمن عساه يوجد معه من والديه على التفصيل الذي بينه الله – تعالى – وذلك من بعد وصية توصون بها أو دين وبهذا كان للذكر من الزوجين مثل حظ الأنثيين.
فإن قيل: إن من ترك زوجين، أو ثلاثا، أو أربعا كان لهن نصيب الزوج الواحدة فلا تطرد فيهن قاعدة: للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ لأن الرجل لا ينقص نصيبه من إرث امرأته بحال من الأحوال. فما هي **الحكمة في ذلك**، ولماذا لم يكن نصيب الزوجين، أو الثلاث، أو الأربع أكثر من نصيب الواحدة؟ أقول: الحكمة الظاهرة لنا من ذلك هي إرشاد الله إيانا إلى أن يكون الأصل الذي نجري عليه في الزوجية هي أن يكون للرجل امرأة واحدة. وإنما أباح للرجل منا أن يتزوج ثنتين إلى أربع بشرطه المضيق ؛ لأن التعدد من الأمور التي تسوق إليها الضرورة أحيانا، وقد تكون لخير النساء أنفسهن – كما شرحنا ذلك في آية إباحة التعدد، وما هي ببعيد – ونذكر ما قلناه في حكمة جعل حظ الذكر من الأولاد مثل حظ الأنثيين وهو

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٠٤/٤

أن الأصل فيه أن ينفق على نفسه وعلى امرأة يتزوجها، فما هنا يلاقي ما هناك، ويتفق معه، والنصوص يؤيد بعضها بعضا، فلو كان من مقاصد الشريعة أن يتزوج الرجل أكثر من امرأة لجعل للذكر من الأولاد أكثر من حظ الأنثيين، وللزوجين، والزوجات أكثر من حظ الزوج الواحدة، ولكن التعدد في نظر الشرع من الأمور النادرة غير المقصودة فلم يراعه في أحكامه. والأحكام إنما توضع لما هو الأصل الذي عليه العمل في الغالب، والنادر لا حكم له.

ولما بين . جلت حكمته . أحكام الأولاد والوالدين، والأزواج، وكل واحد منهم يتصل بالميت مباشرة بلا واسطة، شرع في بيان ما يتصل بالميت بالواسطة، وهو الكلالة فقال:

وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة أي أو كانت امرأة تورث كلالة أي حال كون كل منهما كلالة، أي ذا كلالة، أو المعنى: وإن كان رجل مورث كلالة أي ذا كلالة، وهو من ليس له والد ولا ولد، وعليه أكثر الصحابة. واللفظ مصدر كل يكل، بمعنى الكلال، وهو الإعياء، ثم استعمل للقرابة البعيدة غير قرابة الولد، والوالد لضعفها بالنسبة." (١)

"أم سعيدا، مؤمنا، أم كافرا! ! فلعن الله الزناة، ما أعظم شرهم في جماعة البشر، ولعن الله الزواني ما أكثر شرهن وأعظم بهتانهن، فإن الواحدة منهن لتحمل ما لا يحمله من يفجر بها من العناء والشقاء وتوبيخ الضمير، فهو يسفح ماء لا يدري ما يكون وراءه، وهي التي تعلق بها المصيبة فتعاني من أثقال حملها ما تعاني، ثم تلقي حملها على فراش زوجها ولا يمكنها أن تنسى طول الحياة أنها ألقت بين يديها ورجليها بهتانا افترته عليه، وأعطته من حقوق عشيرته ما ليس له، أو تلقيه إلى يد غيرها، وقلبها معلق به قلق عليه لا يسكن له اضطراب إلا أن يسلبها الفسق أفضل عاطفة، وشعور تتحلى بهما المرأة، ومنهن من تستعمل الأدوية المانعة من الحمل، فتضر نفسها وربما أفسدت رحمها.

النوع الثالث: الحواشي القريبة، وذلك قوله – عز وجل –: وأخواتكم سواء كن شقيقات لكم، أو كن من الأم وحدها، أو الأب وحده.

النوع الرابع: الحواشي البعيدة من جهة الأب.

النوع الخامس: الحواشي البعيدة من جهة الأم، وذلك قوله تبارك اسمه: وعماتكم وخالاتكم ويدخل في ذلك أولاد الأجداد، وإن علوا، وأولاد الجدات وإن علون، وعمة جده، وخالته، وعمة جدته، وخالاتها للأبوين، أو لأحدهما، إذ المراد بالعمات، والخالات الإناث من جهة العمومية، ومن جهة الخئولة.

النوع السادس: الحواشي البعيدة من جهة الإخوة، وهو قوله – تعالى –: وبنات الأخ وبنات الأخت أي من جهة أحد الأبوين أو كليهما، وسيأتي بيان **الحكمة في ذلك** كله في تفسير الآيات التالية:

القسم الثاني: ما حرم من جهة الرضاعة وهو أنواع كالنسب بينها – تعالى – بقوله وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة فسمى المرضعة أما للرضيع، وبنتها أختا له، فأعلمنا بذلك أن جهة الرضاعة كجهة النسب تأتي فيها الأنواع التي جاءت في النسب كلها، وقد فهم ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال لما أريد على ابنة عمه حمزة، أي أن يتزوجها: إنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب رواه الشيخان من حديث ابن

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٤٥/٤

عباس، ورويا من حديث عائشة عنه – صلى الله عليه وسلم –، أنه قال: إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة وفي صحيحهما أيضا أنه – صلى الله عليه وسلم – قال لها: ائذني لأفلح أخي أبي القعيس فإنه عمك وكانت امرأته أرضعت عائشة. وعلى هذا جرى جماهير المسلمين جيلا بعد جيل، فجعلوا زوج المرضعة أبا للرضيع تحرم عليه أصوله، وفروعه، ولو من غير المرضعة ؛ لأنه صاحب اللقاح الذي كان سبب اللبن الذي تغذى منه أي الرضيع، فروي عن ابن عباس أنه سئل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما." (١)

"الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة (٢٤: ٢) ، فالأمة المتزوجة تجلد إذا زنت خمسين جلدة، وأما الحرة فتجلد مائة جلدة، **والحكمة في ذلك** ما تقدم آنفا من كون الحرة أبعد عن دواعي الفاحشة، والأمة عرضة لها وضعيفة عن مقاومتها، فرحم الشارع ضعفها فخفف العقاب عنها، وإذا كان العذاب في هذه الآية هو الحد الذي بينه في تلك . الآية . آية الجلد . كما قال المفسرون كافة وفاقا لقاعدة: " القرآن يفسر بعضه بعضا "، فظاهرهما أن الأمة لا تحد إلا إذا كانت محصنة، وأما الحرة فظاهر آية النور أنها تجلد مائة جلدة سواء أكانت محصنة أم أيما، وسواء أكانت الأيم بكرا أم ثيبا؛ لأن الآية مطلقة، ولولا السنة لكان لذاهب أن يذهب إلى أن الآية التي نفسرها خصصت الزانية الحرة بالمحصنة للمقابلة فيها بين الإماء اللواتي أحصن وبين المحصنات من الحرائر، وقد تقدم تفسيرهم لقوله تعالى: والمحصنات من النساء بالحرائر المتزوجات، ولكنهم لأجل ما ورد في السنة فسروا المحصنات في هذه الآية بالحرائر غير المتزوجات، ولكنهم لأجل ما ورد في السنة فسروا المحصنات في هذه الآية بالحرائر غير المتزوجات، قالوا: بدليل مقابلته بالإماء وليس بسديد، فإنه في مقابلة الإماء المحصنات لا مطلقا، ثم قيدوا المحصنات هنا بقيد آخر، وهو كونهن أبكارا ؛ لأنهم يعدون من تزوجت محصنة بالزواج وإن آمت بطلاق، أو موت زوجها، والوصف لا يفيد ذلك فإن المحصنة بالزواج هي التي لها زوج يحصنها، فإذا فارقها لا تسمى محصنة بالزواج كما أنها لا تسمى متزوجة، كذلك المسافر إذا عاد من سفره لا يسمى مسافرا، والمريض إذا برئ لا يسمى مريضا، وقد قال بعض الذين خصوا المحصنات هنا بالأبكار: إنهن قد أحصنتهن البكارة، ولعمري إن البكارة حصن منيع لا تتصدى صاحبته لهدمه بغير حقه وهي على سلامة فطرتها وحيائها وعدم ممارستها للرجال، وما حقه إلا أن يستبدل به حصن الزوجية، ولكن ما بال الثيب التي فقدت كل واحد من الحصنين تعاقب أشد العقوبتين إذ حكموا عليها بالرجم؟ هل يعدون الزواج السابق محصنا لها وما هو إلا إزالة لحصن البكارة وتعويد لممارسة الرجال! فالمعقول الموافق لنظام الفطرة هو أن يكون عقاب الثيب التي تأتي الفاحشة دون عقاب المتزوجة، وكذا دون عقاب البكر أو مثله في الأشد، وقد بلغني أن بعض الأعراب في اليمن يعاقبون بالقتل كلا من البكر والمتزوجة إذا زنتا، ولا يعاقبون الثيب بالقتل ولا بالجلد ؛ لأنهم يعدونها معذورة طبعا، وإن لم تكن معذورة شرعا.

وأما السنة فقد ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وآله وسلم حكم برجم اليهودي واليهودية عندما تحاكم إليه اليهود في أمرهما إذ أتيا الفاحشة، والحديث صريح في أنه حكم في ذلك بنص التوراة، قال العلماء: يجب اتباعه فيما حكم به

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٨٣/٤

مهما كان سبب الحكم ؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق، واستدلوا بذلك؛ لأن الإسلام ليس شرطا في الإحصان خلافا لمن اشترطه، وروي." (١)

"قوله تعالى: للذكر مثل حظ الأنثيين (٤: ١١) ، قال الرجال: إنا لنرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا كما فضلنا عليهن في الميراث فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت النساء: إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فأنزل الله تعالى: ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، ذكر الروايات الثلاث الواحدي والسيوطي في الدر المنثور، وهي لا تتفق اتفاقا بينا مع المأثور عن ابن عباس - رضي الله عنه - في تفسير التمني بالحسد، فقد روي عنه أنه قال فيها: لا يقل أحدكم: ليت ما أعطي فلان من المال والنعمة والمرأة الحسناء كان عندي، فإن ذلك يكون حسدا، ولكن ليقل: اللهم أعطني مثله.

الأستاذ الإمام: سبب تلك الروايات الحيرة في فهم الآية ومعناها ظاهر، وهو أن الله تعالى كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركهم فيه النساء، وما كان خاصا بالنساء لهن نصيب من أجره لا يشاركهن

فيه الرجال، وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر، وجعل الخطاب عاما للفريقين مع أن الرجال لم يتمنوا أن يكونوا نساء ولا أن يعملوا عمل النساء، وهو الولادة وتربية الأولاد وغير ذلك مما هو معروف، وإنما كان النساء هن اللواتي تمنين عمل الرجال، وأي عمل الرجال تمنين؟ تمنين أخص أعمال الرجولية وهو حماية الذمار، والدفاع عن الحق بالقوة، ففي هذا التعبير عناية بالنساء، وتلطف بهن وهو موضع للرأفة والرحمة لضعفهن وإخلاصهن فيم تمنين، **والحكمة في ذلك** ألا يظهر ذلك التمني الناشئ عن الحياة الملية الشريفة، فإن تمني مثل هذا العمل غريب من النساء جدا ؛ وسببه أن الأمة في عنفوان حياتها يكون النساء والأطفال فيها مشتركين مع الرجال في هذه الحياة وفي آثارها، وإنها لتسري فيها سريانا عجيبا ومن عرف تاريخ الإسلام ونهضة العرب به وسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين به في زمنه يرى أن النساء كن يسرن مع الرجال في كل منقبة وكل عمل، فقد كن يأتين ويبايعن النبي - صلى الله عليه وسلم - تلك المبايعة المذكورة في (سورة الممتحنة) ، كما كان يبايعه الرجال، وكن ينفرن معهم إذا نفروا للقتال، يخدمن الجرحى ويأتين غير ذلك من الأعمال، فأراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت، والرجال بالأعمال الشاقة التي في خارجها ليتقن كل منهما عمله، ويقوم به كما يجب مع الإخلاص له، وتنكير لفظ نصيب، لإفادة أن ليس كل ما يعمله العامل يؤجر عليه، وإنما الأجر على ما عمل بالإخلاص، أي: ففي الكلام حث ضمني عليه - واسألوا الله من فضله، أي: ليسأله كل منكم الإعانة والقوة على ما نيط به؛ حيث لا يجوز له أن يتمنى ما نيط بالآخر، ويدخل في هذا النهي تمني كل ما هو من الأمور الخلقية كالجمال والعقل إذ لا فائدة في

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٥/٢١

تمنيها لمن لم يعطها، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخر ويتمنى لنفسه مثله وخيرا منه بالسعي والجد، كأنه يقول: وجهوا." (١)

"وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون (١٠١)

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله ﴿والله أعلم بما ينزل﴾ وبالتخفيف

النحل (١٠١ _ ١٠٥)

مكي وأبو عمرو ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ هو جواب إذا وقوله والله أعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون إن محمدا يسخر بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الأشق بالأهون والأهون بالأشق ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ **الحكمة في ذلك**." (٢)

"ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٨٥)

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ أي من أمر يعلمه ربي الجمهور على أنه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من مر الله أي مما استأثر بعلمه وعن أبي هريرة لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقد عجزت الأوائل عن إدراك ما هيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه **والحكمة في ذلك** تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز ولذا رد ما قيل في حده أنه جسم دقيق هوائي في كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو جبريل عليه السلام نزل به." (٣)

"به الأرض من الجبال وهي تسعة عشر وكان أصلها مائة وتسعين إلا أن غيرها يشعب عنها ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ لأن عدتهم تسعة عشر في الكتابين فإذا سمعوا بمثلها في القرآن أيقنوا أنه منزل من الله ﴿ويزداد الذين آمنوا﴾ بمحمد وهو عطف على ليستيقن ﴿إيمانا﴾ لتصديقهم بذلك كما صدقوا سائر ما أنزل أو يزدادوا يقينا لموافقة كتابهم كتاب أولئك ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ هذا عطف أيضا وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دالان على انتفاء الارتياب ثم عطف على ليستيقن أيضا ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ نفاق ﴿والكافرون﴾ والمشركون فإن قلت النفاق ظهر في المدينة والسورة مكية قلت معناه وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة والكافرون بمكة ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ وهذا إخبار بما سيكون

كسائر الاخبارت بالغيوب وذا لا يخالف كون السورة مكية وقيل المراد بالمرض الشك والارتياب لأن أهل مكة كن أكثرهم شاكين ومثلا تمييز لهذا أو حال منه كقوله هذه ناقة الله لكم آية ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة وأن مثله حقيق بأن تسير به الركبان سيرها بالأمثال سمي مثلا والمعنى أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب وأي معنى أراد في أن جعل الملائكة

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٨/٥

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٣٣/٢

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢٧٤/٢

تسعة عشر لا عشرين وغرضهم إنكاره أصلا وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ﴿كذلك يضل الله من يشاء﴾ الكاف نصب وذلك إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهدى أي مثل لتصديقه ورؤية **الحكمة في ذلك** يضل الله من يشاء من عباده وهو الذي علم منه اختيار الضلال ﴿ويهدى من يشاء﴾ وهو الذي علم منه إختيار الاهداء وفيه دليل خلق الأفعال ووصف الله بالهداية." (١)

"يرونني ويؤثر فيهم وسوستي ولا يؤثر في حولهم وقوتهم؟ وما **الحكمة في ذلك** بعد أن لو خلقهم على الفطرة وأبقاهم على ذلك فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين كان أحرى بالحكمة؟ والسابع: سلمت هذا كله، فلم إن استمهلته أمهلني، وما **الحكمة في ذلك** بعد أن لو أهلكني في الحال استراح الخلق مني وما بقي شر في العالم؟ ليس بقاء العالم على نظام الخير خيرا من امتزاجه بالشر؟

فقال شارح الإنجيل: فأوحى الله تعالى إلى الملائكة قولوا له: أما تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق فغير صادق ولا مخلص، إذ لو صدقت أني إله العالمين ما احتكمت علي وأنا الله الذي لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل والخلق مسؤولون هذا مذكور في التوراة ومسطور في الإنجيل، وهذه الشبهات بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور وليس يعدوها عقائد فرق الزيغ والكفر وإن اختلفت العبارات وتباينت الطرق، ويرجع جملتها إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالخلق، وإلى الجنوح إلى الهوى في مقابلة النص، ولا جواب عنها بالتحقيق إلا الذي ذكره الله تعالى. فاللعين لما أن حكم العقل على من لا يحتكم عليه العقل، لزمه أن يجري حكم الخالق في الخلق، أو حكم الخلق في الخالق. فالأول غلو كالحلولية وكالغلاة من الشيعة، والثاني تقصير كالمشبهة وصفوا الخالق بصفات الأجسام، وكالخوارج نفوا تحكيم الرجال وقالوا: لا حكم إلا لله كقوله لأسجد لبشر خلقته من صلصال [الحجر: ٣٣] لا أسجد إلا لك. فالشبهات كلها ناشئة من اللعين، وتلك في الأول مصدرها، وهذه في الأخير مظهرها، ولهذا قال تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين [البقرة: ٢٠٨]

وشبه النبي صلى الله عليه وسلم كل فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السالفة فقال «القدرية مجوس هذه الأمة والمشبهة يهود هذه الأمة، والرافضة– يعني الغلاة– نصارها»

وقال صلى الله عليه وسلم: «لتسلكن سبيل الأمم قبلكم حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» «١»

القول الثاني أن إبليس كان مؤمنا ثم كفر بعد ذلك ثم اختلفوا. فمن قائل معناه «وكان من الكافرين في علم الله» أي كان الله عالما في الأزل بأنه سيكفر. فصيغة «كان» متعلقة بالعلم لا بالمعلوم. ومن قائل إن «كان» بمعنى «صار» .

وقيل: لما كفر في وقت معين بعد أن كان مؤمنا فبعد لحظة يصدق عليه أنه كان من الكافرين. وإنما حكم بكفره على هذا القول الثاني لاستكباره واعتقاده كونه محقا في ذلك التمرد بدليل قوله أنا خير منه [ص: ٧٦] وإلا فمجرد المعصية لا يوجب الكفر عندنا

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٥٦٦

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب ٥٠. مسلم في كتاب العلم حديث ٦. ابن ماجه في كتاب الفتن باب ١٧. أحمد في مسنده (٢/ ٣٢٧، ٤٥٠) .." (١)

"مفعول به، ويجوز أن يكون في موضع مصدر أي قليلا من الجزاء مثل «ولا تظلمون شيئا» .

ومعنى تنكير النفس أن نفسا من الأنفس لا تجزي عن نفس منها شيئا من الأشياء وهو الإقناط الكلي القاطع للمطامع.

وكذلك قوله ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل أي فدية لأنها معادلة للمفدى.

وفي الحديث «لا يقبل منه صرف ولا عدل»

أي توبة، لأنها تصرف من الحال الذميمة إلى الحال الحميدة ولا فداء. والضمير في ولا يقبل منها يرجع إلى النفس الثانية العاصية غير المجزي عنها وهي التي لا يؤخذ منها عدل. ومعنى لا تقبل منها شفاعة أنها إن جاءت بشفاعة شفيع لم يقبل منها، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أنها لو شفعت لها لم تقبل شفاعتها، كما لا تجزي عنها شيئا ولو أعطت عدلا منها لم يؤخذ منها ولا هم ينصرون، الضمير عائد إلى ما دلت عليه النفس المنكرة من النفوس الكثيرة، والتذكير بمعنى العباد أو الأناسي مثل ثلاثة أنفس. وفي وصف اليوم بهذه الصفات تهويل عظيم تنبيه على أن الخطب شديد، لأنه إذا وقع أحد في كريهة وحاولت أعزته دفاع ذلك عنه، بدأت بما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية، فتحمل عنه ما يلزمه وتذب عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته ونهاية بطشه. فإن رأى من لا طاقة له بممانعته عاد بوجوه الضراعة وصنوف الشفاعة وبذل المال والمنال، فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة، فإن لم تغن هذه الأمور تعلل بما أمكنه من نصر الإخوان ومدد الأخدان، فأخبر الله تعالى أن شيئا من هذه لا يدفع يومئذ عن عذابه. وفي هذا تحذير من المعاصي وترغيب في تلافي ما فات بالتوبة، لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية، علم أنه لا ينفعه إلا الطاعة وتلافي البوادر. فالآية وإن كانت في بني إسرائيل إلا أنها تعم كل من يحضر ذلك اليوم. فإن قيل: قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الدية، وفي موضع آخر من هذه السورة عكست القضية، فما **الحكمة في ذلك؟** قلنا: من الناس من ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فيتمسك أولا بالشفيع ثم يستروح إلى بذل المال، ومنهم من على العكس فيقدم الفدية على الشفاعة، فتغيير الترتيب إشارة إلى الصنفين والله أعلم.

واعلم أن الشفاعة هي أن يستوهب أحد لأحد شيئا ويطلب له حاجة من الشفع ضد الوتر، كأن صاحب الحاجة كان فردا فصار بالشفيع شفعا. ثم إن الأمة أجمعت على أن لمحمد صلى الله عليه وسلم رتبة الشفاعة في الآخرة، وعليه يحمل قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا [الاسراء: ٧٩] ولسوف يعطيك ربك فترضى [الضحى: ٥] . وأجمعوا على أنه لا شفاعة للكفار. بقي الخلاف فيمن عداهم. فأهل السنة أثبتوا الشفاعة لغير الكفار." (٢)

"ينصرف إلى قوله ولله المشرق والمغرب أي كما خصصنا بعض الجهات المتساوية بمزيد التشريف والتكريم حتى صارت قبلة فضلا منا وإحسانا، جعلناكم مختصين بالعدالة برا منا وامتنانا مع تساوي الخلق في العبودية. وقيل: قد يذكر ضمير

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢٥٢/١

(٢) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢٨٠/١

الشيء وإن لم يكن المضمر مذكورا إذا كان المضمر مشهورا معروفا مثل إنا أنزلناه في ليلة القدر ثم من المشهور المعروف عند كل أحد أنه سبحانه هو القادر على إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، فالمعنى ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد غيري جعلناكم أمة وسطا. الجوهري: يقال جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف، وجلست وسط الدار بالتحريك لأنه اسم، وكل موضع صلح فيه بين فهو وسط، وإن لم يصلح فيه بين هو وسط بالتحريك. قال: والوسط من كل شيء أعدله، وشيء وسط أي بين الجيد والرديء، وأمة وسطا أي عدولا قال زهير:

همو وسط يرضى الأنام بحكمهم ... إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وذلك أن العدل متوسط في الأخلاق بين طرفي الإفراط والتفريط، ولهذا ذكره الله تعالى في معرض المدح والامتنان. وقيل: الوسط الخيار لأنه يستعمل في الجمادات. قال في الكشاف: اكتريت بمكة جمل أعرابي فقال: أعطني من سطاتهن- أراد من خيار الدنانير- ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر كنتم خير أمة أخرجت للناس [آل عمران: ١١٠] وإنما أطلق الوسط على الخيار لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والعيب، والأوساط محمية محوطة. وقيل: المراد بالوسط هاهنا أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر في شأن الأنبياء لا كالنصارى حيث جعلوا النبي صلى الله عليه وسلم ابنا وإلها، ولا كاليهود حيث قتلوا الأنبياء وبدلوا الكتب، ولأن الوسط في الأصل اسم وصف به استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لتكونوا شهداء على الناس الأكثرون على أن هذه الشهادة في الآخرة إما بأن يكونوا شهداء للأنبياء على أممهم الذين يكذبونهم.

روي أن الأمم يجحدون تبليغ الأنبياء يوم القيامة فيطالب الله الأنبياء بالبينة على أنهم قد بلغوا- وهو أعلم- فيؤتى بأمة محمد فيشهدون فيقول الأمم: من أين عرفتم؟

فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق. فيؤتى بمحمد فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم وذلك قوله تعالى فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا [النساء: ٤١]

قلت: **والحكمة في ذلك** تمييز أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الفضل عن سائر الأمم حيث يبادرون إلى تصديق الله تعالى وتصديق جميع الأنبياء والإيمان بهم جميعا، فهم بالنسبة إلى غيرهم كالعدل بالنسبة إلى الفاسق، ولذلك." (١)

"الأقرب وهو الفئة الكافرة أولى، ولأنه سبحانه جعل هذه الحالة آية للكفار حيث خاطبهم بقوله قد كان لكم آية فوجب أن يكون الراؤون هم الكفار حتى تكون حجة عليهم، ولو كانت الآية مما شاهدها المؤمنون لم يصلح جعلها حجة على الكفرة. **والحكمة في ذلك** أن يهابهم المشركون ويجبنوا عن قتالهم وهذا لا يناقض قوله في سورة الأنفال ويقللكم في أعينهم [الآية: ٤٤] لاختلاف الوقتين فكأنهم قللوا أولا في أعينهم حتى اجترءوا عليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا. على أن تقليلهم تارة في أعينهم وتكثيرهم أخرى أبلغ في القدرة وإظهار الآية. الاحتمال الثالث أن الرائين هم المسلمون والمرئيين هم المشركون. فالمسلمون رأوا المشركين مثلي المسلمين والسبب فيه ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين [الأنفال: ٦٥] والكافرون كانوا قريبا من ثلاثة أمثالهم، فلو رأوهم

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٤٢١/١

كما هم لجبنوا وضعفوا.

الاحتمال الرابع أن يكون الراؤون هم المسلمين، ثم إنهم رأوا المشركين على الضعف من عدد المشركين وهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصرة الكفار وإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين، والآية تنافي ذلك. وفي الآية احتمال خامس وهو أن أول الآية قد بينا أنه خطاب مع اليهود فيكون المراد: ترون أيها اليهود المشركين مثلي المؤمنين في القوة. وهاهنا بحث وهو أن الاحتمال الأول والثاني يقتضي أن المعدوم صار مرئيا، والاحتمال الثالث يوجب أن يكون الموجود والحاضر غير مرئي. أما الأول فهو محال عقلا والقول به سفسطة فلهذا قيل: لعل الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيرا. وعلى هذا تكون الرؤية رؤية البصر، ويكون مثليهم نصبا على الحال، أو تحمل الرؤية على الظن والحسبان فإن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنه في غاية الكثرة، لكن قوله: رأي العين لا يجاوب ذلك إذ معناه رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها معاينة كسائر المعاينات. وأما الثاني فهو جائز عند الأشاعرة إذ عند حصول الشرائط وصحة الحاسة لا يكون الإدراك واجب الحصول بل يكون عندهم جائزا لا واجبا والزمان زمان خوارق العادات. وأما المعتزلة فعندهم الإدراك واجب الحصول عند استجماع الشروط وسلامة الحس، فاعتذروا عن ذلك بأن الإنسان عند الخوف لا يتفرغ للتأمل البالغ، فقد يرى البعض دون البعض. أو لعل الغبار صار مانعا عن إدراك البعض، أو خلق الله تعالى في الهواء ما صار مانعا عن رؤية ثلث العسكر، أو يحدث في عيونهم ما يستقل به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين وكل ذلك محتمل. والله يؤيد بنصره من يشاء إما بالغلبة كيوم بدر، وإما بالحجة والعاقبة كيوم أحد. إن في ذلك الذي ذكره من." (١)

"يا بياض القرون سودت وجهي ... عند بيض الوجوه سود القرون

وثانيهما: أن السواد والبياض محمولان على ظاهرهما وهما النور والظلمة، إذ الأصل في الإطلاق الحقيقة. فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكمده واسودت صحيفته وأحاطت به الظلمة من كل جانب. قالوا: **والحكمة في ذلك** أن يعرف أهل الموقف كل صنف فيعظمونهم أو يصغرون بحسب ذلك ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور. وأيضا إذا عرف المكلف في الدنيا أنه يحصل له في الآخرة إحدى الحالتين ازدادت رغبته في الطاعات وترك المحرمات. قلت: والتحقيق فيه أن والهيئات والأخلاق الحميدة أنوار، والملكات والعادات الذميمة ظلمات، وكل منهما لا يظهر آثارها كما هي إلا بعد المفارقة إلى الآخرة انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا [الحديد: ١٣] واحتج أهل السنة بالآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر وإنه ليس هاهنا منزلة بين المنزلتين، لأنه قسم أهل القيامة إلى قسمين: مبيض الوجوه وهم المؤمنون، ومسودها وهم الكافرون لقوله تعالى في آخر الآية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون واعترض القاضي عليه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه، وأيضا لفظ وجوه نكرة فلا يفيد العموم. وأيضا المذكور في الآية هم المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان، ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين فكذا القول في الفساق. والجواب لم لا يجوز أن يكون المراد أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم، فيكون الخطاب

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ١٢١/٢

لجميع الكفار؟ وأنه أيضا جعل موجب العذاب في آخر الآية هو الكفر من حيث إنه كفر لا الكفر من حيث إنه بعد الإيمان. فإن قيل: لم قدم البياض على السواد أولا وعكس آخرا؟ فالجواب بعد تسليم إفادة الواو الترتيب، أنه بدأ بذكر أهل الثواب وختم بهم أيضا تنبيها على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما

قال: «سبقت رحمتي غضبي»

ولما في ذلك من رعاية حسن المطلع والمقطع وأنه فن بديع في الفصاحة. ومن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟

قال أبي بن كعب: هم جميع الكفار لأنهم آمنوا وقت الميثاق، ورواه الواحدي في البسيط بإسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: المراد أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو ما نصبه الله من دلائل التوحيد والنبوة؟ وقال عكرمة والأصم والزجاج: إنهم أهل الكتاب آمنوا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وكفروا به بعد بعثه. وقال قتادة: إنهم المرتدون. وقال الحسن: هم المنافقون.

وقيل: هم الخوارج الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من." (١)

"الرؤية رؤية العين لا القلب وقد استوفت الإراءة مفعولية فلن يتعدى إلى ثالث ويقللكم في أعينهم الحكمة في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرة مع أن في ذلك تصديقا لرؤيا النبي، وأما تقليل المؤمنين في أعين الكفار **فالحكمة في ذلك** أن يجترىء الكفار عليهم قلة مبالاة بهم وأن يستعدوا لهم كما ينبغي ليقضي الله أمرا كان مفعولا فعل ما فعل من التقليل وإلى الله ترجع الأمور فيه أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها وإنما المراد منها ما يصلح أن يكون زادا للمعاد. ثم علم المؤمنين آداب اللقاء في الحروب فقال إذا لقيتم فئة فاثبتوا لقتالهم ولا تفروا واللقاء اسم غلب في القتال فلهذا ترك وصف الفئة بالمحاربين ونحو ذلك، والأمر بالثبات في القتال لا ينافي الرخصة في التحرف والتحيز فلعل الثبات في الحرب لا يحصل إلا بهما. واذكروا الله كثيرا في مواطن الحرب لعلكم تفلحون تظفرون بمرادكم من النصر والمثوبة. وفيه إشعار بأن العبد لا يجوز له أن يفتر عن ذكر ربه في أي شغل وعمل كان، ولو أن رجلا أقبل من المغرب إلى المشرق منفقا أمواله لله، والآخر من المشرق إلى المغرب ضاربا بسيفه في سبيل الله كان الذاكر لله أعظم أجرا. وقيل: المراد من هذا الذكر أن يدعو على العدو: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم ونحو ذلك والأولى حمله على العموم وأطيعوا الله ورسوله في سائر ما يأمر به لأن الجهاد لا ينفع إلا مع التمسك بسائر الطاعات ولا تنازعوا فتفشلوا منصوب بإضمار «أن» أو مجزوم لدخوله في حكم النهي ويظهر التقدير «أن» في قوله

وتذهب ريحكم على القراءتين. والريح الدولة شبهت في نفوذ أمرها وتمشيته على وفق المشيئة بالريح وهبوبها. يقال: هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره. وقيل:

الريح حقيقة ولم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله.

وفي الحديث: «نصرت بالصبا» «١»

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢/٢٣٠

حذرهم التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد بمخالفتهم رسول الله. احتج نفاة القياس بالآية لأن القول به يفضي غالبا إلى النزاع المنهي عنه. وكذا القائلون: بأن النص لا يجوز تخصيصه بالقياس.

قال أهل السير: إن أهل مكة حين نفروا لحماية العير أتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرا نشرب بها الخمور وتعزف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب. فوافوها فسقوا كؤوس

(١) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء باب ٢٦، كتاب بدء الخلق باب ٥. مسلم في كتاب الاستسقاء حديث ١٧. أحمد في مسنده (١/ ٢٢٣، ٢٢٨، ٣٤١) .." (١)

"فيقال: يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر. وهو قول الربيع وأبي العالية أيضا.

قال صاحب الكشاف: ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع «أن» وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهامتهم. **والحكمة في ذلك** في رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين عليهما السلام وأن لا يفتضح أولاد الزنا. ثم قال: وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته؟ وقال في التفسير الكبير: كل خلق يظهر من الإنسان حسن كالعفة والشجاعة والعلم، أو قبيح كأضدادها فالداعي إلى تلك الأفعال خلق باطن كالإمام له وكالمنبع والمنشأ، ويوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق فمن أوتي هو في معنى الجمع ولذلك قيل في جزائه فأولئك يقرؤن وخص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم لأن قراءة أصحاب الشمال كلا قراءة لما يعرض لهم فيه من الحياء والخجل والتتعتع ومن كان في هذه الدنيا أعمى لا خلاف أن المراد بهذا العمى عمى القلب. وأما قوله: فهو في الآخرة أعمى فيحتمل أن يراد به عمى البصر كقوله: ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا [طه: ٢٥] وفي هذا زيادة العقوبة. ويحتمل أن يراد عمى القلب. قال ابن عباس: المراد ومن كان أعمى في هذه النعم التي عددها من قوله: ربكم الذي يزجي إلى قوله:

تفضيلا فهو في الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى بالطريق الأولى، لأن الضلال عن معرفة أحوال الآخرة أقرب وقوعا، فعلى هذا يكون الأعمى في الموضعين في الدنيا، ومثله ما روى أبو روق عن الضحاك. من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرته في خلق السماء والأرض والبحار والجبال والناس والدواب، فهو عن أمر الآخرة وتحصيل العلم به أعمى. قال المفسرون: لا يبعد أن يكون أعمى على هذا التفسير «أفعل» التفضيل ودليله قراءة أبي عمر وبإمالة الأول وتفخيم الثاني، لأن الأول ألفه واقعة في الطرف فكانت عرضة للإمالة ومظنة لها بخلاف الثاني فإن تمامه بمن فكانت ألفه في حكم وسط الكلمة.

هذا قول صاحب الكشاف تابعا لأبي علي الفارسي. وأقول: في هذا الوجه نظر، لأن الإمالة ليست مختصة بآخر الكلمة مثل «شيئان» «والكافرين» ونحوهما ولهذا قرىء بإمالة كليهما مع قيام هذا الاحتمال في الثاني، ولعل من لم يمل الثاني راعى المشاكلة بينه وبين أضل والله أعلم. قال الحسن: في الآخرة أي في الدار الآخرة وذلك أنه في الدنيا تقبل توبته وفي الآخرة

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٤٠٤/٣

لا تقبل. وقيل: المراد بالعمى في الآخرة أنه لا يهتدي إلى طريق الجنة وإلى طيباتها والابتهاج، بها ولا يمكن أن يراد بها الجهل بالله لأن أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة.." (١)

"إن امرأته تدخل عليكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدي إليكم علته، فحينئذ لم يستعملها أحد فتحيرت وكان لها ثلاث ذوائب فعمدت إلى إحداها وقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزا ولحما فقال أيوب: من أين هذا؟ قالت: كل فإنه حلال. فلما كان من الغد لم تجد شيئا فباعت الثانية، وكذلك فعلت في اليوم الثالث وقالت: كل فإنه حلال. فقال: لا آكل أو تخبريني فأخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم فقال: ربه أني مسني الضر.

والرواية الخامسة قيل: سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها إلى موضعها وقال: قد جعلني الله طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال: مسني الضر فأوحى الله إليه: لولا أني جعلت في كل شعرة منك صبرا لما صبرت. واعلم أن مس الضر هاهنا مطلق إلا أنه ورد في «ص» مقيدا وذلك قوله أني مسني الشيطان بنصب وعذاب [ص: ٤١] فصح أن يكون سندا لهذه الروايات إلا أن الجبائي طعن فيها بأن الشيطان كيف يقدر على إحداث الأمراض والأسقام والقادر على ذلك قادر على خلق الأجسام وحينئذ يكون إلها. وأيضا إن هذه التأثيرات تنافي قوله سبحانه حكاية عنه وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم [إبراهيم: ٢٢] والجواب أنه كان بإذن من الله كما حكينا فلا محذور ولا تنافي. وقال: ومن البعيد أنه لم يسأل الله إلا عند أمور مخصوصة والجواب أن الأمور مرهونة بأوقاتها. وقال:

انتهاء أمراض الأنبياء إلى حد التنفير من القبول غير جائز. والجواب المنع ولا سيما بشرط العافية في العاقبة. قوله سبحانه فكشفنا ما به من ضر مجمل يقتضي إعادته إلى ما كان في بدنه وأحواله. وقوله: وآتيناه أهله ومثلهم معهم تفصيل لذلك المجمل وفيه قولان:

الأول قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومقاتل والكلبي: إن الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم. والثاني قال الليث: أرسل مجاهد إلى عكرمة وسئل عن الآية فقال: أراد أهلك لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا. فقد روي أن زوجته ولدت بعد ذلك ستة وعشرين ابنا له. ثم بين **الحكمة في ذلك** الابتلاء ثم الاستجابة بقوله رحمة من عندنا لأيوب وذكرى لغيره من العابدين للرحمن أو الرحمة والذكرى كلاهما للعابدين لكي يتفكروا فيصبروا كما صبر حتى يتابوا في الدارين كما أثيب. وإنما خص الرحمة والتذكرة بالعابدين لأنهم هم المنتفعون بذلك لا الذين يعبدون الهوى والشيطان. قال أهل البرهان:

إنما قال في هذه السورة رحمة من عندنا وقال في «ص» رحمة منا [ص: ٤٣] لأنه بالغ هاهنا في الدعاء بزيادة قوله: وأنت أرحم الراحمين فبالغ في الاستجابة لأن لفظ «عند» يدل على مزيد التخصيص وأنه سبحانه تولى ذلك من غير واسطة. وحين ذكر صبر أيوب وانقطاعه إليه ذكر غيره من الأنبياء المشهورين بالصبر منهم." (٢)

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٣٧٠/٤

(٢) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٤٤/٥

"فيهما والسر فيه أن تمام اللذة عند اجتماع النسوان للرجل الواحد هو أن يكون لكل منهن مسكن على حدة فتباعد من مسكن الأخرى، واسع بحيث يسع ما يليق بحاله أو بحالها من الجواري والغلمان وسائر الأسباب، فيحصل هناك منتزهات كثيرة كل منها جنة، وكأن في ضمير الجمع إشارة إلى ذلك. وأما العيون والفواكه فلم يكن شيء منها بهذه المثابة من كمال اللذة فأكتفي فيها بعود الضمير إلى الجنتين فقط. والمقصورات اللواتي قصرن أي حبسن في خدورهن. امرأة مقصورة أي مخدرة. روى قتادة عن ابن عباس:

الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ فيها أربعة آلاف مصراع من ذهب.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون» «١»

وقال أهل المعاني: كنى عن الجماع في الدنيا بنحو قوله من قبل أن تمسوهن [البقرة: ٢٣٧] وذكر الجماع في الآخرة بلفظ يقرب من الصريح وهو الطمث فما **الحكمة في ذلك؟** والجواب أن المباشرة في الدنيا قبيحة لما فيها من قضاء الشهوة وإسقاط القوى وهي في الآخرة بخلاف ذلك فإنها داعية روحانية ولذة حقيقية فلم يحتج إلى الكناية لأن الكنايات إنما تجري في الهنيئات. قال جار الله: متكئين نصب على الاختصاص. قلت: ويجوز أن يكون حالا والعامل مضمر يدل عليه قوله لم يطمثهن إنس قبلهم أي يطمثونهم في حال الاتكاء. قال أبو عبيدة والضحاك ومقاتل والحسن: الرفرف ضرب من البسط. وقيل: كل ثوب عريض فهو رفرف. ويقال لأطراف البسط وفضول الفسطاط رفارف. وقال الزجاج: الرفرف هاهنا رياض الجنة. وقيل: الوسائد. قال جار الله ال عبقري منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد الجن فينسبون إليه كل شيء غريب عجيب.

وعن أبي عبيدة: كل شيء من البسط عبقري وهو جمع واحدة عبقرية. ومما يدل على أن صفات هاتين الجنتين تقاصرت عن الأولين قوله مدهامتان فإنه دون قوله ذواتا أفنان وذلك أن كمال الخضرة لا يوجب كون البستان ذا فنن ونضاختان دون تجريان وفاكهة دون كل فاكهة وكذلك صفة الحور والمتكأ. قال أهل العلم: كرر قوله فبأي آلاء ربكما تكذبان إحدى وثلاثين مرة: ثمانية منها ذكرها عقيب تعداد عجائب خلقه وذكر المبدأ والمعاد، ثم سبعة منها عقيب ذكر النار وأهوالها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة أورد ثمانية في وصف الجنات وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية بعدها عقيب

---

(١) رواه البخاري في كتاب تفسير سورة ٥٥ باب ٢ مسلم في كتاب الجنة حديث ٢٣- ٢٥ الترمذي في كتاب الجنة باب ٣ الدارمي في كتاب الرقاق باب ١٠٩ أحمد في مسنده (٣/ ١٠٣، ١١٥) (٤/ ٤٠٠، ٤١١)." (١)

"وفي الآية تخصيص آخر وهو أنه لم يذكر أحوال أهل السموات وفيه سر قال أهل البرهان:

فصل في هذه السورة وأجمل في «التغابن» فقال ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله [الحديد: ٢٢] والتفصيل بهذه السورة أليق لأنه فصل أحوال الدنيا والآخرة بقوله اعلموا أنما الحياة الدنيا إلى آخره قوله من قبل أن نبرأها من قبل أن نخلق المصائب

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٦/٢٣٤

والأنفس أو الأرض أو المخلوقات إن ذلك الإثبات أو الحفظ على الله يسير وإن كان عسيرا على غيره. ثم بين وجه **الحكمة في ذلك** الإثبات قائلا لكيلا تأسوا أي لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم نظيره ما ورد في الخبر: من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب لأنه لما علم وجوب وقوعه من حيث تعلق علم الله وحكمه وقدرته به عرف أن الفائت لا يرده الجزع والمعطى لا يكاد يثبت ويدوم لأنه عرضة للزوال ونهزة للانتقال فلا يشتد به فرحه. روى عكرمة عن ابن عباس: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا للمصيبة صبرا وللخير شكرا أو المراد أنه لم ينف الأسى والفرح على الإطلاق ولكنه نفى ما بلغ الجزع والبطر ولا لوم على ما يخلو منه البشر. والباقي ظاهر وقد مر في النساء. والمقصود أن البخيل يفرح فرحا مطغيا لحبه المال ليفتخر به ويتكبر على الناس ويحمل غيره على إمساك المال لمقتضى شحه الطبيعي ومن يتول عن أوامر الله ونواهيه ولا يعرف حق الله فما أعطاه فإن الله هو الغني عن طاعة المطيعين الحميد في ذاته وإن لم يحمده الحامدون. وقيل: إن الآية نزلت في اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وبخلوا ببيان نعته.

ثم أراد أن يبين الغرض من بعثة الرسل المؤيدين بالمعجزات ومن إنزال الكتاب والميزان معهم.

يروى أن جبرائيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح فقال: مر قومك يزنوا به.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض.

أنزل الحديد والنار والماء والملح. وعن الحسن: إنزالها تهيئتها كقوله وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج [الزمر: ٦] وقال قطرب: هو من النزل يقال: أنزل الأمير على فلان نزلا حسنا منهم من قال: هو من باب «علفتها تبنا وماء باردا» . وللعلماء في المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه. أحدها أن مدار التكليف على فعل ما ينبغي وترك ما لا ينبغي.

والثاني لا يتم إلا بالحديد الذي فيه بأس شديد والأول إما أن يكون من باب الاعتقادات ولن يتم إلا بالكتاب السماوي ولا سيما إذا كان معجزا. وإما أن يكون من باب المعاملات ولا ينتظم إلا بالميزان فأشرف الأقسام ما يتعلق بالقوة النظرية الروحانية، ثم ما يتعلق بالعملية الجسمانية، ثم ما يتعلق بالزواجر وقد روعي في الآية هذا النسق. وثانيها." (١)

"أكلته إلى فيه فلا يطعمها» . رواه البخاري. قال الطيبي: الآيات أمارات الساعة، إما على قربها، وإما على حصولها. فمن الأول: الدجال، ونزول عيسى، ويأجوج ومأجوج، والخسف. ومن الثاني: الدخان، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، والنار التي تحشر الناس.

وعن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله يقول: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريبا» . رواه مسلم.

قال الحافظ ابن حجر: (فالذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير الأحوال العلوية، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢٥٩/٦

المغرب. قال: **والحكمة في ذلك** أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر، تكميلا للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس) . انتهى.

وقال عبد الله بن عمرو: (لا تلبثون بعد يأجوج ومأجوج إلا قليلا حتى تطلع الشمس من مغربها، فيناديهم مناد: يا أيها الذين آمنوا قد قبل منكم، ويا أيها الذين كفروا قد أغلق عنكم باب التوبة، وجفت الأقلام وطوت الصحف) . رواه نعيم، وحماد.." (١)

"البيت: الحرم المكي. مثابة: مرجعا يثوب اليه الناس. مقام ابراهيم: هو الحجر الذي كان يقوم عليه حين بناء الكعبة. وقيل ان الحرم كله مقام ابراهيم.

عهد: وصى.

في هذه الآيات يأتي الحديث عن ابراهيم واسماعيل، وعن البيت الحرام وشعائره، لتقدير الحقائق الخالصة في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول النسب الذي يمت به ويحترمه أهل الكتاب ومشركوا العرب، وهو ملة ابراهيم ونسبه الى عقيدة المسلمين.

اذكروا قصة بناء ابراهيم مع ابنه اسماعيل لبيت الله الحرام بمكة، اذ جعلنا هذا البيب للخلف ملاذا ومأمنا، واذ امرنا الناس ان يتخذوا منه مكانا يصلون فيه. وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل، اي وصيناهم، بتطهير البيت، وان يصونوه من كل رجس معنوي كلاشرك بالله وعبادة الأصنام، أو رجس حسي كاللغو والرفث والتنازع فيه، وقت اداء العبادات. كما أوصيناهما ان يجعلاه مهيأ للناس للطواف والصلاة والسعي.

ومقام ابراهيم الذي جاءت الاشارة اليه كان ملاصقا للكعبة، وكان الحجاج أثناء الطواف يتزاحمون عنده، وربما حدث كثير من الانزعاج لبعضهم، مما حدا بالمسئولين ان يستفتوا العلماء لإبعاده قليلا. وقد افتى بذلك جمهور من العلماء فتمت زحزحته عن مكانه. وهناك من المفسرين من يقول: مقام ابراهيم هو الحرم جميعه، سماه الله بيته لأنه أمر المصلين ان يتوجهوا في عبادتهم اليه. **والحكمة في ذلك** ان الناس في حاجة الى التوجه الى خالقهم لشكره والثناء عليه، لكنهم يعجزون عن التوجه الى «ذات مجردة» لا تنحصر في جهة، فعين الله لهم هذا البيت المقدس نسبة اليه.

واذكروا اذا طلب ابراهيم الى ربه ان يجعل مكة، البلد الحرام، بلدا آمنا، وان يرزق من يحل فيه من ثمرات الأرض وخيراتها. هذا ما طلبه ابراهيم، فأجابه الله تعالى اليه. اما من كفر فإني انا العلي القدير، أمتعه في هذه الحياة الدنيا القصيرة الأمد ثم أسوقه الى عذاب النار يوم القيامة.

القراءات:

قرأ نافع وابن عام: «اتخذوا» بلفظ الماضي. وقرأ ابن عامر: «فأمتعه» من أمتع الرباعي.." (٢)

---

(١) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٣٤٨/٣

(٢) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٦٧/١

"التربص: الانتظار. القرء: الحيض أو الطهر من الحيض. بعولة: جمع بعل وهو الزوج.

وعلى المطلقات اللاتي دخل بهن أزواجهن ان ينتظرن ثلاثة حيضات لا يجوز للمرأة منهن ان تتزوج قبل انقضائها، وهي العدة. **والحكمة في ذلك** هي التأكيد من أنها ليست ذات حمل. ولا يجوز لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن من الاولاد، أو دم الحيض. . ذلك ان بعض المطلقات يدعين ان مدة الحيض طالت فيطالبن بالنفقة عن تلك المدة.

وكانت المرأة في الجاهلية قد تتزوج بعد طلاقها دون ان تنتظر العدة، ثم يظهر انها حبلى من الاول، فتلحق الولد بالثاني. . وفي هذا اختلاط الأنساب وضياع لحقوق الناس. فلما جاء الإسلام حرم هذا وشدد في ذلك بقوله: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ اي اذا كن صادقات في الايمان بالله واليوم الآخر.

والأزواج أحق من غيرهم في ارجاع مطلقاتهم اليهم قبل انقضاء العدة إذا قصدوا الاصلاح وحسن المعاشرة. أما اذا قصدوا الإضرار بالمرأة ومنعها من التزوج حتى تبقى كالمعلقة، فلا، ويكون الزوج آثما عند الله.

﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف. . .﴾ ان للرجال والنساء حقوقا الواحد منهم تجاه الآخر وعليهم وعليهن واجبات. «وبالمعروف» تعني ان هذه الحقوق والواجبات موكولة الى اصطلاح ما يجري عليه العرف بينهم وما تعارفوا عليه من آداب وعادات. وقد أجمل النبي A هذه الحقوق عندما قضى بين ابنته فاطمة وزوجها علي، حيث قضى عليها بخدمة البيت، وعليه بماكان في خارجه من الأعمال.

وهذا ما تحكم به الفطرة في توزيع الأعمال بين الزوجين، فعلى المرأة تدبير شؤون المنزل وعلى الرجل السعي والكسب في خارجه. ولا يمنع هذا من استعانة اي منهما بالخدم ولا من مساعدة كل منهما للآخر.

أما قوله تعالى: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ فقد فسرتها الآية الواردة في سورة النساء: ﴿الرجال قوامون على النسآء بما فضل الله بعضهم على بعض وبمآ أنفقوا من أموالهم﴾ . فهذه الدرجة هي الرياسة ومسؤولية القيام على المصالح، والانفاق على الأسرة.

ان الحياة الزوجية تقتضي وجود مسؤول يرجع اليه عند اختلاف الآراء والرغبات حتى لا يعمل كل ضد الآخر، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة. والرجل هو الأحق بذلك.

﴿والله عزيز حكيم﴾ فمن عزته ان أعطى المرأة مثل ما اعطى الرجل من الحقوق بعد ان كانت كالمتاع لدى جميع الأمم. إنه هو الذي رفعها عما كانت عليه في كل شريعة من الشرائع الماضية. فلقد كانت المرأة عند الرومان مثلا أمة في بيت زوجها عليها واجبات، وليس لها حقوق.

ويرى الاستاذ سيد قطب ان هذه الدرجة مقيدة في هذا السياق بحق الرجل في هذا الموضع، وليست مطلقة الدلالة، كما يفهمها الكثيرون، ويستشهدون بها في غير موضعها.." (١)

"الفجر: ضوء الصبح بعد ذهاب الليل. وليال عشر: العشر الأول من ذي الحجة. والشفع والوتر: العدد الزوجي والفردي. والليل اذا يسر: الليل اذا يمضي ويذهب. لذي حجر: لذي عقل. عاد: من قبائل العرب البائدة. إرم ذات العماد:

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ١٢٩/١

ارم ذات البناء الرفيع، كانت في الأحقاف بين عمان وحضرموت. ثمود: قبيلة من العرب البائدة. جابوا الصخر: قطعوه ونحتوه. وفرعون ذي الأوتاد: فرعون مصر صاحب الاهرام التي تشبه الاوتاد. طغوا في البلاد: تجاوزوا القدر في الظلم. سوط عذاب: فأنزل الله عليهم ألوانا من العذاب. المرصاد: مكان المراقبة، رصد الأمر يرصده: راقبه. ابتلاه. اختبره بكثرة الرزق. فقدر عليه رزقه: ضيقه عليه.

﴿والفجر وليال عشر. . . .﴾

يقسم الله تعالى بالفجر والليالي العشر المباركة، وبالزوج والفرد من كل شيء، وبالليل اذا يمضي بحركة الكون العجيبة ليهلك كل معاند جبار. ﴿هل في ذلك قسم لذى حجر؟﴾ ان في ذكر هذه الأشياء جميعا قسما عظيما مقنعا لذوي العقول، وحجة كافية على وجوده وقدرته.

وبعد ان أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين – شرع يذكر بعض قصص الجبابرة من الأمم الغابرة: كيف أفسدوا وطغوا، فأوقع بهم أشد العذاب فقال:

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد. . . .﴾

ألم تعلم يا محمد كيف أنزل ربك عقابه بعاد قوم هود، أهل إرم ذات البناء الرفيع، والتي لم يخلق مثلها في البلاد ضخامة وارتفاعا!؟ يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾ [الشعراء: ١٢٨– ١٢٩] . وقد تقدم الكلام على عاد ونبيهم هود في أكثر من سورة.

﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. . . .﴾

وثمود، قوم صالح، الذين قطعوا الصخر ونحتوه، وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة. وكانت مساكنهم في الحجر شمالي الحجاز، ولا تزال بقايا من آثارهم موجودة. كما قال تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين﴾ [الشعراء: ١٤٩] .

كذلك ورد ذكر ثمود وبيهم صالح في عدد من السور.

﴿وفرعون ذى الأوتاد. . . .﴾

اذكر كيف أنزل ربك عقابه بفرعون صاحب الأهرام والمباني العظيمة، ووصف الأهرام بالأوتاد في غاية الدقة.

﴿الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد﴾

إن جميع هؤلاء: قوم عاد وثمود وفرعون، قد طغوا وبغوا، وأفسدوا أشد الفساد.

﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾

فأنزل الله تعالى عليهم الوانا من البلاء والعذاب الشديد، وأهلكهم وأبادهم.

﴿إن ربك لبالمرصاد﴾

إنه ليرقب عمل الناس، ويحصيه عليهم ويجازيهم به.

وبعد أن بين سبحانه أنه لا يفوته شيء من شأن عباده، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم – ذكر هنا طبيعة الإنسان الذي يبطر عند الرخاء ويقنط من رحمة ربه عند الضراء فقال:

﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأمآ إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾ .

فأما الانسان اذا ما اختبره ربه فأنعم عليه ووسع له في الرزق والجاه، فيقول مغترا بذلك: ربي فضلني لأني أستحق هذا كله.
وأما إذا ما اختبره بضيق الرزق فيقول غافلا عن **الحكمة في ذلك**: لقد أهانني ربي.

قراءات:

قرأ عاصم: والوتر بفتح الواو، والباقون بكسرها. وقرأ ابن عامر فقدر بفتح الدال بالتشديد. والباقون بدون تشديد.." (١)

"برهان الإيمان، ولهذا اتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وقال أبو بكر رضي الله عنه: " لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ".

فقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ [التوبة: ١٠٣] هذا الأمر موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، ومن قام مقامه أن يأخذ من أموال المسلمين صدقة، وهي الزكاة، وهذا شامل لجميع الأموال المتمولة من أنعام وحروث ونقود وعروض، كما صرح به في الآية الأخرى: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ [البقرة: ٢٦٧] من النقود والعروض والماشية المنماة، ﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾ [البقرة: ٢٦٧] من الحبوب والثمار.

وقد وضح النبي صلى الله عليه وسلم النصب في هذه الأنواع كلها، وبين مقدار الواجب منها، وأنها عشر الخارج من الأرض مما يسقى بلا مؤنة، ونصف عشره فيما سقي بمؤنة، وربع العشر من أموال التجارة، وذلك إذا حال الحول في أموال التجارة، وحصل الحصاد والجذاذ وقت حصول الثمار، كما هو صريح الآية المذكورة.

وأمر تعالى بإخراج الوسط، فلا يظلم رب المال فيؤخذ العالي من ماله - إلا أن يختار هو ذلك - ولا يحل له أن يتيمم الخبيث - وهو الرديء من ماله - فيخرجه، ولا تبرأ بذلك ذمته إن كانت فرضا، ولا يتم له الأجر والثواب إن كانت نفلا؛ وبين تعالى **الحكمة في ذلك**، وأنها حكمة معقولة: فكما أنكم لا ترضون ممن عليه حق لكم أن يعطيكم الرديء من ماله الذي هو دون حقكم إلا أن تقبلوه على وجه الكراهة والإغماض، فكيف ترضون لربكم ولإخوانكم ما لا ترضونه لأنفسكم؟ فليس هذا من الإنصاف والعدل.

وبين تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحها العظيمة، فقال: ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣] فهذه كلمة جامعة، يدخل فيها من المنافع للمعطي والمعطى." (٢)

"يشمل من يتبعهم، والولدان على الأول جمع وليد ووليدة بمعنى ولد، وقيل: إنه جمع ولد كورل وورلان وأما على كونه بمعنى العبيد، والإماء فجمع وليد ووليدة بمعنى عبد وجارية على التغليب لأنه ورد بهذا المعنى في اللغة وان كانت الوليدة غلبت على الجارية. فقوله: وهو جمع وليد كان الظاهر أن يقول ووليدة كما في الكشاف فكأنه اعتبر التغليب في المفرد فتأمل. قوله: (فاستجاب الله دعاءهم الخ) إشارة إلى دفع ما يقال إن الدعاء إن كان بمجموع الأمرين لم يستجب وان كان بأحدهما لا على التعيين فالظاهر العطف بأو بأنه على التوزيع فلذا عطف بالواو أو هو لمجموعهما، والمقصود منه الخلاص وقد حصل وعتاب بالتشديد ابن أسيد بفتح الهمزة، وكسر السين وكان حين ولاه على مكة ابن ثماني عشرة سنة، وكان

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/٤٣٢

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن عبد الرحمن السعدي ١/٧٦

رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى أسيدا في الجنة، وهو مات كافرا فانتبه وقال: " أولتة بابنه عتاب " فشهد له بالجنة وكأن الحكمة في ذلك مع وجود كبار الصحابة إظهار عزة الدين وغلبته حتى لا يخشى من أحد فيليها من المؤمنين الكبير والصغير، وفي الانتصاف في الآية نكتة حسنة، وهي أن كل قرية ذكرت في القرآن نسب إليها ما لأهلها مجازا كقوله: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت﴾ [سورة النحل، الآية: ١١٢] الآية وفي هذه عدل إلى الإسناد

الحقيقي لأهلها لأن المراد مكة فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفا لها به شرفها الله. قوله:) فيما يصلون به إلى الله (وفي ظرفية أو بمعنى اللام، وسبيل الطاغوت الكفر والمراد بأولياء الشيطان الكفرة المجاهرون، والمراد بالذين كفروا قبله هم المنافقون، وكذا الفريقين فيقوله مقصد الفريقين المؤمنون، والمنافقون كما قيل ولا يؤبه بالمجهول بمعنى لا يبالي به كيعبأ، وأضعف شيء هو الشيطان، والتفضيل في الضعف مأخوذ من كان المفيدة للاستمرار لأن استمرار الضعف لزيادته، ولو كان قليلا لانقطع، وقيل: إنه من صيغة ضعيفا، وفيه نظر لأنها لا تفيد المبالغة، والذين قيل لهم كفوا عن القتال مع الكفار هم المؤمنون الذين كانوا بمكة لأنهم أمروا به ما داموا بمكة، وكانوا يتمنون أن يؤذن لهم فيه فنزلت، ولذا فسر أبو منصور، والزمخشري الخشية بأنها ما ركز في طبع الإنسان من كراهة ما فيه خوف هلاكه لا أنها كراهة لأمر الله وحكمه اعتقادا. قوله: (وإذا للمفاجأة الخ) وهي ظرف مكان كما تقرر في النحو وقيل ظرف زمان، وجوز فيها أن تكون خبرا لمبتدأ هنا فيخشون صفة أيضا. قوله: (من إضافة المصدر إلى المفعول الخ) قال النحرير ليس المصدر من المبني للمفعول بحيث تكون الإضافة إلى ما هو قائم مقام الفاعل كقوله تعالى: ﴿وهم من بعد غلبهم﴾ [سورة الروم، الآية: ٣] أي مغلوبيتهم وذلك لأنه حينئذ لا يكون لإضافة الأهل إليهم كبير معنى بمنزلة قولك مثل أهل مخوفية الله بل المعنى مثل أهل الخائفية من الله وهم الخائفون فليتنبه للفرق بين المصدر المبني للمفعول، والمضاف إلى المفعول وقوله وقع موقع المصدر أي خشية كخشية الله أو هو حال من فاعل يخشون ويقدر مضاف أي حال كونهم مثل أهل خشية الله أي مشبهين بأهل خشيته، وقيل إنها حال من ضمير مصدر محذوف أي يخشونها الناس كخشية الله وقوله منه أي من الله وإنما ذكر لأنه لو لم يذكر احتمل كونه بسبب معنى آخر فلا يقال لا حاجة له. توله: (وإن جعلته مصدراً فلا الخ) أي التمييز في المعنى، والمجرور بمن التفضيلية يكون مانعا من الموصوف بأفعل التفضيل فالمعنى على تقدير الحالية أنهم أشد خشية من غيرهم بمعنى أن خشيتهم أشد من خشية غيرهيم، وهو مستقيم، وعلى تقدير المصدرية المعنى أن خشيتهم أشد خشية من خشية غيره بمعنى أن خشية خشيتهم أشذ ولا يستقيم إلا على طريقة جد جده على ما ذهب إليه أبو علي وابن جني ويكون كقولك زيد أجد جدا بخلاف ما إذا قلت أو أشذ خثية بالجر، فإن معناه تفضيل خشيتهم على سائر الخشيات إذا فصلت واحدة واحدة، وذكر ابن

الحاجب رحمه الله أنه يجوز أن يكون من عطف الجمل أي يخشون الناس كخشية الله أو يخشون الناس أشد خشية على أن الأول مصدر، والثاني حال وقيل عليه إن حذف المضاف أهون من حذف الجملة، وأو في بمقتضى المقابلة، وحسن المطابقة

واعترض أيضا بأن التمييز بعد اسم التفضيل قد يكون نفس ما انتصب عنه لا متعلقا به كقوله: ﴿فالله خير حافظا﴾." (١)

"الحية أفعو لكن هذه تكون في الوقف وهذه في الوصل، أما إجراء له مجرى الوقف وأما لأنها لا تختص به كما نقل عن سيبويه، والثاني: ما أشار إليه بقوله أو على أن الواو الخ يعني أن الواو ليست ضميرا بل حرف أتى به علامة للجمع وليست فاعلا بل الفاعل كل أناس وحينئذ ليس حذف النون شاذا على حد قوله:

أبيت أسري وتبيتي تدلكي وجهك بالعنبر والمسك الذكي ..

لقلة المبالاة بها كما سيأتي ولا يجوز أن يقال إنه للضرورة لوقوعه في هذه القراءة وفي الحديث لا تؤمنوا حتى تحابوا فكيف يقال إنه من ضرورة الشعر فتأمل، ولا وجه لما أورد على

هذا من أنه إما أن يقول إنها بدل من الألف فيرجع لما قبله أو زائدة فيلزم حذت لام الفعل من غير سبب لاختيار الثاني وأنها حذفت لسبب وهو التقاء الساكنين الواو التي هي لام حذفت ضمتها للاستثقال والواو التي هي علامة الجمع، وقوله أو ضميره فهي فاعلة وكل بدل كل منه بخلافه على الأول. قوله: (والنون محذوفة لقلة المبالاة بها (ظاهره أنه جار على الوجهين وأن النون لما كانت علامة إعراب عوملت معاملة حركته في إظهارها تارة وتقديرها أخرى وخالف الزمخشري في جعل هذا توجيها له على كونها علامة إعراب لأن النون إنما تلزم وتكون علامة إعراب بعد ضمير الجمع لا بعد علامته فإنه لا يجب فيه ذلك ورفعه حينئذ بحركات مقدرة كما في يدعي المفرد لأنه مفرد مثله، وأما على الوجه الثاني: فحذفها مخصوص بالضرورة فلا تقل المبالاة بها هنا وقد رده صاحب التقريب بأنها علامة رفع فيهما من غير فرق بينهما وهو الحق ومن قال إن قوله والنون محذوفة الخ على أن تكون الواو ضميرا، وإلا فعلى كونها علامة جمع لا يقال النون محذوفة إذ الكلمة مفردة ألحقت بها علامة الجمع والرفع تقديري فهو مقدر كما في يدعي والنون غير مقدرة إذ لا موجب للحذف هنا كما في البيت السابق الذي حذفت فيه النون ضرورة فقد خبط خبطا عجيبا، ومن أمثلة كونها علامة يتعاقبون فيكم ملائكة ورفعه بالنون بلا خلاف ومنه تعلم أن الإعراب بالحروف يكون ملفوظا ومقدرا، فلا حاجة إلى تصويره بمسلميئ الجمع المضاف للياء. قوله: (من نبتي الخ (يعني المراد كل متبع عاقلا أو لا، وعلى الوجه الآخر المراد به كتاب الأعمال فقط، وقوله التي قدموها صفة أعمالهم توجيه لإطلاق الإمام عليه، وقوله تنقطع علقة الأنساب الخ يعني على هذا التفسير وما قبله لأنه لا يدعي بابن فلان وإنما ينادي يا صاحب هذا الكتاب الفلاني أو الدين الفلاني أو أتباع فلان. قوله: (بالقوي (كالعصب والعصبية فيقال: يا أصحاب العصبية والجاهلية ولأتباعهم لها جعلت إماما ولا يخفى بعده ولذا مرضه. قوله: (وقيل بأمهاتهم جمع أم الخ (ضعفه لأن المعروف في جمع أم أمهات ولما في تعليله من الدخل مع ما فيه كما ستراه، وقوله: **والحكمة في ذلك** أي في النداء بالأمهات نحو يا ابن فلانة أما تعظيم المسيح صلى الله عليه وسلم للإشارة بأنه لا أب له وأنه روح الله ولو نودي الناس بآبائهم ونودي بأمه لربما يشعر ذلك بنقص وكذا تعظيم الحسن والحسين رضي

الله عنهما ببيان نسبهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو نسبا إلى أبيهما لم يفهم هذا لا لأن أنهما رضي الله عنها

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ١٥٥/٣

أفضل من علي رضي الله عنه أو سترا على خلقه حتى لا يفتضح أولاد الزنا فإنه لو نودي الناس بآبائهم ونودوا هم بأمهاتهم علم أنهم لا نسبة لهم إلى آباء يدعون بهم وفيه تشهير لهم ولو نودوا بآباء لم يعرفوا بهم في الدنيا ولم ينسبوا لهم شرعا كان كذلك، فما قيل إن رعاية حق عيسى عليه الصلاة والسلام في امتيازه بالدعاء بالأم كرامة له عليه الصلاة والسلام لا غض فيه ليجبر بجعل الناس أسوة له في الانتساب إلى الأمهات وإظهار شرت السبطين رضي الله عنهما بدون ذلك أتم، فإن أباهما خير من أمهما رضي الله عنهما مع أن أهل العباء كالحلقة المفرغة، وأما أولاد الزنا فلا فضيحة إلا لأنهاتهم وهي حاصلة دير غيرهم أو لم يدع مع أنهم لا ذنب لهم يترتب عليه الافتضاح ظاهر السقوط بما قررناه، وقوله: كالحلقة المفرغة جواب تسليمي، أي عليئ رضي الله عنه لكونه أحد الخلفاء الأربعة الذين ظاهر كلام أهل السنة أنهم أفضل من غيرهم من الصحابة مطلقا أفضل ولو سلم فلكل منهما أفضلية وشرف من جهة، ككون فاطمة رضي الله عنها بضعة من." (١)

"الفصل الأول: حمد الله ذاته الكريمة في فاتحة الكتاب

المبحث الأول: في وجه الحكمة بافتتاح الفاتحة بحمد الله ذاته الكريمة

...

الفصل الأول:

حمد الله ذاته الكريمة في فاتحة الكتاب

قال الله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ (١) .

المبحث الأول:

في وجه الحكمة بافتتاح الفاتحة بحمد الله ذاته الكريمة

مما يدل على عظم مقام الحمد عند الله ـ تعالى ـ أن افتتح به كتابه الكريم وصدر آياته به.

هذا وقد اجتهد أهل التفسير في بيان أوجه **الحكمة في ذلك**، منها: أن نعمة تنزيل القرآن الكريم هي أعظم النعم الدالة على جلائل صفاته تعالى وكمالها؛ خاصة وأنه قد اشتمل القرآن الكريم على كمال المعنى واللفظ والغاية؛ فكان افتتاحه أولى المواطن بثناء الله تبارك وتعالى على ذاته.

وهو في ذات الوقت أمر لعباده بحمده وتذكير لهم بعظمة وجمال صفات منزله ـ سبحانه ـ وجزيل نعمته عليهم بإنزال كتابه عليهم وحفظه وتوفيقهم لتلاوته وسماعه وفهمه؛ وإذ فيه سعادتهم في الدارين (٢) .

ومنها ـ كذلك ـ أنه لما كانت سورة الفاتحة منزلة من القرآن منزلة الديباجة من الكتاب، أو المقدمة للخطبة، جعل افتتاحها بالحمد لله؛ وليكون سنة ماضية من بعد في افتتاح كل كلام مهم وعظيم، يقول ابن عاشور (٣) (رحمه الله تعالى) في

---

(١) سورة الفاتحة: الآية (١) أو (٢) على الخلاف المشهور هل البسملة آية من الفاتحة أم لا؟

(٢) انظر: تفسير الطبري ج١ ص ٤٦؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص ١٥٨.

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٤٩/٦

(٣) هو محمد الطاهر بن عاشور (١٢٩٧-١٣٩٣؟) : رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها. عين عام (١٩٣٢م) شيخا للإسلام مالكيا، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة من أشهرها: مقاصد الشريعة — التحرير والتنوير في التفسير — أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

(انظر: الأعلام للزركلي ج٦ ص ١٧٤) .." (١)

"المبحث الثاني:

في وجه الحكمة في إسناد الحمد إلى اسم الذات الإلهية

وما جاء بعده من أوصاف.

الذي يلحظه المتأمل أن الحمد أسند أول ما أسند إلى اسم الذات الإلهية (الله) ؛ وهذا هو شأن الحمد في جميع مواضع ذكره في القرآن الكريم، **والحكمة في ذلك** . والله أعلم بمراده . التنبيه على استحقاقه تعالى للحمد أولا لذاته لا لشيء غيرها، باعتبار أنها حائزة لجميع الكمالات الإلهية؛ وأنها مصدر جميع الوجود وما فيه من الخيرات والنعم (١) .

ومن بعد إسناد الحمد لاسم ذاته تنبيها على الاستحقاق الذاتي أتبعه . سبحانه . بأربعة أوصاف له تعالى؛ ليؤذن باستحقاقه الوصفي للحمد . أيضا . كما استحقه بذاته؛ وذلك باعتبار تعلقها وآثارها (٢) .

وهذه الأوصاف أولها (رب العالمين) وقد تكرر هذا الوصف لله تعالى في القرآن الكريم بشأن استحقاق الحمد في سبعة مواضع (٣) ، ولا ريب أن هذا يدل على

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ج ٣ ص ١٠٤؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ج١ ص ١٤؛ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج١ ص ٥٠؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص ١٦٦.

(٢) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج١ ص٥٠؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص ١٦٦.

(٣) في سورة الفاتحة، وسورة يونس الآية (١٠) في قوله ﴿..وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ ، وفي سورة الصافات الآية (١٨٢) في قوله تعالى ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ ، وفي سورة الزمر الآية (٧٥) بقوله ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ ، وبسورة غافر الآية (٦٥) في قوله ﴿فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين﴾ ، وفي سورة الجاثية الآية (٣٦) بقوله ﴿فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾ .." (٢)

"سورة البقرة

مدنية وآياتها مائتان وسبع وثمانون ان قلت أي سورة أطول وآيها اقصر وأي آية أطول وآيها اقصر قلت قال اهل التفسير أطول سورة في القرآن البقرة وأقصرها الكوثر وأطول آية آية الدين وأقصرها آية والضحى والفجر وأطول كلمة فيه كلمة فأسقيناكموه فان قلت ما الحكمة فى ان سورة البقرة أعظم السور ما عدا الفاتحة الجواب لانها فصلت فيها الاحكام وضربت

---

(١) حمد الله ذاته الكريمه في آيات كتابه الحكيمة عماد بن زهير حافظ ص/١٩

(٢) حمد الله ذاته الكريمه في آيات كتابه الحكيمة عماد بن زهير حافظ ص/٢٣

الأمثال وأقيمت الحجج إذ لم تشتمل سورة على ما اشتملت عليه ولذلك سميت فسطاط القرآن قال ابن العربي في احكام القرآن سمعت بعض أشياخي يقول فيها الف امر والف نهى والف حكم والف خبر ولعظم فقهها اقام ابن عمر رضى الله عنهما ثمانى سنين على تعلمها كذا في اسئلة الحكم قال الامام في التفسير الكبير اعلم انه مر على لسانى في بعض الأوقات ان هذه السورة الكريمة يمكن ان يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من اهل الجهل والغى والعناد وحملوا ذلك على ما الفوه من أنفسهم من التصلفات الفارغة عن المعاني والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمبانى فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على ان ما ذكرنا امر ممكن الحصول قريب الوصول انتهى وانما سورت السور طوالا واوساطا وقصارا تنبيها على ان الطول ليس من شرط الاعجاز فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة اعجاز سورة البقرة ثم ظهرت لذلك التسوير حكمة في التعليم وتدريج الأطفال من السور القصار الى ما فوقها تيسيرا من الله تعالى على عباده وفي ذلك ايضا ترغيب وتوسيع في الفضيلة في الصلاة وغيرها كسورة الإخلاص من القصار تعدل ثلث القرآن فمن فهم ذلك فاز بسر التسوير فان قلت ما الحكمة في تعدد مواطن نزول القرآن وتكرر مشاهده مكيا مدنيا ليليا نهاريا سفريا حضريا صيفيا شتائيا نوميا برزخيا يعنى بين الليل والنهار ارضيا سماويا غاريا ما نزل في الغار يعنى تحت الأرض برزخيا ما نزل بين مكة والمدينة عرشيا معراجيا ما نزل ليلة المعراج آخر سورة البقرة الجواب **الحكمة في ذلك** تشريف مواطن الكون كلها بنزول الوحى الإلهي فيها وحضور الحضرة المحمدية عندها كما قيل سر المعراج والاسراء به وسير المصطفى في مواطن الكون كلها كأن الكون والعرش والجنان يسأل كل موطن بلسان الحال ان يشرفه الله تعالى بقدوم قدم حبيبه وتكتحل أعين الأعيان والكبار بغبار نعال قدم سيد السادات ومفخر موجودات الولاة ما شم الكون رايحة الوجود وما بدا من حضرة الكمون لمعة الشهود كما ورد بلسان القدس (لولاك لولاك لما خلقت الافلاك) بسم الله الرحمن الرحيم الم ان قلت ما الحكمة في ابتداء البقرة بالم والفاتحة بالحرف الظاهر المحكم الجواب قال السيوطي رحمه الله في الإتقان أقول فى مناسبة ابتداء البقرة بالم انه لما ابتدئت الفاتحة بالحرف المحكم الظاهر لكل أحد بحيث لا يعذر في فهمه ابتدئت البقرة بمقابله وهو الحرف المتشابه البعيد التأويل ليعلم مراتبه للعقلاء والحكماء ليعجزهم بذلك ليعتبروا ويدبروا آياته." (١)

"فيه معجزة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان بنوا إسرائيل ينظر بعضهم الى سوءة بعض وكان موسى يغتسل وحده فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فجمع موسى باثره يقول ثوبى يا حجر حتى نظرت بنوا إسرائيل الى سوءة موسى فقالوا والله ما بموسى ادرة) وهي بالضم نفخة بالخصية واما للجنس اى اضرب الشيء الذي يقال له الحجر وهو الأظهر في الحجة اى أبين على القدرة فان إخراج الماء بضرب العصا من جنس الحجر أي حجر كان ادل على ثبوت نبوة موسى عليه السلام من إخراجه من حجر معهود معين لاحتمال ان يذهب الوهم الى تلك الخاصية في ذلك الحجر المعين كخاصية جذب الحديد في حجر المغناطيس فانفجرت اى فضرب فالفاء متعلقة بمحذوف والانفجار الانسكاب والانبجاس الترشح والرش فالرش أول ثم الانسكاب منه اى من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا ماء عذبا على عدد الأسباط لكل سبط

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ٢٧/١

عين وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر ويضربه إذا ارتحل فييبس قد علم كل أناس اى كل سبط من الأسباط الاثني عشر مشربهم اى عينهم الخاصة بهم او موضع شربهم لا يدخل سبط على غيره في شربه والمشرب المصدر والمكان **والحكمة في ذلك** ان الأسباط كانت بينهم عصبية ومباهاة وكل سبط منهم لا يتزوج من سبط آخر وكل سبط أراد تكثير نفسه فجعل الله لكل سبط منهم نهرا على حدة ليستقوا منها ويسقوا دوابهم لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة وكان ينبع من كل وجه من الحجر ثلاث أعين تسيل كل عين في جدول الى سبط وكانوا ستمائة الف وسعة المعسكر اثنى عشر ميلاثم ان الله تعالى قد كان قادرا على تفجير الماء وفلق البحر من غير ضرب لكن أراد ان يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم الى المراد وليترتب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه فانه لما أمكن ان يكون من الأحجار ما يحلق الشعر ويمقر الخل ويجذب الحديد لم يمتنع ان يخلق الله حجرا يسخره لجذب الماء من تحت الأرض او لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك قال القرطبي في تفسيره ما ورد من انفجار الماء ونبعه من يد نبينا صلى الله عليه وسلم وبين أصابعه أعظم في المعجزة فانا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار آناء الليل وأطراف النهار ومعجزة نبينا عليه السلام لم تكن لنبى قبل إذ لم يخرج الماء من لحم ودم كلوا على ارادة القول اى قلنا لهم او قيل لهم كلوا واشربوا من رزق الله هو ما رزقهم من المن والسلوى والماء فالاكل يتعلق بالأولين والشرب بالثالث وانما لم يقل من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى فقلنا إيذانا بان الأمر بالأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام ولا تعثوا في الأرض العثى أشد الفساد فقيل لهم لا تتمادوا في الفساد حال كونهم مفسدين فالمراد بهذه الحال تعريفهم بانهم على الفساد لا تقييد العامل والا لكان مفهومه مفيدا معنى تمادوا في الفساد حال كونهم مصلحين وهذا غير جائز او الأصل في العثى مطلق التعدي وان غلب في الفساد فيكون التقييد بالحال تقييدا للعامل بالخاص ودلت الآية على فضيلة امة محمد صلى الله عليه وسلم فان بنى إسرائيل احتاجوا الى الماء فرجعوا الى موسى ليسأل." (١)

"والصديق بأن الصادق كالمخلص بالكسر من تخلص من شوآئب الصفات النفسانية مطلقا والصديق كالمخلص بالفتح من تخلص ايضا عن شوآئب الغيريه والثاني أوسع فلكا واكثر احاطة فكل صديق ومخلص بالفتح صادق ومخلص بالكسر من غير عكس قال أبو على الجرجاني قدس سرة قلوب الأبرار متعلقة بالكون مقبلين ومدبرين وقلوب الصديقين معلقة بالعرش مقبلين بالله لله لهم أجرهم ونورهم مبتدأ وخبر والجملة خبر ثان للموصول والضمير الاول على الوجه الاول للموصول والأخيران للصديقين والشهداء ولا بأس بالفك عند الامن اى لهم مثل أجرهم ونورهم المعروفين بغاية الكمال وعزة المنال وقد حذف اداة التشبيه تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد كما فعل ذلك حيث قيل هم الصديقون والشهداء وليست المماثلة بين ما للفريق الاول من الأجر والنور وبين تمام ما للأخيرين من الأصل بدون الأضعاف ليحصل التفاوت واما على الوجه الثاني فمرجع الكل واحد

والمعنى لهم الأجر والنور الموعود ان لهم قال بعض الكبار لا يكون الأجر الا مكتسبا فان اعطاك الحق تعالى ما هو خارج

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ١٤٧/١

عن الكسب فهو نور وهبات ولا يقال له أجر ولهذا قال تعالى لهم أجرهم ونورهم فان أجرهم ما اكتسبوه ونورهم ما وهبه الحق لهم من ذلك حتى لا ينفرد الأجر من غير أن يختلط به الوهب لان الأجر فيه شائبة الاستحقاق إذ هو معاوضة عن عمل متقدم يضاف الى العبد فماتم أجر الا ويخالطه نور وذلك لتكون المنة الالهية مصاحبة للعبد حيث كان فان تسمية العبد أجيرا مشعر بأن له نسبة في الطاعات والأعمال الصادرة عنه فتكون الاجارة من تلك النسبة ولذلك طلب العبد العون على خدمة سيده فان قلت من اى جهة قبل العبد الاجرة والبعد واجب عليه الخدمة لسيده من غير أن يأخذ اجرة وان جعلناه أجنبيا فمن اى جهة تعين الفرض عليه ابتداء قبل الاجرة والأجير لا يفترض عليه إلا حين يؤجر نفسه قلت الإنسان مع الحق تعالى على حالتين حالة عبودية وحالة اجارة فمن كونه عبدا فهو مكلف بالفرض كالصلاة والزكاة وجميع الفرائض ولا أجر له على ذلك جملة واحدة ومن كونه أجيرا له الاجرة بحكم الوعد الإلهي ولكن ذلك مخصوص بالأعمال المندوبة لا المفروضة فعلى تلك الأعمال التي ندب الحق إليها فرضت الأجور فان تقرب العبد بها الى سيده أعطاه إجارته وان لم يتقرب لم يطلب بها ولا عوتب عليها ومن هنا كان العبد حكمه حكم الأجنبي في الاجارة للفرض الذي يقابله الجزاء إذ هو العهد الذي بين الله وبين عباده واما النوافل فلها الأجور المنتجة للمحبة الالهية كما قال لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه **والحكمة في ذلك** ان المتنفل عبد اختياري كالأجير فاذا اختار الإنسان أن يكون عبد الله لا عبد هواه فقد آثر الله على هواه وهو في الفرائض عبد اضطرار لا عبد اختيار وبين عبودية الاضطرار وعبودية الاختيار ما بين الأجير والعبد المملوك إذ العبد الأصلي ماله على سيده استحقاقا الا ما لا بد منه من مأكل وملبس ثم يقوم بواجبات مقام سيده ولا يزال في دار سيده لا يبرح ليلا ولانهارا الا إذا وجهه في شغل آخر فهو في الدنيا مع الله وفي القيامة مع الله وفي الجنة مع الله لانها جميعا ملك لسيده فيتصرف فيها." (١)

"وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: «ونكفر» بالنون وجزم الراء. قال أبو علي: وهذا على حمل الكلام على موضع قوله: فهو خير لكم لأن قوله: فهو خير لكم في موضع جزم، ألا ترى أنه لو قال: وإن تخفوها يكن أعظم لأجركم لجزم، ومثله: لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن «١» ، حمل قوله و «أكن» على موضع «فأصدق» . وقرأ ابن عامر: «ويكفر» بالياء والرفع، وكذلك حفص عن عاصم على الكناية عن الله عز وجل، وقرأ أبان عن عاصم، «وتكفر» بالتاء المرفوعة، وفتح الفاء مع إسكان الراء. قوله تعالى: من سيئاتكم، في «من» قولان: أحدهما: أنها زائدة. والثاني: أنها داخلة للتبعيض. قال أبو سليمان الدمشقي: ووجه **الحكمة في ذلك** أن يكون العباد على خوف ووجل.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٢]

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (٢٧٢)

قوله تعالى: ليس عليك هداهم في سبب نزولها قولان:

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ٣٦٨/٩

(١٤٢) أحدهما: أن المسلمين كرهوا أن يتصدقوا على أقربائهم من المشركين، فنزلت هذه الآية، هذا قول الجمهور.

والثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم» ، فنزلت هذه الآية، قاله سعيد بن جبير. والخير في الآية، أريد به المال، قاله ابن عباس، ومقاتل. ومعنى: فلأنفسكم، أي: فلكم ثوابه. قوله تعالى: وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، قال الزجاج: هذا خاص للمؤمنين، أعلمهم الله أنه قد علم أن مرادهم ما عنده، وإذا أعلمهم بصحة قصدهم، فقد أعلمهم بالجزاء عليه.

قوله تعالى: يوف إليكم، أي: توفون أجره. ومعنى الآية: ليس عليك أن يهتدوا، فتمنعهم الصدقة ليدخلوا في الإسلام، فان تصدقتم عليهم أثبتم. والآية محمولة على صدقة التطوع، إذ لا يجوز أن يعطى الكافر من الصدقة المفروضة شيئا.

[سورة البقرة (٢) : آية ٢٧٣]

للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم (٢٧٣)

(١٤٢) أخرجه الواحدي في «الأسباب» ١٧٤ عن ابن الحنفية به، وفي الإسناد سلمان المكي، لم أجد له ترجمة.

– ولمعناه شواهد منها عن ابن عباس: أخرجه الطبري ٦٢٠٠ وكرره ٦٢٠٣ من وجه آخر، وإسناده حسن.

وفي الباب مراسيل كثيرة، فالخبر قوي بشواهده.

ضعيف. أخرجه الواحدي في «الأسباب» ١٧٣ وابن أبي شيبة كما في «الدر» ١/ ٦٣١ عن سعيد بن جبير مرسلا، فهو ضعيف لإرساله.

---

(١) المنافقون: ١٠.." (١)

"(١١٩٨) سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: لمستقر لها قال: «مستقرها تحت العرش» .

وقال: «إنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها، فتستأذن في الطلوع، فيؤذن لها» .

والثاني: أن مستقرها مغربها لا تجاوزه ولا تقصر عنه، قاله مجاهد. والثالث: لوقت واحد لا تعدوه، قاله قتاده. وقال مقاتل: لوقت لها إلى يوم القيامة. والرابع: تسير في منازلها حتى تنتهي إلى مستقرها الذي لا تجاوزه، ثم ترجع إلى أول منازلها، قاله ابن السائب. وقال ابن قتيبة: إلى مستقر لها، ومستقرها: أقصى منازلها في الغروب، وذلك لأنها لا تزال تتقدم إلى أقصى مغاربها ثم ترجع. وقرأ ابن مسعود وعكرمة وعلي بن الحسين والشيزري عن الكسائي «لا مستقر لها» والمعنى أنها تجري أبدا لا تثبت في مكان واحد. قوله تعالى: ذلك الذي ذكر من أمر الليل والنهار والشمس والقمر تقدير العزيز في ملكه العليم بما يقدر.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢٤٤/١

قوله تعالى: والقمر قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «والقمر» بالرفع. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «والقمر» بالنصب. قال الزجاج: من قرأ بالنصب، فالمعنى: وقدرنا القمر قدرناه منازل، ومن قرأ بالرفع، فالمعنى: وآية لهم القمر قدرناه، ويجوز أن يكون على الابتداء، و «قدرناه» الخبر. قال المفسرون: ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا ينزلها من أول الشهر إلى آخره، وقد سميناها في سورة يونس «١» ، فإذا صار إلى آخر منازله، دق فعاد كالعرجون، وهو عود العذق الذي تركته الشماريخ «٢» ، فإذا جف وقدم يشبه الهلال. قال ابن قتيبة: و «القديم» ها هنا: الذي قد أتى عليه حول، شبه القمر آخر ليلة يطلع به. قال الزجاج: وتقدير «عرجون» : فعلون، من الانعراج. وقرأ أبو مجلز، وأبو رجاء، والضحاك، وعاصم الجحدري، وابن السميفع: «كالعرجون» ، بكسر العين.

قوله تعالى: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر فيه ثلاثة أقوال «٣» : أحدها: أنهما إذا اجتمعا في السماء، كان أحدهما بين يدي الآخر، فلا يشتركان في المنازل، قاله ابن عباس. والثاني: لا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر، قاله مجاهد. والثالث: لا يجتمع ضوء أحدهما مع الآخر، فإذا جاء سلطان أحدهما ذهب سلطان الآخر، قاله قتادة فيكون وجه **الحكمة في ذلك** أنه لو اتصل الضوء، لم يعرف

صحيح. أخرجه البخاري ٤٨٠٣ و ٧٤٣٣ ومسلم ١٥٩ ح ٢٥١ وأحمد ٥/ ١٥٨ وابن حبان ٦١٥٢ والواحدي في «الوسيط» ٣/ ٥١٤ من طرق عن وكيع به عن أبي ذر مرفوعا.

- وأخرجه الطحاوي في «المشكل» ٢٨١ من طريق أبي معاوية عن الأعمش به.

---

(١) يونس: ٥.

(٢) في «اللسان» : الشمروخ: غصن دقيق رخص ينبت في أعلى الغصن الغليظ في سنته رخصا.

(٣) قال الطبري رحمه الله في «تفسيره» ١٠/ ٤٤٢: يقول تعالى ذكره: لا الشمس يصلح لها إدراك القمر فيذهب ضوءها بضوئه فتكون الأوقات كلها نهارا لا ليل فيها، ولا الليل سابق النهار يقول تعالى ذكره: ولا الليل بفائت النهار حتى تذهب ظلمته بضيائه فتكون الأوقات كلها ليلا اه.

وقال ابن كثير رحمه الله: يعني لكل منهما سلطانا، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل ولا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. وأنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما سخران دائبين يتطالبان طلبا حثيثا.." (١)

"[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٧١ الى ٧٥]

وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧١) قيل ادخلوا أبواب جهنم

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣/٥٢٤

خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٢) وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (٧٣) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (٧٤) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين (٧٥)

قوله تعالى: وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا قال أبو عبيدة: الزمر: جماعات في تفرقة بعضهم على إثر بعض، واحدها: زمرة. قوله تعالى: رسل منكم أي: أنفسكم. وكلمة العذاب هي قوله تعالى: لأملأن جهنم «١» . قوله تعالى: فتحت أبوابها قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «فتحت» «وفتحت» مشددتين، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: بالتخفيف. وفي هذه الواو ثلاثة أقوال: أحدها: أنها زائدة، روي عن جماعة من اللغويين منهم الفراء. والثاني: أنها واو الحال فالمعنى: جاءوها وقد فتحت أبوابها، فدخلت الواو لبيان أن الأبواب كانت مفتحة قبل مجيئهم، وحذفت من قصة أهل النار لبيان أنها كانت مغلقة قبل مجيئهم، ووجه **الحكمة في ذلك** من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أهل الجنة جاءوها وقد فتحت أبوابها ليستعجلوا السرور والفرح إذا رأوا الأبواب مفتحة، وأهل النار يأتونها وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا. والثاني: أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل، فصين أهل الجنة عنه، وجعل في حق أهل النار، ذكره لي بعض مشايخنا والثالث: أنه لو وجد أهل الجنة بابها مغلقا لأثر انتظار فتحه في كمال الكرم، ومن كمال الكرم غلق باب النار إلى حين مجيء أهلها، لأن الكريم يعجل المثوبة، ويؤخر العقوبة، وقد قال عز وجل: ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم «٢» قال المصنف: هذا وجه خطر لي. والقول الثالث: أن الواو زيدت، لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، والعرب تعطف في العدد بالواو على ما فوق السبعة على ما ذكرناه في قوله تعالى: ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم «٣» ، حكى هذا القول والذي قبله الثعلبي. واختلف العلماء أين جواب هذه الآية على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الجواب محذوف، قاله أبو عبيدة، والمبرد، والزجاج في آخرين. وفي تقدير هذا المحذوف قولان: أحدهما: أن تقديره: حتى إذا جاؤها إلى آخر الآية ... سعدوا، قاله المبرد.

والثاني: حتى إذا جاؤها إلى قوله تعالى: فادخلوها خالدين.. دخلوها، وإنما حذف، لأن في الكلام دليلا عليه، وهذا اختيار الزجاج. والقول الثاني: أن الجواب: قال لهم خزنتها، والواو زائدة، ذكره الأخفش، قال: ومثله في الشعر.

---

(١) الأعراف: ١٨.

(٢) النساء: ١٤٧.

(٣) الكهف: ٢٢.." (١)

"البلاغة: ١ - التعرض بعنوان الربوبية ﴿وإذ قال ربك﴾ مع الإضافة إلى الرسول عليه السلام للتشريف والتكريم لمقامه العظيم وتقديم الجار والمجرور ﴿للملائكة﴾ للاهتمام بما قدم، والتشويق إلى ما أخر.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤/٢٧

٢ – الأمر في قوله تعالى ﴿أنبئوني﴾ خرج عن حقيقته إلى التعجيز والتبكيت.

٣ – ﴿فلمآ أنبأهم بأسمآئهم﴾ فيه مجاز بالحذف والتقدير: فأنبأهم بها فلما أنبأهم حذف لفهم المعنى.

٤ – ﴿ثم عرضهم﴾ هو من باب التغليب لأن الميم علامة الجمع للعقلاء الذكور، ولو لم يغلب لقال ﴿ثم عرضهم﴾ أو عرضهن.

٥ – إبراز الفعل في قوله ﴿إني أعلم غيب السماوات﴾ ثم قال ﴿وأعلم ما تبدون﴾ للإهتمام بالخبر والتنبيه على إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، ويسمى هذا بالإطناب.

٦ – تضمنت آخر هذه الآية من علم البديع ما يسمى ب «الطباق» وذلك في كلمتي ﴿تبدون﴾ و ﴿تكتمون﴾ .

الفوائد: الأولى: قال بعض العلماء: في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض، تعليم لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها.

الثانية: الحكمة من جعل آدم عليه السلام خليفة هي الرحمة بالعباد – لا لافتقار الله – وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة، ولا بواسطة ملك، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر.

الثالثة: قال الحافظ ابن كثير: وقول الملائكة ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ الآية ليس هذا على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عين **الحكمة في ذلك**، يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض؟ وقال في التسهيل: وإنما علمت الملائكة أن بني آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك، وقيل: كان في الأرض جن فأفسدوا، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم، فقاس الملائكة بني آدم عليهم.

الرابعة: سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده؟ قال: ثم قرأت قوله تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أوليآء من دوني﴾ [الكهف: ٥٠] فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة، فقلت: نعم.." (١)

"منهم أجسادا، وأكثر أموالا وأولادا ﴿وأثاروا الأرض وعمروهآ أكثر مما عمروها﴾ أي وحرثوا الأرض للزراعة، وحفروها لاستخراج المعادن، وعمروها بالأبنية المشيدة، والصناعات الفريدة أكثر مما عمرها هؤلاء قال البيضاوي: وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالا فيها، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة، وهم ضعفاء ملجئون إلى دار لا نفع فيها ﴿وجآءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما كان الله ليهلكهم بغير جرم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواءى﴾ أي ثم كان عاقبة المجرمين العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستهزءوا بها ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي الله جل وعلا بقدرته ينشئ خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويحشر الناس للحساب يسكت المجرمون

---

(١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ٤٢/١

وتنقطع حجتهم، فلا يستطيعون أن ينسبوا ببنت شفة قال ابن عباس: ﴿يبلس المجرمون﴾ ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون قال القرطبي: والمعروف في اللغة: أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته ﴿ولم يكن لهم من شركآئهم شفعاء﴾ أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وكانوا بشركآئهم كافرين﴾ أي تبرءوا منها وتبرأت منهم ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف لأن قيام الساعة أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذ يتفرق المؤمنون والكافرون، ويصبحون فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذا قال ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ أي فهم في رياض الجنة يسرون وينعمون ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقآء الآخرة﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ أي فأوؤئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ أي سبحوا الله ونزهوه عما لا يليق به من صفات النقص، حين تدخلون في المساء، وحين تدخلون في الصباح ﴿وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون﴾ أي وهو جل وعلا المحمود في السماوات والأرض قال ابن عباس: يحمده أهل السماوات وأهل الأرض ويصلون له، قال المفسرون: ﴿وله الحمد في السماوات والأرض﴾ جملة اعتراضية وأصل الكلام: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وحين تظهرون﴾ **والحكمة في ذلك** الإشارة إلى أن التوفيق للعبادة نعمة ينبغي أن يحمد عليها، والعشي: من صلاة المغرب إلى العتمة، ﴿تظهرون﴾ أي تدخلون وقت الظهر ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ أي يخرج المؤمن من الكافر، والكافرون من المؤمن، والنبات من." (١)

"- ٣٠ - وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - [٤٩]- ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم بقوله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ أي واذكر يا محمد إذا قال ربك للملآئكة واقصص على قومك ذلك، ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، وقال: ﴿ويجعلكم خلفآء الأرض﴾، وقال: ﴿ولو نشآء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء﴾، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من ﴿صلصال من حمإ مسنون﴾ أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم (قاله القرطبي).

أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

---

(١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ٢/٤٣٥

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقا وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾؟ الآية. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن **الحكمة في ذلك**، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهل وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون، والعباد والزهاد، والأولياء والأبرار، والمقربون، والعلماء العاملون، والخاشعون والمحبون له تبارك وتتعالى، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، فقال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أي من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ طلبا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى ذلك: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة والله أعلم.

(ذكر أقوال المفسرين)

قال السدي في تفسيره: أن الله تعالى قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: ربنا وما يكون ذاك -[٥٠]- الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويقتل بعضهم بعضا: قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرنا قال: والخليفة الفعلية من قوله: خلف فلان فلانا في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾. ومن ذلك قبل للسلطان الأعظم خليفة، لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلفا.

قال ابن جرير عن ابن عباس: إن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضا قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾. وقال الحسن: إن الجن كانوا في الأرض يفسدون ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم (الضمير في (قلوبهم) يعود على الملائكة لا على الجن فتنبه) أن ذلك سيكون، فقالوا بالقول الذي علمهم. وقال قتادة في قوله ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾: كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمآء﴾؟.

قال ابن جرير: وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك

يا رب وأنت خالقهم؟ فأجابهم ربهم ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، يعني أن ذلك كائن منهم، وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض ما ترونه لي طائعا، قال، وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكأنهم قالوا: يا رب خبرنا – مسألة استخبار منهم لا على وجه الإنكار – واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، قال قتادة: التسبيح والتقديس الصلاة، وقال السدي عن ابن عباس ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾: نصلي لك. وقال مجاهد ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، قال نعظمك ونكبرك. وقال ابن جرير: التقديس هو التعظيم والتطهير. ومنه قولهم: سبوح قدوس، يعني بقولهم سبوح تنزيه له، وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له، وكذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك المطهرة فمعنى قوله الملائكة إذا ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾: ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك، ﴿ونقدس لك﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل؟ قال: "ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده «(رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري) وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به سمع تسبيحا في السماوات العلا» سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى" (رواه البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط) ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة.

-[٥١]- وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليقة، ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر. أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه مشورة في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكرا، حرا، بالغا، عاقلا، مسلما، عدلا، مجتهدا، بصيرا، سليم الأعضاء، خبيرا بالحروب والآراء، قرشيا على الصحيح؛ ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافا للغلاة والروافض. ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام: "إلا أن تروا كفرا بواحا (كفرا بواحا: قال ابن الأثير: أي جهار من باح بالشيء يبوح به إذا أعلنه. النهاية في غريب الحديث) عندكم من الله فيه برهان"، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان» وهذا قول الجمهور.." (١)

"– ٣١ – وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسمآء هؤلاء إن كنتم صادقين

– ٣٢ – قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنآ إنك أنت العليم الحكيم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٤٨/١

- ٣٣ - قال يا آدم أنبئهم بأسمآئهم فلمآ أنبأهم بأسمآئهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة، حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسمآء كلها﴾ قال السدي عن ابن عباس: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا، والدواب فقيل هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس (هذه رواية السدي عن بن عباس، والثانية رواية الضحاك عنه) وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودواب، وسماء، وأرض وسهل، وبحر، وخيل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وقال مجاهد ﴿وعلم آدم الأسمآء كلها﴾: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء، وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها، ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا -[٥٢]- من مكاننا هذا (أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ورواه مسلم والنسائي وابن ماجة)» الحديث. فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال: ﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ يعني المسميات ﴿فقال أنبئوني بأسمآء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾، قال مجاهد: ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة.

وقال ابن جرير عن الحسن وقتادة قال: علمه اسم كل شيء، وجعل يسمي كل شيء باسمه وعرضت عليه أمة أمة، وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله تعالى ﴿إن كنتم صادقين﴾ إني لم أخلق خلقا إلى كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، وقال السدي ﴿إن كنتم صادقين﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنآ إنك أنت العليم الحكيم﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شآء، وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلى ما علمتنآ إنك أنت العليم الحكيم﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك **الحكمة في ذلك** والعدل التام. عن ابن عباس ﴿سبحان الله﴾ قال: تنزيه الله نفسه عن السوء.

قوله تعالى ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمآئهم فلمآ أنبأهم بأسمآئهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾: لما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي، كما قال تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ وكما قال إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان: ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما

تعلنون﴾، وعن ابن عباس ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ فكان الذي أبدوا هو قولهم: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم. فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس، وهو أن معنى قوله تعالى ﴿وأعلم ما تبدون﴾: وأعلم مع علمي غيب السماوات والأرض ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون في أنفسكم فلا يخفى علي شيء سواء عندي سرائركم وعلانيتكم. والذي أظهروه بألسنتهم قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتمونه ما كان عليه منطويا إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته، قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قتل الجيش وهزموا، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿إن الذي ينادونك من ورآء الحجرات﴾ ذكر أن الذي نادى إنما كان واحدا من بني تميم، قال وكذلك قوله: ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾.." (١)

"– ١٦٥ – أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير

– ١٦٦ – ومآ أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين

– ١٦٧ – وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون

– ١٦٨ – الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين

يقول تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم، ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يعني يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلا، وأسروا سبعين أسيرا ﴿قلتم أنى هذا﴾ أي من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾ بأخذكم الفداء (رواه ابن أبي حاتم) وهكذا قال الحسن البصري وقوله ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ثم قال تعالى: ﴿ومآ أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم، وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله **الحكمة في ذلك**، ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا، ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٥١/١

لاتبعناكم﴾ يعني بذلك أصحاب (عبد الله بن أبي ابن سلول) الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة ولهذا قال: ﴿أو ادفعوا﴾، قال ابن عباس وعكرمة: يعني كثروا سواد المسلمين، وقال الحسن: ادفعوا بالدعاء،." (١)

"- ١٦٥ - وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في مآ آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم

يقول تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف، كقوله تعالى: ﴿ولو نشآء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾، وكقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفآء الأرض﴾، وقوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، وقوله: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾، وقوله: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾، أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله **الحكمة في ذلك**، كقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾، وقوله: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾، وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم في ما آتاكم﴾ أي." (٢)

"سورة الإسراء

سورة بني إسرائيل، وتسمى سورة الإسراء، وسبحان مكية، غير قوله:

وإن كادوا ليستفزونك إلى قوله: سلطانا نصيرا فهذه الآيات الثمانية مدنيات، مائة وإحدى عشر آية، ألف وخمسمائة وتسعة وخمسون كلمة، ستة آلاف وستمائة واثنان

وأربعون حرفا

سبحان الذي أسرى بعبده أي تبرأ عن الشريك من سير عبده محمدا صلى الله عليه وسلم ليلا أي في جزء قليل من الليل من المسجد الحرام أي من حرم مكة من بيت أم هانئ بنت أبي طالب إلى المسجد الأقصى أي الأبعد من الأرض وأقرب إلى السماء وهو مسجد بيت المقدس وسمي أقصى، لأنه أبعد المساجد التي تزار ويطلب بها الأجر من المسجد الحرام.

وروي أن عبد الله بن سلام قال في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم عند قراءته هذه الآية لأنه وسط الدنيا لا يزيد شيئا ولا ينقص فقال صلى الله عليه وسلم: «صدقت» ثم قال: «ويقال له البيت المقدس والزيتون ولا يقال له الحرم»

اه. والحكمة في إسرائه صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ليحصل له العروج إلى السماء مستويا من غير تعريج لما روي عن كعب أن باب السماء الذي يقال له: مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس قال: وهو أقرب من الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا. وقيل: **الحكمة في ذلك** أن الشام خيرة الله تعالى من أرضه كما في حديث صحيح فهي أفضل الأرض

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٣٣٤/١

(٢) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٦٤١/١

بعد الحرمين وأول إقليم ظهر فيه ملكه صلى الله عليه وسلم.

وروي أن صخرة بيت المقدس من جنة الفردوس. وقيل: **الحكمة في ذلك** لإظهار الحق على من عاند، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعانده سبيلا إلى الإيضاح فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا علموا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن رآها قبل ذلك لما أخبرهم بها حصل التحقق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس في ليلة وإذا صح خبره في ذلك لزم تصديقه في بقية ذلك من خبر المعراج إلى السموات. وقيل: **الحكمة في ذلك** ليجمع الله له صلى الله عليه وسلم بين القبلتين الذي باركنا حوله أي المسجد الأقصى من أرض الشام بركة." (١)

"سورة الشورى

الآية الأولى منها – قوله تعالى: (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩) أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير) (الشورى: ٤٩ – ٥٠)، ثم قال تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم) (الشورى: ٥١)، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آية من هاتين الآيتين فقيل في الأولى: (إنه عليم قدير) وفي الثانية: (إنه علي حكيم) وهل كان يمكن عكس الواقع؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى لما تضمنت الإعلام بانفراده سبحانه بملك السماوات والأرض وقهره جميع (من) فيهن، وأنه الخالق لكل شيء فلا اختيار لمخلوق ولا مشيئة، وكل صادر منه إحسان، فيهب لمن يشاء إناثا، وقدم ذكر الإناث لكراهة العرب إياهن، فأشار بتقديم ذكرهن إلى أن فلعهم وكراهتهم معارضة لما نفذت به مشيئته، ثم قال: (ويهب لمن يشاء الذكور)، وجاء لفظ الذكور معرفا ليشير بما تعطيه الألف واللام من العهدية إلى حالهم من الفضل ودرجة التقدم على الإناث، فكأنه في قوة أن لو قيل: الذين من أمرهم و (من) شأنهم، بتوازن تقديم الإناث وتعريف الذكور، فقدم ذكر الإناث لإرغام العرب، وعرف الذكرو لشرف المنزلة، ثم قال: (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا) أي على التساوي عددا، ثم قال: (ويجعل من يشاء عقيما)، فجعل من هذا كله أن الفعل لا يشركه فيه غيره، يفعل في ذلك كله ما أراده. فلما تضمنت الآية قهر العباد وانفراده سبحانه بالخلق والأمر ناسبها الختام بقوله تعالى: (إنه عليم قدير) أي عليم بوجه **الحكمة في ذلك**، قدير على ما يريده.

ولما قال في الآية بعد: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) (الشورى: ٥١) فأوضحت الآية علي كماله تعالى وتنزيهه عن سمات الحدوث وأن المخصوصين من البشر للسفارة والرسالة إنما خطابه سبحانه لهم بهذه الوجوه المفصحة بتنزيهه عن شبه خليقته، فلا يصلون إلى ما يتقرر عنهم." (٢)

"أو لغير ذلك مما شاءه بهم على فهم علته واستطلاع سببه، بل يفعل بهم ما شاء وأراد من غير حجر ولا منع ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ وجه **الحكمة في ذلك** التي خفيت عنكم، وأشار قوله ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ إلى أنه سيطلع عباده المؤمنين

---

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد نووي الجاوي ٦١٤/١

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ابن الزبير الغرناطي ٤٣٧/٢

- من موجبات حمده ما يمنحهم أو يضاعف لهم من الجزاء أو عظيم الثواب في الآخرة - على ما لم تبلغه عقولهم في الدنيا ولا وفت به أفكارهم ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] ثم أتبع سبحانه ما تقدم من حمده على ما هو أهله ببسط شواهد حكمته وعلمه فقال تعالى ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾ إلى قوله ﴿وهو الرحيم﴾ فبرحمته وغفرانه أنال عباده المؤمنين ما خصهم به وأعطاهم، فله الحمد الذي هو أهله، ثم أتبع هذا بذكر إمهاله من كذب وكفر مع عظيم اجترائهم لتتبين سعة رحمته ومغفرته فقال تعالى ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ إلى قوله: ﴿إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ أي إن في إمهاله سبحانه لهؤلاء بعد عتوهم واستهزائهم في قولهم ﴿لا تأتينا الساعة﴾ وقوله: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد﴾ وإغضائهم عن الاعتبار بما بين أيديهم من السماء والأرض وأمنهم أخذهم من أي الجهات وفي إمهالهم وإدرار أرزاقهم مع عظيم مرتكبهم آيات لمن أناب واعتبر، ثم بسط لعباده المؤمنين من ذكر الآية ونعمه." (١)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٥/٤٤١